تيسير التفسير
(١)

تيسير
تفسير الميزان

تيسير تفسير الميزان للعلامة الطباطبائي
مع الاحتفاظ بكل محتوياته

٤

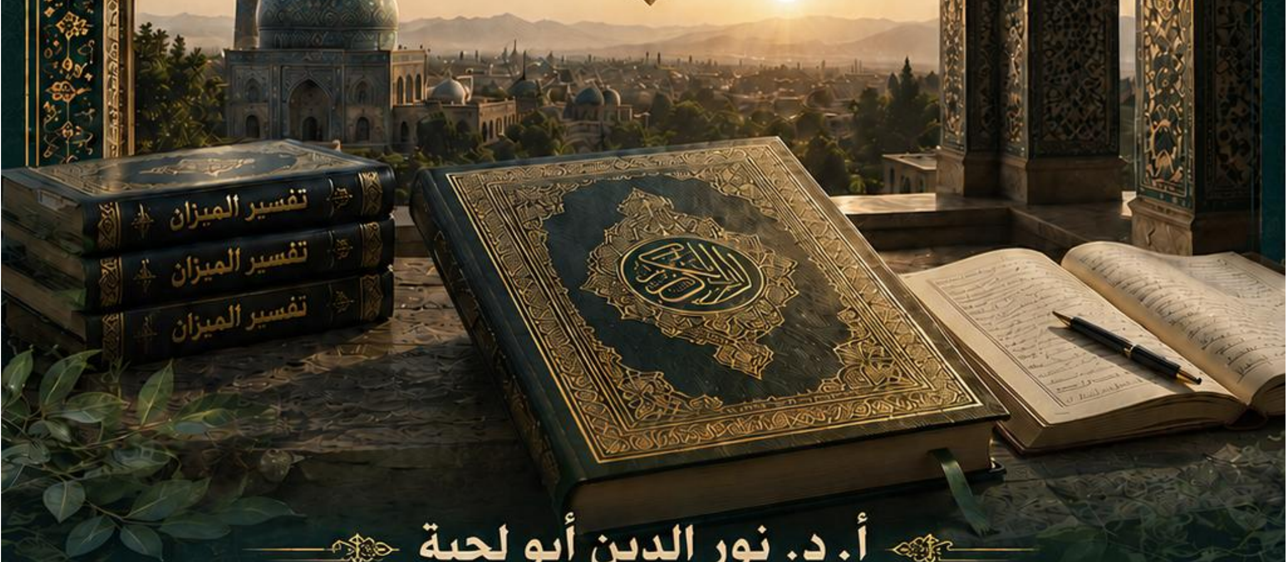

أ. د. نور الدين أبو لحية

دار الأنــوار
للنشر والتوزيع

تيسير التفسير

(١)

تيسير تفسير الميزان

تيسير تفسير الميزان للعلامة الطباطبائي مع الاحتفاظ بكل محتوياته

٤

أ. د. نور الدين أبو لحية

الطبعة الأولى: ١٤٤٨ هـ - ٢٠٢٦ م

دار الأنوار للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات	٧
سورة الفاتحة	٧
مقاصد السورة ومحتوياتها:	٧
مقاطع السورة ونظمها:	٩
١. البسملة:	١١
٢. الحمدلة:	١٤
٣. العبادة والاستعانة:	١٨
٤. الهداية والصراط المستقيم:	٢٢
سورة البقرة	٢٩
مقاصد السورة ومحتوياتها:	٢٩
مقاطع السورة ونظمها:	٢٩
١. ألم.، والحروف المقطعة:	٤٣
٢. الكتاب هدى للمتقين وأركان التقوى:	٤٤
٣. ختم الله على قلوب الكافرين وعذابهم العظيم:	٤٩
٤. صفات المنافقين وخداعهم لأنفسهم:	٥٠
٥. مثل المنافقين:	٥١
٦. دعوة الناس لعبادة الخالق والتوحيد الخالص:	٥٢
٧. تحدي القرآن وعجز البشر عن الإتيان بمثله:	٥٣
٨. بشارة المؤمنين بالجنة ونعيمها الدائم:	٥٦
٩. ضرب الأمثال الإلهية وموقف المؤمنين والكافرين منها:	٥٦
١٠. إحياء الله للإنسان وتدبير الخلق في السماوات والأرض:	٦١
١١. استخلاف الله للإنسان في الأرض وحكمة اختياره:	٦٤
١٢. تعليم الله آدم الأسماء وإظهار فضله:	٦٧
١٣. سجود الملائكة لآدم واستكبار إبليس وطرده:	٧١
١٤. إسكان آدم الجنة ونهيه عن الشجرة:	٧٤
١٥. وسوسة الشيطان وإخراج آدم وزوجه من الجنة:	٧٦

١٦. تلقي آدم كلمات من ربه ووعد الله بالهداية للمتبعين لهداه: ٧٨
١٧. تذكير بني إسرائيل بالنعم ودعوتهم للوفاء بعهد الله: ٨٣
١٨. النهي عن خلط الحق بالباطل أوكتمانه والأمر بالصلاة والزكاة: ٨٤
١٩. الأمر بالمعروف والعمل به والاستعانة بالصبر والصلاة: ٨٤
٢٠. تذكير بني إسرائيل بنعم الله عليهم ودعوتهم للتقوى: ٨٦
٢١. موسى ومصادر الهداية وعناد قومه: ٩١
٢٢. دخول القرية مع التواضع والاستغفار وعقوبة المبدلين: ٩٣
٢٣. استسقاء موسى لقومه وانفجار اثنتي عشرة عيناً: ٩٤
٢٤. تذمر بني إسرائيل من المن والسلوى واستبدالهم الأدنى بالأعلى: ٩٥
٢٥. الأجر والنجاة لمن آمن بالله واليوم الآخر من أي أمة: ٩٦
٢٦. أخذ الميثاق ورفع الطور فوق بني إسرائيل وتولي أكثرهم: ٩٧
٢٧. عقوبة اعتداء أصحاب السبت ومسخهم قردة خاسئين: ٩٩
٢٨. قصة البقرة وتكلف وتعنت بني إسرائيل: ٩٩
٢٩. قسوة قلوب بني إسرائيل بعد المعجزات: ١٠٥
٣٠. تحريف بني إسرائيل لكلام الله وكتمانهم العلم: ١٠٦
٣١. أماني الأميين وكتابتهم للكتاب بأيديهم: ١٠٨
٣٢. ميثاق بني إسرائيل في العبادة وحقوق الناس وإعراضهم: ١٠٩
٣٣. نقض ميثاق حرمة الدماء والديار مع فداء الأسرى: ١١١
٣٤. تكبر بني إسرائيل على الرسل وتكذيبهم وقتلهم: ١١٢
٣٥. جحود بني إسرائيل للرسول الخاتم مع علمهم بنبوته: ١١٣
٣٦. إيمان بني إسرائيل بما معهم وكفرهم بما وراءه رغم تصديقه: ١١٦
٣٧. اتخاذ بني إسرائيل العجل ونقض الميثاق: ١١٧
٣٨. ادعاء النجاة في الآخرة وكذبهم في ذلك وحرصهم على الحياة: ١١٧
٣٩. عداوة جبريل عداوة لله وكفر بالرسالة: ١١٩
٤٠. إنزال الآيات البينات ونبذ الفاسقين لها وللعهود: ١٢٢
٤١. اتباع السحر والشياطين وما أنزل على هاروت وماروت: ١٢٢
٤٢. النهي عن التلفظ بما يؤذي الرسول وحسد الكفار: ١٣٢
٤٣. النسخ الإلهي للآيات وإحلال خير منها أو مثلها: ١٣٤

٤٤. حسد أهل الكتاب والأمر بالعفو والصفح: ١٤٠
٤٥. ادعاء كل فريق الجنة لنفسه ورد الله عليهم: ١٤١
٤٦. منع المساجد والسعي في خرابها أعظم الظلم: ١٤١
٤٧. لله المشرق والمغرب وهو الواحد البديع: ١٤٢
٤٨. اقتراح الجاهلين الآيات ورغبتهم في آية خاصة: ١٤٦
٤٩. تعنت اليهود والنصارى وعدم رضاهم عن المؤمنين: ١٤٧
٥٠. حق تلاوة الكتاب والإيمان به والخسران لمن كفر: ١٤٨
٥١. تذكير بني إسرائيل بالنعم وبيوم لا تنفع فيه شفاعة ولا عدل: ١٤٩
٥٢. ابتلاء إبراهيم بالكلمات وإمامته الناس وعهد الله للصالحين: ١٤٩
٥٣. جعل البيت مثابة وأمناً ومقام إبراهيم مصلى وتطهير البيت: ١٥٣
٥٤. دعاء إبراهيم لمكة بالأمن والرزق: ١٥٤
٥٥. رفع إبراهيم وإسماعيل القواعد من البيت ودعاؤهما: ١٥٥
٥٦. ملة إبراهيم الإسلام، ورغبة من سفه نفسه عنها: ١٥٩
٥٧. وصية إبراهيم ويعقوب لأبنائهما بالإسلام: ١٦٣
٥٨. الدعوة إلى ملة إبراهيم الحنيف والإيمان بجميع الرسل: ١٦٦
٥٩. المحاجة في الله وادعاء اليهودية والنصرانية للأنبياء: ١٧٠
٦٠. تحويل القبلة واختبار الإيمان وجعل الأمة وسطاً: ١٧١
٦١. توجيه القبلة إلى المسجد الحرام وإبطال اتباع الأهواء: ١٧٩
٦٢. لكل أمة وجهة والدعوة إلى استباق الخيرات: ١٨٣
٦٣. بعثة الرسول لتزكية المؤمنين وتعليمهم الكتاب والحكمة: ١٨٥
٦٤. الاستعانة بالصبر والصلاة وبشارة الصابرين: ١٨٩
٦٥. الصفا والمروة من شعائر الله: ١٩٩
٦٦. لعنة الله والملائكة والناس على كاتمي البينات: ٢٠٢
٦٧. لعن الكافرين المصرين على الكفر حتى الموت: ٢٠٥
٦٨. وحدانية الله وآياته في الكون داعية للعقل والإيمان: ٢٠٦
٦٩. التبعية العمياء للآلهة الباطلة وندامتهم يوم القيامة: ٢٠٨
٧٠. الأكل من الحلال الطيب واجتناب خطوات الشيطان: ٢١٤
٧١. اتباع الآباء دون بصيرة كمثل المنعوق به: ٢١٧

٧٢. إباحة الطيبات وتحريم الخبائث والترخيص للمضطر:	٢١٩
٧٣. عقوبة كتمان الكتاب وشراؤه بثمن قليل:	٢٢١
٧٤. البر الحقيقي في الإيمان والعمل الصالح لا في التوجهات الشكلية:	٢٢٢
٧٥. القصاص حياة للناس وتخفيف ورحمة من الله:	٢٢٦
٧٦. الوصية للوالدين والأقربين والتحذير من التبديل:	٢٣٠
٧٧. فرض الصيام وبيان أحكامه ورخصه وفضل شهر رمضان:	٢٣٢
٧٨. قرب الله من عباده وإجابته لدعوة الداعين:	٢٤٩
٧٩. إباحة مباشرة النساء ليلة الصيام وحرمة الاعتكاف:	٢٥١
٨٠. النهي عن أكل الأموال بالباطل وإدلائها إلى الحكام:	٢٥٧
٨١. الأهلة مواقيت للحج وليس البر بإتيان البيوت من ظهورها:	٢٦٠
٨٢. الجهاد في سبيل الله والرد على المعتدين وإخماد الفتنة:	٢٦٤
٨٣. حرمة الشهر الحرام والدعوة للإنفاق وعدم الإلقاء بالنفس للتهلكة:	٢٦٩
٨٤. إتمام الحج والعمرة وأحكام الإحصار والتمتع والفدية:	٢٧٢
٨٥. الحج أشهر معلومات وآدابه وذكر الله عند المشعر الحرام:	٢٧٨
٨٦. الدعاء بعد المناسك بين طالب الدنيا وطالب الآخرة:	٢٨١
٨٧. ذكر الله في أيام التشريق وتعجيل النفرة أو تأخيرها:	٢٨٣
٨٨. صفة المنافق المفسد وصفة المؤمن المضحي بنفسه:	٢٨٥
٨٩. الدخول في الإسلام كاملاً واجتناب خطوات الشيطان:	٢٨٩
٩٠. سؤال بني إسرائيل عن الآيات وتبديلهم نعمة الله:	٢٩٢
٩١. بعثة الأنبياء بالكتاب وسبب اختلاف الناس فيه:	٢٩٣
٩٢. الابتلاء ضروري لدخول الجنة وتحقق نصر الله:	٢٩٨
٩٣. مصارف الإنفاق في سبيل الله وأهلها:	٣٠٠
٩٤. فرض القتال رغم كرهه والفتنة أكبر من القتل:	٣٠٣
٩٥. رجاء رحمة الله للمؤمنين المهاجرين المجاهدين:	٣١٠
٩٦. تحريم الخمر والميسر وتحديد العفو في الإنفاق:	٣١١
٩٧. اليتامى وإصلاح شؤونهم ومخالطتهم بالمعروف:	٣١٤
٩٨. ضوابط الزواج بين المسلمين والمشركين وأولوية الإيمان:	٣١٦
٩٩. الحيض وطهارة المرأة ومباشرتها:	٣٢٠

١٠٠. النهي عن جعل الله عرضة للأيمان وعفو الله عن اللغو فيها:	٣٣٢
١٠١. الإيلاء وأحكامه:	٣٣٦
١٠٢. عدة المطلقة وحق الزوج في الرجعة:	٣٣٧
١٠٣. الطلاق مرتان ثم إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان:	٣٤٢
١٠٤. الطلاق البائن وحكم الرجوع للزوجة:	٣٤٨
١٠٥. إمساك المطلقة بمعروف أو تسريحها والنهي عن الضرار:	٣٤٩
١٠٦. النهي عن عضل المطلقات عن الزواج إذا تراضوا بالمعروف:	٣٥١
١٠٧. إرضاع الحولين وحقوق المرضعة والوالد:	٣٥٣
١٠٨. عدة المتوفى عنها زوجها:	٣٥٧
١٠٩. متعة المطلقة قبل المساس أو بعد الفريضة:	٣٦٠
١١٠. المحافظة على الصلوات والصلاة الوسطى والقنوت لله:	٣٦٢
١١١. صلاة الخوف وذكر الله في الأمن:	٣٦٤
١١٢. وصية المتوفى لزوجته ومتعة المطلقة بالمعروف:	٣٦٥
١١٣. قصة الذين خرجوا من ديارهم حذر الموت فأحياهم الله:	٣٦٧
١١٤. الأمر بالقتال في سبيل الله والحث على القرض الحسن:	٣٧٠
١١٥. طلب بني إسرائيل ملكاً للقتال واختيار طالوت:	٣٧٢
١١٦. اختبار طالوت للجنود بالنهر وهزيمة جالوت:	٣٧٩
١١٧. دفع الله الناس بعضهم ببعض سبب صلاح الأرض:	٣٨٢
١١٨. تفضيل الله بعض الرسل على بعض واختلاف الأتباع:	٣٨٦
١١٩. الإسراع بالإنفاق قبل اليوم الذي لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة:	٣٩٥
١٢٠. آية الكرسي وتوحيد الله وقيوميته وعظمته:	٣٩٥
١٢١. لا إكراه في الدين بعد تبين الرشد من الغي:	٤٠٥
١٢٢. ولاية الله للمؤمنين وولاية الطاغوت للكافرين:	٤٠٨
١٢٣. محاجة إبراهيم للملك الذي ادعى الربوبية:	٤١٠
١٢٤. إماتة الله وإحياؤه لمن مر على القرية الخاوية:	٤١٨
١٢٥. سؤال إبراهيم ربه كيف يحيي الموتى ليطمئن قلبه:	٤٢٦
١٢٦. مثل المنفقين في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل:	٤٣٩
١٢٧. القول المعروف والمغفرة خير من صدقة يتبعها أذى:	٤٤٤

١٢٨. مثل المنفقين ابتغاء مرضات الله كجنة بربوة: ٤٤٦
١٢٩. مثل المرائي المنفق: ٤٤٨
١٣٠. الإنفاق من طيبات الكسب: ٤٥٠
١٣١. الشيطان يعد الفقر والله يعد المغفرة والفضل: ٤٥١
١٣٢. الإنفاق سراً وعلانية وتكفير السيئات: ٤٥٥
١٣٣. هداية الناس ليست على الرسول والإنفاق لله: ٤٥٧
١٣٤. صفات الفقراء المتعففين المستحقين للصدقات: ٤٥٩
١٣٥. جزاء الإنفاق المستمر سراً وعلانية: ٤٦٠
١٣٦. تحريم الربا ووعيد آكليه وعقوبة المعاودة: ٤٦٢
١٣٧. محق الربا وربو الصدقات وجزاء المؤمنين الصالحين: ٤٦٩
١٣٨. النهي عن الربا وإعلان الحرب من الله ورسوله على المرابين: ٤٧١
١٣٩. النظرة للمعسر والتصدق عليه والدعوة للتقوى: ٤٧٣
١٤٠. كتابة الدين بالعدل وإملاء المدين بالحق: ٤٧٥
١٤١. الإشهاد على الدين وعدالة الشهود: ٤٧٦
١٤٢. الرهن في السفر وعدم كتمان الشهادة: ٤٧٧
١٤٣. لله ما في السماوات والأرض والمحاسبة على ما في الصدور: ٤٧٧
١٤٤. إيمان الرسول والمؤمنين بجميع الرسل والتسليم لله: ٤٨١
١٤٥. التكليف بالوسع ودعاء المؤمنين: ٤٨٣
سورة آل عمران ٤٨٧
مقاصد السورة ومحتوياتها: ٤٨٧
مقاطع السورة ونظمها: ٤٨٨
١. الله الحي القيوم وإنزال الكتب والهداية: ٤٩٨
٢. علم الله المحيط وتصويره في الأرحام: ٥٠٣
٣. المحكم أم الكتاب والمتشابه ابتلاء للزائغين: ٥٠٥
٤. دعاء الراسخين وثباتهم على الهدى: ٥١٣
٥. عدم إغناء الأموال والأولاد عن الكفار يوم القيامة: ٥١٦
٦. وعد الله بالتغلب على الكافرين ودعوتهم للاعتبار بيوم بدر: ٥١٨
٧. زينة الدنيا ومتاعها الفاني وحسن المآب عند الله: ٥٢٢

٨. الجنة والرضوان للمتقين وصفاتهم الخيرة: ٥٢٥
٩. شهادة الله والملائكة وأولي العلم بالتوحيد والقسط: ٥٢٩
١٠. الدين الحق عند الله الإسلام واختلاف أهل الكتاب: ٥٣٣
١١. الدعوة إلى التسليم لله والبلاغ المبين: ٥٣٦
١٢. وعيد قتلة الأنبياء والآمرين بالقسط وحبوط أعمالهم: ٥٣٨
١٣. إعراض أهل الكتاب عن حكم الله واغترارهم بالأماني: ٥٣٩
١٤. ملك الله المطلق وتدبيره للكون والعز والذل: ٥٤١
١٥. النهي عن موالاة الكافرين إلا لضرورة التقية بشروطها: ٥٥٣
١٦. علم الله بكل عمل وتسجيله والمحاسبة عليه: ٥٥٨
١٧. محبة الله مشروطة باتباع الرسول والطاعة له: ٥٦٠
١٨. اصطفاء الله لآدم ونوح وآل إبراهيم وآل عمران: ٥٦٥
١٩. نذر امرأة عمران وتقبل الله لمريم: ٥٦٩
٢٠. كفالة زكريا لمريم ورزقها من عند الله: ٥٧٤
٢١. دعاء زكريا واستجابة الله له بيحيى: ٥٧٦
٢٢. استعجال زكريا وطلب الآية على البشارة: ٥٨٠
٢٣. اصطفاء مريم وطهارتها وأمرها بالقنوت: ٥٨٤
٢٤. غيب كفالة مريم وما كان النبي شاهداً عليه: ٥٩٠
٢٥. بشارة الملائكة لمريم بالمسيح عيسى ابن مريم: ٥٩٢
٢٦. تعليم عيسى الكتاب والحكمة وإبراؤه المرضى وإحياؤه الموتى: ٥٩٨
٢٧. تصديق عيسى للتوراة وتحليل بعض المحرمات ودعوته للتقوى: ٦٠٢
٢٨. استجابة الحواريين لطلب النصرة: ٦٠٣
٢٩. رفع عيسى وتطهيره من الكافرين وحكم الله بينهم: ٦٠٨
٣٠. مثل عيسى عند الله كمثل آدم والنهي عن المراء: ٦١٤
٣١. المباهلة مع من يجادل في عيسى بعد العلم: ٦١٦
٣٢. الدعوة إلى كلمة سواء بين أهل الكتاب والمؤمنين: ٦٢٢
٣٣. محاجة أهل الكتاب في إبراهيم وملته الحنيفية: ٦٢٨
٣٤. أهل الكتاب وإضلالهم لأنفسهم وكتمانهم الحق: ٦٣٥
٣٥. مكر أهل الكتاب بالإيمان ثم الكفر وادعاء اختصاص الفضل: ٦٣٨

٣٦. تفاوت أهل الكتاب في الأمانة وادعاؤهم عدم المؤاخذة في حق الأميين: ٦٤٢
٣٧. عقوبة الذين يشترون بعهد الله ثمناً قليلاً: ٦٤٦
٣٨. تحريف أهل الكتاب للكتاب ونسبتهم الكذب إلى الله: ٦٤٨
٣٩. دعوة الربانيين إلى تعليم الكتاب لا إلى عبادة البشر: ٦٤٩
٤٠. ميثاق الله على الأنبياء بالإيمان والتصديق بجميع الرسل:أأأ ٦٥٥
٤١. الإسلام دين الله الواحد وإيمان المؤمنين بجميع الكتب والرسل: ٦٥٩
٤٢. عاقبة الكفر بعد الإيمان والبينات ولعن الكافرين المصرين: ٦٦٢
٤٣. عدم قبول توبة من ازداد كفراً وعدم قبول الفداء منهم: ٦٦٤
٤٤. البر الحقيقي والإنفاق من أحب المال إلى النفس: ٦٦٥
٤٥. كشف افتراء بني إسرائيل بتحريم ما كان حلالاً: ٦٦٦
٤٦. اتباع ملة إبراهيم الحنيفية دين التوحيد الخالص: ٦٧٠
٤٧. البيت الحرام ومقام إبراهيم: ٦٧٠
٤٨. وجوب الحج على المستطيع: ٦٧٨

سورة الفاتحة

هذه السورة الكريمة تحتوي على [٤] مقاطع، وهذا تعريف بمقاصدها، ومحتويات مقاطعها:

مقاصد السورة ومحتوياتها:

أ. السورة كلام له سبحانه بالنيابة عن عبده فيما يذكره في مقام العبادة وإظهار العبودية من الثناء لربه وإظهار عبادته، فهي سورة موضوعة للعبادة، وليس في القرآن سورة تناظرها في شأنها، وأعني بذلك:

• أولاً: أن السورة بتمامها كلام تكلم به الله سبحانه في مقام النيابة عن عبده فيما يقوله إذا وجه وجهه إلى مقام الربوبية، ونصب نفسه في مقام العبودية.

• ثانياً: أنها مقسمة قسمين، فنصف منها لله ونصف منها للعبد.

• ثالثاً: أنها مشتملة على جميع المعارف القرآنية على إيجازها واختصارها؛ فإن القرآن على سعته العجيبة في معارفه الأصلية وما يتفرع عليها من الفروع من أخلاق وأحكام في العبادات والمعاملات والسياسات والاجتماعيات، ووعد ووعيد وقصص وعبر، يرجع جملة بياناتها إلى التوحيد والنبوة والمعاد وفروعها، وإلى هداية العباد إلى ما يصلح به أولاهم وعقباهم، وهذه السورة كما هو واضح تشتمل على جميعها في أوجز لفظ وأوضح معنى.

ب. وعليك أن تقيس ما يتجلى لك من جمال هذه السورة التي وضعها الله سبحانه في صلاة المسلمين، بما يضعه النصارى في صلاتهم من الكلام الموجود في إنجيل متى، وهو ما نذكره بلفظه العربي: (أبانا الذي في السموات، ليتقدس اسمك، ليأت ملكوتك، لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض، خبزنا كفافنا أعطنا اليوم، واغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضاً للمذنبين إلينا، ولا تدخلنا في تجربة، ولكن نجّنا من الشرير، آمين)، تأمل في المعاني التي تفيدها ألفاظ هذه الجمل بعنوان أنها معارف سماوية، وما يشتمل عليه من الأدب العبودي؛ إنها تذكر:

• أولاً أن أبا هم (وهو الله تقدس اسمفي السموات! ثم تدعو في حق الأب بتقدس اسمه، وإتيان ملكوته، ونفوذ مشيئته في الأرض كما هي نافذة في السماء، ولكن من الذي يستجيب هذا الدعاء الذي هو بشعارات الأحزاب السياسية أشبه؟

• ثم تسأل الله إعطاء خبز اليوم، ومقابلة المغفرة بالمغفرة، وجعل الإغماض عن الحق في مقابل الإغماض، وماذا هو حقهم لو لم يجعل الله لهم حقاً؟

• وتسأله أن لا يمتحنهم بل ينجيهم من الشرير، ومن المحال ذلك؛ فالدار دار الامتحان والاستكمال، وما معنى النجاة لولا الابتلاء والامتحان؟

• ثم أقضى العجب مما ذكره بعض المستشرقين من علماء الغرب وتبعه بعض المنتحلين: أن الإسلام لا يربو على غيره في المعارف، فإن جميع شرائع الله تدعو إلى التوحيد وتصفية النفوس بالخلق الفاضل والعمل الصالح، وإنما تتفاضل الأديان في عراقة ثمراتها الاجتماعية!

ج. أحاديث وآثار: في العيون عن الرضا عليه السلام عن آبائه عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: قال الله عز وجل: قسمت فاتحة الكتاب بيني وبين عبدي، فنصفها لي ونصفها لعبدي، ولعبدي ما سأل، إذا قال العبد: ﴿بِسْمِ اللهِّ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، قال الله جل جلاله: بدأ عبدي باسمي، وحق علي أن أتمم له أموره، وأبارك له في أحواله، فإذا قال: ﴿الْحَمْدُ للهِّ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، قال الله جل جلاله: حمدني عبدي، وعلم أن النعم التي له من عندي، وأن البلايا التي دفعت عنه بتطولي، أشهدكم أني أضيف له إلى نعم الدنيا نعم الآخرة، وأدفع عنه بلايا الآخرة كما دفعت عنه بلايا الدنيا، وإذا قال: ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، قال الله جل جلاله: شهد لي عبدي أني الرحمن الرحيم، أشهدكم لأوفرن من رحمتي حظه، ولأجزلن من عطائي نصيبه، فإذا قال: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، قال الله تعالى: أشهدكم كما اعترف بأني أنا المالك يوم الدين، لأسهلن يوم الحساب حسابه، ولأقبلن حسناته، ولأتجاوزن عن سيئاته، فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، قال الله عز وجل: صدق عبدي، إياي يعبد، أشهدكم لأثيبنه على عبادته ثواباً يغبطه كل من خالفه في عبادته لي، فإذا قال: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، قال الله تعالى: بي استعان عبدي، وإلي التجأ، أشهدكم لأعيننه على أمره، ولأغيثنه في شدائده، ولآخذن بيده يوم نوائبه، فإذا قال: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾، قال الله عز وجل: هذا لعبدي، ولعبدي ما سأل، وقد استجبت لعبدي، وأعطيته ما أمّل، وآمنته مما منه وجل.

• أقول: وروى قريباً منه الصدوق في العلل عن الرضا عليه السلام، والرواية كما ترى تُفسر سورة الفاتحة في الصلاة.

مقاطع السورة ونظمها:

١. الآيات [١] ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾:

أ. الناس ربما يعملون عملاً أو يبتدئون في عمل ويقرنونه باسم عزيز من أعزتهم أو كبير من كبرائهم، ليكون عملهم ذاك مباركاً بذلك متشرفاً، أو ليكون ذكرى يذكرهم به.

ب. ومثل ذلك موجود أيضاً في باب التسمية؛ فربما يسمون المولود الجديد من الإنسان، أو شيئاً مما صنعوه أو عملوه كدار بنوها أو مؤسسة أسسوها، باسم من يحبونه أو يعظمونه؛ ليبقى الاسم ببقاء المسمى الجديد، ويبقى المسمى الأول نوع بقاء ببقاء الاسم، كمن يسمى ولده باسم والده ليحيى بذلك ذكره فلا يزول ولا ينسى.

ج. وقد جرى كلامه تعالى هذا المجرى، فابتدأ الكلام باسمه عز إسمه؛ ليكون ما يتضمنه من المعنى معلماً باسمه مرتبطاً به، وليكون أدباً يؤدب به العباد في الأعمال والأفعال والأقوال، فيبتدئوا باسمه ويعملوا به، فيكون ما يعملونه معلماً باسمه، منعوتاً بنعته تعالى، مقصوداً لأجله سبحانه؛ فلا يكون العمل هالكاً باطلاً مبتراً؛ لأنه باسم الله الذي لا سبيل للهلاك والبطلان إليه.

د. وذلك أن الله سبحانه يبين في مواضع من كلامه: أن ما ليس لوجهه الكريم هالك باطل، وأنه سيقدم إلى كل عمل عملوه مما ليس لوجهه الكريم، فيجعله هباءً منثوراً، ويحبط ما صنعوا، ويبطل ما كانوا يعملون، وأنه لا بقاء لشيء إلا وجهه الكريم؛ فما عمل لوجهه الكريم وصُنع باسمه هو الذي يبقى ولا يفنى.

هـ. وكل أمر من الأمور إنما نصيبه من البقاء بقدر ما لله فيه نصيب، وهذا هو الذي يفيده ما رواه الفريقان عن النبي ﷺ إنه قال: (كل أمر ذي بال لم يبدأ فيه باسم الله فهو أبتر)، والأبتر هو المنقطع الآخر.

و. فالأنسب أن متعلق الباء في البسملة هو الابتداء بالمعنى الذي ذكرناه؛ فقد ابتدئ بها الكلام بما أنه فعل من الأفعال، فلا محالة له وحدة، ووحدة الكلام بوحدة مدلوله ومعناه، فلا محالة له معنى ذو وحدة، وهو المعنى المقصود إفهامه من إلقاء الكلام، والغرض المحصل منه.

ز. وقد ذكر الله سبحانه الغرض المحصل من كلامه الذي هو جملة القرآن، إذ قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللهُ﴾ [المائدة: ١٦]، إلى غير ذلك من الآيات التي أفاد فيها أن

الغاية من كتابه وكلامه هداية العباد، فالهداية جملة هي المبتدئة باسم الله الرحمن الرحيم؛ فهو الله الذي إليه مرجع العباد، وهو الرحمن يبين لعباده سبيل رحمته العامة للمؤمن والكافر، مما فيه خيرهم في وجودهم وحياتهم، وهو الرحيم يبين لهم سبيل رحمته الخاصة بالمؤمنين، وهو سعادة آخرتهم ولقاء ربهم، وقد قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، فهذا بالنسبة إلى جملة القرآن.

ح. ثم إنه سبحانه كرّر ذكر السورة في كلامه كثيراً، كقوله تعالى: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ [يونس: ٣٨]، وقوله: ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ [هود: ١٣]، وقوله تعالى: ﴿إِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ [التوبة: ٨٦]، وقوله: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا﴾ [النور: ١]، فبان لنا من ذلك أن لكل طائفة من هذه الطوائف من كلامه (التي فصَّلها قطعاً قطعاً، وسمى كل قطعة سورة) نوعاً من وحدة التأليف والتمام، لا يوجد بين أبعاض من سورة ولا بين سورة وسورة، ومن هنا نعلم أن الأغراض والمقاصد المحصلة من السور مختلفة، وأن كل واحدة منها مسوقة لبيان معنى خاص ولغرض محصل لا تتم السورة إلا بتمامه، وعلى هذا فالبسملة في مبتدأ كل سورة راجعة إلى الغرض الخاص من تلك السورة.

ط. فالبسملة في سورة الحمد راجعة إلى غرض السورة والمعنى المحصل منه، والغرض الذي يدل عليه سرد الكلام في هذه السورة هو حمد الله بإظهار العبودية له سبحانه بالإفصاح عن العبادة والاستعانة وسؤال الهداية؛ فهو كلام يتكلم به الله سبحانه نيابة عن العبد، ليكون متأدباً في مقام إظهار العبودية بما أدبه الله به.

ي. وإظهار العبودية من العبد هو العمل الذي يتلبس به العبد، والأمر ذو البال الذي يقدم عليه؛ فالابتداء باسم الله سبحانه الرحمن الرحيم راجع إليه، فالمعنى: باسمك أظهر لك العبودية.

٢. الآيات [٢ ـ ٤] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تثبت لله تعالى الحمد الكامل، وربانيته على جميع الموجودات، وتصفه بالرحمة الواسعة في الدنيا والخاصة في الآخرة، وتفرده بملكية يوم الجزاء والحساب.

٣. الآيات [٥] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تدعو إلى العبودية لله وحده وتفرد طلب العون منه دون سواه.

٤. الآيات [٦ ـ ٧] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي دعاء بطلب الهداية إلى الصراط المستقيم، وهو

طريق المنعم عليهم من الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، وتسأل السلامة من طريق المغضوب عليهم وهم العالمون الجاحدون، وطريق الضالين وهم الجاهلون المخطئون.

١. البسملة:

المقطع [١] من سورة الفاتحة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١/ ٢٠»:

١. ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾:

أ. متعلق الباء في بسملة الحمد هو الابتداء، ويراد به تتميم الإخلاص في مقام العبودية بالتخاطوربما يقال إنه الاستعانة، ولا بأس به، ولكن الابتداء أنسب لاشتمال السورة على الاستعانة صريحاً في قوله تعالى: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

ب. وأما الاسم، فهو اللفظ الدال على المسمى، مشتق من السمة بمعنى العلامة، أو من السمو بمعنى الرفعوكيف كان، فالذي يعرفه منه اللغة والعرف هو اللفظ الدال، ويستلزم ذلك أن يكون غير المسموأما الاسم بمعنى الذات مأخوذاً بوصف من أوصافه، فهو من الأعيان لا من الألفاظ، وهو مسمى الاسم بالمعنى الأول؛ كما أن لفظ (العالم) من أسماء الله تعالى اسم يدل على مسماه، وهو الذات مأخوذة بوصف العلم، وهو بعينه اسم بالنسبة إلى الذات الذي لا خبر عنه إلا بوصف من أوصافه ونعت من نعوتوالسبب في ذلك أنهم وجدوا لفظ الاسم موضوعاً للدال على المسمى من الألفاظ، ثم وجدوا أن الأوصاف المأخوذة على وجه تحكي عن الذات وتدل عليه حالها حال اللفظ المسمى بالاسم في أنها تدل على ذوات خارجية، فسموا هذه الأوصاف الدالة على الذوات أيضاً أسماء؛ فأنتج ذلك أن الاسم كما يكون أمراً لفظياً، كذلك يكون أمراً عينياًثم وجدوا أن الدال على الذات القريب منه هو الاسم بالمعنى الثاني المأخوذ بالتحليل، وأن الاسم بالمعنى الأول إنما يدل على الذات بواسطته؛ ولذلك سموا الذي بالمعنى الثاني اسماً، والذي بالمعنى الأول اسم الاسهذا، ولكن هذا كله أمر أدى إليه التحليل النظري، ولا ينبغي أن يحمل على اللغة؛ فالاسم بحسب اللغة ما ذكرنا.

ج. وقد شاع النزاع بين المتكلمين في الصدر الأول من الإسلام في أن الاسم عين المسمى أو غيره، وطالت المشاجرات فيولكن هذا النوع من المسائل قد اتضحت اليوم اتضاحاً يبلغ إلى حد الضرورة، ولا

يجوز الاشتغال بها بذكر ما قيل وما يقال فيها، والعناية بإبطال ما هو الباطل وإحقاق ما هو الحق فيها؛ فالصفح عن ذلك أولى.

٢. ﴿اللَّهِ﴾:

أ. وأما لفظ الجلالة، فالله أصله الإله، حذفت الهمزة لكثرة الاستعمال، وإله من أله الرجل يأله بمعنى عبد، أو من أله الرجل أو وله الرجل أي تحير؛ فهو فعال بكسر الفاء بمعنى المفعول، ككتاب بمعنى المكتوب، سمي إلهاً لأنه معبود، أو لأنه مما تحيرت في ذاته العقول، والظاهر أنه علم بالغلبة، وقد كان مستعملاً داراً في الألسن قبل نزول القرآن، يعرفه العرب الجاهلي، كما يشعر به قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقوله تعالى: ﴿فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٦]

ب. ومما يدل على كونه علماً أنه يوصف بجميع الأسماء الحسنى وسائر أفعاله المأخوذة من تلك الأسماء من غير عكس، فيُقال: الله الرحمن الرحيم، ويقال: رحم الله، وعلم الله، ورزق الله، ولا يقع لفظ الجلالة صفة لشيء منها، ولا يؤخذ منه ما يوصف به شيء منها.

ج. ولما كان وجوده سبحانه، وهو إله كل شيء، يهدي إلى اتصافه بجميع الصفات الكمالية، كانت الجميع مدلولاً عليها به بالالتزام، وصح ما قيل: إن لفظ الجلالة اسم للذات الواجب الوجود المستجمع لجميع صفات الكمال، وإلا فهو علم بالغلبة لم تعمل فيه عناية غير ما يدل عليه مادة إله.

٣. ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾:

أ. وأما الوصفان: الرحمن الرحيم، فهما من الرحمة، وهي وصف انفعالي وتأثر خاص يلم بالقلب عند مشاهدة من يفقد أو يحتاج إلى ما يتم به أمره، فيبعث الإنسان إلى تتميم نقصه ورفع حاجته، إلا أن هذا المعنى يرجع بحسب التحليل إلى الإعطاء والإفاضة لرفع الحاجة، وبهذا المعنى يُتصف سبحانه بالرحمة.

ب. والرحمن: فعلان صيغة مبالغة تدل على الكثرة، والرحيم: فعيل صفة مشبهة تدل على الثبات والبقاء، ولذلك ناسب الرحمن أن يدل على الرحمة الكثيرة المفاضة على المؤمن والكافر، وهي الرحمة العامة، وعلى هذا المعنى يستعمل كثيراً في القرآن، قال تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، وقال: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ [مريم: ٧٥]، إلى غير ذلك.

ج. ولذلك أيضاً ناسب الرحيم أن يدل على النعمة الدائمة والرحمة الثابتة الباقية التي تُفاض على المؤمن، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧]، إلى غير ذلك، ولذلك قيل: إن الرحمن عام للمؤمن والكافر، والرحيم خاص بالمؤمن.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في العيون والمعاني عن الرضا عليه السلام في معنى قوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾، قال عليه السلام: يعني أسِمُ نفسي بسمة من سمات الله، وهي العبادة، قيل له: ما السمة؟ قال: العلامة.

• أقول: وهذا المعنى كالمتولد من المعنى الذي أشرنا إليه في كون الباء للابتداء؛ فإن العبد إذا وسم عبادته باسم الله، لزم ذلك أن يسم نفسه التي ينسب العبادة إليها بسمة من سماته.

ب. وفي التهذيب عن الصادق عليه السلام، وفي العيون وتفسير العياشي عن الرضا عليه السلام: أنها أقرب إلى اسم الله الأعظم من ناظر العين إلى بياضها.

• أقول: وسيجيء معنى الرواية في الكلام على الاسم الأعظم.

ج. وفي العيون عن أمير المؤمنين عليه السلام: أنها من الفاتحة، وأن رسول الله ﷺ كان يقرئها ويعدّها آية منها، ويقول: (فاتحة الكتاب هي السبع المثاني)

• أقول: وروي من طرق أهل السنة والجماعة نظير هذا المعنى، فعن الدارقطني عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا قرأتم الحمد فاقرأوا ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، فإنها أمّ القرآن والسبع المثاني، و﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ إحدى آياتها)

د. وفي الخصال عن الصادق عليه السلام قال: ما لهم؟ قاتلهم الله، عمدوا إلى أعظم آية في كتاب الله فزعموا أنها بدعة إذا أظهروها.

هـ. وعن الباقر عليه السلام: سرقوا أكرم آية في كتاب الله؛ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، وينبغي الإتيان به عند افتتاح كل أمر عظيم أو صغير ليبارك فيه.

• أقول: والروايات عن أئمة أهل البيت في هذا المعنى كثيرة، وهي جميعاً تدل على أن البسملة جزء من كل سورة إلا سورة البراءة، وفي روايات أهل السنة والجماعة ما يدل على ذلك.

و. ففي صحيح مسلم عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: (أنزل عليّ آنفاً سورة فقرأ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ

الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾)

ز. وعن أبي داود عن ابن عباس (وقد صححوا سندها) قال: إن رسول الله ﷺ كان لا يعرف فصل السورة (وفي رواية: انقضاء السورة) حتى ينزل عليه: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

• أقول: وروي هذا المعنى من طرق الخاصة عن الباقر عليه السلام.

ح. وفي الكافي والتوحيد والمعاني وتفسير العياشي عن الصادق عليه السلام في حديث: (والله إله كل شيء، والرحمن بجميع خلقه، والرحيم بالمؤمنين خاصة)

ط. وروي عن الصادق عليه السلام: (الرحمن اسم خاص بصفة عامة، والرحيم اسم عام بصفة خاصة)

• أقول: قد ظهر مما مر وجه عموم الرحمن للمؤمن والكافر، واختصاص الرحيم بالمؤمن، وأما كون الرحمن اسماً خاصاً بصفة عامة، والرحيم اسماً عاماً بصفة خاصة، فكأنه يريد به أن الرحمن خاص بالدنيا ويعم الكافر والمؤمن، والرحيم عام للدنيا والآخرة ويخص المؤمنين.

• وبعبارة أخرى: الرحمن يختص بالإفاضة التكوينية التي يعم فيها المؤمن والكافر، والرحيم يعم التكوين والتشريع الذي بابه باب الهداية والسعادة، ويختص بالمؤمنين؛ لأن الثبات والبقاء يختص بالنعم التي تُفاض عليهم، والعاقبة للتقوى.

٢. الحمدلة:

المقطع [٢] من سورة الفاتحة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٢-٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١/ ٢٠»:

١. ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾:

أ. الحمد على ما قيل: هو الثناء على الجميل الاختياري، والمدح أعم منه؛ يقال: حمدتُ فلاناً أو مدحته لكرمه، ويقال: مدحت اللؤلؤ على صفائه، ولا يقال: حمدته على صفائه، واللام فيه للجنس أو الاستغراق، والمآل ههنا واحد.

ب. وذلك أن الله سبحانه يقول: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [غافر: ٦٢]، فأفاد أن كل ما هو شيء فهو مخلوق لله سبحانه، وقال: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ [السجدة: ٧]، فأثبت الحسن لكل

شيء مخلوق من جهة أنه مخلوق له منسوب إليه؛ فالحسن يدور مدار الخلق وبالعكس، فلا خلق إلا وهو حسن جميل بإحسانه، ولا حسن إلا وهو مخلوق له منسوب إليه.

ج. وقد قال تعالى: ﴿هُوَ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الزمر: ٤]، وقال: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ [طه: ١١١]، فأنبأ أنه لم يخلق ما خلق بقهر قاهر، ولا يفعل ما فعل بإجبار من مجبر، بل خلقه عن علم واختيار؛ فما من شيء إلا وهو فعل جميل اختياري له، فهذا من جهة الفعل، وأما من جهة الاسم، فقد قال تعالى: ﴿اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [طه: ٨]، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ [الأعراف: ١٨٠]؛ فهو تعالى جميل في اسمائه، وجميل في أفعاله، وكل جميل منه.

د. فقد بان أنه تعالى محمود على جميل اسمائه، ومحمود على جميل أفعاله، وأنه ما من حمد يحمده حامد لأمر محمود إلا كان لله سبحانه حقيقة؛ لأن الجميل الذي يتعلق به الحمد منه سبحانه؛ فلله سبحانه جنس الحمد، وله سبحانه كل حمد.

هـ. ثم إن الظاهر من السياق وبقرينة الالتفات الذي في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أن السورة من كلام العبد، وأنه سبحانه في هذه السورة يلقن عبده حمد نفسه، وما ينبغي أن يتأدب به العبد عند نصب نفسه في مقام العبودية، وهو الذي يؤيده قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾

و. وذلك أن الحمد توصيف، وقد نزه سبحانه نفسه عن وصف الواصفين من عباده حيث قال: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الصافات: ١٦٠]، والكلام مطلق غير مقيد، ولم يرد في كلامه تعالى ما يؤذن بحكاية الحمد عن غيره إلا ما حكاه عن عدة من أنبيائه المخلصين، قال تعالى في خطابه لنوح عليه السلام: ﴿فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٨]، وقال تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ [إبراهيم: ٣٩]، وقال تعالى لنبيه محمد ﷺ في بضعة مواضع من كلامه: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [النمل: ٩٣]، وقال تعالى حكاية عن داود وسليمان عليهما السلام: ﴿وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [النمل: ١٥]، وإلا ما حكاه عن أهل الجنة وهم المطهرون من غل الصدور ولغو القول والتأثيم، كقوله: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠]

ز. وأما غير هذه الموارد، فهو تعالى وإن حكى الحمد عن كثير من خلقه بل عن جميعهم، كقوله تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الشورى: ٥]، وقوله: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾ [الرعد: ١٣]، وقوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤]، إلا أنه سبحانه شفع الحمد في جميعها بالتسبيح، بل جعل التسبيح هو الأصل في الحكاية، وجعل الحمد معه؛ وذلك أن غيره تعالى لا يحيط بجمال أفعاله وكمالها، كما لا يحيطون بجمال صفاته وأسمائه التي منها جمال الأفعال، قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]؛ فما وصفوه به فقد أحاطوا به، وصار محدوداً بحدودهم، مقدّراً بقدر نيلهم منه؛ فلا يستقيم ما أثنوا به من ثناء إلا من بعد أن ينزهوه ويسبحوه عن ما حدوه وقدروه بأفهامهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٤]، وأما المخلصون من عباده تعالى، فقد جعل حمدهم حمده، ووصفهم وصفه، حيث جعلهم مخلصين له.

ح. فقد بان أن الذي يقتضيه أدب العبودية أن يحمد العبد ربه بما حمد به نفسه، ولا يتعدى عنه، كما في الحديث الذي رواه الفريقان عن النبي ﷺ: (لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك الحديث)، فقوله في أول هذه السورة: (الحمد لله)، تديب بأدب عبودي ما كان للعبد أن يقوله لولا أن الله تعالى قاله نيابةً وتعليماً لما ينبغي الثناء به.

٢. ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾:

أ. فالرب هو المالك الذي يدبر أمر مملوكه، ففيه معنى الملك، ومعنى الملك (الذي عندنا في ظرف الاجتماع) هو نوع خاص من الاختصاص، وهو نوع قيام شيء بشيء يوجب صحة التصرفات فيه؛ فقولنا: العين الفلانية ملكنا، معناه أن لها نوعاً من القيام والاختصاص بنا يصح معه تصرفاتنا فيها، ولولا ذلك لم تصح تلك التصرفات، وهذا في الاجتماع معنى وضعي اعتباري غير حقيقي، وهو مأخوذ من معنى آخر حقيقي نسميه أيضاً ملكاً، وهو نحو قيام أجزاء وجودنا وقوانا بنا؛ فإنا لنا بصراً وسمعاً ويداً ورجلاً، ومعنى هذا الملك أنها في وجودها قائمة بوجودنا غير مستقلة دوننا، بل مستقلة باستقلالنا، ولنا أن نتصرف فيها كيف شئنا، وهذا هو الملك الحقيقي.

ب. والذي يمكن انتسابه إليه تعالى بحسب الحقيقة هو حقيقة الملك دون الملك الاعتباري الذي يبطل ببطلان الاعتبار والوضع، ومن المعلوم أن الملك الحقيقي لا ينفك عن التدبير؛ فالشيء إذا افتقر في

وجوده إلى شيء فلم يستقل عنه في وجوده، لم يستقل عنه في آثار وجوده؛ فهو تعالى رب لما سواه؛ لأن الرب هو المالك المدبر، وهو تعالى كذلك.

ج. وأما العالمين: فهو جمع العالم بفتح اللام، بمعنى ما يعلم به، كالقالب والخاتم والطابع بمعنى ما يقلب به وما يختم به وما يطبع به، يطلق على جميع الموجودات، وعلى كل نوع مؤلف الأفراد والأجزاء منها، كعالم الجماد وعالم النبات وعالم الحيوان وعالم الإنسان، وعلى كل صنف مجتمع الأفراد أيضاً، كعالم العرب وعالم العجم، وهذا المعنى هو الأنسب لما يؤل إليه عدّ هذه الأسماء الحسنى حتى ينتهي إلى قوله: (مالك يوم الدين)، على أن يكون الدين وهو الجزاء يوم القيامة مختصاً بالإنسان أو الإنس والجن؛ فيكون المراد بالعالمين عوالم الإنس والجن وجماعاتهم، ويؤيده ورود هذا اللفظ بهذه العناية في القرآن، كقوله تعالى: ﴿وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢]، وقوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، وقوله تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠]

٣. ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ قرأ الأكثر: (ملك يوم الدين):

أ. قد عرفت معنى المالك، وهو المأخوذ من الملك بكسر الميم، وأما الملك وهو مأخوذ من الملك بضم الميم، فهو الذي يملك النظام القومي وتدبيرهم دون العين، وبعبارة أخرى: يملك الأمر والحكم فيهم.

ب. وقد ذكر لكل من القراءتين (ملك ومالك) وجوه من التأييد، غير أن المعنيين من السلطنة ثابتان في حقه تعالى، والذي تعرفه اللغة والعرف أن الملك بضم الميم هو المنسوب إلى الزمان، يقال: ملك العصر الفلاني، ولا يقال: مالك العصر الفلاني إلا بعناية بعيدة، وقد قال تعالى: (ملك يوم الدين) فنسبه إلى اليوم، وقال أيضاً: ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]

٤. أحاديث وآثار:

أ. في كشف الغمة عن الصادق عليه السلام قال: فقد لأبي عليه السلام بغلة، فقال: لئن ردها الله عليّ لأحمدنه بمحامد يرضيها، فما لبث أن أتى بها بسرجها ولجامها، فلما استوى وضم إليه ثيابه، رفع رأسه إلى السماء وقال: (الحمد لله)، ولم يزد، ثم قال: ما تركت ولا أبقيت شيئاً، جعلت أنواع المحامد لله عز وجل، فما من حمد إلا وهو داخل فيها.

ب. قلت: وفي العيون عن علي عليه السلام أنه سئل عن تفسيرها، فقال: هو أن الله عرَّف عباده بعض نعمه عليهم جُملًا، إذ لا يقدرون على معرفة جميعها بالتفصيل؛ لأنها أكثر من أن تحصى أو تعرف، فقال: قولوا: (الحمد لله على ما أنعم به علينا)

• أقول: يشير عليه السلام إلى ما مر من أن الحمد من العبد، وإنما ذكره الله بالنيابة تأديباً وتعليماً.

٣. العبادة والاستعانة:

المقطع [٣] من سورة الفاتحة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١/ ٢٥»:

١. ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

أ. العبد هو المملوك من الإنسان أو كلّ ذي شعور بتجريد المعنى، كما يعطيه قوله سبحانه: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ والعبادة مأخوذة منه، وربّما تفرّقت اشتقاقاتها أو المعاني المستعملة هي فيها لاختلاف الموارد، وما ذكره الجوهري في الصحاح أنّ أصل العبوديّة الخضوع فمن باب الأخذ باللازم، إذ الخضوع متعدّ باللام، والعبادة بنفسها، فكأنّ العبادة نصب العبد نفسه في مقام المملوكيّة لربّه، ولذلك كانت العبادة منافية للاستكبار، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ وغير منافية للاشتراك، فمن الجائز أن يشترك أزيد من الواحد في عبادة واحد، كما جاز أن يشتركوا في ملك رقبة، قال سبحانه: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ وقال: ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾

ب. العبوديّة إنّما تستقيم فيما بين العبيد ومواليهم فيما يملكه الموالي منهم، وأمّا ما لا يتعلّق به الملك من شؤون العبد فلا يتعلّق به عبادة ولا عبوديّة لكنّ الله سبحانه إذا نسبنا إليه العبوديّة لم نجد شيئا سواه لا يتعلّق به ملكه كما لا نجد شيئا سواه يشاركه في ملكه، وذلك كما يفيده معاني ما ساقه سبحانه من أسمائه عند الحمد، فليس الملك إلّا له سبحانه فقط، وليس لغيره سبحانه إلّا المملوكيّة فقط بنحو التعاكس في القصر، فالملك مقصور له سبحانه، وغيره مقصور على المملوكيّة.

ج. ثمّ إنّ الملك لا يحجب عن مالكه، فإنّك إذا نظرت إلى الدار المملوكة لزيد، مثلا، فإن نظرت إليها بما أنّها دار أمكنك أن تغفل عن زيد، وإن نظرت إليها بما أنّها ملك زيد لم يمكنك الغفلة عن المالك،

وإذ كان ما سواه سبحانه ليس له إلّا المملوكيّة وكانت هذه حقيقيّة لم يمكن لشيء منها أن يحجب عن ربّه سبحانه ولا النظر إليه والغفلة عنه سبحانه، فله سبحانه الحضور المطلق، قال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾ وفي تحف العقول: عن الصادق عليه السلام في حديث: ومن زعم أنّه يعبد بالصفة لا بالإدراك فقد أحال على غائب، ومن زعم أنّه يضيف الموصوف إلى الصفة فقد صغّر بالكبير وما قدروا الله حقّ قدرالحديث.

د. إذا كان كذلك فحق عبادته تعالى أن يكون عن حضور من الجانبين،أما من جانب الرب عز وجل، فأن يعبد عبادة معبود حاضر وهو الموجب للالتفات المأخوذ في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ عن الغيبة إلى الحضور،وأما من جانب العبد، فأن يكون عبادته عبادة عبد حاضر من غير أن يغيب في عبادته فيكون عبادته صورة فقط من غير معنى وجسدا من غير روح؛ أو يتبعض فيشتغل بربه وبغيره، إما ظاهرا وباطنا كالوثنيين في عبادتهم لله ولأصنامهم معا أو باطنا فقط كمن يشتغل في عبادته بغيره تعالى بنحو الغايات والأغراض؛ كان يعبد الله وهمه في غيره، أو يعبد الله طمعا في جنة أو خوفا من نار فإن ذلك كله من الشرك في العبادة الذي ورد عنه النهي، قال تعالى: ﴿فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾، وقال تعالى: ﴿أَلَا للهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِيمَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾

هـ. العبادة إنما تكون عبادة حقيقة، إذا كان على خلوص من العبد وهو الحضور الذي ذكرناه، وقد ظهر أنه إنما يتم إذا لم يشتغل بغيره تعالى في عمله فيكون قد أعطاه الشركة مع الله سبحانه في عبادته ولم يتعلق قلبه في عبادته رجاء أو خوفا هو الغاية في عبادته كجنة أو نار فيكون عبادته له لا لوجه الله، ولم يشتغل بنفسه فيكون منافيا لمقام العبودية التي لا تلائم الإنية والاستكبار.

و. كان الإتيان بلفظ المتكلم مع الغير للإيماء إلى هذه النكتة فإن فيه هضما للنفس بإلغاء تعينها وشخوصها وحدها المستلزم لنحو من الإنية والاستقلال بخلاف إدخالها في الجماعة وخلطها بسواد الناس فإن فيه إمحاء التعين وإعفاء الأثر فيؤمن به ذلك.

٢. ظهر من ذلك كله:

أ. أن إظهار العبودية بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾؛ لا يشتمل على نقص من حيث المعنى ومن حيث

الإخلاص إلا ما في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ من نسبة العبد العبادة إلى نفسه المشتمل بالاستلزام على دعوى الاستقلال في الوجود والقدرة والإرادة مع أنه مملوك والمملوك لا يملك شيئا، فكأنه تدورك ذلك بقوله تعالى: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، أي إنما ننسب العبادة إلى أنفسنا وندعيه لنا مع الاستعانة بك لا مستقلين بذلك مدعين ذلك دونك، فقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ لإبداء معنى واحد وهو العبادة عن إخلاص، ويمكن أن يكون هذا هو الوجه في اتحاد الاستعانة والعبادة في السياق الخطابي حيث قيل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ من دون أن يقال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أعنا واهدنا الصراط المستقيم.

ب. بان بما مر من البيان في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ الآية؛ الوجه في الالتفات من الغيبة إلى الحضور، والوجه في الحصر الذي يفيده تقديم المفعول، والوجه في إطلاق قوله: ﴿نَعْبُدُ﴾، والوجه في اختيار لفظ المتكلم مع الغير، والوجه في تعقيب الجملة الأولى بالثانية، والوجه في تشريك الجملتين في السياق، وقد ذكر المفسّرون نكات أخرى في أطراف ذلك من أرادها فليراجع كتبهم وهو الله سبحانه غريم لا يقضى دينه.

٣. أورد هنا مبحثا حول [حقيقة العبودية والعبادة الخالصة لله في ضوء البرهان الفلسفي والقرآني] خلاصته:

أ. كل كمال في المعلول مستمد من علته، وحقيقة الحمد والثناء تنتهي إلى الله باعتباره العلة الأولى.

ب. العبادة هي نصب العبد نفسه في مقام المملوكية لله، وهي تنافي الاستكبار ولا تنافي الاشتراك في الجواز.

ج. ملكية الله لعباده مطلقة من كل قيد، بخلاف الملكية بين البشر، وهذا يقتضي حصراً مطلقاً للربوبية والعبودية.

د. العبادة الحقيقية تستلزم حضوراً من الجانبين: حضور المعبود (اللوحضور العابد بقلبه، وإلا وقع الشرك الخفي.

هـ. قوله ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يدفع دعوى الاستقلال عن الله، ويؤسس للعبادة الخالصة بالاستعانة به.

و. الآية تشتمل على عدة وجوه بلاغية وعقدية: الالتفات، الحصر، الإطلاق، وصيغة المتكلم مع

الغير، والتعقيب، وتوحيد السياق.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي عن الصادق عليه السلام في معنى العبادة، قال: العبادة ثلاثة: قوم عبدوا الله خوفاً، فتلك عبادة العبيد؛ وقوم عبدوا الله تبارك وتعالى طلب الثواب، فتلك عبادة الأجراء؛ وقوم عبدوا الله عز وجل حباً، فتلك عبادة الأحرار، وهي أفضل العبادة.

ب. وفي نهج البلاغة: إن قوماً عبدوا الله رغبة، فتلك عبادة التجار؛ وإن قوماً عبدوا الله رهبة، فتلك عبادة العبيد؛ وإن قوماً عبدوا الله شكراً، فتلك عبادة الأحرار.

ج. وفي العلل والمجالس والخصال، عن الصادق عليه السلام: إن الناس يعبدون الله على ثلاثة أوجه: فطبقة يعبدونه رغبة في ثوابه، فتلك عبادة الحرصاء وهو الطمع؛ وآخرون يعبدونه خوفاً من النار، فتلك عبادة العبيد وهي رهبة؛ ولكني أعبده حباً له عز وجل، فتلك عبادة الكرام، لقوله عز وجل: ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾ [النمل: ٨٩]، ولقوله عز وجل: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، فمن أحب الله عز وجل أحبه، ومن أحبه الله كان من الآمنين، وهذا مقام مكنون لا يمسه إلا المطهرون.

• أقول: وقد تبين معنى الروايات مما مر من البيان، وتوصيفهم عليهم السلام عبادة الأحرار تارة بالشكر وتارة بالحب، لكون مرجعها واحداً؛ فإن الشكر وضع الشيء المنعم به في محله، والعبادة شكرها أن تكون لله الذي يستحقها لذاته، فيعبد الله لأنه الله، أي لأنه مستجمع لجميع صفات الجمال والجلال بذاته، فهو الجميل بذاته المحبوب لذاته، فليس الحب إلا الميل إلى الجمال والانجذاب نحوه، فقولنا فيه تعالى: (هو معبود لأنه هو)، وهو معبود لأنه جميل محبوب، وهو معبود لأنه منعم مشكور بالعبادة، يرجع جميعها إلى معنى واحد.

د. وروي بطريق عامي عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ الآية، يعني: لا نريد منك غيرك، ولا نعبدك بالعوض والبدل كما يعبدك الجاهلون بك المغيبون عنك.

• أقول: والرواية تشير إلى ما تقدم من استلزام معنى العبادة للحضور وللإخلاص الذي ينافي قصد البدل.

هـ. وفي تحف العقول عن الصادق عليه السلام في حديث: ومن زعم أنه يعبد بالصفة لا بالإدراك، فقد أحال على غائب؛ ومن زعم أنه يعبد الصفة والموصوف، فقد أبطل التوحيد؛ لأن الصفة غير الموصوف؛ ومن زعم أنه يضيف الموصوف إلى الصفة، فقد صغر بالكبير، وما قدروا الله حق قدره، الحديث.

٤. الهداية والصراط المستقيم:

المقطع [٤] من سورة الفاتحة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦-٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١/ ٢٩»:

١. ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ الآية:

أ. أما الهداية، فيظهر معناها في ذيل الكلام على الصراط، وأما الصراط، فهو والطريق والسبيل قريب المعنى، وقد وصف تعالى الصراط بالاستقامة، ثم بيّن أنه الصراط الذي يسلكه الذين أنعم الله تعالى عليهم؛ فالصراط الذي من شأنه ذلك هو الذي سُئل الهداية إليه، وهو بمعنى الغاية للعبادة، أي: إن العبد يسأل ربه أن تقع عبادته الخالصة في هذا الصراط.

ب. بيان ذلك: أن الله سبحانه قرر في كلامه لنوع الإنسان بل لجميع من سواه سبيلاً يسلكون به إليه سبحانه، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [التغابن: ٣]، وقال: ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٣]، إلى غير ذلك من الآيات وهي واضحة الدلالة على أن الجميع سالكوا سبيل، وأنهم سائرون إلى الله سبحانه.

ج. ثم بيّن أن السبيل ليس سبيلاً واحداً ذا نعت واحد، بل هو منشعب إلى شعبتين، منقسم إلى طريقين، فقال: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [يس: ٦١]، فهناك طريق مستقيم وطريق آخر وراءه، وقال تعالى: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وقال تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، فبيّن تعالى أنه قريب من عباده، وأن الطريق الأقرب إليه تعالى هو طريق عبادته ودعائه، ثم قال تعالى في وصف الذين لا يؤمنون: ﴿أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [السجدة: ٤٤]، فبيّن أن غاية الذين لا يؤمنون في مسيرهم

وسبيلهم بعيدة.

د. وقال تعالى: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وقال تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، فبيَّن تعالى أنه قريب من عباده، وأن الطريق الأقرب إليه تعالى هو طريق عبادته ودعائه، ثم قال تعالى في وصف الذين لا يؤمنون: ﴿أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [السجدة: ٤٤]، فبيَّن أن غاية الذين لا يؤمنون في مسيرهم وسبيلهم بعيدة.

هـ. فتبيَّن أن السبيل إلى الله سبيلان: سبيل قريب وهو سبيل المؤمنين، وسبيل بعيد وهو سبيل غيرهم، فهذا نحو اختلاف في السبيل، وهناك نحو آخر من الاختلاف، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ [الأعراف: ٤٠]، ولولا طروق من متطرق لم يكن للباب معنى؛ فهناك طريق من السفل إلى العلو، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾ [طه: ٨١]، والهوي هو السقوط إلى أسفل، فهناك طريق آخر آخذ في السفالة والانحدار.

و. وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [البقرة: ١٠٨]، فعرَّف الضلال عن سواء السبيل بالشرك لمكان قوله: (فقد ضل)، وعند ذلك تقسم الناس في طرقهم ثلاثة أقسام:

- من طريقه إلى فوق، وهم الذين يؤمنون بآيات الله ولا يستكبرون عن عبادته.
- ومن طريقه إلى السفل، وهم المغضوب عليهم.
- ومن ضل الطريق وهو حيران فيه، وهم الضالون.

وربما أشعر بهذا التقسيم قوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾

ز. والصّراط المستقيم لا محالة ليس هو الطريقين الآخرين من الطرق الثلاث، أعني: طريق المغضوب عليهم وطريق الضالين؛ فهو من الطريق الأول الذي هو طريق المؤمنين غير المستكبرين، إلا أن قوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، يدل على أن نفس الطريق الأول أيضاً يقع فيه انقسام.

ح. وبيانه: أن كل ضلال فهو شرك كالعكس، على ما عرفت من قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ

بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [البقرة: ١٠٨]، وفي هذا المعنى قوله تعالى: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ [يس: ٦٢]، والقرآن يعد الشرك ظلماً وبالعكس، كما يدل عليه قوله تعالى حكاية عن الشيطان لما قضي الأمر: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢]، كما يعد الظلم ضلالاً في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]، وهو ظاهر من ترتيب الاهتداء والأمن من الضلال أو العذاب الذي يستتبعه الضلال على ارتفاع الظلم ولبس الإيمان به، وبالجملة، الضلال والشرك والظلم أمرها واحد، وهي متلازمة مصداقاً، وهذا هو المراد من قولنا: إن كل واحد منها معرَّف بالآخر أو هو الآخر؛ فالمراد المصداق دون المفهوم.

ط. إذا عرفت هذا، علمت أن الصراط المستقيم الذي هو صراط غير الضالين، صراط لا يقع فيه شرك ولا ظلم البتة، كما لا يقع فيه ضلال البتة، لا في باطن الجنان من كفر أو خطور لا يرضى به الله سبحانه، ولا في ظاهر الجوارح والأركان من فعل معصية أو قصور في طاعة، وهذا هو حق التوحيد علماً وعملاً، إذ لا ثالث لهما، وماذا بعد الحق إلا الضلال؟ وينطبق على ذلك قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]، وفيه تثبيت للأمن في الطريق ووعد بالاهتداء التام، بناءاً على ما ذكروه من كون اسم الفاعل حقيقة في الاستقبال، فليفهم، فهذا نعت من نعوت الصراط المستقيم.

٢. ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾:

أ. ثم إنه تعالى عرف هؤلاء المنعم عليهم الذين نسب صراط المستقيم إليهم، بقوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]، وقد وصف هذا الإيمان والاطاعة قبل هذه الآية بقوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ [النساء: ٦٦]، فوصفهم بالثبات التام قولاً وفعلاً وظاهراً وباطناً على العبودية، لا يشذ منهم شاذ من هذه الجهة، ومع ذلك، جعل هؤلاء المؤمنين تبعاً لأولئك المنعم عليهم،

وفي صف دون صفهم؛ لمكان (مع)، ولمكان قوله: ﴿وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾، ولم يقل: فأولئك من الذين.

ب. ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ [الحديد: ١٩]، وهذا هو إلحاق المؤمنين بالشهداء والصديقين في الآخرة، لمكان قوله: (عند ربهم)، وقوله: (لهم أجرهم)

ج. فأولئك (وهم أصحاب الصراط المستقيم) أعلى قدراً وأرفع درجة ومنزلة من هؤلاء، وهم المؤمنون الذين أخلصوا قلوبهم وأعمالهم من الضلال والشرك والظلم؛ فالتدبر في هذه الآيات يوجب القطع بأن هؤلاء المؤمنين (وشأنهم هذا الشأن) فيهم بقية بعد، لو تمت فيهم كانوا من الذين أنعم الله عليهم، وارتقوا من منزلة المصاحبة معهم إلى درجة الدخول فيهم، ولعلهم نوع من العلم بالله، ذكره في قوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١]؛ فالصراط المستقيم أصحابه منعم عليهم بنعمة هي أرفع النعم قدراً، تربي على نعمة الإيمان التام، وهذا أيضاً نعت من نعوت الصراط المستقيم.

٣. أورد هنا مبحثا حول [تحقيق معنى الصراط المستقيم والسبل إلى الله: دراسة في الفرق بين الصراط المستقيم والسبل، ونعوت الصراط، والهداية إليه، ومراتب السبل، وميزة أصحاب الصراط] خلاصته:

أ. الفرق بين الصراط المستقيم والسبل: الله تعالى كرر في كلامه ذكر الصراط والسبيل، ولم ينسب لنفسه أكثر من صراط مستقيم واحد، بينما نسب لنفسه سبلاً كثيرة ﴿سُبُلَنَا﴾، ونسب السبيل إلى غيره من خلقه (كسبيل النبي، وسبيل المؤمنين)والصراط المستقيم يتحد مع كل سبيل في عين أنه يتحد مع ما يخالفه، فهو مهيمن على جميع السبل.

ب. السبيل يجامع الشرك والضلال، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦]، بينما الصراط المستقيم لا يجامع الضلال، كما في قوله: (ولا الضالين)

ج. نعوت الصراط المستقيم: هو الواضح من الطريق الذي لا يتغير أمره ولا يختلف شأنه، وهو مهيمن على جميع السبل إلى الله، بمعنى أن السبيل إلى الله إنما يكون سبيلاً له موصلاً إليه بمقدار ما يتضمنه من الصراط المستقيم حقيقوالصراط المستقيم هو الذي لا يتخلف حكمه في هدايته وإيصاله سالكيه إلى

غايتهم.

د. الطرق إلى الله مختلفة كمالاً ونقصاً، بحسب قربها من منبع الحقيقة، وهذه الاختلافات ناشئة عن اختلاف الاستعدادات والقابليات، كما في مثل الماء والأودية: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد: ١٧]

هـ. أصحاب الصراط المستقيم الذين مكنهم الله فيه وتولى أمرهم هم أولياء الله، وعلى رأسهم النبي وآل بيته، وهم المهيمنون على سائر السبل، كما قال: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [المائدة: ٥٥]

و. الهداية إلى الصراط لا تختلف معناها باختلاف التعدية، فهي إراءة الغاية بإراءة الطريق، وهي نحو إيصال إلى المطلوو تختلف الهداية باختلاف السبل التي تضاف إليه، فلكل سبيل هداية قبله تختص به.

ز. ميزة أصحاب الصراط المستقيم على غيرهم هي بالعلم لا بالعمل، فالعمل التام قد يوجد في بعض السبل التي دون صراطهم، ولكنهم يتميزون بالعلم بمقام ربهم، وهو العلم الذي يرفع الله به درجاتهم، كما في قوله: ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١]

٤. أحاديث وآثار:

أ. في المعاني عن الصادق عليه السلام في معنى قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، يعني: أَرْشِدنا إلى لزوم الطريق المؤدي إلى محبتك، والمبلغ إلى جنتك، والمانع من أن نتبع أهواءنا فنعطب، أو أن نأخذ بآرائنا فنهلك.

ب. وفي المعاني أيضاً عن علي عليه السلام في الآية، يعني: أدم لنا توفيقك الذي أطعناك به في ماضي أيامنا، حتى نطيعك كذلك في مستقبل أعمارنا.

• أقول: والروايتان وجهان مختلفان في الجواب عن شبهة لزوم تحصيل الحاصل من سؤال الهداية للمهدي؛ فالرواية الأولى ناظرة إلى اختلاف مراتب الهداية مصداقاً، والثانية إلى اتحادها مفهوماً.

ج. وفي المعاني أيضاً عن علي عليه السلام: الصراط المستقيم في الدنيا: ما قصر عن الغلو، وارتفع عن التقصير، واستقام؛ وفي الآخرة: طريق المؤمنين إلى الجنة.

د. وفي المعاني أيضاً عن علي عليه السلام في معنى ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ﴾ الآية: أي قولوا: اهدنا صراط

الذين أنعمت عليهم بالتوفيق لدينك وطاعتك، لا بالمال والصحة، فإنهم قد يكونون كفاراً أو فساقاً، قال: وهم الذين قال الله: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَـٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]

هـ. في الفقيه وتفسير العياشي عن الصادق عليه السلام قال: الصراط المستقيم أمير المؤمنين عليه السلام.

و. وفي المعاني عن الصادق عليه السلام قال: هي الطريق إلى معرفة الله، وهما صراطان: صراط في الدنيا وصراط في الآخرفأما الصراط في الدنيا فهو الإمام المفترض الطاعة، من عرفه في الدنيا واقتدى بهداه مرّ على الصراط الذي هو جسر جهنم في الآخرة، ومن لم يعرفه في الدنيا زلّت قدمه في الآخرة فتردى في نار جهن

ز. وفي المعاني أيضاً عن السجاد عليه السلام قال: ليس بين الله وبين حُجَّته حجاب، ولا لله دون حجته ستر؛ نحن أبواب الله، ونحن الصراط المستقيم، ونحن عيبة علمه، ونحن تراجمة وحيه، ونحن أركان توحيده، ونحن موضع سر

ح. وعن ابن شهرآشوب عن تفسير وكيع بن الجراح عن الثوري عن السدي، عن أسباط ومجاهد، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، قال: قولوا معاشر العباد: أَرْشِدْنا إلى حب محمد ﷺ وأهل بيته عليهم السلام.

• أقول: وفي هذه المعاني روايات أخر، وهذه الأخبار من قبيل الجري، وعد المصداق للآية.

٥. أورد هنا مبحثا حول [تحقيق مفهوم الجري في تفسير القرآن: دراسة في اصطلاح الجري عند أئمة أهل البيت عليهم السلام، وحقيقة الظهر والبطن، وعمومية التشريع، وتطبيق الآيات على الموارد المختلفة] خلاصته:

أ. الجري اصطلاح مأخوذ من قول أئمة أهل البيت عليهم السلام، وهو تطبيق الآية القرآنية على ما يقبل أن ينطبق عليه من الموارد، وإن كان خارجاً عن مورد النزول، وذلك لأن القرآن نزل هدى للعالمين، لا يختص بحال دون حال، ولا زمان دون زمان.

ب. الظهر والبطن في القرآن: الظهر هو التنزيل (النص اللفظي)، والبطن هو التأويل (المعاني

الباطنة)والقرآن يجري كما يجري الشمس والقمر، كلما جاء منه شيء وقع، أي أن آياته تتجدد في انطباقها على الحوادث والأزمنة المختلفة.

ج. شأن النزول لا يوجب قصر الحكم: ما ورد من شأن النزول (الواقعة التي نزلت فيها الآيلا يوجب قصر الحكم على تلك الواقعة فقط، لأن البيان عام، والتعليل مطلقالقرآن نزل هدى للعالمين، يهديهم إلى واجب الاعتقاد وواجب الخلق وواجب العمل، ولا يتقيد بفرد دون فرد، ولا عصر دون عصر.

د. الروايات في الجري كثيرة جداً: روايات تطبيق الآيات القرآنية على الأئمة عليهم السلام أو على أعدائهم، أو على الموارد المختلفة، تبلغ المئين في الأبواب المختلفة، وهي سليقة أئمة أهل البيت عليهم السلام.

هـ. القرآن يدل على عمومية تشريعه: قال تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ﴾ [المائدة: ١٦]، وقال: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، فهذه الآيات تدل على أن القرآن كتاب عام شامل، لا يختص بزمان دون زمان.

و. المنهج في هذا الكتاب: بعد هذا التنبيه العام، نترك إيراد أكثر روايات الجري في الأبحاث الروائية لخروجها عن الغرض في الكتاب، إلا ما تعلق بها غرض في البحث.

سورة البقرة

هذه السورة الكريمة تحتوي على [١٤٥] مقطعاً، وهذا تعريف بمقاصدها، ومحتويات مقاطعها:

مقاصد السورة ومحتوياتها:

أ. غرض السورة بيان أن من حق عبادة الله سبحانه أن يؤمن عبده بكل ما أنزله بلسان رسله، من غير تفرقة بين وحي ووحي، ولا بين رسول ورسول، ولا غير ذلك.

ب. ثم تقريع الكافرين والمنافقين، وملامة أهل الكتاب بما ابتدعوه من التفرقة في دين الله والتفريق بين رسله.

ج. ثم التخلص إلى بيان عدة من الأحكام، كتحويل القبلة، وأحكام الحج والإرث والصوم وغير ذلك.

د. ولما كانت السورة نازلة نجوماً، لم يجمعها غرض واحد، إلا أن معظمها تنبئ عن هذه الغاية المحصلة.

مقاطع السورة ونظمها:

١. الآيات [١ ـ ٥] لم يذكر البيان المرتبط بها، وفي هذه الآيات الكريمة بيان صفات المؤمنين المتقين الذين يؤمنون بالغيب، ويقيمون الصلاة، ومما رزقهم الله ينفقون، ويؤمنون بما أنزل إلى النبي ﷺ وما أنزل من قبله، وبالآخرة هم يوقنون، وهؤلاء هم المفلحون الذين على هدى من ربهم، وقد جُعلت هذه الآيات افتتاحاً للسورة لتبين أن القرآن هدى للمتقين، وأن الفلاح والهداية مرتبطان بالإيمان والتقوى، وهي بمثابة الجواب عن حال من يجيب دعوة القرآن ويؤمن به.

٢. الآيات [٦ ـ ٧] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تذكر حال الكافرين الذين ختم الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم.

٣. الآيات [٨ ـ ٢٠] في الآيات بيان حال المنافقين، وبيان أنهم يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم، وفيهم مرض قلبي زادهم الله مرضا، وهم الذين إذا لقوا المؤمنين قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم، يستهزئون بالله والذين آمنوا، ومثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت

ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون، وقد جاءت هذه الآيات بعد الحديث عن المؤمنين مباشرة لتقابل بين الفريقين، وتبين أن هؤلاء ليسوا من المؤمنين الذين وصفوا في الآيات السابقة، وإنما هم أهل النفاق الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، وجاء وصفهم بهذه الصفات لتمايزهم عن المؤمنين في البصيرة والعمل، ولكي يحذر المؤمنون من خبثهم ومكرهم.

٤. الآيات [٢١ ـ ٢٥]:

أ. لما بين سبحانه حال الفرق الثلاث: المتقين والكافرين، والمنافقين، وأن المتقين على هدى من ربهم والقرآن هدى لهم، وأن الكافرين مختوم على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة، وأن المنافقين مرضى وزادهم الله مرضا وهم صم بكم عمي وذلك في تمام تسع عشرة آية، فرع تعالى على ذلك أن دعا الناس إلى عبادته وأن يلتحقوا بالمتقين دون الكافرين والمنافقين بهذه الآيات الخمس إلى قوله: خالدون.

ب. وهذا السياق يعطي كون قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧١)﴾ متعلقاً بقوله: ﴿اعْبُدُوا﴾، دون قوله ﴿خَلَقَكُمْ﴾ وإن كان المعنى صحيحاً على كلا التقديرين.

٥. الآيات [٢٦ ـ ٢٧] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تذكر ضرب المثل بالبعوضة فما فوقها، وأن الله يضل به الفاسقين الذين ينقضون العهد ويقطعون ما أمر به الوصل ويفسدون في الأرض.

٦. الآيات [٢٨ ـ ٢٩]:

أ. رجوع ثانٍ إلى ما في بدء الكلام؛ فإنه تعالى بعد ما بيَّن في أول السورة ما بيَّن، أوضحه بنحو التلخيص بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ إلى بضع آيات، ثم رجع إليه ثانياً وأوضحه بنحو البسط والتفصيل بقوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾ إلى اثنتي عشرة آية، ببيان حقيقة الإنسان وما أودعه الله تعالى فيه من ذخائر الكمال، وما تسعه دائرة وجوده، وما يقطعه هذا الموجود في مسير وجوده من منازل موت وحياة ثم موت ثم حياة ثم رجوع إلى الله سبحانه، وإن إلى ربك المنتهى.

ب. وفيه ذكر جُمل ما خصَّ الله تعالى به الإنسان من مواهب التكوين والتشريع: أنه كان ميتاً فأحياه، ثم لا يزال يميته ويحييه حتى يرجعه إليه، وقد خلق له ما في الأرض، وسخَّر له السموات، وجعله خليفته في الأرض، وأسجد له ملائكته، وأسكن أباه الجنة، وفتح له باب التوبة، وأكرمه بعبادته وهدايته، وهذا هو المناسب لسياق قوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾؛ فإن السياق سياق العتبى

والامتنان.

٧. الآيات [٣٠ ـ ٣٩] الآيات تنبئ عن غرض إنزال الإنسان إلى الدنيا وحقيقة جعل الخلافة في الأرض وما هو آثارها وخواصها، وهي على خلاف سائر قصصه لم يقع في القرآن إلا في محل واحد وهو هذا المحل.

٨. الآيات [٤٠ ـ ٧٤] أخذ سبحانه في معاتبة اليهود، وذلك في طي نيف ومائة آية، يذكر فيها نعمه التي أفاضها عليهم، وكراماته التي حباهم بها، وما قابلوها من الكفر والعصيان ونقض الميثاق والتمرد والجحود، يذكرهم بالإشارة إلى اثنتي عشرة قصة من قصصهم، كنجاتهم من آل فرعون بفرق البحر، وغرق فرعون وجنوده، ومواعدة الطور، واتخاذهم العجل من بعده، وأمر موسى إياهم بقتل أنفسهم، واقتراحهم من موسى أن يريهم الله جهرة فأخذتهم الصاعقة ثم بعثهم الله تعالى، إلى آخر ما أشير إليه من قصصهم التي كلها مشحونة بألطاف إلهية وعنايات ربانية، ويذكرهم أيضاً المواثيق التي أخذ منهم ثم نقضوها ونبذوها وراء ظهورهم، ويذكرهم أيضاً معاصي ارتكبوها، وجرائم اكتسبوها، وآثاماً كسبتها قلوبهم على نهي من كتابهم، وردع صريح من عقولهم، لقساوة قلوبهم، وشقاوة نفوسهم، وضلال سعيهم.

٩. الآيات [٧٥ ـ ٨٢] السياق وخاصة ما في ذيل الآيات يفيد أن اليهود عند الكفار، وخاصة كفار المدينة: لقرب دارهم منهم كانوا يعرفون قبل البعثة ظهوراً لرسول الله ﷺ، وعندهم علم الدين والكتاب، ولذلك كان الرجاء في إيمانهم أكثر من غيرهم، وكان المتوقع أن يؤمنوا به أفواجاً، فيتأيد بذلك، ويظهر نوره، وينتشر دعوته، ولما هاجر النبي إلى المدينة وكان من أمرهم ما كان تبدل الرجاء قنوطاً، والطمع يأساً، ولذلك يقول سبحانه: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾، يعني أن كتمان الحقائق وتحريف الكلام من شيمهم، فلا ينبغي أن يستبعد نكولهم عما قالوا ونقضهم ما أبرموا.

١٠. الآيات [٨٣ ـ ٨٨] تذكر أولاً الميثاق وهو أخذ للعهد، ولا يكون إلا بالقول، ثم تحكي ما أخذ عليه الميثاق.

١١. الآيات [٨٩ ـ ٩٣] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تذكر كفر أهل الكتاب بالقرآن مع علمهم بحقه، ومخالفتهم للميثاق، وعبادتهم العجل، وطبع الله على قلوبهم بكفرهم.

١٢. الآيات [٩٤ ـ ٩٩] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تذكر دعوى اليهود اختصاصهم بالجنة،

وردّ الله عليهم بأن يتمنوا الموت إن كانوا صادقين، وتؤكد أن جبريل هو المنزل للقرآن على قلب النبي ﷺ، وتذكر نبذهم للكتاب خلف ظهورهم.

١٣. الآيات [١٠٠ ـ ١٠١] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تذكر نقض اليهود للعهود، ونبذهم الكتاب حين جاءهم رسول مصدق لما معهم، واتباعهم ما تتلو الشياطين على ملك سليمان.

١٤. الآيات [١٠٢ ـ ١٠٣] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تذكر قصة هاروت وماروت والسحر.

١٥. الآيات [١٠٤ ـ ١٠٥] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تنهى المؤمنين عن قول راعنا، وتذكر أن الكفار من أهل الكتاب والمشركين يودون لو لم ينزل عليهم خير.

١٦. الآيات [١٠٦ ـ ١٠٧] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تذكر نسخ الله ما يشاء من الآيات، وأن له ملك السماوات والأرض، وليس للمؤمنين من دونه ولي ولا نصير.

١٧. الآيات [١٠٨ ـ ١١٥] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تنهى عن سؤال النبي ﷺ كما سئل موسى، وتذكر حسد اليهود وتمنيهم ردة المؤمنين، وتأمر بالصفح والصلاة والزكاة، وترد على دعوى اليهود والنصارى اختصاصهم بالجنة، وتقرر أن لله المشرق والمغرب.

١٨. الآيات [١١٦ ـ ١١٧] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي ترد على من نسب إلى الله الولد، وتذكر أنه بديع السماوات والأرض، وإذا أراد أمراً قال له كن فيكون.

١٩. الآيات [١١٨ ـ ١١٩] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تذكر طلب الذين لا يعلمون آيات كما طلبها من قبلهم، وتقرر أن الله أرسل النبي بالحق بشيراً ونذيراً.

٢٠. الآيات [١٢٠ ـ ١٢٣] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تحذر من اتباع اليهود والنصارى، وتؤكد أن الهدى هو هدى الله، وتذكر أن الذين يتلون الكتاب حق تلاوته هم المؤمنون به، وتدعو بني إسرائيل إلى تقوى الله.

٢١. الآيات [١٢٤] في هذه الآيات الكريمة شروع بجمل من قصص إبراهيم عليه السلام وهو كالمقدمة والتوطئة لآيات تغيير القبلة وآيات أحكام الحج، وما معها من بيان حقيقة الدين الحنيف الإسلامي بمراتبها: من أصول المعارف، والأخلاق، والأحكام الفرعية الفقهية جُملًا، والآيات مشتملة على قصة اختصاصه تعالى إياه بالإمامة وبنائه الكعبة ودعوته بالبعثة.

٢٢. الآيات [١٢٥ ـ ١٢٩] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تذكر جعل الله البيت الحرام مثابة للناس وأمناً، وعهده إلى إبراهيم وإسماعيل بتطهيره، ودعاء إبراهيم بأن يبعث فيهم رسولاً منهم يعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم.

٢٣. الآيات [١٣٠ ـ ١٣٤] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تذكر وصية إبراهيم ويعقوب لأبنائهما بالدين، وأنهما أوصيا أبناءهما بالإسلام، وتقرر أن تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولهم ما كسبوا.

٢٤. الآيات [١٣٥ ـ ١٤١] لما بين تعالى أن الدين الحق الذي كان عليه أولاد إبراهيم من إسماعيل وإسحاق ويعقوب وأولاده كان هو الإسلام الذي كان عليه إبراهيم حنيفاً، استنتج من ذلك أن الاختلافات والانشعابات التي يدعو إليها فرق المنتحلين من اليهود والنصارى، أمور اخترعتها هوساتهم، ولعبت بها أيديهم لكونهم في شقاق، فتقطعوا بذلك طوائف وأحزاباً دينية، وصبغوا دين الله سبحانه، وهو دين التوحيد ودين الوحدة، بصبغة الأهواء والأغراض والمطامع، مع أن الدين واحد كما أن الإله المعبود بالدين واحد وهو دين إبراهيم، وبه فليتمسك المسلمون وليتركوا شقاق أهل الكتاب.

٢٥. الآيات [١٤٢ ـ ١٥١] الآيات مترتبة متَّسقة منتظمة في سياقها على ما يعطيه التدبر فيها وهي تنبئ عن جعل الكعبة قبلة للمسلمين فلا يصغى إلى قول من يقول إن فيها تقدماً وتأخراً أو إن فيها ناسخاً ومنسوخاً، وربما رووا فيها شيئاً من الروايات، ولا يعبأ بشيء منها بعد مخالفتها لظاهر الآيات.

٢٦. الآيات [١٥٣ ـ ١٥٧]:

أ. خمس آيات متحدة السياق، متسقة الجمل، ملتئمة المعاني، يسوق أولها إلى آخرها ويرجع آخرها إلى أولها، وهذا يكشف عن كونها نازلة دفعة غير متفرقة، وسياقها ينادي بأنها نزلت قبيل الأمر بالقتال وتشريع حكم الجهاد، ففيه ذكر من بلاء سيقبل على المؤمنين، ومصيبة ستصيبهم، ولا كل بلاء ومصيبة، بل البلاء العمومي الذي ليس بعادي الوقوع مستمر الحدوث، فإن نوع الإنسان كسائر الأنواع الموجودة في هذه النشأة الطبيعية لا يخلو في أفراده من حوادث جزئية يختل بها نظام الفرد في حياته الشخصية: من موت ومرض وخوف وجوع وغم وحرمان، سنة الله التي جرت في عباده وخلقه، فالدار دار التزاحم، والنشأة نشأة التبدل والتحول، ولن تجد لسنة الله تحويلاً ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

ب. البلاء الفردي وإن كان شاقاً على الشخص المبتلى بذلك، مكروهاً، لكن ليس مهولاً مهيباً تلك

المهابة التي تتراءى بها البلايا والمحن العامة، فإن الفرد يستمد في قوة تعقله وعزمه وثبات نفسه من قوى سائر الأفراد، وأما البلايا العامة الشاملة فإنها تسلب الشعور العمومي وجملة الرأي والحزم والتدبير من الهيأة المجتمعة، ويختل به نظام الحياة منهم، فيتضاعف الخوف وتتراكم الوحشة ويضطرب عندها العقل والشعور وتبطل العزيمة والثبات، فالبلاء العام والمحنة الشاملة أشق وأمر، وهو الذي تلوح له الآيات.

ج. لا كل بلاء عام كالوباء والقحط بل بلاء عام قربتهم منها أنفسهم، فإنهم أخذوا دين التوحيد، وأجابوا دعوة الحق، وتخالفهم فيه الدنيا وخاصة قومهم، وما لهؤلاء هم إلا إطفاء نور الله، واستئصال كلمة العدل، وإبطال دعوة الحق، ولا وسيلة تحسم مادة النزاع وتقطع الخلاف غير القتال، فسائر الوسائل كإقامة الحجة وبث الفتنة، وإلقاء الوسوسة والريبة وغيرها صارت بعد عقيمة غير منتجة، فالحجة مع النبي والوسوسة والفتنة والدسيسة ما كانت تؤثر أثراً تطمئن إليه أعداء الدين فلم يكن عندهم وسيلة إلا القتال والاستعانة به على سد سبيل الحق، وإطفاء نور الدين اللامع المشرق.

د. هذا من جانب الكفر، والأمر من جانب الدين أوضح، فلم يكن إلى نشر كلمة التوحيد، وبث دين الحق، وحكم العدل، وقطع دابر الباطل وسيلة إلا القتال، فإن التجارب الممتدة من لدن كان الإنسان نازلاً في هذه الدار تعطي أن الحق إنما يؤثر إذا أميط الباطل، ولن يماط إلا بضرب من أعمال القدرة والقوة.

هـ. بالجملة ففي الآيات تلويح إلى إقبال هذه المحنة بذكر القتل في سبيل الله، وتوصيفه بوصف لا يبقى فيه معه جهة مكروهة، ولا صفة سوء، وهو أنه ليس بموت بل حياة، وأي حياة! فالآيات تستنهض المؤمنين على القتال، وتخبرهم أن أمامهم بلاء ومحنة لن تنالوا مدارج المعالي، وصلاة ربهم ورحمته، والاهتداء بهدايته إلا بالصبر عليها، وتحمل مشاقها، ويعلمهم ما يستعينون به عليها، وهو الصبر والصلاة، أما الصبر: فهو عدة الوقاية من الجزع واختلال أمر التدبير، وأما الصلاة: فهي توجه إلى الرب، وانقطاع إلى من بيده الأمر، وأن القوة لله جميعاً.

٢٧. الآيات [١٥٨] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تذكر أن الصفا والمروة من شعائر الله، فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما.

٢٨. الآيات [١٥٩ ـ ١٦٢] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تذكر لعن الله للذين يكتمون البينات، إلا من تاب وأصلح، وأن الذين ماتوا على الكفر عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين.

٢٩. الآيات [١٦٣ ـ ١٦٧] الآيات متحدة متسقة ذات نظم واحد ـ وهي تذكر التوحيد ـ وتقيم عليه البرهان وتذكر الشرك وما ينتهي إليه أمره.

٣٠. الآيات [١٦٨ ـ ١٧١] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تأمر بالأكل من الحلال الطيب، وتنهى عن اتباع خطوات الشيطان، وتذكر أن الذين كفروا سواء أنذروا أو لم ينذروا لا يؤمنون، فهم كمن ينعق بما لا يسمع إلا دعاءً ونداءً.

٣١. الآيات [١٧٢ ـ ١٧٦] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تأمر بالأكل من الطيبات، وتحرم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله، وترخص للمضطر، وتذكر أن الذين يكتمون ما أنزل الله ويشترون به ثمناً قليلاً ما يأكلون في بطونهم إلا النار.

٣٢. الآيات [١٧٧] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تذكر أن البر ليس مجرد التوجه إلى المشرق والمغرب، بل هو الإيمان بالله واليوم الآخر، وإيتاء المال على حبه، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، والوفاء بالعهد، والصبر في الشدائد.

٣٣. الآيات [١٧٨ ـ ١٧٩] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تشرع القصاص، وتذكر أن فيه حياة لأولي الألباب.

٣٤. الآيات [١٨٠ ـ ١٨٢] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تشرع الوصية للوالدين والأقربين، وتحذر من تبديلها، وتأمر بالإصلاح بين الموصين.

٣٥. الآيات [١٨٦] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تذكر قرب الله من عباده وإجابته لدعوة الداعي، وتأمرهم بالاستجابة له والإيمان به.

٣٦. الآيات [١٨٧] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تبين بعض أحكام الصيام، كالرفث إلى النساء والأكل والشرب حتى يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر.

٣٧. الآيات [١٨٨] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تنهى عن أكل أموال الناس بالباطل وإدلائها إلى الحكام للإثم.

٣٨. الآيات [١٨٩] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تذكر أن الأهلة مواقيت للناس والحج، وتنفي أن يكون البر بإتيان البيوت من ظهورها، وتأمر بإتيانها من أبوابها.

٣٩. الآيات [١٩٠ ـ ١٩٥]:

أ. سياق الآيات الشريفة يدل على أنها نازلة دفعة واحدة، وقد سيق الكلام فيها لبيان غرض واحد وهو تشريع القتال لأول مرة مع مشركي مكة، فإن فيها تعرضاً لإخراجهم من حيث أخرجوا المؤمنين، وللفتنة، وللقصاص، والنهي عن مقاتلتهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوا عنده، وكل ذلك أمور مربوطة بمشركي مكة، على أنه تعالى قيد القتال بالقتال في قوله: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ وليس معناه الاشتراط أي قاتلوهم إن قاتلوكم وهو ظاهر، ولا قيداً احترازياً، والمعنى قاتلوا الرجال دون النساء والولدان الذين لا يقاتلونكم كما ذكره بعضهم، إذ لا معنى لقتال من لا يقدر على القتال حتى ينهى عن مقاتلته، ويقال: لا تقاتله بل إنما الصحيح النهي عن قتله دون قتاله، بل الظاهر أن الفعل أعني يقاتلونكم، للحال والوصف للإشارة، والمراد به الذين حالهم حال القتال مع المؤمنين وهم مشركو مكة.

ب. فمساق هذه الآيات مساق قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ﴾، إذن ابتدائي للقتال مع المشركين المقاتلين من غير شرط.

ج. على أن الآيات الخمس جميعاً متعرضة لبيان حكم واحد بحدوده وأطرافه ولوازمه:

- فقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ﴾، لأصل الحكم.
- وقوله تعالى: ﴿لَا تَعْتَدُوا﴾ إلخ، تحديد له من حيث الانتظام.
- وقوله تعالى: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ﴾ الآية، تحديد له من حيث التشديد.
- وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ الآية، تحديد له من حيث المكان.
- وقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ الآية، تحديد له من حيث الأمد والزمان.
- وقوله تعالى: ﴿الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ الآية، بيان أن هذا الحكم تشريع للقصاص في القتال والقتل ومعاملة بالمثل معهم.
- وقوله تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا﴾، إيجاب لمقدمته المالية وهو الإنفاق للتجهيز والتجهز.

د. فيقرب أن يكون نزول مجموع الآيات الخمس لشأن واحد من غير أن ينسخ بعضها بعضاً كما احتمله بعضهم، ولا أن تكون نازلة في شئون متفرقة كما ذكره آخرون، بل الغرض منها واحد وهو تشريع

القتال مع مشركي مكة الذين كانوا يقاتلون المؤمنين.

٤٠. الآيات [١٩٦ ـ ٢٠٣] نزلت الآيات في حجة الوداع، آخر حجة حجها رسول الله، وفيها تشريع حج التمتع.

٤١. الآيات [٢٠٤ ـ ٢٠٧] تشتمل الآيات على تقسيم آخر للناس من حيث نتائج صفاتهم كما أن الآيات السابقة أعني قوله تعالى: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا﴾ الآية، تشتمل على تقسيم لهم غير أن تلك الآيات تقسمهم من حيث طلب الدنيا أو الآخرة، وهذه الآيات تقسمهم من حيث النفاق والخلوص في الإيمان فمناسبة الآيات مع آيات حج التمتع ظاهرة.

٤٢. الآيات [٢٠٨ ـ ٢١٠] سبع آيات كاملة تبين طريق التحفظ على الوحدة الدينية في الجامعة الإنسانية، وهو الدخول في السلم والقصر على ما ذكره الله من القول وما أراه من طريق العمل، وأنه لم ينفصم وحدة الدين، ولا ارتحلت سعادة الدارين، ولا حلت الهلكة دار قوم إلا بالخروج عن السلم، والتصرف في آيات الله تعالى بتغييرها ووضعها في غير موضعها، شوهد ذلك في بني إسرائيل وغيرهم من الأمم الغابرة، وسيجري نظيرها في هذه الأمة لكن الله يعدهم بالنصر: ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾

٤٣. الآيات [٢١١ ـ ٢١٢] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تذكر سؤال بني إسرائيل عن الآيات البينات، وتحذرهم من تبديل نعمة الله، وتذكر أن الحياة الدنيا زينت للذين كفروا ويسخرون من الذين آمنوا، والمتقون فوقهم يوم القيامة.

٤٤. الآيات [٢١٣] الآية تبيّن السبب في تشريع أصل الدين وتكليف النوع الإنساني به، وسبب وقوع الاختلاف فيه.

٤٥. الآيات [٢١٤] هذه الآيات آخذة من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ إلى آخر هذه الآية، ذات سياق واحد يربط بعضها ببعض.

٤٦. الآيات [٢١٥] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تجيب عن سؤالهم ماذا ينفقون، وتأمرهم بالإنفاق للوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل.

٤٧. الآيات [٢١٦ ـ ٢١٨] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تفرض القتال مع كراهته للنفس، وتجيب عن حكم الشهر الحرام والقتال فيه، وتقرر أن الفتنة أشد من القتل، وتذكر أن الذين آمنوا وهاجروا

وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله.

٤٨. الآيات [٢١٩ ـ ٢٢٠] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تجيب عن الأسئلة حول الخمر والميسر، وتبين أن فيهما إثماً كبيراً ومنافع للناس، مع أن إثمهما أكبر من نفعهما، وتجيب عن الأسئلة حول اليتامى، وتأمر بالإصلاح لهم، وتذكر أن الله يعلم المفسد من المصلح.

٤٩. الآيات [٢٢١] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تنهى عن نكاح المشركات حتى يؤمن، وتنهى عن تزويج المشركين حتى يؤمنوا.

٥٠. الآيات [٢٢٢ ـ ٢٢٣] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تجيب عن الأسئلة الخاصة بالمحيض، وتأمر باعتزال النساء فيه، وتأمر بإتيانهن من حيث أمر الله.

٥١. الآيات [٢٢٤ ـ ٢٢٧] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تنهى عن جعل الله عرضة للأيمان، وتأمر بالخير والتقوى والإصلاح بين الناس، وتذكر أن الله سميع عليم، ولا يؤاخذ باللغو في أيمانكم، وتذكر الإيلاء ومدته.

٥٢. الآيات [٢٢٨ ـ ٢٤٢] الآيات في أحكام الطلاق والعدة وإِرضاع المطلقة ولدها، وفي خلالها شيء من أحكام الصلاة.

٥٣. الآيات [٢٤٣] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تذكر الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، فأماتهم الله ثم أحياهم.

٥٤. الآيات [٢٤٤ ـ ٢٥٢] الاتصال البين بين الآيات أعني الارتباط الظاهر بين فرض القتال، والترغيب في القرض الحسن، والمعنى المحصل من قصة طالوت وداوود وجالوت يعطي أن هذه الآيات نزلت دفعة واحدة، والمراد بيان ما للقتال من شئون الحياة، والروح الذي به تقدم الأمة في حياتهم الدينية، والدنيوية، وسعادتهم الحقيقية، يبين سبحانه فيها فرض الجهاد، ويدعو إلى الإنفاق والبذل في تجهيز المؤمنين وتهيئة العدة والقوة، وسماه إقراضاً لله لكونه في سبيله، مع ما فيه من كمال الاسترسال والإيذان بالقرب، ثم يقص قصة طالوت وجالوت وداوود ليعتبر بها هؤلاء المؤمنون المأمورون بالقتال مع أعداء الدين ويعلموا أن الحكومة والغلبة للإيمان والتقوى وإن قل حاملوهما، والخزي والفناء للنفاق والفسق وإن كثر جمعهما، فإن بني إسرائيل، وهم أصحاب القصة، كانوا أذلاء مخزيين ما داموا على الخمود والكسل والتواني،

فلما قاموا لله وقاتلوا في سبيل الله واستظهروا بكلمة الحق وإن كان الصادق منهم في قوله القليل منهم، وتولى أكثرهم عند إنجاز القتال أولاً، وبالاعتراض على طالوت ثانياً، وبالشرب من النهر ثالثاً، وبقولهم: لا طاقة لنا بجالوت وجنوده رابعاً، نصرهم الله تعالى على عدوهم فهزموهم بإذن الله وقتل داوود جالوت واستقر الملك فيهم، وعادت الحياة إليهم، ورجع إليهم سؤددهم وقوتهم، ولم يكن ذلك كله إلا لكلمة أجراها الإيمان والتقوى على لسانهم لما برزوا لجالوت وجنوده، وهي قولهم: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾، فكذلك ينبغي للمؤمنين أن يسيروا بسيرة الصالحين من الماضين، فهم الأعلون إن كانوا مؤمنين..

٥٥. الآيات [٢٥٣ ـ ٢٥٤]:

أ. سياق هاتين الآيتين لا يبعد كل البعد من سياق الآيات السابقة التي كانت تأمر بالجهاد وتندب إلى الإنفاق ثم تقص قصة قتال طالوت ليعتبر به المؤمنون، وقد ختمت القصة بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ الآية، وافتتحت هاتان الآيتان بقوله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾، ثم ترجع إلى شأن قتال أمم الأنبياء بعدهم، وقد قال في القصة السابقة أعني: قصة طالوت ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾، فأتى بقوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾، قيداً، ثم ترجع إلى الدعوة إلى الإنفاق من قبل أن يأتي يوم، فهذا كله يؤيد أن يكون هاتان الآيتان ذيل الآيات السابقة، والجميع نازلة معاً.

ب. بالجملة الآية في مقام دفع ما ربما يتوهم: أن الرسالة وخاصة من حيث كونها مشفوعة بالآيات البينات الدالة على حقية الرسالة ينبغي أن يختم بها بلية القتال: إما من جهة أن الله سبحانه لما أراد هداية الناس إلى سعادتهم الدنيوية والأخروية بإرسال الرسل وإيتاء الآيات البينات كان من الحري أن يصرفهم عن القتال بعد، ويجمع كلمتهم على الهداية فما هذه الحروب والمشاجرات بعد الأنبياء في أممهم وخاصة بعد انتشار دعوة الإسلام الذي يعد الاتحاد والاتفاق من أركان أحكامه وأصول قوانينه؟ وإما من جهة أن إرسال الرسل وإيتاء بينات الآيات للدعوة إلى الحق لغرض الحصول على إيمان القلوب، والإيمان من الصفات القلبية التي لا توجد في القلب عنوة وقهراً فماذا يفيده القتال بعد استقرار النبوة؟ وهذا هو الإشكال الذي تقدم تقريره والجواب عنه في الكلام على آيات القتال، الذي يجيب تعالى به: أن القتال معلول الاختلاف الذي بين الأمم إذ لولا وجود الاختلاف لم ينجر أمر الجماعة إلى الاقتتال، فعلة الاقتتال

الاختلاف الحاصل بينهم ولو شاء الله لم يوجد اختلاف فلم يكن اقتتال رأساً، ولو شاء لأعقم هذا السبب بعد وجوده لكن الله سبحانه يفعل ما يريد، وقد أراد جري الأمور على سنة الأسباب، فوجد الاختلاف فوجد القتال فهذا إجمال ما تفيده الآية.

٥٦. الآيات [٢٥٥] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي آية الكرسي التي تذكر علم الله وعظمته وإحاطته بكل شيء.

٥٧. الآيات [٢٥٦ ـ ٢٥٧] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تذكر أنه لا إكراه في الدين، وأن الله ولي المؤمنين يخرجهم من الظلمات إلى النور، والكافرون أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات.

٥٨. الآيات [٢٥٨ ـ ٢٦٠] الآيات مشتملة على معنى التوحيد ولذلك كانت غير خالية عن الارتباط بما قبلها من الآيات فمن المحتمل أن تكون نازلة معها.

٥٩. الآيات [٢٦١ ـ ٢٧٤]:

أ. سياق الآيات من حيث اتحادها في بيان أمر الإنفاق، ورجوع مضامينها وأغراضها بعضها إلى بعض يعطي أنها نزلت دفعة واحدة، وهي تحث المؤمنين على الإنفاق في سبيل الله تعالى، فتضرب أولاً مثلاً لزيادته ونموه عند الله سبحانه: واحد بسبعمائة، وربما زاد على ذلك بإذن الله، وثانياً مثلاً لكونه لا يتخلف عن شأنه على أي حال وتنهى عن الرياء في الإنفاق وتضرب مثلاً للإنفاق رئاءً لا لوجه الله، وأنه لا ينمو نماءً ولا يثمر أثراً، وتنهي عن الإنفاق بالمن والأذى إذ يبطلان أثره ويحبطان عظيم أجره، ثم تأمر بأن يكون الإنفاق من طيب المال لا من خبيثه بخلاً وشحاً، ثم تعين المورد الذي توضع فيه هذه الصنيعة وهو الفقراء المحضرون في سبيل الله، ثم تذكر ما لهذا الإنفاق من عظيم الأجر عند الله.

ب. بالجملة الآيات تدعو إلى الإنفاق، وتبين أولاً وجهه وغرضه وهو أن يكون لله لا للناس، وثانياً صورة عمله وكيفيته وهو أن لا يتعقبه المن والأذى، وثالثاً وصف مال الإنفاق وهو أن يكون طيباً لا خبيثاً، ورابعاً نعت مورد الإنفاق وهو أن يكون فقيراً أحصر في سبيل الله، وخامساً ما له من عظيم الأجر عاجلاً وآجلاً..

٦٠. الآيات [٢٧٥ ـ ٢٨١]:

أ. سياق الآيات من حيث اتحادها في بيان أمر الإنفاق، ورجوع مضامينها وأغراضها بعضها إلى بعض يعطي أنها نزلت دفعة واحدة، وهي تحث المؤمنين على الإنفاق في سبيل الله تعالى، فتضرب أولاً مثلاً لزيادته ونموه عند الله سبحانه: واحد بسبعمائة، وربما زاد على ذلك بإذن الله، وثانياً مثلاً لكونه لا يتخلف عن شأنه على أي حال وتنهى عن الرياء في الإنفاق وتضرب مثلاً للإنفاق رياءً لا لوجه الله، وأنه لا ينمو نماءً ولا يثمر أثراً، وتنهى عن الإنفاق بالمن والأذى إذ يبطلان أثره ويحبطان عظيم أجره، ثم تأمر بأن يكون الإنفاق من طيب المال لا من خبيثه بخلاً وشحاً، ثم تعين المورد الذي توضع فيه هذه الصنيعة وهو الفقراء المحضرون في سبيل الله، ثم تذكر ما لهذا الإنفاق من عظيم الأجر عند الله.

ب. بالجملة الآيات تدعو إلى الإنفاق، وتبين:

- أولاً وجهه وغرضه وهو أن يكون لله لا للناس.
- وثانياً صورة عمله وكيفيته وهو أن لا يتعقبه المن والأذى.
- وثالثاً وصف مال الإنفاق وهو أن يكون طيباً لا خبيثاً.
- ورابعاً نعت مورد الإنفاق وهو أن يكون فقيراً أحصر في سبيل الله.
- وخامساً ما له من عظيم الأجر عاجلاً وآجلاً.

٦١. الآيات [٢٧٥] آيات الربا لا تخلو عن ارتباط بما قبلها من آيات الإنفاق في سبيل الله كما يشير إليه قوله تعالى في ضمنها: ﴿يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾، وقوله: ﴿وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾، وكذا ما وقع من ذكره في سورة الروم وفي سورة آل عمران مقارناً لذكر الإنفاق والصدقة والحث عليه والترغيب فيه، على أن الاعتبار أيضاً يساعد الارتباط بينهما بالتضاد والمقابلة، فإن الربا أخذ بلا عوض كما أن الصدقة إعطاء بلا عوض، والآثار السيئة المترتبة على الربا تقابل الآثار الحسنة المترتبة على الصدقة وتحاذيها على الكلية من غير تخلف واستثناء، فكل مفسدة منه يحاذيها خلافها من المصلحة منها لنشر الرحمة والمحبة، وإقامة أصلاب المساكين والمحتاجين، ونماء المال، وانتظام الأمر واستقرار النظام والأمن في الصدقة وخلاف ذلك في الربا.

٦٢. الآيات [٢٨٣] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تبين أحكام الرهن والكتابة في السفر، وتأمر بكتمان الشهادة.

٦٣. الآيات [٢٨٤] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تذكر أن لله ما في السماوات والأرض، وأنه سيحاسب العباد على ما في أنفسهم، ويغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء، وهو على كل شيء قدير.

٦٤. الآيات [٢٨٥ ـ ٢٨٦]:

أ. الكلام في الآيتين كالفذلكة يحصل بها إجمال ما اشتملت عليه السورة من التفاصيل المبينة لغرضها، وقد مر فيما مر أن غرض السورة بيان أن من حق عبادة الله تعالى: أن يؤمن بجميع ما أنزل على عباده بلسان رسله من غير تفرقة بين رسله، وهذا هو الذي تشتمل عليه الآية الأولى من قوله: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ﴾ إلى قوله: ﴿مِنْ رُسُلِهِ﴾، وفي السورة قصص تقص ما أنعم الله به على بني إسرائيل من أنواع نعمه من الكتاب والنبوة والملك وغيرها وما قابلوه من العصيان والتمرد ونقض المواثق والكفر، وهذا هو الذي يشير إليه وإلى الالتجاء بالله في التجنب عند ذيل الآية الأولى وتمام الآية الثانية، فالآيتين يرد آخر الكلام في السورة إلى أوله وختمه إلى بدئه، ومن هنا يظهر خصوصية مقام البيان في هاتين الآيتين، توضيحه:

ب. أن الله سبحانه افتتح هذه السورة بالوصف الذي يجب أن يتصف به أهل التقوى، أعني ما يجب على العبد من إيفاء حق الربوبية، فذكر أن المتقين من عباده يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وينفقون من رزق الله ويؤمنون بما أنزل الله على رسوله وعلى الرسل من قبله ويوقنون بالآخرة، فلا جرم أنعم الله عليهم بهداية القرآن، وبين بالمقابلة حال الكفار والمنافقين.

ج. ثم فصل القول في أمر أهل الكتاب وخاصة اليهود وذكر أنه من عليهم بلطائف الهداية، وأكرمهم بأنواع النعم، وعظائم الحباء، فلم يقابلوه إلا بالعتو وعصيان الأمر وكفر النعمة، والرد على الله وعلى رسله، ومعاداة ملائكته، والتفريق بين رسل الله وكتبه، فقابلهم الله بحمل الإصر الشاق من الأحكام عليهم كقتلهم أنفسهم وتحميلهم ما لا طاقة لهم به كالمسخ ونزول الصاعقة والرجز من السماء عليهم.

د. ثم عاد في خاتمة البيان إلى وصف حال الرسول ومن تبعه من المؤمنين فذكر أنهم على خلاف أهل الكتاب ما قابلوا ربهم فيما أنعم عليهم بالهداية والإرشاد إلا بأنعم القبول والسمع والطاعة، مؤمنين بالله وملائكته وكتبه ورسله، غير مفرقين بين أحد من رسله، وهم في ذلك حافظون لحكم موقفهم الذي أحاطت به ذلة العبودية وعزة الربوبية، فإنهم مع إجابتهم المطلقة لداعي الحق اعترفوا بعجزهم عن إيفاء

حق الإجابة، لأن وجودهم مبني على الضعف والجهل فربما قصروا عن التحفظ بوظائف المراقبة بنسيان أو خطأ أو قصروا في القيام بواجب العبودية فخانتهم أنفسهم بارتكاب سيئة يوردهم مورد السخط والمؤاخذة كما أورد أهل الكتاب من قبلهم، فالتجئوا إلى جناب العزة ومنبع الرحمة أن لا يؤاخذهم إن نسوا أو أخطئوا، ولا يحمل عليهم إصراً، ولا يحملهم ما لا طاقة لهم به، وأن يعفو عنهم ويغفر لهم وينصرهم على القوم الكافرين.

هـ. هذا هو المقام الذي يعتمد عليه البيان في الآيتين الكريمتين، وهو الموافق كما ترى للغرض المحصل من السورة، لا ما ذكروه: أن الآيتين متعلقتا المضمون بقوله في الآية السابقة: ﴿إِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ﴾ الآية الدال على التكليف بما لا يطاق، وأن الآية الأولى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ الآية، حكاية لقبول الأصحاب تكليف ما لا يطاق، والآية الثانية ناسخة لذلك، وما ذكرناه هو المناسب لما ذكروا في سبب النزول: أن البقرة أول سورة نزلت بالمدينة فإن هجرة النبي ﷺ إلى المدينة واستقراره فيها لما قارن الاستقبال التام من مؤمني الأنصار للدين الإلهي وقيامهم لنصرة رسول الله بالأموال والأنفس، وترك المؤمنين من المهاجرين الأهلين والبنين والأموال والأوطان في جنب الله ولحوقهم برسوله كان هو الموقع الذي يناسب أن يقع فيه حمد من الله سبحانه لإجابتهم دعوة نبيه بالسمع والقبول، وشكر منه لهم، هذا، ويدل عليه بعض الدلالة آخر الآية: ﴿أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ فإن الجملة يومئ إلى أن سؤالهم هذا كان في أوائل ظهور الإسلام.

١. ألم.، والحروف المقطعة:

المقطع [١] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿الم﴾ [البقرة: ١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١/ ٤٤»:

١. ﴿الم﴾ أورد في تفسير سورة الشورى مبحثا حول [تحقيق معنى الحروف المقطعة في أوائل السور: دراسة في معاني الحروف المقطعة، والأقوال الواردة فيها، وتحقيق الرأي الراجح، مع عرض الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام ونقدها] خلاصته:

أ. الحروف المقطعة هي من مختصات القرآن الكريم، ولا توجد في غيره من الكتب السماوية، وقد وردت في أوائل تسع وعشرين سورة.

ب. اختلف المفسرون في تفسيرها ونقل عنهم أحد عشر قولاً، منها: أنها من المتشابهات التي استأثر الله بعلمها، وأنها أسماء للسور أو للقرآن، وأنها أسماء الله مأخوذة من أسمائه الحسنى، وأنها أقسام أقسم الله بها، وأنها إشارات إلى آلائه وبلائه ومدة الأقوام، وأنها من قبيل حروف التهجي للتنبيه على إعجاز القرآن.

ج. الحق أن شيئاً من هذه الأقوال لا تطمئن إليه النفس، لأنها مجرد تصورات لا تتعدى حد الاحتمال، ولا دليل يدل على شيء منها، والروايات الواردة فيها ضعيفة أو مؤولة.

د. الذي ينبغي أن يغفل عنه أن هذه الحروف تكررت في سور شتى، وتبدو بين السور المشتركة في الحروف تشابه في المضامين وتناسب في السياقات، كما في الحواميم والراءات والميمات والطواسين، ويؤكد ذلك تقارب الألفاظ في مفتتح أغلبها.

هـ. يمكن أن يحدس من ذلك أن بين هذه الحروف المقطعة وبين مضامين السور المفتتحة بها ارتباطاً خاصاً، وأنها رموز بين الله ورسوله، خفية عنا، لا سبيل لأفهامنا العادية إليها إلا بمقدار أن نستشعر ذلك الارتباط.

و. الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام في تفسير هذه الحروف، وإن كانت كثيرة، إلا أن ظاهرها يشير إلى أنها حروف مأخوذة من أسماء الله الحسنى، أو أنها من حروف اسم الله الأعظم، أو أن بعضها أسماء للنبي ﷺ، أو أنها إشارة إلى الجبل المحيط بالأرض (ق) أو النهر في الجنة (ن)، لكن هذه التفاسير تحمل على الرمز والمعاني الدقيقة التي تليق بمقامها، ولا تؤخذ بظواهرها الحسية.

ز. الرأي الراجح في هذه الحروف أنها رموز إلهية خفية، لها ارتباط وثيق بمضامين السور التي تفتتح بها، وأنها من الأسرار القرآنية التي لا يحيط بها إلا الله ورسوله وأهل بيته عليهم السلام.

٢. الكتاب هدى للمتقين وأركان التقوى:

المقطع [٢] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٢ـ٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١/ ٤٤»:

١. ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ لما كانت السورة نازلة نجوماً، لم يجمعها غرض واحد، إلا أن معظمها تنبئ عن غاية واحدة محصلة، وهو بيان أن من حق عبادة الله سبحانه أن يؤمن عبده بكل ما أنزله بلسان رسله، من غير تفرقة بين وحي ووحي، ولا بين رسول ورسول، ولا غير ذلك، ثم تقريع الكافرين والمنافقين، وملامة أهل الكتاب بما ابتدعوه من التفرقة في دين الله والتفريق بين رسله، ثم التخلص إلى بيان عدة من الأحكام، كتحويل القبلة، وأحكام الحج والإرث والصوم وغير ذلك.

٢. ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾:

أ. المتقون هم المؤمنون، وليست التقوى من الأوصاف الخاصة لطبقة من طبقاتهم، أعني: لمرتبة من مراتب الإيمان حتى تكون مقاماً من مقاماته، نظير الإحسان والإخبات والإخلاص، بل هي صفة مجامعة لجميع مراتب الإيمان إذا تلبس الإيمان بلباس التحقق، والدليل على ذلك أنه تعالى لا يخص بتوصيفه طائفة خاصة من طوائف المؤمنين على اختلاف طبقاتهم ودرجاتهم، والذي أخذه تعالى من الأوصاف المعرِّفة للتقوى في هذه الآيات التسع عشرة التي يبين فيها حال المؤمنين والكفار والمنافقين، خمس صفات، وهي:

- الإيمان بالغيب.
- وإقامة الصلاة.
- والإنفاق مما رزق الله سبحانه.
- والإيمان بما أنزله على أنبيائه.
- والإيقان بالآخرة.

ب. وقد وصفهم بأنهم على هدى من ربهم، فدل ذلك على أن تلبسهم بهذه الصفات الكريمة بسبب تلبسهم بلباس الهداية من الله سبحانه؛ فهم إنما صاروا متقين أولي هذه الصفات بهداية منه تعالى، ثم وصف الكتاب بأنه هدى لهؤلاء المتقين بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾، فعلمنا بذلك أن الهداية غير الهداية، وأن هؤلاء وهم متقون محفوفون بهدايتين: هداية أولى بها صاروا متقين، وهداية ثانية أكرمهم الله سبحانه بها بعد التقوى، وبذلك صحت المقابلة بين المتقين وبين الكفار والمنافقين؛ فإنه سبحانه يجعلهم في وصفهم بين ضلالين وعمائين: ضلال أول هو الموجب لأوصافهم الخبيثة من الكفر

والنفاق، وضلال ثان يتأكد به ضلالهم الأول، ويتصفون به بعد تحقق الكفر والنفاق، كما يقول تعالى في حق الكفار: ﴿خَتَمَ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ [البقرة: ٧]، فنسب الختم إلى نفسه تعالى والغشاوة إلى أنفسهم، وكما يقول في حق المنافقين: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠]، فنسب المرض الأول إليهم والمرض الثاني إلى نفسه، على حد ما يستفاد من قوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦]، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]

ج. وبالجملة، المتقون واقعون بين هدايتين، كما أن الكفار والمنافقين واقعون بين ضلالين.

د. ثم إن الهداية الثانية لما كانت بالقرآن، فالهداية الأولى قبل القرآن وبسبب سلامة الفطرة؛ فإن الفطرة إذا سلمت لم تنفك من أن تتنبه شاهدة لفقرها وحاجتها إلى أمر خارج عنها، وكذا احتياج كل ما سواها مما يقع عليه حس أو وهم أو عقل إلى أمر خارج، يقف دونه سلسلة الحوائج؛ فهي مؤمنة مذعنة بوجود موجود غائب عن الحس، منه يبدئ الجميع وإليه ينتهي ويعود، وأنه كما لم يهمل دقيقة من دقائق ما يحتاج إليه الخلقة، كذلك لا يهمل هداية الناس إلى ما ينجيهم من مهلكات الأعمال والأخلاق، وهذا هو الإذعان بالتوحيد والنبوة والمعاد، وهي أصول الدين، ويلزم ذلك استعمال الخضوع له سبحانه في ربوبيته، واستعمال ما في وسع الإنسان من مال وجاه وعلم وفضيلة لإحياء هذا الأمر ونشره، وهذان هما الصلاة والإنفاق.

هـ. ومن هنا يعلم أن الذي أخذه سبحانه من أوصافهم هو الذي يقضي به الفطرة إذا سلمت، وأنه سبحانه وعدهم أنه سيفيض عليهم أمراً سماه هداية؛ فهذه الأعمال الزاكية منهم متوسطة بين هدايتين كما عرفت: هداية سابقة وهداية لاحقة، وبين الهدايتين يقع صدق الاعتقاد وصلاح العمل، ومن الدليل على أن هذه الهداية الثانية من الله سبحانه فرع الأولى، آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ [الحديد: ٢٨]، وقوله تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا اللهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]، وقوله تعالى: ﴿وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الصف: ٧]، وقوله تعالى: ﴿وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: ٥]، إلى غير ذلك من الآيات، والأمر في ضلال الكفار

والمنافقين كما في المتقين، على ما سيأتي إن شاء الله.

و. وفي الآيات إشارة إلى حياة أخرى للإنسان كامنة مستبطنة تحت هذه الحياة الدنيوية، وهي الحياة التي بها يعيش الإنسان في هذه الدار وبعد الموت وحين البعث، قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وسيأتي الكلام فيه إن شاء الله.

٣. ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾:

أ. ﴿يُؤْمِنُونَ﴾، الإيمان تمكن الاعتقاد في القلب، مأخوذ من الأمن، كأن المؤمن يعطي لما آمن به الأمن من الريب والشك، وهو آفة الاعتقاد، والإيمان كما مر معنى ذو مراتب؛ إذ الإذعان ربما يتعلق بالشيء نفسه فيترتب عليه أثره فقط، وربما يشتد بعض الاشتداد فيتعلق ببعض لوازمه، وربما يتعلق بجميع لوازمه، فيستنتج منه أن للمؤمنين طبقات على حسب طبقات الإيمان.

ب. ﴿بِالْغَيْبِ﴾، الغيب خلاف الشهادة، وينطبق على ما لا يقع عليه الحس، وهو الله سبحانه وآياته الكبرى الغائبة عن حواسنا، ومنها الوحي، وهو الذي أشير إليه بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾؛ فالمراد بالإيمان بالغيب في مقابل الإيمان بالوحي والإيقان بالآخرة، هو الإيمان بالله تعالى، ليتم بذلك الإيمان بالأصول الثلاثة للدين، والقرآن يؤكد القول على عدم القصر على الحس فقط، ويحرص على اتباع سليم العقل وخالص اللب.

٤. ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ العدول في خصوص الإذعان بالآخرة عن الإيمان إلى الإيقان، كأنه للإشارة إلى أن التقوى لا تتم إلا مع اليقين بالآخرة الذي لا يجامع نسيانها، دون الإيمان المجرد؛ فإن الإنسان ربما يؤمن بشيء ويذهل عن بعض لوازمه، فيأتي بما ينافيه، لكنه إذا كان على علم وذكر من يوم يحاسب فيه على الخطير واليسير من أعماله، لا يقتحم معه الموبقات، ولا يحوم حوم محارم الله سبحانه البتة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦]، فبيّن تعالى أن الضلال عن سبيل الله إنما هو بنسيان يوم الحساب؛ فذكره واليقين به ينتج التقوى.

٥. أورد هنا مبحثا حول [حجية الإدراكات العقلية وإبطال إنكارها في ضوء البرهان الفلسفي]

خلاصته:

أ. مسألة جواز التعويل على غير الإدراكات الحسية من المعاني العقلية هي من معارك الآراء بين المتأخرين من الغربيين، خلافاً للقدماء وحكماء الإسلام الذين أجازوا التعويل على الحس والعقل معاً.

ب. حجة منكري حجية العقل ـ القائمة على كثرة الخطأ في العقليات وعدم وجود ميزان سوى الحس ـ باطلة من خمسة وجوه.

ج. الوجه الأول: الحجة نفسها تتضمن مقدمات عقلية، فيلزم من صحتها فسادها.

د. الوجه الثاني: الخطأ في الحواس لا يقل عن الخطأ في العقليات، فلو كان وقوع الخطأ موجباً للسد، لكان سد باب الحس أولى.

هـ. الوجه الثالث: التمييز بين الخطأ والصواب يحتاج إلى قياس عقلي، والتجربة ليست آلة تمييز بل إحدى مقدمات القياس.

و. الوجه الرابع: صحة التجربة نفسها لا تثبت بتجربة أخرى، بل بالعلم العقلي اضطراراً.

ز. الوجه الخامس: الحس لا يدرك إلا الجزئي المتغير، بينما العلوم قضايا كلية لا تنال إلا بالعقل.

ح. التكوين الإلهي لا يخصص موجوداً بفعل هو محض خطأ، ووقوع الخطأ في العلوم له بيان آخر.

٦. أورد هنا مبحثا حول [إثبات وجود العلم وحقيقته المجردة والرد على الشكوك السوفسطائية والمادية] خلاصته:

أ. ينتبه الإنسان إلى وجود العلم في نفسه عند مصادفته الشك أو الظن، حيث يميز بينهما وبين اليقين، ويدرك أن الخطأ لا يتطرق إلى الأعيان الخارجية نفسها بل إلى إدراكه.

ب. كل التصديقات العلمية ترجع في نهاية التحليل إلى قضية أول الأوائل (امتناع اجتماع النقيضين وارتفاعهما)، وهي بديهية وضرورية.

ج. السوفسطائيون والشكاكون نفوا وجود العلم، واحتجوا بكثرة الخطأ في الحواس، وبأننا لا ندرك إلا العلم بالأشياء لا نفسها، وقد أبطل الطباطبائي حججهم.

د. الرد على الشكاكين: حجتهم تبطل نفسها، والاعتراف بالخطأ يستلزم الاعتراف بالصواب، والسلوك العملي للإنسان يثبت وجود العلم اضطراراً.

هـ. المادية المعاصرة أنكرت العلم الثابت بحجة أن كل شيء مادي متغير، وهذا باطل لأن العلم ليس بمادي، ولا تنطبق عليه صفات المادة من انقسام وزمان ومكان وتغير.

و. الأدلة على تجرد العلم: عدم قبوله للانقسام، وعدم تقيده بزمان أو مكان، وثبات هويته رغم تغير الظروف، واستحالة تذكر شيء متغير بذاته.

٧. ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾:

أ. وقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾، الهداية كلها من الله سبحانه، لا تنسب إلى غيره البتة إلا على نحو من المجاز، كما سيأتي إن شاء الله، ولما وصفهم الله سبحانه بالهداية، وقد قال في نعتها: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، وشرح الصدر سعته، وهذا الشرح يدفع عنه كل ضيق وشح، وقد قال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]، فعقَّب سبحانه ههنا أيضاً قوله: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ بقوله: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الآية.

٨. أحاديث وآثار:

أ. في المعاني عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾، قال: من آمن بقيام القائم عليه السلام أنه حق.

- أقول: وهذا المعنى مروي في غير هذه الرواية، وهو من الجري.

ب. وفي تفسير العياشي عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾، قال: ومما علمناهم يبثون.

ج. وفي المعاني عنه عليه السلام في الآية: ومما علمناهم يبثون، وما علمناهم من القرآن يتلون.

- أقول: والروايتان مبنيتان على حمل الإنفاق على الأعم من إنفاق المال، كما ذكرناه.

٣. ختم الله على قلوب الكافرين وعذابهم العظيم:

المقطع [٣] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٦-٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١/ ٥٨»:

١. ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾:

أ. قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، هؤلاء قوم ثبتوا على الكفر وتمكن الجحود من قلوبهم، ويدل عليه وصف حالهم بمساواة الإنذار وعدمه فيهم.

ب. ولا يبعد أن يكون المراد من هؤلاء الذين كفروا هم الكفار من صناديد قريش وكبراء مكة الذين عاندوا ولجُّوا في أمر الدين، ولم يألوا جهداً في ذلك، ولم يؤمنوا حتى أفناهم الله عن آخرهم في بدر وغيره.

ج. ويؤيده أن هذا التعبير، وهو قوله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، لا يمكن استطراده في حق جميع الكفار؛ وإلا انسد باب الهداية، والقرآن ينادي على خلافه.

د. وأيضاً، هذا التعبير إنما وقع في سورة يس (وهي مكية)، وفي هذه السورة (وهي سورة البقرة، أول سورة نزلت في المدينة) نزلت ولم تقع غزوة بدر بعد، فالأشبه أن يكون المراد من الذين كفروا ههنا وفي سائر الموارد من كلامه تعالى: كفار مكة في أول البعثة، إلا أن تقوم قرينة على خلافه، نظير ما سيأتي أن المراد من قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فيما أطلق في القرآن من غير قرينة هم السابقون الأولون من المسلمين، خُصُّوا بهذا الخطاب تشريفاً.

٢. ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾:

أ. قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ الآية، يشعر تغيير السياق (حيث نسب الختم إلى نفسه تعالى، والغشاوة إليهم أنفسهم) بأن فيهم حجاباً دون الحق في أنفسهم، وحجاباً من الله تعالى عقيب كفرهم وفسوقهم؛ فأعمالهم متوسطة بين حجابين: من ذاتهم ومن الله تعالى.

ب. وسيأتي بعض ما يتعلق بالمقام في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا﴾ [البقرة: ٢٦]

٣. تنبيه عام: اعلم أن الكفر كالإيمان وصف قابل للشدة والضعف، فله مراتب مختلفة الآثار، كالإيمان.

٤. صفات المنافقين وخداعهم لأنفسهم:

المقطع [٤] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ

فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: ٨-١٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١/ ٥٩»:

أ. الخدعة نوع من المكر، والشيطان هو الشرير، ولذلك سمي إبليس شيطاناً.

ب. وفي الآيات بيان حال المنافقين، وسيجيء إن شاء الله تفصيل القول فيهم في سورة المنافقين وغيرها.

٥. مثل المنافقين:

المقطع [٥] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٧-٢٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١/ ٥٩»:

١. ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾:

أ. ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾، مثل يمثل به حالهم، أنهم كالذي وقع في ظلمة عمياء لا يتميز فيها خير من شر، ولا نافع من ضار، فتسبب لرفعها بسبب من أسباب الاستضاءة كنار يوقدها، فيبصر بها ما حولها، فلما توقدت وأضاءت ما حولها، أخمدها الله بسبب من الأسباب كريح أو مطر أو نحوهما، فبقي فيما كان عليه من الظلمة، وتورط بين ظلمتين: ظلمة كان فيها، وظلمة الحيرة وبطلان السبب.

ب. وهذه حال المنافق: يظهر الإيمان فيستفيد بعض فوائد الدين باشتراكه مع المؤمنين في مواريثهم

ومناكحهم وغيرها، حتى إذا حان حين الموت، وهو الحين الذي فيه تمام الاستفادة من الإيمان، ذهب الله بنوره، وأبطل ما عمله، وتركه في ظلمة لا يدرك فيها شيئاً، ويقع بين الظلمة الأصلية وما أوجده من الظلمة بفعاله.

٢. ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾:

أ. ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾، الصيب هو المطر الغزير، والبرق معروف، والرعد هو الصوت الحادث من السحاب عند الإبراق، والصاعقة هي النازلة من البروق.

ب. وهذا مثل ثان يمثل به حال المنافقين في إظهارهم الإيمان، أنهم كالذي أخذه صيب السماء، ومعه ظلمة تسلب عنه الأبصار والتمييز؛ فالصيب يضطره إلى الفرار والتخلص، والظلمة تمنعه ذلك، والمهولات من الرعد والصاعقة محيطة به، فلا يجد مناصاً من أن يستفيد بالبرق وضوئه، وهو غير دائم ولا باقٍ متصل؛ كلما أضاء له مشى، وإذا أظلم عليه قام.

ج. وهذه حال المنافق: فهو لا يحب الإيمان، ولا يجد بداً من إظهاره، ولعدم المواطأة بين قلبه ولسانه، لا يستضيء له طريقه تمام الاستضاءة، فلا يزال يخبط خبطاً بعد خبط، ويعثر عثرة بعد عثرة، فيمشي قليلاً ويقف قليلاً، ويفضحه الله بذلك، ولو شاء الله لذهب بسمعه وبصره، فيفتضح من أول يوم.

٦. دعوة الناس لعبادة الخالق والتوحيد الخالص:

المقطع [٦] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا للهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١-٢٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١/ ٥٧»:

١. ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾:

أ. لما بيّن سبحانه حال الفرق الثلاث: المتقين والكافرين والمنافقين، وأن المتقين على هدى من ربهم والقرآن هدى لهم، وأن الكافرين مختوم على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة، وأن المنافقين مرضى وزادهم الله مرضاً وهم صم بكم عمي (وذلك في تمام تسع عشرة آية)، فرّع تعالى على ذلك أن دعا

الناس إلى عبادته وأن يلتحقوا بالمتقين دون الكافرين والمنافقين، بهذه الآيات الخمس إلى قوله: ﴿خَالِدُونَ﴾

ب. وهذا السياق يعطي كون قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ متعلقاً بقوله: ﴿اعْبُدُوا﴾، دون قوله: ﴿خَلَقَكُمْ﴾، وإن كان المعنى صحيحاً على كلا التقديرين.

٢. ﴿فَلَا تَجْعَلُوا للهَّ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾:

أ. قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا للهَّ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، الأنداد جمع ند، مثل (كم) وزناً ومعنى.

ب. وعدم تقييد قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ بقيد خاص، وجعله حالاً من قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا﴾، يفيد التأكيد البالغ في النهي، بأن الإنسان وله علم ما كيفما كان، لا يجوز له أن يتخذ لله سبحانه أنداداً، والحال أنه سبحانه هو الذي خلقهم والذين من قبلهم، ثم نظم النظام الكوني لرزقهم وبقائهم.

٧. تحدي القرآن وعجز البشر عن الإتيان بمثله:

المقطع [٧] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهَّ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٣-٢٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١/ ٥٨»:

١. ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللهَّ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾:

أ. قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾، أمر تعجيزي لإبانة إعجاز القرآن، وأنه كتاب منزل من عند الله لا ريب فيه، إعجازاً باقياً بمر الدهور وتوالي القرون، وقد تكرر في كلامه تعالى هذا التعجيز، كقوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]، وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللهَّ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود: ١٣]

ب. وعلى هذا، فالضمير في ﴿مِثْلِهِ﴾ عائد إلى قوله تعالى: ﴿مِمَّا نَزَّلْنَا﴾، فيكون تعجيزاً بالقرآن نفسه وبداعة أسلوبه وبيانه.

ج. ويمكن أن يكون الضمير راجعاً إلى قوله: ﴿عَبْدِنَا﴾، فيكون تعجيزاً بالقرآن من حيث إن

الذي جاء به رجل أمي، لم يتعلم من معلم، ولم يتلق شيئاً من هذه المعارف الغالية العالية والبيانات البديعة المتقنة من أحد من الناس؛ فتكون الآية في مساق قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٦]، وقد ورد التفسيران معاً في بعض الأخبار.

٢. تنبيه في إعجاز السور:

أ. واعلم أن هذه الآية كنظائرها تعطي إعجاز أقصر سورة من القرآن، كسورة الكوثر وسورة العصر مثلاً.

ب. وما ربما يحتمل من رجوع ضمير ﴿مِثْلِهِ﴾ إلى نفس السورة كسورة البقرة أو سورة يونس مثلاً، يأباه الفهم المستأنس بأساليب الكلام؛ إذ من يرمي القرآن بأنه افتراء على الله تعالى إنما يرميه جميعاً، ولا يخصص قوله ذاك بسورة دون سورة، فلا معنى لرده بالتحدي بسورة البقرة أو بسورة يونس، لرجوع المعنى حينئذ إلى مثل قولنا: (وإن كنتم في ريب من سورة الكوثر أو الإخلاص مثلاً، فأتوا بسورة مثل سورة يونس)، وهم بين الاستهجان هذا.

٣. ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾:

أ. سوق الآيات من أول السورة، وإن كانت لبيان حال المتقين والكافرين والمنافقين (الطوائف الثلاث) جميعاً، لكنه سبحانه حيث جمعهم طرّاً في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾، ودعاهم إلى عبادته، تقسموا لا محالة إلى مؤمن وغيره؛ فإن هذه الدعوة لا تحتمل من حيث إجابتها وعدمها غير القسمين: المؤمن والكافر، وأما المنافق، فإنما يتحقق بضم الظاهر إلى الباطن، واللسان إلى القلب؛ فكان هناك من جمع بين اللسان والقلب إيماناً أو كفراً، ومن اختلف لسانه وقلبه، وهو المنافق، فلما ذكرنا (لعلّه) أسقط المنافقون من الذكر، وخصّ بالمؤمنين والكافرين، ووضع الإيمان مكان التقوى.

ب. ثم إن الوقود ما توقد به النار، وقد نصت الآية على أنه نفس الإنسان؛ فالإنسان وقود وموقود عليه، كما في قوله تعالى أيضاً: ﴿ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [المؤمن: ٧٢]، وقوله تعالى: ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾ [الهمزة: ٧]؛ فالإنسان معذّب بنار توقده نفسه.

ج. وهذه الجملة نظيرة قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ [البقرة: ٢٥]، ظاهرة في أنه ليس للإنسان هناك إلا ما هيّأه من ههنا، كما عن النبي ﷺ:

(كما تعيشون تموتون، وكما تموتون تبعثون) الحديث، وإن كان بين الفريقين فرق من حيث أن لأهل الجنة مزيداً عند ربهم، قال تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥]

د. والمراد بالحجارة في قوله: ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾، الأصنام التي كانوا يعبدونها، ويشهد به قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، والحصب هو الوقود.

٤. أورد هنا مبحثا حول [حقيقة الإعجاز القرآني ووجوه التحدي وعلاقة المعجزة بالرسالة] خلاصته:

أ. دعوى الإعجاز القرآني تنحلّ إلى دعويين: ثبوت أصل الإعجاز، وكون القرآن مصداقاً له، والقرآن يكتفي بالتحدي بنفسه لإثبات كلتا النتيجتين.

ب. التحدي القرآني عامّ لكل الثقلين (الإنس والجن) من جميع الجهات: البلاغة، الحكمة، العلم، التشريع، الأخبار الغيبية، وعدم الاختلاف.

ج. القرآن يدعي إعجازاً شاملاً لكل فرد بحسب ما يدركه من الفضيلة، وليس مقصوراً على البلاغة وحدها، بل يشمل المعارف الإلهية والأخلاق والتشريع والإخبار بالغيب.

د. التحدي بالبلاغة قائم على أن العرب بلغوا الذروة في البيان، فعجزهم دليل على أن القرآن فوق طوق البشر، وليس الإعجاز بالصرف (منع الله) كما قال بعضهم.

هـ. التحدي بالنبي الأمي يظهر استحالة أن يأتي رجل لم يتعلم عند معلم بهذا الكتاب العظيم في لفظه ومعناه، مع طول مكثه بين قومه دون أن يُعرف بشيء من ذلك.

و. التحدي بالإخبار عن الغيب (الماضي والمستقبل) ومنها الإعجاز العلمي في آيات مثل: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾، مما يكشف عن علم إلهي.

ز. التحدي بعدم الاختلاف في القرآن، مع أنه نزل في ظرف ٢٣ سنة في أحوال متباينة، يدل على أنه من عند الله، لأن كل كلام بشري يعتريه الاختلاف والتحول.

ح. إعجاز القرآن ليس في اللفظ فقط، بل في المعنى المطابق للحقيقة الثابتة، والقرآن قول فصل لا هزل فيه، يتكئ على حقائق لا تتغير.

ط. المعجزة ليست مجرد خرق للعادة، بل مستندة إلى سبب حقيقي غير مغلوب، وهو أمر الله

وإذنه، وليست حجة على الجاهل فقط، بل برهان على صدق الرسالة.

ي. النبوة ليست نبوغاً فكرياً أو قيادة اجتماعية كما زعم الماديون، بل هي اتصال بما وراء الطبيعة، والوحي أمر غير سنخ الإدراكات البشرية العادية.

٨. بشارة المؤمنين بالجنة ونعيمها الدائم:

المقطع [٨] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١/ ٦٠»:

١. ﴿لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾:

أ. ﴿لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾، قرينة الأزواج تدل على أن المراد بالطهارة هي الطهارة من أنواع الأقذار والمكاره التي تمنع من تمام الالتئام والألفة والأنس، من الأقذار والمكاره الخَلقية والخُلُقية.

٢. روى الصدوق، قال: سئل الصادق عليه السلام عن الآية فقال: الأزواج المطهّرة اللاتي لا يحضن ولا يحدثن.

- أقول: وفي بعض الروايات تعميم الطهارة للبراءة عن جميع العيوب والمكاره.

٩. ضرب الأمثال الإلهية وموقف المؤمنين والكافرين منها:

المقطع [٩] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَّ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُّ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهَّ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُّ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة: ٢٦-٢٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١/ ٩٢»:

١. ﴿إِنَّ اللهَّ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾:

أ. قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَّ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً﴾، البعوضة الحيوان المعروف، وهو من أصغر الحيوانات المحسوسة.

ب. وهذه الآية والتي بعدها نظيرة ما في سورة الرعد: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ

كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾ [الرعد: ١٩-٢١]

ج. وكيف كان، فالآية تشهد على أن من الضلال والعمى ما يلحق الإنسان عقيب أعماله السيئة، غير الضلال والعمى الذي له في نفسه ومن نفسه؛ حيث يقول تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾، فقد جعل إضلاله في تلو الفسق لا متقدماً عليه، هذا.

٢. أورد هنا مبحثا حول [الهداية والإضلال ووجها الجزاء في القرآن] خلاصته:

أ. الهداية والإضلال كلمتان جامعتان لجميع أنواع الكرامة والخزلان التي ترد من الله على عباده السعداء والأشقياء.

ب. حال السعداء في القرآن: إحياء حياة طيبة، وتأييد بروح الإيمان، وإخراج من الظلمات إلى النور، وجعل نور يمشون به، وولاية الله لهم، واستجابة دعائهم، ونزول الملائكة عليهم بالبشرى.

ج. حال الأشقياء في القرآن: الإضلال، والإخراج من النور إلى الظلمات، والختم على القلوب والسمع، والغشاوة على الأبصار، والأغلال في الأعناق، والسد من بين أيديهم ومن خلفهم، وتقييد الشياطين، والاستدراج، والإملاء، والمكر.

د. ظاهر القرآن يدل على أن للإنسان حياة سابقة على حياته الدنيا، وحياة لاحقة بعدها، والحياة الثالثة تتبع الثانية، والثانية تتبع الأولى.

هـ. الجمهور حملوا الآيات الواصفة للحياة السابقة على لسان الحال والاستعداد، والآيات الواصفة للحياة اللاحقة على المجاز والاستعارة، لكن ظواهر كثير من الآيات تدفع ذلك.

و. الأدلة على حقيقة الحياة اللاحقة كثيرة، كقوله: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، وقوله: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾، وقوله: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ﴾، فالغفلة لا تكون إلا عن معلوم حاضر، وكشف الغطاء لا يستقيم إلا عن مغطى موجود.

ز. وجها الجزاء في القرآن: وجه المجازاة بالثواب والعقاب (وهو ما يفيد أن الجنة والنار جزاء للعمل)، ووجه تجسم الأعمال (وهو ما يفيد أن الأعمال تهيئ بنفسها أموراً هي التي سيطلع عليها الإنسان يوم القيامة)، والوجهان ليسا متنافيين، بل الحقائق تقرب بالأمثال المضروبة كما ينص القرآن.

٣. ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾:

أ. قوله تعالى: ﴿إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾، الفسق كما قيل: من الألفاظ التي أبدع القرآن استعمالها في معناها المعروف، مأخوذ من (فسقت التمرة) إذا خرجت عن قشرها وجلدها.

ب. ولذلك فُسِّر بعده بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللهِّ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ الآية، والنقض إنما يكون عن إبرام.

ج. ولذلك أيضاً وصف الفاسقين في آخر الآية بالخاسرين، والإنسان إنما يخسر فيما ملكه بوجه، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الشورى: ٤٥]

٤. تنبيه في الصفات الإلهية:

أ. وإياك أن تتلقى هذه الصفات التي أثبتها سبحانه في كتابه للسعداء من عباده أو الأشقياء، مثل: المقرّبين، والمخلصين، والمخبتين، والصالحين، والمطهّرين، وغيرهم، ومثل: الظالمين، والفاسقين، والخاسرين، والغاوين، والضالين، وأمثالها، أوصافاً مبتذلة، أو مأخوذة لمجرد تزيين اللفظ، فتضطرب بذلك قريحتك في فهم كلامه تعالى، فتعطف الجميع على واد واحد، وتأخذها هجاءً عامياً، وحديثاً ساذجاً سوقياً.

ب. بل هي أوصاف كاشفة عن حقائق روحية ومقامات معنوية في صراطي السعادة والشقاوة، كل واحد منها في نفسه مبدأ لآثار خاصة، ومنشأ لأحكام مخصوصة معينة، كما أن مراتب السن وخصوصيات القوى وأوضاع الخلقة في الإنسان، كل منها منشأ لأحكام وآثار مخصوصة، لا يمكننا أن نطلب واحداً منها من غير منشئه ومحتده.

ج. ولئن تدبَّرت في مواردها من كلامه تعالى وأمعنت فيها، وجدت صدق ما ادعيناه.

٥. أورد هنا مبحثا حول [الجبر والتفويض في ضوء الملكية الإلهية والتشريع القرآني] خلاصته:

أ. ملكية الله للأشياء ملكية مطلقة، بخلاف الملكية البشرية المقيدة، فالله يتصرف في ملكه كيف يشاء، ولا يسأل عما يفعل.

ب. التشريع الإلهي يجري على طريقة العقلاء في المجتمع، من استحسان الحسن والمدح، واستقباح القبيح والذم، وهو مبني على مصالح العباد ومفاسدهم.

ج. التكاليف الشرعية متوجهة إلى المختار لا إلى المضطر أو المجبر، والثواب والعقاب يتعلقان بالفعل الاختياري.

د. الإضلال المنسوب إلى الله في القرآن ليس إضلالاً ابتدائياً، بل هو خذلان ومجازاة لمن استحق ذلك بسوء اختياره، كالفاسقين والمسرفين المرتابين.

هـ. التشريع لا يلائم الجبر (لأنه ينافي التكليف والجزاء)، ولا يلائم التفويض (لأنه ينفي ملكية الله المطلقة)، بل الحق هو الأمر بين الأمرين.

٦. أورد هنا مبحثا حول [معنى الجبر والتفويض والأمر بين الأمرين في الروايات ـ دراسة في القضاء والقدر، والإرادة الإلهية، والاختيار الإنساني، والعدل الإلهي] خلاصته:

أ. استفاضت الروايات عن أئمة أهل البيت عليهم السلام بقولهم: (لا جبر ولا تفويض بل أمر بين الأمرين)، وهو الموقف الوسط بين قول المجبرة (الذي يبطل الاختيار والثواب والعقاوقول المعتزلة (الذي يثبت خالقاً مستقلاً للأفعال)

ب. القضاء والقدر إذا فهم فهماً خاطئاً يؤدي إلى الجبر، كما وقع للمجبرة الذين قالوا بتعلق الإرادة الإلهية الأزلية بكل شيء، فصار كل موجود ضرورياً، وبطل بذلك الاختيار والتكليف والثواب والعقاب، ولزمهم الترجيح بلا مرجح، والتكليف بما لا يطاق، والظلم في العقاب.

ج. جواب الإمام علي عليه السلام للشيخ الذي سأل عن القضاء والقدر: (لو كان قضاء حتماً وقدراً لازماً لبطل الثواب والعقاب والأمر والنهي، ولسقط معنى الوعد والوعيد، ولم تكن على مسيء لائمة ولا على محسن محمدة)، ثم بيّن أن الله (كلف تخييراً ونهى تحذيراً، وأعطى على القليل كثيراً، ولم يعص مغلوباً، ولم يطع مكرهاً)

د. الفرق بين الإرادتين: الإرادة الإلهية والإرادة الإنسانية ليستا في عرض واحد حتى تتزاحما، بل هما في طول بعضهما البعفالإرادة الإلهية تعلقت بالفعل بجميع شؤونه وخصوصياته الوجودية، ومنها كونه فعل اختياري صادر عن إرادة الفاعفالفعل ضروري بالنسبة إلى الإرادة الإلهية، وممكن اختياري بالنسبة إلى الإرادة الإنسانية.

هـ. المعتزلة وافقوا المجبرة على أن تعلق إرادة الله بالفعل يبطل الاختيار، لكنهم أصروا على

الاختيار فنفوا تعلق الإرادة الإلهية بالأفعال، فلزمهم إثبات خالق آخر للأفعال (الإنسان)، وهو محذور الثنوية.

و. المثل الدال على الأمر بين الأمرين: المولى يعطي عبده مالاً ويملكه إياه، فالمولى مالك في عين أن العبد مالك، فهنا ملك على ملكذلك الإنسان يملك فعله بإذن الله، والله هو المالك الحقيقي.

ز. الأفعال لها جهتان: جهة ثبوت ووجود (وهي مخلوقة لله)، وجهة انتساب إلى الفاعل (وهي التي تتصف بها الأفعال بأنها طاعة أو معصية)فالنكاح والزنا لا فرق بينهما من جهة الثبوت، وإنما الفرق هو الموافقة للأمر الإلهي أو عدمها.

ح. السيئات من حيث هي معاصٍ هي أمور عدمية (فقدان المصلحة أو الموافقة)، ولهذا لا تنسب إلى الله، وإن كانت من جهة أخرى منسوبة إليه بالإذن ونحووالمصائب إنما هي سيئات نسبية بالنسبة إلى الإنسان الذي يفقد نعمة كان واجداً لها.

٧. أورد هنا مبحثا حول [حقيقة الفعل الإرادي والجبر والاختيار في ضوء النظام الوجودي] خلاصته:

أ. الأفعال تنقسم بحسب صدورها إلى فعل طبيعي (اضطراري) لا دخل للعلم فيه، وفعل إرادي يصدر عن علم وتمييز.

ب. الفعل الإرادي يحتاج إلى ترجيح علمي يعين للفاعل ما هو كمال له، وهذا الترجيح قد يكون مستنداً إلى الفاعل نفسه (اختيار) أو إلى تأثير الغير (إجبار)، لكن كليهما يشتركان في الترجيح العلمي.

ج. التقسيم إلى اختياري واضطراري ليس تقسيمًا حقيقيًا بحسب الذات، بل بحسب الاعتبارات العقلائية، والبحث الفلسفي لا يتناول الاعتبارات بل الموجودات الخارجية.

د. كل ممكن حادث مفتقر إلى علة تامة، وإذا نسب إلى علته التامة كان وجوده ضرورياً، وإذا نسب إلى بعض أجزائها كان وجوده ممكناً.

هـ. الفعل الإنساني مستند إلى الإرادة الإلهية مع حفظ كونه إرادياً اختيارياً، والنسبتان (إلى الله وإلى الإنساطوليتان غير متضادتين.

و. قول المعتزلة بنفي القدر، وقول الأشاعرة بالجبر، وقول الماديين بنفي الاختيار، كلها أقوال

باطلة، والحق هو الأمر بين الأمرين.

١٠. إحياء الله للإنسان وتدبير الخلق في السماوات والأرض:

المقطع [١٠] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨ـ٢٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١/ ١١١»:

١. ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾:

أ. ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا﴾، الآية قريبة السياق من قوله تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ [المؤمن: ١١]

ب. وهذه من الآيات التي يستدل بها على وجود البرزخ بين الدنيا والآخرة؛ فإنها تشتمل على إماتتين، فلو كان إحداهما الموت الناقل من الدنيا، لم يكن بدّ في تصوير الإماتة الثانية من فرض حياة بين الموتين، وهو البرزخ، وهو استدلال تام اعتني به في بعض الروايات أيضاً.

ج. وربما ذكر بعض المنكرين للبرزخ: أن الآيتين، أعني قوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾ الآية، وقوله: ﴿قَالُوا رَبَّنَا﴾ الآية، متحدتا السياق، وقد اشتملتا على موتين وحيوتين، فمدلولها واحد، والآية الأولى ظاهرة في أن الموت الأول هو حال الإنسان قبل ولوج الروح في الحياة الدنيا؛ فالموت والحياة الأوليان هما الموت قبل الحياة الدنيا والحياة الدنيا، والموت والحياة الثانيتان هما الموت عن الدنيا والحياة يوم البعث، والمراد بالمراتب في الآية الثانية هو ما في الآية الأولى، فلا معنى لدلالتها على البرزخ.

د. وهو خطأ؛ فإن الآيتين مختلفتان سياقاً، إذ المأخوذ في الآية الأولى موت واحد وإماتة واحدة وإحياءان، وفي الآية الثانية إماتتان وإحياءان، ومن المعلوم أن الإماتة لا يتحقق لها مصداق من دون سابقة حياة، بخلاف الموت؛ فالموت الأول في الآية الأولى غير الإماتة الأولى في الآية الثانية، فلا محالة في قوله تعالى: ﴿أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾، الإماتة الأولى هي التي بعد الدنيا، والإحياء الأول بعدها للبرزخ، والإماتة والإحياء الثانيتان للآخرة يوم البعث، وفي قوله تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾، إنما يريد الموت قبل الحياة، وهو موت وليس بإماتة، والحياة هي الحياة الدنيا، وفي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، حيث

فصَّل بين الإحياء والرجوع بلفظ (ثم)، تأييد لما ذكرنا، هذا.

٢. ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ (بيان حقيقة الإنسان):

أ. قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا﴾، بيان حقيقة الإنسان من حيث وجوده؛ فهو وجود متحوّل متكامل، يسير في مسير وجوده المتبدّل المتغير تدريجاً، ويقطعه مرحلة مرحلة، فقد كان الإنسان قبل نشأته في الحياة الدنيا ميتاً، ثم حيي بإحياء الله، ثم يتحول بإماتة وإحياء، وهكذا، وقد قال سبحانه: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ﴾ [السجدة: ٩]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١٠ـ١١]، وقال تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥]

ب. والآيات كما ترى (وسنزيدها توضيحاً في محالها) تدل على أن الإنسان جزء من الأرض غير مفارقها ولا مباين معها، انفصل منها ثم شرع في التطور بأطواره حتى بلغ مرحلة أُنشئ فيها خلقاً آخر، فهو المتحوِّل خلقاً آخر، والمتكامل بهذا الكمال الجديد الحديث، ثم يأخذ ملك الموت هذا الإنسان من البدن نوع أخذ يستوفيه، ثم يرجع إلى الله سبحانه؛ فهذا صراط وجود الإنسان.

ج. ثم إن الإنسان صاغه التقدير صوغاً يرتبط به مع سائر الموجودات الأرضية والسماوية، من بسائط العناصر وقواها المنبجسة منها، ومركباتها من حيوان ونبات ومعدن وغير ذلك، من ماء أو هواء وما يشاكلها، وكل موجود من الموجودات الطبيعية كذلك، أي إنه مفطور على الارتباط مع غيره ليفعل وينفعل، ويستبقي به موهبة وجوده، غير أن نطاق عمل الإنسان ومجال سعيه أوسع؛ كيف؟ وهذا الموجود الأعزل، على أنه يخالط الموجودات الأخرى الطبيعية بالقرب والبعد والاجتماع والافتراق، بالتصرفات البسيطة لغاية مقاصده البسيطة في حياته، فهو من جهة تجهيزه بالإدراك والفكر يختص بتصرفات خارجة عن طوق سائر الموجودات، بالتفصيل والتركيب والإفساد والإصلاح، فما من موجود إلا وهو في تصرف الإنسان، فزماناً يحاكي الطبيعة بالصناعة فيما لا يناله من الطبيعة، وزماناً يقاوم الطبيعة بالطبيعة، وبالجملة، فهو مستفيد لكل غرض من كل شيء، ولا يزال مرور الدهور على هذا النوع العجيب يؤيده في تكثير

تصرفاته وتعميق أنظاره، ليحق الله الحق بكلماته، وليصدق قوله: ﴿سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣]، وقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٩]، وكون الكلام واقعاً موقع بيان النعم لتمام الامتنان يعطي أن يكون الاستواء إلى السماء لأجل الإنسان، فيكون تسويتها سبعاً أيضاً لأجله، وعليك بزيادة التدبر فيه.

د. فذاك الذي ذكرناه من صراط الإنسان في مسير وجوده، وهذا الذي ذكرناه من شعاع عمله في تصرفاته في عالم الكون، هو الذي يذكره سبحانه من العالم الإنساني، ومن أين يبتدي وإلى أين ينتهي.

هـ. غير أن القرآن كما يعد مبدأ حياته الدنيوية آخذاً في الشروع من الطبيعة الكونية ومرتبطاً بها (أحياناً)، كذلك يربطها بالربّ تعالى وتقدس، فقال تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: ٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ [البروج: ١٣]، فالإنسان وهو مخلوق مربى في مهد التكوين، مرتضع من ثدي الصنع والإيجاد، متطور بأطوار الوجود، يرتبط سلوكه بالطبيعة الميتة، كما أنه من جهة الفطر والإبداع مرتبط متعلق بأمر الله وملكوته، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]، فهذا من جهة البدء، وأما من جهة العود والرجوع، فيعد صراط الإنسان متشعباً إلى طريقين: طريق السعادة وطريق الشقاوة.

• فطريق السعادة فهو أقرب الطرق، يأخذ في الانتهاء إلى الرفيع الأعلى، ولا يزال يصعد الإنسان ويرفعه حتى ينتهي به إلى ربه.

• وأما طريق الشقاوة فهو طريق بعيد، يأخذ في الانتهاء إلى أسفل السافلين، حتى ينتهي إلى رب العالمين، والله من ورائهم محيط، وقد مر بيان ذلك في ذيل قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ من سورة الفاتحة.

و. فهذا إجمال القول في صراط الإنسان، وأما تفصيل القول في حياته قبل الدنيا وفيها وبعد الدنيا، فسيأتي كل في محله، غير أن كلامه تعالى إنما يتعرض لذلك من جهة ارتباطه بالهداية والضلال والسعادة والشقاء، ويطوي البحث عما دون ذلك إلا بمقدار يماس غرض القرآن المذكور.

٣. ﴿فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾، سيأتي الكلام في السماء في سورة (حم السجدة) إن شاء الله تعالى.

١١. استخلاف الله للإنسان في الأرض وحكمة اختياره:

المقطع [١١] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١/ ١١٦»:

١. ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾:

أ. قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾، سيأتي الكلام في معنى القول منه تعالى، وكذا القول من الملائكة والشيطان إن شاء الله.

ب. قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ إلى قوله: ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، مشعر بأنهم إنما فهموا وقوع الإفساد وسفك الدماء من قوله سبحانه: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾؛ حيث أن الموجود الأرضي بما أنه مادي مركب من القوى الغضبية والشهوية، والدار دار التزاحم، محدودة الجهات، وافرة المزاحمات، مركباتها في معرض الانحلال، وانتظاماتها وإصلاحاتها في مظنة الفساد ومصب البطلان، لا تتم الحياة فيها إلا بالحياة النوعية، ولا يكمل البقاء فيها إلا بالاجتماع والتعاون، فلا تخلو من الفساد وسفك الدماء، ففهموا من هناك أن الخلافة المرادة لا تقع في الأرض إلا بكثرة من الأفراد ونظام اجتماعي بينهم يفضي بالأخرة إلى الفساد والسفك.

ج. والخلافة، وهي قيام شيء مقام آخر، لا تتم إلا بكون الخليفة حاكياً للمستخلف في جميع شؤونه الوجودية وآثاره وأحكامه وتدابيره بما هو مستخلف، والله سبحانه في وجوده مسمى بالأسماء الحسنى، متصف بالصفات العليا، من أوصاف الجمال والجلال، منزه في نفسه عن النقص، ومقدس في فعله عن الشر والفساد، جلّت عظمته، والخليفة الأرضي بما هو كذلك لا يليق بالاستخلاف، ولا يحكي بوجوده المشوب بكل نقص وشين، الوجود الإلهي المقدس المنزه عن جميع النقائص وكل الأعدام؛ فأين التراب ورب الأرباب؟

د. وهذا الكلام من الملائكة في مقام تعرف ما جهلوه، واستيضاح ما أشكل عليهم من أمر هذا الخليفة، وليس من الاعتراض والخصومة في شيء، والدليل على ذلك قولهم فيما حكاه الله تعالى عنهم:

﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾، حيث صدرت الجملة بـ(إنّ) التعليلية المشعرة بتسلم مدخولها، فافهم، فملخص قولهم يعود إلى أن جعل الخلافة إنما هو لأجل أن يحكي الخليفة مستخلفه بتسبيحه بحمده وتقديسه له بوجوده، والأرضية لا تدعه يفعل ذلك، بل تجره إلى الفساد والشر، والغاية من هذا الجعل وهي التسبيح والتقديس بالمعنى الذي مر من الحكاية حاصلة بتسبيحنا بحمدك وتقديسنا لك؛ فنحن خلفاؤك، أو فاجعلنا خلفاء لك، فما فائدة جعل هذه الخلافة الأرضية لك؟ فرد الله سبحانه ذلك عليهم بقوله: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، وعلّم آدم الأسماء كلها.

٢. وهذا السياق يشعر:

أ. أولاً: بأن الخلافة المذكورة إنما كانت خلافة الله تعالى، لا خلافة نوع من الموجود الأرضي كانوا في الأرض قبل الإنسان وانقرضوا ثم أراد الله تعالى أن يخلفهم بالإنسان، كما احتمله بعض المفسرين؛ وذلك لأن الجواب الذي أجاب سبحانه به عنهم، وهو تعليم آدم الأسماء، لا يناسب ذلك، وعلى هذا، فالخلافة غير مقصورة على شخص آدم عليه السلام، بل بنوه يشاركونه فيها من غير اختصاص، ويكون معنى تعليم الأسماء إيداع هذا العلم في الإنسان بحيث يظهر منه آثاره تدريجاً دائماً، ولو اهتدى إلى السبيل أمكنه أن يخرجه من القوة إلى الفعل، ويؤيد عموم الخلافة قوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: ٦٩]، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٤]، وقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢]

ب. وثانياً: إنه سبحانه لم ينف عن خليفة الأرض الفساد وسفك الدماء، ولا كذّب الملائكة في دعواهم التسبيح والتقديس، وقررهم على ما ادعوا، بل إنما أبدى شيئاً آخر، وهو أن هناك أمراً لا يقدر الملائكة على حمله، ولا تتحمله، ويتحمله هذا الخليفة الأرضي؛ فإنه يحكي عن الله سبحانه أمراً، ويتحمل منه سراً ليس في وسع الملائكة، ولا محالة يتدارك بذلك أمر الفساد وسفك الدماء، وقد بدّل سبحانه قوله: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ثانياً بقوله: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، والمراد بهذا الغيب هو الأسماء، لا علم آدم بها؛ فإن الملائكة ما كانت تعلم أن هناك أسماء لا يعلمونها، لا أنهم كانوا يعلمون وجود أسماء كذلك ويجهلون من آدم أنه يعلمها، وإلا لما كان لسؤاله تعالى إياهم عن الأسماء وجه، وهو ظاهر، بل كان حق المقام أن يقتصر بقوله: ﴿يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ﴾ حتى يتبين لهم أن آدم يعلمها،

لا أن يسأل الملائكة عن ذلك؛ فإن هذا السياق يعطي أنهم ادعوا الخلافة وأذعنوا بانتفائها عن آدم، وكان اللازم أن يعلم الخليفة بالأسماء، فسئلهم عن الأسماء فجهلوها وعلمها آدم، فثبت بذلك لياقته لها وانتفاؤها عنهم، وقد ذيّل سبحانه السؤال بقوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾، وهو مشعر بأنهم كانوا ادعوا شيئاً كان لازمه العلم بالأسماء.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير العياشي عن الصادق عليه السلام، قال: ما علم الملائكة بقولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾، لولا أنهم قد كانوا رأوا من يفسد فيها ويسفك الدماء.

• أقول: يمكن أن يشير بها إلى دورة في الأرض سابقة على دورة بني آدم هذه، كما وردت فيه الأخبار، ولا ينافي ذلك ما مر أن الملائكة فهمت ذلك من قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، بل لا يتم الخبر بدون ذلك، وإلا كان هذا القول قياساً من الملائكة مذموماً كقياس إبليس.

ب. وفي تفسير العياشي أيضاً عنه عليه السلام، قال زرارة: دخلت على أبي جعفر عليه السلام فقال: أي شيء عندك من أحاديث الشيعة؟ فقلت: إن عندي منها شيئاً كثيراً، فقد هممت أن أوقد لها ناراً فأحرقها، فقال عليه السلام: وَارِها تنسَ ما أنكرت منها، فخطر على بالي الآدميون، فقال: ما كان علم الملائكة حيث قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾؟ وكان يقول أبو عبد الله عليه السلام: إذا حدث بهذا الحديث هو كسرٌ على القدرية، ثم قال أبو عبد الله عليه السلام: إن آدم عليه السلام كان له في السماء خليل من الملائكة، فلما هبط آدم من السماء إلى الأرض استوحش الملك وشكى إلى الله تعالى وسأله أن يأذن له، فأذن له فهبط عليه فوجده قاعداً في قفرة من الأرض، فلما رآه آدم وضع يده على رأسه وصاح صيحة، قال أبو عبد الله عليه السلام: يروون أنه أسمع عامة الخلق، فقال له الملك: يا آدم، ما أراك إلا وقد عصيت ربك وحملت على نفسك ما لا تطيق، أتدري ما قال لنا الله فيك فرددنا عليه؟ قال: لا، قال: قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، قلنا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾؟ فهو خلقك أن تكون في الأرض، أيستقيم أن تكون في السماء؟ قال أبو عبد الله عليه السلام: والله عَزَّى بها آدم ثلثاً.

• أقول: ويستفاد من الرواية أن جنة آدم كانت في السماء، وسيجيء فيه روايات أخر أيضاً.

١٢. تعليم الله آدم الأسماء وإظهار فضله:

المقطع [١٢] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣١-٣٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١/ ١١٧»:

١. ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾:

أ. قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾، مشعر بأن هذه الأسماء أو أن مسمياتها كانوا موجودات أحياء عقلاء، محجوبين تحت حجاب الغيب، وأن العلم بأسمائهم كان غير نحو العلم الذي عندنا بأسماء الأشياء؛ وإلا كانت الملائكة بانباء آدم إياهم بها عالمين، وصائرين مثل آدم مساوين معه، ولم يكن في ذلك إكرام لآدم ولا كرامة، حيث علمه الله سبحانه أسماء ولم يعلمهم، ولو علمهم إياها كانوا مثل آدم أو أشرف منه، ولم يكن في ذلك ما يقنعهم أو يبطل حجتهم، وأي حجة تتم في أن يعلم الله تعالى رجلاً علم اللغة، ثم يباهي به ويتم الحجة على ملائكة مكرمين لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون، بأن هذا خليفتي وقابل لكرامتي دونكم؟ ويقول تعالى: (أنبئوني باللغات التي سوف يضعها الآدميون بينهم للإفهام والتفهيم إن كنتم صادقين في دعويكم أو مسألتكم خلافتي)، على أن كمال اللغة هو المعرفة بمقاصد القلوب، والملائكة لا تحتاج فيها إلى التكلم، وإنما تتلقى المقاصد من غير واسطة، فلهم كمال فوق كمال التكلم.

ب. وبالجملة، فما حصل للملائكة من العلم بواسطة انباء آدم لهم بالأسماء هو غير ما حصل لآدم من حقيقة العلم بالأسماء بتعليم الله تعالى؛ فأحد الأمرين كان ممكناً في حق الملائكة وفي مقدرتهم دون الآخر، وآدم إنما استحق الخلافة الإلهية بالعلم بالأسماء دون انبائها، إذ الملائكة إنما قالوا في مقام الجواب: ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾، فنفوا العلم.

ج. فقد ظهر مما مر أن العلم بأسماء هؤلاء المسميات يجب أن يكون بحيث يكشف عن حقائقهم وأعيان وجوداتهم، دون مجرد ما يتكفله الوضع اللغوي من إعطاء المفهوم؛ فهؤلاء المسميات المعلومة حقائق خارجية ووجودات عينية، وهي مع ذلك مستورة تحت ستر الغيب، غيب السموات والأرض،

والعلم بها على ما هي عليه كان أولاً ميسوراً ممكناً لموجود أرضي لا ملك سماوي، وثانياً: دخيلاً في الخلافة الإلهية.

د. والأسماء في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾، جمع محلى باللام، وهو يفيد العموم على ما صرحوا به، مضافاً إلى أنه مؤكد بقوله: ﴿كُلَّهَا﴾؛ فالمراد بها كل اسم يقع لمسمى، لا تقييد ولا عهد، ثم قوله: ﴿عَرَضَهُمْ﴾، دال على كون كل اسم أي مسماه ذا حياة وعلم، وهو مع ذلك تحت حجاب الغيب، غيب السموات والأرض، وإضافة الغيب إلى السموات والأرض، وإن أمكن أن يكون في بعض الموارد إضافة (من) فيفيد التبعيض، لكن المورد وهو مقام إظهار تمام قدرته تعالى وإحاطته، وعجز الملائكة ونقصهم، يوجب كون إضافة الغيب إلى السموات والأرض إضافة (اللام)، فيفيد أن الأسماء أمور غائبة عن العالم السماوي والأرضي، خارج محيط الكون.

هـ. وإذا تأملت هذه الجهات، أعني: عموم الأسماء، وكون مسمياتها أولي حياة وعلم، وكونها غيب السموات والأرض، قضيت بانطباقها بالضرورة على ما أشير إليه في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١]، حيث أخبر سبحانه بأن كل ما يقع عليه اسم شيء فله عنده تعالى خزائن مخزونة باقية عنده غير نافدة، ولا مقدّرة بقدر، ولا محدودة بحد، وأن القدر والحد في مرتبة الإنزال والخلق، وأن الكثرة التي في هذه الخزائن ليست من جنس الكثرة العددية الملازمة للتقدير والتحديد، بل تعدد المراتب والدرجات، وسيجيء بعض الكلام فيها في سورة الحجر إن شاء الله تعالى.

و. فتحصّل أن هؤلاء الذين عرضهم الله تعالى على الملائكة موجودات عالية محفوظة عند الله تعالى، محجوبة بحجب الغيب، أنزل الله سبحانه كل اسم في العالم بخيرها وبركتها، واشتق كل ما في السموات والأرض من نورها وبهائها، وأنهم على كثرتهم وتعددهم لا يتعددون تعدد الأفراد، ولا يتفاوتون تفاوت الأشخاص، وإنما يدور الأمر هناك مدار المراتب والدرجات، ونزول الاسم من عند هؤلاء إنما هو بهذا القسم من النزول.

٢. ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾:

أ. ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾، وكان هذان القسمان من الغيب النسبي الذي هو بعض السموات والأرض، ولذلك قوبل به قوله: ﴿أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، ليشمل قسمي الغيب:

أعني الخارج عن العالم الأرضي والسماوي، وغير الخارج عنه.

ب. ﴿كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾، تقييد الكتمان بقوله: ﴿كُنتُمْ﴾ مشعر بأن هناك أمراً مكتوماً في خصوص آدم وجعل خلافته، ويمكن أن يستظهر ذلك من قوله تعالى في الآية التالية: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾

ج. فيظهر أن إبليس كان كافراً قبل ذلك الحين، وأن إباءه عن السجدة كان مرتبطاً بذلك، فقد كان أضمره هذا.

د. ويظهر بذلك أن سجدة الملائكة وإباء إبليس عنها كانت واقعة بين قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وبين قوله: ﴿أَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾

هـ. ويظهر السر أيضاً في تبديل قوله: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ثانياً بقوله: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾

٣. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير العياشي أيضاً عن أبي العباس عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: سألته عن قول الله: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾، ماذا علمه؟ قال: الأرضين والجبال والشعاب والأودية، ثم نظر إلى بساط تحته، فقال: وهذا البساط مما علمه.

ب. وفي التفسير أيضاً عن الفضيل بن العباس عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن قول الله: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾، ما هي؟ قال: أسماء الأودية والنبات والشجر والجبال من الأرض.

ج. وفي التفسير أيضاً عن داود بن سرحان العطار، قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام فدعا بالخوان فتغذينا، ثم دعا بالطست والدست سنانه، فقلت: جعلت فداك، قوله: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾، الطست والدست سنانه منه؟ فقال عليه السلام: الفجاج والأودية، وأهوى بيده كذا وكذا.

د. وفي المعاني عن الصادق عليه السلام: إن الله عز وجل علّم آدم أسماء حججه كلها، ثم عرضهم وهم أرواح على الملائكة، فقال: ﴿أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ بأنكم أحق بالخلافة في الأرض لتسبيحكم وتقديسكم من آدم، فقالوا: ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢]، قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ﴾ [البقرة: ٣٣]، فلما أنبأهم بأسمائهم وقفوا

على عظيم منزلتهم عند الله عز ذكره، فعلموا أنهم أحق بأن يكونوا خلفاء الله في أرضه وحججه على بريته، ثم غيّبهم عن أبصارهم واستعبدهم بولايتهم ومحبتهم، وقال لهم: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣٣]

• أقول: وبالرجوع إلى ما مرّ من البيان تعرف معنى هذه الروايات، وأن لا منافاة بين هذه وما تقدمها؛ إذ قد تقدم أن قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ﴾ [الحجر: ٢١]، يعطي أنه ما من شيء إلا وله في خزائن الغيب وجود، وإن هذه الأشياء التي قبلنا إنما وجدت بالنزول من هناك، وكل اسم وضع بحيال مسمى من هذه المسميات، فهي اسم لما في خزائن الغيب، فسواء قيل: إن الله علّم آدم ما في خزائن غيبه من الأشياء وهي غيب السموات والأرض، أو قيل: إنه علّم آدم أسماء كل شيء وهي غيب السموات والأرض، كان المؤدي والنتيجة واحداً، وهو ظاهر.

هـ. ويناسب المقام عدة من أخبار الطينة، كما رواه في البحار عن جابر بن عبد الله قال: قلت لرسول الله ﷺ: أول شيء خلقه الله ما هو؟ فقال: نور نبيك يا جابر، خلقه الله ثم خلق منه كل خير، ثم أقامه بين يديه في مقام القرب ما شاء الله، ثم جعله أقساماً، فخلق العرش من قسم، والكرسي من قسم، وحملة العرش وسكنة الكرسي من قسم، وأقام القسم الرابع في مقام الحب ما شاء الله، ثم جعله أقساماً، فخلق القلم من قسم، واللوح من قسم، والجنة من قسم، وأقام القسم الرابع في مقام الخوف ما شاء الله، ثم جعله أجزاءً فخلق الملائكة من جزء، والشمس من جزء، والقمر من جزء، وأقام القسم الرابع في مقام الرجاء ما شاء الله، ثم جعله أجزاءً، فخلق العقل من جزء، والعلم والحلم من جزء، والعصمة والتوفيق من جزء، وأقام القسم الرابع في مقام الحياء ما شاء الله، ثم نظر إليه بعين الهيبة، فرشح ذلك النور وقطرت منه مائة ألف وأربعة وعشرون ألف قطرة، فخلق الله من كل قطرة روح نبي ورسول، ثم تنفست أرواح الأنبياء، فخلق الله من أنفاسها أرواح الأولياء والشهداء والصالحين.

• أقول: والأخبار في هذه المعاني كثيرة متظافرة، وأنت إذا أجلت نظرة التأمل والإمعان فيها وجدتها شواهد على ما قدمناه، وسيجيء شطر من الكلام في بعضها، وإياك أن ترمي أمثال هذه الأحاديث الشريفة المأثورة عن معادن العلم ومنابع الحكمة بأنها من اختلاقات المتصوفة وأوهامهم؛ فللخلقة أسرار، وهوذا العلماء من طبقات أقوام الإنسان لا يألون جهداً في البحث عن أسرار الطبيعة، منذ أخذ البشر في

الانتشار، وكلما لاح لهم معلوم واحد بان لهم مجاهيل كثيرة، وهي عالم الطبيعة أضيق العوالم وأخسها، فما ظنك بما ورائها، وهي عوالم النور والسعة.

١٣. سجود الملائكة لآدم واستكبار إبليس وطرده:

المقطع [١٣] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١/ ١٢٣»:

١. ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾:

أ. قد عرفت أن قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾، فيه دلالة على وقوع أمر مكتوم ظاهر بعد أن كان مكتوماً، ولا يخلو ذلك عن مناسبة مع قوله: ﴿أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾، حيث لم يعبر: (أبى واستكبر وكفر)

ب. وعرفت أيضاً أن قصة السجدة كالواقعة، أو هي واقعة بين قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، وقوله: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾؛ فقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾، كالجملة المستخرجة من بين الجمل، ليتخلص بها إلى قصة الجنة، فإن هذه الآيات كما عرفت إنما سيقت لبيان كيفية خلافة الإنسان وموقعه، وكيفية نزوله إلى الدنيا وما يؤول إليه أمره من سعادة وشقاء، فلا يهم من قصة السجدة ههنا إلا إجمالها المؤدي إلى قصة الجنة وهبوط آدم، هذا.

ج. فهذا هو الوجه في الإضراب عن الإطناب إلى الإيجاز، ولعل هذا هو السر أيضاً في الالتفات من الغيبة إلى التكلم في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا﴾، بعد قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ﴾

د. وعلى ما مر، فنسبة الكتمان إلى الملائكة وهو فعل إبليس، بناء على الجري على الدأب الكلامي من نسبة فعل الواحد إلى الجماعة إذا اختلط بهم ولم يتميز منهم، ويمكن أن يكون له وجه آخر، وهو أن يكون ظاهر قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، إطلاق الخلافة حتى على الملائكة، كما يؤيده أيضاً أمرهم ثانياً بالسجود، ويوجب ذلك خطوراً في قلوب الملائكة، حيث أنها ما كانت تظن أن موجوداً أرضياً يمكن أن يسود على كل شيء حتى عليهم، ويدل على هذا المعنى بعض الروايات كما سيأتي.

٢. بيان حكم السجود لغير الله:

أ. وقوله تعالى: ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾، يستفاد منه جواز السجود لغير الله في الجملة، إذا كان تحية وتكرمة للغير، وفيه خضوع لله تعالى بموافقة أمره، ونظيره قوله تعالى في قصة يوسف عليه السلام: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ [يوسف: ١٠٠]

ب. وملخص القول في ذلك: أنك قد عرفت في سورة الفاتحة أن العبادة هي نصب العبد نفسه في مقام العبودية، وإتيان ما يثبت ويستثبت به ذلك؛ فالفعل العبادي يجب أن يكون فيه صلاحية إظهار مولوية المولى أو عبدية العبد، كالسجود والركوع والقيام أمامه حينما يقعد، والمشي خلفه حينما يمشي، وغير ذلك، وكلما زادت الصلاحية المزبورة ازدادت العبادة تعيناً للعبودية، وأوضح الأفعال في الدلالة على عز المولوية وذل العبودية هو السجدة، لما فيها من الخرور على الأرض ووضع الجبهة عليها.

ج. وأما ما ظنه بعض: من أن السجدة عبادة ذاتية، فليس بشيء؛ فإن الذاتي لا يختلف ولا يتخلف، وهذا الفعل يمكن أن يصدر بعينه من فاعله بداع غير داع التعظيم والعبادة، كالسخرية والاستهزاء، فلا يكون عبادة مع اشتماله على جميع ما يشتمل عليه وهو عبادة، نعم، معنى العبادة أوضح في السجدة من غيرها، وإذا لم تكن عبادة ذاتية، لم يكن لذاتها مختصاً بالله سبحانه، بناء على أن المعبود منحصر فيه تعالى، فلو كان هناك مانع، لكان من جهة النهي الشرعي أو العقلي، والممنوع شرعاً أو عقلاً ليس إلا إعطاء الربوبية لغيره تعالى، وأما تحية الغير أو تكرمته من غير إعطاء الربوبية، بل لمجرد التعارف والتحية فحسب، فلا دليل على المنع من ذلك.

د. لكن الذوق الديني المتخذ من الاستئناس بظواهره يقضي باختصاص هذا الفعل به تعالى، والمنع عن استعماله في غير مورده تعالى، وإن لم يقصد به إلا التحية والتكرمة فقط، وأما المنع عن كل ما فيه إظهار الإخلاص لله، بإبراز المحبة لصالحي عباده أو لقبور أوليائه أو آثارهم، فمما لم يقم عليه دليل عقلي أو نقلي أصلاً، وسنعود إلى البحث عن هذا الموضوع في محل يناسبه إن شاء الله تعالى.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير العياشي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لما أن خلق الله آدم، أمر الملائكة أن يسجدوا

له، فقالت الملائكة في نفسها: ما كنا نظن أن الله خلق خلقاً أكرم عليه منا، فنحن جيرانه ونحن أقرب الخلق إليه، فقال الله: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣٣]، فيما أبدوا من أمر بني الجانّ، وكتموا ما في أنفسهم، فلاذت الملائكة الذين قالوا ما قالوا بالعرش.

ب. وفي التفسير أيضاً عن علي بن الحسين عليه السلام ما في معناه، وفيه: فلما عرفت الملائكة أنها وقعت في خطيئة، لاذوا بالعرش، وأنها كانت عصابة من الملائكة وهم الذين كانوا حول العرش، لم يكن جميع الملائكة، إلى أن قال: فهم يلوذون حول العرش إلى يوم القيامة.

• أقول: يمكن أن يستفاد مضمون الروايتين من قوله حكاية عن الملائكة: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠] إلى قوله: ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢]، وسيجيء أن العرش هو العلم، وبذلك وردت الروايات عن أئمة أهل البيت عليهم السلام، فافهم ذلك.

• وعلى هذا كان المراد من قوله تعالى: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤]، قوم إبليس من الجان المخلوقين قبل الإنسان، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ [الحجر: ٢٦-٢٧]، وعلى هذه الرواية، فنسبة الكتمان إلى جميع الملائكة لا تحتاج إلى عناية زائدة، بل هي على حقيقتها؛ فإن المعنى المكتوم خطر على قلوب جميع الملائكة، ولا منافاة بين هذه الرواية وما تفيد أن المكتوم هو ما كان يكتمه إبليس من الإباء عن الخضوع لآدم والاستكبار لو دعي إلى السجود، لجواز استفادة الجميع كما هو كذلك.

ج. وفي قصص الأنبياء عن أبي بصير، قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: سجدت الملائكة ووضعوا أجباههم على الأرض؟ قال: نعم، تكرمة من الله تعالى.

د. وفي تحف العقول قال: إن السجود من الملائكة لآدم إنما كان ذلك طاعة لله ومحبة منهم لآدم.

هـ. وفي الاحتجاج عن موسى بن جعفر عن آبائه: إن يهودياً سأل أمير المؤمنين عليه السلام عن معجزات النبي ﷺ في مقابلة معجزات الأنبياء، فقال: هذا آدم أسجد الله له ملائكته، فهل فعل بمحمد شيئاً من هذا؟ فقال علي: لقد كان ذلك، ولكن أسجد الله لآدم ملائكته، فإن سجودهم لم يكن سجود

طاعة أنهم عبدوا آدم من دون الله عز وجل، ولكن اعترافاً لآدم بالفضيلة ورحمة من الله له، ومحمد ﷺ أُعطي ما هو أفضل من هذا؛ إن الله جل وعلا صلى عليه في جبروته والملائكة بأجمعها، وتعبّد المؤمنون بالصلاة عليه، فهذه زيادة له يا يهودي.

و. وفي تفسير القمي: خلق الله آدم فبقي أربعين سنة مصوّراً، وكان يمر به إبليس اللعين فيقول: لأمر ما خلقت؟ فقال: العالم، فقال إبليس: (لئن أمرني الله بالسجود لهذا لعصيته)، إلى أن قال: ثم قال الله تعالى للملائكة: ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [البقرة: ٣٤]، فسجدوا، فأخرج إبليس ما كان في قلبه من الحسد، فأبى أن يسجد.

ز. وفي البحار عن قصص الأنبياء عن الصادق عليه السلام قال: أمر إبليس بالسجود لآدم، فقال: يا رب، وعزتك إن أعفيتني من السجود لآدم لأعبدنك عبادة ما عبدك أحد قط مثلها، قال الله جل جلاله: إني أحب أن أطاع من حيث أريد، وقال: إن إبليس رنّ أربع رنات: أولهن يوم لعن، ويوم أهبط إلى الأرض، ويوم بعث محمد ﷺ على فترة من الرسل، وحين أنزلت أمّ الكتاب، ونخر نخرتين: حين أكل آدم من الشجرة، وحين أهبط من الجنة، وقال في قوله تعالى: ﴿فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾ [طه: ١٢١]، وكانت سوآتهما لا ترى فصارت ترى بارزة، وقال: الشجرة التي نهى عنها آدم هي السنبلة.

- أقول: وفي الروايات وهي كثيرة تأييد ما ذكرناه في السجدة.

١٤. إسكان آدم الجنة ونهيه عن الشجرة:

المقطع [١٤] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥] «الميزان: ١/ ١٣٠»:

١. ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾:

أ. قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ﴾، على أن قصة سجود الملائكة لآدم تكررت في عدة مواضع من القرآن الكريم.

٢. أورد هنا مبحثا حول [قصة آدم في الجنة: تحليل العهد والنسيان والحياتين والصراطين: دراسة

قرآنية في قصة الجنة، وبيان العهد في سورة طه، والفرق بين الحياة الطيبة والحياة الضنك، وعلاقة نسيان الميثاق بشقاء الدنيا] خلاصته:

أ. قصة الجنة في القرآن وردت في ثلاثة مواضع: سورة البقرة، وسورة الأعراف، وسورة طه، وتتضمن أمر السجود للملائكة، وإسكان آدم وزوجه الجنة، والنهي عن قرب الشجرة، ووسوسة إبليس، والأكل من الشجرة، وظهور السوأة، والتوبة، والهبوط إلى الأرض.

ب. سياق الآيات يعطي أن آدم عليه السلام إنما خلق ليحيا في الأرض ويموت فيها، وإنما أسكنهما الله الجنة للاختبار، ولتبدو لهما سوآتهما حتى يهبطا إلى الأرفظهور السوأة (العوركان مقضياً محتوماً في الحياة الأرضية، ولهذا لم يرجعهما الله إلى الجنة بعد التوبة، بل أهبطهما إلى الدنيا.

ج. العهد في سورة طه (﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ﴾) ليس هو النهي عن قرب الشجرة (لأنهما كانا على ذكر من النهي حين اقتراف الخطيئة)، وليس هو التحذير عن إبليس (لأن العهد مخصوص بآدم، والتحذير كان لهما معاً)، بل هو الميثاق العمومي على الربوبية والعبودية، وهو أن لا ينسى الإنسان كونه مملوكاً طلقاً لله، لا يملك لنفسه شيئاً.

د. الحياة الطيبة هي حياة العارف بمقام ربه، الذي يرى الجميع مملوكاً لله، فلا يرى مكروهاً يكرهه، ولا مخوفاً يخافه، بل يرى كل ما يراه حسناً محبوباً، ويلتذ ويبتهج بأمر ربه، لا شغل له إلا بربه.

هـ. الحياة الضنك هي حياة الجاهل بمقام ربه، الذي يرى الأشياء مستقلة بنفسها، فيتقلب بين الخوف والحذر والحزن والحسرة، فكأنما يصعد في السماء.

و. مرجع الأمرين (نسيان الميثاق وشقاء الحياة الدنيواحد، والشقاء الدنيوي من فروع نسيان الميثاوقد أشار الله إلى ذلك في سورة طه بقوله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾

ز. الشجرة في اقترابها تعب الحياة الدنيا وشقائها، وهو أن يعيش الإنسان في الدنيا ناسياً لربه، غافلاً عن مقاموآدم عليه السلام أراد أن يجمع بينها وبين الميثاق المأخوذ عليه، فلم يتمكن، فنسي الميثاق ووقع في تعب الحياة الدنيا، ثم تدارك له ذلك بالتوبة.

٣. ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا﴾:

أ. الرغد: الهناء وطيب العيش، وأرغد القوم مواشيهم: تركوها ترعى كيف شاءت، وقوم رغد، ونساء رغد، أي ذوو عيش رغيد.

٤. ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ﴾:

أ. وكأن النهي إنما كان عن أكل الثمرة، وإنما تعلق بالقرب من الشجرة إيذاناً بشدة النهي ومبالغة في التأكيد، ويشهد بذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾ [الأعراف: ٢٢]، وقوله تعالى: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾ [طه: ١٢١]؛ فكانت المخالفة بالأكل، فهو المنهي عنه بقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبَا﴾

٥. ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾:

أ. ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، من الظلم لا من الظلمة، على ما احتمله بعضهم، وقد اعترفا بظلمهما حيث قالا على ما حكاه الله تعالى عنهما: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا﴾، إلا أنه تعالى بدّل في سورة طه هذه الكلمة، أعني قوله: ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ بقوله: ﴿فَتَشْقَىٰ﴾، والشقاء هو التعب، ثم فسر التعب وفصله، فقال: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ [طه: ١١٨-١١٩]

ب. ومن هنا يظهر أن وبال هذا الظلم إنما كان هو الوقوع في تعب حياة هذه الدنيا من جوع وعطش وعراء وعناء، وعلى هذا فالظلم منهما إنما هو ظلمهما لأنفسهما، لا بمعنى المعصية المصطلحة والظلم على الله سبحانه، ومن هنا يظهر أيضاً أن هذا النهي، أعني قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبَا﴾، إنما كان نهياً تنزيهياً إرشادياً يرشد به إلى ما فيه خير المكلف وصلاحه في مقام النصح، لا نهياً مولوياً، فهما إنما ظلما أنفسهما في ترك الجنة، على أن جزاء مخالفة النهي المولوي التكليفي يتبدل بالتوبة إذا قُبلت، ولم يتبدل في موردهما؛ فإنهما تابا وقبلت توبتهما، ولم يرجعا إلى ما كانا فيه من الجنة، ولو كان التكليف إرشادياً ليس له إلا التبعة التكوينية دون التشريعية، لاستلزم قبول التوبة رجوعهما إلى ما كانا فيه من مقام القرب، وسيأتي لهذا الكلام بقية فيما سيأتي إن شاء الله.

١٥. وسوسة الشيطان وإخراج آدم وزوجه من الجنة:

المقطع [١٥] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا

كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١/ ١٣٢»:

١. ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ﴾:

أ. ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ﴾، الظاهر من هذه الجملة كنظائرها، وإن لم يكن أزيد من وسوسة الشيطان لهما مثل ما يوسوس لنا (بني آدم) على نحو إلقاء الوسوسة في القلب من غير رؤية الشخص، لكن الظاهر من أمثال قوله تعالى في سورة طه: ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾، يدل على أنه تعالى أراهما الشيطان وعرفهما إياه بالشخص والعين دون الوصف، وكذا قوله تعالى حكاية عن الشيطان: ﴿يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ﴾، حيث أتى بالكلام في صورة حكاية الخطاب، ويدل ذلك على متكلم مشعور به، وكذا قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾، والقسم إنما يكون من مقاسم مشعور به، وكذا قوله تعالى: ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾، كل ذلك يدل على أنه كان يترآى لهما، وكانا يشاهدانه، ولو كان حالهما عليهما السلام مثل حالنا من عدم المشاهدة حين الوسوسة، لجاز لهما أن يقولا: ربنا إننا لم نشعر، وخِلنا أن هذه الوساوس هي من أفكارنا من غير استشعار بحضوره، ولا قصد لمخالفة ما وصيتنا به من التحذير من وسوسته.

ب. وبالجملة، فهما كانا يشاهدانه ويعرفانه، والأنبياء وهم المعصومون بعصمة الله كذلك يعرفونه ويشاهدونه حين تعرضه بهم لو تعرض، على ما وردت به الروايات في نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ويحيى وأيوب وإسماعيل ومحمد صلى الله عليه وآله وعليهم، هذا.

ج. وكذا ظاهر هذه الآيات كظاهر قوله تعالى: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ الشَّجَرَةِ﴾، حيث ينبئ عن كونهما معه لعنه الله بحيال الشجرة في الجنة، فقد كان دخل الجنة وصاحبهما، وغرهما بوسوسته، ولا محذور فيه، إذ لم تكن الجنة جنة الخلد حتى لا يدخلها الشيطان، والدليل على ذلك خروجهم جميعاً من هذه الجنة، وأما قوله تعالى خطاباً لإبليس: ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ﴾ [الأعراف: ١٣]، فيمكن أن يكون المراد به الخروج من الملائكة، أو الخروج من السماء من جهة كونها مقام قرب وتشريف.

٢. ﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾:

أ. قوله تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾، ظاهر السياق أنه خطاب لآدم وزوجته

وإبليس، وقد خص إبليس وحده بالخطاب في سورة الأعراف حيث قال: ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾، فقوله تعالى: ﴿اهْبِطُوا﴾ كالجمع بين الخطابين، وحكاية عن قضاء قضى الله به العداوة بين إبليس لعنه الله وبين آدم وزوجته وذريتهما، وكذلك قضى به حيوتهم في الأرض وموتهم فيها وبعثهم منها.

ب. وذرية آدم مع آدم في الحكم، كما ربما يستشعر من ظاهر قوله: ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾، وكما سيأتي في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ من سورة الأعراف، إن إسجاد الملائكة لآدم عليه السلام إنما كان من جهة أنه خليفة أرضي، فكان المسجود له آدم عليه السلام، وحكم السجدة لجميع البشر، فكان إقامة آدم عليه السلام مقام المسجود له معنوناً بعنوان الأنموذج والنائب.

ج. وبالجملة، يشبه أن تكون هذه القصة التي قصها الله تعالى من إسكان آدم وزوجته الجنة، ثم إهباطهما لأكل الشجرة، كالمثل يمثل به ما كان الإنسان فيه قبل نزوله إلى الدنيا من السعادة والكرامة بسكونة حظيرة القدس، ومنزل الرفعة والقرب، ودار نعمة وسرور، وأنس ونور، ورفقاء طاهرين، وإخلاء روحانيين، وجوار رب العالمين، ثم إنه يختار مكان كل تعب وعناء ومكروه وألم بالميل إلى حياة فانية، وجيفة منتنة دانية، ثم إنه لو رجع بعد ذلك إلى ربه لأعاده إلى دار كرامته وسعادته، ولو لم يرجع إليه وأخلد إلى الأرض واتبع هواه، فقد بدّل نعمة الله كفراً، وأحل بنفسه دار البوار، جهنم يصلاها وبئس القرار.

١٦. تلقي آدم كلمات من ربه ووعد الله بالهداية للمتبعين لهداه:

المقطع [١٦] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٧-٣٩] «الميزان: ١/ ١٣٠»:

١. ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾:

أ. ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾، التلقي هو التلقن، وهو أخذ الكلام مع فهم وفقه، وهذا التلقي كان هو الطريق المسهل لآدم عليه السلام توبته، ومن ذلك يظهر أن التوبة توبتان: توبة من

الله تعالى، وهي الرجوع إلى العبد بالرحمة، وتوبة من العبد، وهي الرجوع إلى الله بالاستغفار والانقلاع من المعصية، وتوبة العبد محفوفة بتوبتين من الله تعالى؛ فإن العبد لا يستغني عن ربه في حال من الأحوال، فرجوعه عن المعصية إليه يحتاج إلى توفيقه تعالى وإعانته ورحمته حتى يتحقق منه التوبة، ثم تمس الحاجة إلى قبوله تعالى وعنايته ورحمته؛ فتوبة العبد إذا قُبلت كانت بين توبتين من الله، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ [التوبة: ١١٨]

ب. وقراءة نصب (آدم) ورفع (كلمات) تناسب هذه النكتة، وإن كانت القراءة الأخرى (وهي قراءة رفع آدم ونصب كلمات) لا تنافيها أيضاً.

ج. وأما أن هذه الكلمات ما هي؟ فربما يحتمل أنها هي ما يحكيه الله تعالى عنهما في سورة الأعراف بقوله: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، إلا أن وقوع هذه الكلمات أعني قوله: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا﴾ قبل قوله: ﴿قَالَ اهْبِطُوا﴾ في سورة الأعراف، ووقوع قوله: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ﴾ بعد قوله: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا﴾ في هذه السورة، لا يساعد عليه.

د. لكن ههنا شيء: وهو أنك عرفت في صدر القصة أن الله تعالى حيث قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، قالت الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، وهو تعالى لم يرد عليهم دعواهم على الخليفة الأرضي بما رموه به، ولم يجب عنه بشيء، إلا أنه علم آدم الأسماء كلها، ولولا أنه كان فيما صنعه تعالى من تعليم الأسماء ما يسد باب اعتراضهم ذلك، لم ينقطع كلامهم، ولا تمت الحجة عليهم قطعاً، ففي جملة ما علمه الله تعالى آدم من الأسماء أمر ينفع العاصي إذا عصى، والمذنب إذا أذنب؛ فلعل تلقيه من ربه كان متعلقاً بشيء من تلك الأسماء، فافهم ذلك.

هـ. واعلم أن آدم عليه السلام وإن ظلم نفسه في إلقائها إلى شفا جرف الهلكة، ومنشعب طريقي السعادة والشقاوة أعني الدنيا، فلو وقف في مهبطه فقد هلك، ولو رجع إلى سعادته الأولى فقد أتعب نفسه وظلمها؛ فهو عليه السلام ظالم لنفسه على كل تقدير، إلا أنه عليه السلام هيأ لنفسه بنزوله درجة من السعادة ومنزلة من الكمال ما كان ينالها لو لم ينزل، وكذلك ما كان ينالها لو نزل من غير خطيئة، فمتى كان يمكنه أن يشاهد ما لنفسه من الفقر والمذلة والمسكنة والحاجة والقصور، وله في كل ما يصيبه من التعب والعناء والكد روح وراحة في حظيرة القدس وجوار رب العالمين؟ فلله تعالى صفات من عفو ومغفرة

وتوبة وستر وفضل ورأفة ورحمة لا ينالها إلا المذنبون، وله في أيام الدهر نفحات يرتاح بها إلا المتعرضون.

و. فهذه التوبة هي التي استدعت تشريع الطريق الذي يتوقع سلوكه، وتنظيف المنزل الذي يرجى سكونه، فورائها تشريع الدين وتقويم الملة، ويدل على ذلك ما تراه أن الله تعالى يكرر في كلامه تقديم التوبة على الإيمان، قال تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ [هود: ١١٢]، وقال: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ﴾ [طه: ٨٢]، إلى غير ذلك من الآيات.

٢. ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾:

أ. ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾، وهذا أول ما شرّع من الدين لآدم عليه السلام وذريته، أوجز الدين كله في جملتين لا يزاد عليه شيء إلى يوم القيامة.

ب. وأنت إذا تدبرت هذه القصة (قصة الجنة) وخاصة ما وقع في سورة طه، وجدت أن المستفاد منها أن جريان القصة أوجب قضائين منه تعالى في آدم وذريته:

• فأكل الشجرة أوجب حكمه تعالى وقضائه بالهبوط والاستقرار في الأرض، والحياة فيها تلك الحياة الشقية التي حذرا منها حين نهيا عن اقتراب الشجرة، هذا.

• وأن التوبة ثانياً تعقب قضاءً وحكماً ثانياً منه تعالى بإكرام آدم وذريته بالهداية إلى العبودية، فالمقضي أولاً كان نفس الحياة الأرضية، ثم بالتوبة طيّب الله تلك الحياة بأن ركب عليها الهداية إلى العبودية، فتألفت الحياة من حياة أرضية وحياة سماوية.

ج. وهذا هو المستفاد من تكرار الأمر بالهبوط في هذه السورة، حيث قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾، وقال تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾، وتوسيط التوبة بين الأمرين بالهبوط مشعر بأن التوبة وقعت ولما ينفصلا من الجنة، وإن لم يكونا أيضاً فيها كاستقرارهما فيها قبل ذلك، يشعر بذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ﴾ بعد ما قال لهما: ﴿لَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ﴾، فأتى بلفظة (تلكما) وهي إشارة إلى البعيد، بعد ما أتى بلفظة (هذه) وهي إشارة إلى القريب، وعبّر بلفظة (نادى) وهي للبعيد، بعد ما أتى بلفظة (قال) وهي للقريب، فافهم.

د. واعلم أن ظاهر قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ

إِلَىٰ حِينٍ﴾، وقوله تعالى: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾، أن نحو هذه الحياة بعد الهبوط يغاير نحوها في الجنة قبل الهبوط، وأن هذه حياة ممتزجة حقيقتها بحقيقة الأرض ذات عناء وشقاء، يلزمها أن يتكون الإنسان في الأرض، ثم يعاد بالموت إليها، ثم يخرج بالبعث منها، فالحياة الأرضية تغاير حياة الجنة؛ فحيوتها حياة سماوية غير أرضية، ومن هنا يمكن أن يجزم أن جنة آدم كانت في السماء، وإن لم تكن جنة الآخرة جنة الخلد التي لا يخرج منها من دخل فيها، نعم، يبقى الكلام في معنى السماء، ولعلنا نوفق لاستيفاء البحث منه، إن شاء الله تعالى.

٣. أورد هنا مبحثا حول [القول في خطيئة آدم عليه السلام: دراسة في حقيقة النهي عن أكل الشجرة، وهل كان نهياً مولوياً أم إرشادياً، وما يترتب على ذلك من معنى الظلم والعصيان والغواية والتوبة والمغفرة] خلاصته:

أ. ظاهر الآيات في بادي النظر يوحي بتحقق المعصية والخطيئة من آدم عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، و﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾، واعترافه: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾

ب. لكن التدبر في آيات القصة والدقة في النهي الوارد عن أكل الشجرة يوجب القطع بأن النهي المذكور لم يكن نهياً مولوياً، بل نهياً إرشادياً، يراد به الإرشاد والهداية إلى ما في مورد التكليف من الصلاح والخير، لا البعث والإرادة المولوية.

ج. الأدلة على كونه نهياً إرشادياً:

• أولاً: أن الله فرّع على النهي في سورة الأعراف أنه ظلم، وفي سورة طه أنه شقاء (تعب)، وفسر الشقاء بالجوع والعراء والعطش والضحى، فالتوقي من هذه الأمور هو الموجب للنهي، لا جهة مولوية أخرى.

• ثانياً: أن التوبة لو كانت عن ذنب مولوي، كان اللازم رجوعهما إلى الجنة بعد التوبة، مع أنهما لم يرجعا، مما يدل على أن استتباع الأكل للخروج من الجنة كان استتباعاً ضرورياً تكوينياً (كالسم للقتل)، لا استتباعاً من قبيل المجازاة المولوية.

• ثالثاً: أن الأمر بالهبوط وقع بعد اقتراف الخطيئة، ولم يكن حين مخالفة النهي دين مشروع ولا تكليف مولوي، فإن التشريع الأول للإنسان إنما وقع بعد الأمر الثاني بالهبوط: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾.

د. معنى الظلم والعصيان والغواية في هذا المقام:

• الظلم: ظلمهما لأنفسهما في جنب الله، بإلقائها في التعب والتهلكة.

• العصيان: عدم الانفعال عن الأمر أو النهي، وهو يتحقق في الخطابات الإرشادية كما يتحقق في المولوية.

• الغواية: عدم اقتران الإنسان على حفظ المقصد وتدبير نفسه في معيشته بحيث يلائم المقصد.

هـ. معنى التوبة والمغفرة في هذا السياق: التوبة رجوع، وهي تختلف باختلاف مواردها، فكما يجوز للمريض الذي نهاه الطبيب نهياً إرشادياً عن أكل شيء معين، فلم ينته فتضرر، أن يتوب إلى الطبيب ليشير عليه بدواء يعيده إلى عافيته، كذلك آدم تاب إلى ربه ليدله على ما يخرجه من شقاء الدنيا إلى الحياة الطيبة، والمغفرة والرحمة والخسران تختلف بحسب اختلاف مواردها.

٤. أورد هنا مبحثا حول [تحقيق القول في خطيئة آدم عليه السلام: دراسة في حقيقة النهي عن أكل الشجرة، ومعنى العصيان والغواية، وتحديد جنة آدم، وبيان دخول إبليس إليها، وتحقيق معنى الكلمات التي تلقاها آدم من ربه] خلاصته:

أ. جنة آدم عليه السلام كانت من جنان الدنيا، لا من جنان الآخرة، بدليل طلوع الشمس والقمر فيها، وأنه لو كانت من جنان الآخرة لما خرج منها أبداًوالمراد بكونها من جنان الدنيا هو كونها جنة برزخية، كما يشير إليه هبوط آدم على الصفا وحواء على المروة، وعدّ المكث البرزخي مكثاً في الأرض في آيات البعث.

ب. النهي عن أكل الشجرة كان نهياً إرشادياً، لا مولوياً؛ لأن الله خلق آدم خلقة لا تبقى إلا بالأمر والنهي والغذاء واللباس والاكتنان والنكاح، ولا يدرك ما ينفعه مما يضره إلا بالتوفيوالشجرة كانت وسيلة لظهور السوأة التي هي التمايل الحيواني، المستلزم للتغذي والنمو، وهو الطريق إلى الاستقرار في الحياة الدنيا.

ج. معنى العصيان والغواية: العصيان في اللغة هو عدم الانفعال عن الأمر أو النهي، وهو يتحقق في الخطابات الإرشادية كما يتحقق في المولويوالغواية هي عدم اقتران الإنسان على حفظ المقصد وتدبير نفسه في معيشتأما الظلم، فهو ظلمهما لأنفسهما في جنب الله، بإلقائها في التعب والتهلكة.

د. دخول إبليس الجنة: القرآن لم يصرح بدخوله الجنة، وإنما ورد في الروايات، وهي آحاد غير

متواتروقوله: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ الشَّجَرَةِ﴾ لا يدل على القرب المكاني، بل هو مجرد إشارة إلى الشجرة المعروفوالأمر بالخروج منها في قوله: ﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا﴾ يحتمل أن يكون المراد الخروج من المنزلة والكرامة، أو من الملائكة، لا من الجنة.

هـ. الكلمات التي تلقاها آدم كانت أدعية للتوبة والاستغفار، وورد أنها كانت بحق محمد وآله الطاهرين، وأن آدم لما أذنب رفع رأسه إلى العرش فرأى مكتوباً: (لا إله إلا الله محمد رسول الله)، فعلم أنه ليس أحد أعظم قدراً عنده ممن جعل اسمه مع اسمه، فتوسل بهم إلى الله.

و. مدة لبث آدم في الجنة: ورد أنها كانت ست ساعات أو سبع ساعات من يوم الجمعة، حتى أخرجهما الله بعد غروب الشمس، وهذا تقريب لا يغير في حقيقة القصة.

ز. خلق حواء من ضلع آدم: الروايات التي تذكر ذلك مخالفة لروايات أئمة أهل البيت التي تنفي ذلك، وإن أمكن حملها على أنها خلقت من فاضل طينته مما يلي أضلاعه.

ح. آدم نبي رسول: ورد في الروايات أنه كان نبياً رسولاً، كلّمه الله قبلاً، وهذا لا ينافي وقوع الخطيئة منه قبل النبوة، لأنها كانت من الصغائر الموهوبة التي تجوز على الأنبياء قبل نزول الوحي، وأما بعد الاجتباء فهم معصومون.

١٧. تذكير بني إسرائيل بالنعم ودعوتهم للوفاء بعهد الله:

المقطع [١٧] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ [البقرة: ٤٠ـ٤١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١/ ١٥٢»:

أ. ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾، أصل العهد الحفاظ، ومنه اشتقت معانيه، كالعهد بمعنى الميثاق واليمين والوصية واللقاء والمنزل ونحو ذلك.

ب. ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾، الرهبة الخوف، وتقابل الرغبة.

ج. ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾، أي من بين أهل الكتاب، أو من بين قومكم ممن مضى وسيأتي؛ فإن كفار مكة كانوا قد سبقوهم إلى الكفر به.

١٨. النهي عن خلط الحق بالباطل أوكتمانه والأمر بالصلاة والزكاة:

المقطع [١٨] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٢-٤٣]، لم يفسر الآية الكريمة، ومعناها واضح، وهو:

١. أن الله تعالى ينهى أهل الكتاب عن خلط الحق الذي عندهم بالباطل الذي ابتدعوه، وعن كتمان ما يعلمونه من صفة محمد ﷺ ونبوته، ثم يأمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والخشوع مع المصلين، داعياً إياهم إلى الدخول في الإسلام والانقياد لأوامره.

٢. وهي تدل على:

أ. وجوب التمييز بين الحق والباطل، وعدم تمويه الباطل بصورة الحق.

ب. تحريم كتمان العلم الشرعي لمن يعلمه، خاصة ما يتعلق بالدين.

ج. الترابط بين الإيمان العملي (الصلاة والزكاة) والانقياد للجماعة المؤمنة.

د. الدعوة إلى التواضع والانضمام إلى صفوف المصلين، رمز الوحدة والتعاون على البر.

١٩. الأمر بالمعروف والعمل به والاستعانة بالصبر والصلاة:

المقطع [١٩] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ٤٤-٤٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١/ ١٥٢»:

١. ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾:

أ. ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾، الاستعانة وهي طلب العون، إنما تتم فيما لا يقوى الإنسان عليه وحده من المهمات والنوازل، وإذ لا معين في الحقيقة إلا الله سبحانه، فالعون على المهمات مقاومة الإنسان لها بالثبات والاستقامة، والاتصال به تعالى بالانصراف إليه والإقبال عليه بنفسه، وهذا هو الصبر والصلاة، وهما أحسن سبب على ذلك؛ فالصبر يصغر كل عظيمة نازلة، وبالإقبال على الله والالتجاء إليه تستيقظ روح الإيمان، وتتنبه أن الإنسان متّكٍ على ركن لا ينهدم، وسبب لا ينفصم.

ب. ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾، الضمير راجع إلى الصلاة، وأما إرجاعه إلى الاستعانة

لتضمن قوله: ﴿اسْتَعِينُوا﴾ ذلك، فينافيه ظاهراً قوله: ﴿إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾؛ فإن الخشوع لا يلائم الصبر كثير ملائمة، والفرق بين الخشوع والخضوع، مع أن في كليهما معنى التذلل والانكسار، أن الخضوع مختص بالجوارح، والخشوع بالقلب.

٢. ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾:

أ. ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾، هذا المورد، أعني مورد الاعتقاد بالآخرة على أنه مورد اليقين، لا يفيد فيه الظن والحسبان الذي لا يمنع النقيض، قال تعالى: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤]، ويمكن أن يكون الوجه فيه الأخذ بتحقق الخشوع؛ فإن العلوم التدريجية الحصول من أسباب تدريجية، تتدرج فيها النفس المدركة من تنبه وشك، ثم ترجح أحد طرفي النقيض، ثم انعدام الاحتمالات المخالفة شيئاً فشيئاً، حتى يتم الإدراك الجازم وهو العلم، وهذا النوع من العلم إذا تعلق بأمر هائل موجب لاضطراب النفس وقلقها وخشوعها، إنما تبتدي الخشوع الذي معه من حين شروع الرجحان قبل حصول الإدراك العلمي وتمامه؛ ففي وضع الظن موضع العلم إشارة إلى أن الإنسان لا يتوقف على زيادة مؤنة على العلم، إن تنبه بأن له ربّاً يمكن أن يلاقيه ويرجع إليه، وذلك كقول الشاعر:

فقلت لهم ظنوا بألفي مذحّج... سراتهم في الفارسيّ المسرّد

ب. وإنما يخوّف العدو باليقين لا بالشك، ولكنه أمرهم بالظن؛ لأن الظن يكفيهم في الانقلاع عن المخالفة، بلا حاجة إلى اليقين، حتى يتكلف المهدد إلى إيجاد اليقين فيهم بالتفهيم من غير اعتناء منه بشأنهم، وعلى هذا فالآية قريبة المضمون من قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ [الكهف: ١١٠]، وهذا كله لو كان المراد باللقاء في قوله تعالى: ﴿مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾ يوم البعث، ولو كان المراد به ما سيأتي تصويره في سورة الأعراف إن شاء الله، فلا محذور فيه أصلاً.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي عن الصادق عليه السلام قال: كان عليٌّ عليه السلام إذا أهاله أمر فزع قام إلى الصلاة، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥]

ب. وفي الكافي أيضاً عنه عليه السلام في الآية، قال: الصبر الصيام، وقال: إذا نزلت بالرجل النازلة الشديدة فليصم، إن الله عز وجل يقول: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ﴾، يعني الصيام.

• أقول: وروى مضمون الحديثين العياشي في تفسيره، وتفسير الصبر بالصيام من باب المصداق والجري.

ج. وفي تفسير العياشي عن أبي الحسن عليه السلام في الآية قال: الصبر الصوم، إذا نزلت بالرجل الشدة أو النازلة فليصم، إن الله يقول: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]، والخاشع الذليل في صلاته المقبل عليها، يعني رسول الله ﷺ وأمير المؤمنين عليه السلام.

• أقول: قد استفاد عليه السلام استحباب الصوم والصلاة عند نزول الملمات والشدائد، وكذا التوسل بالنبي والولي عندها، وهو تأويل الصوم والصلاة برسول الله وأمير المؤمنين.

د. وفي تفسير العياشي أيضاً عن علي عليه السلام في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٤٦]، يقول: يوقنون أنهم مبعوثون، والظن منهم يقين.

• أقول: ورواه الصدوق أيضاً.

هـ. وروى ابن شهرآشوب عن الباقر عليه السلام أن الآية نازلة في علي وعثمان بن مظعون وعمار بن ياسر وأصحاب لهم.

٢٠. تذكير بني إسرائيل بنعم الله عليهم ودعوتهم للتقوى:

المقطع [٢٠] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٤٧-٥٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١/ ١٥٥»:

١. أورد هنا مبحثا حول [حقيقة الشفاعة في القرآن بين النفي والإثبات ومعناها التكويني والتشريعي] خلاصته:

أ. الملك والسلطان الدنيوي مبني على حوائج الحياة، وتؤثر فيه الأغراض الشخصية كالرشوة والشفاعة والاستنصار، وكانت الملل القديمة تعتقد استمرار هذه الأسباب في الآخرة.

ب. القرآن أبطل هذه الأوهام، وأكد أن يوم القيامة خالٍ من الأسباب الدنيوية والارتباطات الطبيعية، فلا ينفع فيها بيع ولا خلة ولا شفاعة إلا بإذن الله.

ج. القرآن مع ذلك يثبت الشفاعة بشكل مقيد، فينفيها عن غيره استقلالاً، ويثبتها لله أصالة، ولغيره بإذنه وارتضائه، كما في مسائل العلم والخلق والرزق.

د. الشفاعة في مفهومها الاجتماعي هي توسيط بين الحاكم والمحكوم لإيصال نفع أو دفع ضر، وهي متممة للسبب لا مستقلة في التأثير، وتجري بنحو الحكومة لا المضادة.

هـ. الشفاعة على قسمين: تكوينية (توسط الأسباب والعلل في إفاضة الوجود)، وتشريعية (توسط الشفعاء يوم القيامة لمن ارتضى الله وأذن لهم)

و. الله هو الشفيع الحقيقي بصفاته، وغيره يشفع بإذنه وتمليكه، ولا محذور في ذلك، بل هو من مظاهر رحمته وكرمه.

٢. أورد هنا مبحثا حول [إشكالات الشفاعة والردود عليها في ضوء القرآن] خلاصته:

أ. الشفاعة ثابتة في الجملة لا على سبيل الإطلاق، والكتاب والسنة لا يثبتان أزيد من ذلك، والتأمل في معناها يقضي بذلك.

ب. الإشكال الأول (العدل والظلم في رفع العقاب) يُردّ بأن رفع العقاب بالشفاعة ليس نقضاً للحكم، بل هو بالحكومة لا بالمضادة، أي إخراج المجرم من مورد العقاب بإدخاله في مورد الرحمة.

ج. الإشكال الثاني (اختلاف السنة الإلهية) يُردّ بأن سنة الله قائمة على جميع صفاته، لا على صفة واحدة، والشفاعة من مقتضيات صفات الرحمة والمغفرة.

د. الإشكال الثالث (تغير الإرادة والعلم) يُردّ بأن التغير في المراد والمعلوم لا في الإرادة والعلم، والله يعلم أحوال العبد المتغيرة فيريد له بحسب كل حال.

هـ. الإشكال الرابع (استلزام الشفاعة للتجري على المعصية) يُردّ بأن الشفاعة غير معينة في حق شخص معين ولا في ذنب معين، ولا ترفع جميع أنواع العقاب، فلا توجب التجري.

و. الإشكال الخامس (عدم دلالة النقل على وقوع الشفاعة) يُردّ بأن الآيات النافية تنفي الشفاعة بغير إذن الله، والآيات المثبتة صريحة في الوقوع، والمصدر المضاف يدل على وقوع الفعل.

ز. الإشكال السادس (الشفاعة بمعنى التبليغ فقط) يُردّ بأن ذلك أحد المصاديق، لكن الآيات تدل على أوسع من ذلك، كآية المغفرة لمن يشاء.

ح. الإشكال السابع (تشابه الآيات) يُردّ بأن المتشابه يُردّ إلى المحكم، وهو ميسور لنا.

٣. أورد هنا مبحثا حول [تفاصيل الشفاعة: المشفوع لهم، والشافعون، والمتعلَّق، والزمان] خلاصته:

أ. المشفوع لهم يوم القيامة هم أصحاب اليمين من أهل الكبائر الذين ارتضى الله دينهم، وليسوا من أهل الصفات المانعة كترك الصلاة والإنفاق والخوض والتكذيب بيوم الدين.

ب. أصحاب اليمين هم الذين فكّوا من رهانة الذنوب بالشفاعة، وهم الذين آمنوا واتبعوا الإمام الحق.

ج. الشفاعة تشمل التكوينية (الأسباب الكونية) والتشريعية (التي في عالم التكليف)، ومن التشريعية: التوبة، والإيمان، والعمل الصالح، والقرآن، والمساجد، والأنبياء، والملائكة، والمؤمنون.

٤. أورد هنا مبحثا حول [حقيقة المجازاة الأخروية والشفاعة في ضوء البرهان الفلسفي] خلاصته:

أ. البراهين العقلية تقصر عن إعطاء تفاصيل المعاد الواردة في الكتاب والسنة، لكنها تثبت ما يستقبله الإنسان من كمالات عقلية ومثالية بعد مفارقة النفس للبدن.

ب. الإنسان يكتسب من كل فعل هيئة نفسانية، تتكرر فتصير ملكة راسخة، ثم تتحصل منها صورة سعيدة أو شقية للنفس تكون مبدأ لهيئات نفسانية.

ج. النفس السعيدة تلتذ بآثارها، والنفس الشقية تتألم بها، وهذه اللذة والألم من لوازم الأعمال ونتائجها.

د. النفس السعيدة ذاتاً والشقية فعلاً (أصحاب الذنوب من أهل الإيمان) تعاني من هيئات قسرية غير ملائمة، وسترزق التطهر منها في البرزخ أو القيامة.

هـ. النفوس التامة الكاملة (كأنبياء الله وأوليائه) هم وساطة في زوال الهيئات الشقية القسرية عن نفوس الضعفاء من السعداء، وهذه هي حقيقة الشفاعة الخاصة بأصحاب الذنوب.

و. الكمال الوجودي على سبيل التشكيك، والنفوس متفاوتة في القرب من مبدأ الكمال، وبعضها وسائط في الفيض.

٥. أورد هنا مبحثا حول [الشفاعة في الإسلام بين النقد الغربي والردّ القرآني الاجتماعي] خلاصته:

أ. المجتمع الإنساني لا يقوم إلا بقوانين وضعية تحفظ نظامه، وتحتاج إلى أحكام جزائية رادعة، ولا بد من تثبيت الإيمان بالجزاء في نفوس الأفراد.

ب. بعض النقّاد اتهموا الديانة المسيحية بأن عقيدة الفداء بالصلب توهن الوعي الجزائي، وامتد هذا النقد إلى الإسلام بسبب الشفاعة.

ج. الشفاعة في الإسلام ليست على النحو الذي تخيله النقاد، بل هي مشروطة بالإيمان المرضي، ولا توجب الأمن من العقاب، بل تخلق حالة بين الخوف والرجاء.

د. الإسلام وضع قوانين اجتماعية شاملة، وأحاطها بالحدود والتعزيرات والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأكد على التبشير والإنذار بالآخرة.

هـ. ضعف المسلمين الحالي ليس بسبب تعاليم الإسلام، بل بسبب تركهم لتلك التعاليم، واستبداد الحكام، وإبطالهم للحدود والسياسات الدينية.

و. الإحصاءات التي ادّعى النقاد فسادها لا تفيد، لأنها قارنت بين مجتمعين مختلفين في الظروف والرقابة الاجتماعية.

٦. أورد هنا مبحثا حول [تحقيق الشفاعة والمقام المحمود في القرآن والسنة: دراسة في شفاعة النبي ﷺ، والمقام المحمود، وشفاعة المؤمنين، وحدود الشفاعة، وأهل الكبائر، وعلاقة الشفاعة بالإيمان والندم والتوبة] خلاصته:

أ. الشفاعة من أصول الدين، وقد وردت في القرآن والسنة، وهي ثابتة للأنبياء والعلماء والشهداء، وخاصة للنبي محمد ﷺ، الذي له المقام المحمود الذي وعد به في قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]

ب. شفاعة النبي ﷺ هي لأهل الكبائر من أمته، كما ورد في الحديث: (إنما شفاعتي لأهل الكبائر

من أمتي، فأما المحسنون فما عليهم من سبيل) والمحسنون هم الذين لا ذنوب لهم، أو من غفرت ذنوبهم بأعمالهم الصالحة.

ج. الشفاعة لا تنفع الكافرين والمنافقين والمستكبرين، لقوله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨]، وقوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، والمراد بالارتضاء: ارتضاء الدين، أي من ارتضى الله دينه، ومن الدين الاقرار بالجزاء على الحسنات والسيئات.

د. شرط الشفاعة هو أن يكون المؤمن مرتضى الدين، وأن يندم على ذنوبه، لأن الندم توبة، ومن لا يندم على ذنوبه فهو مصرّ، والمصرّ لا يغفر له؛ لأنه غير مؤمن بعقوبة ما ارتكوقد قال النبي ﷺ: (لا كبيرة مع الاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار)

هـ. المقام المحمود هو مقام الشفاعة، كما ورد في الروايات المستفيضة، وفيه يدل النبي على أمته، ويخر ساجداً، ويشفع فيشفع، ويعطى حتى يرضوهذا المقام هو من أعلى مقامات القرب الإلهي، وهو وعد خاص بالنبي لم يعطه الله لأحد غيره.

و. شفاعة المؤمنين ثابتة أيضاً، كما ورد عن أئمة أهل البيت: (ولنا شفاعة في شيعتنا، ولشيعتنا شفاعة في أهاليهم، وإن المؤمن ليشفع في مثل ربيعة ومضر، وإن المؤمن ليشفع لخادمه) وروي أن فاطمة عليها السلام تشفع، وأن المؤمنين يشفعون في سبعين ألفاً من جيرانهم وأقربائهم.

ز. الشفاعة لا تنافي عدل الله، لأنها رحمة إلهية، وهي ضمن النظام الإلهي، ولا تكون إلا لمن ارتضى الله دينه، وكان مؤمناً بالجزاء، نادماً على ذنوبه، وإن كان قد اقترف كبائر.

ح. قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ [الضحى: ٥] هو أرجى آية في كتاب الله، كما ورد عن الباقر عليه السلام، لأنه وعد مطلق غير مقيد، ورضى النبي لا يتحقق إلا بشفاعة أمته، وهذا أوسع من قوله: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣]، لأن تلك الرحمة مقيدة بالتوبة والإسلام والعمل الصالح.

ط. الروايات الأخيرة (حديث المؤمن المستبصر، وحديث عرض الذنوب، وحديث أبي ذر، وحديث نشر الرحمة) تؤكد وتفصل ما تقدم، وتدل على أن الله يغفر الذنوب ويسترها، ويبدل السيئات حسنات، وأن المؤمن المستبصر لا يصر على ذنبه، وأن رحمة الله واسعة جداً.

٧. أحاديث وآثار: في تفسير العياشي في قوله تعالى: ﴿وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [البقرة: ٥١]، عن أبي جعفر عليه السلام قال: كان في العلم والتقدير ثلاثين ليلة، ثم بدا له فزاد عشراً، فتم ميقات ربه الأول والآخر أربعين ليلة.

• أقول: والرواية تؤيد ما مر أن الأربعين مجموع الموعدتين.

٢١. موسى ومصادر الهداية وعناد قومه:

المقطع [٢١] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَّ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٣-٥٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١/ ١٨٩»:

١. ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ﴾ البارئ من الأسماء الحسنى كما قال تعالى: ﴿هُوَ اللهُّ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾، وقع في ثلاث مواضع من كلامه تعالى: اثنان منها في هذه الآية، ولعله خص بالذكر هاهنا من بين الأسماء الملائمة معناه للمورد لأنه قريب المعنى من الخالق والموجد، من برأ يبرأ براء إذا فصل لأنه يفصل الخلق من العدم أو الإنسان من الأرض، فكأنه تعالى يقول: هذه التوبة وقتلكم أنفسكم وإن كان أشق ما يكون من الأوامر لكن الله الذي أمركم بهذا الفناء والزوال بالقتل هو الذي برأكم فالذي أحب وجودكم وهو خير لكم هو يحب الآن حلول القتل عليكم فهو خير لكم وكيف لا يحب خيركم وقد برأكم، فاختيار لفظ البارئ بإضافته إليهم في قوله: ﴿إِلَى بَارِئِكُمْ﴾، وقوله ﴿عِنْدَ بَارِئِكُمْ﴾ للإشعار بالاختصاص لإثارة المحبة.

٢. على هذا فقوله تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾، إنما يعني به قتل البعض وهم الذين عبدوا العجل كما يدل عليه أيضا قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ﴾ وقوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ﴾ تتمة الحكاية من قول موسى كما هو الظاهر، وقوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ يدل على نزول التوبة وقبولها، وقد وردت الرواية أن التوبة نزلت ولما يقتل جميع المجرمين منهم، من هنا يظهر أن الأمر

كان أمرا امتحانيا نظير ما وقع في قصة رؤيا إبراهيم عليه السلام وذبح إسماعيل ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾، فقد ذكر موسى عليه السلام: ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ﴾، وأمضى الله سبحانه قوله عليه السلام وجعل قتل البعض قتلا للكل وأنزل التوبة بقوله: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾

٣. ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ﴾ ظاهر الآية وما تقدمها أن هذه الخطابات وما وقع فيها من عد أنواع تعدياتهم ومعاصيهم إنما نسبت إلى الكل مع كونها صادرة عن البعض لكونهم جامعة ذات قومية واحدة يرضى بعضهم بفعل بعض، وينسب فعل بعضهم إلى آخرين لمكان الوحدة الموجودة فيهم، فما كل بني إسرائيل عبدوا العجل، ولا كلهم قتلوا الأنبياء إلى غير ذلك من معاصيهم.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في الدر المنثور عن علي عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤] الآية، قال: قالوا لموسى: ما توبتنا؟ قال: يقتل بعضكم بعضاً، فأخذوا السكاكين، فجعل الرجل يقتل أخاه وأباه وابنه، والله لا يبالي من قتل، حتى قتل منهم سبعون ألفاً، فأوحى الله إلى موسى: مرهم فليرفعوا أيديهم، وقد غفر لمن قتل، وتيب على من بقي.

ب. وفي تفسير القمي قال عليه السلام: إن موسى لما خرج إلى الميقات ورجع إلى قومه وقد عبدوا العجل، قال لهم موسى: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤]، فقالوا له: كيف نقتل أنفسنا؟ فقال لهم موسى: أُغْدُوا كل واحد منكم إلى بيت المقدس ومعه سكين أو حديدة أو سيف، فإذا صعدت أنا منبر بني إسرائيل، فكونوا أنتم ملتثمين لا يعرف أحد صاحبه، فأقتلوا بعضكم بعضاً، فاجتمعوا سبعون ألف رجل ممن كان عبدوا العجل إلى بيت المقدس، فلما صلى بهم موسى وصعد المنبر، أقبل بعضهم يقتل بعضاً حتى نزل جبرائيل فقال: قل لهم: يا موسى ارفعوا القتل، فقد تاب الله لكم، فقتل منهم عشرة آلاف، وأنزل الله: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٥٤]

• أقول: والرواية كما ترى تدل على كون قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾ مقولاً لموسى ومقولاً له سبحانه، فيكون إمضائاً لكلمة قالها موسى، وكشفاً عن كونها تامة، على خلاف ما يلوح من الظاهر من كونها ناقصة؛ فإن الظاهر يعطي أن موسى جعل قتل الجميع خيراً لهم عند بارئهم، وقد قتل

منهم البعض دون الجميع، فجعل سبحانه ما وقع من القتل هو الخير الذي ذكره موسى عليه السلام كما مر.

ج. وفي تفسير القمي أيضاً في قوله تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ [البقرة: ٥٧] الآية: إن بني إسرائيل لما عبر موسى بهم البحر نزلوا في مفازة، فقالوا: يا موسى، أهلكتنا وقتلتنا، وأخرجتنا من العمران إلى مفازة لا ظل ولا شجر ولا ماء، وكانت تجيء بالنهار غمامة تظلهم من الشمس، وينزل عليهم بالليل المنّ فيقع على النبات والشجر والحجر، فيأكلونه، وبالعشي يأتيهم طائر مشوي يقع على موائدهم، فإذا أكلوا وشربوا طار ومر، وكان مع موسى حجر يضعه وسط العسكر، ثم يضربه بعصاه فتنفجر منه اثنتا عشرة عيناً، كما حكى الله، فيذهب إلى كل سبط في رحله، وكانوا اثني عشر سبطاً.

د. وفي الكافي في قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٧]، عن أبي الحسن الماضي عليه السلام قال: إن الله أعزّ وأمنع من أن يظلم أو ينسب نفسه إلى الظلم، ولكنه خلطنا بنفسه، فجعل ظلمنا ظلمه وولايتنا ولايته، ثم أنزل الله بذلك قرآناً على نبيه فقال: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، قال الراوي: قلت: هذا تنزيل؟ قال: نعم.

• أقول: وروى ما يقرب منه أيضاً عن الباقر عليه السلام، وقوله عليه السلام: (أمنع من أن يظلم) بالبناء للمفعول، تفسير لقوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾، وقوله: (أو ينسب نفسه إلى الظلم) بالبناء للفاعل، وقوله: (ولكنه خلطنا بنفسه)، أي خلطنا معاشر الأنبياء والأوصياء والأئمة بنفسه، وقوله: (قلت: هذا تنزيل؟ قال: نعم) وجهه أن النفي في هذه الموارد وأمثالها إنما يصح فيما يصح فيه الإثبات أو يتوهم صحته، فلا يقال للجدار: إنه لا يبصر أو لا يظلم، إلا لنكتة، وهو سبحانه أجلّ من أن يسلم في كلامه توهم الظلم عليه، أو يجوز وقوعه عليه، فالنكتة في هذا النفي الخلط المذكور؛ لأن العظماء يتكلمون عن خدمهم وأعوانهم.

٢٢. دخول القرية مع التواضع والاستغفار وعقوبة المبدلين:

المقطع [٢٢] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [البقرة:

٥٨ـ٥٩]، لم يفسر الآية الكريمة، ومعناها واضح، وهو:

١. يذكّر الله بنعمته على بني إسرائيل حين أمرهم بدخول مدينة (القدس أو أريحا) وأباح لهم أكل طيباتها واسعةً، بشرط أن يدخلوا بابها خاضعين متواضعين، ويقولوا كلمة تعني طلب المغفرة فوعدهم بالمغفرة وزيادة الإحسان، لكنهم بدّلوا القول المأمور به إلى قول آخر استهزاءً، فعاقبهم الله برجز (عذاب أو طاعون) من السماء بسبب فسقهم.

٢. وهي تدعو إلى:

أ. الامتثال لأمر الله يوجب المغفرة والبركة، والزيادة في الخير للمحسنين.

ب. تبديل أوامر الله والاستهزاءُ بها سبب لنزول العقوبات.

ج. التواضع لله (السجود) والاعتراف بالذنب (قول حطة) مفتاح الرحمة.

د. المعصية مع العلم تستوجب عقابًا أشد من الجهل.

هـ. سنن الله في الأمم السابقة عبرة للأمة المحمدية.

٢٣. استسقاء موسى لقومه وانفجار اثنتي عشرة عيناً:

المقطع [٢٣] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة: ٦٠]، لم يفسر الآية الكريمة، ومعناها واضح، وهو:

١. يذكّر الله بنعمته على بني إسرائيل في التيه، حين استسقى موسى لقومه في أرض قاحلة، فأمره الله أن يضرب بعصاه حجرًا معينًا، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينًا بعدد أسباطهم، كل سبط يعرف عينه التي يشرب منها فلا يتزاحمون، ثم أمرهم بالأكل والشرب من رزق الله الحلال، ونهاهم عن الإفساد في الأرض بالمعاصي والظلم والفساد.

٢. وهي تدعو إلى:

أ. الإيمان بقدرة الله على إخراج الماء من الجماد الصلب إعجازًا ورحمةً، فلا يُعجزُ شيءٌ في الأرض عنه.

ب. تنظيم الله لأرزاق عباده بعدل، فجعل لكل قبيلة مشربها الخاص دفعًا للنزاع والظلم.

ج. شكر النعم باستعمالها في طاعة الله، لا في معصيته، فالأمر بـ (كلوا واشربوا) مقرون بالنهي عن الإفساد.

د. تحريم الإفساد في الأرض بكل صوره: الاعتداء، الظلم، البغي، والمعاصي، خاصة عند مقارنة النعم.

هـ. أن الرزق الحلال مع الشكر والطاعة سبب لاستدامته، وأن الفساد بعد النعم يستوجب سلبها.

٢٤. تذمر بني إسرائيل من المن والسلوى واستبدالهم الأدنى بالأعلى:

المقطع [٢٤] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١/ ١٩٣»:

١. ﴿مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا﴾ القثاء الخيار والفوم الثوم او الحنطة.

٢. ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ﴾ أي رجعوا.

٣. ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ تعليل لما تقدمه.

٤. ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ تعليل للتعليل فعصيانهم ومداومتهم للإعتداء هو الموجب لكفرهم بالآيات وقتلهم الأنبياء كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الروم: ١٠]، وفي التعليل بالمعصية وجه سيأتي في البحث الآتي.

٥. أحاديث وآثار:

في تفسير العياشي في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٦١] الآية، عن الصادق عليه السلام أنه قرأ هذه الآية: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١]، فقال: والله ما ضربوهم بأيديهم، ولا قتلوهم بأسيافهم، ولكن سمعوا أحاديثهم فأذاعوها، فأخذوا عليها فقتلوا، فكان قتلاً واعتداءً ومصيبة.

• أقول: وفي الكافي عنه عليه السلام مثله، وكأنه عليه السلام استفاد ذلك من قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ

بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾؛ فإن القتل وخاصة قتل الأنبياء والكفر بآيات الله لا يعلل بالعصيان، بل الأمر بالعكس على ما يوجبه الشدة والأهمية، لكن العصيان بمعنى عدم الكتمان والتحفظ مما يصح التعليل المذكور به.

٢٥. الأجر والنجاة لمن آمن بالله واليوم الآخر من أي أمة:

المقطع [٢٥] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِّ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١/ ١٩٣»:

١. تكرار الإيمان ثانيا، وهو الاتصاف بحقيقته كما يعطيه السياق يفيد أن المراد بالذين آمنوا في صدر الآية هم المتصفون بالإيمان ظاهرا المتسمون بهذا الاسم، فيكون محصل المعنى: أن الأسماء والتسمي بها مثل المؤمنين واليهود والنصارى والصابئين لا يوجب عند الله تعالى أجرا ولا أمنا من العذاب، كقولهم: لا يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى، وإنما ملاك الأمر وسبب الكرامة والسعادة حقيقة الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح، ولذلك لم يقل من آمن منهم بإرجاع الضمير إلى الموصول اللازم في الصلة لئلا يكون تقريرا للفائدة في التسمي على ما يعطيه النظم كما لا يخفى.

٢. هذا مما تكررت فيه آيات القرآن أن السعادة والكرامة تدور مدار العبودية، فلا اسم من هذه الأسماء ينفع لمتسميه شيئا، ولا وصف من أوصاف الكمال يبقى لصاحبه وينجيه إلا مع لزوم العبودية، الأنبياء ومن دونهم فيه سواء:

أ. فقد قال تعالى في أنبيائه بعد ما وصفهم بكل وصف جميل: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

ب. وقال تعالى في أصحاب نبيه ومن آمن معه مع ما ذكر من عظم شأنهم وعلو قدرهم: ﴿وَعَدَ اللهُّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾: الفتح، ٢٩، فأتى بكلمة منهم.

ج. وقال في غيرهم ممن أوتي آيات الله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾، إلى غير ذلك من الآيات الناصة على أن الكرامة بالحقيقة دون الظاهر.

٣. أورد هنا مبحثا حول [الصابئة: تاريخهم، عقائدهم، وعلاقتهم بالحرانيين] خلاصته:

أ. ذكر أبو ريحان البيروني في (الآثار الباقية) أن أول المتنبئين هو (يوذاس) الذي ظهر في الهند وأتى بالكتابة الفارسية، ودعا إلى ملة الصابئين.

ب. الملوك البيشدادية والكيانية كانوا يعظمون النيرين والكواكب، حتى ظهور زرادشت، وبقايا الصابئين في حران يُنسبون إليها فيقال لهم (الحرانية)

ج. حكى ابن سنكلا النصراني عن الحرانية روايات عن إبراهيم عليه السلام تتضمن خروجه بسبب البرص واختتانه، وذبح ابنه للكوكب، وهي روايات مكذوبة.

د. الكندي وصفهم بأنهم يوحدون الله وينزهونه، لكنهم ينسبون التدبير إلى الفلك ويقولون بحياة الكواكب ونطقها، ويعظمون الأنوار، ويصفونه بالسلب لا الإيجاب.

هـ. لهم ثلاث صلوات مكتوبات، وأحكامهم في المناكح والحدود تشبه أحكام المسلمين، وفي التنجس تشبه التوراة.

و. هناك قول بأن الحرانية ليسوا هم الصابئة الحقيقيين، بل هم الوثنيون الحنفاء، وأن الصابئة الحقيقيين هم من تخلفوا ببابل وامتزجوا بالمجوسية واليهودية كالسامرة.

ز. الراجح أن تفسير الصابئة بالمذهب الممتزج من المجوسية واليهودية مع أشياء من الحرانية هو الأوفق بسياق الآية، لأن التعداد لأهل الملة.

٢٦. أخذ الميثاق ورفع الطور فوق بني إسرائيل وتولي أكثرهم:

المقطع [٢٦] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [البقرة: ٦٣-٦٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١/ ١٩٨»:

١. ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾:

أ. الطور هو الجبل كما بدله منه في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾، والنتق هو الجذب والاقتلاع، وسياق الآية حيث ذكر أخذ الميثاق أولا، والأمر بأخذ ما أوتوا، وذكر ما فيه أخيرا، ووضع رفع الطور فوقهم بين الأمرين مع السكوت عن سبب الرفع وغايتها يدل على أنه كان لإرهابهم بعظمة القدرة من دون أن يكون لإجبارهم وإكراههم على العمل بما أوتوه وإلا لم يكن لأخذ الميثاق وجه.

ب. سؤال وإشكال: ربما ربما يقال: إن رفع الجبل فوقهم لو كان على ظاهره كان آية معجزة وأوجب إجبارهم وإكراههم على العمل، والجواب: قد قال سبحانه: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾، وقال: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾، والآية لا تدل على أزيد من الإخافة والإرهاب ولو كان مجرد رفع الجبل فوق بني إسرائيل إكراها لهم على الإيمان أو العمل، لكان أغلب معجزات موسى موجبة للإكراه.

ج. القول بأن بني إسرائيل كانوا في أصل الجبل فزلزل وزعزع حتى أظل رأسه عليهم، فظنوا أنه واقع بهم فعبر عنها برفعه فوقهم أو نتقه فوقهم، مبني على أصل إنكار المعجزات وخوارق العادات، ولو جاز أمثال هذه التأويلات لم يبق للكلام ظهور، ولا لبلاغة الكلام وفصاحته أصل تتكي عليه وتقوم به.

٢. ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، لعل كلمة ترج، واللازم في الترجي صحته في الكلام سواء كان قائما بنفس المتكلم أو المخاطب أو بالمقام، كأن يكون المقام مقام رجاء وإن لم يكن للمتكلم والمخاطب رجاء فيه وهو لا يخلو عن شوب جهل بعاقبة الأمر، فالرجاء في كلامه تعالى إما بملاحظة المخاطب أو بملاحظة المقام، وأما هو تعالى فيستحيل نسبة الرجاء إليه لعلمه بعواقب الأمور، كما نبه عليه الراغب في مفرداته.

٣. أورد هنا مبحثا حول [إمكان المعجزات وحدودها: إحياء الموتى والمسخ في ضوء البرهان الفلسفي]، خلاصته:

أ. السورة مشتملة على اثنتي عشرة آية معجزة خارقة للعادة، جرت أكثرها في بني إسرائيل، وهي جائزة الوقوع ولا تنقض قانون العلية.

ب. إحياء الموتى والمسخ يختلفان عن سائر المعجزات، وقد قيل باستحالة رجوع ما خرج من القوة إلى الفعل إلى القوة ثانياً.

ج. عود الميت إلى الحياة الدنيا ليس رجوعاً إلى القوة، بل هو تعلق النفس المجردة بالمادة ثانياً، مع بقاء تجردها واستكمال جديد.

د. النفس المجردة إذا عادت إلى البدن استعملت قواها وأدواتها، واكتسبت ملكات جديدة، دون أن يكون ذلك رجوعاً قهقرى.

هـ. القسر الدائم هو أن يجعل في غريزة نوع استعداد لكمال ثم لا يظهر أثره دائماً، وهذا غير ثابت

في عودة الأموات.

و. المسخ هو إنسان تغيرت صورته إلى صورة نوع آخر، فهو (إنسان ممسوخ)، لا أن إنسانيته بطلت.

ز. التناسخ (تعلق النفس المستكملة ببدن آخر) محال، لأنه يستلزم تعلق نفسين ببدن واحد، أو رجوع ما بالفعل إلى القوة.

٢٧. عقوبة اعتداء أصحاب السبت ومسخهم قردة خاسئين:

المقطع [٢٧] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٦٥-٦٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١/ ٢٠٠»:

١. ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا﴾ أي عبرة يعتبر بها، والنكال هو ما يفعل من الإذلال والإهانة بواحد ليعتبر به آخرون.

٢٨. قصة البقرة وتكلف وتعنت بني إسرائيل:

المقطع [٢٨] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٦٧-٧٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١/ ٢٠٠»:

١. هذه قصة بقرة بني إسرائيل، وبها سميت السورة سورة البقرة، والأمر في بيان القرآن لهذه القصة عجيب فإن القصة فصل بعضها عن بعض حيث قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ إلى آخره، ثم قال ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾، ثم إنه أخرج فصلا منها من وسطها، وقدم أولا ووضع صدر

القصة وذيلها ثانيا.

٢. ثم إن الكلام كان مع بني إسرائيل في الآيات السابقة بنحو الخطاب، فانتقل بالالتفات إلى الغيبة حيث قال: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ ثم التفت إلى الخطاب ثانيا بقوله: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾

٣. الالتفات في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾، فيه صرف الخطاب عن بني إسرائيل، وتوجيهه إلى النبي في شطر من القصة وهو أمر ذبح البقرة وتوصيفها ليكون كالمقدمة الموضحة للخطاب الذي سيخاطب به بنو إسرائيل بقوله: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، الآيتان في سلك الخطابات السابقة.

٤. هذه الآيات الخمس من قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾، كالمعترضة في الكلام تبين معنى الخطاب التالي مع ما فيها من الدلالة على سوء أدبهم وإيذائهم لرسولهم، برميه بفضول القول ولغو الكلام، مع ما فيه من تعنتهم وتشديدهم وإصرارهم في الاستيضاح والاستفهام المستلزم لنسبة الإبهام إلى الأوامر الإلهية وبيانات الأنبياء مع ما في كلامهم من شوب الإهانة والاستخفاف الظاهر بمقام الربوبية فانظر إلى قول موسى عليه السلام لهم ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾، وقولهم ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾، وقولهم ثانيا: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا﴾، وقولهم ثالثا: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾، فأتوا في الجميع بلفظ ربك من غير أن يقولوا ربنا ثم كرروا قولهم: ﴿مَا هِيَ﴾ وقالوا ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ فادعوا التشابه بعد البيان، ولم يقولوا: إن البقرة تشابهت علينا بل قالوا: ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ كأنهم يدعون أن جنس البقر متشابه ولا يؤثر هذا الأثر إلا بعض أفراد هذا النوع وهذا المقدار من البيان لا يجزي في تعيين الفرد المطلوب وتشخيصه، مع أن التأثير لله عز اسمه لا للبقرة، وقد أمرهم أن يذبحوا بقرة فأطلق القول ولم يقيده بقيد، وكان لهم أن يأخذوا بإطلاقه، ثم انظر إلى قولهم لنبيهم: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾، المتضمن لرميه عليه السلام بالجهالة واللغو حتى نفاه عن نفسه بقوله: ﴿أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾، وقولهم أخيرا بعد تمام البيان الإلهي: ﴿الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾، الدال على نفي الحق عن البيانات السابقة المستلزم لنسبة الباطل إلى طرز البيان الإلهي والتبليغ النبوي.

٥. بالجملة فتقديم هذا الشطر من القصة لإبانة الأمر في الخطاب التالي كما ذكر مضافا إلى نكتة أخرى، وهي أن قصة البقرة غير مذكورة في التوراة الموجودة عند اليهود اليوم فكان من الحري أن لا يخاطبوا بهذه القصة أصلا أو يخاطبوا به بعد بيان ما لعبت به أيديهم من التحريف، فأعرض عن خطابهم أولا بتوجيه الخطاب إلى النبي ثم بعد تثبيت الأصل، عاد إلى ما جرى عليه الكلام من خطابهم المتسلسل، نعم في هذا المورد من التوراة حكم لا يخلو عن دلالة ما على وقوع القصة وهاك عبارة التوراة، قال في الفصل الحادي والعشرين من سفر تثنية الاشتراع: إذا وجد قتيل في الأرض، التي يعطيك الرب إلهك لتمتلكها واقعا في الحقل، لا يعلم من قتله.،)

٦. إذا عرفت هذا علمت أن بيان هذه القصة على هذا النحو ليس من قبيل فصل القصة، بل القصة مبينة على نحو الإجمال في الخطاب الذي في قوله: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ وشطر من القصة مأتية بها ببيان تفصيلي في صورة قصة أخرى لنكتة دعت إليه.

٧. ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾:

أ. خطاب للنبي ﷺ وهو كلام في صورة قصة، وإنما هي مقدمة توضيحية للخطاب التالي لم يذكر معها السبب الباعث على هذا الأمر، والغاية المقصودة منها، بل أطلقت إطلاقا ليتنبه بذلك نفس السامع وتقف موقف التجسس، وتنتشط إذا سمعت أصل القصة، ونالت الارتباط بين الكلامين، ولذلك لما سمعت بنو إسرائيل قوله: ﴿إِنَّ اللهَّ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ تعجبوا من ذلك ولم يحملوه إلا على أن نبي الله موسى يستهزئ بهم لعدم وجود رابطة عندهم بين ذبح البقرة وما يسألونه من فصل الخصومة والحصول على القاتل قالوا أتتخذنا هزوا وسخرية.

ب. إنما قالوا ذلك لفقدهم روح الإطاعة والسمع واستقرار ملكة الاستكبار والعتو فيهم، وقولهم: إنا لا نحوم حول التقليد المذموم، وإنما نؤمن بما نشاهده ونراه كما قالوا لموسى: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَّ جَهْرَةً﴾، وإنما وقعوا فيما وقعوا من جهة استقلالهم في الحكم والقضاء فيما لهم ذلك، وفيما ليس لهم ذلك فحكموا بالمحسوس على المعقول فطالبوا معاينة الرب بالحس الباصر وقالوا: ﴿يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾، وزعموا أن نبيهم موسى مثلهم يتهوس كتهوسهم، ويلعب كلعبهم، فرموه بالاستهزاء والسفه والجهالة حتى رد عليهم، وقال أعوذ بالله أن أكون من

الجاهلين.

ج. إنما استعاذ بالله ولم يخبر عن نفسه بأنه ليس بجاهل لأن ذلك منه عليه السلام أخذ بالعصمة الإلهية التي لا تتخلف لا الحكمة الخلقية التي ربما تتخلف.

د. زعموا أن ليس للإنسان أن يقبل قولا إلا عن دليل، وهذا حق، لكنهم غلطوا في زعمهم أن كل حكم يجب العثور على دليله تفصيلا، ولا يكفي في ذلك الإجمال، ومن أجل ذلك طالبوا تفصيل أوصاف البقرة لحكمهم أن نوع البقر ليس فيه خاصة الإحياء، فإن كان ولا بد فهو في فرد خاص منه يجب تعيينه بأوصاف كاملة البيان ولذلك ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾

هـ. هذا تشديد منهم على أنفسهم من غير جهة فشدد الله عليهم، وقال موسى ﴿إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ﴾، أي ليست بمسنة انقطعت ولادتها ﴿وَلَا بِكْرٌ﴾ أي لم تلد، ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾، والعوان من النساء والبهائم ما هو في منتصف السن أي واقعة في السن بين ما ذكر من الفارض والبكر.

و. ثم ترحم عليهم ربهم فوعظهم أن لا يلحوا في السؤال، ولا يشددوا على أنفسهم ويقنعوا بما بين لهم فقال: ﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾

ز. وهم مع ذلك لم يرضوا به، وأعادوا كلامهم الأول، من غير تحجب وانقباض و ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾

ح. فأجابهم ثانيا بتوضيح في ماهيتها ولونها وقال ﴿إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ﴾ أي غير مذللة بالحرث والسقي ﴿تُثِيرُ الْأَرْضَ﴾ بالشيار ﴿وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾ فلما تم عليهم البيان ولم يجدوا ما يسألونه.

ط. ﴿قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ قول من يعترف بالحقيقة بالإلزام والحجة من غير أن يجد إلى الرد سبيلا، فيعترف بالحق اضطرارا، ويعتذر عن المبادرة إلى الإنكار بأن القول لم يكن مبينا من قبل، ولا بينا تاما، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾

٨. ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾، شروع في أصل القصة والتدارؤ هو التدافع من الدرء بمعنى الدفع فقد كانوا قتلوا، نفسا، وكل طائفة منهم يدفع الدم عن نفسها إلى غيرها، وأراد الله سبحانه إظهار ما كتموه.

٩. ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾، أول الضميرين راجع إلى النفس باعتبار أنه قتيل، وثانيهما إلى البقرة،

وقد قيل: إن المراد بالقصة بيان أصل تشريع الحكم حتى ينطبق على الحكم المذكور في التوراة الذي نقلناه، والمراد بإحياء الموتى العثور بوسيلة تشريع هذا الحكم على دم المقتول، نظير ما ذكره تعالى بقوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾، من دون أن يكون هناك إحياء بنحو الإعجاز هذا، وأنت خبير بأن سياق الكلام وخاصة قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمُوْتَى﴾، يأبى ذلك.

١٠. وضع هنا مبحثا حول [بنو إسرائيل والمدنية المادية: دراسة في الأخلاق والتقليد والاجتهاد]، خلاصته:

أ. بنو إسرائيل أكثر الأمم ذكراً في القرآن، وموسى أكثر الأنبياء ذكراً، والسبب أن الإسلام هو دين إبراهيم الذي أكمله الله، وبنو إسرائيل كانوا أكثر الأمم لجاجاً وخصاماً.

ب. كان بنو إسرائيل قوماً غائرين في المادة، مكبين على اللذات الحسية، لا يؤمنون بما وراء الحس، وهذا جعل عقولهم تحت انقياد الحس والمادة.

ج. هذه الصفة أدت بهم إلى التناقض: يذمون كل اتباع باسم التقليد إذا كان بعيداً عن حسهم، ويمدحون كل اتباع باسم حظ الحياة إذا وافق أهوائهم المادية.

د. المدنية المادية الغربية اليوم ابتليت بنفس البلاء، فهي مبنية على الحس والمادة، مما أوجب إبطال الغريزة الإنسانية وتهديد الإنسانية بالانهيار.

هـ. الإنسان مفطور على البحث عن العلة، ولا يقبل تصديقاً نظرياً إلا إذا اتكأ على العلة، والفطرة لا تختلف.

و. سعة الحاجات الحيوية دفعت الإنسان إلى الاجتماع والتعاون، وتوزيع المهام، والرجوع إلى أهل الخبرة.

ز. التقليد (الرجوع إلى العالم) واجب فيما لا يسعه الإنسان، والاجتهاد واجب فيما يسعه، والاتباع المحض لا يجوز إلا لله سبحانه لأنه منتهى الأسباب.

١١. أحاديث وآثار:

أ. في محاسن عن الصادق عليه السلام في قول الله: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة: ٦٣]، أقوة الأبدان أو قوة القلب؟ قال عليه السلام: فيهما جميعاً.

• أقول: ورواه العياشي أيضاً في تفسيره.

وفي تفسير العياشي عن الحلبي في قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ [البقرة: ٦٣]، قال: أذكروا ما فيه، وأذكروا ما في تركه من العقوبة.

• أقول: وقد استفيد ذلك من المقام من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة: ٦٣]

ب. وفي الدر المنثور عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: لولا أن بني إسرائيل قالوا: ﴿وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٧٠]، ما أعطوا أبداً، ولو أنهم اعترضوا بقرة من البقر فذبحوها لأجزأت عنهم، ولكنهم شددوا فشدد الله عليهم.

ج. وفي تفسير القمي عن ابن فضال قال: سمعت أبا الحسن عليه السلام يقول: إن الله أمر بني إسرائيل أن يذبحوا بقرة، وإنما كانوا يحتاجون إلى ذنبها، فشدد الله عليهم.

د. وفي المعاني وتفسير العياشي عن البزنطي قال: سمعت الرضا عليه السلام يقول: إن رجلاً من بني إسرائيل قتل قرابة له، ثم أخذه وطرحه على طريق أفضل سبط من أسباط بني إسرائيل، ثم جاء يطلب بدمه، فقالوا لموسى: إن سبط آل فلان قتلوا فلاناً، فأخبر من قتله، قال: ائتوني ببقرة، قالوا: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ [البقرة: ٦٧]؟ قال: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧]، ولو أنهم عمدوا إلى بقرة أجزأتهم، ولكن شددوا فشدد الله عليهم، قالوا: ادع لنا ربك يبين لنا ما هي؟ قال: ﴿إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ﴾ [البقرة: ٦٨]، يعني لا صغيرة ولا كبيرة، عوان بين ذلك، ولو أنهم عمدوا إلى بقرة أجزأتهم، ولكن شددوا فشدد الله عليهم، قالوا: ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها؟ قال: ﴿إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ [البقرة: ٦٩]، ولو أنهم عمدوا إلى بقرة أجزأتهم، ولكن شددوا فشدد الله عليهم، قالوا: ادع لنا ربك يبين لنا ما هي، إن البقر تشابه علينا، ﴿وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٧٠]، قال: ﴿إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ [البقرة: ٧١]، قالوا: الآن جئت بالحق، فطلبوها، فوجدوها عند فتى من بني إسرائيل، فقال: لا أبيعها إلا بملء مسك ذهباً، فجاءوا إلى موسى وقالوا له ذلك، قال: اشتروها، فاشتروها وجاءوا بها، فأمر بذبحها، ثم أمر أن يضربوا الميت بذنبها، فلما فعلوا ذلك، حيي المقتول وقال: يا رسول الله، إن ابن عمي قتلني دون من ادعي

عليه قتلي، فعلموا بذلك قاتله، فقال لرسول الله موسى بعض أصحابه: إن هذه البقرة لها نبأ، فقال: وما هو؟ قال: إن فتى من بني إسرائيل كان باراً بأبيه، وإنه اشترى بيعاً، فجاء إلى أبيه والأقاليد تحت رأسه، فكره أن يوقظه فترك ذلك البيع، فاستيقظ أبوه فأخبره، فقال: أحسنت، هذه البقرة فهي لك عوضاً مما فاتك، فقال له رسول الله موسى: انظر إلى البر ما بلغ بأهله.

• أقول: والروايات كما ترى منطبقة على إجمال ما استفدناه من الآيات الشريفة.

٢٩. قسوة قلوب بني إسرائيل بعد المعجزات:

المقطع [٢٩] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٧٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١/ ٢٠٣»:

١. القسوة في القلب بمنزلة الصلابة في الحجر، وكلمة أو بمعنى بل، والمراد بكونها بمعنى (بل) انطباق معناه على موردها.

٢. بين الله تعالى شدة قسوة قلوبهم بقوله: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ﴾، وقوبل فيه بين الحجارة والماء لكون الحجارة يضرب بها المثل في الصلابة ككون الماء يضرب به المثل في اللين، فهذه الحجارة على كمال صلابتها يتفجر منها الأنهار على لين مائها، وتشقق، فيخرج منها الماء على لينه وصلابتها، ولا يصدر من قلوبهم حال يلائم الحق، ولا قول حق يلائم الكمال الواقع.

٣. ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾:

أ. هبوط الحجارة ما نشاهد من انشقاق الصخور على قلل الجبال، وهبوط قطعات منها بواسطة الزلازل، وصيرورة الجمد الذي يتخللها في فصل الشتاء ماء في فصل الربيع إلى غير ذلك.

ب. عُد هذا الهبوط المستند إلى أسبابها الطبيعية هبوطا من خشية الله تعالى لأن جميع الأسباب منتهية إلى الله سبحانه، فانفعال الحجارة في هبوطها عن سببها الخاص بها انفعال عن أمر الله سبحانه إياها بالهبوط، وهي شاعرة لأمر ربها شعورا تكوينيا، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ

تَسْبِيحَهُمْ﴾، وقال تعالى: ﴿كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾، والانفعال الشعوري هو الخشية، فهي هابطة من خشية الله تعالى، فالآية جارية مجرى قوله تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾، حيث عد صوت الرعد تسبيحا بالحمد وعد الظلال ساجدة لله سبحانه إلى غير ذلك من الآيات التي جرى القول فيها مجرى التحليل كما لا يخفى.

٤. ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ﴾، بيان ثان لكون قلوبهم أقسى من الحجارة فإن الحجارة تخشى الله تعالى، فتهبط من خشيته، وقلوبهم لا تخشى الله تعالى ولا تهابه.

٣٠. تحريف بني إسرائيل لكلام الله وكتمانهم العلم:

المقطع [٣٠] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [البقرة: ٧٥-٧٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١/ ٢١٣»:

١. ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾:

أ. فيه التفات من خطاب بني إسرائيل إلى خطاب النبي والذين آمنوا، ووضعهم موضع الغيبة، وكان الوجه فيه أنه لما قص قصة البقرة وعدل فيها من خطاب بني إسرائيل إلى غيبتهم لمكان التحريف الواقع فيها بحذفها من التوراة كما مر، أريد إتمام البيان بنحو الغيبة بالإشارة إلى تحريفهم كتاب الله تعالى، فصرف لذلك وجه الكلام إلى الغيبة.

ب. لا تقابل بين الشرطين، وهما مدخولا إذا في الموضعين كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾، بل المراد بيان موضعين آخرين من مواضع جرائمهم وجهالتهم:

- أحدهما: أنهم ينافقون فيتظاهرون بالإيمان صونا لأنفسهم من الإيذاء والطعن والقتل.
- وثانيهما: أنهم يريدون تعمية الأمر وإبهامه على الله سبحانه العالم بسرهم وعلانيتهم.

٢. ذلك أن العامة منهم، وهم أولو بساطة النفس ربما كانوا ينبسطون للمؤمنين، فيحدثونهم

ببعض ما في كتبهم من بشارات النبي أو ما ينفع المؤمنين في تصديق النبوة، كما يلوح من لحن الخطاب فكان أولياؤهم ينهونهم معللا بأن ذلك مما فتح الله لهم، فلا ينبغي أن يفشي للمؤمنين، فيحاجوهم به عند ربهم كأنهم لو لم يحاجوهم به عند ربهم لم يطلع الله عليه، فلم يؤاخذهم بذلك، ولازم ذلك أن الله تعالى إنما يعلم علانية الأمر، دون سره وباطنه وهذا من الجهل بمكان، فرد الله سبحانه عليهم بقوله: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾) الآية فإن هذا النوع من العلم، وهو ما يتعلق بظاهر الأمر دون باطنه، إنما هو العلم المنتهي إلى الحس الذي يفتقر إلى بدن مادي مجهز بآلات مادية مقيد بقيود الزمان والمكان مولود لعلل أخرى مادية وما هو كذلك مصنوع من العالم لا صانع العالم.

٣. هذا من شواهد أن بني إسرائيل لإذعانهم بأصالة المادة كانوا يحكمون في الله سبحانه بما للمادة من الأحكام، فكانوا يظنونه موجودا فعالا في المادة، مستعليا قاهرا عليه، ولكن بعين ما تفعل علة مادية وتستعلي وتقهر على معلول مادي.

٤. هذا أمر لا يختص به اليهود، بل هو شأن كل من يذعن بأصالة المادة من المليين وغيرهم، فلا يحكمون في ساحة قدسه سبحانه إلا بما يعقلون من أوصاف الماديات من الحياة والعلم والقدرة والاختيار والإرادة والقضاء والحكم وتدبير الأمر وإبرام القضاء إلى غير ذلك، وهذا داء لا ينجع معه دواء، وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يعقلون، حتى آل الأمر إلى أن استهزأ بهم من لا مسكة له في دينهم الحق ولا قدم له في معارفهم الحقة، قائلا: إن المسلمين يروون عن نبيهم أن الله خلق آدم على صورته وهم معاشر أمته يخلقون الله على صورة آدم، فهؤلاء يدور أمرهم بين أن يثبتوا لربهم جميع أحكام المادة، كما يفعله المشبهة من المسلمين أو من يتلو تلوهم وإن لم يعرف بالتشبيه، أو لا يفهموا شيئا من أوصاف جماله، فينفوا الجميع بإرجاعها إلى السلوب قائلا إن ما يبين أوصافه تعالى من الألفاظ إنما يقع عليه بالاشتراك اللفظي فلقولنا: إنه موجود ثابت عالم قادر حي معان لا نفهمها ولا نعقلها، فاللازم إرجاع معانيها إلى النفي، فالمعنى مثلا أنه ليس بمعدوم، ولا زائل، ولا جاهل، ولا عاجز ولا ميت، فاعتبروا يا أولي الأبصار فهذا بالاستلزام زعم منهم بأنهم يؤمنون بما لا يدرون، ويعبدون ما لا يفهمون، ويدعون إلى ما لا يعقلون، ولا يعقله أحد من الناس، وقد كفتهم الدعوة الدينية مئونة هذه الأباطيل بالحق، فحكم على العامة أن يحفظوا حقيقة القول ولب الحقيقة بين التشبيه والتنزيه فيقولوا: إن الله سبحانه شيء لا كالأشياء وإن له علما لا كعلومنا،

وقدرة لا كقدرتنا، وحياة لا كحياتنا، مريد لا بهامة، متكلم لا بشق فم، وعلى الخاصة أن يتدبروا في آياته ويتفقهوا في دينه فقد قال الله سبحانه: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾: الزمر، ٩، والخاصة كما لا يساوون العامة في درجات المعرفة، كذلك لا يساوونهم في التكاليف المتوجهة إليهم، فهذا هو التعليم الديني النازل في حقهم لو أنهم كانوا يأخذون به.

٥. أحاديث وآثار: في المجمع في قوله: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾ [البقرة: ١٤] الآية، عن الباقر عليه السلام قال: كان قوم من اليهود ليسوا من المعاندين المتواطئين، إذا لقوا المسلمين حدثوهم بما في التوراة من صفة محمد ﷺ، فنهى كبراؤهم عن ذلك، وقالوا: لا تخبروهم بما في التوراة من صفة محمد ﷺ فيحاجوهم به عند ربهم، فنزلت هذه الآية.

٣١. أماني الأميين وكتابتهم للكتاب بأيديهم:

المقطع [٣١] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٧٨-٨٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١/ ٢١٦»:

١. الأمي: من لا يقرأ ولا يكتب منسوب إلى الأم لأن عطوفة الأم وشفقتها كانت تمنعها أن ترسل ولدها إلى المعلم وتسلمه إلى تربيته، فكان يكتفي بتربية الأم.

٢. الأماني: جمع أمنية، وهي الأكاذيب.

٣. محصل المعنى أنهم بين من يقرأ الكتاب ويكتبه فيحرفه، وبين من لا يقرأ ولا يكتب ولا يعلم من الكتاب إلا أكاذيب المحرفين.

٤. السيئة وإحاطة الخطيئة توجب أن يكون الإنسان المحاط مقطوع الطريق إلى النجاة، كأن الهداية لإحاطة الخطيئة به لا تجد إليه سبيلاً؛ فهو من أصحاب النار مخلداً فيها، ولو كان في قلبه شيء من الإيمان بالفعل، أو كان معه بعض ما لا يدفع الحق من الأخلاق والملكات، كالإنصاف والخضوع للحق، أو ما

يشابهها، لكانت الهداية والسعادة ممكنتي النفوذ إليه، فإحاطة الخطيئة لا تتحقق إلا بالشرك الذي قال تعالى فيه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، ومن جهة أخرى إلا بالكفر وتكذيب الآيات، كما قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٩]؛ فكسب السيئة وإحاطة الخطيئة كالكلمة الجامعة لما يوجب الخلود في النار.

٥. واعلم أن هاتين الآيتين قريبتا المعنى من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢]، وإنما الفرق أن الآيتين، أعني قوله: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ [البقرة: ٨١]، في مقام بيان أن الملاك في السعادة إنما هو حقيقة الإيمان والعمل الصالح، دون الدعاوى، والآيتان المتقدمتان، أعني قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، في مقام بيان أن الملاك فيها هو حقيقة الإيمان والعمل الصالح دون التسمي بالأسماء.

٦. أحاديث وآثار:

في الكافي عن أحدهما عليهما السلام في قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٨١]، قال: إذا جحدوا ولاية أمير المؤمنين، فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون.

• أقول: وروي قريباً من هذا المعنى الشيخ في أماليه عن النبي ﷺ، والروايتان من الجري والتطبيق على المصداق، وقد عدَّ سبحانه الولاية حسنة في قوله: ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾ [الشورى: ٢٣]، ويمكن أن يكون من التفسير لما سيجيء في سورة المائدة أنها العمل بما يقتضيه التوحيد، وإنما نسب إلى علي عليه السلام لأنه أول فاتح من هذه الأمة لهذا الباب، فانتظر.

٣٢. ميثاق بني إسرائيل في العبادة وحقوق الناس وإعراضهم:

المقطع [٣٢] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ [البقرة: ٨٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان:

١/ ٢٢٠»:

١. ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾:

أ. الآية في بديع نظمها تبتدئ أولا بالغيبة وتنتهي إلى الخطاب حيث تقول: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾، ثم إنها تذكر أولا الميثاق وهو أخذ للعهد، ولا يكون إلا بالقول، ثم تحكي ما أخذ عليه الميثاق فتبتدئ، فيه بالخبر، حيث تقول: ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾، وتختتم بالإنشاء حيث تقول: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾،ولعل الوجه في ذلك كله أن الآيات المتعرضة لحال بني إسرائيل لما بدئت بالخطاب لمكان اشتمالها على التقريع والتوبيخ وجرت عليه كان سياق الكلام فيها الخطاب، ثم لما تبدل الخطاب بالغيبة بعد قصة البقرة لنكتة داعية إليها كما مر حتى انتهت إلى هذه الآية، فبدئت أيضا بالغيبة لكن الميثاق حيث كان بالقول وبني على حكايته حكي بالخطاب فقيل: ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾، وهو نهي في صورة الخبر، وإنما فعل ذلك دلالة على شدة الاهتمام به، كان الناهي لا يشك في عدم تحقق ما نهى عنه في الخارج، ولا يرتاب في أن المكلف المأخوذ عليه الميثاق سوف لا ينتهي عن نهيه، فلا يوقع الفعل قطعا وكذا قوله: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ﴾، كل ذلك أمر في صورة الخبر.

ب. الانتقال إلى الخطاب من قبل الحكاية أعطى فرصة للانتقال إلى أصل الكلام، وهو خطاب بني إسرائيل لمكان الاتصال في قوله: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ إلخ وانتظم بذلك السياق.

٢. ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾، أمر أو خبر بمعنى الأمر والتقدير: وأحسنوا بالوالدين إحسانا، وذي القربى واليتامى والمساكين، أو التقدير: وتحسنون بالوالدين إحسانا.

٣. رتب موارد الإحسان أخذا من الأهم والأقرب، إلى المهم والأبعد، فقرابة الإنسان أقرب إليه من غيرهم، والوالدان وهما الأصل الذي تتكي عليه وتقوم به شجرة وجوده أقرب من غيرهما من الأرحام، وفي غير القرابة أيضا اليتامى أحق بالإحسان لصغرهم وفقدهم من يقوم بأمرهم من المساكين.

٤. ﴿وَالْيَتَامَى﴾، اليتيم من مات أبوه، ولا يقال لمن ماتت أمه يتيم، وقيل: اليتيم في الإنسان إنما تكون من جهة الأب وفي غير الإنسان من سائر الحيوان من جهة الأم.

٥. ﴿وَالْمَسَاكِينِ﴾، جمع مسكين وهو الفقير العادم الذليل.

٦. ﴿حَسَنًا﴾ مصدر بمعنى الصفة جيء به للمبالغة، والمعنى قولوا للناس قولا حسنا، وهو كناية

عن حسن المعاشرة مع الناس، كافرهم، ومؤمنهم ولا ينافي حكم القتال حتى تكون آية القتال ناسخة له لأن مورد القتال غير مورد المعاشرة، فلا ينافي الأمر بحسن المعاشرة كما أن القول الخشن في مقام التأديب لا ينافي حسن المعاشرة.

٧. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣] الآية: قولوا للناس أحسن ما تحبون أن يقال فيكم.

ب. وفي الكافي أيضاً عن الصادق عليه السلام قال: قولوا للناس، ولا تقولوا إلا خيراً حتى تعلموا ما هو.

ج. وفي المعاني عن الباقر عليه السلام قال: قولوا للناس أحسن ما تحبون أن يقال لكم؛ فإن الله عز وجل يبغض السباب اللعان الطعان على المؤمنين، الفاحش المفحش السائل، ويحب الحيي الحليم العفيف المتعفف.

• أقول: وروي مثل الحديث الأول في الكافي بطريق آخر عن الصادق عليه السلام، وكذا العياشي عنه عليه السلام، ومثل الحديث الثاني في الكافي عنه، ومثل الحديث الثالث العياشي عن الباقر عليه السلام، وكأن هذه المعاني استفيدت من إطلاق الحسن عند القائل، وإطلاقه من حيث المورد.

د. وفي تفسير العياشي عن الصادق عليه السلام قال: إن الله بعث محمداً ﷺ بخمسة أسياف، فسيف على أهل الذمة، قال الله: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾، نزلت في أهل الذمة، ثم نسختها أخرى قوله: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [التوبة: ٢٩] الحديث.

• أقول: وهو منه عليه السلام أخذ بإطلاق آخر للقول، وهو شموله للكلام ولمطلق التعرض؛ يقال: (لا تقل له إلا حسناً وخيراً)، أي لا تتعرض له إلا بالخير والحسن، ولا تمسه إلا بالخير والحسن، إن كان النسخ في قوله عليه السلام هو النسخ بالمعنى الأخص وهو المصطلح، ويمكن أن يكون المراد هو النسخ بالمعنى الأعم، على ما سيجيء في قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ [البقرة: ١٠٦]، وهو الكثير في كلامهم عليهم السلام، لتكون هذه الآية وآية القتال غير متحدتين مورداً.

٣٣. نقض ميثاق حرمة الدماء والديار مع فداء الأسرى:

المقطع [٣٣] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ [البقرة: ٨٤-٨٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١/ ٢٢٤»:

١. ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾ خبر في معنى الإنشاء، نظير ما مر في قوله: ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾، والسفك: الصب.

٢. ﴿تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ﴾ التظاهر هو التعاون، والظهير العون، مأخوذ من الظهر؛ لأن العون يلي ظهر الإنسان.

٣. ﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾، الضمير للشأن والقصة، كقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]

٤. ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ﴾، أي ما هو الفرق بين الإخراج والفدية، حيث أخذتم بحكم الفدية وتركتم حكم الإخراج، وهما جميعاً في الكتاب؟ أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض؟

٣٤. تكبر بني إسرائيل على الرسل وتكذيبهم وقتلهم:

المقطع [٣٤] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٨٧-٨٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١/ ٢٢٤»:

١. ﴿وَقَفَّيْنَا﴾، التقفية: الإتباع وإتيان الواحد قفا الواحد.

٢. ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾ سيأتي الكلام فيه في سورة آل عمران.

٣. ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾، جمع أغلف من الغلاف، أي قلوبنا محفوظة تحت لفائف وأستار

وحجب، فهو نظير قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ [فصلت: ٥]، وهو كناية عن عدم إمكان استماع ما يدعون إليه.

٣٥. جحود بني إسرائيل للرسول الخاتم مع علمهم بنبوته:

المقطع [٣٥] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [البقرة: ٨٩-٩٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١/ ٢٢٤»:

١. ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ [البقرة: ٨٩]، السياق يدل على أن هذا الكتاب هو القرآن.

٢. ﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، على وقوع تعرض بهم من كفار العرب، وأنهم كانوا يستفتحون، أي يطلبون الفتح عليهم ببعثة النبي ﷺ وهجرته، وأن ذلك الاستفتاح قد استمر منهم قبل الهجرة، بحيث كان الكفار من العرب أيضاً يعرفون ذلك منهم لمكان قوله: ﴿كَانُوا﴾، وقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا﴾، أي عرفوا أنه هو بانطباق ما كان عندهم من الأوصاف عليه، كفروا.

٣. ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ﴾ بيان لسبب كفرهم بعد العلم، وأن السبب الوحيد في ذلك هو البغي والحسد؛ فقوله: ﴿بَغْيًا﴾ مفعول مطلق نوعي، وقوله: ﴿أَن يُنَزِّلَ اللهُ﴾ متعلق به، وقوله تعالى: ﴿فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ [البقرة: ٩٠]، أي رجعوا بمصاحبة غضب أو بتلبس غضب بسبب كفرهم بالقرآن على غضب بسبب كفرهم بالتوراة من قبل، والمعنى أنهم كانوا قبل البعثة والهجرة ظهيراً للنبي ﷺ ومستفتحاً به وبالكتاب النازل عليه، ثم لما نزل بهم النبي ﷺ ونزل عليه القرآن، وعرفوا أنه هو الذي كانوا يستفتحون به وينتظرون قدومه، هاج بهم الحسد، وأخذهم الاستكبار، فكفروا وأنكروا ما كانوا يذكرونه، كما كانوا يكفرون بالتوراة من قبل، فكان ذلك منهم كفراً على كفر.

٤. ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾ [البقرة: ٩١]، أي يظهرون الكفر بما وراءه، وإلا فهم بالذي أنزل إليهم وهو التوراة أيضاً كافرون.

٥. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير العياشي عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ﴾ [البقرة: ٨٩] الآية، قال عليه السلام: كانت اليهود تجد في كتبهم أن مهاجر محمد رسول الله ﷺ ما بين عير وأُحد، فخرجوا يطلبون الموضع، فمروا بجبل يقال له: حُدَاد، فقالوا: حُدَاد وأُحد سواء، فتفرقوا عنده، فنزل بعضهم بتيماء، وبعضهم بفدك، وبعضهم بخيبر، فاشتاق الذين بتيماء إلى بعض إخوانهم، فمر بهم أعرابي من قيس، فتكاروا منه، وقال لهم: أمر بكم ما بين عير وأُحد، فقالوا له: إذا مررت بهما فآذن لهما، فلما توسط بهم أرض المدينة، قال: هذا عير وهذا أُحد، فنزلوا عن ظهر إبله، وقالوا له: قد أصبنا بغيتنا، فلا حاجة بنا إلى إبلك، فاذهب حيث شئت، وكتبوا إلى إخوانهم الذين بفدك وخيبر: إنا قد أصبنا الموضع، فهلموا إلينا، فكتبوا إليهم: إنا قد استقرت بنا الدار، واتخذنا بها الأموال، وما أقربنا منكم، فإذا كان ذلك أسرعنا إليكم، واتخذوا بأرض المدينة أموالاً، فلما كثرت أموالهم، بلغ ذلك تبع، فغزاهم فتحصنوا منه، فحاصرهم ثم آمنهم، فنزلوا عليه، فقال لهم: إني قد استطبت بلادكم، ولا أراني إلا مقيماً فيكم، فقالوا: ليس ذلك لك، إنها مهاجر نبي، وليس ذلك لأحد حتى يكون ذلك، فقال لهم: فإني مخلف فيكم من أسرتي من إذا كان ذلك ساعده ونصره، فخلف حيين تراهم: الأوس والخزرج، فلما كثروا بها، كانوا يتناولون أموال اليهود، فكانت اليهود تقول لهم: أما لو بعث محمد ﷺ، لنخرجنكم من ديارنا وأموالنا، فلما بعث الله محمداً، آمنت به الأنصار وكفرت به اليهود، وهو قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إلى آخر الآية.

ب. أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو نعيم (في الدلائل) عن ابن عباس: أن اليهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله قبل مبعثه، فلما بعثه الله من العرب كفروا به، وجحدوا ما كانوا يقولون فيه، فقال لهم معاذ بن جبل وبشر بن أبي البراء وداود بن سلمة: يا معشر اليهود، اتقوا الله وأسلموا، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ونحن أصل شرك، وتخبرونا بأنه مبعوث وتصفونه بصفته، فقال سلام بن مشكم أحد بني النضير: ما جاءنا بشيء نعرفه، وما هو بالذي كنا نذكر لكم، فأنزل الله: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ الآية.

ج. أخرج أبو نعيم في الدلائل من طريق عطاء والضحاك عن ابن عباس قال: كانت يهود بني

قريظة والنضير من قبل أن يبعث محمد ﷺ يستفتحون الله، يدعون على الذين كفروا، ويقولون: اللهم إنا نستنصرك بحق النبي الأمي إلا نصرتنا عليهم، فينصرون، فلما جاءهم ما عرفوا، يريد محمداً ﷺ، ولم يشكوا فيه، كفروا به.

• أقول: وروي قريباً من هذين المعنيين بطرق أخرى أيضاً.

• قال بعض المفسرين بعد الإشارة إلى الرواية الأخيرة ونظائرها: (إنها على ضعف رواتها ومخالفتها للروايات المنقولة، شاذة المعنى بجعل الاستفتاح دعاء بشخص النبي ﷺ، وفي بعض بحقه، وهذا غير مشروع ولا حق لأحد على الله فيدعى به)

• وهذا ناش من عدم التأمل في معنى الحق وفي معنى القسم، بيانه: أن القسم هو تقييد الخبر أو الإنشاء بشيء ذي شرافة وكرامة من حيث أنه شريف أو كريم، فتبطل شرافته أو كرامته ببطلان النسبة الكلامية؛ فإن كان خبراً فببطلان صدقه، وإن كان إنشاءً أمراً أو نهياً فبعدم امتثال التكليف، فإذا قلت: (لعمري إن زيداً قائم)، فقد قيدت صدق كلامك بشرافة عمرك وحياتك وعلقتها عليه، بحيث لو كان حديثك كاذباً كان عمرك فاقداً للشرافة، وكذا إذا قلت: (افعل كذا وحياتي)، أو قلت: (أقسمك بحياتي أن تفعل كذا)، فقد قيدت أمرك بشرف حياتك، بحيث لو لم يأتمر مخاطبك لذهب بشرف حياتك وقيمة عمرك.

• من هنا يظهر:

● أولا: أن القسم أعلى مراتب التأكيد في الكلام كما ذكره أهل الأدب.

● وثانيا: أن المقسم به يجب أن يكون أشرف من متعلقه فلا معنى لتأكيد الكلام بما هو دونه في الشرف والكرامة، وقد أقسم الله تعالى في كتابه باسم نفسه ووصفه كقوله: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا﴾ وكقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ﴾ وقوله: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ وأقسم بنبيه وملائكته وكتبه وأقسم بمخلوقاته كالسماء والأرض والشمس والقمر والنجوم والليل والنهار واليوم والجبال والبحار والبلاد والإنسان والشجر والتين والزيتون، وليس إلا أن لها شرافة حقة بتشريف الله وكرامة على الله من حيث إن كلا منها إما ذو صفة من أوصافه المقدسة الكريمة بكرامة ذاته المتعالية أو فعل منسوب إلى منبع البهاء والقدس، والكل شريف بشرف ذاته الشريفة.

● ما المانع للداعي إذا سأل الله شيئا أن يسأله بشيء منها من حيث إن الله سبحانه شرفه وأقسم به؟ وما الذي هون الأمر في خصوص رسول الله ص حتى أخرجه من هذه الكلية واستثناء من هذه الجملة؟،ولعمري ليس رسول الله محمد ﷺ بأهون عند الله من تينة عراقية، أو زيتونة شامية، وقد أقسم الله بشخصه الكريم فقال: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾

● ثم إن الحق، ويقابله الباطل، هو الثابت الواقع في الخارج من حيث إنه كذلك كالأرض والإنسان وكل أمر ثابت في حد نفسه ومنه الحق المالي وسائر الحقوق الاجتماعية حيث إنها ثابتة بنظر الاجتماع، وقد أبطل القرآن كل ما يدعى حقا إلا ما حققه الله وأثبته سواء في الإيجاد أو في التشريع، فالحق في عالم التشريع وظرف الاجتماع الديني هو ما جعله الله حقا كالحقوق المالية وحقوق الإخوان والوالدين على الولد، وليس هو سبحانه محكوما بحكم أحد فيجعل عليه تعالى ما يلزم به كما ربما يظهر من بعض الاستدلالات الاعتزالية غير أنه من الممكن أن يجعل على نفسه حقا، جعلا بحسب لسان التشريع فيكون حقا لغيره عليه تعالى كما قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾، والنصر مطلق، غير مقيد بشيء فالإنجاء حق للمؤمنين على الله، والنصر حق للمرسل على الله تعالى وقد شرفه الله تعالى حيث جعله له فكان فعلا منه منسوبا إليه مشرفا به فلا مانع من القسم به عليه تعالى وهو الجاعل المشرف للحق والمقسم بكل أمر شريف.

● بناء على هذا لا مانع من إقسام الله تعالى بنبيه ﷺ أو بحق نبيه، وكذا إقسامه بأوليائه الطاهرين أو بحقهم وقد جعل لهم على نفسه حقا أن ينصرهم في صراط السعادة بكل نصر مرتبط بها كما عرفت.

● قول القائل: (ليس لأحد على الله حق) كلام واه، نعم ليس على الله حق يثبته عليه غيره فيكون محكوما بحكم غيره مقهورا بقهر سواه، ولا كلام لأحد في ذلك، ولا أن الداعي يدعوه بحق ألزمه به غيره، بل بما جعله هو تعالى بوعده الذي لا يخلف هذا.

٣٦. إيمان بني إسرائيل بما معهم وكفرهم بما وراءه رغم تصديقه:

المقطع [٣٦] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ

مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١/ ٢٢٨»:

١. ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٩١]، الفاء للتفريع، والسؤال متفرع على قولهم: ﴿نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾، أي لو كان قولكم: (نؤمن بما أنزل علينا) حقاً وصدقاً، فلم تقتلون أنبياء الله؟ ولم كفرتم بموسى باتخاذ العجل؟ ولم قلتم عند أخذ الميثاق ورفع الطور: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [البقرة: ٩٣]؟

٣٧. اتخاذ بني إسرائيل العجل ونقض الميثاق:

المقطع [٣٧] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٢ـ٩٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١/ ٢٢٨»:

١. ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾، الإشراب هو السقي، والمراد بالعجل حب العجل، وضع موضعه للمبالغة، كأنهم قد أشربوا نفس العجل، وبه يتعلق قوله: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ﴾، ففي الكلام استعارتان أو استعارة ومجاز.

٢. ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ﴾، بمنزلة أخذ النتيجة مما أورد عليهم من قتل الأنبياء والكفر بموسى والاستكبار بإعلام المعصية، وفيه معنى الاستهزاء بهم.

٣٨. ادعاء النجاة في الآخرة وكذبهم في ذلك وحرصهم على الحياة:

المقطع [٣٨] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٩٤ـ٩٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١/ ٢٢٨»:

١. لما كان قولهم: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾، وقولهم: ﴿نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾ في جواب ما قيل لهم: ﴿آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ﴾ يدلان بالالتزام على دعواهم أنهم ناجون في الآخرة دون غيرهم، وأن نجاتهم وسعادتهم فيها غير مشوبة بهلاك وشقاء لأنهم ليسوا بزعمهم بمعذبين إلا أياما معدودة، وهي أيام

عبادتهم للعجل، قابلهم الله تعالى خطابا بما يظهر به كذبهم في دعواهم وأنهم يعلمون ذلك من غير تردد وارتياب فقال تعالى لنبيه: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ أي سعادة تلك الدار فإن من ملك دارا فإنما يتصرف فيها بما يستحسنه ويحبه ويحل منها بأجمل ما يمكن وأسعد.

٢. ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي مستقرا عنده تعالى وبحكمه وإذنه، فهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾

٣. ﴿خَالِصَةً﴾ أي غير مشوبة بما تكرهونه من عذاب أو هوان لزعمكم أنكم لا تعذبون فيها إلا أياما معدودة ﴿مِنْ دُونِ النَّاسِ﴾ وذلك لزعمكم بطلان كل دين إلا دينكم.

٤. ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، وهذه مؤاخذة بلازم فطري بين الأثر في الخارج بحيث لا يقع فيه أدنى الشك، وهو أن الإنسان، بل كل موجود ذي شعور إذا خير بين الراحة والتعب اختار الراحة من غير تردد وتذبذب، وإذا خير بين حياة وعيشة مكدرة مشوبة وأخرى خالصة صافية اختار الخالصة الهنيئة قطعا، ولو فرض ابتلاؤه بما كان يميل عنه إلى غيره من حياة شقية ردية أو عيشة منغصة لم يزل يتمنى الأخرى الطيبة الهنيئة، فلا ينفك عن التحسر له في قلبه وعن ذكره في لسانه وعن السعي إليه في عمله.، فلو كانوا صادقين في دعواهم أن السعادة الخالصة الأخروية لهم دون غيرهم من الناس وجب أن يتمنوه جنانا ولسانا وأركانا، ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم من قتل الأنبياء والكفر بموسى ونقض المواثيق والله عليم بالظالمين.

٥. ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾:

أ. كناية عن العمل فإن معظم العمل عند الحس يقع بواسطة اليد، فيقدم بعد ذلك إلى من ينتفع به أو يطلبه، ففيه عنايتان: نسبة التقديم إلى الأيدي دون أصحاب الأيدي، وعد كل فعل عملا للأيدي.

ب. بالجملة أعمال الإنسان وخاصة ما يستمر صدوره منه أحسن دليل على ما طوى عليه ضميره، وارتكز في باطنه والأعمال الطالحة والأفعال الخبيثة لا يكشف إلا عن طوية خبيثة تأبى أن تميل إلى لقاء الله والحلول في دار أوليائه.

٦. ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾، كالدليل المبين لقوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ أي

ويشهد على أنهم لن يتمنوا الموت، إنهم أحرص الناس على هذه الحياة الدنيا التي لا حاجب ولا مانع عن تمني الدار الآخرة إلا الحرص عليها والإخلاد إليها، والتنكير في قوله تعالى: عَلَى حَياةٍ للتحقير كما قال تعالى: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾

٧. ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ الظاهر أنه عطف على الناس والمعنى ولتجدنهم أحرص من الذين أشركوا.

٨. ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ﴾، الظاهر أن ما نافية وضمير هو إما للشأن والقصة وأن يعمر مبتدأ خبره قوله: ﴿بِمُزَحْزِحِهِ﴾ أي بمبعده، وإما راجع إلى ما يدل عليه قوله: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ﴾، أي وما الذي يوده بمزحزحه من العذاب، وقوله تعالى: ﴿أَنْ يُعَمَّرَ﴾ بيان له.

٩. معنى الآية: ولن يتمنوا الموت، وأقسم لتجدنهم أحرص الناس على هذه الحياة الحقيرة الردية الصارفة عن تلك الحياة السعيدة الطيبة، بل تجدهم أحرص على الحياة من الذين أشركوا الذين لا يرون بعثا ولا نشورا، يود أحدهم لو يعمر أطول العمر، وليس أطول العمر بمبعده من العذاب لأن العمر وهو عمر بالأخرة محدود منته إلى أمد وأجل.

١٠. ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾، أي أطول العمر وأكثره، فالألف كناية عن الكثرة وهو آخر مراتب العدد بحسب الوضع الإفرادي عند العرب والزائد عليه يعبر عنه بالتكرير والتركيب كعشرة آلاف ومائة ألف وألف ألف.

١١. ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾، البصير من أسمائه الحسنى ومعناه العلم بالمبصرات فهو من شعب اسم العليم.

٣٩. عداوة جبريل عداوة لله وكفر بالرسالة:

المقطع [٣٩] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٧-٩٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١/ ٢٣٠»:

١. ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ﴾، السياق يدل على أن الآية نزلت جوابا عما قالته اليهود، وأنهم تابوا واستنكفوا عن الإيمان بما أنزل على رسول الله ﷺ، وعللوه بأنهم عدو لجبريل

النازل بالوحي إليه، والشاهد على ذلك أن الله سبحانه يجيبهم في القرآن، وفي جبريل معا في الآيتين، وما ورد من شأن النزول يؤيد ذلك.

٢. أجاب عن قولهم: إنا لا نؤمن بالقرآن لعداوتنا لجبريل النازل به:

أ. أولا: أن جبريل إنما نزل به على قلبك بإذن الله لا من عند نفسه، فعداوتهم لجبريل لا ينبغي أن يوجب إعراضهم عن كلام نازل بإذن الله.

ب. ثانيا: أن القرآن مصدق لما في أيديهم من الكتاب الحق، ولا معنى للإيمان بأمر والكفر بما يصدقه.

ج. ثالثا، أن القرآن هدى للمؤمنين به.

د. رابعا أنه بشرى، وكيف يصح لعاقل أن ينحرف عن الهداية، ويغمض عن البشرى، ولو كان الآتي بذلك عدوا له.

٣. أجاب عن قولهم: إنا عدو جبريل: أن جبريل ملك من الملائكة لا شأن له إلا امتثال ما أمره به الله سبحانه كميكال، وسائر الملائكة، وهم عباد مكرمون لا يعصون الله فيما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وكذلك رسل الله لا شأن لهم إلا بالله، ومن الله سبحانه، فبغضهم واستعدائهم بغض واستعداء لله، ومن كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال، فإن الله عدو لهم، وإلى هذين الجوابين تشير الآيتان.

٤. ﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ﴾، فيه التفات من التكلم إلى الخطاب، وكان الظاهر أن يقال على قلبي، لكن بدل من الخطاب للدلالة على أن القرآن كما لا شأن في إنزاله لجبريل وإنما هو مأمور مطيع كذلك لا شأن في تلقيه وتبليغه لرسول الله ﷺ إلا أن قلبه وعاء للوحي لا يملك منه شيئا وهو مأمور بالتبليغ.

٥. هذه الآيات في أواخرها، أنواع الالتفات وإن كان الأساس فيها الخطاب لبني إسرائيل، غير أن الخطاب إذا كان خطاب لوم وتوبيخ وطال الكلام صار المقام مقام استملال للحديث مع المخاطب، واستحقار لشأنه، فكان من الحري للمتكلم البليغ الإعراض عن المخاطبة تارة بعد أخرى بالالتفات بعد الالتفات، للدلالة على أنه لا يرضى بخطابهم لردائة سمعهم وخسة نفوسهم، ولا يرضى بترك خطابهم إظهارا لحق القضاء عليهم.

٦. في قوله تعالى: ﴿عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ وضع للظاهر موضع المضمر، والنكتة فيه الدلالة على علة

الحكم، كأنه قيل: فإن الله عدو لهم لأنهم كافرون والله عدو للكافرين.

٧. في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾ دلالة على علة الكفر، وأنه الفسق، فهم لكفرهم فاسقون، ولا يبعد أن يكون اللام في قوله: ﴿الْفَاسِقُونَ﴾ للعهد الذكري، ويكون ذلك إشارة إلى ما مر في أوائل السورة من قوله تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾

٨. وأما الكلام في جبريل وكيفية تنزيله القرآن على قلب رسول الله ﷺ وكذا الكلام في ميكال والملائكة فسيأتي فيما يناسبه من المحل إنشاء الله.

٩. أحاديث وآثار: في المجمع في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾ [البقرة: ٩٧] الآيتان، قال ابن عباس: كان سبب نزول الآية ما روي أن ابن صوريا وجماعة من يهود أهل فدك لما قدم النبي ﷺ المدينة سئلوه، فقالوا: يا محمد، كيف نومك؟ فقد أخبرنا عن نوم النبي الذي يأتي في آخر الزمان، فقال: تنام عيناي وقلبي يقظان، قالوا: صدقت يا محمد، فأخبرنا عن الولد يكون من الرجل أو المرأة؟ فقال: أما العظام والعصب والعروق فمن الرجل، وأما اللحم والدم والظفر والشعر فمن المرأة، قالوا: صدقت يا محمد، فما بال الولد يشبه أعمامه وليس له من شبه أخواله شيء، أو يشبه أخواله وليس فيه من شبه أعمامه شيء؟ فقال: أيهما علا ماؤه كان الشبه له، قالوا: صدقت يا محمد، فأخبرنا عن ربك ما هو؟ فأنزل الله سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ إلى آخر السورة [الإخلاص: ١-٤]، فقال له ابن صوريا: خصلة واحدة إن قلتها آمنت بك واتبعتك: ملك يأتيك بما ينزل الله عليك؟ قال: فقال: جبرئيل، قال: ذاك عدونا، ينزل بالقتال والشدة والحرب، وميكائيل ينزل باليسر والرخاء، فلو كان ميكائيل هو الذي يأتيك لآمنا بك.

• أقول: قوله: (تنام عيناي وقلبي يقظان)، قد استفاض الحديث من العامة والخاصة أنه كان رسول الله ﷺ تنام عينه ولا ينام قلبه، ومعناه أنه كان لا يغفل بالنوم عن نفسه، فكان وهو في النوم يعلم أنه نائم، وأن ما يراه رؤيا يراها ليس باليقظة، وهذا أمر بما يتفق للصالحين أحياناً عند طهارة نفوسهم واشتغالها بذكر مقام ربهم؛ وذلك أن إشراف النفس على مقام ربها لا يدعها غافلة عما لها من طور الحياة الدنيوية، ونحو تعلقها بربها، وهذا نحو مشاهدة يبين للإنسان أنه في عالم الحياة الدنيا على حال النوم، سواء معه النوم الذي يراه الناس نوماً فقط، وكذا اليقظة التي يراها الناس يقظة، وأن الناس وهم معتكفون على باب الحس مخلدون إلى أرض الطبيعة، رقود، وإن عدوا أنفسهم أيقاظاً، فعن علي عليه السلام: (الناس نيام،

فإذا ماتوا انتبهوا) الحديث، وسيأتي زيادة استيفاء لهذا البحث، وكذا الكلام في سائر فقرات هذا الحديث في مواضع مناسبة من هذا الكتاب إن شاء الله.

٤٠. إنزال الآيات البينات ونبذ الفاسقين لها وللعهود:

المقطع [٤٠] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٩٩-١٠١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١/ ٢٣٢»:

١. ﴿نَبَذَهُ﴾، النبذ الطرح.

٢. ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ﴾، المراد به رسول الله ﷺ لا كل رسول كان يأتيهم مصدقا لما معهم، لعدم دلالة قوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ﴾ على الاستمرار بل إنما يدل على الدفعة.

٣. الآية تشير إلى مخالفتهم للحق من حيث كتمانهم بشارة التوراة وعدم إيمانهم بمن يصدق ما معهم،

٤١. اتباع السحر والشياطين وما أنزل على هاروت وماروت:

المقطع [٤١] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٢-١٠٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١/ ٢٣٣»:

١. اختلف المفسرون في تفسير الآية اختلافا عجيبا لا يكاد يوجد نظيره في آية من آيات القرآن المجيد:

أ. فاختلفوا في مرجع ضمير قوله: ﴿اتَّبَعُوا﴾، أهم اليهود الذين كانوا في عهد سليمان، أو الذين في عهد رسول الله ﷺ أو الجميع؟

ب. واختلفوا في قوله: ﴿تَتْلُو﴾، هل هو بمعنى تتبع الشياطين وتعمل به أو بمعنى تقرأ، أو بمعنى تكذب؟

ج. واختلفوا في قوله: ﴿الشَّيَاطِينِ﴾، فقيل: هم شياطين الجن، وقيل: شياطين الإنس، وقيل: هما معا.

د. واختلفوا في قوله: ﴿عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾، فقيل: معناه في ملك سليمان، وقيل: معناه في عهد ملك سليمان، وقيل: معناه على ملك سليمان بحفظ ظاهر الاستعلاء في معنى على، وقيل: معناه على عهد ملك سليمان.

هـ. واختلفوا في قوله: ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾، فقيل: إنهم كفروا بما استخرجوه من السحر إلى الناس، وقيل: إنهم كفروا بما نسبوه إلى سليمان من السحر، وقيل: إنهم سحروا فعبر عن السحر بالكفر.

و. واختلفوا في قوله: ﴿يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾، فقيل: إنهم ألقوا السحر إليهم فتعلموه، وقيل: إنهم دلوا الناس على استخراج السحر وكان مدفونا تحت كرسي سليمان فاستخرجوه وتعلموه.

ز. واختلفوا في قوله: ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ﴾ فقيل: ما موصولة والعطف على قوله: ﴿مَا تَتْلُو﴾، وقيل: ما موصولة والعطف على قوله: ﴿السِّحْرَ﴾ أي يعلمونهم ما أنزل على الملكين، وقيل: ما نافية والواو استينافية أي ولم ينزل على الملكين سحر كما يدعيه اليهود.

ح. واختلفوا في معنى الإنزال فقيل: إنزال من السماء وقيل: بل من نجود الأرض وأعاليها.

ط. واختلفوا في قوله: ﴿الْمَلَكَيْنِ﴾، فقيل: كانا من ملائكة السماء، وقيل: بل كانا إنسانين ملكين بكسر اللام إن قرأناه، بكسر اللام كما قرئ كذلك في الشواذ، أو ملكين بفتح اللام أي صالحين، أو متظاهرين بالصلاح، إن قرأناه على ما قرأ به المشهور.

ي. واختلفوا في قوله: ﴿بِبَابِلَ﴾، فقيل: هي بابل العراق وقيل: بابل دماوند، وقيل، من نصيبين إلى رأس العين.

ك. واختلفوا في قوله: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ﴾، فقيل: علم بمعناه الظاهر، وقيل: علم بمعنى أعلم.

ل. واختلفوا في قوله: ﴿فَلَا تَكْفُرْ﴾، فقيل، لا تكفر بالعمل بالسحر، وقيل: لا تكفر بتعلمه، وقيل: بهما معا.

م. واختلفوا في قوله: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا﴾، فقيل: أي من هاروت وماروت، وقيل: أي من السحر والكفر، وقيل: بدلا مما علماه الملكان بالنهي إلى فعله.

ن. واختلفوا في قوله: ﴿مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾، فقيل: أي يوجدون به حبا وبغضا بينهما، وقيل: إنهم يغرون أحد الزوجين ويحملونه على الكفر والشرك فيفرق بينهما اختلاف الملة والنحلة وقيل: إنهم يسعون بينهما بالنميمة، والوشاية فيئول إلى الفرقة.

٢. هذه نبذة من الاختلاف في تفسير كلمات ما يشتمل على القصة من الآية وجمله، وهناك اختلافات أخر في الخارج من القصة في ذيل الآية، وفي نفس القصة، وهل هي قصة واقعة أو بيان على سبيل التمثيل؟ أو غير ذلك؟ وإذا ضربت بعض الأرقام التي ذكرناها من الاحتمالات في البعض الآخر، ارتقى الاحتمالات إلى كمية عجيبة وهي ما يقرب من ألف ألف ومائتين وستين ألف احتمال.، وهذا لعمر الله من عجائب نظم القرآن تتردد الآية بين مذاهب واحتمالات تدهش العقول وتحير الألباب، والكلام بعد متك على أريكة حسنة متجمل في أجمل جماله متحل بحلي بلاغته وفصاحته وسيمر بك نظيرة هذه الآية وهي قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾

٣. الذي ينبغي أن يقال:

أ. إن الآية بسياقها تتعرض لشأن آخر من شئون اليهود، وهو تداول السحر بينهم، وأنهم كانوا يستندون في أصله إلى قصة معروفة أو قصتين معروفتين عندهم، فيها ذكر من أمر سليمان النبي والملكين ببابل هاروت وماروت، فالكلام معطوف على ما عندهم من القصة التي يزعمونها، إلا أن اليهود كما يذكره عنهم القرآن أهل تحريف وتغيير في المعارف والحقائق، فلا يؤمنون، ولا يؤمن من أمرهم أن يأتوا بالقصص التاريخية محرفة مغيرة، على ما هو دأبهم في المعارف، يميلون كل حين إلى ما يناسبه من منافعهم في القول والفعل، وفيما يلوح من مطاوي جمل الآية كفاية.

ب. وكيف كان، فيلوح من الآية أن اليهود كانوا يتناولون بينهم السحر ينسبونه إلى سليمان، زعماً منهم أن سليمان عليه السلام إنما ملك الملك وسخر الجن والإنس والوحش والطير، وأتى بغرائب الأمور وخوارقها بالسحر الذي هو بعض ما في أيديهم، وينسبون بعضه الآخر إلى الملكين ببابل هاروت وماروت، فرد عليهم القرآن بأن سليمان عليه السلام لم يكن يعمل بالسحر، كيف والسحر كفر بالله، وتصرف في

الكون على خلاف ما وضع الله العادة عليه، وأظهره على خيال الموجودات الحية وحواسها؟ ولم يكفر سليمان عليه السلام وهو نبي معصوم، وهو قوله تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ [البقرة: ١٠٢]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾، فسليمان عليه السلام أعلى كعباً وأقدس ساحة من أن ينسب إليه السحر والكفر.

ج. استعظم الله قدر سليمان عليه السلام في مواضع من كلامه في عدة من السور المكية النازلة قبل هذه السورة، كسورة الأنعام والأنبياء والنمل وسورة ص، وفيها أنه كان عبداً صالحاً ونبياً مرسلاً، آتاه الله العلم والحكمة، ووهب له من الملك ما لا ينبغي لأحد من بعده، فلم يكن بساحر، بل هو من القصص الخرافية والأساطير التي وضعتها الشياطين وتلوها وقرؤوها على أوليائهم من الإنس، وكفروا بإضلالهم الناس بتعليم السحر.

د. ورد عليهم القرآن في الملكين ببابل هاروت وماروت بأنه وإن أنزل عليهما ذلك، ولا ضير في ذلك؛ لأنه فتنة وامتحان إلهي، كما ألهم قلوب بني آدم وجوه الشر والفساد فتنة وامتحاناً، وهو من القدر، فهما وإن أنزل عليهما السحر، إلا أنهما ما كانا يعلمان من أحد إلا ويقولان له: إنما نحن فتنة، فلا تكفر باستعمال ما تتعلمه من السحر في غير مورده، كإبطال السحر والكشف عن بغي أهله، وهم مع ذلك يتعلمون منهما ما يفسدون به أصلح ما وضعه الله في الطبيعة والعادة، فيفرقون به بين المرء وزوجه ابتغاء للشر والفساد، ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم،٤. فقوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا﴾ أي اتبعت اليهود الذين بعد عهد سليمان بتوارث الخلف عن السلف ما تتلوا، أي تضع وتكذب الشياطين من الجن على ملك سليمان، والدليل على أن تتلوا بمعنى تكذب تعديه بعلى وعلى أن الشياطين هم الجن كون هؤلاء تحت تسخير سليمان ومعذبين بعذابه، وبذلك كان عليه السلام يحبسهم عن الإفساد، قال تعالى: ﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾

٤. ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾، أي والحال أن سليمان لم يسحر حتى يكفر ولكن الشياطين كفروا، والحال أنهم يضلون الناس ويعلمونهم السحر.

٥. ﴿وَمَا أُنْزِلَ﴾، أي واتبعت اليهود ما أنزل بالإخطار والإلهام على الملكين ببابل هاروت

وماروت، والحال أنهما ما يعلمان السحر من أحد حتى يحذراه العمل به ويقولا إنما نحن فتنة لكم وامتحان تمتحنون بنا بما نعلمكم فلا تكفر باستعماله، ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا﴾، أي من الملكين وهما هاروت وماروت ﴿مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ﴾ أي سحرا يفرقون بعمله وتأثيره بين المرء وزوجه.

٦. ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، دفع لما يسبق إلى الوهم أنهم بذلك يفسدون أمر الصنع والتكوين ويسبقون تقدير الله ويبطلون أمره فدفعه بأن السحر نفسه من القدر لا يؤثر إلا بإذن الله فما هم بمعجزين، وإنما قدّم هذه الجملة على قوله: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾، لأن هذه الجملة أعني: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾، وحدها مشتملة على ذكر التأثير، فأردفت بأن هذا التأثير بإذن الله.

٧. ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾، علموا ذلك بعقولهم لأن العقل لا يرتاب في أن السحر أشأم منابع الفساد في الاجتماع الإنساني وعلموا ذلك أيضا من قول موسى فإنه القائل: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾

٨. ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾، أي إنهم مع كونهم عالمين بكونه شرا لهم مفسدا لآخرتهم غير عالمين بذلك حيث لم يعملوا بما علموا فإن العلم إذا لم يهد حامله إلى مستقيم الصراط كان ضلالا وجهلا لا علما، قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ﴾، فهؤلاء مع علمهم بالأمر ينبغي أن يتمنى المتمني لهم العلم والهداية.

٩. ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ أي اتبعوا الإيمان والتقوى، بدل اتباع أساطير الشياطين، والكفر بالسحر، وفيه دليل على أن الكفر بالسحر كفر في مرتبة العمل كترك الزكاة، لا كفر في مرتبة الاعتقاد، ولو كان السحر كفرا في الاعتقاد لقال تعالى: ولو أنهم آمنوا لمثوبة، إلخ، واقتصر على الإيمان ولم يذكر التقوى فاليهود آمنوا ولكن لما لم يتقوا ولم يرعوا محارم الله، لم يعبأ بإيمانهم فكانوا كافرين، ﴿لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾، أي من المثوبات والمنافع التي يرومونها بالسحر ويقتنونها بالكفر هذا.

١٠. وضع هنا مبحثا حول [حقيقة الخوارق: بين الأسباب الطبيعية وقوة الإرادة والتصورات الذهنية]، خلاصته:

أ. الأفعال الخارقة للعادة منها ما يرجع إلى أسباب طبيعية عادية خفية (كأكل السموم، المشي على

الحبل، الشعبذة)، ومنها ما لا يحلل إلى الأسباب الطبيعية العادية كالإخبار عن المغيبات وأعمال الحب والبغض والتنويم والإحضار.

ب. الخوارق غير العادية مستندة إلى قوة الإرادة، والإرادة تابعة للعلم الجازم، فالعلم القاطع يعطي للحواس مشاهدة ما قطع به، ولو كان مخالفاً للخارج.

ج. حضور الأرواح عند المحضّرين ليس حضوراً خارجياً، بل حضور في مشاعرهم وخيالهم، وهذا يفسر تناقض الأخبار واختلاف الصور وعدم رؤية الحاضرين لها.

د. الإرادة المؤثرة نوعان: إرادة نفسانية تعتمد على قوة النفس (محدودة)، وإرادة ربانية تعتمد على الله (غير محدودة)، وهذه الأخيرة هي أساس المعجزات والكرامات.

هـ. الخوارق تُسمى معجزة إذا اقترنت بالتحدي، وكرامة أو استجابة دعوة إذا لم تقترن به، وتُسمى كهانة إذا كانت بالاستخبار من الجن، وسحراً إذا كانت بدعوة أو عزيمة.

و. الإرادات المتضادة قد يبطل بعضها أثر بعض بحسب مراتب القوة، وهو مشهود في التنويم والإحضار.

١١. وضع هنا مبحثا حول [العلوم الخفية: السيمياء والليمياء والهيمياء والريمياء والكيمياء]، خلاصته:

أ. العلوم الباحثة عن غرائب التأثير كثيرة، وتقسيمها وضبطها عسير، وأعرفها المتداول بين أهلها خمسة علوم خفية.

ب. السيمياء: البحث عن تمزيج القوى الإرادية مع القوى المادية للحصول على تصرفات خارقة، ومنه سحر العيون.

ج. الليمياء: البحث عن التأثيرات الإرادية باتصالها بالأرواح العالية (كالكواكب والجن) بتسخيرها أو استمدادها.

د. الهيمياء: البحث عن تركيب قوى العالم العلوي مع العناصر السفلية للحصول على عجائب التأثير، وهو علم الطلسمات.

هـ. الريمياء: البحث عن استخدام القوى المادية لإظهار آثار خارقة للحس، وهو الشعبذة.

و. الكيمياء: البحث عن كيفية تبديل صور العناصر بعضها إلى بعض.

ز. من العلوم الملحقة: علم الأعداد والأوفاق، وعلم الخافية (تكسير الحروف واستخراج أسماء الملائكة والشياطين)

ح. التنويم المغناطيسي وإحضار الأرواح من فروع تأثير الإرادة والتصرف في الخيال، واشتهارهما يغني عن الإشارة.

١٢. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير العياشي والقمي في قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ [البقرة: ١٠٢]، عن الباقر عليه السلام في حديث: فلما هلك سليمان، وضع إبليس السحر وكتبه في كتاب، ثم طواه وكتب على ظهره: (هذا ما وضع آصف بن برخيا للملك سليمان بن داود من ذخائر كنوز العلم، من أراد كذا وكذا فليعمل كذا وكذا)، ثم دفنه تحت سريره، ثم استثاره لهم فقرأه، فقال الكافرون: ما كان يغلبنا سليمان إلا بهذا، وقال المؤمنون: بل هو عبد الله ونبيه، فقال الله جل ذكره: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾

• أقول: إسناد الوضع والكتابة والقراءة إلى إبليس لا ينافي استنادها إلى سائر الشياطين من الجن والإنس؛ لانتهاء الشر كله إليه، وانتشاره منه لعنه الله إلى أوليائه بالوحي والوسوسة، وذلك شائع في لسان الأخبار، وظاهر الحديث أن كلمة (تتلو) من التلاوة بمعنى القراءة، وهذا لا ينافي ما استظهرناه في البيان السابق: إن (تتلو) بمعنى (تكذب)، لأن إفادة معنى الكذب من جهة التضمين أو ما يشبهه، وتقدير قوله: ﴿تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾، أي يقرؤونه كاذبين على ملك سليمان، والأصل في معنى (تلا يتلو) رجوعه إلى معنى (ولي يلي) ولاية، وهو أن يملك الشيء من حيث الترتيب ووقوع جزء منه عقيب جزء آخر، وسيأتي الكلام فيه في سورة المائدة في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ﴾ [المائدة: ٥٥]

ب. وفي العيون في حديث الرضا عليه السلام مع المأمون: وأما هاروت وماروت، فكانا ملكين علما الناس السحر ليتحرزوا به عن سحر السحرة ويبطلوا كيدهم، وما علما أحداً من ذلك شيئاً إلا قالا له: إنما نحن فتنة، فلا تكفر، فكفر قوم باستعمالهم لما أمروا بالاحتراز عنه، وجعلوا يفرقون بما يعملونه بين

المرء وزوجه، قال الله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢]

ج. أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: كان سليمان إذا أراد أن يدخل الخلاء أو يأتي شيئاً من شأنه، أعطى الجرادة وهي امرأته خاتمه، فلما أراد الله أن يبتلي سليمان بالذي ابتلاه به، أعطى الجرادة ذلك اليوم خاتمه، فجاء الشيطان في صورة سليمان فقال لها: هاتي خاتمي، فأخذه ولبسه، فلما لبسه دانت له شياطين الجن والإنس، فجاءها سليمان فقال: هاتي خاتمي، فقالت: كذبت، لست سليمان، فعرف أنه بلاء ابتلي به، فانطلقت الشياطين فكتبت في تلك الأيام كتباً فيها سحر وكفر، ثم دفنوها تحت كرسي سليمان، ثم أخرجوها فقرؤوها على الناس، فقالوا: إنما كان سليمان يغلب الناس بهذه الكتب، فبرئ الناس من سليمان وكفروه، حتى بعث الله محمداً وأنزل عليه: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ [البقرة: ١٠٢]

• أقول: والقصة مروية في روايات أخرى، وهي قصة طويلة من جملة القصص الواردة في عثرات الأنبياء مذكورة في جملتها.

د. أخرج سعيد بن جرير والخطيب في تاريخه عن نافع قال: سافرت مع ابن عمر، فلما كان في آخر الليل، قال: يا نافع، انظر هل طلعت الحمراء؟ قلت: لا، مرتين أو ثلاثاً، ثم قلت: قد طلعت، قال: لا مرحباً بها ولا أهلاً، قلت: سبحان الله، نجم مسخر سامع مطيع، قال: ما قلت لك إلا ما سمعت من رسول الله ﷺ، قال: إن الملائكة قالت: يا رب، كيف صبرك على بني آدم في الخطايا والذنوب؟ قال: إني ابتليتهم وعافيتهم، قالوا: لو كنا مكانهم ما عصيناك، قال: فاختاروا ملكين منكم، فلم يألوا جهداً أن يختاروا، فاختاروا هاروت وماروت، فنزلا، فألقى الله عليهما الشبق، قلت: وما الشبق؟ قال: الشهوة، فجاءت امرأة يقال لها الزهرة، فوقعت في قلوبهما، فجعل كل واحد منهما يخفي عن صاحبه ما في نفسه، ثم قال أحدهما للآخر: هل وقع في نفسك ما وقع في قلبي؟ قال: نعم، فطالباها لأنفسهما، فقالت: لا أمكنكما حتى تعلماني الاسم الذي تعرجان به إلى السماء وتهبطان، فأبيا، ثم سئلاها أيضاً فأبت، ففعلا، فلما استطيرت طمسها الله كوكباً، وقطع أجنحتهما، ثم سألا التوبة من ربهما فخيرهما، فقال: إن شئتما رددتكما إلى ما كنتما عليه، فإذا كان يوم القيامة عذبتكما، وإن شئتما عذبتكما في الدنيا، فإذا كان يوم القيامة رددتكما إلى ما كنتما عليه، فقال أحدهما لصاحبه: إن عذاب الدنيا ينقطع ويزول، فاختارا عذاب الدنيا على عذاب

الآخرة، فأوحى الله إليهما أن ائتيا بابل، فانطلقا إلى بابل، فخسف بهما، فهما منكوسان بين السماء والأرض معذبان إلى يوم القيامة.

• أقول: وقد روي قريب منه في بعض كتب الشيعة مرفوعاً عن الباقر عليه السلام، وروى السيوطي فيما يقرب من هذا المعنى في أمر هاروت وماروت والزهرة نيفاً وعشرين حديثاً، صرحوا بصحة طريق بعضها، وفي منتهى أسنادها عدة من الصحابة كابن عباس وابن مسعود وعلي وأبي الدرداء وعمر وعائشة وابن عمر، وهذه قصة خرافية تنسب إلى الملائكة المكرمين الذين نص القرآن على نزاهة ساحتهم وطهارة وجودهم عن الشرك والمعصية، أغلظ الشرك وأقبح المعصية، وهو: عبادة الصنم والقتل والزنا وشرب الخمر، وتنسب إلى كوكبة الزهرة أنها امرأة زانية مسخت، وإنها أضحوكة، وهي كوكبة سماوية طاهرة في طليعتها وصنعها، أقسم الله تعالى عليها في قوله: ﴿الْجَوَارِ الْكُنَّسِ﴾ [التكوير: ١٦]، على أن علم الفلك أظهر اليوم هويتها وكشف عن عنصرها وكميتها وكيفيتها وسائر شؤونها.

• فهذه القصة كالتي قبلها المذكورة في الرواية السابقة تطابق ما عند اليهود على ما قيل من قصة هاروت وماروت، تلك القصة الخرافية التي تشبه خرافات يونان في الكواكب والنجوم.

• ومن هنا يظهر للباحث المتأمل:

● أن هذه الأحاديث كغيرها الواردة في مطاعن الأنبياء وعثراتهم لا تخلو من دس دسه اليهود فيها، وتكشف عن تسربهم الدقيق ونفوذهم العميق بين أصحاب الحديث في الصدر الأول؛ فقد لعبوا في رواياتهم بكل ما شاءوا من الدس والخلط، وأعانهم على ذلك قوم آخرون.

● لكن الله عز اسمه جعل كتابه في محفظة إلهية من هوسات المتهوسين من أعدائه، كلما استرق السمع شيطان من شياطينهم أتبعه بشهاب مبين، فقال عز من قائل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وقال: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، وقال: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]، فأطلق القول ولم يقيد، فما من خلط أو دس إلا ويدفعه القرآن ويظهر خسار صاحبه بالكشف عن حاله وإقراء صفحة تاريخه، وقال رسول الله فيما رواه الفريقان: (ما وافق كتاب الله فخذوه، وما خالفه فاتركوه)، فأعطى ميزاناً كلياً يوزن به المعارف المنقولة منه ومن أوليائه، وبالجملة،

فبالقرآن يدفع الباطل عن ساحة الحق، ثم لا يلبث أن يظهر بطلانه ويبات عن القلوب الحية كما اميت عن الأعيان، قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ﴾ [الأنبياء: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَيُرِيدُ اللهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ [الأنفال: ٧]، وقال تعالى: ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: ٨]، ولا معنى لإحقاق الحق ولا لإبطال الباطل إلا إظهار صفتهما.

● وبعض الناس وخاصة من أهل عصرنا من المتوغلين في الأبحاث المادية والمرعوبين من المدنية الغربية الحديثة، استفادوا من هذه الحقيقة المذكورة سوءً، وأخذوا بطرح جميع ما تضمنته سنة رسول الله واشتملت عليه جوامع الروايات، فسلكوا في ذلك مسلك التفريط، قبال ما سلكه بعض الأخباريين وأصحاب الحديث والحرورية وغيرهم مسلك الإفراط والأخذ بكل رواية منقولة كيف كانت، وكما أن القبول المطلق تكذيب للموازين المنصوبة في الدين لتمييز الحق من الباطل، ونسبة الباطل واللغو من القول إلى النبي ﷺ، كذلك الطرح الكلي تكذيب لها وإلغاء وإبطال للكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو القائل جل ثناؤه: ﴿مَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ﴾ [النساء: ٦٤]؛ إذ لو لم يكن لقول رسول الله ﷺ حجية، أو لما ينقل من قوله ﷺ إلينا معاشر الغائبين في عصره أو الموجودين بعد ارتحاله من الدنيا حجية، لما استقر من الدين حجر على حجر، والركون على النقل والحديث مما يعنوره البشر ويقبله في حياته الاجتماعية قبولاً يضطر إليه بالبداهة، ويهديه إلى ذلك الفطرة الإنسانية، لا غنى له عن ذلك، وأما وقوع الدس والخلط في المعارف المنقولة الدينية، فليس ببدع يختص بالدين؛ كيف ورحى الاجتماع بجميع جهاتها وأركانها تدور على الأخبار الدائرة اليومية العامة والخاصة، ووجود الكذب والدس والخلط فيها أزيد، وأيدي السياسات الكلية والجزئية بها ألعب؟ ونحن على فطرتنا الإنسانية لا نجري على مجرد قرع السمع في الأخبار المنقولة إلينا في نادي الاجتماع، بل نعرض كل واحد واحد منها على ما عندنا من الميزان الذي يمكن أن يوزن به؛ فإن وافقه وصدقه قبلناه، وإن خالفه وكذبه طرحناه، وإن لم يتبين شيء من أمره ولم يتميز حقه من باطله وصدقه من كذبه، توقفنا فيه من غير قبول ولا رد، على الاحتياط الذي جبلنا عليه في الشرور والمضار، هذا كله بشرط الخبرة في نوع الخبر الذي نقل إلينا، وأما ما لا خبرة للإنسان فيه من الأخبار بما يشتمل عليه من المضمون، فسبيل العقلاء من أهل الاجتماع فيه الرجوع إلى أهل خبرته، والأخذ

بما يرون فيه ويحكمون به، هذا.

• فهذا ما عليه بناؤنا الفطري في الاجتماع الإنساني، والميزان الديني المضروب لتمييز الحق من الباطل وكذا الصدق من الكذب، لا يغاير ذلك، بل هو هو بعينه، وهو العرض على كتاب الله؛ فإن تبين منه شيء أخذ به، وإن لم يتبين لشبهة فالوقوف عند الشبهة، وعلى ذلك أخبار متواترة عن النبي ﷺ والأئمة من أهل بيته، هذا كله في غير المسائل الفقهية، وأما هي فالمرجع في البحث عنها فن أصول الفقه.

٤٢. النهي عن التلفظ بما يؤذي الرسول وحسد الكفار:

المقطع [٤٢] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [البقرة: ١٠٤ـ١٠٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١/ ٢٤٦»:

١. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أول مورد في القرآن ورد فيه خطاب المؤمنين بلفظة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، وضع هنا مبحثا حول [تحقيق معنى خطاب ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ في القرآن]، خلاصته:

أ. خطاب ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ورد في القرآن في نحو من خمسة وثمانين موضعاً، وهو مما يختص بهذه الأمة، بينما الأمم السابقة كان يُعبر عنهم بـ﴿الْقَوْمَ﴾ أو (الأصحاب) أو ﴿بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾

ب. التعبير بـ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يختلف في المصداق عن لفظ ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾، فهو كلمة تشريف تختص بالسابقين الأولين من المؤمنين، وليس كل مؤمن، كما تدل عليه آيات متعددة.

ج. الأدلة على هذا المعنى: من الآيات التي تفرق بين ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ و﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ قوله تعالى: ﴿يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [المؤمن: ٧]، ثم عطف عليهم (الذين تابوا واتبعوا سبيلك)، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطور: ٢١]، حيث يظهر أن ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ هم السابقون الأولون، وذريتهم يلحقون بهم.

د. ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أيضاً كلمة تشريف من جهة السبق في الكفر، فيراد به السابقون في الكفر برسول الله من مشركي مكة وأترابهم، كما في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦]

هـ. الجواب عن الإشكال: إذا قيل إن خطاب ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ عام لجميع المؤمنين في كل زمان، فالجواب أن الخطاب تشريفي يختص بالبعض، لكن ذلك لا يوجب اختصاص التكاليف المتضمنة فيه بهم، لأن التكاليف عامة وسيعة من غير خطاب، كما أن بعض الخطابات تصدر بـ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ والتكليف عام.

و. إطلاق ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ على غير المختصين بالتشريف: مع أن الكلمة تشريفية، إلا أنها قد تطلق على غير هؤلاء المختصين إذا دلت قرينة على ذلك، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا﴾ [النساء: ١٣٧]، وقوله حكاية عن نوح: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [هود: ٢٩]

٢. ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا﴾، أي بدلوا قول ﴿رَاعِنَا﴾ من قول ﴿انْظُرْنَا﴾ ولئن لم تفعلوا ذلك كان ذلك منكم كفرا، وللكافرين عذاب أليم، ففيه نهي شديد عن قول راعنا.

٣. هذه كلمة ذكرتها آية أخرى وبينت معناها في الجملة وهي قوله تعالى ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ﴾، ومنه يعلم أن اليهود كانت تريد بقولهم للنبي ص راعنا نحوا من معنى قوله: ﴿وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾، ولذلك ورد النهي عن خطاب رسول الله ﷺ بذلك وحينئذ ينطبق على ما نقل: أن المسلمين كانوا يخاطبون النبي ﷺ بذلك إذا ألقى إليهم كلاما يقولون راعنا يا رسول الله، يريدون أمهلنا وانظرنا حتى نفهم ما تقول، وكانت اللفظة تفيد في لغة اليهود معنى الشتم فاغتنم اليهود ذلك فكانوا يخاطبون النبي ﷺ بذلك يظهرون التأدب معه، وهم يريدون الشتم، ومعناه عندهم اسمع لا أسمعت فنزل، ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا﴾، الآية ونهى الله المؤمنين عن الكلمة وأمرهم أن يقولوا ما في معناه وهو انظرنا فقال: ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا﴾

٤. ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، يريد المتمردين من هذا النهي وهذا أحد الموارد التي أطلق فيها الكفر على ترك التكاليف الفرعية.

٥. ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾، لو كان المراد بأهل الكتاب اليهود خاصة كما هو الظاهر لكون الخطابات السابقة مسوقة لهم فتوصيفهم بأهل الكتاب يفيد الإشارة إلى العلة، وهو أنهم لكونهم أهل كتاب ما يودون نزول الكتاب على المؤمنين لاستلزامه بطلان اختصاصهم بأهلية الكتاب مع

أن ذلك ضنة منهم بما لا يملكونه، ومعارضة مع الله سبحانه في سعة رحمته وعظم فضله، ولو كان المراد عموم أهل الكتاب من اليهود والنصارى فهو تعميم بعد التخصيص لاشتراك الفريقين في بعض الخصائل، وهم على غيظ من الإسلام، وربما يؤيد هذا الوجه بعض الآيات اللاحقة كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾

٦. أحاديث وآثار:

أ. أخرج أبو نعيم في الحلية عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: ما أنزل الله آية فيها (يا أيها الذين آمنوا) إلا وعليّ رأسها وأميرها.

• أقول: والرواية تؤيد ما سننقله من الروايات الواردة في عدة من الآيات أنها في عليّ أو في أهل البيت، نظير ما في قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقوله تعالى: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقوله تعالى: ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]

٤٣. النسخ الإلهي للآيات وإحلال خير منها أو مثلها:

المقطع [٤٣] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَّ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَّ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهَّ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [البقرة: ١٠٦-١٠٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١/ ٢٥٠»،:

١. الآيتان في النسخ ومن المعلوم أن النسخ بالمعنى المعروف عند الفقهاء وهو الإبانة عن انتهاء أمد الحكم وانقضاء أجله اصطلاح متفرع على الآية مأخوذ منها ومن مصاديق ما يتحصل من الآية في معنى النسخ على ما هو ظاهر إطلاق الآية.

٢. ﴿مَا نَنْسَخْ﴾:

أ. النسخ هو الإزالة، يقال: نسخت الشمس الظل إذا أزالته وذهبت به، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللهُّ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾، ومنه أيضا قولهم: نسخت الكتاب إذا نقل من نسخة إلى أخرى فكأن الكتاب أذهب به وأبدل مكانه ولذلك بدل لفظ

النسخ من التبديل في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

ب. كيف كان فالنسخ لا يوجب زوال نفس الآية من الوجود وبطلان تحققها، بل الحكم حيث علق بالوصف وهو الآية والعلامة مع ما يلحق بها من التعليل في الآية بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾، إلخ أفاد ذلك أن المراد بالنسخ هو إذهاب أثر الآية من حيث إنها آية، أعني إذهاب كون الشيء آية وعلامة مع حفظ أصله فبالنسخ يزول أثره من تكليف أو غيره مع بقاء أصله وهذا هو المستفاد من اقتران قوله: ﴿نُنْسِهَا﴾ بقوله: ﴿مَا نَنْسَخْ﴾، والإنساء إفعال من النسيان وهو الإذهاب عن العلم كما أن النسخ هو الإذهاب عن العين فيكون المعنى ما نذهب بآية عن العين أو عن العلم نأت بخير منها أو مثلها.

ج. كون الشيء آية يختلف باختلاف الأشياء والحيثيات والجهات، فالبعض من القرآن آية لله سبحانه باعتبار عجز البشر عن إتيان مثله، والأحكام والتكاليف الإلهية آيات له تعالى باعتبار حصول التقوى والقرب بها منه تعالى، والموجودات العينية آيات له تعالى باعتبار كشفها بوجودها عن وجود صانعها وبخصوصيات وجودها عن خصوصيات صفاته وأسمائه سبحانه، وأنبياء الله وأولياؤه تعالى آيات له تعالى باعتبار دعوتهم إليه بالقول والفعل وهكذا، ولذلك كانت الآية تقبل الشدة والضعف قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾

د. من جهة أخرى الآية ربما كانت في أنها آية ذات جهة واحدة وربما كانت ذات جهات كثيرة، ونسخها وإزالتها كما يتصور بجهته الواحدة كإهلاكها كذلك يتصور ببعض جهاتها دون بعض إذا كانت ذات جهات كثيرة، كالآية من القرآن تنسخ من حيث حكمها الشرعي وتبقى من حيث بلاغتها وإعجازها ونحو ذلك.

٣. هذا الذي استظهرناه من عموم معنى النسخ هو الذي يفيده عموم التعليل المستفاد من قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، وذلك أن الإنكار المتوهم في المقام أو الإنكار الواقع من اليهود على ما نقل في شأن نزول الآية بالنسبة إلى معنى النسخ يتعلق به من وجهين:

أ. أحدهما: من جهة أن الآية إذا كانت من عند الله تعالى كانت حافظة لمصلحة من المصالح الحقيقية

لا تحفظها شيء دونها، فلو زالت الآية فاتت المصلحة ولن تقوم مقامها شيء تحفظ به تلك المصلحة، ويستدرك به ما فات منها من فائدة الخلقة ومصلحة العباد، وليس شأنه تعالى كشأن عباده ولا علمه كعلمهم بحيث يتغير بتغير العوامل الخارجية فيتعلق يوما علمه بمصلحة فيحكم بحكم ثم يتغير علمه غدا ويتعلق بمصلحة أخرى فاتت عنه بالأمس، فيتغير الحكم، ويقضي ببطلان ما حكم سابقا، وإتيان آخر لاحقا، فيطلع كل يوم حكم، ويظهر لون بعد لون، كما هو شأن العباد غير المحيطين بجهات الصلاح في الأشياء، فكانت أحكامهم وأوضاعهم تتغير بتغير العلوم بالمصالح والمفاسد زيادة ونقيصة وحدوثا وبقاء، ومرجع هذا الوجه إلى نفي عموم القدرة وإطلاقها.

ب. ثانيهما: أن القدرة وإن كانت مطلقة إلا أن تحقق الإيجاد وفعلية الوجود يستحيل معه التغير، فإن الشيء لا يتغير عما وقع عليه بالضرورة وهذا مثل الإنسان في فعله الاختياري فإن الفعل اختياري للإنسان ما لم يصدر عنه فإذا صدر كان ضروري الثبوت غير اختياري له، ومرجع هذا الوجه إلى نفي إطلاق الملكية وعدم جواز بعض التصرفات بعد خروج الزمام ببعض آخر كما قالت اليهود: ﴿يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ﴾

٤. أشار سبحانه إلى الجواب عن الأول بقوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي فلا يعجز عن إقامة ما هو خير من الفائت أو إقامة ما هو مثل الفائت مقامه وأشار إلى الجواب عن الثاني بقوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾، أي أن ملك السموات والأرض لله سبحانه فله أن يتصرف في ملكه كيف يشاء وليس لغيره شيء من الملك حتى يوجب ذلك انسداد باب من أبواب تصرفه سبحانه، أو يكون مانعا دون تصرف من تصرفاته، فلا يملك شيء شيئا، لا ابتداء ولا بتمليكه تعالى، فإن التمليك الذي يملكه غيره ليس كتمليك بعضنا بعضا شيئا بنحو يبطل ملك الأول ويحصل ملك الثاني، بل هو مالك في عين ما يملك غيره ما يملك، فإذا نظرنا إلى حقيقة الأمر كان الملك المطلق والتصرف المطلق له وحدة، وإذا نظرنا إلى ما ملكنا بملكه من دون استقلال كان هو الولي لنا وإذا نظرنا إلى ما تفضل علينا من ظاهر الاستقلال، وهو في الحقيقة فقر في صورة الغنى، وتبعية في صورة الاستقلال، لم يمكن لنا أيضا أن ندبر أمورنا من دون إعانته ونصره كان هو النصير لنا.

٥. هذا الذي ذكرناه هو الذي يقتضيه الحصر الظاهر من قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ

وَالْأَرْضِ﴾، فقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، مرتب على ترتيب ما يتوهم من الاعتراضين، ومن الشاهد على كونهما اعتراضين اثنين الفصل بين الجملتين من غير وصل.

٦. ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾:

أ. مشتمل على أمرين هما كالمتممين للجواب، أي وإن لم تنظروا إلى ملكه المطلق بل نظرتم إلى ما عندكم من الملك الموهوب فحيث كان ملكا موهوبا من غير انفصال واستقلال فهو وحده وليكم، فله أن يتصرف فيكم وفيما عندكم ما شاء من التصرف، وإن لم تنظروا إلى عدم استقلالكم في الملك، بل نظرتم إلى ظاهر ما عندكم من الملك والاستقلال وانجمدتم على ذلك فحسب، فإنكم ترون أن ما عندكم من القدرة والملك والاستقلال لا تتم وحدها، ولا تجعل مقاصدكم مطيعة لكم خاضعة لقصودكم وإرادتكم وحدها بل لا بد معها من إعانة الله ونصره فهو النصير لكم فله أن يتصرف من هذا الطريق فله سبحانه التصرف في أمركم من أي سبيل سلكتم هذا.

ب. ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ﴾، جيء فيه بالظاهر موضع المضمر نظرا إلى كون الجملة بمنزلة المستقل من الكلام لتمامية الجواب دونه.

٧. ظهر مما مر:

أ. أولا، أن النسخ لا يختص بالأحكام الشرعية بل يعم التكوينيات أيضا.

ب. ثانيا: أن النسخ لا يتحقق من غير طرفين ناسخ ومنسوخ.

ج. ثالثا: أن الناسخ يشتمل على ما في المنسوخ من كمال أو مصلحة.

د. رابعا: أن الناسخ ينافي المنسوخ بحسب صورته وإنما يرتفع التناقض بينهما من جهة اشتمال كليهما على المصلحة المشتركة.

هـ. خامسا: أن النسبة التي بين الناسخ والمنسوخ غير النسبة التي بين العام والخاص وبين المطلق والمقيد وبين المجمل والمبين، فإن الرافع للتنافي بين الناسخ والمنسوخ بعد استقراره بينهما بحسب الظهور اللفظي هو الحكمة والمصلحة الموجودة بينهما، بخلاف الرافع للتنافي بين العام والخاص والمطلق والمقيد والمجمل والمبين فإنه قوة الظهور اللفظي الموجود في الخاص والمقيد والمبين، المفسر للعام بالتخصيص،

وللمطلق بالتقييد، وللمجمل بالتبيين على ما بين في فن أصول الفقه، وكذلك في المحكم والمتشابه على ما سيجيء في قوله: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾

٨. يرتفع التناقض بين الناسخ والمنسوخ من جهة اشتمال كليهما على المصلحة المشتركة:

أ. فإذا توفي نبي وبعث نبي آخر وهما آيتان من آيات الله تعالى أحدهما ناسخ للآخر كان ذلك جريانا على ما يقتضيه ناموس الطبيعة من الحياة والموت والرزق والأجل وما يقتضيه اختلاف مصالح العباد بحسب اختلاف الأعصار وتكامل الأفراد من الإنسان.

ب. وإذا نسخ حكم ديني بحكم ديني كان الجميع مشتملا على مصلحة الدين وكل من الحكمين أطبق على مصلحة الوقت، أصلح لحال المؤمنين كحكم العفو في أول الدعوة وليس للمسلمين بعد عدة ولا عدة، وحكم الجهاد بعد ذلك حينما قوي الإسلام وأعد فيهم ما استطاعوا من قوة وركز الرعب في قلوب الكفار والمشركين.

٩. الآيات المنسوخة مع ذلك لا تخلو من إيماء وتلويح إلى النسخ كما في قوله تعالى ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى﴾ ﴿يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ﴾: البقرة، ١٠٩، المنسوخ بآية القتال وقوله تعالى: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾: النساء، ١٤ المنسوخ بآية الجلد فقوله: ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ﴾ وقوله: ﴿أَوْ يَجْعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ لا يخلو عن إشعار بأن الحكم موقت مؤجل سيلحقه نسخ.

١٠. ﴿أَوْ نُنْسِهَا﴾:

أ. قرئ بضم النون وكسر السين من الإنساء بمعنى الإذهاب عن العلم والذكر، وهو كلام مطلق أو عام غير مختص برسول الله ﷺ، بل غير شامل له أصلا لقوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ﴾، وهي آية مكية وآية النسخ مدنية فلا يجوز عليه النسيان بعد قوله تعالى: ﴿فَلَا تَنْسَى﴾ وأما اشتماله على الاستثناء بقوله: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ﴾ فهو على حد الاستثناء الواقع في قوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾، جيء بها لإثبات بقاء القدرة مع الفعل على تغيير الأمر، ولو كان الاستثناء مسوقا لبيان الوقوع في الخارج لم يكن للامتنان بقوله: ﴿فَلَا تَنْسَى﴾ معنى، إذ كل ذي ذكر وحفظ من الإنسان وسائر الحيوان كذلك يذكر وينسى وذكره ونسيانه كلاهما منه تعالى وبمشيته، وقد كان رسول الله ﷺ كذلك قبل هذا الإقراء الامتناني الموعود بقوله: ﴿سَنُقْرِئُكَ﴾ يذكر بمشية

الله وينسى بمشية الله تعالى فليس معنى الاستثناء إلا إثبات إطلاق القدرة أي سنقرئك فلا تنسى أبدا والله مع ذلك قادر على إنسائك هذا.

ب. وقرئ قوله: (ننسأها) بفتح النون والهمزة من نسيء نسيئا إذا أخر تأخيرا فيكون المعنى على هذا: (ما ننسخ من آية بإزالتها أو نؤخرها بتأخير إظهارها نأت بخير منها أو مثلها)

١١. لا يوجب التصرف الإلهي بالتقديم والتأخير في آياته فوت كمال أو مصلحة، والدليل على أن المراد بيان أن التصرف الإلهي يكون دائما على الكمال والمصلحة هو قوله: ﴿بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ فإن الخيرية إنما يكون في كمال شيء موجود أو مصلحة حكم مجعول ففي ذلك يكون موجود مماثلا لآخر في الخيرية أو أزيد منه في ذلك فافهم.

١٢. سياق قوله تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ﴾ يدل على أن بعض المسلمين، ممن آمن بالنبي ﷺ سأل النبي أمورا على حد سؤال اليهود نبيهم موسى عليه السلام والله سبحانه وبخهم على ذلك في ضمن ما يوبخ اليهود بما فعلوا مع موسى والنبيين من بعده، والنقل يدل على ذلك.

١٣. ﴿سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أي مستوى الطريق.

١٤. أحاديث وآثار: قد تكاثرت روايات الفريقين عن النبي ﷺ والصحابة وعن أئمة أهل البيت عليه السلام: أن في القرآن ناسخا ومنسوخا، ومن الأمثلة على ذلك:

أ. في تفسير النعماني، عن أمير المؤمنين عليه السلام: بعد ذكر عدة آيات من الناسخ والمنسوخ: قال عليه السلام: (ونسخ قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ قوله عز وجل: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ أي للرحمة خلقهم)، وفيها دلالة على أخذه عليه السلام النسخ في الآية أعم من النسخ الواقع في التشريع فالآية الثانية تثبت حقيقة توجب تحديد الحقيقة التي تثبتها الآية الأولى، وبعبارة واضحة: الآية الأولى تثبت للخلقة غاية وهي العبادة، والله سبحانه غير مغلوب في الغاية التي يريدها في فعل من أفعاله غير أنه سبحانه خلقهم على إمكان الاختلاف فلا يزالون مختلفين في الاهتداء والضلال فلا يزالون مختلفين إلا من أخذته العناية الإلهية، وشملته رحمة الهداية، ولذلك خلقهم أي ولهذه الرحمة خلقهم، فالآية الثانية تثبت للخلقة غاية، وهو الرحمة المقارنة للعبادة والاهتداء ولا يكون إلا في البعض دون الكل، والآية الأولى كانت تثبت العبادة غاية للجميع، فهذه العبادة جعلت غاية الجميع من

جهة كون البعض مخلوقا لأجل البعض الآخر، وهذا البعض أيضا لآخر حتى ينتهي إلى أهل العبادة وهم العابدون المخلوقون للعبادة فصح أن العبادة غاية للكل نظير بناء الحديقة وغرس الشجرة لثمرتها أو لمنافعها المالية فالآية الثانية تنسخ إطلاق الآية الأولى.

ب. في تفسير النعماني، أيضا عنه عليه السلام: قال ونسخ قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ قوله: ﴿الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَها وَهُمْ فِيما اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ} ﴿خالِدُونَ لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾.، وليست الآيتان من قبيل العام والخاص لقوله تعالى: ﴿كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾، والقضاء الحتم غير قابل الرفع ولا ممكن الإبطال ويظهر معنى هذا النسخ مما سيجيء إن شاء الله في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾

ج. وفي تفسير العياشي، عن الباقر عليه السلام: أن من النسخ البداء المشتمل عليه قوله تعالى: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾، ونجاة قوم يونس.، والوجه فيه واضح.

د. وفي بعض الأخبار عن أئمة أهل البيت عدّ عليه السلام موت إمام وقيام إمام آخر مقامه من النسخ.، والأخبار في هذه المعاني كثيرة مستفيضة.

هـ. عن قتادة قال: كانت الآية تنسخ الآية، وكان نبي الله يقرأ الآية والسورة وما شاء الله من السورة، ثم ترفع فينسيها الله نبيه فقال الله يقص على نبيه: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا﴾، يقول: فيها تخفيف، فيها رخصة، فيها أمر، فيها نهي.، وروي فيه أيضا في معنى الإنساء روايات عديدة وجميعها مطروحة بمخالفة الكتاب.

٤٤. حسد أهل الكتاب والأمر بالعفو والصفح:

المقطع [٤٤] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٩ـ١١٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١/ ٢٥٨»:

١. ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ نقل أنه حي بن الأخطب وبعض من معه من متعصبي اليهود.

٢. ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾، قالوا: إنها آية منسوخة بآية القتال.

٣. ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ فيه كما مر إيماء إلى حكم سيشرّعه الله تعالى في حقهم، ونظيره قوله تعالى: في الآية الاتية ﴿أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾، مع قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ [التوبة: ٢٨]، وسيأتي الكلام في معنى الأمر في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [أسرى: ٨٥]

٤٥. ادعاء كل فريق الجنة لنفسه ورد الله عليهم:

المقطع [٤٥] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [البقرة: ١١١-١١٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١/ ٢٥٩»:

١. ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ﴾، شروع في إلحاق النصارى باليهود تصريحا وسوق الكلام في بيان جرائمهم معا.

٢. ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾، هذه كرة ثالثة عليهم في بيان أن السعادة لا تدور مدار الاسم ولا كرامة لأحد على الله إلا بحقيقة الإيمان والعبودية:

أ. أولاها قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا﴾

ب. وثانيتها، قوله تعالى: ﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾

ج. وثالثتها، هذه الآية ويستفاد من تطبيق الآيات تفسير الإيمان بإسلام الوجه إلى الله وتفسير الإحسان بالعمل الصالح.

٣. ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾، أي وهم يعملون بما أوتوا من كتاب الله لا ينبغي لهم أن يقولوا ذلك والكتاب يبين لهم الحق والدليل على ذلك قوله: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾) فالمراد بالذين لا يعلمون غير أهل الكتاب من الكفار ومشركي العرب قالوا: إن المسلمين ليسوا على شيء أو إن أهل الكتاب ليسوا على شيء.

٤٦. منع المساجد والسعي في خرابها أعظم الظلم:

المقطع [٤٦] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١/ ٢٥٩»:

١. ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ﴾، ظاهر السياق أن هؤلاء كفار مكة قبل الهجرة فإن هذه الآيات نزلت في أوائل ورود رسول الله ﷺ المدينة.

٢. ﴿أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾، يدل على مضي الواقعة وانقضائها لمكان قوله: ﴿كَانَ﴾، فينطبق على كفار قريش وفعالهم بمكة كما ورد به النقل أن المانعين كفار، مكة كانوا يمنعون المسلمين عن الصلاة في المسجد الحرام والمساجد التي اتخذوها بفناء الكعبة.

٤٧. لله المشرق والمغرب وهو الواحد البديع:

المقطع [٤٧] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٥-١١٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١/ ٢٥٩»:

١. ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾:

أ. المشرق والمغرب وكل جهة من الجهات حيث كانت فهي لله بحقيقة الملك التي لا تقبل التبدل والانتقال، لا كالملك الذي بيننا معاشر أهل الاجتماع، وحيث إن ملكه تعالى مستقر على ذات الشيء محيط بنفسه وأثره، لا كملكنا المستقر على أثر الأشياء ومنافعها، لا على ذاتها، والملك لا يقوم من جهة أنه ملك إلا بمالكه فالله سبحانه قائم على هذه الجهات محيط بها وهو معها، فالمتوجه إلى شيء من الجهات متوجه إليه تعالى.

ب. لما كان المشرق والمغرب جهتين إضافيتين شملتا سائر الجهات تقريبا إذ لا يبقى خارجا منهما إلا نقطتا الجنوب والشمال الحقيقتان ولذلك لم يقيد إطلاق قوله: ﴿فَأَيْنَمَا﴾، بهما بأن يقال: أينما تولوا منهما فكأن الإنسان أينما ولى وجهه فهناك إما مشرق أو مغرب، فقوله: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ بمنزلة قولنا: ولله الجهات جميعا وإنما أخذ بهما لأن الجهات التي يقصدها الإنسان بوجهه إنما تتعين بشروق الشمس

وغروبها وسائر الأجرام العلوية المنيرة.

٢. ﴿فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾، فيه وضع علة الحكم في الجزاء موضع الجزاء، والتقدير ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا﴾ جاز لكم ذلك فإن وجه الله هناك، ويدل على هذا التقدير تعليل الحكم بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾، أي إن الله واسع الملك والإحاطة عليم بقصودكم أينما توجهت، لا كالواحد من الإنسان أو سائر الخلق الجسماني لا يتوجه إليه إلا إذا كان في جهة خاصة، ولا أنه يعلم توجه القاصد إليه إلا من جهة خاصة كقدامه فقط، فالتوجه إلى كل جهة توجه إلى الله، معلوم له سبحانه.

٣. هذا توسعة في القبلة من حيث الجهة لا من حيث المكان، والدليل عليه قوله: ﴿وَللهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾

٤. ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا﴾ يعطي السياق، أن المراد بالقائلين بهذه المقالة هم اليهود والنصارى: إذ قالت اليهود: عزير ابن الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله، فإن وجه الكلام مع أهل الكتاب، وإنما قال أهل الكتاب هذه الكلمة أعني قولهم: اتخذ الله ولدا أول ما قالوها تشريفا لأنبيائهم كما قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه ثم تلبست بلباس الجد والحقيقة فرد الله سبحانه عليهم في هاتين الآيتين.

٥. أضرب الله تعالى عن قولهم بقوله: ﴿بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾ إلخ، ويشتمل على برهانين ينفي كل منهما الولادة وتحقق الولد منه سبحانه:

أ. فإن اتخاذ الولد هو أن يجزي موجود طبيعي بعض أجزاء وجوده، ويفصله عن نفسه فيصيره بتربية تدريجية فردا من نوعه مماثلا لنفسه، وهو سبحانه منزه عن المثل، بل كل شيء مما في السموات والأرض مملوك له، قائم الذات به، قانت ذليل عنده ذلة وجودية، فكيف يكون شيء من الأشياء ولدا له مماثلا نوعيا بالنسبة إليه؟ وهو سبحانه بديع السموات والأرض، إنما يخلق ما يخلق على غير مثال سابق، فلا يشبه شيء من خلقه خلقا سابقا، ولا يشبه فعله فعل غيره في التقليد والتشبيه ولا في التدريج، والتوصل بالأسباب إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون من غير مثال سابق ولا تدريج، فكيف يمكن أن ينسب إليه اتخاذ الولد؟ وتحققه يحتاج إلى تربية وتدريج، فقوله: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ برهان تام.

ب. وقوله: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ برهان آخر تام،

هذا.

٦. يستفاد من الآيتين:

أ. أولا: شمول حكم العبادة لجميع المخلوقات مما في السموات والأرض.

ب. ثانيا: أن فعله تعالى غير تدريجي، ويستدرج من هنا، أن كل موجود تدريجي فله وجه غير تدريجي، به يصدر عنه تعالى كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾

٧. ﴿سُبْحَانَهُ﴾ مصدر بمعنى التسبيح وهو لا يستعمل إلا مضافا وهو مفعول مطلق لفعل محذوف أي سبحته تسبيحا، فحذف الفعل وأضيف المصدر إلى الضمير المفعول وأقيم مقامه، وفي الكلمة تأديب إلهي بالتنزيه فيما يذكر فيه ما لا يليق بساحة قدسه تعالى وتقدس.

٨. ﴿كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾، القنوت العبادة والتذلل.

٩. ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ﴾، بداعة الشيء كونه لا يماثل غيره مما يعرف ويؤنس به.

١٠. ﴿فَيَكُونُ﴾، تفريع على قول كن وليس في مورد الجزاء حتى يجزم.

١١. وضع هنا مبحثا حول [نفي التشابه بين الموجودات ودلالته على وحدانية الله]، خلاصته، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١/ ٢٦٣»:

أ. التجربة الحسية، حتى المسلحة منها، تثبت افتراق كل موجودين في الشخصية رغم اتحادهما في الكليات.

ب. البرهان الفلسفي يقرر استحالة التماثل التام بين موجودين، لأن صرف الشيء لا يتثنى ولا يتكرر.

ج. كل موجود هو بديع الوجود، لا على مثال سابق، والله سبحانه هو المبتدع لهذه البداعة.

١٢. أحاديث وآثار:

أ. في التهذيب، عن محمد بن الحصين قال كتب إلى عبد صالح الرجل، يصلي في يوم غيم في فلاة من الأرض، ولا يعرف القبلة فيصلي، حتى فرغ من صلاته بدت له الشمس، فإذا هو صلى لغير القبلة يعتد بصلاته أم يعيدها؟ فكتب يعيد ما لم يفت الوقت، أولم يعلم أن الله يقول:، وقوله الحق ـ: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ

وَجْهُ اللهِ﴾، وفي تفسير العياشي، عن الباقر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾، قال: أنزل الله هذه الآية في التطوع خاصة ـ: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾، وصلى رسول الله ﷺ إيماء على راحلته أينما توجهت به حين خرج إلى خيبر، وحين رجع من مكة، وجعل الكعبة خلف ظهره.

ب. وإذا تصفحت أخبار أئمة أهل البيت حق التصفح، في موارد العام والخاص والمطلق والمقيد من القرآن وجدتها كثيرا ما تستفيد من العام حكما، ومن الخاص أعني العام مع المخصص حكما آخر، فمن العام مثلا الاستحباب كما هو الغالب ومن الخاص الوجوب، وكذلك الحال في الكراهة والحرمة، وعلى هذا القياس، وهذا أحد أصول مفاتيح التفسير في الأخبار المنقولة عنهم، وعليه مدار جم غفير من أحاديثهم.

ج. من هنا يمكنك أن تستخرج منها في المعارف القرآنية قاعدتين:

• إحداهما: أن كل جملة وحدها، وهي مع كل قيد من قيودها تحكي عن حقيقة ثابتة من الحقائق أو حكم ثابت من الأحكام كقوله تعالى: ﴿قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾، ففيه معان أربع:

● الأول: ﴿قُلِ اللهُ﴾

● الثاني: ﴿قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾

● الثالث: ﴿قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ﴾

● الرابع: ﴿قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾

واعتبر نظير ذلك في كل ما يمكن.

• الثانية: أن القصتين أو المعنيين إذا اشتركا في جملة أو نحوها، فهما راجعان إلى مرجع واحد، وهذان سران تحتهما أسرار والله الهادي.

د. في الكافي، والبصائر، عن سدير الصيرفي، قال سمعت عمران بن أعين يسأل أبا جعفر عليه السلام عن قول الله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، فقال أبو جعفر عليه السلام: إن الله عز وجل ابتدع الأشياء كلها بعلمه على غير مثال كان قبله، فابتدع السماوات والأرضين ولم يكن قبلهن سماوات ولا أرضون، أما تسمع لقوله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾

• وفي الرواية استفادة أخرى لطيفة، وهي أن المراد بالماء في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾

غير المصداق الذي عندنا من الماء بدليل أن الخلقة مستوية على البداعة، وكانت السلطنة الإلهية قبل خلق هذه السماوات والأرض مستقرة مستوية على الماء فهو غير الماء وسيجيء تتمة الكلام في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾

• الكليات حتى الموجودان اللذان لا يميز الحس جهة الفرقة بينهما فالحس المسلح يدرك ذلك منهما، والبرهان الفلسفي أيضا يوجب ذلك، فإن المفروضين من الموجودين لو لم يتميز أحدهما عن الآخر بشيء خارج عن ذاته، كان سبب الكثرة المفروضة غير خارج من ذاتهما فيكون الذات صرفة غير مخلوطة، وصرف الشيء لا يتثنى ولا يتكرر، فكان ما هو المفروض كثيرا واحدا غير كثير هذا خلف، فكل موجود مغاير الذات لموجود آخر، فكل موجود فهو بديع الوجود على غير مثال سابق ولا معهود، والله سبحانه هو المبتدع بديع السماوات والأرض.

٤٨. اقتراح الجاهلين الآيات ورغبتهم في آية خاصة:

المقطع [٤٨] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ [البقرة: ١١٨-١١٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١/ ٢٦٤»:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾:

أ. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، هم المشركون غير أهل الكتاب، ويدل عليه المقابلة السابقة في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ [البقرة: ١١٣]

ب. ففي تلك الآية ألحق أهل الكتاب في قولهم بالمشركين والكفار من العرب، وفي هذه الآية ألحق المشركين والكفار بهم، فقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، وهم أهل الكتاب واليهود من بينهم حيث اقترحوا بمثل هذه الأقاويل على نبي الله موسى عليه السلام، فهم والكفار متشابهون في أفكارهم وآرائهم، يقول هؤلاء ما قاله أولئك وبالعكس، ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾

١. ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ جواب عن قول الذين لا يعلمون، والمراد أن الآيات التي يطالبون بها مأتية مبينة، ولكن لا ينتفع بها إلا قوم يوقنون بآيات الله، وأما هؤلاء الذين لا يعلمون، فقلوبهم محجوبة بحجاب الجهل، مئوفة بآفات العصبية والعناد، وما تغني الآيات عن قوم لا يعلمون، ومن هنا يظهر وجه توصيفهم بعدم العلم، ثم أيد ذلك بتوجيه الخطاب إلى رسول الله ﷺ والإشعار بأنه مرسل من عند الله بالحق بشيرا ونذيرا، فلتطب به نفسه، وليعلم أن هؤلاء أصحاب الجحيم، مكتوب عليهم ذلك، لا مطمع في هدايتهم ونجاتهم.

٢. ﴿وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾، يجري مجرى قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

٤٩. تعنت اليهود والنصارى وعدم رضاهم عن المؤمنين:

المقطع [٤٩] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١/ ٢٦٥»:

١. ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى﴾:

أ. رجوع إلى الطائفتين بعد الالتفات إلى غيرهم، وهو بمنزلة جمع أطراف الكلام على تفرقها وتشتتها، فكأنه بعد هذه الخطابات والتوبيخات لهم يرجع إلى رسوله ويقول له: هؤلاء ليسوا براضين عنك، حتى تتبع ملتهم التي ابتدعوها بأهوائهم ونظموها بآرائهم.

ب. أمره الله تعالى بالرد عليهم بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَالْهُدَى} أي إن الاتباع إنما هو لغرض الهدى ولا هدى إلا هدى الله والحق الذي يجب أن يتبع وغيره، وهو ملتكم، ليس بالهدى، فهي أهواؤكم ألبستموها لباس الدين وسميتموها باسم الملة.

٢. في قوله: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ﴾، جعل الهدى كناية عن القرآن النازل، ثم أضيف إلى الله فأفاد صحة الحصر في قوله: ﴿إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَالْهُدَى﴾ على طريق قصر القلب، وأفاد ذلك خلو ملتهم عن الهدى، وأفاد ذلك كونها أهواء لهم، واستلزم ذلك كون ما عند النبي علما، وكون ما عندهم جهلا، واتسع المكان لتعقيب الكلام بقوله: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا

نَصِيرٍ﴾، فانظر إلى ما في هذا الكلام من أصول البرهان العريقة، ووجوه البلاغة على إيجازه، وسلاسة البيان وصفائه.

٥٠. حق تلاوة الكتاب والإيمان به والخسران لمن كفر:

المقطع [٥٠] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة: ١٢١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١/ ٢٦٦»:

١. ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾:

أ. يمكن أن تكون الجملة بقرينة الحصر المفهوم من قوله: ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ جوابا للسؤال المقدر الذي يسوق الذهن إليه قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى﴾ إلخ وهو أنهم إذا لم يكن مطمع في إيمانهم، فمن ذا الذي يؤمن منهم؟ وهل توجيه الدعوة إليهم باطل لغو؟ فأجيب بأن الذين آتيناهم الكتاب والحال أنهم يتلونه حق تلاوته، أولئك يؤمنون بكتابهم فيؤمنون بك، أو أن أولئك يؤمنون بالكتاب، كتاب الله المنزل أيا ما كان، أو أن أولئك يؤمنون بالكتاب الذي هو القرآن، وعلى هذا: فالقصر في قوله: ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ قصر إفراد والضمير في قوله: ﴿بِهِ﴾ على بعض التقادير لا يخلو عن استخدام.

ب. المراد بالذين أوتوا الكتاب قوم من اليهود والنصارى ليسوا متبعين للهوى من أهل الحق منهم، وبالكتاب التوراة والإنجيل، وإن كان المراد بهم المؤمنين برسول الله ﷺ وبالكتاب القرآن، فالمعنإن الذين آتيناهم القرآن، وهم يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون بالقرآن، لا هؤلاء المتبعون لأهوائهم، فالقصر حينئذ قصر قلب.

٢. أحاديث وآثار:

أ. في إرشاد الديلمي عن الصادق عليه السلام في قوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ [البقرة: ١٢١]، قال: يرتلون آياته، ويتفقهون به، ويعملون بأحكامه، ويرجون وعده، ويخافون وعيده، ويعتبرون بقصصه، ويأتمرون بأوامره، وينتهون بنواهيه، ما هو والله حفظ آياته، ودرس حروفه، وتلاوة سورة، ودرس أعشاره وأخماسه، حفظوا حروفه وأضاعوا حدوده، وإنما هو تدبر آياته والعمل

بأحكامه، قال الله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص: ٢٩]

ب. وفي تفسير العياشي عن الصادق عليه السلام في قول الله عز وجل: ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾، قال عليه السلام: الوقوف عند الجنة والنار.

• أقول: والمراد به التدبر.

ج. وفي الكافي عنه عليه السلام في الآية قال عليه السلام: هم الأئمة.

• أقول: وهو من باب الجري والانطباق على المصداق الكامل.

٥١. تذكير بني إسرائيل بالنعم وبيوم لا تنفع فيه شفاعة ولا عدل:

المقطع [٥١] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ [البقرة: ١٢٢-١٢٣]، لم يذكر تفسيرها، والتفسير المختصر لها:

١. يذكّر الله بني إسرائيل بنعمه السابقة عليهم، ومنها تفضيلهم على عالمي زمانهم بكثرة الأنبياء وإنزال الكتب وإنجائهم من العبودية، ثم يخوّفهم من يوم القيامة الذي لا تنفع فيه الوسائل الدنيوية، فلا يقبل فداء، ولا تنفع شفاعة بغير إذنه، ولا يجدون ناصرًا ينصرهم من عذاب الله.

٢. وهي تدعو إلى:

أ. وجوب تذكّر نعم الله وشكرها، وعدم نسيانها أو جحدها.

ب. أن تفضيل الله لبعض الأمم يكون بالالتزام بطاعته، لا بمجرد الانتساب إليها.

ج. الاستعداد ليوم القيامة بالعمل الصالح، فهو اليوم الذي لا ينفع فيه نسب ولا مال ولا وساطة.

د. أن العدل (أي الفداء) والشفاعة والنصرة جميعها ممنوعة يومئذٍ لمن لم يؤمن ويعمل صالحًا، فلا معتمد إلا الإيمان والعمل.

هـ. تحذير المؤمنين من الاغترار بالأماني الباطلة، وأن كل نفس مسئولة عن عملها، ولا تتحمل نفس عن أخرى شيئًا.

٥٢. ابتلاء إبراهيم بالكلمات وإمامته الناس وعهد الله للصالحين:

المقطع [٥٢] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ

قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١/ ٢٦٧»:

١. ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ﴾ إشارة إلى قصة إعطائه الإمامة وحبائه بها، والقصة إنما وقعت في أواخر عهد إبراهيم عليه السلام بعد كبره وتولد إسماعيل، وإسحاق له وإسكانه إسماعيل وأمه بمكة، كما تنبه به بعضهم أيضا، والدليل على ذلك قوله عليه السلام على ما حكاه الله سبحانه بعد قوله تعالى له: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾، فإنه عليه السلام قبل مجيء الملائكة ببشارة إسماعيل، وإسحاق، ما كان يعلم ولا يظن أن سيكون له ذرية من بعده حتى أنه بعد ما بشرته الملائكة بالأولاد خاطبهم بما ظاهره اليأس والقنوط كما قال تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ﴾، وكذلك زوجته على ما حكاه الله تعالى في قصة بشارته أيضا إذ قال تعالى: ﴿وَامْرَأَتُهُ قائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْناها بِإِسْحاقَ وَمِنْ وَراءِ إِسْحاقَ يَعْقُوبَ قالَتْ يا ويلتا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهذا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هذا لَشيء عَجِيبٌ قالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ رَحْمَتُ اللهِ وبَرَكاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ}، وكلامهما كما ترى يلوح منه آثار اليأس والقنوط ولذلك قابلته الملائكة بنوع كلام فيه تسليتهما وتطييب أنفسهما فما كان هو ولا أهله يعلم أن سيرزق ذرية.

٢. قوله عليه السلام: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾، بعد قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، قول من يعتقد لنفسه ذرية، وكيف يسع من له أدنى دربة بأدب الكلام وخاصة مثل إبراهيم الخليل في خطاب يخاطب به ربه الجليل أن يتفوه بما لا علم له به؟ ولو كان ذلك لكان من الواجب أن يقول: ومن ذريتي إن رزقتني ذرية أو ما يؤدي هذا المعنى فالقصة واقعة كما ذكرنا في أواخر عهد إبراهيم بعد البشارة.

٣. ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾:

أ. يدل على أن هذه الإمامة الموهوبة إنما كانت بعد ابتلائه بما ابتلاه الله به من الامتحانات وليست هذه إلا أنواع البلاء التي ابتلي عليه السلام بها في حياته، وقد نص القرآن على أن من أوضحها بلاء قضية ذبح إسماعيل، قال تعالى: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ إلى أن قال ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾

ب. القضية إنما وقعت في كبر إبراهيم، كما حكى الله تعالى عنه من قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ

لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾

ج. ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ﴾، الابتلاء والبلاء بمعنى واحد تقول: ابتليته وبلوته بكذا، أي امتحنته واختبرته، إذا قدمت إليه أمرا أو أوقعته في حدث فاختبرته بذلك واستظهرت ما عنده من الصفات النفسانية الكامنة عنده كالإطاعة والشجاعة والسخاء والعفة والعلم والوفاء أو مقابلاتها، ولذلك لا يكون الابتلاء إلا بعمل فإن الفعل هو الذي يظهر به الصفات الكامنة من الإنسان دون القول الذي يحتمل الصدق والكذب قال تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَّ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ﴾

د. تعلق الابتلاء، في الآية بالكلمات إن كان المراد بها الأقوال إنما هو من جهة تعلقها بالعمل وحكايتها عن العهود والأوامر المتعلقة بالفعل كقوله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾، أي عاشروهم معاشرة جميلة.

٤. ﴿بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾:

أ. الكلمات وهي جمع كلمة وإن أطلقت في القرآن على العين الخارجي دون اللفظ والقول، كقوله تعالى: ﴿بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾، إلا أن ذلك بعناية إطلاق القول كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهَّ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾

ب. وجميع ما نسب إليه تعالى من الكلمة في القرآن أريد بها القول كقوله تعالى: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهَّ﴾، وقوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهَّ﴾، وقوله: ﴿يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، وقوله: ﴿وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ﴾، وقوله ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾، وقوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾، وقوله: ﴿وَكَلِمَةُ اللهَّ هِيَ الْعُلْيَا﴾، وقوله: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ﴾، وقوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾، فهذه ونظائرها أريد بها القول بعناية أن القول توجيه ما يريد المتكلم إعلامه المخاطب ما عنده كما في الأخبار أو لغرض تحميله عليه كما في الإنشاء، ولذلك ربما تتصف في كلامه تعالى بالتمام كقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، كأن الكلمة إذا صدرت عن قائلها فهي ناقصة بعد، لم تتم، حتى تلبس لباس العمل وتعود صدقا.

ج. هذا لا ينافي كون قوله تعالى فعله، فإن الحقائق الواقعية لها حكم، وللعنايات الكلامية اللفظية حكم آخر، فما يريد الله سبحانه إظهاره لواحد من أنبيائه، أو غيرهم بعد خفائه، أو يريد تحميله على أحد قول وكلام له لاشتماله على غرض القول والكلام وتضمنه غاية الخبر والنبإ، والأمر والنهي، وإطلاق القول والكلمة على مثل ذلك شائع في الاستعمال إذا اشتمل على ما يؤديه القول والكلمة، تقول: لأفعلن كذا وكذا، لقول قلته وكلمة قدمتها، ولم تقل قولا، ولا قدمت كلمة، وإنما عزمت عزيمة لا تنقضها شفاعة شفيع أو وهن إرادة، ومنه قول عنترة:

وقولي كلما جشأت وجاشت...مكانك تحمدي أو تستريحي

يريد بالقول توطين نفسه على الثبات والعزم، على لزومها مكانها لتفوز بالحمد إن قتل، وبالاستراحة إن غلب.

د. إذا عرفت ذلك ظهر لك أن المراد بقوله تعالى: ﴿بِكَلِمَاتٍ﴾، قضايا ابتلي بها وعهود إلهية أريدت منه، كابتلائه بالكواكب والأصنام، والنار والهجرة وتضحيته بابنه وغير ذلك ولم يبين في الكلام ما هي الكلمات لأن الغرض غير متعلق بذلك، نعم قوله: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، من حيث ترتبه على الكلمات تدل على أنها كانت أمورا تثبت بها لياقته، عليه السلام لمقام الإمامة.

هـ. هذه هي الكلمات وأما إتمامهن فإن كان الضمير في قوله تعالى: ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ راجعا إلى إبراهيم كان معنى إتمامهن إتيانه عليه السلام ما أريد منه، وامتثاله لما أمر به، وإن كان الضمير راجعا إليه تعالى كما هو الظاهر كان المراد توفيقه لما أريد منه، ومساعدته على ذلك.

و. ما ذكره بعضهم: أن المراد بالكلمات قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، إلى آخر الآيات فمعنى لا ينبغي الركون إليه إذ لم يعهد في القرآن إطلاق الكلمات على جمل الكلام.

٥. ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، أي مقتدى يقتدي بك الناس، ويتبعونك في أقوالك وأفعالك، فالإمام هو الذي يقتدي ويأتم به الناس.

٦. وضع هنا مبحثا حول [دراسة في معنى الإمامة، وعلاقتها بالنبوة والرسالة، وشروط الإمام، وعصمته، ومسائل الإمامة الأساسية، مع تحليل الآيات والروايات الواردة]، خلاصته:

أ. معنى الإمامة: الإمام هو المقتدى به، الذي يتبعه الناس في أقوالهم وأفعالهم، والإمامة ليست

هي النبوة ولا الرسالة ولا الخلافة، بل هي حقيقة وراء ذلك، وهي الهداية بأمر الله، لا مجرد إراءة الطريق.

ب. الإمامة غير النبوة: إبراهيم عليه السلام كان نبياً قبل أن يكون إماماً، فقد كان نبياً مرسلاً حين جاءته الملائكة بالبشارة، والإمامة وعد له في المستقبل، كما في قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، وهذا يثبت أن الإمامة مقام آخر غير النبوة.

ج. الإمام هادٍ بأمر الله: الهداية في الإمامة ليست مجرد إراءة الطريق (التي هي شأن النبي والرسول وكل مؤمن)، بل هي هداية تكوينية بأمر إلهي، والأمر هو الوجه الباطن للخلق، وهو الملكوت، قال تعالى: ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾

د. شروط الإمامة: يجب أن يكون الإمام معصوماً عن الضلال والمعصية، لأنه لا يهدي إلى الحق إلا من كان مهتدياً بنفسه، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى﴾، كما يجب أن يكون مؤيداً من عند الله، عالماً بجميع ما يحتاج إليه الناس في معاشهم ومعادهم.

هـ. الإمامة عهد إلهي لا يناله الظالمون: قال تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾، والمراد بالظالمين مطلق من صدر عنه ظلم ما، من شرك أو معصية، وإن تاب بعد ذلك.

و. الإمامة كلمة باقية في عقب إبراهيم: قال تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾، والكلمة هنا هي الإمامة، وهي باقية في ذرية إبراهيم إلى يوم القيامة، وتشمل إسماعيل وإسحاق وأولادهما.

ز. الإمام لا يخلو منه زمان: قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾، وهو يدل على أن كل أمة لها إمام في كل زمان، يسوقهم إلى الله في الدنيا والآخرة.

ح. مسائل الإمامة الأساسية: سبع مسائل تستفاد من الآيات: (١) الإمامة مجعولة، (٢) الإمام معصوم، (٣) الأرض لا تخلو من إمام حق، (٤) الإمام مؤيد من عند الله، (٥) أعمال العباد غير محجوبة عن علم الإمام، (٦) الإمام عالم بجميع ما يحتاج إليه الناس، (٧) يستحيل أن يوجد فيهم من يفوقه في فضائل النفس.

٥٣. جعل البيت مثابة وأمناً ومقام إبراهيم مصلى وتطهير البيت:

المقطع [٥٣] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ

السُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١/ ٢٨٠»:

١. ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ إشارة إلى تشريع الحج والأمن في البيت، والمثابة هي المرجع، من ثاب يثوب إذا رجع.

٢. ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ كأنه عطف على قوله: ﴿جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً﴾، بحسب المعنى، فإن قوله: ﴿جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً﴾، لما كان إشارة إلى التشريع كان المعنى وإذ قلنا للناس ثوبوا إلى البيت وحجوا إليه ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾، وربما قيل إن الكلام على تقدير القول، والتقدير: وقلنا اتخذوا من مقام إبراهيم مصلى، والمصلى اسم مكان من الصلاة بمعنى الدعاء أي اتخذوا من مقامه عليه السلام مكانا للدعاء.

٣. الظاهر أن قوله: ﴿جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً﴾ إلخ بمنزلة التوطئة أشير به إلى مناط تشريع الصلاة ولذا لم يقل: وصلوا، في مقام إبراهيم، بل قال: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾، فلم يعلق الأمر بالصلاة في المقام، بل علق على اتخاذ المصلى منه.

٤. ﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا﴾، العهد هو الأمر والتطهير إما تخليص البيت لعبادة الطائفين، والعاكفين، والمصلين، ونسكهم فيكون من الاستعارة بالكناية، وأصل المعنى: أن خلصا بيتي لعبادة العباد، وذلك تطهير وإما تنظيفه من الأقذار والكثافات الطارئة من عدم مبالاة الناس، والركع السجود جمعا راكع وساجد وكان المراد به المصلون.

٥٤. دعاء إبراهيم لمكة بالأمن والرزق:

المقطع [٥٤] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ١٢٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١/ ٢٨٢»:

١. ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ﴾، هذا دعاء دعا به إبراهيم يسأل به الأمن على أهل مكة والرزق وقد أجيبت دعوته، وحاشا لله سبحانه أن ينقل في كلامه دعاء لا يستجيبه ولا يرده في كلامه الحق فيشتمل كلامه على هجاء لغو لغا به لاغ جاهل، وقد قال تعالى: ﴿وَالْحَقَّ أَقُولُ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾

٢. نقل القرآن العظيم عن هذا النبي الكريم دعوات كثيرة دعا بها وسألها ربه كدعائه لنفسه في بادئ أمره، ودعائه عند مهاجرته إلى سورية ودعائه ومسألته بقاء الذكر الخير، ودعائه لنفسه وذريته ولوالديه وللمؤمنين والمؤمنات، ودعائه لأهل مكة بعد بناء البيت، ودعائه ومسألته بعثة النبي من ذريته، ومن دعواته ومسائله التي تجسم آماله وتشخص مجاهداته ومساعيه في جنب الله وفضائل نفسه المقدسة، وبالجملة تعرف موقعه وزلفاه من الله عز اسمه، وسائر قصصه وما مدحه به ربه، يستنبط شرح حياته الشريفة، وستعرض للميسور من ذلك في سورة الأنعام.

٣. ﴿مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ﴾، لما سأل عليه السلام لبلد مكة الأمن، ثم سأل لأهله أن يرزقوا من الثمرات، استشعر: أن الأهل سيكون منهم مؤمنون، وكافرون ودعاؤه للأهل بالرزق يعم الكافر والمؤمن، وقد تبرأ من الكافرين وما يعبدونه، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لله تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾، فشهد تعالى له بالبراءة والتبري عن كل عدو لله، حتى أبيه، ولذلك لما استشعر ما استشعره من عموم دعوته قيدها بقوله من آمن منهم، وهو يعلم أن رزقهم من الثمرات لا يتم من دون شركة الكافرين على ما يحكم به ناموس الحياة الدنيوية الاجتماعية، غير أنه خص مسألته، والله أعلم، بما يحكم لسائر عباده، ويريد في حقهم، فأجيب عليه السلام بما يشمل المؤمن والكافر، وفيه بيان أن المستجاب من دعوته ما يجري على حكم العادة وقانون الطبيعة من غير خرق للعادة، وإبطال لظاهر حكم الطبيعة، ولم يقل: وارزق من آمن من أهله من الثمرات لأن المطلوب استيهاب الكرامة للبلد لكرامة البيت المحرم، ولا ثمرة تحصل في واد غير ذي زرع، وقع فيه البيت، ولولا ذلك لم يعمر البلد، ولا وجد أهلا يسكنونه.

٤. ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا﴾، قرئ فأمتعه من باب الإفعال والتفعيل والإمتاع والتمتيع بمعنى واحد.

٥. ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ﴾ إلخ، فيه إشارة إلى مزيد إكرام البيت وتطييب لنفس إبراهيم عليه السلام، كأنه قيل: ما سألته من إكرام البيت برزق المؤمنين من أهل هذا البلد استجبته وزيادة، ولا يغتر الكافر بذلك أن له كرامة على الله، وإنما ذلك إكرام لهذا البلد، وإجابة لدعوتك بأزيد مما سألته، فسوف يضطر إلى عذاب النار، وبئس المصير.

٥٥. رفع إبراهيم وإسماعيل القواعد من البيت ودعاؤهما:

المقطع [٥٥] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧-١٢٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١/ ٢٨٣»:

١. ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾، القواعد جمع قاعدة وهي ما قعد من البناء على الأرض، واستقر عليه الباقي، ورفع القواعد من المجاز بعد ما يوضع عليها منها، ونسبة الرفع المتعلق بالمجموع إلى القواعد وحدها.، وفي قوله تعالى: ﴿مِنَ الْبَيْتِ﴾ تلميح إلى هذه العناية المجازية.

٢. ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾:

أ. دعاء لإبراهيم وإسمعيل، وليس على تقدير القول، أو ما يشبهه، والمعنى يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾ إلخ، بل هو في الحقيقة حكاية المقول نفسه، فإن قوله: ﴿يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ حكاية الحال الماضية، فهما يمثلان بذلك تمثيلا كأنهما يشاهدان وهما مشتغلان بالرفع، والسامع يراهما على حالهما ذلك ثم يسمع دعاءهما بألفاظهما من غير وساطة المتكلم المشير إلى موقفهما وعملهما، وهذا كثير في القرآن، وهو من أجمل السياقات القرآنية، وكلها جميل، وفيه من تمثيل القصة وتقريبه إلى الحس ما لا يوجد ولا شيء من نوع بداعته في التقبل بمثل القول ونحوه.

ب. في عدم ذكر متعلق التقبل، وهو بناء البيت، تواضع في مقام العبودية واستحقار لما عملا به والمعنى ربنا تقبل منا هذا العمل اليسير إنك أنت السميع لدعوتنا، العليم بما نويناه في قلوبنا.

٣. ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾:

٤. وضع هنا مبحثا حول [تحقيق معنى الإسلام في دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام]، خلاصته:

أ. الإسلام في دعاء إبراهيم وإسماعيل ليس هو المعنى المتداول الشائع (الظاهر من الشهادتين والأعمال الدينية)، بل هو معنى أرفع وأرقى، وهو تمام العبودية وتسليم العبد كل ما له إلى ربه، وهو من مقامات الولاية العالية.

ب. الإسلام ذو مراتب: والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١]، حيث أمر إبراهيم بالإسلام وقد كان مسلماً، فالمراد بهذا الإسلام المطلوب غير ما كان عنده من الإسلام الموجود.

ج. الصفات والملكات ليست اختيارية بحسب الحقيقة: الأفعال هي التي تنسب إلى الإنسان وتعد اختيارية له، وأما الصفات والملكات الحاصلة من تكرر صدورها فليست اختيارية بحسب الحقيقة، فمن الجائز أو الواجب أن تنسب إلى الله تعالى، وخاصة إذا كانت من الحسنات، وعلى ذلك جرى القرآن في آيات كثيرة.

د. قوله: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ يدل على أن المراد بالمناسك هي الأفعال العبادية الصادرة منهما، وقوله: ﴿أَرِنَا﴾ بمعنى التسديد والإراءة الحقيقية للفعل، لا مجرد التعليم أو التوفيق، وهذا من قبيل قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾ [الأنبياء: ٧٣]

هـ. قوله: ﴿وَتُبْ عَلَيْنَا﴾ لا يعني التوبة من الذنب بالمعنى المتعارف، لأن إبراهيم وإسماعيل كانا معصومين، بل هي توبة بمعنى الرجوع إلى الله في كل حال، والاستزادة من القرب والزلفى، وهو من مقامات العارفين.

و. الفرق بين مقام التشريع ومقام الدعاء: ما اكتفى به النبي ﷺ من أمته بظاهر الشهادتين هو لحكمة توسعة الشوكة وحفظ النظام الصالح (كالقشر الذي يحفظ اللب)، أما مقام الدعاء والسؤال من الله فالسلطة فيها للحقائق، والغرض متعلق بحق الأمر وصريح القرب والزلفى.

ز. قوله: ﴿أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ إشارة إلى أن المراد حقيقة الإسلام، ولو كان المراد مجرد صدق الاسم لقيل: ﴿أُمَّةً مُسْلِمَةً﴾ دون إضافة ﴿لَكَ﴾

٥. ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ إلخ دعوة للنبي ﷺ، وقد كان ﷺ يقول: (أنا دعوة إبراهيم)

٦. وضع هنا مبحثا حول [حقيق قصة بناء البيت وإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام]، خلاصته:

أ. قصة بناء البيت وردت في القرآن بإجمال، وفصلتها الروايات الواردة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام، وهي تتضمن: إسكان إبراهيم لهاجر وإسماعيل بمكة، وظهور ماء زمزم، ونزول جرهم، ثم أمر الله بإبراهيم ببناء البيت، ورفع القواعد، وإتمام المناسك.

ب. الحجر الأسود والمقام ورد في الروايات أنهما من الجنة، وأن الحجر الأسود كان أشد بياضاً من الثلج فاسودّ بخطايا الناس، وأن المقام بقي فيه أثر قدم إبراهيم، وهذه الروايات وإن كانت آحاداً، لكنها ليست نادرة النظير في أبواب المعارف الدينية، ولا موجب لطرحها من رأس.

ج. الرد على من أنكر هذه الروايات: من زعم أن هذه الروايات خرافات إسرائيلية، فقد أفرط في المناقشة، فالروايات الموصولة إلى مصادر العصمة لا تطرح بمجرد عدم صحة الأسانيد ما لم تخالف العقل أو النقل الصحيح، والقرآن نفسه يثبت أن كل شيء نازل من عند الله، وأن الأشياء لها وجهان: وجه مادي ووجه معنوي (ملكوتي)

د. شرف البيت والحجر: شرف البيت ليس مجرد شرف اعتباري اجتماعي، بل هو شرف معنوي حقيقي ناشئ عن التفضيل الإلهي والنسبة إلى الله، والقرآن يثبت أن للأشياء حقائق معنوية وراء ظواهرها المادية، كما أن الجنة والنار لهما مواد وأشياء من الجنة تنزل إلى الدنيا.

هـ. الأمة المسلمة في دعاء إبراهيم: المراد بالأمة المسلمة في قوله: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ هم أهل العصمة من ذرية إبراهيم، وهم النبي وعترته الطاهرة، وليس جميع من آمن بالنبي، وقد استدل الإمام الصادق عليه السلام على ذلك بقوله: (ففي هذا دلالة على أنه لا يكون الأئمة والأمة المسلمة التي بعث فيها محمد إلا من ذرية إبراهيم)

و. إطلاق أمة محمد: إطلاق أمة محمد على جميع من آمن بدعوته من الاستعمالات المستحدثة بعد نزول القرآن، وإلا فالأمة بمعنى القوم أو الجماعة، وقد تطلق على الواحد كقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾

٧. وضع هنا مبحثا حول [قصة إبراهيم والحج: صورة العبودية والمسير إلى الله]، خلاصته:

أ. قصة إبراهيم مع زوجته وولده إلى أرض مكة، وإسكانهما هناك، وبناء البيت، وذبح إسماعيل، تشكل دورة كاملة من السير العبودي من موطن النفس إلى قرب الرب.

ب. وقائع القصة تحكي سيراً عبودياً من العبد إلى الله، وتشمل آداب السير والطلب والحضور، ورسوم الحب والإخلاص.

ج. الله أمر إبراهيم أن يشرع للناس عمل الحج، وما شرعه كان شعاراً دينياً عند العرب، وجاء الإسلام بتكميله لا بمخالفته.

د. مناسك الحج (الإحرام، الوقوف بعرفات، المبيت بالمشعر، التضحية، رمي الجمرات، السعي، الطواف، الصلاة بالمقام) تحكي قصة إبراهيم وتمثل مواقفه ومواقف أهله.

هـ. العبادات المشروعة هي صور لمواقف الكملين من الأنبياء، وتماثيل تحكي عن مواردهم في مسيرهم إلى القرب من الله، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾

و. في الأخبار شواهد كثيرة على هذا المعنى، يعثر عليها المتتبع البصير.

٥٦. ملة إبراهيم الإسلام، ورغبة من سفه نفسه عنها:

المقطع [٥٦] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠-١٣١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١/ ٣٠٠»:

١. ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾، الرغبة إذا عديت بعن أفادت معنى الإعراض والنفرة، وإذا عديت بفي أفادت: معنى الشوق والميل، وسفه يأتي متعديا ولازما، ولذلك ذكر بعضهم أن قوله: ﴿نَفْسِهِ﴾ مفعول لقوله: سفه، وذكر آخرون أنه تمييز لا مفعول، والمعنى على أي حال: أن الإعراض عن ملة إبراهيم من حماقة النفس، وعدم تمييزها ما ينفعها مما يضرها ومن هذه الآية يستفاد معنى ما ورد في الحديث: أن العقل ما عبد به الرحمن.

٢. ﴿وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا﴾، الاصطفاء أخذ صفوة الشيء وتمييزه عن غيره إذا اختلطا، وينطبق هذا المعنى بالنظر إلى مقامات الولاية على خلوص العبودية وهو أن يجري العبد في جميع شئونه على ما يقتضيه مملوكيته وعبوديته من التسليم الصرف لربه، وهو التحقق بالدين في جميع الشئون فإن الدين لا يشتمل إلا على مواد العبودية في أمور الدنيا والآخرة وتسليم ما يرضاه الله لعبده في جميع أموره كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ﴾، فظهر: أن مقام الاصطفاء هو مقام الإسلام بعينه ويشهد بذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، فإن الظاهر أن الظرف متعلق بقوله: ﴿اصْطَفَيْنَاهُ﴾، فيكون المعنى أن اصطفاءه إنما كان حين قال له ربه: ﴿أَسْلَمَ﴾، فأسلم لله رب العالمين فقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، بمنزلة التفسير لقوله: ﴿اصْطَفَيْنَاهُ﴾

٣. في الكلام التفات من التكلم إلى الغيبة في قوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ﴾، ولم يقل إذ قلنا له

أسلم، والتفات آخر من الخطاب إلى الغيبة في المحكي من قول إبراهيم: ﴿قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، ولم يقل: قال أسلمت لك:

أ. أما الأول، فالنكتة فيه الإشارة إلى أنه كان سرا استسر به ربه إذ أسره إليه فيما خلى به معه فإن للسامع المخاطب اتصالا بالمتكلم فإذا غاب المتكلم عن صفة حضوره انقطع المخاطب عن مقامه وكان بينه وبين ما للمتكلم من الشأن والقصة ستر مضروب، فأفاد أن القصة من مسامرات الأنس وخصائص الخلوة.

ب. وأما الثاني فلأن قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ﴾، يفيد معنى الاختصاص باللطف والاسترسال في المسارة لكن أدب الحضور كان يقتضي من إبراهيم وهو عبد عليه طابع الذلة والتواضع أن لا يسترسل، ولا يعد نفسه مختصا بكرامة القرب متشرفا بحظيرة الأنس، بل يراها واحدا من العبيد الأذلاء المربوبين، فيسلم لرب يستكين إليه جميع العالمين فيقول: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

٤. وضع هنا مبحثا حول [تحقيق مراتب الإسلام والإيمان في القرآن]، خلاصته:

أ. الإسلام والتسليم والاستسلام بمعنى واحد، وهو الانقياد والقبول لما يرد من الله من حكم تكويني (قدر وقضاء) أو تشريعي (أمر ونهي)، وهو ذو مراتب بحسب ترتب الواردات بمراتبها.

ب. المرتبة الأولى من الإسلام: القبول لظواهر الأوامر والنواهي بتلقي الشهادتين لساناً، سواء وافق القلب أو خالفه، ويتعقبها أول مراتب الإيمان (الإذعان القلبي بمضمون الشهادتين إجمالاً)، قال تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾

ج. المرتبة الثانية من الإسلام: التسليم والانقياد القلبي لجل الاعتقادات الحقة التفصيلية وما يتبعها من الأعمال الصالحة، ويتعقبها المرتبة الثانية من الإيمان (الاعتقاد التفصيلي بالحقائق الدينية)، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾

د. المرتبة الثالثة من الإسلام: أن تأنس النفس بالإيمان المذكور وتتخلق بأخلاقه، فتنقاد لها سائر القوى البهيمية والسبعية، ويصبح الإنسان يعبد الله كأنه يراه، ولا يجد في نفسه حرجاً مما قضى الله، ويتعقبها المرتبة الثالثة من الإيمان، قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾

هـ. المرتبة الرابعة من الإسلام: أن يشهد الإنسان أن الملك لله وحده، ولا يملك شيء سواه شيئاً إلا به، ولا رب سواه، وهذا معنى وهبي وإفاضة إلهية لا تأثير لإرادة الإنسان فيه، ويتعقبها المرتبة الرابعة من الإيمان (استيعاب هذا الحال لجميع الأحوال والأفعال)، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾

و. دعاء إبراهيم وإسماعيل: قولهما: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ سؤال للمرتبة الرابعة من الإسلام، وهي التي ليست زمامها بيد الإنسان، بل هي إفاضة إلهية.

ز. الإيمان غير الإيمان: كما أن الإسلام مراتب، فالإيمان أيضاً مراتب، وقد أرشد القرآن المؤمنين إلى الإيمان، كما في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، فالإيمان غير الإيمان.

٥. ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾، الصلاح، وهو اللياقة بوجه ربما نسب في كلامه إلى عمل الإنسان وربما نسب إلى نفسه وذاته، قال تعالى: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾، وقال تعالى: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾، وصلاح العمل وإن لم يرد به تفسير بين من كلامه تعالى غير أنه نسب إليه من الآثار ما يتضح به معناه:

أ. فمنها: أنه صالح لوجه الله، قال تعالى: ﴿صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾

ب. ومنها: أنه صالح لأن يثاب عليه، قال تعالى: ﴿ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾

ج. ومنها: أنه يرفع الكلم الطيب الصاعد إلى الله سبحانه قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾

٦. يستفاد من هذه الآثار المنسوبة إليه أن صلاح العمل معنى تهيؤه ولياقته لأن يلبس لباس الكرامة ويكون عونا ومددا لصعود الكلام الطيب إليه تعالى، قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾، وقال تعالى: ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾، فعطاؤه تعالى بمنزلة الصورة، وصلاح العمل بمنزلة المادة.

٧. أما صلاح النفس والذات فقد قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾، وقال تعالى: ﴿وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي

رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾، وقال تعالى حكاية عن سليمان: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾، وقال تعالى: {وَلُوطاً آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً إلى قوله وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ}

٨. ليس المراد الصلاح لمطلق الرحمة العامة الإلهية الواسعة لكل شيء ولا الخاصة بالمؤمنين على ما يفيده قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾، إذ هؤلاء القوم وهم الصالحون، طائفة خاصة من المؤمنين المتقين، ومن الرحمة ما يختص ببعض دون، بعض قال تعالى: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾، وليس المراد أيضا مطلق كرامة، الولاية وهو تولي الحق سبحانه أمر عبده، فإن الصالحين وإن شرفوا بذلك، وكانوا من الأولياء المكرمين على ما بيناه سابقا في قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، وسيجيء في تفسير الآية لكن هذه أعني الولاية صفة مشتركة بينهم وبين النبيين، والصديقين، والشهداء فلا يستقيم إذن عدهم طائفة خاصة في قبالهم.

٩. نعم الأثر الخاص بالصلاح هو الإدخال في الرحمة، وهو الأمن العام من العذاب كما ورد المعنيان معا في الجنة، قال تعالى: ﴿فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ﴾، أي في الجنة، وقال تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ﴾ أي في الجنة.، وإذا تدبرت قوله تعالى: ﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا﴾، وقوله: ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ حيث نسب الفعل إلى نفسه تعالى لا إلى العبد، ثم تأملت أنه تعالى قصر الأجر والشكر على ما بحذاء العمل والسعي قضيت بأن الصلاح الذاتي كرامة ليست بحذاء العمل والإرادة وربما تبين به معنى قوله تعالى: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا﴾، وهو ما بالعمل، وقوله: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾، وهو أمر غير ما بالعمل على ما سيجيء بيانه إن شاء الله في تفسير قوله تعالى: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا﴾

١٠. إذا تأملت حال إبراهيم ومكانته في أنه كان نبيا مرسلا وأحد أولي العزم من الأنبياء، وأنه إمام، وأنه مقتدى عدة ممن بعده من الأنبياء والمرسلين وأنه من الصالحين بنص قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾، الظاهر في الصلاح المعجل على أن من هو دونه في الفضل من الأنبياء أكرم بهذا الصلاح المعجل وهو عليه السلام مع ذلك كله يسأل اللحوق بالصالحين الظاهر في أن هناك قوما من الصالحين سبقوه وهو يسأل اللحوق بهم فيما سبقوه إليه، وأجيب بذلك في الآخرة كما يحكيه الله تعالى في ثلاثة مواضع من كلامه حيث قال تعالى: ﴿وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ

الصَّالِحِينَ﴾، فإذا تأملت ذلك حق التأمل قضيت بأن الصلاح ذو مراتب بعضها فوق بعض ولم تستبعد لو قرع سمعك أن إبراهيم عليه السلام سأل اللحوق بمحمد ﷺ وآله الطاهرين عليه السلام، فأجيب إلى ذلك في الآخرة لا في الدنيا فإنه عليه السلام يسأل اللحوق بالصالحين، ومحمد ﷺ يدعيه لنفسه، قال تعالى: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾، فإن ظاهر الآية أن رسول الله ﷺ يدعي لنفسه الولاية فالظاهر منه أن رسول الله ﷺ هو المتحقق بالصلاح الذي يدعيه بموجب الآية لنفسه وإبراهيم كان يسأل الله اللحوق بعده من الصالحين يسبقونه في الصلاح فهو هو.

٥٧. وصية إبراهيم ويعقوب لأبنائهما بالإسلام:

المقطع [٥٧] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢-١٣٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١/ ٣٠٦»:

١. ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ﴾، أي وصى بالملة، ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ﴾، النهي عن الموت وهو أمر غير اختياري للإنسان، والتكليف إنما يتعلق بأمر اختياري إنما هو لرجوعه إلى أمر يتعلق بالاختيار، والتقدير احذروا أن يغتالكم الموت في غير حال الإسلام، أي داوموا والزموا الإسلام لئلا يقع موتكم إلا في هذا الحال، وفي الآية إشارة إلى أن الدين هو الإسلام كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾

٢. ﴿وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾، في الكلام إطلاق لفظ الأب على الجد والعم والوالد من غير مصحح للتغليب، وحجة فيما سيأتي إن شاء الله تعالى في خطاب إبراهيم لآزر بالأب.

٣. ﴿إِلَهًا وَاحِدًا﴾، في هذا الإيجاز بعد الإطناب بقوله: ﴿إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ﴾ إلخ دفع لإمكان إبهام اللفظ أن يكون إلهه غير إله آبائه على نحو ما يتخذه الوثنيون من الآلهة الكثيرة.

٤. ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾، بيان للعبادة وأنها ليست عبادة كيفما اتفقت بل عبادة على نهج الإسلام وفي الكلام جملة أن دين إبراهيم هو الإسلام والموروث منه في بني إبراهيم كإسحق ويعقوب وإسمعيل، وفي بني إسرائيل، وفي بني إسمعيل من آل إبراهيم جميعا هو الإسلام لا غير، وهو الذي أتى به إبراهيم من

ربه فلا حجة لأحد في تركه والدعوة إلى غيره.

٥. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي عن سماعة عن الصادق عليه السلام: الإيمان من الإسلام بمنزلة الكعبة الحرام من الحرم، قد يكون في الحرم ولا يكون في الكعبة، ولا يكون في الكعبة حتى يكون في الحرم.

ب. وفيه عن سماعة أيضاً عن الصادق عليه السلام قال: الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله والتصديق برسول الله، به حقنت الدماء، وعليه جرت المناكح والمواريث، وعلى ظاهره جماعة الناس، والإيمان الهدى وما يثبت في القلوب من صفة الإسلام.

• أقول: وفي هذا المضمون روايات أخر، وهي تدل على ما مر بيانه من المرتبة الأولى من الإسلام والإيمان.

ج. وفيه عن البرقي عن عليّ عليه السلام قال: الإسلام هو التسليم، والتسليم هو اليقين.

د. وفيه عن كاهل عن الصادق عليه السلام: لو أن قوماً عبدوا الله وحده لا شريك له، وأقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وحجوا البيت، وصاموا شهر رمضان، ثم قالوا لشيء صنعه الله أو صنعه رسول الله: (ألا صنع بخلاف الذي صنع)، أو وجدوا ذلك في قلوبهم، لكانوا بذلك مشركين، الحديث.

• أقول: والحديثان يشيران إلى المرتبة الثالثة من الإسلام والإيمان.

هـ. وفي البحار عن إرشاد الديلمي ـ وذكر سندين لهذا الحديث، وهو من أحاديث المعراج ـ وفيه: قال الله سبحانه: يا أحمد، هل تدري أي عيش أهنى، وأي حياة أبقى؟ قال: اللهم لا، قال: أما العيش الهنيء، فهو الذي لا يفتر صاحبه عن ذكري، ولا ينسى نعمتي، ولا يجهل حقي، يطلب رضائي في ليله ونهاره، وأما الحياة الباقية، فهي التي يعمل لنفسه حتى تهون عليه الدنيا، وتصغر في عينه، وتعظم الآخرة عنده، ويؤثر هواي على هواه، ويبتغي مرضاتي، ويعظم حق نعمتي، ويذكر عملي به، ويراقبني بالليل والنهار عند كل سيئة أو معصية، وينقي قلبه عن كل ما أكره، ويبغض الشيطان ووساوسه، ولا يجعل لإبليس على قلبه سلطاناً وسبيلاً، فإذا فعل ذلك أسكنت قلبه حباً، حتى أجعل قلبه وفراغه واشتغاله وهمه وحديثه من النعمة التي أنعمت بها على أهل محبتي من خلقي، وأفتح عين قلبه وسمعه، حتى يسمع بقلبه وينظر بقلبه إلى جلالي وعظمتي، وأضيق عليه الدنيا، وأبغض إليه ما فيها من اللذات، وأحذره من الدنيا

وما فيها كما يحذر الراعي على غنمه مراتع الهلكة، فإذا كان هكذا يفر من الناس فراراً، وينقل من دار الفناء إلى دار البقاء، ومن دار الشيطان إلى دار الرحمن، يا أحمد، ولأزيننه بالهيبة والعظمة، فهذا هو العيش الهنيء والحياة الباقية، وهذا مقام الراضين، فمن عمل برضاي ألزمه ثلاث خصال: أعرفه شكراً لا يخالطه الجهل، وذكراً لا يخالطه النسيان، ومحبة لا يؤثر على محبتي محبة المخلوقين، فإذا أحبني أحببته، وأفتح عين قلبه إلى جلالي، ولا أخفي عليه خاصة خلقي، وأناجيه في ظلم الليل ونور النهار، حتى ينقطع حديثه مع المخلوقين ومجالسته معهم، وأسمعه كلامي وكلام ملائكتي، وأعرفه السر الذي سترته عن خلقي، وألبسه الحياء حتى يستحيي منه الخلق كلهم، ويمشي على الأرض مغفوراً له، وأجعل قلبه واعياً وبصيراً، ولا أخفي عليه شيئاً من جنة ولا نار، وأعرفه ما يمر على الناس في القيامة من الهول والشدة، وما أحاسب به الأغنياء والفقراء والجهال والعلماء، وأنومه في قبره، وأنزل عليه منكراً ونكيراً حتى يسألاه، ولا يرى غم الموت وظلمة القبر واللحد وهول المطلع، ثم أنصب له ميزانه، وأنشر ديوانه، ثم أضع كتابه في يمينه فيقرأه منشوراً، ثم لا أجعل بيني وبينه ترجماناً، فهذه صفات المحبين، يا أحمد، اجعل همك هماً واحداً، واجعل لسانك لساناً واحداً، واجعل بدنك حياً لا يغفل أبداً؛ من يغفل عني لم أبال في أي واد هلك.

و. وفي البحار عن الكافي والمعاني ونوادر الراوندي بأسانيد مختلفة عن الصادق والكاظم عليهما السلام ـ واللفظ المنقول ههنا للكافي ـ قال: استقبل رسول الله ﷺ حارثة بن مالك بن النعمان الأنصاري، فقال له: كيف أنت يا حارثة بن مالك النعماني؟ فقال: يا رسول الله، مؤمن حقاً، فقال له رسول الله: لكل شيء حقيقة، فما حقيقة قولك؟ فقال: يا رسول الله، عزفت نفسي عن الدنيا، فأسهرت ليلي، وأظمأت هواجري، وكأني أنظر إلى عرش ربي وقد وضع للحساب، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون في الجنة، وكأني أسمع عواء أهل النار في النار، فقال رسول الله ﷺ: عبد نور الله قلبه، أبصرت فاثبت.

• أقول: والروايتان تحومان حول المرتبة الرابعة من الإسلام والإيمان المذكورتين، وفي خصوصيات معناهما روايات كثيرة متفرقة، سنورد جملة منها في تضاعيف الكتاب إن شاء الله تعالى، والآيات تؤيدها على ما سيجيء بيانها، واعلم أن لكل مرتبة من مراتب الإسلام والإيمان معنى من الكفر والشرك يقابله، ومن المعلوم أيضاً أن الإسلام والإيمان كلما دق معناهما ولطف مسلكهما، صعب التخلص مما يقابلهما من معنى الكفر أو الشرك، ومن المعلوم أيضاً أن كل مرتبة من مراتب الإسلام والإيمان الدانية لا تنافي الكفر

أو الشرك من المرتبة العالية وظهور آثارهما فيها، وهذان أصلان، ويتفرع عليهما: أن للآيات القرآنية بواطن تنطبق على موارد لا تنطبق عليها ظواهرها، وليكن هذا عندك على إجماله حتى يأتيك تفصيله.

ز. وفي تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥]، قال عليه السلام: النظر إلى رحمة الله.

ح. وفي المجمع عن النبي ﷺ يقول الله: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

• أقول: والروايتان قد اتضح معناهما عند بيان معنى الصلاح، والله الهادي.

ط. وفي تفسير العياشي في قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾ [البقرة: ١٣٣] الآية، عن الباقر عليه السلام أنها جرت في القائم.

• أقول: قال في الصافي: لعل مراده أنها في قائم آل محمد، فكل قائم منهم يقول ذلك حين موته لبنيه، ويجيبونه بما أجابوا به.

٥٨. الدعوة إلى ملة إبراهيم الحنيف والإيمان بجميع الرسل:

المقطع [٥٨] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ [البقرة: ١٣٥-١٣٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١/ ٣١٠»:

١. ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾:

أ. لما بين تعالى أن الدين الحق الذي كان عليه أولاد إبراهيم من إسماعيل وإسحاق ويعقوب وأولاده كان هو الإسلام الذي كان عليه إبراهيم حنيفا، استنتج من ذلك أن الاختلافات والانشعابات التي يدعو إليها فرق المنتحلين من اليهود والنصارى، أمور اخترعتها هوساتهم، ولعبت بها أيديهم لكونهم في شقاق، فتقطعوا بذلك طوائف وأحزابا دينية، وصبغوا دين الله سبحانه، وهو دين التوحيد ودين

الوحدة، بصبغة الأهواء والأغراض والمطامع، مع أن الدين واحد كما أن الإله المعبود بالدين واحد وهو دين إبراهيم، وبه فليتمسك المسلمون وليتركوا شقاق أهل الكتاب.

ب. من طبيعة هذه الحياة الأرضية الدنيوية التغير والتحول في عين الجري والاستمرار كنفس الطبيعة التي هي كالمادة لها، ويوجب ذلك أن تتغير الرسوم والآداب والشعائر القومية بين طوائف الملل وشعباتها، وربما يوجب ذلك تغييرا وانحرافا في المراسم الدينية، وربما يوجب دخول ما ليس من الدين في الدين، أو خروج ما هو منه والأغراض والغايات الدنيوية ربما تحل محل الأغراض الدينية الإلهية (وهي بلية الدين)، وعند ذلك ينصبغ الدين بصبغة القومية، فيدعو إلى هدف دون هدفه الأصلي، ويؤدب الناس غير أدبه الحقيقي، فلا يلبث حتى يعود المنكر (وهو ما ليس من الدين)، معروفا يتعصب له الناس لموافقته هوساتهم وشهواتهم، والمعروف منكرا ليس له حام يحميه، ولا واق يقيه، ويئول الأمر إلى ما نشاهده اليوم.

ج. بالجملة فقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾، إجمال تفصيل معناه: (وقالت اليهود كونوا هودا تهتدوا، وقالت النصارى كونوا نصارى تهتدوا)، كل ذلك لتشعبهم وشقاقهم.

٢. ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، جواب عن قولهم أي قل، بل نتبع ملة إبراهيم حنيفا فإنها الملة الواحدة التي كان عليها جميع أنبيائكم، إبراهيم، فمن دونه، وما كان صاحب هذه الملة وهو إبراهيم من المشركين ولو كان في ملته هذه الانشعابات، وهي الضمائم التي ضمها إليها المبتدعون، من الاختلافات لكان مشركا بذلك، فإن ما ليس من دين الله لا يدعو إلى الله سبحانه، بل إلى غيره وهو الشرك، فهذا دين التوحيد الذي لا يشتمل على ما ليس من عند الله تعالى.

٣. ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾، لما حكى ما يأمره به اليهود والنصارى من اتباع مذهبهم، ذكر ما هو عنده من الحق {والحق يقول}، وهو الشهادة على الإيمان بالله، والإيمان بما عند الأنبياء، من غير فرق بينهم، وهو الإسلام وخص الإيمان بالله بالذكر وقدمه وأخرجه من بين ما أنزل على الأنبياء لأن الإيمان بالله فطري، لا يحتاج إلى بينة النبوة، ودليل الرسالة.

٤. ثم ذكر سبحانه ما أنزل إلينا وهو القرآن أو المعارف القرآنية وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب، ثم ذكر ما أوتي موسى وعيسى وخصهما بالذكر لأن المخاطبة مع اليهود والنصارى وهم يدعون إليهما فقط، ثم ذكر ما أوتي النبيون من ربهم، ليشمل الشهادة جميع الأنبياء فيستقيم قوله بعد

ذلك: لا نفرق بين أحد منهم.

٥. اختلاف التعبير في الكلام، حيث عبر عما عندنا وعند إبراهيم وإسحاق ويعقوب بالإنزال وعما عند موسى وعيسى والنبيين بالإيتاء وهو الإعطاء، لعل الوجه فيه أن الأصل في التعبير هو الإيتاء، كما قال تعالى بعد ذكر إبراهيم، ومن بعده ومن قبله من الأنبياء في سورة الأنعام: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾، لكن لفظ الإيتاء ليس بصريح في الوحي والإنزال كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾، وقال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾، ولما كان كل من اليهود والنصارى يعدون إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط من أهل ملتهم، فاليهود من اليهود، والنصارى من النصارى، واعتقادهم أن الملة الحق من النصرانية، أو اليهودية، هي ما أوتيه موسى وعيسى، فلو كان قيل: وما أوتي إبراهيم وإسماعيل لم يكن بصريح في كونهم بأشخاصهم صاحب ملة بالوحي والإنزال واحتمل أن يكون ما أوتوه، هو الذي أوتيه موسى وعيسى نسب إليهم بحكم التبعية كما نسب إيتاؤه إلى بني إسرائيل فلذلك خص إبراهيم ومن عطف عليه باستعمال لفظ الإنزال، وأما النبيون قبل إبراهيم فليس لهم فيهم كلام حتى يوهم قوله: وما أوتي النبيون شيئا يجب دفعه.

٦. ﴿وَالْأَسْبَاطِ﴾:

أ. الأسباط في بني إسرائيل كالقبائل في بني إسماعيل والسبط كالقبيلة الجماعة يجتمعون على أب واحد، وقد كانوا اثنتي عشرة أسباطا أمما وكل واحدة منهم تنتهي إلى واحد من أولاد يعقوب وكانوا اثني عشر، فخلف كل واحد منهم أمة من الناس.

ب. إن كان المراد بالأسباط الأمم والأقوام فنسبة الإنزال إليهم لاشتمالهم على أنبياء من سبطهم، وإن كان المراد بالأسباط الأشخاص كانوا أنبياء أنزل إليهم الوحي وليسوا بإخوة يوسف لعدم كونهم أنبياء، ونظير الآية قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى﴾

٧. ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾، الإتيان بلفظ المثل مع كون أصل المعنى، فإن آمنوا بما آمنتم به، لقطع عرق الخصام والجدال، فإنه لو قيل لهم (أن آمنوا بما آمنا به) أمكن أن يقولوا كما قالوا، بل نؤمن بما أنزل علينا ونكفر بما وراءه، لكن لو قيل لهم، إنا آمنا بما لا يشتمل إلا على الحق، فآمنوا أنتم بما يشتمل على الحق مثله، لم يجدوا طريقا للمراء والمكابرة، فإن الذي بيدهم لا يشتمل على صفوة الحق.

٨. ﴿فِي شِقَاقٍ﴾، الشقاق النفاق والمنازعة والمشاجرة والافتراق.

٩. ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾، وعد لرسول الله بالنصرة عليهم، وقد أنجز وعده وسيتم هذه النعمة للأمة الإسلامية إذا شاء، واعلم: أن الآية معترضة بين الآيتين السابقة واللاحقة.

١٠. ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾، الصبغة بناء نوع من الصبغ، أي هذا الإيمان المذكور صبغة إلهية لنا، وهي أحسن الصبغ لا صبغة اليهودية والنصرانية بالتفرق في الدين، وعدم إقامته.

١١. ﴿وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾، في موضع الحال، وهو كبيان العلة لقوله: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ﴾

١٢. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي وتفسير العياشي عن الباقر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ١٣٦] الآية، قال: إنما عنى بها علياً وفاطمة والحسن والحسين، وجرت بعدهم في الأئمة، الحديث.

• أقول: ويستفاد ذلك من وقوع الخطاب في ذيل دعوة إبراهيم: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٨]، ولا ينافي ذلك توجيه الخطاب إلى عامة المسلمين وكونهم مكلفين بذلك؛ فإن لهذه الخطابات عموماً وخصوصاً بحسب مراتب معناها، على ما مر في الكلام على الإسلام والإيمان ومراتبهما.

ب. وفي تفسير القمي عن أحدهما، وفي المعاني عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٣٨] الآية، قال: الصبغة هي الإسلام.

• أقول: وهو الظاهر من سياق الآيات.

ج. وفي الكافي والمعاني عن الصادق عليه السلام قال: صبغ المؤمنين بالولاية في الميثاق.

• أقول: وهو من باطن الآية على ما سنبين معناه، ونبين أيضاً معنى الولاية ومعنى الميثاق إن شاء الله العزيز.

د. في تفسير العياشي في قوله تعالى: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [البقرة: ١٣٥] الآية، عن الصادق عليه السلام قال: إن الحنيفية في الإسلام.

هـ. وعن الباقر عليه السلام: ما أبقت الحنيفية شيئاً، حتى أن منها قص الشارب، وقلم الأظفار، والختان.

و. وفي تفسير القمي: أنزل الله على إبراهيم الحنيفية، وهي الطهارة، وهي عشرة: خمسة في الرأس

وخمسة في البدن، فأما التي في الرأس: فأخذ الشارب، وإعفاء اللحى، وطم الشعر، والسواك، والخلال، وأما التي في البدن: فأخذ الشعر من البدن، والختان، وقلم الأظفار، والغسل من الجنابة، والطهور بالماء، وهي الحنيفية الطاهرة التي جاء بها إبراهيم، فلم تنسخ ولا تنسخ إلى يوم القيامة.

• أقول: (طم الشعر) أي جزه وتوفيره، وفي معنى الرواية أو ما يقرب منه أحاديث كثيرة جداً روتها الفريقان في كتبهم.

٥٩. المحاجة في الله وادعاء اليهودية والنصرانية للأنبياء:

المقطع [٥٩] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٩-١٤١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١/ ٣١٤»:

١. ﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ﴾، إنكار لمحاجة أهل الكتاب، المسلمين في الله سبحانه وقد بين وجه الإنكار، وكون محاجتهم لغوا وباطلا، بقوله: {وَهُوَرَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ}، وبيانه: أن محاجة كل تابعين في متبوعها ومخاصمتها فيه إنما تكون لأحد أمور ثلاثة:

أ. إما لاختصاص كل من التابعين بمتبوع دون متبوع الآخر، فيريدان بالمحاجة كل تفضيل متبوعه وربه على الآخر، كالمحاجة بين وثني ومسلم.

ب. وإما لكون كل واحد منهما أو أحدهما ويريد مزيد الاختصاص به، وإبطال نسبة رفيقه، أو قربه أو ما يشبه ذلك، بعد كون المتبوع واحدا.

ج. وإما لكون أحدهما ذا خصائص وخصال لا ينبغي أن ينتسب إلى هذا المتبوع وفعاله ذاك الفعال، وخصاله تلك الخصال لكونه موجبا، لهتكه أو سقوطه أو غير ذلك.

٢. فهذه علل المحاجة والمخاصمة بين كل تابعين، والمسلمون وأهل الكتاب إنما يعبدون إلها واحدا، وأعمال كل من الطائفتين لا تزاحم الأخرى شيئا، والمسلمون مخلصون في دينهم لله، فلا سبب يمكن أن يتشبث به أهل الكتاب في محاجتهم، ولذلك أنكر عليهم محاجتهم أولا، ثم نفى واحدا واحدا

من أسبابها الثلاثة.

٣. ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ﴾ إلى قوله ﴿كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ وهو قول كل من الفريقين، أن إبراهيم ومن ذكر بعده منهم، ولازم ذلك كونهم هودا أو نصارى أو قولهم صريحا أنهم كانوا هودا أو نصارى، كما يفيده ظاهر قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، وقوله تعالى ﴿قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾، فإن الله أخبرنا وأخبركم في الكتاب أن موسى وعيسى وكتابيهما بعد إبراهيم ومن ذكر معه.

٤. ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ﴾، أي كتم ما تحمل شهادة أن الله أخبر بكون تشريع اليهودية أو النصرانية بعد إبراهيم ومن ذكر معه، فالشهادة المذكورة في الآية، شهادة تحمل، أو المعنى كتم شهادة الله على كون هؤلاء قبل التوراة والإنجيل، فالشهادة شهادة أداء، المتعين هو المعنى الأول.

٥. ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾، أي أن الغور في الأشخاص وأنهم ممن كانوا لا ينفع حالكم، ولا يضركم السكوت عن المحاجة والمجادلة فيهم، والواجب عليكم الاشتغال بما تسألون غدا عنه.

٦. تكرار الآية مرتين لكونهم يفرطون في هذه المحاجة التي لا تنفع لحالهم شيئا، وخصوصا مع علمهم بأن إبراهيم كان قبل اليهودية والنصرانية، وإلا فالبحث عن حال الأنبياء، والرسل بما ينفع البحث فيه كمزايا رسالاتهم وفضائل نفوسهم الشريفة مما ندب إليه القرآن حيث يقص قصصهم ويأمر بالتدبر فيها.

٦٠. تحويل القبلة واختبار الإيمان وجعل الأمة وسطاً:

المقطع [٦٠] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٢-١٤٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١/ ٣١٧»:

١. ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾:

أ. هذا تمهيد ثان لما سيأمر تعالى به من اتخاذ الكعبة قبلة وتعليم للجواب عما سيعترض به السفهاء من الناس وهم اليهود تعصبا لقبلتهم التي هي بيت المقدس ومشركو العرب الراصدون لكل أمر جديد يحتمل الجدال والخصام، وقد مهد لذلك أولا بما ذكره الله تعالى من قصص إبراهيم وأنواع كرامته على الله سبحانه وكرامة ابنه إسماعيل ودعوتهما للكعبة ومكة وللنبي والأمة المسلمة وبنائهما البيت والأمر بتطهيره للعبادة.

ب. من المعلوم أن تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة من أعظم الحوادث الدينية وأهم التشريعات التي قوبل به الناس بعد هجرة النبي إلى المدينة وأخذ الإسلام في تحقيق أصوله ونشر معارفه وبث حقائقه، فما كانت اليهود وغيرهم تسكت وتستريح في مقابل هذا التشريع، لأنهم كانوا يرون أنه يبطل واحدا من أعظم مفاخرهم الدينية وهو القبلة واتباع غيرهم لهم فيها وتقدمهم على من دونهم في هذا الشعار الديني، على أن ذلك تقدم باهر في دين المسلمين، لجمعه وجوههم في عباداتهم ومناسكهم الدينية إلى نقطة واحدة يخلصهم من تفرق الوجوه في الظاهر وشتات الكلمة في الباطن واستقبال الكعبة أشد تأثيرا وأقوى من أمثال الطهارة والدعاء وغيرهما في نفوس المسلمين، عند اليهود ومشركي العرب وخاصة عند اليهود كما يشهد به قصصهم المقتصة في القرآن، فقد كانوا أمة لا يرون لغير المحسوس من عالم الطبيعة أصالة ولا لغير الحس وقعا، إذا جاءهم حكم من أحكام الله معنوي قبلوه من غير تكلم عليه وإذا جاءهم أمر من ربهم صوري متعلق بالمحسوس من الطبيعة كالقتال والهجرة والسجدة وخضوع القول وغيرها قابلوه بالإنكار وقاوموا عليه ودونه أشد المقاومة،وبالجملة فقد أخبر الله سبحانه عما سيعترضون به على تحويل القبلة وعلم رسوله ما ينبغي أن يجابوا ويقطع به قولهم.

ج. اعتراضهم هو أن التحول عن قبلة شرعها الله سبحانه للماضين من أنبيائه إلى بيت، ما كان به شيء من هذا الشرف الذاتي ما وجهه؟ فإن كان بأمر من الله فإن الله هو الذي جعل بيت المقدس قبلة فكيف ينقض حكمه وينسخ ما شرعه، واليهود ما كانت تعتقد النسخ (كما تقدم في آية النسخ) وإن كان بغير أمر الله ففيه الانحراف عن مستقيم الصراط والخروج من الهداية إلى الضلال وهو تعالى وإن لم يذكر في كلامه هذا الاعتراض إلا أن ما أجاب به يلوح ذلك، وأما الجواب: فهو أن جعل بيت من البيوت كالكعبة أو بناء من الأبنية أو الأجسام كبيت المقدس، أو الحجر الواقع فيه قبلة ليس لاقتضاء ذاتي منه يستحيل التعدي

عنه أو عدم إجابة اقتضائه حتى يكون البيت المقدس في كونه قبلة لا يتغير حكمه ولا يجوز إلغاؤه، بل جميع الأجسام والأبنية وجميع الجهات التي يمكن أن يتوجه إليه الإنسان في أنها لا تقتضي حكما ولا يستوجب تشريعا على السواء وكلها لله يحكم فيها ما يشاء وكيف يشاء ومتى يشاء، وما حكم به من حكم فهو لهداية الناس على حسب ما يريد من صلاحهم وكمالهم الفردي والنوعي، فلا يحكم إلا ليهدي به ولا يهدي إلا إلى ما هو صراط مستقيم إلى كمال القوم وصلاحهم.

٢. ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ﴾، أراد بهم اليهود والمشركين من العرب ولذلك عبر عنهم بالناس وإنما سفههم لعدم استقامة فطرتهم وثقوب رأيهم في أمر التشريع، والسفاهة عدم استقامة العقل وتزلزل الرأي.

٣. ﴿مَا وَلَّاهُمْ﴾، تولية الشيء أو المكان جعله قدام الوجه وأمامه كالاستقبال، قال تعالى ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾، الآية والتولية عن الشيء صرف الوجه عنه كالاستدبار ونحوه، والمعنى ما الذي صرفهم أو صرف وجههم عن القبلة التي كانوا عليها وهو بيت المقدس الذي كان يصلي إليه النبي والمسلمون أيام إقامته بمكة وعدة شهور بعد هجرته إلى المدينة وإنما نسبوا القبلة إلى المسلمين مع أن اليهود أقدم في الصلاة إليها ليكون أوقع في إيجاد التعجب وأوجب للاعتراض، وإنما قيل ما وليهم عن قبلتهم ولم يقل ما ولى النبي والمسلمين لما ذكرنا من الوجه، فلو قيل ما ولى النبي والمسلمين عن قبلة اليهود لم يكن التعجب واقعا موقعه وكان الجواب عنه ظاهرا لكل سامع بأدنى تنبه.

٤. ﴿قُلْ للهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾، اقتصر من بين الجهات بهاتين لكونهما هما المعنيتين لسائر الجهات الأصلية والفرعية كالشمال والجنوب وما بين كل جهتين من الجهات الأربعة الأصلية، والمشرق والمغرب جهتان إضافيتان تتعينان بشروق الشمس أو النجوم وغروبهما، يعمان جميع نقاط الأرض غير نقطتين موهومتين هما نقطتا الشمال والجنوب الحقيقيتان، ولعل هذا هو الوجه في وضع المشرق والمغرب موضع الجهات.

٥. ﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، تنكير الصراط لأن الصراط يختلف باختلاف الأمم في استعداداتها للهداية إلى الكمال والسعادة.

٦. وضع هنا مبحثا حول [تحقيق معنى الأمة الوسط والشهادة في القرآن]، خلاصته:

أ. الآية الكريمة ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، تربط بين جعل الأمة وسطاً، وغاية ذلك وهي الشهادة على الناس، وشهادة الرسول عليهم.

ب. الوسطية في الآية ليست هي التوسط بين طرفي الإفراط والتفريط (كما فسره بعض المفسرين بكون الأمة جامعة بين الكمال الجسماني والروحاني)، بل هي التوسط بين الرسول والناس، بأن تكون الأمة متصلة بالرسول من جهة، ومتصلة بالناس من جهة أخرى، فتشهد عليهم بأعمالهم.

ج. الشهادة في القرآن حقيقة قرآنية تكرر ذكرها، وهي شهادة على أعمال الأمم، وعلى تبليغ الرسل أيضاً، وهي لا تختص بالآخرة، بل تكون في الدنيا أيضاً، كما قال عيسى عليه السلام: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ [المائدة: ١١٧]

د. الشهادة على الأعمال لا تنالها جميع الأمة، بل هي كرامة خاصة للأولياء الطاهرين منهم، الذين هم تحت ولاية الله، وأصحاب الصراط المستقيم، وأما غيرهم من المتوسطين أو الجفاة، فليس لهم ذلك، وقد نسب وصف البعض إلى الكل، كما في قوله: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٤٧]، مع أن الفضيلة ليست لكل فرد.

هـ. قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [الحديد: ١٩]، يدل على أن الله سيلحقهم بالشهداء يوم القيامة، ولم ينالوه في الدنيا، والآية مطلقة تشمل جميع المؤمنين من جميع الأمم، فلا تختص بهذه الأمة.

و. ارتباط الآية بدعوة إبراهيم عليه السلام: الوسطية والشهادة من شئون الأمة المسلمة التي دعا لها إبراهيم بقوله: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ [البقرة: ١٢٨]، وقد استجاب الله دعوته، وجعلهم مسلمين، فرفع عنهم الحرج في الدين، وأودع الرسول في قلوبهم العلم والحكمة، فصاروا أمة مسلمة خالصة في عبوديتها، وللرسول فيها التقدم والتربية، ولهم التوسط باللحوق به.

ز. الشهادة على الأعمال لا يختص بها الشهداء من الناس، بل كل ما له تعلق بالعمل (كالمكان والزمان، والملائكة، والجوارح، والكتاب، والدين، والقلب) فله فيه شهادة، ولكل منها نحو من الحياة الشاعرة بها، وليس من اللازم أن تكون الحياة في كل شيء سنخاً واحداً.

٧. المراد بقوله ﴿لِنَعْلَمَ﴾: إما علم الرسل والأنبياء مثلا، لأن العظماء يتكلمون عنهم وعن أتباعهم، كقول الأمير، قتلنا فلانا وسجنا فلانا، وإنما قتله وسجنه أتباعه لا نفسه، وإما العلم العيني الفعلي منه تعالى الحاصل مع الخلقة والإيجاد، دون العلم قبل الإيجاد.

٨. الانقلاب على العقبين كناية عن الإعراض، فإن الإنسان، وهو منتصب على عقبيه، إذا انقلب من جهة، إلى جهة انقلب على عقبيه، فجعل كناية عن الإعراض نظير قوله ﴿وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ﴾، وظاهر الآية أنه دفع لما يختلج في صدور المؤمنين: من تغيير القبلة ونسخها، ومن جهة الصلوات التي صلوها إلى القبلة، ما شأنها؟ ويظهر من ذلك أن المراد بالقبلة التي كان رسول الله عليها، هو بيت المقدس الكعبة، فلا دليل على جعل بيت المقدس قبلة مرتين، وجعل الكعبة قبلة مرتين، إذ لو كان المراد من القبلة في الآية الكعبة كان لازم ذلك ما ذكر.

٩. بالجملة كان من المترقب أن يختلج في صدور المؤمنين أنه لما كان من المقدر أن يستقر القبلة بالآخرة على الكعبة:

أ. أولا: ما هو السبب في جعل بيت المقدس قبلة؟ فبين سبحانه أن هذه الأحكام والتشريعات ليست إلا لأجل مصالح تعود إلى تربية الناس وتكميلهم، وتمحيص المؤمنين من غيرهم، وتمييز المطيعين من العاصين، والمنقادين من المتمردين، والسبب الداعي إلى جعل القبلة السابقة في حقكم أيضا هذا السبب بعينه، فالمراد بقوله ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ﴾، إلا لنميز من يتبعك، والعدول من لفظ الخطاب إلى الغيبة لدخالة صفة الرسالة في هذا التميز، والمراد بجعل القبلة السابقة: جعلها في حق المسلمين، وإن كان المراد أصل جعل بيت المقدس قبلة فالمراد مطلق الرسول، والكلام على رسله من غير التفات، غير أنه بعيد من الكلام بعض البعد.

ب. ثانيا: أن الصلوات التي كان المسلمون صلوها إلى بيت المقدس كيف حالها، وقد صليت إلى غير القبلة؟ والجواب: أن القبلة قبلة ما لم تنسخ، وأن الله سبحانه إذا نسخ حكما رفعه من حين النسخ، لا من أصله، لرأفته ورحمته بالمؤمنين، وهذا ما أشار إليه بقوله: {وَما كانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمانَكُمْ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوف رَحِيمٌ}، والفرق بين الرأفة والرحمة، بعد اشتراكهما في أصل المعنى، أن الرأفة يختص بالمبتلى المفتاق، والرحمة أعم.

١٠. وضع هنا مبحثا حول [تحديد القبلة في الإسلام: التطور العلمي من الظن إلى التحقيق]، خلاصته:

أ. تشريع القبلة في الإسلام جعل الناس بحاجة إلى تحديد جهتها، وكان الأمر في البداية بالظن والتخمين، ثم تطور بالاستعانة بالرياضيات.

ب. استخدم العلماء الجداول الجغرافية (الزيجات) لاستخراج انحراف مكة عن نقطة الجنوب في كل بلد، باستخدام حساب الجيوب والمثلثات.

ج. استُعملت الآلة المغناطيسية (الحك) لتسريع التعيين، لكنها لا تخلو من نقص لعدم تطابق القطبين المغناطيسي والجغرافي.

د. الشيخ السردار الكابلي صحح حساب الطول والعرض للمدينة، وأثبت أن قبلة محراب النبي ﷺ في مسجده منطبقة على الحساب الصحيح، وهي كرامة نبوية.

هـ. المهندس عبد الرزاق البغائري وضع جداول لقبلة أكثر من ١٥٠٠ بقعة من بقاع الأرض.

و. المهندس حسين علي رزم آرا حلّ معضلة التفاوت بين القطبين المغناطيسي والجغرافي، واخترع حكاً جديداً لتحديد القبلة بدقة.

١١. وضع هنا مبحثا حول [القبلة في الإسلام: رمز التوحيد ووحدة الأمة]، خلاصته:

أ. الاجتماع الإنساني نشأ عن إلهام فطري من الله، واستشعر الإنسان بالحاجة إلى التعاون، ثم أُلهِم بالعلوم والإدراكات التي تربطه بأفعاله وحوائجه، كاعتقاد الحسن والقبح والرئاسة والملك والمعاملات.

ب. التوجه العبادي إلى الله المنزه عن المادة لا بد أن يكون على سبيل التمثيل، بأن تمثل هيئات الأفعال (كالسجود والركوع والطواف) للتوجهات القلبية.

ج. استقبال المعبود هو روح العبادة، وبدونه لا حياة لها، والتمثيل ضروري لكمالها وثباتها.

د. الوثنيون كانوا يستقبلون آلهتهم، لكن الإسلام جعل الكعبة قبلة، وأمر باستقبالها في الصلاة، ونهى عن استقبالها واستدبارها في حالات أخرى.

هـ. القبلة تحفظ للإنسان ذكر ربه في جميع أحواله، وتذكرهم بوحدتهم الفكرية وارتباط جمعهم.

و. القبلة تعطي الاجتماع أرقى صور الوحدة، وتحفظ وحدة الدين وشوكة الجمع، حتى بعد افتراق

المذاهب.

١٢. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع عن القمي في تفسيره في قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ﴾ [البقرة: ١٤٢] الآية، عن الصادق عليه السلام قال: تحولت القبلة إلى الكعبة بعد ما صلى النبي ﷺ بمكة ثلاث عشرة سنة إلى بيت المقدس، وبعد مهاجرته إلى المدينة صلى إلى بيت المقدس سبعة أشهر، قال: ثم وجهه الله إلى مكة، وذلك أن اليهود كانوا يعيرون على رسول الله، يقولون: أنت تابع لنا تصلي إلى قبلتنا، فاغتم رسول الله من ذلك غماً شديداً، وخرج في جوف الليل ينظر إلى آفاق السماء، ينتظر من الله في ذلك أمراً، فلما أصبح وحضر وقت صلاة الظهر كان في مسجد بني سالم، وقد صلى من الظهر ركعتين، فنزل جبرئيل فأخذ بعضديه وحوله إلى الكعبة، وأنزل عليه: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٤٤]، فكان قد صلى ركعتين إلى بيت المقدس وركعتين إلى الكعبة، فقالت اليهود والسفهاء: ﴿مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ [البقرة: ١٤٢]

• أقول: والروايات الواردة من طرق العامة والخاصة كثيرة مودعة في جوامع الحديث قريبة المضامين، وقد اختلف في تاريخ الواقعة، وأكثرها ـ وهو الأصح ـ أنها كانت في رجب السنة الثانية من الهجرة، الشهر السابع عشر منها، وسيجيء بعض ما يتعلق بالمقام في بحث على حدة إن شاء الله.

• وعن طرق أهل السنة والجماعة في شهادة هذه الأمة على الناس، وشهادة النبي عليهم: أن الأمم يوم القيامة يجحدون تبليغ الأنبياء، فيطالب الله الأنبياء بالبينة على أنهم قد بلغوا ـ وهو أعلم ـ فيؤتى بأمة محمد، فيشهدون، فتقول الأمم: من أين عرفتم؟ فيقولون: عرفنا ذلك بإخبار الله تعالى في كتابه الناطق على لسان نبيه الصادق، فيؤتى بمحمد، ويسأل عن حال أمته، فيزكيهم ويشهد بعدالتهم، وذلك قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ [النساء: ٤١]

• أقول: ما يشتمل عليه هذا الخبر ـ وهو مؤيد بأخبار أخر نقلها السيوطي في الدر المنثور وغيره ـ من تزكية رسول الله لأمته وتعديله إياهم، لعله يراد به تعديله لبعضهم دون جميعهم، وإلا فهو مدفوع بالضرورة الثابتة من الكتاب والسنة، وكيف تصحح أو تصوب هذه الفجائع التي لا تكاد توجد، ولا أنموذجة منها في واحدة من الأمم الماضية؟ وكيف يزكى ويعدل فراعنة هذه الأمة وطواغيتها؟ فهل ذلك

إلا طعن في الدين الحنيف، ولعب بحقائق هذه الملة البيضاء؟ على أن الحديث مشتمل على إمضاء الشهادة النظرية دون شهادة التحمل.

ب. وفي المناقب في هذا المعنى عن الباقر عليه السلام: ولا يكون شهداء على الناس إلا الأئمة والرسل، وأما الأمة فغير جائز أن يستشهدها الله وفيهم من لا تجوز شهادته على حزمة بقل.

ج. وفي تفسير العياشي عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣] الآية: فإن ظننت أن الله عنى بهذه الآية جميع أهل القبلة من الموحدين، أفترى إن من لا تجوز شهادته في الدنيا على صاع من تمر يطلب الله شهادته يوم القيامة، ويقبلها منه بحضرة جميع الأمم الماضية؟ كلا! لم يعن الله مثل هذا من خلقه، يعني الأمة التي وجبت لها دعوة إبراهيم: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وهم الأمة الوسطى، وهم خير أمة أخرجت للناس.

• أقول: وقد مر بيان ذلك في ذيل الآية بالاستفادة من الكتاب.

د. وفي قرب الإسناد عن الصادق عليه السلام عن أبيه عن النبي ﷺ قال: مما أعطى الله أمتي وفضلهم على سائر الأمم، أعطاهم ثلاث خصال لم يعطها إلا نبيّ ـ إلى أن قال ـ وكان إذا بعث نبياً جعله شهيداً على قومه، وإن الله تبارك وتعالى جعل أمتي شهيداً على الخلق، حيث يقول: ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ الحديث.

• أقول: والحديث لا ينافي ما مر، فإن المراد بالأمة الأمة المسلمة التي وجبت لها دعوة إبراهيم.

هـ. وفي تفسير العياشي عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث يصف فيه يوم القيامة، قال عليه السلام: يجتمعون في موطن يستنطق فيه جميع الخلق، فلا يتكلم أحد إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً، فيقام الرسول فيسأل، فذلك قوله لمحمد: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، وهو الشهيد على الشهداء، والشهداء هم الرسل.

و. وفي التهذيب عن أبي بصير عن أحدهما عليهما السلام، قال: قلت له: أمره أن يصلي إلى بيت المقدس؟ قال: نعم، ألا ترى أن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣] الآية.

• أقول: مقتضى الحديث كون قوله تعالى: ﴿الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا﴾ وصفاً للقبلة، والمراد بها بيت المقدس، وأنه القبلة التي كان رسول الله عليها، وهو الذي يؤيده سياق الآيات كما تقدم، ومن هنا يتأيد ما في بعض الأخبار عن العسكري عليه السلام: أن هوى أهل مكة كان في الكعبة، فأراد الله أن يبين متبع محمد من مخالفيه باتباع القبلة التي كرهها، ومحمد يأمر بها، ولما كان هوى أهل المدينة في بيت المقدس، أمرهم بمخالفتها والتوجه إلى الكعبة، ليبيّن من يتبع محمداً فيما يكرهه، فهو مصدقه وموافقه، الحديث، وبه يتضح أيضاً فساد ما قيل: إن قوله تعالى: ﴿الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا﴾ مفعول ثانٍ لجعلنا، والمعنى: وما جعلنا القبلة هي الكعبة التي كنت عليها قبل بيت المقدس، واستدل عليها بقوله تعالى: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ﴾، وهو فاسد، ظهر فساده مما تقدم.

ز. وفي تفسير العياشي عن الزبيري عن الصادق عليه السلام قال: قلت له: ألا تخبرني عن الإيمان، أقول هو وعمل أم قول بلا عمل؟ فقال: الإيمان عمل كله، والقول بعض ذلك العمل، مفروض من الله، مبين في كتابه، واضح نوره، ثابت حجته، يشهد له بها الكتاب ويدعو إليه، ولما أن صرف الله نبيه إلى الكعبة عن بيت المقدس، قال المسلمون للنبي: أرأيت صلاتنا التي كنا نصلي إلى بيت المقدس، ما حالنا فيها، وما حال من مضى من أمواتنا، وهم كانوا يصلون إلى بيت المقدس؟ فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣]، فسمى الصلاة إيماناً، فمن اتقى الله حافظاً لجوارحه، موفياً كل جارحة من جوارحه بما فرض الله عليه، لقي الله مستكملاً لإيمانه من أهل الجنة، ومن خان في شيء منها أو تعدى ما أمر الله فيها، لقي الله ناقص الإيمان.

• أقول: ورواه الكليني أيضاً، واشتماله على نزول قوله: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ الآية بعد تغيير القبلة لا ينافي ما تقدم من البيان.

٦١. توجيه القبلة إلى المسجد الحرام وإبطال اتباع الأهواء:

المقطع [٦١] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا

جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [البقرة: ١٤٤-١٤٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١/ ٣٢٦»:

١. ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾، الآية تدل على أن رسول الله ﷺ قبل نزول آية القبلة، وهي هذه الآية، كان يقلب وجهه في آفاق السماء، وأن ذلك كان انتظارا منه، أو توقعا لنزول الوحي في أمر القبلة، لما كان يحب أن يكرمه الله تعالى بقبلة تختص به، لا أنه كان لا يرتضي بيت المقدس قبلة، وحاشا رسول الله من ذلك، كما قال تعالى: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾، فإن الرضا بشيء لا يوجب السخط بخلافه، بل اليهود على ما في الروايات الواردة في شأن نزول الآية كانوا يعيرون المسلمين في تبعية قبلتهم، ويتفاخرون بذلك عليهم، فحزن رسول الله ذلك، فخرج في سواد الليل يقلب وجهه إلى السماء ينتظر الوحي من الله سبحانه، وكشف همه فنزلت الآية، ولو نزلت على البقاء بالقبلة السابقة لكانت حجة له ﷺ على اليهود، وليس ولم يكن لرسول الله ولا للمسلمين عار في استقبال قبلتهم، إذ ليس للعبد إلا الإطاعة والقبول، لكن نزلت بقبلة جديدة، فقطع تعييرهم وتفاخرهم، مضافا إلى تعيين التكليف، فكانت حجة ورضى.

٢. ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾:

أ. الشطر البعض، وشطر المسجد الحرام هو الكعبة، وفي قوله تعالى ﴿شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ دون أن يقال: فول وجهك الكعبة، أو يقال: فول وجهك البيت الحرام، محاذاة للحكم في القبلة السابقة، فإنها كانت شطر المسجد الأقصى، وهي الصخرة المعروفة هناك، فبدلت من شطر المسجد الحرام، وهي الكعبة، على أن إضافة الشطر إلى المسجد، وتوصيف المسجد بالحرام يعطي مزايا للحكم، تفوت لو قيل: الكعبة أو البيت الحرام.

ب. تخصيص رسول الله ﷺ بالحكم أولا بقوله ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ﴾، ثم تعميم الحكم له ولغيره من المؤمنين بقوله ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ﴾ يؤيد أن القبلة حولت، ورسول الله قائم يصلي في المسجد، والمسلمون معه، فاختص الأمر به، أولا في شخص صلاته ثم عقب الحكم العام الشامل له ولغيره، ولجميع الأوقات والأمكنة قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾، وذلك لاشتمال كتابهم على

صدق نبوة رسول الله ﷺ، أو كون قبلة هذا النبي الصادق هو شطر المسجد الحرام، وأيا ما كان فقوله: ﴿أُوتُوا الْكِتَابَ﴾، يدل على اشتمال كتابهم على حقية هذا التشريع، إما مطابقة أو تضمنا ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ من كتمان الحق، واحتكار ما عندهم من العلم.

٣. ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ﴾، تقريع لهم بالعناد واللجاج، وأن إباءهم عن القبول ليس لخفاء الحق عليهم، وعدم تبينه لهم، فإنهم عالمون بأنه حق علما لا يخالطه شك، بل الباعث لهم على بث الاعتراض وإثارة الفتنة عنادهم في الدين وجحودهم للحق، فلا ينفعهم حجة، ولا يقطع إنكارهم آية، فلو أتيتهم بكل آية ما تبعوا قبلتك لعنادهم وجحودهم ﴿وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾، لأنك على بينة من ربك، ويمكن أن يكون قوله: ﴿وَمَا أَنْتَ﴾ نهيا في صورة خبر ﴿وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾، وهم اليهود يستقبلون صخرة بيت المقدس أينما كانوا، والنصارى يستقبلون المشرق أينما كانوا، فلا هذا البعض يقبل قبلة ذاك البعض، ولا ذاك يقبل قبلة هذا اتباعا للهوى.

٤. ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾، تهديد للنبي، والمعنى متوجه إلى أمته، وإشارة إلى أنهم في هذا التمرد إنما يتبعون أهواءهم وأنهم بذلك ظالمون.

٥. ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ﴾، الضمير في قوله يعرفونه، راجع إلى رسول الله ﷺ دون الكتاب، والدليل عليه تشبيه هذه المعرفة بمعرفة الأبناء، فإن ذلك إنما يحسن في الإنسان، ولا يقال في الكتاب، أن فلانا يعرفه أو يعلمه، كما يعرف ابنه، على أن سياق الكلام، وهو في رسول الله ﷺ، وما أوحي إليه من أمر القبلة، أجنبي عن موضوع الكتاب الذي أوتيه أهل الكتاب، فالمعنى أن أهل الكتاب يعرفون رسول الله بما عندهم من بشارات الكتب كما يعرفون أبناءهم، وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون.

٦. على هذا ففي الكلام التفات من الحضور إلى الغيبة في قوله يعرفونه، فقد أخذ رسول الله غائبا، ووجه الخطاب إلى المؤمنين بعد ما كان ﷺ حاضرا، والخطاب معه، وذلك لتوضيح: أن أمره ﷺ واضح ظاهر عند أهل الكتاب، ومثل هذا النظم كمثل كلام من يكلم جماعة لكنه يخص واحدا منهم بالمخاطبة إظهارا لفضله، فيخاطبه ويسمع غيره، فإذا بلغ إلى ما يخص شخص المخاطب من الفضل والكرامة، عدل عن خطابه إلى مخاطبة الجماعة، ثم بعد الفراغ عن بيان فضله عدل ثانيا إلى ما كان فيه أولا من توجيه الخطاب

إليه وبهذا يظهر نكتة الالتفات.

٧. ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾، تأكيد للبيان السابق وتشديد في النهي عن الامتراء، وهو الشك والارتياب، وظاهر الخطاب لرسول الله ﷺ ومعناه للأمة.

٨. أحاديث وآثار:

أ. في الفقيه: أن النبي صلى إلى بيت المقدس ثلاث عشرة سنة بمكة، وتسعة عشر شهراً بالمدينة، ثم عيرته اليهود فقالوا: إنك تابع لقبلتنا، فاغتم لذلك غماً شديداً، فلما كان في بعض الليل خرج يقلب وجهه في آفاق السماء، فلما أصبح صلى الغداة، فلما صلى من الظهر ركعتين جاء جبرئيل فقال له: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٤٤] الآية، ثم أخذ بيد النبي فحول وجهه إلى الكعبة، وحول من خلفه وجوههم حتى قام الرجال مقام النساء والنساء مقام الرجال، فكان أول صلاته إلى بيت المقدس وآخرها إلى الكعبة، فبلغ الخبر مسجداً بالمدينة وقد صلى أهله من العصر ركعتين، فحولوا نحو القبلة، فكان أول صلاتهم إلى بيت المقدس وآخرها إلى الكعبة، فسمي ذلك المسجد مسجد القبلتين.

• أقول: وروى القمي نحواً من ذلك، وأن النبي كان في مسجد بني سالم.

ب. وفي تفسير العياشي عن الباقر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٤٤] الآية، قال: استقبل القبلة، ولا تقلب وجهك عن القبلة فتفسد صلاتك، فإن الله يقول لنبيه في الفريضة: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة: ١٤٤]

• أقول: والأخبار في نزول الآية في الفريضة واختصاصها بها كثيرة مستفيضة.

ج. وفي تفسير القمي عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ﴾ [البقرة: ١٤٦] الآية، قال: نزلت هذه الآية في اليهود والنصارى، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ﴾، يعني يعرفون رسول الله كما يعرفون أبناءهم؛ لأن الله عز وجل قد أنزل عليهم في التوراة والإنجيل والزبور صفة محمد وصفة أصحابه ومهاجرته، وهو قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ﴾ [الفتح: ٢٩]، وهذه صفة رسول

الله في التوراة وصفة أصحابه، فلما بعثه الله عز وجل عرفه أهل الكتاب، كما قال جل جلاله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ [البقرة: ٨٩]

• أقول: وروى نحواً منه في الكافي عن علي عليه السلام.

٦٢. لكل أمة وجهة والدعوة إلى استباق الخيرات:

المقطع [٦٢] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٤٨-١٥٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١/ ٣٤٠»:

١. ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾، الوجهة ما يتوجه إليه كالقبلة، وهذا رجوع إلى تلخيص البيان السابق، وتبديل له من بيان آخر يهدي الناس إلى ترك تعقيب أمر القبلة، والإكثار من الكلام فيه، والمعنى أن كل قوم فلهم قبلة مشرعة على حسب ما يقتضيه مصالحهم وليس حكما تكوينيا ذاتيا لا يقبل التغيير والتحويل، فلا يهم لكم البحث والمشاجرة، فيه فاتركوا ذلك واستبقوا الخيرات وسارعوا إليها بالاستباق، فإن الله سيجمعكم إلى يوم لا ريب فيه، و﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، والآية كما أنها قابلة الانطباق على أمر القبلة لوقوعها بين آياتها كذلك تقبل الانطباق على أمر التكوين، وفيها إشارة إلى القدر والقضاء، وجعل الأحكام والآداب لتحقيقها.

٢. ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾، ذكر بعض المفسرين أن المعنى ومن أي مكان خرجت، وفي أي بقعة حللت فول وجهك وذكر بعضهم أن المعنى ومن حيث خرجت من البلاد، ويمكن أن يكون المراد بقوله ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾؛ مكة، التي خرج رسول الله ﷺ منها كما قال تعالى ﴿مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ﴾، ويكون المعنى أن استقبال البيت حكم ثابت لك في مكة وغيرها من البلاد والبقاع، وفي قوله ﴿وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ تأكيد وتشديد.

٣. ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ

شَطْرَهُ﴾، تكرار الجملة الأولى بلفظها لعله للدلالة على ثبوت حكمها على أي حال، فهو كقول القائل: اتق الله إذا قمت واتق الله إذا قعدت، واتق الله إذا نطقت، واتق الله إذا سكت، يريد: التزم التقوي عند كل واحدة من هذه الأحوال ولتكن معك، ولو قيل اتق الله إذا قمت وإذا قعدت وإذا نطقت وإذا سكت فاتت هذه النكتة، والمعنى استقبل شطر المسجد الحرام من التي خرجت منها، وحيث ما كنتم من الأرض فولوا وجوهكم شطره.

٤. ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾، بيان لفوائد ثلاث في هذا الحكم الذي فيه أشد التأكيد على ملازمة الامتثال والتحذر عن الخلاف:

أ. إحداها: أن اليهود كانوا يعلمون من كتبهم أن النبي الموعود تكون قبلته الكعبة دون بيت المقدس، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ الآية، وفي ترك هذا الحكم الحجة لليهود على المسلمين بأن النبي ليس هو النبي الموعود لكن التزام هذا الحكم والعمل به يقطع حجتهم إلا الذين ظلموا منهم، وهو استثناء منقطع، أي لكن الذين ظلموا منهم باتباع الأهواء لا ينقطعون بذلك فلا تخشوهم لأنهم ظالمون باتباع الأهواء، والله لا يهدي القوم الظالمين واخشوني.

ب. ثانيتها: أن ملازمة هذا الحكم يسوق المسلمين إلى تمام النعمة عليهم بكمال دينهم، وسنبين معنى تمام النعمة في الكلام على قوله تعالى ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾

ج. ثالثتها: رجاء الاهتداء إلى الصراط المستقيم، وقد مر معنى الاهتداء في الكلام على معنى قوله تعالى ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾

٥. ذكر بعض المفسرين أن اشتمال هذه الآية وهي آية، تحويل القبلة، على قوله: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾، مع اشتمال قوله تعالى في سورة الفتح في ذكر فتح مكة على هاتين الجملتين، إذ قال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ يدل على كونها مشتملة على البشارة بفتح مكة، بيان ذلك أن الكعبة كانت مشغولة في صدر الإسلام بأصنام المشركين وأوثانهم وكان السلطان معهم، والإسلام لم يقو بعد بحيث يظهر قهره وقدرته، فهدى الله رسوله إلى استقبال بيت المقدس، لكونه قبلة لليهود، الذين هم أقرب في دينهم من المشركين إلى الإسلام، ثم لما ظهر أمر الإسلام بهجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة، وقرب زمان الفتح وتوقع

تطهير البيت من أرجاس الأصنام جاء الأمر بتحويل القبلة وهي النعمة العظيمة التي اختص به المسلمون، ووعد في آية التحويل إتمام النعمة والهداية وهو خلوص الكعبة من أدناس الأوثان، وتعينها لأن تكون قبلة يعبد الله إليها، ويكون المسلمون هم المختصون بها، وهي المختصة بهم، فهي بشارة بفتح مكة، ثم لما ذكر فتح مكة حين فتحت أشار إلى ما وعدهم به من إتمام النعمة والبشارة بقوله ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ الآية.

٦. هذا الكلام وإن كان بظاهره وجيها لكنه خال عن التدبر، فإن ظاهر الآيات لا يساعد عليه، إذ الدال على وعد إتمام النعمة في هذه الآية: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾، الآية إنما هو لام الغاية، وآية سورة الفتح التي أخذها إنجازا لهذا الوعد ومصداقا لهذه البشارة أعني قوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾، مشتملة على هذه اللام بعينها، فالآيتان جميعا مشتملتان على الوعد الجميل بإتمام النعمة، على أن آية الحج مشتملة على وعد إتمام النعمة لجميع المسلمين، وآية الفتح على ذلك لرسول الله ﷺ خاصة فالسياق في الآيتين مختلف، ولو كان هناك آية تحكي عن إنجاز الوعد الذي تشتمل عليه الآيتان لكان هو قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾

٧. نظير هاتين الآيتين في الاشتمال على عدة إتمام النعمة قوله تعالى ﴿وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، وقوله تعالى ﴿كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾، وسيجيء إن شاء الله شيء من الكلام المناسب لهذا المقام في ذيل هذه الآيات.

٨. أحاديث وآثار:

أ. في أخبار كثيرة من طرق الشيعة أن قوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللهُ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ١٤٨] الآية في أصحاب القائم، وفي بعضها أنه من التطبيق والجري.

ب. وفي الحديث من طرق العامة في قوله تعالى: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٠]، عن علي عليه السلام: تمام النعمة الموت على الإسلام.

ج. وفي الحديث من طرقهم أيضاً: تمام النعمة دخول الجنة.

٦٣. بعثة الرسول لتزكية المؤمنين وتعليمهم الكتاب والحكمة:

المقطع [٦٣] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥١ـ١٥٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١/ ٣٤٠»:

١. ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ﴾، ظاهر الآية أن الكاف للتشبيه وما مصدرية، فالمعنى: أنعمنا عليكم بأن جعلنا لكم البيت الذي بناه إبراهيم، ودعا له بها دعا من الخيرات والبركات قبلة كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويعلمكم الكتاب والحكمة ويزكيكم مستجيبين لدعوة إبراهيم، إذ قال هو وابنه إسماعيل ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم، وفيهم امتنان عليهم بالإرسال كالامتنان بجعل الكعبة قبلة، ومن هنا يظهر أن المخاطب بقوله فيكم رسولا منكم، هو الأمة المسلمة، وهو أولياء الدين من الأمة خاصة بحسب الحقيقة، والمسلمون جميعا من آل إسماعيل، وهم عرب مضر، بحسب الظاهر، وجميع العرب بل جميع المسلمين بحسب الحكم.

٢. ﴿يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا﴾، ظاهره آيات القرآن لمكان قوله ﴿يَتْلُو﴾، فإن العناية في التلاوة إلى اللفظ دون المعنى، والتزكية هي التطهير، وهو إزالة الأدناس والقذارات، فيشمل إزالة الاعتقادات الفاسدة كالشرك والكفر، وإزالة الملكات الرذيلة من الأخلاق كالكبر والشح، وإزالة الأعمال والأفعال الشنيعة كالقتل والزنا وشرب الخمر وتعليم الكتاب والحكمة، وتعليم ما لم يكونوا يعلمونه يشمل جميع المعارف الأصلية والفرعية.

٣. الآيات الشريفة تشتمل على موارد من الالتفات، فيه تعالى بالغيبة والتكلم وحده ومع الغير، وفي غيره تعالى أيضا بالغيبة والخطاب والتكلم، والنكتة فيها غير خفية على المتدبر البصير.

٤. ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾:

أ. لما امتن الله تعالى على النبي والمسلمين، بإرسال النبي الكريم منهم إليهم نعمة لا تقدر بقدر ومنحة على منحة، وهو ذكر منه لهم، إذ لم ينسهم في هدايتهم إلى مستقيم الصراط، وسوقهم إلى أقصى الكمال، وزيادة على ذلك، وهو جعل القبلة، الذي فيه كمال دينهم، وتوحيد عبادتهم، وتقويم فضيلتهم الدينية والاجتماعية فرع على ذلك دعوتهم إلى ذكره وشكره، ليذكرهم بنعمته على ذكرهم إياه بعبوديته وطاعته، ويزيدهم على شكرهم لنعمته وعدم كفرانهم، وقد قال تعالى ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى

أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾، وقال تعالى ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾: إبراهيم، ٧، والآيتان جميعا نازلتان قبل آيات القبلة من سورة البقرة.

ب. الذكر ربما قابل الغفلة كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا﴾، وهي انتفاء العلم بالعلم، مع وجود أصل العلم، فالذكر خلافه، وهو العلم بالعلم، وربما قابل النسيان وهو زوال صورة العلم عن خزانة الذهن، فالذكر خلافه، ومنه قوله تعالى ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ الآية، وهو حينئذ كالنسيان معنى ذو آثار وخواص تتفرع عليه، ولذلك ربما أطلق الذكر كالنسيان في موارد تتحقق فيها آثارهما وإن لم تتحقق أنفسهما، فإنك إذا لم تنصر صديقك، وأنت تعلم حاجته إلى نصرك فقد نسيته، والحال أنك تذكره، وكذلك الذكر، والظاهر أن إطلاق الذكر على الذكر اللفظي من هذا القبيل، فإن التكلم عن الشيء من آثار ذكره قلبا، قال تعالى ﴿قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾، ونظائره كثيرة.

ج. لو كان الذكر اللفظي أيضا ذكرا حقيقة فهو من مراتب الذكر، لأنه مقصور عليه ومنحصر فيه، وبالجملة: الذكر له مراتب كما قال تعالى ﴿أَلَا بِذِكْرِ الله تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾، وقال: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾، وقال: ﴿فَاذْكُرُوا اللهَّ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾، فالشدة إنما يتصف به المعنى دون اللفظ، وقال تعالى ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾، وذيل هذه الآية تدل على الأمر برجاء ما هو أعلى منزلة مما هو فيه، فيئول المعنى إلى أنك إذا تنزلت من مرتبة من ذكره إلى مرتبة هي دونها، وهو النسيان، فاذكر ربك وارج بذلك ما هو أقرب طريقا وأعلى منزلة، فينتج أن الذكر القلبي ذو مراتب في نفسه، وبذلك يتبين صحة قول القائل: إن الذكر حضور المعنى عند النفس، فإن الحضور ذو مراتب.

د. لو كان لقوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي﴾، وهو فعل متعلق بياء المتكلم حقيقة من دون تجوز أفاد ذلك، أن للإنسان سنخا آخر من العلم غير هذا العلم المعهود عندنا الذي هو حصول صورة المعلوم ومفهومه عند العالم، إذ كلما فرض من هذا القبيل فهو تحديد وتوصيف للمعلوم من العالم، وقد تقدست ساحته سبحانه عن توصيف الواصفين، قال تعالى ﴿سُبْحَانَ الله عَمَّا يَصِفُونَ إِلَّا عِبَادَ الله الْمُخْلَصِينَ﴾، وقال: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾

٥. أحاديث وآثار: تكاثرت الأخبار في فضل الذكر من طرق العامة والخاصة، فقد روي بطرق

مختلفة أن ذكر الله حسن على كل حال.

أ. في عدة الداعي قال: وروي أن رسول الله ﷺ خرج على أصحابه، فقال: ارتعوا في رياض الجنة، قالوا: يا رسول الله، وما رياض الجنة؟ قال: مجالس الذكر، اغدوا وروحوا واذكروا، ومن كان يحب أن يعلم منزلته عند الله، فلينظر كيف منزلة الله عنده؛ فإن الله تعالى ينزل العبد حيث أنزل العبد الله من نفسه، واعلموا أن خير أعمالكم عند مليككم، وأزكاها، وأرفعها في درجاتكم، وخير ما طلعت عليه الشمس ذكر الله تعالى؛ فإنه تعالى أخبر عن نفسه فقال: (أنا جليس من ذكرني)، وقال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢] بنعمتي: اذكروني بالطاعة والعبادة، أذكركم بالنعم والإحسان والراحة والرضوان.

ب. وفي المحاسن ودعوات الراوندي عن الصادق عليه السلام قال: إن الله تبارك وتعالى يقول: من شغل بذكري عن مسألتي، أعطيته أفضل ما أعطي من سألني.

ج. وفي المعاني عن الحسين البزاز قال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام: ألا أحدثك بأشد ما فرض الله على خلقه؟ قلت: بلى، قال: إنصاف الناس من نفسك، ومواساتك لأخيك، وذكر الله في كل موطن، أما إني لا أقول: (سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر)، وإن كان هذا من ذاك، ولكن ذكر الله في كل موطن إذا هجمت على طاعته أو معصيته.

• أقول: وهذا المعنى مروي بطرق كثيرة عن النبي وأهل بيته عليهم السلام، وفي بعضها وهو قول الله: ﴿الَّذِينَ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١] الآية.

د. وفي عدة الداعي عن النبي ﷺ قال: قال سبحانه: إذا علمت أن الغالب على عبدي الاشتغال بي، نقلت شهوته في مسألتي ومناجاتي، فإذا كان عبدي كذلك وأراد أن يسهو، حلت بينه وبين أن يسهو، أولئك أوليائي حقاً، أولئك الأبطال حقاً، أولئك الذين إذا أردت أن أهلك أهل الأرض عقوبة، زويتها عنهم من أجل أولئك الأبطال.

هـ. وفي المحاسن عن الصادق عليه السلام قال: قال الله تعالى: ابن آدم، اذكرني في نفسك، أذكرك في نفسي، ابن آدم، اذكرني في خلاء، أذكرك في خلاء، اذكرني في ملاء، أذكرك في ملاء خير من ملائك، وقال: ما من عبد يذكر الله في ملاء من الناس إلا ذكره الله في ملاء من الملائكة.

• أقول: وقد روي هذا المعنى بطرق كثيرة في كتب الفريقين.

و. وأخرج الطبراني وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: من أعطي أربعاً أعطي أربعاً، وتفسير ذلك في كتاب الله: من أعطي الذكر ذكره الله، لأن الله يقول: ﴿اذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]، ومن أعطي الدعاء أعطي الإجابة، لأن الله يقول: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، ومن أعطي الشكر أعطي الزيادة، لأن الله يقول: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، ومن أعطي الاستغفار أعطي المغفرة، لأن الله يقول: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: ١٠]

ز. أخرج سعيد بن منصور وابن المنذر والبيهقي في شعب الإيمان عن خالد بن أبي عمران قال: قال رسول الله ﷺ: من أطاع الله فقد ذكر الله، وإن قلت صلاته وصيامه وتلاوته للقرآن، ومن عصى الله فقد نسي الله، وإن كثرت صلاته وصيامه وتلاوته للقرآن.

• أقول: في الحديث إشارة إلى أن المعصية لا تتحقق من العبد إلا بالغفلة والنسيان؛ فإن الإنسان لو ذكر ما حقيقة معصيته وما لها من الأثر، لم يقدم على معصيته، حتى أن من يعصي الله ولا يبالي، إذا ذكر عند ذلك بالله ولا يعتني بمقام ربه، هو طاغ جاهل بمقام ربه وعلو كبريائه وكيفية إحاطته، وإلى ذلك تشير أيضاً رواية أخرى، رواها الدر المنثور عن أبي هند الداري عن النبي ﷺ قال: قال الله: اذكروني بطاعتي، أذكركم بمغفرتي، ومن ذكرني وهو مطيع، فحق علي أن أذكره بمغفرتي، ومن ذكرني وهو عاص، فحق علي أن أذكره بمقت، الحديث، وما اشتمل عليه هذا الحديث من الذكر عند المعصية هو الذي تسميه الآية وسائر الأخبار بالنسيان، لعدم ترتب آثار الذكر عليه، وللكلام بقايا سيجيء شطر منها.

٦٤. الاستعانة بالصبر والصلاة وبشارة الصابرين:

المقطع [٦٤] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٣-١٥٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١/ ٣٤٣»:

١. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾:

أ. الصبر من أعظم الملكات والأحوال التي يمدحها القرآن، ويكرر الأمر به حتى بلغ قريبا من

سبعين موضعا من القرآن حتى قيل فيه: ﴿إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾، وقيل: ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾، وقيل: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾

ب. والصلاة: من أعظم العبادات التي يحث عليها في القرآن حتى قيل فيها: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾، وما أوصى الله في كتابه بوصايا إلا كانت الصلاة رأسها وأولها.

٢. ثم وصف سبحانه الصبر بأن الله مع الصابرين المتصفين بالصبر، وإنما لم يصف الصلاة، كما في قوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ الآية، لأن المقام في هذه الآيات، مقام ملاقاة الأهوال، ومقارعة الأبطال، فالاهتمام بأمر الصبر أنسب بخلاف الآية السابقة، فلذلك قيل: إن الله مع الصابرين، وهذه المعية غير المعية التي يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾، فإنها معية الإحاطة والقيمومة، بخلاف المعية مع الصابرين، فإنها معية إعانة فالصبر مفتاح الفرج.

٣. ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ الآية، ربما يقال: إن الخطاب مع المؤمنين الذين آمنوا بالله ورسوله واليوم الآخر وأذعنوا بالحياة الآخرة، ولا يتصور منهم القول ببطلان الإنسان بالموت، بعد ما أجابوا دعوة الحق وسمعوا شيئا كثيرا من الآيات الناطقة بالمعاد، مضافا إلى أن الآية إنما تثبت الحياة بعد الموت في جماعة مخصوصين، وهم الشهداء المقتولون في سبيل الله، في مقابل غيرهم من المؤمنين، وجميع الكفار، مع أن حكم الحياة بعد الموت عام شامل للجميع فالمراد بالحياة بقاء الاسم، والذكر الجميل على مر الدهور، وبذلك فسره جمع من المفسرين، ويرده:

أ. أولا: أن كون هذه حياة إنما هو في الوهم فقط دون الخارج، فهي حياة تخيلية ليس لها في الحقيقة إلا الاسم، ومثل هذا الموضوع الوهمي لا يليق بكلامه، وهو تعالى يدعو إلى الحق ويقول: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾، وأما الذي سأله إبراهيم في قوله: ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾، فإنما يريد به بقاء دعوته الحقة، ولسانه الصادق بعده، لا حسن ثنائه وجميل ذكره بعده فحسب، نعم هذا القول الباطل، والوهم الكاذب إنما يليق بحال الماديين، وأصحاب الطبيعة، فإنهم اعتقدوا: مادية النفوس وبطلانها بالموت ونفوا الحياة الآخرة ثم أحسوا باحتياج الإنسان بالفطرة إلى القول ببقاء النفوس وتأثرها بالسعادة والشقاء، بعد موتها في معالي أمور، لا تخلو في الارتقاء إليها من التفدية والتضحية، لا سيما في عظائم العزائم التي يموت ويقتل فيها أقوام ليحيا ويعيش آخرون، ولو كان كل من مات فقد فات لم يكن داع للإنسان

(وخاصة إذا اعتقد بالموت والفوت) أن يبطل ذاته ليبقى ذات آخرين، ولا باعث له أن يحرم على نفسه لذة الاستمتاع من جميع ما يقدر عليه بالجور ليتمتع آخرون بالعدل، فالعاقل لا يعطي شيئا إلا ويأخذ بدله وأما الإعطاء من غير بدل، والترك من غير أخذ، كالموت في سبيل حياة الغير، والحرمان في طريق تمتع الغير فالفطرة الإنسانية تأباه، فلما استشعروا بذلك دعاهم جبر هذا النقص إلى وضع هذه الأوهام الكاذبة، التي ليس لها موطن إلا عرصة الخيال وحظيرة الوهم، قالوا إن الإنسان الحر من رق الأوهام والخرافات يجب عليه أن يفدي بنفسه وطنه، أو كل ما فيه شرفه، لينال الحياة الدائمة بحسن الذكر وجميل الثناء، ويجب عليه أن يحرم على نفسه بعض تمتعاته في الاجتماع ليناله الآخرون، ليستقيم أمر الاجتماع والحضارة، ويتم العدل الاجتماعي فينال بذلك حياة الشرف والعلاء، وليت شعري إذا لم يكن إنسان، وبطل هذا التركيب المادي، وبطل بذلك جميع خواصه، ومن جملتها الحياة والشعور، فمن هو الذي ينال هذه الحياة وهذا الشرف؟ ومن الذي يدركه ويلتذ به؟ فهل هذا إلا خرافة؟

ب. ثانيا: أن ذيل الآية، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ لا يناسب هذا المعنى، بل كان المناسب له أن يقال: بل أحياء ببقاء ذكرهم الجميل، وثناء الناس عليهم بعدهم، لأنه المناسب لمقام التسلية وتطييب النفس.

ج. ثالثا: أن نظيرة هذه الآية، وهي تفسرها، وصف حياتهم بعد القتل بما ينافي هذا المعنى، قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ الله أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾، إلى آخر الآيات ومعلوم أن هذه الحياة حياة خارجية حقيقية ليست بتقديرية.

د. رابعا: أن الجهل بهذه الحياة التي بعد الموت ليس بكل البعيد من بعض المسلمين في أواسط عهد رسول الله ﷺ، فإن الذي هو نص غير قابل للتأويل إنما هو البعث للقيامة، وأما ما بين الموت إلى الحشر، وهي الحياة البرزخية، فهي وإن كانت من جملة ما بينه القرآن من المعارف الحقة، لكنها ليست من ضروريات القرآن، والمسلمون غير مجمعين عليه بل ينكره بعضهم حتى اليوم ممن يعتقد كون النفس غير مجردة عن المادة وأن الإنسان يبطل وجوده بالموت وانحلال التركيب، ثم يبعثه الله إلى القضاء يوم القيامة، فيمكن أن يكون المراد بيان حياة الشهداء في البرزخ لمكان جهل بعض المؤمنين بذلك، وإن علم به آخرون.

٤. بالجملة: المراد بالحياة في الآية الحياة الحقيقية دون التقديرية، وقد عد الله سبحانه حياة الكافر

بعد موته هلاكا وبوارا في مواضع من كلامه، كقوله تعالى: ﴿وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾، إلى غير ذلك من الآيات، فالحياة حياة السعادة، والإحياء بهذه الحياة المؤمنون خاصة كما قال: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾، وإنما لم يعلموا، لأن حواسهم مقصورة على إدراك خواص الحياة في المادة الدنيوية، وأما ما وراءها فإذا لم يدركوه لم يفرقوا بينه وبين الفناء فتوهموه فناء، وما توهمه الوهم مشترك بين المؤمن والكافر في الدنيا، فلذلك قال في هذه الآية: ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أي: بحواسكم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾، أي باليقين كما قال تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾

٥. معنى الآية ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ﴾، ولا تعتقدوا فيهم الفناء والبطلان كما يفيده لفظ الموت عندكم، ومقابلته مع الحياة، وكما يعين على هذا القول حواسكم فليسوا بأموات بمعنى البطلان، بل أحياء ولكن حواسكم لا تنال ذلك ولا تشعر به.

٦. إلقاء هذا القول على المؤمنين، مع أنهم جميعا أو أكثرهم عالمون ببقاء حياة الإنسان بعد الموت، وعدم بطلان ذاته، إنما هو لإيقاظهم وتنبيههم بما هو معلوم عندهم، يرتفع بالالتفات إليه الحرج عن صدورهم، والاضطراب والقلق عن قلوبهم إذا أصابتهم مصيبة القتل، فإنه لا يبقى مع ذلك من آثار القتل عند أولياء القتيل إلا مفارقة في أيام قلائل في الدنيا وهو هين في قبال مرضاة الله سبحانه وما ناله القتيل من الحياة الطيبة، والنعمة المقيمة، ورضوان من الله أكبر، وهذا نظير خطاب النبي بمثل قوله تعالى: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ الآية، مع أنه ﷺ أول الموقنين بآيات ربه، ولكنه كلام كني به عن وضوح المطلب، وظهوره بحيث لا يقبل أي خطور نفساني لخلافه.

٧. وضع هنا مبحثا حول [حياة البرزخ: الأدلة القرآنية والرد على المنكرين]، خلاصته:

أ. الآية تدل دلالة واضحة على حياة الإنسان البرزخية، وكذلك الآية النظيرة في سورة آل عمران، والآيات في ذلك كثيرة.

ب. القول باختصاص الآيات بشهداء بدر فقط هو قول فاسد، لأنه يستلزم إما الإعجاز في محال، أو إبطال الوثوق بالحس، أو السفسطة.

ج. من قال باختصاص الآيات بالشهداء سلك مسلك العامة من المحدثين الذين يرون أن

الغيبيات موجودات مادية لطيفة، وهذا مبني على إنكار العلية، وهو باطل.

د. الآيات تدل على الحياة البرزخية، وهي عالم متوسط بين الموت والقيامة، ينعم فيه الميت أو يعذب.

هـ. من الآيات الدالة على البرزخ: آية آل عمران (١٦٩ ـ ١٧١)، وآية المؤمنون (١٠٠)، وآية الفرقان (٢٥ ـ ٢٦)، وآية غافر (١١)، وآية غافر (٤٦)

و. سياق الآيات يفيد اشتراك سائر المؤمنين مع شهداء بدر في الحياة والتنعم بعد الموت.

٨. وضع هنا مبحثا حول [تجرد النفس: الأدلة القرآنية وحقيقة تعلقها بالبدن]، خلاصته:

أ. التدبر في الآيات السابقة يدل على أن النفس أمر وراء البدن، لها نحو اتحاد بالبدن تدبره بالشعور والإرادة، وتبقى بعد فناء البدن في نعيم أو عذاب.

ب. آية الزمر (٤٢) تدل على مغايرة النفس للبدن، من خلال التوفي والإمساك والإرسال.

ج. آية السجدة (١١) ترد على شبهة المنكرين للمعاد بأن التضليل في الأرض إنما هو للأبدان لا للنفوس.

د. آية الإسراء (٨٥) تصف الروح بأنها من أمر الله، والأمر من سنخ الملكوت، دفعي الوجود غير مقيد بزمان ومكان.

هـ. سلسلة آيات خلق الإنسان (كالمؤمنون: ١٤) تدل على أن الإنسان كان جسماً طبيعياً، ثم أنشأه الله خلقاً آخر ذا شعور وإرادة، وهو النفس المجردة.

و. النفس بالنسبة للبدن كالثمرة من الشجرة، وفي الموت تنقطع العلقة وتستقل النفس عن البدن.

٩. ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾:

أ. لما أمرهم الله بالاستعانة بالصبر والصلاة، ونهاهم عن القول بموت من يقتل منهم في سبيل الله بل هم أحياء بين لهم السبب الذي من أجله خاطبهم بما خاطب، وهو أنهم سيبتلون بما لا يتمهد لهم المعالي ولا يصفو لهم الأمر في الحياة الشريفة، والدين الحنيف إلا به، وهو الحرب والقتال، لا يدور رحى النصر والظفر على مرادهم إلا أن يتحصنوا بهذين الحصنين ويتأيدوا بهاتين القوتين، وهما الصبر والظفر، ويضيفوا إلى ذلك ثالثا وهو خصلة ما حفظها قوم إلا ظفروا بأقصى مرادهم وحازوا الغاية القصوى من

كمالهم، واشتد بأسهم وطابت نفسهم، وهو الإيمان بأن القتيل منهم غير ميت ولا فقيد، وأن سعيهم بالمال والنفس غير ضائع ولا باطل، فإن قتلوا عدوهم فهم على الحياة، وقد أبادوا عدوهم وما كان يريده من حكومة الجور والباطل عليهم، وإن قتلهم عدوهم فهم على الحياة، ولم يتحكم الجور والباطل عليهم، فلهم إحدى الحسنيين على أي حال.

ب. عامة الشدائد التي يأتي بها هو الخوف والجوع ونقص الأموال والأنفس ذكرها الله تعالى، وأما الثمرات فالظاهر أنها الأولاد، فإن تأثير الحرب في قلة النسل بموت الرجال والشبان أظهر من تأثيره في نقص ثمرات الأشجار، وربما قيل: إن المراد ثمرات النخيل، وهي التمر والمراد بالأموال غيرها وهي الدواب من الإبل والغنم.

١٠. ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لله وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾:

أ. أعاد ذكر الصابرين ليبشرهم أولا، ويبين كيفية الصبر بتعليم ما هو الصبر الجميل ثانيا، ويظهر به حق الأمر الذي يقضي بوجوب الصبر، وهو ملكه تعالى للإنسان، ثالثا، ويبين جزاءه العام، وهو الصلاة والرحمة والاهتداء، رابعا فأمر تعالى نبيه أولا بتبشيرهم، ولم يذكر متعلق البشارة لتفخيم أمره فإنها من الله سبحانه فلا تكون إلا خيرا وجميلا، وقد ضمنها رب العزة.

ب. ثم بين أن الصابرين هم الذين يقولون: كذا وكذا عند إصابة المصيبة، وهي الواقعة التي تصيب الإنسان، ولا يستعمل لفظ المصيبة إلا في النازلة المكروهة، ومن المعلوم أن ليس المراد بالقول مجرد التلفظ بالجملة من غير حضور معناها بالبال، ولا مجرد الإخطار من غير تحقق بحقيقة معناها، وهي أن الإنسان مملوك لله بحقيقة الملك، وأن مرجعه إلى الله سبحانه وبه يتحقق أحسن الصبر الذي يقطع منابت الجزع والأسف، ويغسل رين الغفلة، وبيانه:

• أن وجود الإنسان وجميع ما يتبع وجوده، من قواه وأفعاله قائم الذات بالله الذي هو فاطره وموجده فهو قائم به مفتقر ومستند إليه في جميع أحواله من حدوث وبقاء غير مستقل دونه، فلربه التصرف فيه كيف شاء وليس للإنسان من الأمر شيء إذ لا استقلال له بوجه أصلا فله الملك في وجوده وقواه وأفعاله حقيقة.

• ثم إنه تعالى ملكه بالإذن نسبة ذاته، ومن هناك يقال: للإنسان وجود، وكذا نسبة قواه وأفعاله

ومن هناك يقال: للإنسان قوى كالسمع والبصر، ويقال: للإنسان أفعال كالمشي والنطق، والأكل والشرب، ولولا الإذن الإلهي لم يملك الإنسان ولا غيره من المخلوقات نسبة من هذه النسب الظاهرة، لعدم استقلال في وجودها من دون الله أصلا.

• وقد أخبر سبحانه: أن الأشياء سيعود إلى حالها قبل الإذن ولا يبقى ملك إلا لله وحده، قال تعالى: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لله الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾، وفيه رجوع الإنسان بجميع ما له ومعه إلى الله سبحانه.

• فهناك ملك حقيقي هو لله سبحانه لا شريك له فيه، لا الإنسان ولا غيره، وملك ظاهري صوري كملك الإنسان نفسه وولده وماله وغير ذلك وهو لله سبحانه حقيقة، وللإنسان بتمليكه تعالى في الظاهر مجازا، فإذا تذكر الإنسان حقيقة ملكه تعالى، ونسبه إلى نفسه فوجد نفسه ملكا طلقا لربه، وتذكر أيضا أن الملك الظاهري فيما بين الإنسان ومن جملتها ملك نفسه لنفسه وماله وولده سيبطل فيعود راجعا إلى ربه وجد أنه بالآخرة لا يملك شيئا أصلا لا حقيقة ولا مجازا، وإذا كان كذلك لم يكن معنى للتأثر عن المصائب الموجبة للتأثر عند إصابتها، فإن التأثر إنما يكون من جهة فقد الإنسان شيئا مما يملكه، حتى يفرح بوجدانه، ويحزن بفقدانه، وأما إذا أذعن واعتقد أنه لا يملك شيئا لم يتأثر ولم يحزن، وكيف يتأثر من يؤمن بأن الله له الملك وحده يتصرف في ملكه كيف يشاء؟

١١. وضع هنا مبحثا حول [مسالك تهذيب الأخلاق في القرآن: الاجتماعي والأخروي والتوحيدي]، خلاصته:

أ. إصلاح الأخلاق يكون بتكرار الأعمال الصالحة حتى تثبت في النفس ملكات راسخة، وهو كسبي اختياري بالمقدمات.

ب. المسلك الأول لتهذيب الأخلاق: بالغايات الدنيوية والعلوم الاجتماعية (كالعفة توجب العزة، والعلم يوجب الإقبال)، هذا مسلك الأقدمين، ولم يستعمله القرآن أساساً، بل استعمله تبعاً للثواب الأخروي.

ج. المسلك الثاني: بالغايات الأخروية (الجنة، الثواب، العقاب)، وهو كثير في القرآن، ويلحق به الاستناد إلى القضاء والقدر لعلاج الفرح والأسى.

د. الإشكال: الاستناد إلى القضاء قد يبطل الاختيار، والجواب: أن الأفعال من أجزاء العلل، فلا

يجوز إلغاء الاختيار ولا جعله سبباً مستقلاً.

هـ. المسلك الثالث: مخصوص بالقرآن، وهو التربية بالمعارف التوحيدية التي تزيل الرذائل بالرفع لا بالدفع، كعلم أن العزة والقوة لله، وأن الملك لله.

و. هذا المسلك ينتج العبودية المحضة، ويختلف عن المسلكين الآخرين في النتائج، لأنه مبني على الحب العبودي، وقد أهدى إلى الاجتماع الإنساني عبّاداً صالحين وأولياء مقربين.

١٢. ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾:

أ. التدبر في الآية يعطي أن الصلاة غير الرحمة بوجه، ويشهد به جمع الصلاة وإفراد الرحمة، وقد قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾

ب. والآية تفيد كون قوله: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾، في موقع العلة لقوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ﴾، والمعنى أنه إنما يصلي عليكم، وكان من اللازم المترقب ذلك، لأن عادته جرت على الرحمة بالمؤمنين، وأنتم مؤمنون فكان من شأنكم أن يصلي عليكم حتى يرحمكم، فنسبة الصلاة إلى الرحمة نسبة المقدمة إلى ذيها وكالنسبة التي بين الالتفات والنظر، والتي بين الإلقاء في النار والإحراق مثلا.

ج. وهذا يناسب ما قيل في معنى الصلاة: إنها الانعطاف والميل، فالصلاة من الله سبحانه انعطاف إلى العبد بالرحمة ومن الملائكة انعطاف إلى الإنسان بالتوسط في إيصال الرحمة، ومن المؤمنين رجوع ودعاء بالعبودية وهذا لا ينافي كون الصلاة بنفسها رحمة ومن مصاديقها، فإن الرحمة في القرآن على ما يعطيه التدبر في مواردها هي العطية المطلقة الإلهية، والموهبة العامة الربانية، كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾، وقال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾، فالإذهاب لغناه والاستخلاف والإنشاء لرحمته، وهما جميعا يستندان إلى رحمته كما يستندان إلى غناه فكل خلق وأمر رحمة، كما أن كل خلق وأمر عطية تحتاج إلى غنى، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾، ومن عطيته الصلاة فهي أيضا من الرحمة غير أنها رحمة خاصة، ومن هنا يمكن أن يوجه جمع الصلاة وإفراد الرحمة في الآية.

١٣. ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾:

أ. كأنه بمنزلة النتيجة لقوله: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾، ولذلك جدد اهتداءهم

جملة ثانية مفصولة عن الأولى، ولم يقل: صلوات من ربهم ورحمة وهداية، ولم يقل: وأولئك هم المهديون بل ذكر قبولهم للهداية بالتعبير بلفظ الاهتداء الذي هو فرع مترتب على الهداية، فقد تبين أن الرحمة هدايتهم إليه تعالى، والصلوات كالمقدمات لهذه الهداية واهتداءهم نتيجة هذه الهداية، فكل من الصلاة والرحمة والاهتداء غير الآخر وإن كان الجميع رحمة بنظر آخر.

ب. مثل هؤلاء المؤمنين في ما يخبره الله من كرامته عليهم مثل صديقك تلقاه وهو يريد دارك، ويسأل عنها يريد النزول بك فتلقاه بالبشر والكرامة، فتورده مستقيم الطريق وأنت معه تسيره، ولا تدعه يضل في مسيره حتى تورده نزلة من دارك وتعاهده في الطريق بمأكله ومشربه، وركوبه وسيره، وحفظه من كل مكروه يصيبه فجميع هذه الأمور إكرام واحد لأنك إنما تريد إكرامه، وكل تعاهد تعاهد وإكرام خاص، والهداية غير الإكرام، وغير التعاهد، وهو مع ذلك إكرام فكل منها تعاهد، وكل منها هداية وكل منها إكرام خاص، والجميع إكرام، فالإكرام الواحد العام بمنزلة الرحمة، والتعاهدات في كل حين بمنزلة الصلوات، والنزول في الدار بمنزلة الاهتداء.

ج. الإتيان بالجملة الاسمية في قوله: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾، والابتداء باسم الإشارة الدال على البعيد، وضمير الفصل ثانيا وتعريف الخبر بلام الموصول في قوله: ﴿الْمُهْتَدُونَ﴾ كل ذلك لتعظيم أمرهم وتفخيمه.

١٤. وضع هنا مبحثا حول [تجرد النفس عن المادة: البرهان الفلسفي والرد على الماديين]، خلاصته:

أ. النفس هي المشهود الذي نحكي عنه بقولنا ﴿أَنَا﴾، وهي غير البدن وأجزائه، لأننا نغفل عن البدن ولا نغفل عن النفس.

ب. النفس بسيطة وثابتة، لا تقبل الانقسام والتغير، بخلاف البدن الذي هو مادي متغير قابل للانقسام.

ج. النفس جوهر مجرد عن المادة، متعلق بالبدن تعلقاً تدبيرياً.

د. الماديون أنكروا تجرد النفس، وزعموا أن الإنية المشهودة هي مجموعة إدراكات عصبية متوالية، لكن هذا لا يفسر الوحدة والثبات المشهودين.

هـ. العلوم الطبيعية لا تستطيع نفي ما وراء المادة، وعدم الوجدان غير عدم الوجود.

و. القول بأن النفس مجموعة من أرواح متعددة (كجراثيم الحياة) هو افتراض غير مثبت، ولا يفسر الوحدة الشعورية.

ز. البرهان على تجرد النفس عقلي محض، ولا يعتمد على الحس والتجربة، وهو أقوى من الفرضيات المادية.

١٥. وضع هنا مبحثا حول [تحقيق معنى البرزخ وحياة الروح بعد الموت]، خلاصته:

أ. البرزخ هو الحياة بين الموت والبعث، وهي حياة روحية مجردة عن المادة، تختلف باختلاف عمل الإنسان في الدنيا، وقد وردت روايات كثيرة في أحوال البرزخ، منها ما يصف لقاء الروح بماله وولده وعمله، ومنها ما يصف سؤال القبر للمؤمنين والكافرين.

ب. المؤمن عند الموت يلقى عمله الصالح في صورة حسنة، ويبشر بروح من الله وريحان وجنة نعيم، ويدخل قبره فيفسح له فيه، ويفتح له باب إلى الجنة، ويسأله الملكان فيثبته الله بالقول الثابت، وأما الكافر فيلقى عمله السيئ في صورة قبيحة، ويبشر بنزل من حميم، ويضيق عليه قبره، ويفتح له باب إلى النار، ويسلط عليه حيات الأرض وعقاربها.

ج. أرواح المؤمنين تلتقي وتتسائل وتتعارف، وهي في صورة الأجساد، في شجر من الجنة، تزور أهليها في الدنيا، فترى ما يحبون ويستر عنهم ما يكرهون، وتختلف زيارتهم بحسب أعمالهم.

د. سؤال القبر لا يكون إلا لمن محض الإيمان محضاً، أو محض الكفر محضاً، وأما سائر الناس فيلهى عنهم، كما ورد عن الباقر عليه السلام.

هـ. الاسترجاع (قول: إنا لله وإنا إليه راجعون) هو إقرار بالملك لله، وإقرار بالهلاك والرجوع إليه، وهو من أقوال المصابين الذين أخذ الله منهم شيئاً قسراً، وله ثلاث خصال: الصلوات من ربهم، والرحمة، والهداية.

و. الصلوات من الله هي الرحمة، ومن الملائكة التزكية، ومن الناس الدعاء، كما ورد عن الصادق عليه السلام، وبين بعض الروايات تناف ظاهري في عد الصلوات غير الرحمة أو هي هي، ويرتفع بالرجوع إلى البيان المتقدم.

١٦. وضع هنا مبحثا حول [الأخلاق في الإسلام: المسالك الثلاثة والرد على النسبية الأخلاقية]، خلاصته:

أ. علم الأخلاق يبحث عن الملكات الإنسانية المتعلقة بالقوى الثلاث: الشهوية والغضبية والنطقية الفكرية، وفضائلها هي العفة والشجاعة والحكمة والعدالة.

ب. المسلك الأول لتهذيب الأخلاق: بالغايات الدنيوية والثناء الجميل، وهو مسلك الفلاسفة.

ج. المسلك الثاني: بالغايات الأخروية والسعادة الحقيقية، وهو مسلك الأنبياء،:

د. المسلك الثالث: مخصوص بالقرآن، والغرض فيه ابتغاء وجه الله، فيرتفع موضوع الفضيلة والرذيلة، وتتبدل الغاية إلى وجه الله.

هـ. النظرية النسبية في الأخلاق (القائلة بأن الحسن والقبح نسبيان يختلفان باختلاف الاجتماعات) فاسدة من حيث البناء والمبنى.

و. الرد على النسبية: الحسن والقبح المطلقان موجودان في الخارج باستمرار الاجتماع، والاختلاف في المصاديق لا في أصل الحكم.

ز. أصول الأخلاق الأربعة (العفة والشجاعة والحكمة والعدالة) فضائل حسنة دائماً، ومقابلاتها رذائل قبيحة دائماً.

٦٥. الصفا والمروة من شعائر الله:

المقطع [٦٥] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٥٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١/ ٣٨٥»:

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. الصفا والمروة موضعان بمكة يأتي الحجاج بينهما بعمل السعي، وهما جبلان مسافة بينهما سبعمائة وستون ذراعا ونصف ذراع على ما قيل، وأصل الصفا في اللغة الحجر الصلب الأملس، وأصل المروة الحجر الصلب.

ب. الشعائر جمع شعيرة، وهي العلامة، ومنه المشعر، ومنه قولنا: أشعر، الهدي أي أعلمه.

ج. الحج هو القصد بعد القصد، أي القصد المكرر، وهو في اصطلاح الشرع العمل المعهود بين المسلمين.

د. الاعتمار الزيارة وأصله العمارة لأن الديار تعمر بالزيارة، وهو في اصطلاح الشرع زيارة البيت بالطريق المعهود.

هـ. الجناح الميل عن الحق والعدل، ويراد به الإثم، فيئول نفي الجناح إلى التجويز.

و. التطوف من الطواف، وهو الدوران حول الشيء، وهو السير الذي ينتهي آخره إلى أوله، ومنه يعلم أن ليس من اللازم كونه حول شيء، وإنما ذلك من مصاديقه الظاهرة، وعلى هذا المعنى أطلق التطوف في الآية، فإن المراد به السعي وهو قطع ما بين الصفا والمروة من المسافة سبع مرات متوالية.

ز. التطوع من الطوع بمعنى الطاعة، وقيل: إن التطوع يفارق الإطاعة في أنه يستعمل في المندوب خاصة، بخلاف الإطاعة ولعل ذلك، لو صح هذا القول، بعناية أن العمل الواجب لكونه إلزاميا كأنه ليس بمأتي به طوعا، بخلاف المأتي من المندوب فإنه على الطوع من غير شائبة، وهذا تلطف عنائي وإلا فأصل الطوع يقابل الكره ولا ينافي الأمر الإلزامي، قال تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾، وأصل باب التفعل الأخذ لنفسه، كقولنا: تميز أي أخذ يميز، وتعلم الشيء أي أخذ يعلمه، وتطوع خيرا أي أخذ يأتي بالخير بطوعه، فلا دليل من جهة اللغة على اختصاص التطوع بالامتثال الندبي إلا أن توجبه العناية العرفية المذكورة.

٢. ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ﴾ إلى قوله: ﴿يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ يشير إلى كون المكانين معلمين بعلامة الله سبحانه، يدلان بذلك عليه، ويذكرانه تعالى واختصاصهما بكونهما من الشعائر دون بقية الأشياء جميعا يدل على أن المراد بالشعائر ليست الشعائر التكوينية بل هما شعيرتان بجعله تعالى إياهما معبدين يعبد فيهما، فهما يذكران الله سبحانه، فكونهما شعيرتين يدل على أنه تعالى قد شرع فيهما عبادة متعلقة بهما.

٣. تفريع قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ إنما هو للإيذان بأصل تشريع السعي بين الصفا والمروة، لا لإفادة الندب، ولو كان المراد إفادة الندب كان الأنسب بسياق الكلام أن يمدح التطوف، لا أن ينفي ذمه، فإن حاصل المعنى أنه لما كان الصفا والمروة معبدين ومنسكين من معابد الله فلا يضركم أن تعبدوه فيهما، وهذا لسان التشريع، ولو كان المراد إفادة الندب كان الأنسب

أن يفاد أن الصفا والمروة لما كانا من شعائر الله فإن الله يحب السعي بينهما، وهو ظاهر، والتعبير بأمثال هذا القول الذي لا يفيد وحده الإلزام في مقام التشريع شائع في القرآن، وكقوله تعالى في الجهاد: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ﴾، وفي الصوم ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾، وفي القصر ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾

٤. ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾:

أ. إن كان معطوفا على مدخول فاء التفريع في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ﴾، كان كالتعليل لتشريع التطوف بمعنى آخر أعم من العلة الخاصة التي تبين بقوله: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ﴾، وكان المراد بالتطوع مطلق الإطاعة لا الإطاعة المندوبة.

ب. وإن كان استينافا بالعطف إلى أول الآية كان مسوقا لإفادة محبوبية التطوف في نفسه إن كان المراد بتطوع الخير هو التطوف أو مسوقا لإفادة محبوبية الحج والعمرة إن كان هما المراد بتطوع الخير هذا.

٥. الشاكر والعليم اسمان من أسماء الله الحسنى، والشكر هو مقابلة من أحسن إليه إحسان المحسن بإظهاره لسانا أو عملا كمن ينعم إليه المنعم بالمال فيجازيه بالثناء الجميل الدال على نعمته أو باستعمال المال في ما يرتضيه، ويكشف عن إنعامه، والله سبحانه وإن كان محسنا قديم الإحسان ومنه كل الإحسان لا يد لأحد عنده حتى يستوجبه الشكر إلا أنه جل ثناؤه عد الأعمال الصالحة التي هي في الحقيقة إحسانه إلى عباده إحسانا من العبد إليه، فجازاه بالشكر والإحسان وهو إحسان على إحسان قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا﴾، فإطلاق الشاكر عليه تعالى على حقيقة معنى الكلمة من غير مجاز.

٦. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير العياشيّ: عن بعض أصحابنا عن الصادق عليه السلام: سألته: عن السعي بين الصَّفا والمروة فريضة هي أم سنّة؟ قال: فريضة، قلت: أليس الله يقول: فلا جناح عليه أن يطوّف بهما؟ قال: كان ذلك في عمرة القضاء، وذلك أنّ رسول الله كان شرط عليهم أن يرفعوا الأصنام فتشاغل رجل من أصحابه حتى أُعيدت الأصنام، قال: فأنزل الله، إن الصّفا والمروة من شعائر الله فمن حجَّ البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوَّف بهما، أي والأصنام عليها.

• أقول: وعن الكافي: ما يقرب منه.

ب. وفي الكافي أيضاً عن الصادق عليه السلام في حديث حجّ النبيّ عليه السلام: بعدما طاف بالبيت وصلى ركعتية قال: ﷺ إنَّ الصّفا والمروة من شعائر الله فابدء بها بدء الله عز وجل، وإن المسلمين كانوا يظنون أن السعي بين الصفا والمروة شيء صنعه المشركون فأنزل الله إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما.

• أقول: ولا تنافي بين الروايتين في شأن النزول، وهو ظاهر، وقوله عليه السلام في الرواية فأبدء بما بدء الله ملاك التشريع، وقد مضى في حديث هاجر وسعيها سبع مرات بين الصفا والمروة أن السنة جرت بذلك.

ج. وفي الدر المنثور: عن عامر الشعبي قال: كان وثن بالصفا يدعى إساف، ووثن بالمروة يدعى نائلة فكان أهل الجاهلية إذا طافوا بالبيت يسعون بينهما ويمسحون الوثنين فلما قدم رسول الله عليه السلام قالوا: يا رسول الله إن الصفا والمروة انما كان يطاف بهما من أجل الوثنين، وليس الطواف بهما من الشعائر، فأنزل الله: إن الصفا والمروة الآية فذكر الصفا من أجل الوثن الذي كان عليه، وأثبت المروة من جهة الصنم الذي كان عليه موثباً.

• أقول: وقد روى الفريقان في المعاني السابقة روايات كثيرة.

• ومقتضى جميع هذه الروايات أن الآية نزلت في تشريع السعي في سنة حج فيها المسلمون، وسورة البقرة أول سورة نزلت بالمدينة، ومن هنا يستنتج أن الآية غير متحدة السياق مع ما قبلها من آيات القبلة فانها نزلت في السنة الثانية من الهجرة كما تقدم، ومع الآيات التي في مفتتح السورة، فانها نزلت في السنة الاولى من الهجرة فللايات سياقات متعددة كثيرة، لا سياق واحد.

٦٦. لعنة الله والملائكة والناس على كاتمي البينات:

المقطع [٦٦] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٥٩-١٦٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١/ ٣٨٩»:

١. ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى﴾، الظاهر أن المراد بالهدى ما تضمنه الدين

الإلهي من المعارف والأحكام الذي يهدي تابعيه إلى السعادة، وبالبينات الآيات والحجج التي هي بينات وأدلة وشواهد على الحق الذي هو الهدى، فالبينات في كلامه تعالى وصف خاص بالآيات النازلة، وعلى هذا يكون المراد بالكتمان وهو الإخفاء، أعم من كتمان أصل الآية، وعدم إظهاره للناس، أو كتمان دلالته بالتأويل أو صرف الدلالة بالتوجيه، كما كانت اليهود تصنع ببشارات النبوة ذلك فما يجهله الناس لا يظهرونه لهم، وما يعلم به الناس يؤولونه بصرفه عنه ﷺ.

٢. ﴿مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ﴾، أفاد أن كتمانهم إنما هو بعد البيان والتبين للناس، لا لهم فقط، وذلك أن التبين لكل شخص شخص من أشخاص الناس أمر لا يحتمله النظام الموجود المعهود في هذا العالم، لا في الوحي فقط، بل في كل إعلام عمومي وتبيين مطلق، بل إنما يكون باتصال الخبر إلى بعض الناس من غير واسطة وإلى بعض آخرين بواسطتهم، بتبليغ الحاضر الغائب، والعالم الجاهل، فالعالم يعد من وسائط البلوغ وأدواته، كاللسان والكلام، فإذا بين الخبر للعالم المأخوذ عليه الميثاق بعلمه مع غيره من المشافهين فقد بين الناس، فكتمان العالم علمه هذا كتمان العلم عن الناس بعد البيان لهم.

٣. كتمان العلم عن الناس بعد البيان لهم هو السبب الوحيد الذي عده الله سبحانه سببا لاختلاف الناس في الدين وتفرقهم في سبل الهداية والضلالة، وإلا فالدين فطري تقبله الفطرة وتخضع له القوة المميزة بعد ما بين لها، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ الله الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ الله ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، فالدين فطري على الخلقة لا يدفعه الفطرة أبدا لو ظهر لها ظهورا ما بالصفاء من القلب، كما في الأنبياء، أو ببيان قولي، ولا محالة ينتهي هذا الثاني إلى ذلك الأول، ولذلك جمع في الآية بين كون الدين فطريا على الخلقة وبين عدم العلم به، فقال: ﴿فِطْرَتَ الله الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾، وقال: ﴿لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾

٤. ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ يفيد أن الاختلاف فيما يشتمل عليه الكتاب إنما هو ناشئ عن بغي العلماء الحاملين له، فالاختلافات الدينية والانحراف عن جادة الصواب معلول ببغي العلماء بالإخفاء والتأويل والتحريف، وظلمهم، حتى أن الله عرّف الظلم بذلك يوم القيامة كما قال ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ الله عَلَى الظَّالِمِينَ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ الله وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

٥. تبين أن الآية مبتنية على الآية أعني، أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ

وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ﴾ الآية، مبتنية على قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ الآية، ومشيرة إلى جزاء هذا البغي بذيلها وهو قوله: ﴿أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ﴾

٦. ﴿أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾، بيان لجزاء بغي الكاتمين لما أنزله الله من الآيات والهدى، وهو اللعن من الله، واللعن من كل لاعن، وقد كرر اللعن لأن اللعن مختلف فإنه من الله التبعيد من الرحمة والسعادة ومن اللاعنين سؤاله من الله، وقد أطلق اللعن منه ومن اللاعنين وأطلق اللاعنين، وهو يدل على توجيه كل اللعن من كل لاعن إليهم والاعتبار يساعد عليه فإن الذي يقصده لاعن بلعنه هو البعد عن السعادة، ولا سعادة بحسب الحقيقة، إلا السعادة الحقيقية الدينية، وهذه السعادة لما كانت مبينة من جانب الله، مقبولة عند الفطرة، فلا يحرم عنها محروم إلا بالرد والجحود، وكل هذا الحرمان إنما هو لمن علم بها وجحدها عن علم دون من لا يعلم بها ولم تبين له، وقد أخذ الميثاق على العلماء أن يبثوا علمهم وينشروا ما عندهم من الآيات والهدى، فإذا كتموه وكفوا عن بثه فقد جحدوه فأولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون، ويشهد لما ذكرنا الآية الآتية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾، إلى قوله ﴿أَجْمَعِينَ﴾ الآية فإن الظاهر أن قوله: ﴿إِنَّ﴾ للتعليل أو لتأكيد مضمون هذه الآية، بتكرار ما هو في مضمونها ومعناها وهو قوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾

٧. ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا﴾ الآية استثناء من الآية السابقة، والمراد بتقييد توبتهم بالتبين أن يتبين أمرهم ويتظاهروا بالتوبة، ولازم ذلك أن يبينوا ما كتموه للناس وأنهم كانوا كاتمين وإلا فلم يتوبوا بعد لأنهم كاتمون بعد بكتمان أنهم كانوا كاتمين.

٨. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير العياشي عن بعض أصحابنا عن الصادق عليه السلام قال: قلت له: أخبرني عن قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩] الآية، قال: نحن نعني بها ـ والله المستعان ـ إن الواحد منا إذا صارت إليه لم يكن له أو لم يسعه إلا أن يبين للناس من يكون بعده.

ب. وعن الباقر عليه السلام في الآية، قال: يعني بذلك نحن، والله المستعان.

ج. وعن محمد بن مسلم قال عليه السلام: هم أهل الكتاب.

• أقول: كل ذلك من قبيل الجري والانطباق، وإلا فالآية مطلقة.

د. وفي بعض الروايات عن علي عليه السلام: تفسيره بالعلماء إذا فسدوا.

هـ. وفي المجمع عن النبي ﷺ في الآية، قال: من سئل عن علم يعلمه فكتمه، ألجم يوم القيامة بلجام من نار، وهو قوله: ﴿أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩]

• أقول: والخبران يؤيدان ما قدمناه.

و. وفي تفسير العياشي عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩]، قال: نحن هم، وقد قالوا: هو أم الأرض.

• أقول: هو إشارة إلى ما يفيده قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١٨]، فإنهم الأشهاد المأذونون في الكلام يوم القيامة، والقائلون صواباً، وقوله: (وقالوا: هو أم الأرض)، هو منقول عن المفسرين كمجاهد وعكرمة وغيرهما، وربما نسب في بعض الروايات إلى النبي ﷺ.

ز. وفي تفسير العياشي عن الصادق عليه السلام: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ﴾ [البقرة: ١٥٩] في عليّ.

• أقول: وهو من قبيل الجري والانطباق.

٦٧. لعن الكافرين المصرين على الكفر حتى الموت:

المقطع [٦٧] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ [البقرة: ١٦١-١٦٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١/ ٣٨٩»:

١. ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾:

أ. كناية عن إصرارهم على كفرهم وعنادهم وتعنتهم في قبول الحق فإن من لا يدين بدين الحق لا لعناد واستكبار بل لعدم تبينه له ليس بكافر بحسب الحقيقة، بل مستضعف، أمره إلى الله، ويشهد بذلك تقييد كفر الكافرين في غالب الآيات والتكذيب وخاصة في آيات هبوط آدم المشتملة على أول تشريع شرع

لنوع الإنسان، قال تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾ إلى قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

ب. فالمراد بالذين كفروا في الآية هم المكذبون المعاندون، وهم الكاتمون لما أنزل الله، وجازاهم الله تعالى بقوله: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾، وهذا حكم من الله سبحانه أن يلحق بهم كل لعن لعن به ملك من الملائكة أو أحد من الناس جميعا من غير استثناء، فهؤلاء سبيلهم سبيل الشيطان، إذ قال الله سبحانه فيه: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾، فجعل جميع اللعن عليه فهؤلاء، وهم العلماء الكاتمون لعلمهم، شركاء الشيطان في اللعن العام المطلق ونظراؤه فيه، فما أشد لحن هذه الآية وأعظم أمرها! وسيجيء في الكلام على قوله تعالى: ﴿لِيَمِيزَ اللهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ﴾، ما يتعلق بهذا المقام إن شاء الله العزيز.

٢. ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾، أي في اللعنة وقوله: ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾، في تبديل السياق بوضع العذاب موضع اللعنة دلالة على أن اللعنة تتبدل عليهم عذابا.

٣. في هذه الآيات موارد من الالتفات:

أ. فقد التفت في الآية الأولى من التكلم مع الغير إلى الغيبة في قوله: ﴿أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ﴾، لأن المقام مقام تشديد السخط، والسخط يشتد إذا عظم اسم من ينسب إليه أو وصفه، ولا أعظم من الله سبحانه، فنسب إليه اللعن ليبلغ في الشدة كل مبلغ.

ب. ثم التفت في الآية الثانية من الغيبة إلى التكلم وحده بقوله: ﴿فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾، للدلالة على كمال الرحمة والرأفة، بإلقاء كل نعت وطرح كل صفة وتصدى الأمر بنفسه تعالى وتقدس، فليست الرأفة والحنان المستفادة من هذه الجملة كالتي يستفاد من قولنا مثلا: فأولئك يتوب الله عليهم أو يتوب ربهم عليهم.

ج. ثم التفت في الآية الثالثة من التكلم وحده إلى الغيبة بقوله: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ﴾، والوجه فيه نظير ما ذكرناه في الالتفات الواقع في الآية الأولى.

٦٨. وحدانية الله وآياته في الكون داعية للعقل والإيمان:

المقطع [٦٨] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ

الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٣-١٦٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١/ ٣٩٣»:

١. وضع هنا مبحثا حول [تحقيق معنى التوحيد في قوله تعالى: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾]، خلاصته:

أ. مفهوم الوحدة من المفاهيم البديهية، ويتصف الشيء بالوحدة من جهة صفة من صفاته (كقولنا: رجل واحد)، أو من جهة ذاته (وهي الأحدية التي لا تقبل التكثر والتجزي)

ب. الله سبحانه واحد من جهة أن صفة الألوهية لا يشاركه فيها غيره، وصفاته (كالعلم والقدرة والحياة) عين ذاته، لا تتكثر إلا مفهوماً فقط، فليس شيء منها غير الآخر.

ج. الأحد يدل على وحدة الذات، وهو لا يقع في الكلام من غير تقييد بالإضافة إلا في حيز النفي (كقولنا: ما جاءني أحد)، بخلاف ﴿الْوَاحِدِ﴾ الذي يدل على وحدة الصفة.

د. قوله: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [البقرة: ١٦٣]، يفيد اختصاص الألوهية بالله، ووحدته فيها وحدة تليق بساحته، ولو قيل: (والله إله واحد) لم يفد توحيداً، لأن المشركين يرون أن كل إله واحد، ولو قيل: ﴿وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ﴾ لم يفد نصاً في التوحيد، لأنه قد يراد به الوحدة النوعية.

هـ. قوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، جيء به لتأكيد نصوصية التوحيد، ونفي الجنس للإله، والمراد بالإله ما يصدق عليه حقيقة وواقعاً، والتقدير: (لا إله بالحقيقة موجود غير الله)، و﴿إِلَّا﴾ هنا بمعنى ﴿غَيْرُ﴾، وليست للاستثناء.

و. الجملة مسوقة لنفي غير الله من الآلهة الموهومة، لا لنفي غير الله وإثبات وجود الله، لأن القرآن يعد أصل وجود الله بديهياً لا يتوقف على إثبات، وإنما يعتني بإثبات الصفات (كالوحدة والعلم والقدرة)

ز. تقدير الخبر بـ (موجود) يثبت نفي وجود إله غير الله، لا نفي إمكانه، لأنه لا معنى لفرض موجود ممكن ينتهي إليه وجود جميع الموجودات، ويمكن تقديره بـ ﴿حَقٌّ﴾: (لا معبود حق إلا هو)

٢. ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾، بذكر الاسمين يتم معنى الربوبية، فإليه تعالى ينتهي كل عطية عامة، بمقتضى رحمانيته، وكل عطية خاصة واقعة في طريق الهداية والسعادة الأخروية بمقتضى رحيميته.

٣. وضع هنا مبحثا حول [تحقيق معنى الآية: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ دراسة في دلالة الآية على التوحيد، والبراهين الثلاثة المستفادة منها، والرد على شبهات الماديين]، خلاصته:

أ. الآية الكريمة مسوقة للدلالة والبرهنة على ما تضمنته الآية السابقة: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣]

ب. البرهان الأول: هذه السماوات والأرض وما فيهما من بدائع الخلق أمور مفتقرة في نفسها إلى صانع موجد، فلكل منها إله موجد.

ج. البرهان الثاني: هذه الأجرام المختلفة (صغراً وكبراً، قرباً وبعداً) تعمل في نظام واحد متصل، وتنفعل بعضها عن بعض بقوانين ثابتة، وهذا يدل على أن إله العالم الموجد له والمدبر لأمره واحد.

د. البرهان الثالث: الإنسان موجود أرضي، لا يفتقر في وجوده وبقائه إلى أزيد من هذا النظام الكلي، فهو يحتاج إلى نفس الإله الذي أوجد هذه الأجرام ودبرها، فإلهها هو إله الإنسان.

هـ. البرهان على الاسمين ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (٢٢)﴾: هذا الإله يعطي كلاً ما يحتاجه في سعادته الوجودية وغايته الأخروية، وكيف يمكن أن يدبر عاقبة الأمر غير الذي يدبر نفس الأمر؟

و. الأمور الصناعية (كالفلك والسفن) منسوبة إلى الخلقة كاستناد الأمور الطبيعية، ولا فرق بينهما من حيث الاحتياج إلى إرادة الله، لأن نسبة الفعل إلى الإنسان لا تزيد على نسبة الفعل إلى سبب طبيعي.

ز. الرد على الماديين: إثبات الصانع لا يقوم على الجهل بعلل الحوادث، بل على قانون العلية العام الذي يوجب انتهاء سلسلة العلل الممكنة إلى علة واجبة، والقرآن يثبت التوحيد مع تقرير جريان قانون العلية بين أجزاء العالم، وينسب الأفعال إلى أسبابها وإلى الله معاً.

ح. تفصيل المفردات: اختلاف الليل والنهار، والماء النازل، والرياح المصرفة، والسحاب المسخر، كلها جمل الحوادث العامة التي يتألف منها نظام التكوين، وهي آيات لقوم يعقلون.

٦٩. التبعية العمياء للآلهة الباطلة وندامتهم يوم القيامة:

المقطع [٦٩] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ وَقَالَ

الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٥-١٦٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١/ ٤٠٦»:

١. ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا﴾، الند كالمثل وزنا ومعنى، ولم يقل من يتخذ لله أندادا كما عبر بذلك في سائر الموارد كقوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾، وغير ذلك لأن المقام مسبوق بالحصر في قوله: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ الآية، فكأن من اتخذ لله أندادا قد نقض الحصر من غير مجوز واتخذ من يعلم أنه ليس بإله إلها اتباعا للهوى وتهوينا لحكم عقله ولذلك نكره تحقيرا لشأنه، فقال ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا﴾

٢. ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾، وفي التعبير بلفظ يحبونهم دلالة على أن المراد بالأنداد ليس هو الأصنام فقط، بل يشمل الملائكة، وأفرادا من الإنسان الذين اتخذوهم أربابا من دون الله تعالى بل يعم كل مطاع من دون الله من غير أن يأذن الله في إطاعته كما يشهد به ما في ذيل الآيات من قوله: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾، وكما قال تعالى: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ﴾، وقال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ﴾

٣. في الآية دليل على أن الحب يتعلق بالله تعالى حقيقة خلافا لمن قال إن الحب، وهو وصف شهواني، يتعلق بالأجسام والجسمانيات، ولا يتعلق به سبحانه حقيقة، وإن معنى ما ورد من الحب له الإطاعة بالائتمار بالأمر والانتهاء عن النهي تجوزا كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾، والآية حجة عليهم فإن قوله تعالى: ﴿أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ يدل على أن حبه تعالى يقبل الاشتداد، وهو في المؤمنين أشد منه في المتخذين لله أندادا، ولو كان المراد بالحب هو الإطاعة مجازا كان المعنى والذين آمنوا أطوع لله ولم يستقم معنى التفضيل لأن طاعة غيرهم ليست بطاعة عند الله سبحانه، فالمراد بالحب معناه الحقيقي.

٤. يدل عليه أيضا قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ﴾، إلى قوله: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾، فإنه ظاهر في أن الحب المتعلق بالله والحب المتعلق برسوله والحب المتعلق بالآباء والأبناء والأموال وغيرها جميعا من سنخ واحد لمكان قوله ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُمْ﴾، وأفعل التفضيل يقتضي اشتراك المفضل والمفضل عليه في أصل المعنى واختلافهما من حيث الزيادة والنقصان.

٥. في الآية ذم المتخذين للأنداد بقوله: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ﴾ ثم مدح المؤمنين بأنهم أشد حبا لله سبحانه فدل التقابل بين الفريقين على أن ذمهم إنما هو لتوزيعهم المحبة الإلهية بين الله وبين الأنداد الذين اتخذوهم أندادا، وهذا وإن كان بظاهره يمكن أن يستشعر منه أنهم لو وضعوا له سبحانه سهما أكثر لم يذموا على ذلك لكن ذيل الآية ينفي ذلك فإن قوله: ﴿إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لله جَمِيعًا﴾، وقوله: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾، وقوله: ﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾، يشهد بأن الذم لم يتوجه إلى الحب من حيث إنه حب، بل من جهة لازمه الذي هو الاتباع وكان هذا الاتباع منهم لهم لزعمهم أن لهم قوة يتقوون بها لجلب محبوب أو دفع مكروه عن أنفسهم فتركوا بذلك اتباع الحق من أصله أو في بعض الأمر، وليس من اتبع الله في بعض أمره دون بعض بمتبع له، وحينئذ يندفع الاستشعار المذكور.

٦. يظهر أن هذا الحب يجب أن لا يكون لله فيه سهيم وإلا فهو الشرك واشتداد هذا الحب ملازم لانحصار التبعية من أمر الله، ولذلك مدح المؤمنين بذلك في قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لله﴾

٧. وإذ كان هذا المدح والذم متعلقا بالحب من جهة أثره الذي هو الاتباع فلو كان الحب للغير بتعقيب إطاعة الله تعالى في أمره ونهيه لكون الغير يدعو إلى طاعته تعالى، ليس له شأن دون ذلك، لم يتوجه إليه ذم البتة كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ﴾، إلى قوله: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾، فقرر لرسوله حبا كما قرره لنفسه لأن حبه ﷺ حب الله تعالى فإن أثره وهو الاتباع عين اتباع الله تعالى فإن الله سبحانه هو الداعي إلى إطاعة رسوله والأمر باتباعه، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ﴾، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾، وكذلك اتباع كل من يهتدي إلى الله باتباعه كعالم يهدي بعلمه أو آية تعين بدلالته وقرآن يقرب بقراءته ونحو ذلك فإنها كلها محبوبة بحب الله واتباعها طاعة تعد مقربة إليه.

٨. بان بهذا البيان أن من أحب شيئا من دون الله ابتغاء قوة فيه فاتبعه في تسبيبه إلى حاجة ينالها منه أو اتبعه بإطاعته في شيء لم يأمر الله به فقد اتخذ من دون الله أندادا، وسيريهم الله أعمالهم حسرات عليهم، وأن المؤمنين هم الذين لا يحبون إلا الله ولا يبتغون قوة إلا من عند الله ولا يتبعون غير ما هو من أمر الله ونهيه فأولئك هم المخلصون لله دينا، وبان أيضا أن حب من حبه من حب الله واتباعه اتباع الله كالنبي وآله

والعلماء بالله، وكتاب الله وسنة نبيه وكل ما يذكر الله بوجه إخلاص لله ليس من الشرك المذموم في شيء، والتقرب بحبه واتباعه تقرب إلى الله، وتعظيمه بما يعد تعظيما من تقوى الله، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ الله فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾والشعائر هي العلامات الدالة، ولم يقيد بشيء مثل الصفا والمروة وغير ذلك، فكل ما هو من شعائر الله وآياته وعلاماته المذكرة له فتعظيمه من تقوى الله ويشمله جميع الآيات الآمرة بالتقوى.

٩. نعم لا يخفى لذي مسكة أن إعطاء الاستقلال لهذه الشعائر والآيات في قبال الله واعتقاد أنها تملك لنفسها أو غيرها نفعا أو ضرا أو موتا أو حياة أو نشورا إخراج لها عن كونها شعائر وآيات وإدخال لها في حظيرة الألوهية وشرك بالله العظيم، والعياذ بالله تعالى.

١٠. ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لله جَمِيعًا وَأَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾، ظاهر السياق أن قوله: ﴿إِذْ﴾ مفعول يرى، وأن قوله: ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ لله﴾ إلى آخر الآية، بيان للعذاب، و﴿لَوْ﴾ للتمني، والمعنى ليتهم يرون في الدنيا يوما يشاهدون فيه العذاب فيشاهدون أن القوة لله جميعا وقد أخطئوا في إعطاء شيء منه لأندادهم وأن الله شديد في عذابه، وإذاقته عاقبة هذا الخطأ فالمراد بالعذاب في الآية، على ما يبينه ما يتلوه، مشاهدتهم الخطأ في اتخاذهم أندادا يتوهم قوة فيه ومشاهدة عاقبة هذا الخطأ ويؤيده الآيتان التاليتان: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ فلم يصل من المتبوعين إلى تابعيهم نفع كانوا يتوقعونه ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب فلم يبق تأثير لشيء دون الله.

١١. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾، وهو تمني الرجوع إلى الدنيا ﴿فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ﴾ أي من الأنداد المتبوعين في الدنيا ﴿كما تبرؤوا مِنَّا﴾ في الآخرة ﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ﴾ أي الذين ظلموا باتخاذ الأنداد ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾، وهي حبهم واتباعهم لهم في الدنيا حال كونها ﴿حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾، ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾، فيه حجة على القائلين بانقطاع العذاب من طريق الظواهر.

١٢. وضع هنا مبحثا حول [حقيقة الحب: تحليل فلسفي لوجوده ومراتبه واستناده إلى الله]، خلاصته:

أ. الحب تعلق وجودي وانجذاب خاص بين المحب والمحبوب، وهو رابطة قائمة بين العلة المكملة والمعلول المستكمل.

ب. الحب ينشأ من تعلق القوى الإنسانية بأفعالها وكمالاتها، فحب الغذاء مثلاً يعود إلى حب القوة الغاذية لفعلها.

ج. الحب ذو مراتب مختلفة من الشدة والضعف، بحسب تفاوت الوجود والتعلق، ويشمل المادي (كالتغذي) وغير المادي (كالعلم)

د. الله سبحانه أهل للحب بكل جهة، فهو ذو كمال غير متناه، وهو خالق منعم علينا بنعم لا تحصى، فنحبه حباً ذاتياً.

هـ. الحب رابطة وجودية، والروابط الوجودية ليست خارجة عن وجود موضوعها، فكل شيء يحب ذاته وآثار وجوده.

و. الله يحب خلقه لحب ذاته، ولقبولهم إنعامه وهدايته،:

ز. الشعور والعلم ليسا لازمين لذات الحب، بل بحسب المصداق، فالقوى غير الشاعرة لها حب بآثارها.

ح. الحب حقيقة سارية في جميع الموجودات.

١٣. وضع هنا مبحثا حول [خلود العذاب: الأدلة العقلية والنقلية والرد على الإشكالات]، خلاصته:

أ. الكتاب نص في خلود العذاب، والسنة من طرق أئمة أهل البيت مستفيضة فيه، والأخبار المخالفة مطروحة.

ب. العقل لا ينال الجزئيات، والسبيل في خصوصيات المعاد هو تصديق الوحي، لا الاستدلال العقلي المباشر.

ج. العذاب الخالد هو أثر لصورة الشقاء التي رسخت في النفس وصارت نوعاً جديداً، وهذه الصورة دائمة الوجود، وأفعالها صادرة عن النوع من غير قسر.

د. الإشكالات الواردة على خلود العذاب (كالرحمة الواسعة، والقسر الدائم، والمخالفة المتناهية، وخدمة أهل الشقاء، والانتقام) كلها ساقطة ببيان حقيقة العذاب الخالد.

هـ. الرحمة الإلهية نوعان: عامة (إعطاء ما يستعد له الشيء في صراط الوجود) وخاصة (الهداية إلى

التوحيد)، والعذاب الدائم من الرحمة العامة.

و. العذاب الدائم ليس قسراً، بل هو أثر ملائم لطبع الشقي، وغير مرضي من جهة الذوق، وهو معلول لصورة الشقاء لا للمخالفات المحدودة.

ز. العبودية نوعان: عامة (خضوع وجودي) وخاصة (انقياد في صراط التوحيد)، ولكل جزاؤه المناسب.

ح. العذاب الدائم مستند إلى صورة الشقاء، وإلى الله بالمعنى الوجودي، لا بمعنى الانتقام المستحيل عليه.

١٤. اعلم أن هذا الطريق من الاستدلال على رد الشبهة المذكورة مما استعمل في الكتاب والسنّة أيضاً، قال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾، ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠]، فالآية كما ترى يجعل العذاب والشكر كليهما من العطية والرحمة وتجعل تحقق كل منهما مرتبطة بارادة العبد وسعيه وهذا بعينه الطريق الذي سلكناه في أصل المسألة ودفع الإشكالات عنها وهناك آيات أُخر في هذا المعنى ستتكلم فيها في مواردها، إنشاء الله تعالى.

١٥. أحاديث وآثار:

أ. في الخصال والتوحيد والمعاني عن شريح بن هاني قال: إن أعرابياً قام يوم الجمل إلى أمير المؤمنين عليه السلام، فقال: يا أمير المؤمنين، أتقول إن الله واحد؟ قال: فحمل الناس عليه، فقالوا: يا أعرابي، أما ترى ما فيه أمير المؤمنين من تقسم القلب؟ فقال أمير المؤمنين: دعوه، فإن الذي يريده الأعرابي هو الذي نريده من القوم، ثم قال عليه السلام: يا أعرابي، إن القول في أن الله واحد على أربعة أقسام: فوجهان منها لا يجوزان على الله تعالى، ووجهان يثبتان فيه، فأما اللذان لا يجوزان عليه: فقول القائل: (واحد) يقصد به باب الأعداد، فهذا لا يجوز؛ لأن ما لا ثاني له لا يدخل في باب الأعداد، أما ترى أنه كفر من قال: إنه ثالث ثلاثة؟ وقول القائل: (هو واحد من الناس) يريد به النوع من الجنس، فهذا ما لا يجوز؛ لأنه تشبيه، وجل ربنا وتعالى عن ذلك، وأما الوجهان اللذان يثبتان فيه: فقول القائل: (هو واحد ليس له في الأشياء شبه)،

كذلك ربنا، وقول القائل: إنه عز وجل أحدي المعنى، يعني به أنه لا ينقسم في وجود ولا عقل ولا وهم، كذلك ربنا.

• أقول: والوجهان اللذان أثبتهما عليه السلام كما ترى منطبقان على ما ذكرناه في بيان قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [البقرة: ١٦٣] الآية.

• وقد تكرر في الخطب المروية عن علي عليه السلام والرضا عليه السلام وغيرهما من أئمة أهل البيت قولهم: (إنه واحد لا بالعدد)، الخطبة، وهو ما مر من معنى صرافة ذاته الآبية عن العدد، وفي دعاء الصحيفة الكاملة: (لك وحدانية العدد)، الدعاء، ويحمل على الملكية، أي أنت تملك وحدانية العدد دون الاتصاف؛ فإن العقل والنقل ناهضان على أن وجوده سبحانه صرف لا يتثنى ولا يتكرر بذاته وحقيقته.

ب. وفي الكافي والاختصاص وتفسير العياشي عن الباقر عليه السلام في قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] الآية ـ في حديث ـ قال: هم والله يا جابر أئمة الظلمة وأشياعهم، وفي رواية العياشي: والله يا جابر هم أئمة الظلم وأشياعهم.

• أقول: وقد اتضح معناه بما مر من البيان، وتعبيره عليه السلام بـ(أئمة الظلم) لمكان قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [البقرة: ١٦٥]، فعد التابعين المتخذين للأنداد ظلمة، فيكون متبوعوهم أئمة الظلمة وأئمة الظلم.

ج. وفي الكافي عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة: ١٦٧] الآية، قال: هو الرجل يدع ماله لا ينفقه في طاعة الله بُخلاً، ثم يموت فيدعه لمن يعمل في طاعة الله أو في معصية الله، فإن عمل به في طاعة الله رآه في ميزان غيره، فرآه حسرة، وقد كان المال له، وإن كان عمل به في معصية الله، قواه بذلك المال حتى عمل به في معصية الله.

• أقول: وروي هذا المعنى العياشي والصدوق والمفيد والطبرسي عن الباقر والصادق عليهما السلام، وهو ناظر إلى التوسعة في معنى الأنداد، وهو كذلك كما تقدم.

٧٠. الأكل من الحلال الطيب واجتناب خطوات الشيطان:

المقطع [٧٠] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى

اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٨ـ١٦٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١/ ٤١٧»:

١. ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾:

أ. الحلال مقابل الحرام الممنوع اقتحامه، والحل مقابل الحرمة، والحل مقابل حرم، والحل مقابل العقد، وهو في جميع موارد استعماله يعطي معنى حرية الشيء في فعله وأثره.

ب. الطيب، مقابل الخبيث، ما يلائم النفس والشيء، كالطيب من القول لملاءمته السمع، والطيب من العطر يلائم الشامة، والطيب من المكان يلائم حال المتمكن فيه.

ج. الخطوات بضمتين جمع خطوة، وهي ما بين القدمين للماشي، وقرئ خطوات بفتحتين وهي جمع خطوة وهي المرة، وخطوات الشيطان هي الأمور التي نسبته إلى غرض الشيطان، وهو الإغواء بالشرك، نسبة خطوات الماشي إلى مقصده وغرضه، فهي الأمور التي هي مقدمات للشرك والبعد من الله سبحانه.

د. الأمر هو تحميل الآمر إرادة نفسه على المأمور ليأتي ما يريده، والأمر من الشيطان وسوسته وتحميله ما يريده من الإنسان عليه بإخطاره في قلبه وتزيينه في نظره والسوء ما ينافره الإنسان ويستقبحه بنظر الاجتماع فإذا جاوز حده وتعدى طوره كان فحشاء ولذلك سمي الزنا بالفحشاء وهو مصدر كالسراء والضراء.

٢. عمم تعالى الخطاب لجميع الناس لأن الحكم الذي يقرعه سمعهم ويبينه لهم مما يبتلى به الكل:

أ. أما المشركون: فقد كان عندهم أمور مما حرموه على أنفسهم افتراء على الله كما روي أن ثقيفا وخزاعة وبني عامر بن صعصعة وبني مدلج كانوا قد حرموا على أنفسهم أشياء من الحرث والأنعام والبحيرة والسائبة والوصيلة، هذا في العرب، وفي غيرهم أيضا يوجد أشياء كثيرة من هذا القبيل.

ب. أما المؤمنون: فربما كان يبقى بعد الإسلام بينهم أمور خرافية طبق ناموس توارث الأخلاق والآداب القومية والسنن المنسوخة بنواسخ غير تدريجية كالأديان والقوانين وغيرهما فإن كل طريقة جديدة دينية أو دنيوية إذا نزلت بدار قوم فإنما تتوجه أول ما تتوجه إلى أصول الطريقة القديمة وأعراقها فتقطعه فإن دامت على حياتها وقوتها، وذلك بحسن التربية وحسن القبول، أماتت الفروع وقطعت الأذناب وإلا فاختلطت بقايا من القديمة بالحديثة والتأمت بها وصارت كالمركب النباتي، ما هو بهذا ولا ذاك.

٣. أمر تعالى الناس أن يأكلوا مما في الأرض، والأكل هو البلع عن مضغ وربما يكنى بالأكل عن مطلق التصرف في الأموال لكون الأكل هو الأصل في أفعال الإنسان والركن في حياته كما قال تعالى: ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ﴾، والآية لا تأبى الحمل على هذا المعنى الوسيع لإطلاقها، والمعنى كلوا وتصرفوا وتمتعوا مما في الأرض من النعم الإلهية التي هيأته لكم طبيعة الأرض بإذن الله وتسخيره أكلا حلالا طيبا، أي لا يمنعكم عن أكله أو التصرف فيه مانع من قبل طبائعكم وطبيعة الأرض، كالذي لا يقبل بطبعه الأكل، أو الطبع لا يقبل أكله، ولا تنفر طبائعكم عن أكله مما يقبل الطبع أكله لكن ينافره ويأبى عنه السليقة كالأكل الذي توسل إليه بوسيلة غير جائزة.

٤. ﴿كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾، يفيد الإباحة العامة من غير تقييد واشتراط فيه إلا أن قوله ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾، إلخ يفيد: أن هاهنا أمورا تسمى خطوات الشيطان، متعلقة بهذا الأكل الحلال الطيب، إما كف عن الأكل اتباعا للشيطان، وإما إقدام عليه اتباعا للشيطان، ثم ذكر ضابط ما يتبع فيه الشيطان بأنه سوء وفحشاء، وقول ما لا يعلم على الله سبحانه وإذا كان الكف غير جائز إلا برضى من الله تعالى فالفعل أيضا كذلك فليس الأكل مما في الأرض حلالا طيبا إلا أن يأذن الله تعالى ويشرعه وقد شرعه بهذه الآية ونظائرها ولا يمنع عنه بنهي أو ردع، كما سيأتي من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ﴾ الآية) فرجع معنى الآية إلى نحو قولنا كلوا مما في الأرض من نعم الله المخلوقة لكم فقد جعله الله لكم حلالا طيبا ولا تتركوا بعضا منها كفا وامتناعا فيكون سوء وفحشاء وقولا بغير علم أي تشريعا ليس لكم ذلك وهو اتباع خطوات الشيطان.

٥. تدل الآية الكريمة على:

أ. أولا: على عموم الحلية في جميع التصرفات إلا ما أخرجه الدليل فإن لله سبحانه المنع فيما له الإذن فيه.

ب. وثانيا: على أن الامتناع مما أحله الله من غير دليل علمي تشريع محرم.

ج. وثالثا: على أن المراد من اتباع خطوات الشيطان التعبد لله بما لم يأذن في التعبد بذلك فإنه لم ينه عن المشي والسلوك لكن عن المشي الذي يضع فيه الإنسان قدمه موضع قدم الشيطان فينطبق مشيته على مشيته فيكون متبعا لخطواته، ومن هنا يعلم أن عموم التعليل، وهو قوله ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ﴾ إلخ، وإن اقتضى

المنع عن الاقتحام في فعل بغير علم كما يقتضي المنع عن الامتناع بغير علم لكنه ليس بمراد في الخطاب فإنه ليس من اتباع خطوات الشيطان وإن كان اتباعا للشيطان.

٦. ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، السوء والفحشاء يكونان في الفعل، وفي مقابله القول، وبذلك يظهر: أن ما يأمر به الشيطان ينحصر في الفعل الذي هو سوء وفحشاء، والقول الذي هو قول بغير علم.

٧. أحاديث وآثار:

أ. في التهذيب عن عبد الرحمن قال: سئلت أبا عبد الله عليه السلام عن رجل حلف أن ينحر ولده، قال: ذلك من خطوات الشيطان.

ب. وعن منصور بن حازم أيضاً قال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام: أما سمعت بطارق؟ إن طارقاً كان نخاساً بالمدينة، فأتى أبا جعفر عليه السلام فقال: يا أبا جعفر، إني حلفت بالطلاق والعتاق والنذر، فقال له: يا طارق، إن هذا من خطوات الشيطان.

ج. وفي تفسير العياشي عن أبي جعفر عليه السلام قال: كل يمين بغير الله فهو من خطوات الشيطان.

د. وفي الكافي عن الصادق عليه السلام قال: إذا حلف الرجل على شيء، والذي حلف عليه إتيانه خير من تركه، فليأت الذي هو خير، ولا كفارة له، وإنما ذلك من خطوات الشيطان.

• أقول: والأحاديث كما ترى مبنية على كون المراد من (خطوات الشيطان) الأعمال التي يتقرب بها وليست بمقربة، لعدم العبرة بها شرعاً، كما ذكرناه في البيان السابق، نعم، في خصوص الطلاق ونحوه وجه آخر للبطلان، وهو التعليق المنافي للإنشاء، والمسألة فقهية، والمراد باليمين بغير الله هو اليمين الذي يترتب عليه أثر اليمين الشرعي، أو القسم بما لم يقسم به الله ولم يثبت له كرامة شيئاً.

٧١. اتباع الآباء دون بصيرة كمثل المنعوق به:

المقطع [٧١] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠ـ١٧١]، وفيه المسائل

التالية «الميزان: ١/ ٤٢٠»:

١. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا﴾، الإلفاء الوجدان أي وجدنا عليه آباءنا، والآية تشهد بما استفدناه من الآية السابقة في معنى خطوات الشيطان.

٢. ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾، جواب عن قولهم، وبيانه أنه قول بغير علم ولا تبين، وينافيه صريح العقل فإن قولهم: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾، قول مطلق أي نتبع آباءنا على أي حال وعلى أي وصف كانوا، حتى لو لم يعلموا شيئا ولم يهتدوا ونقول ما فعلوه حق، وهذا هو القول بغير علم، ويؤدي إلى القول بما لا يقول به عاقل لو تنبه له، ولو كانوا اتبعوا آباءهم فيما علموه واهتدوا فيه وهم يعلمون: أنهم علموا واهتدوا فيه لم يكن من قبيل الاهتداء بغير علم، ومن هنا يعلم أن قوله تعالى: ﴿لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾، ليس واردا مورد المبالغة نظرا إلى أن سلب مطلق العلم عن آبائهم مع كونهم يعلمون أشياء كثيرة في حياتهم لا يحتمل إلا المبالغة، وذلك أن الكلام مسوق سوق الفرض بإبداء تقدير لا يقول بجواز الاتباع فيه قائل ليبطل به إطلاق قولهم نتبع ما ألفينا عليه آباءنا وهو ظاهر.

٣. ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً﴾:

أ. المثل هو الكلام السائر والمثل هو الوصف كقوله تعالى: ﴿انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾، والنعيق صوت الراعي لغنمه زجرا يقال: نعق الراعي بالغنم ينعق نعيقا إذا صاح بها زجرا، والنداء مصدر نادى ينادي مناداة، وهو أخص من الدعاء ففيه معنى الجهر بالصوت ونحوه بخلاف الدعاء، والمعنى: ومثلك في دعاء الذين كفروا كمثل الذي ينعق من البهائم بما لا يسمع من نعيقه إلا دعاء ونداء ما، فينزجر بمجرد قرع الصوت سمعه من غير أن يعقل شيئا فهم صم لا يسمعون كلاما يفيدهم، وبكم لا يتكلمون بما يفيد معنى، وعمي لا يبصرون شيئا فهم لا يعقلون شيئا لأن الطرق المؤدية إلى التعقل مسدودة عليهم.

ب. من ذلك يظهر أن في الكلام قلبا أو عناية أخرى يعود إليه فإن المثل بالذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء مثل الذي يدعوهم إلى الهدى لا مثل الكافرين المدعوين إلى الهدى إلا أن الأوصاف الثلاثة التي استنتج واستخرج من المثل وذكرت بعده، وهي قوله: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾، لما كانت أوصافا للذين كفروا لا لمن يدعوهم إلى الحق استوجب ذلك أن ينسب المثل إلى الذين كفروا لا إلى رسول

الله تعالى فأنتج ما أشبه القلب.

٤. وضع هنا مبحثا حول [الخرافة والعلم والدين: نظرة قرآنية في الأخلاق والاجتماع]، خلاصته:«الميزان: ١/ ٤٢٢»:

أ. الآراء والعقائد نوعان: نظرية (كالرياضيات والطبيعيات) وعملية (ترتبط بما ينبغي فعله)، والسبيل في الأول العلم واليقين، وفي الثاني ما يوصل إلى الخير والسعادة.

ب. الاعتقاد بغير علم في النظريات، والاعتقاد بغير معرفة الخير والشر في العمليات، هو خرافة.

ج. الخرافة تنشأ من العواطف النفسانية والخيال، خاصة الخوف والرجاء، وهي موجودة في كل الأمم، شرقاً وغرباً.

د. العلماء يحاولون محو الخرافات، لكن العلاج لم ينجح، لأن الإنسان مركب من التقليد والعواطف.

هـ. بناء الحضارة الغربية على الحس والتجربة وحده هو خرافة، لأن العلوم المادية لا تنفي ما وراء المادة، والاجتماع قد يستلزم حرمان الفرد من سعادته الفردية.

و. القرآن يأمر باتباع ما أنزل الله، والنهي عن القول بغير علم، وابتغاء ما عند الله في العمل.

ز. قول أصحاب الحس بأن اتباع الدين تقليد وخرافة هو قول بغير علم، لأن الدين ثابت بالبرهان، واتباعه اتباع للعلم.

ح. تقسيم التاريخ البشري إلى أربعة عهود (أساطير، مذهب، فلسفة، علم) مكذوب بالتاريخ، ودين التوحيد يتقدم على جميع الأديان.

ط. التقسيم القرآني للتاريخ هو: عهد السذاجة ووحدة الأمم، وعهد الحس والمادة.

٥. أحاديث وآثار: وفي المجمع عن الباقر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ﴾ [البقرة: ١٧١] الآية، قال: أي مثلهم في دعائك إياهم إلى الإيمان كمثل الناعق في دعائه المنعوق به من البهائم التي لا تفهم، وإنما تسمع الصوت.

٧٢. إباحة الطيبات وتحريم الخبائث والترخيص للمضطر:

المقطع [٧٢] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ

مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا للهَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهَّ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٢-١٧٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١/ ٤٢٦»:

١. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾:

أ. خطاب خاص بالمؤمنين بعد الخطاب السابق للناس فهو من قبيل انتزاع الخطاب من الخطاب، كأنه انصراف عن خطاب جماعة ممن لا يقبل النصح ولا يصغي إلى القول، والتفات إلى من يستجيب الداعي لإيمانه به، والتفاوت الموجود بين الخطابين ناش من تفاوت المخاطبين، فإن المؤمنين بالله لما كان يتوقع منهم القبول بدل قوله: ﴿مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ من قوله: ﴿طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾، وكان ذلك وسيلة إلى أن يطلب منهم الشكر لله وحده لكونهم موحدين لا يعبدون إلا الله سبحانه، ولذلك بعينه قيل: ﴿مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ ولم يقل: ما رزقتم أو ما في الأرض ونحوه، لما فيه من الإيماء أو الدلالة على كونه تعالى معروفا لهم قريبا منهم حنينا رؤوفا بهم.

ب. الظاهر أن يكون قوله: ﴿مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾، من قبيل إضافة الصفة إلى الموصوف لا من قبيل قيام الصفة مقام الموصوف فإن المعنى على الأول كلوا من رزقنا الذي كله طيب، وهو المناسب لمعنى التقرب والتحنن الذي يلوح من المقام، والمعنى على الثاني كلوا من طيب الرزق لا من خبيثه، وهو بعيد المناسبة عن المقام الذي هو مقام رفع الحظر، والنهي عن الامتناع عن بعض ما رزقهم الله سبحانه تشريعا من عند أنفسهم وقولا بغير علم.

٢. ﴿وَاشْكُرُوا لله إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾، لم يقل واشكروا لنا بل اشكروا لله ليكون أدل على الأمر بالتوحيد، ولذلك أيضا قيل: ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ فدل على الحصر والقصر ولم يقل إن كنتم تعبدونه.

٣. ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ الله﴾، الإهلال لغير الله هو الذبح لغيره كالأصنام.

٤. ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾، أي غير ظالم ولا متجاوز حده، وهما حالان عاملهما الاضطرار فيكون المعنى فمن اضطر إلى أكل شيء مما ذكر من المنهيات اضطرارا في حال عدم بغيه وعدم عدوه فلا ذنب له في الأكل، وأما لو اضطر في حال البغي والعدو كأن يكونا هما الموجبين للاضطرار فلا

يجوز له ذلك.

٥. ﴿إِنَّ اللهَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، دليل على أن التجوز تخفيف ورخصة منه تعالى للمؤمنين وإلا فمناط النهي موجود في صورة الاضطرار أيضا.

٦. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ [البقرة: ١٧٣] الآية، قال: الباغي باغي الصيد، والعادي السارق، ليس لهما أن يأكلا الميتة إذا اضطرا إليها، هي حرام عليهما، ليس هي عليهما كما هي على المسلمين، وليس لهما أن يقصرا في الصلاة.

ب. وفي تفسير العياشي عن الصادق عليه السلام قال: الباغي الظالم، والعادي الغاصب.

ج. وعن حماد عنه عليه السلام قال: الباغي الخارج على الإمام، والعادي اللص.

د. وفي المجمع عن أبي جعفر عليه السلام وأبي عبد الله عليه السلام: غير باغٍ على إمام المسلمين، ولا عادٍ بالمعصية، طريق المحقين.

• أقول: والجميع من قبيل عد المصاديق، وهي تؤيد المعنى الذي استفدناه من ظاهر اللفظ.

٧٣. عقوبة كتمان الكتاب وشراؤه بثمن قليل:

المقطع [٧٣] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللهُّ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَّ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [البقرة: ١٧٤-١٧٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١/ ٤٢٧»:

١. ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللهُّ مِنَ الْكِتَابِ﴾ تعريض لأهل الكتاب إذ عندهم شيء كثير من المحللات الطيبة التي حرمها كبراؤهم ورؤساؤهم في العبادات وغيرها، وعندهم الكتاب الذي لا يقضي فيه بالتحريم، ولم يكتموا ما كتموه إلا حفظا لما يدر عليهم من رزق الرئاسة وأبهة المقام والجاه والمال.

٢. في الآية من الدلالة على تجسم الأعمال وتحقق نتائجها ما لا يخفى فإنه تعالى ذكر أولا أن اختيارهم الثمن القليل على ما أنزل الله هو أكل النار في بطونهم، ثم بدل اختيار الكتمان وأخذ الثمن على

بيان ما أنزل الله في الآية التالية من اختيار الضلالة على الهدى ثم من اختيار العذاب على المغفرة ثم ختمها بقوله: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾، والذي كان منهم ظاهرا هو الإدامة للكتمان والبقاء عليها فافهم.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي وتفسير العياشي عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ [البقرة: ١٧٥]، قال: ما أصبرهم على فعل ما يعلمون أنه يصيرهم إلى النار.

ب. وفي المجمع عن علي بن إبراهيم عن الصادق عليه السلام قال: ما أجرأهم على النار.

ج. وعن الصادق عليه السلام: ما أعملهم بأعمال أهل النار.

• أقول: والروايات قريبة المعاني؛ ففي الأولى تفسير الصبر على النار بالصبر على سبب النار، وفي الثانية تفسير الصبر على النار بالجرأة عليها وهي لازمة للصبر، وفي الثالثة تفسير الصبر على النار بالعمل بما يعمل به أهل النار، ومرجعه إلى معنى الرواية الأولى.

٧٤. البر الحقيقي في الإيمان والعمل الصالح لا في التوجهات الشكلية:

المقطع [٧٤] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١/ ٤٢٩»:

١. قيل: كثر الجدال والخصام بين الناس بعد تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة وطالت المشاجرة فنزلت الآية.

٢. ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾، البر بالكسر التوسع من الخير والإحسان، والبر بالفتح صفة مشبهة منه، والقبل بالكسر فالفتح الجهة ومنه القبلة وهي النوع من الجهة، وذوو القربى الأقرباء، واليتامى جمع يتيم وهو الذي لا والد له، والمساكين جمع مسكين وهو أسوأ حالا من الفقير، وابن السبيل المنقطع عن أهله، والرقاب جمع رقبة وهي رقبة العبد، والبأساء مصدر كالبؤس وهو الشدة والفقر، والضراء مصدر كالضر وهو أن يتضرر الإنسان بمرض أو جرح أو ذهاب مال أو

موت ولد، والبأس شدة الحرب.

٣. ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾، عدل عن تعريف البر بالكسر إلى تعريف البر بالفتح ليكون بيانا وتعريفا للرجال مع تضمنه لشرح وصفهم وإيماء إلى أنه لا أثر للمفهوم الخالي عن المصداق ولا فضل فيه، وهذا دأب القرآن في جميع بياناته فإنه يبين المقامات ويشرح الأحوال بتعريف رجالها من غير أن يقنع ببيان المفهوم فحسب.

٤. بالجملة قوله: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، تعريف للأبرار وبيان لحقيقة حالهم، وقد عرفهم أولا في جميع المراتب الثلاث من الاعتقاد والأعمال والأخلاق بقوله: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ وثانيا بقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ وثالثا بقوله: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾

٥. فأما ما عرفهم به أولا فابتدأ فيه بقوله تعالى: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ وهذا جامع لجميع المعارف الحقة التي يريد الله سبحانه من عباده الإيمان بها، والمراد بهذا الإيمان الإيمان التام الذي لا يتخلف عنه أثره، لا في القلب بعروض شك أو اضطراب أو اعتراض أو سخط في شيء مما يصيبه مما لا ترتضيه النفس، ولا في خلق ولا في عمل، والدليل على أن المراد به ذلك قوله في ذيل الآية ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ فقد أطلق الصدق ولم يقيده بشيء من أعمال القلب والجوارح فهم مؤمنون حقا صادقون في إيمانهم كما قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾، وحينئذ ينطبق حالهم على المرتبة الرابعة من مراتب الإيمان التي مر بيانها في ذيل قوله تعالى ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ﴾

٦. ثم ذكر تعالى نبذا من أعمالهم بقوله: ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾:

أ. فذكر الصلاة، وهي حكم عبادي، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾، وقال: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾

ب. وذكر الزكاة، وهي حكم مالي فيه صلاح المعاش، وذكر قبلهما إيتاء المال وهو بث الخير ونشر الإحسان غير الواجب لرفع حوائج المحتاجين وإقامة صلبهم.

٧. ثم ذكر سبحانه نبذا من جمل أخلاقهم بقوله: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي

الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾:

أ. فالعهد هو الالتزام بشيء والعقد له، وقد أطلقه تعالى، وهو مع ذلك لا يشمل الإيمان والالتزام بأحكامه كما توهمه بعضهم، لمكان قوله إذا عاهدوا، فإن الالتزام بالإيمان ولوازمه لا يقبل التقيد بوقت دون وقت، كما هو ظاهر، ولكنه يشتمل بإطلاقه كل وعد وعده الإنسان وكل قول قاله التزاما كقولنا: لأفعلن كذا ولأتركن، وكل عقد عقد به في المعاملات والمعاشرات ونحوها.

ب. والصبر هو الثبات على الشدائد حين تهاجم المصائب أو مقارعة الأقران، وهذان الخلقان وإن لم يستوفيا جميع الأخلاق الفاضلة غير أنهما إذا تحققا تحقق ما دونهما، والوفاء بالعهد والصبر عند الشدائد خلقان يتعلق أحدهما بالسكون والآخر بالحركة وهو الوفاء فالإتيان بهذين الوصفين من أوصافهم بمنزلة أن يقال: إنهم إذا قالوا قولا أقدموا عليه ولم يتجافوا عنه بالزوال.

٨. أما ما عرفهم به ثانيا بقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾، فهو وصف جامع لجمل فضائل العلم والعمل، فإن الصدق خلق يصاحب جميع الأخلاق من العفة والشجاعة والحكمة والعدالة وفروعها فإن الإنسان ليس له إلا الاعتقاد والقول والعمل، وإذا صدق تطابقت الثلاثة فلا يفعل إلا ما يقول ولا يقول إلا ما يعتقد، والإنسان مفطور على قبول الحق والخضوع له باطنا وإن أظهر خلافه ظاهرا فإذا أذعن بالحق وصدق فيه قال ما يعتقده وفعل ما يقوله وعند ذلك تم له الإيمان الخالص والخلق الفاضل والعمل الصالح، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾: التوبة، ١٢٠، والحصر في قوله ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾، يؤكد التعريف وبيان الحد، والمعنى إذا أردت الذين صدقوا فأولئك هم الأبرار.

٩. أما ما عرفهم به ثالثا بقوله ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾، الحصر لبيان الكمال فإن البر والصدق لو لم يتما لم يتم التقوي.

١٠. الذي بينه تعالى في هذه الآية من الأوصاف الأبرار هي التي ذكرها في غيرها، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ﴾، إلى أن قال، ﴿وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾، فقد ذكر فيها الإيمان بالله واليوم الآخر والإنفاق لوجه الله والوفاء بالعهد والصبر، وقال تعالى أيضا: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ كِتَابٌ

مَرْقُومٌ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾، إلى أن قال، ﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ﴾، إلى أن قال، ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾

١١. بالتطبيق بين هذه الآيات والآيات السابقة عليها يظهر حقيقة وصفهم ومآل أمرهم إذا تدبرت فيها، وقد وصفتهم الآيات بأنهم عباد الله وأنهم المقربون، وقد وصف الله سبحانه عباده فيما وصف بقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾، ووصف المقربين بقوله: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾، فهؤلاء هم السابقون في الدنيا إلى ربهم السابقون في الآخرة إلى نعيمه، ولو أدمت البحث عن حالهم فيما تعطيه الآيات لوجدت عجبا.

١٢. قد بان مما مر أن الأبرار أهل المرتبة العالية من الإيمان، وهي المرتبة الرابعة على ما مر بيانه سابقا، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾

١٣. ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ﴾، منصوب على المدح إعظاما لأمر الصبر، وقد قيل إن الكلام إذا طال بذكر الوصف بعد الوصف فمذهبهم أن يعترضوا بين الأوصاف بالمدح والذم، واختلاف الإعراب بالرفع والنصب.

١٤. أحاديث وآثار:

أ. عن النبي ﷺ: من عمل بهذه الآية فقد استكمل الإيمان.

• أقول: ووجهه واضح بما بيّناه، وقد نقل عن الزجاج والفراء إنهما قالا: إن الآية مخصوصة بالأنبياء المعصومين؛ لأن هذه الأشياء لا يأتيها بكليتها على حق الواجب فيها إلا الأنبياء.

• وهو ناش من عدم التدبر فيما تفيده الآيات، والخلط بين المقامات المعنوية، وقد أُنزلت آيات سورة الدهر في أهل بيت رسول الله ﷺ، وسمّاهم الله فيها أبراراً، وليسوا بأنبياء، نعم، خطرهم عظيم، وقد وصف الله حال أولي الألباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم، ويتفكرون في خلق السموات والأرض، ثم ذكر مسألتهم أن يلحقهم الله بالأبرار، قال: ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٣]

ب. أخرج الحكيم الترمذي عن أبي عامر الأشعري قال: قلت: يا رسول الله، ما تمام البر؟ قال: أن تعمل في السر ما تعمل في العلانية.

ج. وفي المجمع عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام: ﴿ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ قرابة النبي ﷺ.

• أقول: وكأنه من قبيل عدّ المصداق بالنظر إلى آية القربى.

د. وفي الكافي عن الصادق عليه السلام: الفقير الذي لا يسأل الناس، والمسكين أجهد منه، والبائس أجدهم.

هـ. وفي المجمع عن أبي جعفر عليه السلام: ابن السبيل، المنقطع به.

و. وفي التهذيب عن الصادق عليه السلام: سئل عن مكاتب عجز عن مكاتبته وقد أدى بعضها، قال عليه السلام: يؤدي عنه من مال الصدقة، فإن الله عز وجل يقول: ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ [البقرة: ١٧٧]

ز. وفي تفسير القمي في قوله: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ [البقرة: ١٧٧]، قال عليه السلام: في الجوع والعطش والخوف، وفي قوله: ﴿وَحِينَ الْبَأْسِ﴾، قال عليه السلام: عند القتال.

٧٥. القصاص حياة للناس وتخفيف ورحمة من الله:

المقطع [٧٥] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٨ـ١٧٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١/ ٤٣٣»:

١. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ﴾:

أ. في توجيه الخطاب إلى المؤمنين خاصة إشارة إلى كون الحكم خاصا بالمسلمين، وأما غيرهم من أهل الذمة وغيرهم فالآية ساكتة عن ذلك.

ب. نسبة هذه الآية إلى قوله تعالى: ﴿أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾، نسبة التفسير، فلا وجه لما ربما يقال، إن هذه الآية ناسخة لتلك الآية فلا يقتل حر بعبد ولا رجل بمرأة.

ج. بالجملة القصاص مصدر؛ قاص يقاص؛ من قص أثره إذا تبعه ومنه القصاص لمن يحدث بالآثار والحكايات كأنه يتبع آثار الماضين فتسمية القصاص بالقصاص لما فيه من متابعة الجاني في جنايته فيوقع عليه مثل ما أوقعه على غيره.

٢. ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾، المراد بالموصول القاتل، والعفو للقاتل إنما يكون في حق القصاص، فالمراد بالشيء هو الحق، وفي تنكيره تعميم للحكم أي أي حق كان سواء كان تمام الحق أو بعضه

كما إذا تعدد أولياء الدم فعفا بعضهم حقه للقاتل فلا قصاص حينئذ بل الدية، وفي التعبير عن ولي الدم بالأخ إثارة لحس المحبة والرأفة وتلويح إلى أن العفو أحب.

٣. ﴿فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾، مبتدأ خبره محذوف أي فعليه أن يتبع القاتل في مطالبة الدية بمصاحبة المعروف، من الاتباع وعلى القاتل أن يؤدي الدية إلى أخيه ولي الدم بالإحسان من غير مماطلة فيها إيذاؤه.

٤. ﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾، أي الحكم بانتقال القصاص إلى الدية تخفيف من ربكم فلا يتغير فليس لولي الدم أن يقتص بعد العفو فيكون اعتداء فمن اعتدى فاقتص بعد العفو فله عذاب أليم.

٥. ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، إشارة إلى حكمة التشريع، ودفع ما ربما يتوهم من تشريع العفو والدية وبيان المزية والمصلحة التي في العفو وهو نشر الرحمة وإيثار الرأفة أن العفو أقرب إلى مصلحة الناس، وحاصله أن العفو ولو كان فيه ما فيه من التخفيف والرحمة، لكن المصلحة العامة قائمة بالقصاص فإن الحياة لا يضمنها إلا القصاص دون العفو والدية ولا كل شيء مما عداهما، يحكم بذلك الإنسان إذا كان ذا لب وقوله ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، أي القتل وهو بمنزلة التعليل لتشريع القصاص.

٦. ذكروا: أن الجملة، أعني قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ الآية على اختصارها وإيجازها وقلة حروفها وسلاسة لفظها وصفاء تركيبها من أبلغ آيات القرآن في بيانها، وأسماها في بلاغتها:

أ. فهي جامعة بين قوة الاستدلال وجمال المعنى ولطفه، ورقة الدلالة وظهور المدلول.

ب. وقد كان للبلغاء قبلها كلمات في القتل والقصاص تعجبهم بلاغتها وجزالة أسلوبها ونظمها، كقولهم: (قتل البعض إحياء للجميع)، وقولهم: (أكثروا القتل ليقل القتل)، وأعجب من الجميع عندهم قولهم: (القتل أنفى للقتل)

ج. غير أن الآية أنست الجميع ونفت الكل: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]، فإن الآية أقل حروفاً، وأسهل في التلفظ.

د. وفيها تعريف القصاص وتنكير الحياة، ليدل على أن النتيجة أوسع من القصاص وأعظم.

هـ. وهي مشتملة على بيان النتيجة، وعلى بيان حقيقة المصلحة وهي الحياة، وهي متضمنة حقيقة

المعنى المفيد للغاية؛ فإن القصاص هو المؤدي إلى الحياة دون القتل، فإن من القتل ما يقع عدواناً ليس يؤدي إلى الحياة.

و. وهي مشتملة على أشياء أخر غير القتل تؤدي إلى الحياة، وهي أقسام القصاص في غير القتل.

ز. وهي مشتملة على معنى زائد آخر، وهو معنى المتابعة التي تدل عليها كلمة القصاص، بخلاف قولهم: (القتل أنفى للقتل)

ح. وهي مع ذلك متضمنة للحث والترغيب، فإنها تدل على حياة مذخورة للناس مغفول عنها يملكونها، فعليهم أن يأخذوا بها، نظير ما تقول: (لك في مكان كذا أو عند فلان مالاً وثروة)

ط. وهي بذلك تشير إلى أن القائل لا يريد بقوله هذا إلا حفظ منافعهم ورعاية مصلحتهم من غير عائد يعود إليه، حيث قال: ﴿وَلَكُمْ﴾،٧. هذه وجوه من لطائف ما تشتمل عليه هذه الآية، وربما ذكر بعضهم وجوها أخرى يعثر عليه المراجع غير أن الآية كلما زدت فيه تدبرا زادتك في تجلياتها بجمالها وغلبتك بهور نورها، وكلمة الله هي العليا.

٧. وضع هنا مبحثا حول [القصاص في الإسلام: تشريع الرحمة والعدل بين الإلغاء والإثبات]، خلاصته:

أ. العرب قبل الإسلام كان القصاص عندهم غير مضبوط، يختلف بحسب قوة القبائل وضعفها، واليهود كانوا يعتقدون القصاص بالتساوي، والنصارى كانوا يرون العفو والدية فقط.

ب. الإسلام سلك مسلكاً وسطاً: أثبت القصاص، وألغى تعينه، وأجاز العفو والدية، وعدّل بالمعادلة بين القاتل والمقتول.

ج. اعترض المنكرون للقصاص بوجوه: استهجانه، كونه فقداً مضاعفاً، كونه قسوة وانتقاماً، كونه من الأمراض العقلية، وكون القوانين تابعة للاجتماع المتغير.

د. القرآن أجاب بكلمة واحدة: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾، فقتل النفس الواحدة كقتل الناس جميعاً من جهة الطبيعة الوجودية.

هـ. الطبيعة الإنسانية تجيز قتل من يريد القتل دفاعاً، والاجتماع ليس إلا صنيعة من صنائع الطبيعة، فكيف لا تجوز قتل القاتل.

و. الإسلام لا يرى قيمة للدنيا إلا بالتوحيد، فوزن الموحد الواحد ووزن الاجتماع الإنساني سيان، فمن قتل مؤمناً كان كمن قتل الناس جميعاً.

ز. الإسلام يشرع للدنيا كلها، ويرى العفو مع قيام أصل القصاص، فإذا بلغ قوم إلى درجة العفو اختاروه.

ح. الرد على دعوى الرحمة: الرحمة في مورد الجاني القسي جفاء على صالح الأفراد.

ط. الرد على دعوى الانتقام: الانتقام للمظلوم استظهار للعدل، وليس بمذموم، والقصاص فيه ملاك التربية العامة.

ي. الرد على دعوى المرض العقلي: هي عذر يوجب شيوع القتل، ولو اعتقد المجرم أنها عذر مسموع لما توقف عن القتل.

ك. الرد على دعوى الاستفادة من المجرمين: لو كان حقاً، لطبقوه على موارد الإعدام القانوني، والفرد والمجتمع في نظر الطبيعة متساويان.

٨. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير العياشي عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ﴾ [البقرة: ١٧٨]، قال: لا يقتل الحر بالعبد، ولكن يضرب ضرباً شديداً ويغرم دية العبد، وإن قتل رجل امرأة، فأراد أولياء المقتول أن يقتلوه، أدّوا نصف ديته إلى أولياء الرجل.

ب. وفي الكافي عن الحلبي عن الصادق عليه السلام قال: سألته عن قول الله عز وجل: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ [البقرة: ١٧٨]، قال: يكفر عنه من ذنوبه بقدر ما عفي، وسألته عن قوله عز وجل: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة: ١٧٨]، قال: ينبغي للذي له الحق أن لا يعسر أخاه إذا كان قد صالحه على دية، وينبغي للذي عليه الحق أن لا يمطل أداءه إذا قدر على ما يعطيه، ويؤدي إليه بإحسان، وسألته عن قول الله عز وجل: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٨]، قال: هو الرجل يقبل الدية أو يعفو أو يصالح، ثم يعتدي فيقتل، كما قال الله عز وجل.

- أقول: والروايات في هذه المعاني كثيرة.

٧٦. الوصية للوالدين والأقربين والتحذير من التبديل:

المقطع [٧٦] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٨٠-١٨٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١/ ٤٣٩»:

١. ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ﴾:

أ. لسان الآية لسان الوجوب، فإن الكتابة يستعمل في القرآن في مورد القطع واللزوم ويؤيده ما في آخر الآية من قوله ﴿حَقًّا﴾، فإن الحق أيضا كالكتابة يقتضي معنى اللزوم، لكن تقييد الحق بقوله ﴿عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾، مما يوهن الدلالة على الوجوب والعزيمة، فإن الأنسب بالوجوب أن يقال: ﴿حقا على المؤمنين﴾، وكيف كان فقد قيل إن الآية منسوخة بآية الإرث، ولو كان كذلك فالمنسوخ هو الفرض دون الندب وأصل المحبوبية، ولعل تقييد الحق بالمتقين في الآية لإفادة هذا الغرض.

ب. المراد بالخير المال، وكأنه المال المعتد به، دون اليسير الذي لا يعبأ به والمراد بالمعروف هو المعروف المتداول من الصنيعة والإحسان.

٢. ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾، ضمير إثمه راجع إلى التبديل، والباقي من الضمائر إلى الوصية بالمعروف، وهي مصدر يجوز فيه الوجهان، وإنما قال: ﴿عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾، ولم يقل عليهم ليكون فيه دلالة على سبب الإثم، وهو تبديل الوصية بالمعروف، وليستقيم تفريع الآية التالية عليه.

٣. ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾، الجنف هو الميل والانحراف، وقيل: هو ميل القدمين إلى الخارج كما أن الحنف بالحاء المهملة انحرافهما إلى الداخل، والمراد على أي حال الميل إلى الإثم بقرينة الإثم، والآية تفريع على الآية السابقة عليها، والمعنى: فإنما إثم التبديل على الذين يبدلون الوصية بالمعروف، ويتفرع عليه: أن من خاف من وصية الموصي أن يكون وصيته بالإثم أو مائلا إليه فأصلح بينهم برده إلى ما لا إثم فيه فلا إثم عليه لأنه لم يبدل وصيته بالمعروف بل إنما بدل ما فيه إثم أو جنف.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي والتهذيب وتفسير العياشي ـ واللفظ للأخير ـ عن محمد بن مسلم عن الصادق عليه السلام: سألته عن الوصية تجوز للوارث؟ قال: نعم، ثم تلا هذه الآية: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠]

ب. وفي تفسير العياشي عن الصادق عن أبيه عن علي عليه السلام قال: من لم يوص عند موته لذوي قرابته ممن لا يرث، فقد ختم عمله بمعصية.

ج. وفي تفسير العياشي أيضاً عن الصادق عليه السلام في الآية قال: حق جعله الله في أموال الناس لصاحب هذا الأمر، قال: قلت: لذلك حد محدود؟ قال: نعم، قلت: كم؟ قال: أدناه السدس وأكثره الثلث.

• أقول: وروي هذا المعنى الصدوق أيضاً في الفقيه عنه عليه السلام، وهو استفادة لطيفة من الآية بضم قوله تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ [الأحزاب: ٦]، فإن الآية هي الناسخة لحكم التوارث بالأخوة الذي كان في صدر الإسلام، فقد نفت التوارث بالأخوة وأثبتته للقرابة، ثم استثنى ما فعل من معروف في حق الأولياء، وقد عدّت النبي ولياً والطاهرين من ذريته أولياء لهم، وهذا المعروف المستثنى مورد قوله تعالى: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ﴾ الآية ـ وهم القربى ـ فافهم.

د. وفي تفسير العياشي عن أحدهما عليهما السلام في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ﴾ [البقرة: ١٨٠] الآية، قال عليه السلام: هي منسوخة، نسختها آية الفرائض التي هي المواريث.

• أقول: مقتضى الجمع بين الروايات السابقة وبين هذه الرواية أن المنسوخ من الآية هو الوجوب فقط، فيبقى الاستحباب على حاله.

هـ. وفي المجمع عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا﴾ [البقرة: ١٨٢] الآية، قال: الجنف أن يكون على جهة الخطأ من حيث لا يدري أنه يجوز.

و. وفي تفسير القمي قال الصادق عليه السلام: إذا الرجل أوصى بوصيته، فلا يجوز للوصي أن

بغير وصية يوصيها، بل يمضيها على ما أوصى، إلا أن يوصي بغير ما أمر الله فيعصي في الوصية ويظلم، فالموصى إليه جائز له أن يرده إلى الحق، مثل رجل يكون له ورثة، فيجعل المال كله لبعض ورثته ويحرم بعضاً، فالوصي جائز له أن يرده إلى الحق، وهو قوله: ﴿جَنَفًا أَوْ إِثْمًا﴾، والجنف الميل إلى بعض ورثته دون بعض، والإثم أن يأمر بعمارة بيوت النيران واتخاذ المسكر، فيحل للوصي أن لا يعمل بشيء من ذلك.

• أقول: وبما في الرواية من معنى الجنف يظهر معنى قوله تعالى: ﴿فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ﴾، فالمراد الإصلاح بين الورثة لوقوع النزاع بينهم من جهة جنف الموصي.

٧٧. فرض الصيام وبيان أحكامه ورخصه وفضل شهر رمضان:

المقطع [٧٧] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣-١٨٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢/ ٥»:

١. سياق الآيات الثلاث يدل:

أ. أولا: على أنها جميعا نازلة معا فإن قوله تعالى: ﴿أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾ في أول الآية الثانية ظرف متعلق بقوله تعالى: ﴿الصِّيَامِ﴾ في الآية الأولى، وقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ في الآية الثالثة إما خبر لمبتدإ محذوف وهو الضمير الراجع إلى قوله تعالى: ﴿أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾ والتقدير هي شهر رمضان أو مبتدأ لخبر محذوف، والتقدير شهر رمضان هو الذي كتب عليكم صيامه أو هو بدل من الصيام في قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ في الآية الأولى وعلى أي تقدير هو بيان وإيضاح للأيام المعدودات التي كتب فيها الصيام فالآيات الثلاث جميعا كلام واحد مسوق لغرض واحد وهو بيان فرض صوم شهر رمضان.

ب. ثانيا: على أن شطرا من الكلام الموضوع في هذه الآيات الثلاث بمنزلة التوطئة والتمهيد بالنسبة إلى شطر آخر، أعني: أن الآيتين الأوليين سرد الكلام فيهما ليكون كالمقدمة التي تساق لتسكين

طيش النفوس والحصول على اطمئنانها واستقرارها عن القلق والاضطراب، إذا كان غرض المتكلم بيان ما لا يؤمن فيه التخلف والتأبي عن القبول، لكون ما يأتي من الحكم أو الخبر ثقيلا شاقا بطبعه على المخاطب.

٢. لذلك ترى الآيتين الأولين تألف فيهما الكلام من جمل لا يخلو واحدة منها عن هداية ذهن المخاطب إلى تشريع صوم رمضان بإرفاق وملاءمة، بذكر ما يرتفع معه الاستيحاش والاضطراب، ويحصل به تطيب النفس، وتنكسر به سورة الجماح والاستكبار، بالإشارة إلى أنواع من التخفيف والتسهيل، روعيت في تشريع هذا الحكم مع ما فيه من الخير العاجل والآجل:

أ. ولذلك لما ذكر كتابة الصيام عليهم بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ أردفه بقوله تعالى: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أي لا ينبغي لكم أن تستثقلوه وتستوحشوا من تشريعه في حقكم وكتابته عليكم فليس هذا الحكم بمقصور عليكم بل هو حكم مجعول في حق الأمم السابقة عليكم ولستم أنتم متفردين فيه.

ب. على أن في العمل بهذا الحكم رجاء ما تبتغون وتطلبونه بإيمانكم وهو التقوى التي هي خير زاد لمن آمن بالله واليوم الآخر، وأنتم المؤمنون وهو قوله تعالى، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

ج. على أن هذا العمل الذي فيه رجاء التقوى لكم ولمن كان قبلكم لا يستوعب جميع أوقاتكم ولا أكثرها بل إنما هو في أيام قلائل معينة معدودة، وهو قوله تعالى: ﴿أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾ فإن في تنكير، أياما، دلالة على التحقير، وفي التوصيف بالعدد إشعار بهوان الأمر كما في قوله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾

د. على أنا راعينا جانب من يشق عليه أصل الصيام كمن يطيق الصيام، فعليه أن يبدله من فدية لا تشقه ولا يستثقلها، وهو طعام مسكين وهو قوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾ إلى قوله: ﴿فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾

هـ. وإذا كان هذا العمل مشتملا على خيركم ومراعى فيه ما أمكن من التخفيف والتسهيل عليكم كان خيركم أن تأتوا به بالطوع والرغبة من غير كره وتثاقل وتثبط، فإن من تطوع خيرا فهو خير له من أن يأتي به عن كره وهو قوله تعالى، ﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ﴾، فالكلام الموضوع في الآيتين كما ترى

توطئة وتمهيد لقوله تعالى في الآية الثالثة: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾

و. على هذا، فقوله تعالى في الآية الأولى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ إخبار عن تحقق الكتابة وليس بإنشاء للحكم كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾ الآية، وقوله تعالى ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾، فإن بين القصاص في القتلى والوصية للوالدين والأقربين وبين الصيام فرقا، وهو أن القصاص في القتلى أمر يوافق حس الانتقام الثائر في نفوس أولياء المقتولين ويلائم الشح الغريزي الذي في الطباع أن ترى القاتل حيا سالما يعيش ولا يعبأ بما جنى من القتل، وكذلك حس الشفقة والرأفة بالرحم يدعو النفوس إلى الترحم على الوالدين والأقربين، وخاصة عند الموت والفراق الدائم، فهذان أعني القصاص، والوصية حكمان مقبولان بالطبع عند الطباع، موافقان لما تقتضيها فلا يحتاج الإنباء عنها بإنشائها إلى تمهيد مقدمة وتوطئة بيان بخلاف حكم الصيام، فإنه يلازم حرمان النفوس من أعظم مشتهياتها ومعظم ما تميل إليها وهو الأكل والشرب والجماع، ولذلك فهو ثقيل على الطبع، كريه عند النفس، يحتاج في توجيه حكمه إلى المخاطبين، وهم عامة الناس من المكلفين إلى تمهيد وتوطئة تطيب بها نفوسهم وتحن بسببها إلى قبوله وأخذه طباعهم، ولهذا السبب كان قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ﴾، وقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ إنشاء للحكم من غير حاجة إلى تمهيد مقدمة بخلاف قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ فإنه إخبار عن الحكم وتمهيد لإنشائه بقوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنكُمُ﴾ بمجموع ما في الآيتين من الفقرات السبع.

٣. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الإتيان بهذا الخطاب لتذكيرهم بوصف فيهم وهو الإيمان، يجب عليهم إذا التفتوا إليه أن يقبلوا ما يواجههم ربهم به من الحكم وإن كان على خلاف مشتهياتهم وعاداتهم، وقد صدرت آية القصاص بذلك أيضا لما سمعت أن النصارى كانوا يرون العفو دون القصاص وإن كان سائر الطوائف من المليين وغيرهم يرون القصاص.

٤. ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾:

أ. الكتابة معروفة المعنى، ويكنى به عن الفرض والعزيمة والقضاء الحتم كقوله: (﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾، وقوله تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾، وقوله تعالى: (﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾، والصيام والصوم في اللغة مصدران بمعنى الكف عن الفعل: كالصيام عن الأكل

والشرب والمباشرة والكلام والمشي وغير ذلك، وربما يقال: إنه الكف عما تشتهيه النفس وتتوق إليه خاصة ثم غلب استعماله في الشرع في الكف عن أمور مخصوصة، من طلوع الفجر إلى المغرب بالنية، والمراد بالذين من قبلكم الأمم الماضية ممن سبق ظهور الإسلام من أمم الأنبياء كأمة موسى وعيسى وغيرهم، فإن هذا المعنى هو المعهود من إطلاق هذه الكلمة في القرآن أينما أطلقت، وليس قوله تعالى: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ في مقام الإطلاق من حيث الأشخاص ولا من حيث التنظير فلا يدل على أن جميع أمم الأنبياء كان مكتوبا عليهم الصوم من غير استثناء ولا على أن الصوم المكتوب عليهم هو الصوم الذي كتب علينا من حيث الوقت والخصوصيات والأوصاف، فالتنظير في الآية إنما هو من حيث أصل الصوم والكف لا من حيث خصوصياته.

ب. المراد بالذين من قبلكم، الأمم السابقة من المليين في الجملة، ولم يعين القرآن من هم، غير أن ظاهر قوله تعالى: ﴿كَمَا كُتِبَ﴾ أن هؤلاء من أهل الملة وقد فرض عليهم ذلك، ولا يوجد في التوراة والإنجيل الموجودين عند اليهود والنصارى ما يدل على وجوب الصوم وفرضه، بل الكتابان إنما يمدحانه ويعظمان أمره، لكنهم يصومون أياما معدودة في السنة إلى اليوم بأشكال مختلفة: كالصوم عن اللحم والصوم عن اللبن والصوم عن الأكل والشرب، وفي القرآن قصة صوم زكريا عن الكلام وكذا صوم مريم عن الكلام، بل الصوم عبادة مأثورة عن غير المليين كما ينقل عن مصر القديم ويونان القديم والرومانيين، والوثنيون من الهند يصومون حتى اليوم، بل كونه عبادة قربية مما يهتدي إليه الإنسان بفطرته كما سيجيء، وربما يقال: إن المراد بالذين من قبلكم اليهود والنصارى أو السابقين من الأنبياء استنادا إلى روايات لا تخلو عن ضعف.

٥. ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾:

أ. كان أهل الأوثان يصومون لإرضاء آلهتهم أو لإطفاء نائرة غضبها إذا أجرموا جرما أو عصوا معصية، وإذا أرادوا إنجاح حاجة وهذا يجعل الصيام معاملة ومبادلة يعطي بها حاجة الرب ليقضي حاجة العبد أو يستحصل رضاه ليستحصل رضا العبد، وأن الله سبحانه أمنع جانبا من أن يتصور في حقه فقر أو حاجة أو تأثر أو أذى، وبالجملة هو سبحانه بريء من كل نقص، فما تعطيه العبادات من الأثر الجميل، أي عبادة كانت وأي أثر كان، إنما يرجع إلى العبد دون الرب تعالى وتقدس، كما أن المعاصي أيضا كذلك، قال

تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾، هذا هو الذي يشير إليه القرآن الكريم في تعليمه بإرجاع آثار الطاعات والمعاصي إلى الإنسان الذي لا شأن له إلا الفقر والحاجة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾، ويشير إليه في خصوص الصيام بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

ب. كون التقوى مرجو الحصول بالصيام مما لا ريب فيه فإن كل إنسان يشعر بفطرته أن من أراد الاتصال بعالم الطهارة والرفعة، والارتقاء إلى مدرجة الكمال والروحانية فأول ما يلزمه أن يتنزه عن الاسترسال في استيفاء لذائذ الجسم وينقبض عن الجماح في شهوات البدن ويتقدس عن الإخلاد إلى الأرض، وبالجملة أن يتقي ما يبعده الاشتغال به عن الرب تبارك وتعالى فهذه تقوى إنما تحصل بالصوم والكف عن الشهوات، وأقرب من ذلك وأمس لحال عموم الناس من أهل الدنيا وأهل الآخرة أن يتقي ما يعم به البلوى من المشتهيات المباحة كالأكل والشرب والمباشرة حتى يحصل له التدرب على اتقاء المحرمات واجتنابها، وتتربى على ذلك إرادته في الكف عن المعاصي والتقرب إلى الله سبحانه، فإن من أجاب داعي الله في المشتهيات المباحة وسمع وأطاع فهو في محارم الله ومعاصيه أسمع وأطوع.

٦. ﴿أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾ منصوب على الظرفية بتقدير (في)، ومتعلق بقوله تعالى: ﴿الصِّيَامِ﴾ وقد مر أن تنكير أيام واتصافه بالعدد للدلالة على تحقير التكليف من حيث الكلفة والمشقة تشجيعا للمكلف، وقد مر أن قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾، بيان للأيام فالمراد بالأيام المعدودات شهر رمضان.

٧. ذكر بعض المفسرين: أن المراد بالأيام المعدودات ثلاث أيام من كل شهر وصوم يوم عاشوراء، وقال بعضهم: والثلاث الأيام هي الأيام البيض من كل شهر وصوم يوم عاشوراء فقد كان رسول الله ﷺ والمسلمون يصومونها، ثم نزل قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾، فنسخ ذلك واستقر الفرض على صوم شهر رمضان، واستندوا في ذلك إلى روايات كثيرة من طرق أهل السنة والجماعة لا تخلو في نفسها عن اختلاف وتعارض، والذي يظهر به بطلان هذا القول:

أ. أولا: أن الصيام كما قيل: عبادة عامة شاملة، ولو كان الأمر كما يقولون لضبطه التاريخ ولم يختلف في ثبوته ثم في نسخه أحد وليس كذلك، على أن لحوق يوم عاشوراء بالأيام الثلاث من كل شهر في وجوب الصوم أو استحبابه ككونه عيدا من الأعياد الإسلامية مما ابتدعه بنو أمية لعنهم الله حيث أبادوا

فيه ذرية رسول الله ﷺ وأهل بيته بقتل رجالهم وسبي نسائهم وذراريهم ونهب أموالهم في وقعة الطف، ثم تبركوا باليوم فاتخذوه عيدا وشرعوا صومه تبركا به ووضعوا له فضائل وبركات، ودسوا أحاديث تدل على أنه كان عيدا إسلاميا، بل من الأعياد العامة التي كانت تعرفه عرب الجاهلية واليهود والنصارى منذ بعث موسى وعيسى، وكل ذلك لم يكن، وليس اليوم ذا شأن ملي حتى يصير عيدا مليا قوميا مثل النيروز أو المهرجان عند الفرس، ولا وقعت فيه واقعة فتح أو ظفر حتى يصير يوما إسلاميا كيوم المبعث ويوم مولد النبي، ولا هو ذو جهة دينية حتى يصير عيدا دينيا كمثل عيد الفطر وعيد الأضحى فما باله عزيزا بلا سبب؟

ب. ثانيا: أن الآية الثالثة من الآيات أعني قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾، تأبى بسياقها أن تكون نازلة وحدها وناسخا لما قبلها فإن ظاهر السياق أن قوله ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ خبر لمبتدإ محذوف أو مبتدأ لخبر محذوف كما مر ذكره فيكون بيانا للأيام المعدودات ويكون جميع الآيات الثلاث كلاما واحدا مسوقا لغرض واحد وهو فرض صيام شهر رمضان، وأما جعل قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ مبتدأ خبره قوله تعالى: ﴿الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ فإنه وإن أوجب استقلال الآية وصلاحيتها لأن تنزل وحدها غير أنها لا تصلح حينئذ لأن تكون ناسخة لما قبلها لعدم المنافاة بينها وبين سابقتها، مع أن النسخ مشروط بالتنافي والتباين.

٨. أضعف من هذا القول قول آخرين، على ما يظهر منهم ـ: أن الآية الثانية أعني قوله تعالى: ﴿أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾ ناسخة للآية الأولى أعني قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾، وذلك أن الصوم كان مكتوبا على النصارى ثم زادوا فيه ونقصوا بعد عيسى عليه السلام حتى استقر على خمسين يوما، ثم شرعه الله في حق المسلمين بالآية الأولى فكان رسول الله ﷺ والناس يصومونها في صدر الإسلام حتى نزل قوله تعالى: ﴿أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾، فنسخ الحكم واستقر الحكم على غيره، وهذا القول أوهن من سابقه وأظهر بطلانا، ويرد عليه جميع ما يرد على سابقه من الإشكال، وكون الآية الثانية من متممات الآية الأولى أظهر وأجلى، وما استند إليه القائل من الروايات أوضح مخالفة لظاهر القرآن وسياق الآية.

٩. ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾:

أ. الفاء للتفريع، والجملة متفرعة على قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ﴾ وقوله تعالى: ﴿مَعْدُودَاتٍ﴾

أي إن الصيام مكتوب مفروض، والعدد مأخوذ في الفرض، وكما لا يرفع اليد عن أصل الفرض كذلك لا يرفع اليد عن العدد، فلو عرض عارض يوجب ارتفاع الحكم الفرض عن الأيام المعدودات التي هي أيام شهر رمضان كعارض المرض والسفر، فإنه لا يرفع اليد عن الصيام عدة من أيام أخر خارج شهر رمضان تساوي ما فات المكلف من الصيام عددا، وهذا هو الذي أشار تعالى إليه في الآية الثالثة بقوله تعالى: ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾، فقوله تعالى: ﴿أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾ كما يفيد معنى التحقير كما مر يفيد كون العدد ركنا مأخوذا في الفرض والحكم.

ب. السفر مأخوذ من السفر بمعنى الكشف كأن المسافر ينكشف لسفره عن داره التي يأوي إليها ويكن فيها، وكان قوله تعالى: ﴿أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾ ولم يقل: مسافرا للإشارة إلى اعتبار فعليه التلبس حالا دون الماضي والمستقبل، وقد قال قوم، وهم المعظم من علماء أهل السنة والجماعة ـ: إن المدلول عليه بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ هو الرخصة دون العزيمة فالمريض والمسافر مخيران بين الصيام والإفطار، وقد عرفت أن ظاهر قوله تعالى: ﴿فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ هو عزيمة الإفطار دون الرخصة، وهو المروي عن أئمة أهل البيت، وهو مذهب جمع من الصحابة كعبد الرحمن بن عوف وعمر بن الخطاب وعبد الله بن عمر وأبي هريرة وعروة بن الزبير، فهم محجوجون، بقوله تعالى: ﴿فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾

ج. قدروا لذلك في الآية تقديرا فقالوا: إن التقدير فمن كان مريضا أو على سفر فأفطر فعدة من أيام أخر، ويرد عليه:

• أولا: أن التقدير كما صرحوا به خلاف الظاهر لا يصار إليه إلا بقرينة ولا قرينة من نفس الكلام عليه.

• وثانيا: أن الكلام على تقدير تسليم التقدير لا يدل على الرخصة فإن المقام كما ذكروه مقام التشريع، وقولنا: فمن كان مريضا أو على سفر فأفطر غاية ما يدل عليه أن الإفطار لا يقع معصية بل جائزا بالجواز بالمعنى الأعم من الوجوب والاستحباب والإباحة، وأما كونه جائزا بمعنى عدم كونه إلزاميا فلا دليل عليه من الكلام البتة، بل الدليل على خلافه، فإن بناء الكلام في مقام التشريع على عدم بيان ما يجب بيانه لا يليق بالمشرع الحكيم وهو ظاهر.

١٠. ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾:

أ. الإطاقة كما ذكره بعضهم صرف تمام الطاقة في الفعل، ولازمه وقوع الفعل بجهد ومشقة، والفدية هي البدل وهي هنا بدل مالي وهو طعام مسكين أي طعام يشبع مسكينا جائعا من أوسط ما يطعم الإنسان، وحكم الفدية أيضا فرض كحكم القضاء في المريض والمسافر لمكان قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ﴾ الظاهر في الوجوب التعييني دون الرخصة والتخيير.

ب. ذكر بعضهم: أن الجملة ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ تفيد الرخصة ثم فسخت فهو سبحانه وتعالى خير المطيقين للصوم من الناس كلهم يعني القادرين على الصوم من الناس بين أن يصوموا وبين أن يفطروا ويكفروا عن كل يوم بطعام مسكين، لأن الناس كانوا يومئذ غير متعوذين بالصوم ثم نسخ ذلك بقوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ وقد ذكر بعض هؤلاء: أنه نسخ حكم غير العاجزين، وأما مثل الشيخ الهرم والحامل والمرضع فبقي على حاله، من جواز الفدية، ولعمري إنه ليس إلا لعبا بالقرآن وجعلا لآياته عضين.

١١. إذا تأملت الآيات الثلاث:

أ. وجدتها كلاماً موضوعاً على غرض واحد، ذا سياق واحد متسق الجمل رائق البيان.

ب. ثم إذا نزلت هذا الكلام على وحدته واتساقه على ما يراه هذا القائل، وجدته مختل السياق، متطارد الجمل، يدفع بعضها بعضاً، وينقض آخره أوله.

ج. فتارة يقول: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣]، وأخرى يقول: يجوز على القادرين منكم الإفطار والفدية، وأخرى يقول: يجب عليكم جميعاً الصيام إذا شهدتم الشهر، فينسخ حكم الفدية عن القادرين ويبقى حكم غير القادرين على حاله.

د. ولم يكن في الآية حكم غير القادرين، اللهم إلا أن يقال: إن قوله تعالى: ﴿يُطِيقُونَهُ﴾ كان دالاً على القدرة قبل النسخ، فصار بعد النسخ يدل على عدم القدرة.

هـ. وبالجملة، يجب على هذا أن يكون قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾ [البقرة: ١٨٤] في وسط الآيات ناسخاً لقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ في أولها لمكان التنافي، ويبقى الكلام في وجه تقييده بالإطاقة من غير سبب ظاهر.

و. ثم قوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥] في آخر الآيات ناسخاً لقوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾ في وسطها، ويبقى الكلام في وجه نسخه لحكم القادرين على الصيام فقط دون العاجزين، مع كون الناسخ مطلقاً شاملاً للقادر والعاجز جميعاً، وكون المنسوخ غير شامل لحكم العاجز الذي يراد بقاؤه، وهذا من أفحش الفساد.

ز. وإذا أضفت إلى هذا النسخ بعد النسخ ما ذكروه من نسخ قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ [البقرة: ١٨٥] لقوله تعالى: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ [البقرة: ١٨٤]، ونسخ قوله تعالى: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ لقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾، وتأملت معنى الآيات، شاهدت عجباً،١١. ﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ﴾ التطوع تفعل من الطوع مقابل الكره وهو إتيان الفعل بالرضا والرغبة، ومعنى باب التفعل الأخذ والقبول فمعنى التطوع التلبس في إتيان الفعل بالرضا والرغبة من غير كره واستثقال سواء كان فعلا إلزاميا أو غير إلزامي، وأما اختصاص التطوع استعمالا بالمستحبات والمندوبات فمما حدث بعد نزول القرآن بين المسلمين بعناية أن الفعل الذي يؤتى به بالطوع هو الندب، وأما الواجب ففيه شوب كره لمكان الإلزام الذي فيه.

ح. بالجملة التطوع كما قيل: لا دلالة فيه مادة وهيئة على الندب، وعلى هذا فالفاء للتفريع والجملة متفرعة على المحصل من معنى الكلام السابق، والمعنى والله أعلم: الصوم مكتوب عليكم مرعيا فيه خيركم وصلاحكم مع ما فيه من استقراركم في صف الأمم التي قبلكم، والتخفيف والتسهيل لكم فأتوا به طوعا لا كرها، فإن من أتى بالخير طوعا كان خيرا له من أن يأتي به كرها، ومن هنا يظهر: أن قوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ من قبيل وضع السبب موضع المسبب أعني وضع كون التطوع بمطلق الخير خيرا مكان كون التطوع بالصوم خيرا نظير قوله تعالى: (﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أي فاصبر ولا تحزن فإنهم لا يكذبونك.

ط. ربما يقال: إن الجملة ﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ﴾ مرتبطة بالجملة التي تتلوها أعني قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ والمعنى أن من تطوع خيرا من فدية طعام مسكين بأن يؤدي ما يزيد على طعام مسكين واحد بما يعادل فديتين لمسكينين أو لمسكين واحد كان خيرا له، ويرد عليه: عدم الدليل على اختصاص التطوع بالمستحبات كما عرفت مع خفاء النكتة في التفريع، فإنه لا يظهر لتفرع

التطوع بالزيادة على حكم الفدية وجه معقول، مع أن قوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ لا دلالة له على التطوع بالزيادة فإن التطوع بالخير غير التطوع بالزيادة.

١٢. ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ جملة متممة لسابقتها، والمعنى بحسب التقدير، كما مر ـ: تطوعوا بالصوم المكتوب عليكم، فإن التطوع بالخير خير والصوم خير لكم، فالتطوع به خير على خير.

١٣. ربما: يقال إن الجملة ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾ خطاب للمعذورين دون عموم المؤمنين المخاطبين بالفرض والكتابة فإن ظاهرها رجحان فعل الصوم غير المانع من الترك فيناسب الاستحباب دون الوجوب، ويحمل على رجحان الصوم واستحبابه على أصحاب الرخصة: من المريض والمسافر فيستحب عليهم اختيار الصوم على الإفطار والقضاء، ويرد عليه:

أ. عدم الدليل عليه أولا.

ب. واختلاف الجملتين أعني قوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾ بالغيبة والخطاب ثانيا.

ج. وأن الجملة الأولى مسوقة لبيان الترخيص والتخيير، بل ظاهر قوله تعالى: ﴿فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ تعين الصوم في أيام أخر كما مر ثالثا.

د. وأن الجملة الأولى على تقدير ورودها لبيان الترخيص في حق المعذور لم يذكر الصوم والإفطار حتى يكون قوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾ بيانا لأحد طرفي التخيير، بل إنما ذكرت صوم شهر رمضان وصوم عدة من أيام أخر، وحينئذ لا سبيل إلى استفادة ترجيح صوم شهر رمضان على صوم غيره من مجرد قوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾ من غير قرينة ظاهرة رابعا.

هـ. وأن المقام ليس مقام بيان الحكم حتى ينافي ظهور الرجحان كون الحكم وجوبيا بل المقام، كما مر سابقا، مقام ملاك التشريع وأن الحكم المشرع لا يخلو عن المصلحة والخير والحسن كما في قوله تعالى: ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، وقوله تعالى ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، والآيات في ذلك كثيرة خامسا.

١٤. ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى﴾ شهر رمضان هو الشهر التاسع من الشهور القمرية العربية بين شعبان وشوال ولم يذكر اسم شيء من الشهور في القرآن إلا شهر رمضان، ووضع هنا مبحثا حول [معنى قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾، وتحليل النزول الدفعي والتدريجي، والفرق بين الإنزال والتنزيل، والرد على الشبهات المثارة]، خلاصته:

أ. شهر رمضان هو الشهر التاسع من الشهور القمرية العربية، وهو الشهر الوحيد المذكور باسمه في القرآن، ونزول القرآن فيه دلالة على فضل هذا الشهر.

ب. الفرق بين الإنزال والتنزيل: الإنزال يدل على النزول دفعة واحدة، والتنزيل يدل على النزول تدريجياً، والقرآن نزل على النبي ﷺ تدريجياً في مدة ثلاث وعشرين سنة، كما دل على ذلك قوله: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦]

ج. الجواب عن الإشكال: كيف يجمع بين نزول القرآن في شهر رمضان (دفعة) ونزوله تدريجياً؟ الجواب هو أن القرآن له حقيقتان: حقيقة عليا في اللوح المحفوظ أو أم الكتاب (نزلت دفعة في ليلة القدر)، وحقيقة نازلة على النبي ﷺ تدريجيا (وهي التنزيل)، وهذا ما تدل عليه آيات مثل: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ٣-٤]، و﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢١-٢٢]

د. القرآن في أم الكتاب: الآيات تدل على أن هناك كتاباً مبيناً هو أصل القرآن، وهو في أم الكتاب عند الله، علي حكيم، لا يصعد إليه العقول، وهذا الأصل هو الذي نزل دفعة في ليلة القدر، ثم نزل القرآن المفصل على النبي تدريجياً.

هـ. الرد على القول بأن المراد أول ما نزل: من قال إن المراد بنزول القرآن في شهر رمضان هو نزول أول ما نزل منه (سورة العلق أو الفاتحة)، فقوله غير صحيح، لأن الآيات لا تدل على ذلك، والأدلة التاريخية والقرآنية ترده.

و. الرد على من أنكر نزول القرآن من اللوح المحفوظ: من زعم أن الروايات الدالة على نزول القرآن من اللوح المحفوظ إلى البيت المعمور هي أوهام خرافية، وأن المراد باللوح المحفوظ هو عالم الطبيعة، فقد أخطأ وأفرط، لأن اللوح المحفوظ في القرآن هو حقيقة غيبية، وليس عالم الطبيعة المتغير

المتحول.

ز. خلاصة القول: نزول القرآن في شهر رمضان هو نزول حقيقة الكتاب ﴿الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢)﴾ من اللوح المحفوظ إلى قلب النبي ﷺ دفعة واحدة، ثم نزل القرآن المفصل تدريجياً في مدة الدعوة، وهذا هو الذي يلوح من الآيات، وهو الذي تؤيده الروايات الواردة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام.

١٥. النزول هو الورود على المحل من العلو، والفرق بين الإنزال والتنزيل أن الإنزال دفعي والتنزيل تدريجي، والقرآن اسم للكتاب المنزل على نبيه محمد ﷺ باعتبار كونه مقروا كما قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، ويطلق على مجموع الكتاب وعلى أبعاضه.

١٦. ﴿هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ الناس، وهم الطبقة الدانية من الإنسان الذين سطح فهمهم المتوسط أنزل السطوح، يكثر إطلاق هذه الكلمة في حقهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾، وهؤلاء أهل التقليد لا يسعهم تمييز الأمور المعنوية بالبينة والبرهان، ولا فرق الحق من الباطل بالحجة إلا بمبين يبين لهم وهاد يهديهم، والقرآن هدى لهم ونعم الهدى، وأما الخاصة المستكملون في ناحيتي العلم والعمل، المستعدون للاقتباس من أنوار الهداية الإلهية والركون إلى فرقان الحق فالقرآن بينات وشواهد من الهدى والفرقان في حقهم فهو يهديهم إليه ويميز لهم الحق ويبين لهم كيف يميز، قال تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، ومن هنا يظهر وجه التقابل بين الهدى والبينات من الهدى، وهو التقابل بين العام والخاص فالهدى لبعض والبينات من الهدى لبعض آخر.

١٧. ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ الشهادة هي الحضور مع تحمل العلم من جهته، وشهادة الشهر إنما هو ببلوغه والعلم به، ويكون بالبعض كما يكون بالكل، وأما كون المراد بشهود الشهر رؤية هلاله وكون الإنسان بالحضر مقابل السفر فلا دليل عليه إلا من طريق الملازمة في بعض الأوقات بحسب القرائن، ولا قرينة في الآية.

١٨. ﴿وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ إيراد هذه الجملة في الآية ثانيا ليس من قبيل التكرار للتأكيد ونحوه لما عرفت أن الآيتين السابقتين مع ما تشتملان عليه مسوقتان للتوطئة والتمهيد

دون بيان الحكم، وأن الحكم هو الذي بين في الآية الثالثة فلا تكرار.

١٩. ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾ كأنه بيان لمجموع حكم الاستثناء: وهو الإفطار في شهر رمضان لمكان نفي العسر، وصيام عدة من أيام أخر لمكان وجوب إكمال العدة، واللام في قوله: ﴿لِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾ للغاية، وهو عطف على قوله: يريد، لكونه مشتملا على معنى الغاية، والتقدير وإنما أمرناكم بالإفطار والقضاء لنخفف عنكم ولتكملوا العدة، ولعل إيراد قوله تعالى: ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾ هو الموجب لإسقاط معنى قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ عن هذه الآية مع تفهم حكمه بنفي العسر وذكره في الآية السابقة.

٢٠. ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ظاهر الجملتين على ما يشعر به لام الغاية أنهما لبيان الغاية غاية أصل الصيام دون حكم الاستثناء فإن تقييد قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ بقوله تعالى: ﴿الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ إلى آخره مشعر بنوع من العلية وارتباط فرض صيام شهر رمضان بنزول القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فيعود معنى الغاية إلى أن التلبس بالصوم لإظهار كبريائه تعالى بما نزل عليهم القرآن وأعلن ربوبيته وعبوديتهم، وشكر له بما هداهم إلى الحق، وفرق لهم بكتابه بين الحق والباطل، ولما كان الصوم إنما يتصف بكونه شكرا لنعمه إذا كان مشتملا على حقيقة معنى الصوم وهو الإخلاص لله سبحانه في التنزه عن ألواث الطبيعة والكف عن أعظم مشتهيات النفس بخلاف اتصافه بالتكبير لله فإن صورة الصوم والكف سواء اشتمل على إخلاص النية أو لم يشتمل يدل على تكبيره تعالى وتعظيمه فرق بين التكبير والشكر فقرن الشكر بكلمة الترجي دون التكبير، فقال: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ كما قال في أول الآيات: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

٢١. أحاديث وآثار:

أ. في الحديث القدسي، قال الله تعالى: الصوم لي وأنا أجزي به.

• أقول: وقد رواه الفريقان على اختلاف يسير، والوجه في كون الصوم لله سبحانه أنه هو العبادة الوحيدة التي تألفت من النفي، وغيره كالصلاة والحج وغيرهما متألف من الإثبات أو لا يخلو من الإثبات، والفعل الوجودي لا يتمحض في إظهار عبودية العبد ولا ربوبية الرب سبحانه، لأنه لا يخلو عن شوب النقص المادي وآفة المحدودية وإثبات الإنية، ويمكن أن يجعل لغيره تعالى نصيب فيه كما في موارد الرياء

والسمعة والسجدة لغيره، بخلاف النفي الذي يشتمل عليه الصوم بالتعالي عن الإخلاد إلى الأرض والتنزه بالكف عن شهوات النفس، فإن النفي لا نصيب لغيره تعالى فيه، لكونه أمراً بين العبد والرب لا يطلع عليه بحسب الطبع غيره تعالى، وقوله: (أنا أجزي به)، إن كان بصيغة المعلوم، كان دالاً على أنه لا يوسط في إعطاء الأجر بينه وبين الصائم أحد، كما أن العبد يأتي بها ليس بينه وبين ربه في الاطلاع عليه أحد، نظير ما ورد: إن الصدقة إنما يأخذها الله من غير توسيط أحداً، قال تعالى: ﴿وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ [التوبة: ١٠٤]، وإن كان بصيغة المجهول، كان كناية عن أن أجر الصائم القرب منه تعالى.

ب. وفي الكافي عن الصادق عليه السلام: كان رسول الله ﷺ أول ما بعث يصوم حتى يقال: ما يفطر، ويفطر حتى يقال: ما يصوم، ثم ترك ذلك وصام يوماً وأفطر يوماً، وهو صوم داود، ثم ترك ذلك وصام الثلاثة الأيام الغر، ثم ترك ذلك وفرقها في كل عشرة يوماً، خميسين بينهما أربعاء، فقبض ﷺ وهو يعمل ذلك.

ج. وعن عنبسة العابد قال: قبض رسول الله ﷺ على صيام شعبان ورمضان وثلاثة أيام من كل شهر.

• أقول: والأخبار من طرق أهل البيت كثيرة في ذلك، وهو الصوم المسنون الذي كان يصومه النبي ﷺ ما عدا صوم رمضان.

د. وفي تفسير العياشي عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣]، قال: هي للمؤمنين خاصة.

هـ. وعن جميل قال: سألت الصادق عليه السلام عن قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾ [البقرة: ٢١٦]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾، فقال: هذه كلها تجمع الضلال والمنافقين وكل من أقر بالدعوة الظاهرة.

و. وفي الفقيه عن حفص قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إن شهر رمضان لم يفرض الله صيامه على أحد من الأمم قبلنا، فقلت له: فقول الله عز وجل: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٣]، قال: إنما فرض الله شهر رمضان على الأنبياء دون الأمم، ففضل الله هذه الأمة، وجعل صيامه فرضاً على رسول الله ﷺ وعلى أمته.

• أقول: والرواية ضعيفة بإسماعيل بن محمد في سنده، وقد روي هذا المعنى مرسلاً عن العالم عليه السلام، وكأن الروايتين واحدة، وعلى أي حال، فهي من الآحاد، وظاهر الآية لا يساعد على كون المراد من قوله تعالى: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ الأنبياء خاصة، ولو كان كذلك، والمقام مقام التوطئة والتمهيد والتحريض والترغيب، كان التصريح باسمهم أولى من الكناية وأوقع، والله العالم.

ز. وفي الكافي عمن سأل الصادق عليه السلام عن القرآن والفرقان أهما شيئان أو شيء واحد؟ فقال: القرآن جملة الكتاب، والفرقان الحكم الواجب العمل به.

ح. وفي الجوامع عنه عليه السلام: الفرقان كل آية محكمة في الكتاب.

ط. وفي تفسيري العياشي والقمي عنه ﷺ: الفرقان هو كل أمر محكم في القرآن، والكتاب هو جملة القرآن الذي يصدق فيه من كان قبله من الأنبياء.

• أقول: واللفظ يساعد على ذلك، وفي بعض الأخبار أن رمضان اسم من أسماء الله تعالى، فلا ينبغي أن يقال: (جاء رمضان وذهب)، بل (شهر رمضان)، الحديث، وهو واحد غريب في بابه، وقد نقل هذا الكلام عن قتادة أيضاً من المفسرين، والأخبار الواردة في عد أسمائه تعالى خال عن ذكر رمضان، على أن لفظ رمضان من غير تصديره بلفظ (شهر)، وكذا (رمضانان) بصيغة التثنية، كثير الورود في الروايات المنقولة عن النبي وعن أئمة أهل البيت عليهم السلام، بحيث يستبعد جداً نسبة التجريد إلى الراوي.

ي. وفي تفسير العياشي عن الصباح بن نباتة قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إن ابن أبي يعفور أمرني أن أسألك عن مسائل، فقال: وما هي؟ قلت: يقول لك: إذا دخل شهر رمضان وأنا في منزلي ألي أن أسافر؟ قال: إن الله يقول: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥]، فمن دخل عليه شهر رمضان وهو في أهله، فليس له أن يسافر إلا لحج أو عمرة، أو في طلب مال يخاف تلفه.

• أقول: وهو استفادة لطيفة لحكم استحبابي بالأخذ بالإطلاق.

ك. وفي الكافي عن علي بن الحسين عليه السلام قال: فأما صوم السفر والمرض، فإن العامة قد اختلفت في ذلك، فقال قوم: يصوم، وقال آخرون: لا يصوم، وقال قوم: إن شاء صام وإن شاء أفطر، وأما نحن، فنقول: يفطر في الحالين جميعاً، فإن صام في السفر أو في حال المرض، فعليه القضاء، فإن الله عز وجل يقول: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٤]

• أقول: ورواه العياشي أيضاً.

ل. وفي تفسير العياشي عن الباقر عليه السلام في قوله: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾، قال عليه السلام: ما أبينها لمن عقلها، قال: من شهد رمضان فليصمه، ومن سافر فيه فليفطر.

• أقول: والأخبار عن أئمة أهل البيت في تعيين الإفطار على المريض والمسافر كثيرة، ومذهبهم ذلك، وقد عرفت دلالة الآية عليه.

م. وفي تفسير العياشي أيضاً عن أبي بصير قال: سألته عن قول الله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ [البقرة: ١٨٤]، قال: الشيخ الكبير الذي لا يستطيع، والمريض.

ن. وفي تفسيره أيضاً عن الباقر عليه السلام في الآية، قال: الشيخ الكبير والذي يأخذه العطاش.

س. وفي تفسيره أيضاً عن الصادق عليه السلام قال: المرأة تخاف على ولدها، والشيخ الكبير.

• أقول: والروايات فيه كثيرة عنهم عليهم السلام، والمراد بالمريض في رواية أبي بصير: المريض في سائر أيام السنة غير أيام شهر رمضان ممن لا يقدر على عدة أيام أخر؛ فإن المريض في قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا﴾ لا يشمله، وهو ظاهر، والعطاش: مرض العطش.

ع. وفي تفسيره أيضاً عن سعيد عن الصادق عليه السلام قال: إن في الفطر تكبيراً، قلت: ما التكبير إلا في يوم النحر، قال: فيه تكبير، ولكنه مسنون في المغرب والعشاء والفجر والظهر والعصر وركعتي العيد.

ف. وفي الكافي عن سعيد النقاش قال: قال أبو عبد الله عليه السلام لي: في ليلة الفطر تكبيرة، ولكنه مسنون، قال: قلت: وأين هو؟ قال: في ليلة الفطر في المغرب والعشاء الآخرة، وفي صلاة الفجر، وفي صلاة العيد، ثم يقطع، قال: قلت: كيف أقول؟ قال: تقول: الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله والله أكبر، الله أكبر على ما هدانا، وهو قول الله: ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٥]، والتكبير أن تقول: الله أكبر، لا إله إلا الله والله أكبر، ولله الحمد، قال: وفي رواية التكبير الآخر أربع مرات.

• أقول: اختلاف الروايتين في إثبات الظهرين وعدمه يمكن أن يحمل على مراتب الاستحباب، وقوله عليه السلام: (يعني الصلاة)، لعله يريد أن المعنى: (ولتكملوا العدة) أي عدة أيام الصوم بصلاة العيد، (ولتكبروا الله) مع الصلوات على ما هداكم، وهو غير مناف لما ذكرناه من ظاهر معنى قوله:

﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللهَّ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾؛ فإنه استفادة حكم استحبابي من مورد الوجوب، نظير ما مر في قوله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ من استفادة كراهة الخروج إلى السفر في الشهر لمن شهد الليلة الأولى منه، هذا، واختلاف آخر التكبيرات في الموضعين من الرواية الأخيرة يؤيد ما قيل: إن قوله: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللهَّ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾ بتضمين التكبير معنى الحمد، ولذلك عدّي بـ (على)

ص. وفي تفسير العياشي عن ابن أبي عمير عن الصادق عليه السلام قال: قلت له: جعلت فداك، ما يتحدث به عندنا أن النبي ﷺ صام تسعة وعشرين أكثر مما صام ثلاثين، أحق هذا؟ قال: ما خلق الله من هذا حرفاً، فما صام النبي ﷺ إلا ثلاثين، لأن الله يقول: ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾، فكان رسول الله ينقصه.

• أقول: قوله: (فكان رسول الله) في مقام الاستفهام الإنكاري، والرواية تدل على ما قدمناه: أن ظاهر التكميل تكميل شهر رمضان.

ق. وفي محاسن البرقي عن بعض أصحابنا رفعه في قوله: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللهَّ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾، قال: التكبير التعظيم، والهداية الولاية.

• أقول: وقوله: (والهداية الولاية) من باب الجري وبيان المصداق، ويمكن أن يكون من قبيل ما يسمى تأويلاً، كما ورد في بعض الروايات أن اليسر هو الولاية، والعسر الخلاف وولاية أعداء الله.

ر. وفي الكافي عن حفص بن الغياث عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سئلته عن قول الله عز وجل: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وإنما أنزل في عشرين بين أوله وآخره، فقال أبو عبد الله: نزل القرآن جملة واحدة في شهر رمضان إلى البيت المعمور، ثم نزل في طول عشرين سنة، ثم قال: قال النبي ﷺ: نزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من شهر رمضان، وأنزلت التوراة لست مضين من شهر رمضان، وأنزل الزبور لثمان عشرة خلون من شهر رمضان، وأُنزل القرآن في ثلاث وعشرين من شهر رمضان.

• أقول: ما رواه عليه السلام عن النبي رواه السيوطي في الدر المنثور بعدة طرق عن واثلة بن الأسقع عن النبي ﷺ.

ش. وفي الكافي والفقيه عن يعقوب قال: سمعت رجلاً يسأل أبا عبد الله عن ليلة القدر، فقال: أخبرني عن ليلة القدر كانت أو تكون في كل سنة؟ فقال أبو عبد الله عليه السلام: لو رفعت ليلة القدر لرفع

القرآن.

ت. وفي الدر المنثور عن ابن عباس قال: شهر رمضان، والليلة المباركة وليلة القدر، فإن ليلة القدر هي الليلة المباركة، وهي في رمضان، نزل القرآن جملة واحدة من الذكر إلى البيت المعمور، وهو موقع النجوم في السماء الدنيا، حيث وقع القرآن، ثم نزل على محمد ﷺ بعد ذلك في الأمر والنهي وفي الحروب رسلاً رسلاً.

• أقول: وروي هذا المعنى عن غيره أيضاً كسعيد بن جبير، ويظهر من كلامه أنه إنما استفاد ذلك من الآيات القرآنية، كقوله تعالى: ﴿وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ٥٨]، وفي قوله تعالى: ﴿وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾ [الطور: ٢-٥]، وقوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٥-٧٩]، وقوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا﴾ [فصلت: ١٢]، وجميع ذلك ظاهر، إلا ما ذكره في مواقع النجوم وأنه السماء الأولى وموطن القرآن، فإن فيه خفاء، والآيات من سورة الواقعة غير واضحة الدلالة على ذلك، وقد ورد من طرق أهل البيت أن البيت المعمور في السماء، وسيجيء الكلام فيه في محله إن شاء الله تعالى، ومما يجب أن يعلم أن الحديث كمثل القرآن في اشتماله على المحكم والمتشابه، والكلام على الإشارة والرمز شائع فيه، ولا سيما في أمثال هذه الحقائق: من اللوح والقلم والحجب والسماء والبيت المعمور والبحر المسجور، فمما يجب للباحث أن يبذل جهده في الحصول على القرائن.

٧٨. قرب الله من عباده وإجابته لدعوة الداعين:

المقطع [٧٨] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢/ ٣١»:

١. ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ أحسن بيان لما اشتمل عليه من المضمون وأرق أسلوب وأجمله فقد وضع أساسه على التكلم وحده دون الغيبة ونحوها، ووضع هنا مبحثا حول [معنى الدعاء، وحقيقة العبودية، وقرب الله من عباده، وشرط الإجابة، والفرق بين الدعاء الحقيقي والدعاء غير الخالص، مع استعراض الروايات الواردة في الدعاء وآدابه]، خلاصته:

أ. الآية الكريمة ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، هي أحسن بيان وأرق أسلوب، وقد اشتملت على سبع نكات بلاغية تدل على كمال العناية باستجابة الدعاء، وهي الآية الوحيدة في القرآن التي تكرر فيها ضمير المتكلم سبع مرات.

ب. الدعاء هو توجيه نظر المدعو نحو الداعي، والسؤال هو جلب فائدة من المسئول، والعبودية هي المملوكية، وملك الله لعباده ملك حقيقي طلق، يغاير ملك البشر، فإنه يملكهم ملكاً محيطاً لا يستقلون دونه في أنفسهم ولا في صفاتهم وأفعالهم.

ج. قرب الله من عباده هو من لوازم ملكه الحقيقي لهم، فهو أقرب إليهم من كل شيء، كما قال: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]، وهذا القرب هو الموجب لإجابة دعائهم إجابة مطلقة.

د. شرط الإجابة هو أن يكون الداعي داعياً بحسب الحقيقة، مريدا بحسب العلم الفطري والغريزي، مواطئاً لسانه قلبه، فإن حقيقة الدعاء هي التي يحملها القلب ويدعو بها لسان الفطرة، دون ما يأتي به اللسان من غير مواطأة للقلب، وقد ورد في الروايات: (لا يستجيب الله دعاء بظهر قلب ساه)، و(لا يقبل الله دعاء قلب لاه)

هـ. السؤال الفطري لا يتخطى الإجابة، فما لا يستجاب من الدعاء فإنما هو لأحد أمرين: إما أن يكون الداعي لم يتحقق منه دعاء حقيقي (كمن يسأل ما لا يريده لو انكشف له حقيقة الأمر)، أو أن يكون دعاؤه غير خالص لله (كمن يتعلق قلبه بالأسباب والأوهام)، فلم يخلص الدعاء لله فلم يسأل الله بالحقيقة.

و. الآيات الأخرى في الدعاء كقوله: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، وقوله: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [غافر: ١٤]، تدل على أن أصل العبادة هو الدعاء، وأن الإخلاص هو روح الدعاء، وأن الخوف والطمع والرغبة والرهبة والخشوع والتضرع والإصرار كلها من آداب الداعي.

ز. الروايات الواردة في الدعاء تؤكد أن الدعاء سلاح المؤمن، وأنه مفتاح كل رحمة، وأنه يرد القضاء بعد ما أبرم إبراماً، وأن الإخلاص ومواطأة القلب للسان شرط أساسي للإجابة، وأن الدعاء يحتاج إلى آداب: من الحمد والثناء على الله، والصلاة على محمد وآله، والاعتراف بالذنب، والاستغفار.

ح. الحديث القدسي: (وعزتي وجلالي لأقطعن أمل كل آمل غيري بالاياس، ولأكسونه ثوب المذلة في الناس، ولأبعدنه من فرجي وفضلي... أيأمل عبدي في الشدائد غيري، والشدائد بيدي، ويرجو سواي

وأنا الغني الجواد، بيدي مفاتيح الأبواب وهي مغلقة، وبابي مفتوح لمن دعاني)

ط. الدعاء لا ينافي الأسباب: الدعاء لا يلغي الأسباب، بل هو سبب من أسباب وجود المطلوب، والقضاء المبرم لا يمنع من الدعاء، لأن الدعاء من القدر، وقد ورد: (الدعاء يرد القضاء بعد ما أبرم إبراماً)، والعلم بالله يوجب الإذعان بأن ما ليس بمحال ذاتي من كل ما تحيله العادة، فإن الدعاء مستجاب فيه.

٢. ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾ تفريع على ما يدل عليه الجملة السابقة عليه بالالتزام: إن الله تعالى قريب من عباده، لا يحول بينه وبين دعائهم شيء، وهو ذو عناية بهم وبما يسألونه منه، فهو يدعوهم إلى دعائه، وصفته هذه الصفة، فليستجيبوا له في هذه الدعوة، وليقبلوا إليه، وليؤمنوا به في هذا النعت، وليوقنوا بأنه قريب مجيب لعلهم يرشدون في دعائه.

٧٩. إباحة مباشرة النساء ليلة الصيام وحرمة الاعتكاف:

المقطع [٧٩] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢/ ٤٥»:

١. ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ الإحلال بمعنى الإجازة، وأصله من الحل مقابل العقد، والرفث هو التصريح بما يكنى عنه مما يستقبح ذكره، من الألفاظ التي لا تخلو عنها مباشرة النساء، وقد كني به هاهنا عن عمل الجماع وهو من أدب القرآن الكريم وكذا سائر الألفاظ المستعملة فيه في القرآن كالمباشرة والدخول والمس واللمس والإتيان والقرب كلها ألفاظ مستعملة على طريق التكنية، وكذا لفظ الوطء والجماع وغيرهما المستعملة في غير القرآن ألفاظ كنائية وإن أخرج كثرة الاستعمال بعضها من حد الكناية إلى التصريح، كما أن ألفاظ الفرج والغائط بمعناهما المعروف اليوم من هذا القبيل، وتعدية الرفث بإلى لتضمينه معنى الإفضاء على ما قيل.

٢. ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ الظاهر من اللباس معناه المعروف، وهو ما يستر به الإنسان

بدنه، والجملتان من قبيل الاستعارة فإن كلا من الزوجين يمنع صاحبه عن اتباع الفجور وإشاعته بين أفراد النوع فكان كل منهما لصاحبه لباسا يواري به سوأته ويستر به عورته، وهذه استعارة لطيفة، وتزيد لطفا بانضمامها إلى قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾، فإن الإنسان يستر عورته عن غيره باللباس، وأما نفس اللباس فلا ستر عنه فكذا كل من الزوجين يتقي به صاحبه عن الرفث إلى غيره، وأما الرفث إليه فلا لأنه لباسه المتصل بنفسه المباشر له.

٣. ﴿عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ﴾:

أ. الاختيان والخيانة بمعنى، وفيه معنى النقص على ما قيل، وفي قوله تعالى: ﴿أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ﴾، دلالة على معنى الاستمرار، فتدل الآية على أن هذه الخيانة كانت دائرة مستمرة بين المسلمين منذ شرع حكم الصيام، فكانوا يعصون الله تعالى سرا بالخيانة لأنفسهم، ولو لم تكن هذه الخيانة منهم معصية لم ينزل التوبة والعفو، وهما وإن لم يكونا صريحين في سبق المعصية لكنهما، وخاصة إذا اجتمعا، ظاهران في ذلك، وعلى هذا فالآية دالة على أن حكم الصيام كان قبل نزول الآية حرمة الجماع في ليلة الصيام، والآية بنزولها شرعت الحلية ونسخت الحرمة كما ذكره جمع من المفسرين، ويشعر به أو يدل عليه قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ﴾ وقوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ﴾ إذ لولا حرمة سابقة كان حق الكلام أن يقال: فلا جناح عليكم أن تباشروهن أو ما يؤدي هذا المعنى، وهو ظاهر.

ب. وربما يقال: إن الآية ليست بناسخة لعدم وجود حكم تحريمي في آيات الصوم بالنسبة إلى الجماع أو إلى الأكل والشرب، بل الظاهر كما يشعر به بعض الروايات المروية من طرق أهل السنة والجماعة، أن المسلمين لما نزل حكم فرض الصوم وسمعوا قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ الآية، فهموا منه التساوي في الأحكام من جميع الجهات، وقد كانت النصارى كما قيل: إنما ينكحون ويأكلون ويشربون في أول الليل ثم يمسكون بعد ذلك فأخذ بذلك المسلمون، غير أن ذلك صعب عليهم، فكان الشبان منهم لا يكفون عن النكاح سرا مع كونهم يرونه معصية وخيانة لأنفسهم، والشيوخ ربما أجهدهم الكف عن الأكل والشرب بعد النوم، وربما أخذ بعضهم النوم فحرم عليه الأكل والشرب بزعمه فنزلت الآية فبينت أن النكاح والأكل والشرب غير محرمة عليهم بالليل في شهر رمضان،

وظهر بذلك: أن مراد الآية بالتشبيه في قوله تعالى: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ التشبيه في أصل فرض الصوم لا في خصوصياته، وأما قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ﴾ فلا يدل على سبق حكم تحريمي بل على مجرد تحقق الحلية كما في قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ﴾ المائدة، ٩٦ إذ من المعلوم أن صيد البحر لم يكن محرما على المحرمين قبل نزول الآية، وكذا قوله تعالى: ﴿عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾، إنما يعني به أنهم كانوا يخونون بحسب زعمهم وحسبانهم ذلك خيانة ومعصية، ولذا قال: ﴿تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ ولم يقل: تختانون الله كما قال: ﴿لَا تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ﴾، مع احتمال أن يراد بالاختيان النقص، والمعنى علم الله أنكم كنتم تنقصون أنفسكم حظوظها من المشتهيات من نكاح وغيره، وكذا قوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ﴾، غير صريح في كون النكاح معصية محرمة هذا.

ج. ذلك خلاف ظاهر الآية فإن قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ وقوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ﴾، وإن لم تكن صريحة في النسخ غير أن لها كمال الظهور في ذلك، مضافا إلى قوله تعالى: ﴿فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ﴾،إذ لو لم يكن هناك إلا جواز مستمر قبل نزول الآية وبعدها لم يكن لهذا التعبير وجه ظاهر، وأما عدم اشتمال آيات الصوم السابقة على هذه الآية على حكم التحريم فلا ينافي كون الآية ناسخة، فإنها لم تبين سائر أحكام الصوم، أيضا مثل حرمة النكاح والأكل والشرب في نهار الصيام، ومن المعلوم أن رسول الله ﷺ كان قد بينه للمسلمين قبل نزول هذه الآية، فلعله كان قد بين هذا الحكم فيما بينه من الأحكام، والآية تنسخ ما بينه الرسول ﷺ وإن لم تشتمل كلامه تعالى على ذلك.

٤. سؤال وإشكال: قوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ يدل على سبب تشريع جواز الرفث فلا بد أن لا يعم الناسخ والمنسوخ لبشاعة أن يعلل النسخ بما يعم الناسخ والمنسوخ معا وإن قلنا: إن هذه التعليلات الواقعة في موارد الأحكام حكم ومصالح لا علل، ولا يلزم في الحكمة أن تكون جامعة ومانعة كالعلل فلو كان الرفث محرما قبل نزول الآية ثم نسخ بالآية المحللة لم يصلح تعليل نسخ التحريم بأن الرجال لباس للنساء وهن لباس لهم، والجواب:

أ. أولا إنه منقوض بتقييد قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ﴾ بقوله تعالى: ﴿لَيْلَةَ الصِّيَامِ﴾ مع أن حكم اللباس جار في النهار كالليل وهو محرم في النهار.

ب. ثانيا: أن القيود المأخوذة في الآية من قوله تعالى: ﴿لَيْلَةَ الصِّيَامِ﴾، وقوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ

لَكُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾، تدل على علل ثلاث مترتبة يترتب عليها الحكم المنسوخ والناسخ فكون أحد الزوجين لباسا للآخر يوجب أن يجوز الرفث بينهما مطلقا، ثم حكم الصيام المشار إليه بقوله تعالى: ﴿لَيْلَةَ الصِّيَامِ﴾، والصيام هو الكف والإمساك عن مشتهيات النفس من الأكل والشرب والنكاح يوجب تقييد جواز الرفث وصرفه إلى غير مورد الصيام، ثم صعوبة كف النفس عن النكاح شهرا كاملا عليهم ووقوعهم في معصية مستمرة وخيانة جارية يوجب تسهيلا ما عليهم بالترخيص في ذلك ليلا، وبذلك يعود إطلاق حكم اللباس المقيد بالصيام إلى بعض إطلاقه وهو أن يعمل به ليلا لا نهارا، والمعنى والله أعلم: أن إطلاق حكم اللباس الذي قيدناه بالصيام ليلا ونهارا وحرمناه عليكم حللناه لكم لما علمنا أنكم ﴿تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ فيه وأردنا التخفيف عنكم رأفة ورحمة، وأعدنا إطلاق ذلك الحكم عليه في ليلة الصيام وقصرنا حكم الصيام على النهار فأتموا الصيام إلى الليل.

٥. الحاصل: أن قوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾، وإن كان علة أو حكمة لإحلال أصل الرفث إلا أن الغرض في الآية ليس متوجها إليه، بل الغرض فيها بيان حكمة جواز الرفث ليلة الصيام، وهو مجموع قوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَعَفَا عَنْكُمْ﴾، وهذه الحكمة مقصورة على الحكم الناسخ ولا يعم المنسوخ قطعا.

٦. ﴿فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾:

أ. أمر واقع بعد الحظر فيدل على الجواز، وقد سبقه قوله تعالى: في أول الآية: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ﴾ والمعنى (فمن الآن تجوز لكم مباشرتهن)

ب. الابتغاء هو الطلب، والمراد بابتغاء ما كتب الله هو طلب الولد الذي كتب الله سبحانه ذلك على النوع الإنساني من طريق المباشرة، وفطرهم على طلبه بما أودع فيهم من شهوة النكاح والمباشرة، وسخرهم بذلك على هذا العمل، فهم يطلبون بذلك ما كتب الله لهم وإن لم يقصدوا ظاهرا إلا ركوب الشهوة ونيل اللذة كما أنه تعالى كتب لهم بقاء الحياة والنمو بالأكل والشرب وهو المطلوب الفطري وإن لم يقصدوا بالأكل والشرب إلا الحصول على لذة الذوق والشبع والري، فإنما هو تسخير إلهي، وأما ما قيل: إن المراد بما كتب الله لهم الحل والرخصة فإن الله يحب أن يؤخذ برخصة كما يحب أن يؤخذ بعزائمه، فيبعده: أن الكتابة في كلامه غير معهودة في مورد الحلية والرخصة.

٧. ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾، الفجر فجران، فجر أول يسمى بالكاذب لبطلانه بعد مكث قليل وبذنب السرحان لمشابهته ذنب الذئب إذا شاله، وعمود شعاعي يظهر في آخر الليل في ناحية الأفق الشرقي إذا بلغت فاصلة الشمس من دائرة الأفق إلى ثمانية عشر درجة تحت الأفق، ثم يبطل بالاعتراض فيكون معترضا مستطيلا على الأفق كالخيط الأبيض الممدود عليه وهو الفجر الثاني، ويسمى الفجر الصادق لصدقه فيما يحكيه ويخبر به من قدوم النهار واتصاله بطلوع الشمس، ومن هنا يعلم:

أ. أن المراد بالخيط الأبيض هو الفجر الصادق، وأن كلمة ﴿مِنَ﴾، بيانية وأن قوله تعالى: ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ﴾ من قبيل الاستعارة بتشبيه البياض المعترض على الأفق من الفجر، المجاور لما يمتد معترضا معه من سواد الليل بخيط أبيض يتبين من الخيط الأسود.

ب. أن المراد هو التحديد بأول حين من طلوع الفجر الصادق، فإن ارتفاع شعاع بياض النهار يبطل الخيطين فلا خيط أبيض ولا خيط أسود.

٨. ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾، لما دل التحديد بالفجر على وجوب الصيام إلى الليل بعد تبينه استغنى عن ذكره إيثارا للإيجاز، بل تعرض لتحديده بإتمامه إلى الليل، وفي قوله تعالى: ﴿أَتِمُّوا﴾ دلالة على أنه واحد بسيط وعبادة واحدة تامة من غير أن تكون مركبة من أمور عديدة كل واحد منها عبادة واحدة، وهذا هو الفرق بين التمام والكمال حيث إن الأول انتهاء وجود ما لا يتألف من أجزاء ذوات آثار والثاني انتهاء وجود ما لكل من أجزائه أثر مستقل وحده، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾، فإن الدين مجموع الصلاة والصوم والحج وغيرها التي لكل منها أثر يستقل به، بخلاف النعمة على ما سيجيء بيانه إن شاء الله في الكلام على الآية.

٩. ﴿وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾، العكوف والاعتكاف هو اللزوم والاعتكاف بالمكان الإقامة فيه ملازما له، والاعتكاف عبادة خاصة من أحكامها لزوم المسجد وعدم الخروج منه إلا لعذر والصيام معه، ولذلك صح أن يتوهم جواز مباشرة النساء في ليالي الاعتكاف في المسجد بتشريع جواز الرفث ليلة الصيام فدفع هذا الدخل بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾

١٠. ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾، أصل الحد هو المنع وإليه يرجع جميع استعمالاته واشتقاقاته

كحد السيف وحد الفجور وحد الدار والحديد إلى غير ذلك، والنهي عن القرب من الحدود كناية عن عدم اقترافها والتعدي إليها، أي لا تقترفوا هذه المعاصي التي هي الأكل والشرب والمباشرة أو لا تتعدوا عن هذه الأحكام والحرمات الإلهية التي بينها لكم وهي أحكام الصوم بإضاعتها وترك التقوى فيها.

١١. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي عن الصادق عليه السلام قال: كان الأكل والنكاح محرمين في شهر رمضان بالليل بعد النوم، يعني كل من صلى العشاء ونام ولم يفطر ثم انتبه، حرم عليه الإفطار، وكان النكاح حراماً في الليل والنهار في شهر رمضان، وكان رجل من أصحاب رسول الله يقال له خوّات بن جبير الأنصاري، أخو عبد الله بن جبير الذي كان رسول الله وكله بفم الشعب يوم أحد في خمسين من الرماة، ففارقه أصحابه وبقي في اثني عشر رجلاً، فقتل على باب الشعب، وكان أخوه هذا خوّات بن جبير شيخاً كبيراً ضعيفاً، وكان صائماً مع رسول الله في الخندق، فجاء إلى أهله حين أمسى فقال: عندكم طعام؟ فقالوا: لا تنم حتى نصنع لك طعاماً، فأبطأت عليه أهله بالطعام، فنام قبل أن يفطر، فلما انتبه قال لأهله: قد حرم علي الأكل في هذه الليلة، فلما أصبح حضر حفر الخندق، فغمي عليه، فرآه رسول الله ﷺ فرقّ له، وكان قوم من الشبان ينكحون بالليل سراً في شهر رمضان، فأنزل الله: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧] الآية، فأحل الله تبارك وتعالى النكاح بالليل من شهر رمضان، والأكل بعد النوم إلى طلوع الفجر لقوله: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ [البقرة: ١٨٧]، قال: هو بياض النهار من سواد الليل.

• أقول: وقوله: (يعني إلى قوله: وكان رجل) من كلام الراوي، وهذا المعنى مروي بروايات أخرى، رواها الكليني والعياشي وغيرهما، وفي جميعها أن سبب نزول قوله: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ إنما هو قصة خوات بن جبير الأنصاري، وأن سبب نزول قوله: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ﴾ ما كان يفعله الشبان من المسلمين.

ب. وفي الدر المنثور عن عدة من أصحاب التفسير والرواية عن البراء بن عازب قال: كان أصحاب النبي ﷺ إذا كان الرجل صائماً فحضر الإفطار فنام قبل أن يفطر، لم يأكل ليلته ولا يومه حتى يمسي، وإن قيس بن صرمة الأنصاري كان صائماً، فكان يومه ذاك يعمل في أرضه، فلما حضر الإفطار أتى امرأته فقال: هل عندك طعام؟ قالت: لا، ولكن انطلق فأطلب لك، فغلبته عينه فنام، وجاءت امرأته فلما

رأته نائماً قالت: خيبة لك، أنمت؟ فلما انتصف النهار غشي عليه، فذكر ذلك للنبي ﷺ، فنزلت هذه الآية: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ﴾ إلى قوله: ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾، ففرحوا بها فرحاً شديداً.

• أقول: وروي بطرق أخر القصة، وفي بعضها (أبو قبيس بن صرمة)، وفي بعضها (صرمة بن مالك الأنصاري) على اختلاف ما في القصة.

ج. أخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس: أن المسلمين كانوا في شهر رمضان إذا صلوا العشاء حرم عليهم النساء والطعام إلى مثلها من القابلة، ثم إن ناساً من المسلمين أصابوا الطعام والنساء في رمضان بعد العشاء، منهم عمر بن الخطاب، فشكوا ذلك إلى رسول الله، فأنزل الله: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ﴾ إلى قوله: ﴿فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ﴾ يعني انكحوهن.

• أقول: والروايات من طرقهم في هذا المعنى كثيرة، وفي أكثرها اسم عمر، وهي متحدة في أن حكم النكاح بالليل كحكم الأكل والشرب، وأنها جميعاً كانت محللة قبل النوم محرمة بعده، وظاهر ما أوردناه من الرواية الأولى أن النكاح كان محرماً في شهر رمضان بالليل والنهار جميعاً، بخلاف الأكل والشرب فقد كانا محللين في أول الليل قبل النوم محرمين بعده، وسياق الآية يساعده؛ فإن النكاح لو كان مثل الأكل والشرب محللاً قبل النوم محرماً بعده، كان الواجب في اللفظ أن يقيد بالغاية كما صنع ذلك بقوله: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ﴾، وقد قال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ﴾، ولم يأت بقيد يدل على الغاية، وكذا ما اشتمل عليه بعض الروايات: أن الخيانة ما كانت تختص بالنكاح، بل كانوا يختانون في الأكل والشرب أيضاً، لا يوافق ما يشعر به سياق الآية من وضع قوله: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ قبل قوله: ﴿فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧]

د. وفي الدر المنثور أيضاً: أن رسول الله ﷺ قال: الفجر فجران: فأما الذي كأنه ذنب السرحان، فإنه لا يحل شيئاً ولا يحرمه، وأما المستطيل الذي يأخذ الأفق، فإنه يحل الصلاة ويحرم الطعام.

• أقول: والروايات في هذا المعنى مستفيضة من طرق العامة والخاصة، وكذا الروايات في الاعتكاف وحرمة الجماع فيه.

٨٠. النهي عن أكل الأموال بالباطل وإدلائها إلى الحكام:

المقطع [٨٠] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ

وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢/ ٥٢»:

١. ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾:

أ. المراد بالأكل الأخذ أو مطلق التصرف مجازا، والمصحح لهذا الإطلاق المجازي كون الأكل أقرب الأفعال الطبيعية التي يحتاج الإنسان إلى فعلها وأقدمها فالإنسان أول ما ينشأ، وجوده يدرك حاجته إلى التغذي ثم ينتقل منه إلى غيره من الحوائج الطبيعية كاللباس والمسكن والنكاح ونحو ذلك، فهو أول تصرف يستشعر به من نفسه، ولذلك كان تسمية التصرف والأخذ، وخاصة في مورد الأموال، أكلا لا يختص باللغة العربية بل يعم سائر اللغات.

ب. المال ما يتعلق به الرغبات من الملك، كأنه مأخوذ من الميل لكونه مما يميل إليه القلب.

ج. والبين هو الفصل الذي يضاف إلى شيئين فأزيد.

د. والباطل يقابل الحق الذي هو الأمر الثابت بنحو من الثبوت.

هـ. في تقييد الحكم، أعني قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ﴾ بقوله: ﴿بَيْنَكُمْ﴾، دلالة على أن جميع الأموال لجميع الناس وإنما قسمه الله تعالى بينهم تقسيما حقا بوضع قوانين عادلة تعدل الملك تعديلا حقا يقطع منابت الفساد لا يتعداه تصرف من متصرف إلا كان باطلا، فالآية كالشارحة لإطلاق قوله تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾

و. في إضافة الله تعالى الأموال إلى الناس إمضاء منه لما استقر عليه بناء المجتمع الإنساني من اعتبار أصل الملك واحترامه في الجملة من لدن استكن هذا النوع على بسيط الأرض على ما يذكره النقل والتاريخ، وقد ذكر هذا الأصل في القرآن بلفظ الملك والمال ولام الملك والاستخلاف وغيرها في أزيد من مائة مورد ولا حاجة إلى إيرادها في هذا الموضع، وكذا بطريق الاستلزام في آيات تدل على تشريع البيع والتجارة ونحوهما في بضعة مواضع كقوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ﴾، وقوله تعالى: ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ﴾، وقوله تعالى: ﴿تِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾، وغيرها، والسنة المتواترة تؤيده.

٢. ﴿وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا﴾:

أ. الإدلاء هو إرسال الدلو في البئر لنزح الماء كني به عن مطلق تقريب المال إلى الحكام ليحكموا كما يريده الراشي، وهو كناية لطيفة تشير إلى استبطان حكمهم المطلوب بالرشوة الممثل لحال الماء الذي في البئر بالنسبة إلى من يريده، والفريق هو القطعة المفروقة المعزولة من الشيء، والجملة معطوفة على قوله: ﴿تَأْكُلُوا﴾ فالفعل مجزوم بالنهي.

ب. يمكن أن يكون الواو بمعنى مع والفعل منصوبا بأن المقدرة، والتقدير مع أن تأكلوا فتكون الآية بجملتها كلاما واحدا مسوقا لغرض واحد، وهو النهي عن تصالح الراشي والمرتشي على أكل أموال الناس بوضعها بينهما وتقسيمها لأنفسهما بأخذ الحاكم ما أدلى به منها إليه وأخذ الراشي فريقا آخر منها بالإثم وهما يعلمان أن ذلك باطل غير حق.

٣. وضع هنا مبحثا حول [الملكية والاختصاص: أصل فطري في نظام التكوين والاجتماع]، خلاصته:

أ. كل موجود في الكون يفعل أفعاله للانتفاع بها في حفظ وجوده وبقائه، وهذا أمر فطري لا شبهة فيه.

ب. التصرف في المادة لرفع الحاجة لا يتم إلا بالاختصاص، أي أن الفعل الواحد لا يقوم بفاعلين، وهذا أصل الاختصاص الفطري.

ج. الاختصاص هو معنى (اللام) في قولنا (لي هذا ولك ذلك)، وهو أصل الملكية والحق.

د. الحيوان والأطفال يشهدون بهذا الأصل في تنازعهم على ما حازوه من غذاء أو مسكن أو زوج.

هـ. الاجتماع الإنساني لا يستحكم إلا بهذا الأصل الفطري، ويتنوع إلى أنواع كالملك والحق وغيرها.

و. يختلف الناس في أسباب الملك وموضوعاته، لكن أصل الملك في الجملة لا مناص منه، حتى المخالفون للملك ينقلونه إلى المجتمع أو الدولة، ولا يقدرون على سلبه من أصله.

ز. إبطال هذا الأصل يؤدي إلى فناء الإنسان، لأنه حكم فطري.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي عن الصادق عليه السلام في الآية: كانت تقامر الرجل بأهله وماله، فنهاهم الله عن

ذلك.

ب. وفي الكافي أيضاً عن أبي بصير قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: قول الله عز وجل في كتابه: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ﴾ [البقرة: ١٨٨]، قال: يا أبا بصير، إن الله عز وجل قد علم أن في الأمة حكاماً يجورون، أما إنه لم يعن حكام أهل العدل، ولكنه عنى حكام أهل الجور، يا أبا محمد، لو كان لك على رجل حق فدعوته إلى حكام أهل العدل فأبى عليك إلا أن يرافعك إلى حكام أهل الجور ليقضوا له، لكان ممن يحاكم إلى الطاغوت، وهو قول الله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٦٠]

ج. وفي المجمع قال: روي عن أبي جعفر عليه السلام: يعني بالباطل اليمين الكاذبة يقطع بها الأموال.

• أقول: وهذه مصاديق، والآية مطلقة.

٨١. الأهلة مواقيت للحج وليس البر بإتيان البيوت من ظهورها:

المقطع [٨١] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١٨٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢/ ٥٦»:

١. ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ﴾:

أ. الأهلة جمع هلال ويسمى القمر هلالا أول الشهر القمري إذا خرج من تحت شعاع الشمس الليلة الأولى والثانية كما قيل، وقال بعضهم الليالي الثلاثة الأول، وقال بعضهم حتى يتحجر، والتحجر أن يستدير بخطة دقيقة، وقال بعضهم: حتى يبهر نوره ظلمة الليل وذلك في الليلة السابعة ثم يسمى قمرا ويسمى في الرابعة عشر بدرا، واسمه العام عند العرب الزبرقان، والهلال مأخوذ من استهل الصبي إذا بكى عند الولادة أو صاح، ومن قولهم: أهل القوم بالحج إذا رفعوا أصواتهم بالتلبية، سمي به لأن الناس يهلون بذكره إذا رأوا.

ب. المواقيت جمع ميقات وهو الوقت المضروب للفعل، ويطلق أيضا: على المكان المعين للفعل كميقات أهل الشام وميقات أهل اليمن، والمراد هاهنا الأول.

ج. في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ﴾ وإن لم يشرح أن السؤال في أمرها عما ذا: عن حقيقة القمر وسبب تشكلاتها المختلفة في صور الهلال والقمر والبدر كما قيل، أو عن حقيقة الهلال فقط، الظاهر بعد المحاق في أول الشهر القمري كما ذكره بعضهم، أو عن غير ذلك، ولكن إتيان الهلال في السؤال بصورة الجمع حيث قيل: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ﴾ دليل على أن السؤال لم يكن عن ماهية القمر واختلاف تشكلاته إذ لو كان كذلك لكان الأنسب أن يقال: يسألونك عن القمر لا عن الأهلة، وأيضا لو كان السؤال عن حقيقة الهلال وسبب تشكله الخاص كان الأنسب أن يقال: يسألونك عن الهلال إذ لا غرض حينئذ يتعلق بالجمع، ففي إتيان الأهلة بصيغة الجمع دلالة على أن السؤال إنما كان عن السبب أو الفائدة في ظهور القمر هلالا بعد هلال ورسمه الشهور القمرية، وعبر عن ذلك بالأهلة لأنها هي المحققة لذلك فأجيب بالفائدة.

د. يستفاد ذلك من خصوص الجواب: ﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ فإن المواقيت وهي الأزمان المضروبة للأفعال، والأعمال إنما هي الشهور دون الأهلة التي ليست بأزمنة وإنما هي أشكال وصور في القمر.

هـ. بالجملة قد تحصل أن الغرض في السؤال إنما كان متعلقا بشأن الشهور القمرية من حيث السبب أو الفائدة فأجيب ببيان الفائدة وأنها أزمان وأوقات مضروبة للناس في أمور معاشهم ومعادهم فإن الإنسان لا بد له من حيث الخلقة من أن يقدر أفعاله وأعماله التي جميعها من سنخ الحركة بالزمان، ولازم ذلك أن يتقطع الزمان الممتد الذي ينطبق عليه أمورهم قطعا صغارا وكبارا مثل الليل والنهار واليوم والشهر والفصول والسنين بالعناية الإلهية التي تدبر أمور خلقه وتهديهم إلى صلاح حياتهم، والتقطيع الظاهر الذي يستفيد منه العالم والجاهل والبدوي والحضري ويسهل حفظه على الجميع إنما هو تقطيع الأيام بالشهور القمرية التي يدركه كل صحيح الإدراك مستقيم الحواس من الناس دون الشهور الشمسية التي ما تنبه لشأنها ولم ينل دقيق حسابها الإنسان إلا بعد قرون وأحقاب من بدء حياته في الأرض وهو مع ذلك ليس في وسع جميع الناس دائما، فالشهور القمرية أوقات مضروبة معينة للناس في أمور دينهم ودنياهم وللحج خاصة فإنه أشهر معلومات، وكان اختصاص الحج بالذكر ثانيا تمهيد لما سيذكر في الآيات التالية من اختصاصه ببعض الشهور.

٢. ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾ إلى قوله: ﴿مِنْ أَبْوَابِهَا﴾:

أ. ثبت بالنقل أن جماعة من عرب الجاهلية كانوا إذا أحرموا للحج لم يدخلوا بيوتهم عند الحاجة من الباب بل اتخذوا نقبا من ظهورها ودخلوا منه فنهى عن ذلك الإسلام وأمرهم بدخول البيوت من أبوابها، ونزول الآية يقبل الانطباق على هذا الشأن، وبذلك يصح الاعتماد على ما نقل من شأن نزول الآية على ما سيأتي نقله، ولولا ذلك لأمكن أن يقال: إن قوله: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ﴾ إلى آخره، كناية عن النهي عن امتثال الأوامر الإلهية والعمل بالأحكام المشرعة في الدين إلا على الوجه الذي شرعت عليه، فلا يجوز الحج في غير أشهره، ولا الصيام في غير شهر رمضان وهكذا وكانت الجملة على هذا متمما لأول الآية، وكان المعنى أن هذه الشهور أوقات مضروبة لأعمال شرعت فيها ولا يجوز التعدي بها عنها إلى غيرها كالحج في غير أشهره، والصوم في غير شهر رمضان وهكذا فكانت الآية مشتملة على بيان حكم واحد.

ب. على التقدير الأول الذي يؤيده النقل فنفي البر عن إتيان البيوت من ظهورها يدل على أن العمل المذكور لم يكن مما أمضاه الدين وإلا لم يكن معنى لنفي كونه برا فإنما كان ذلك عادة سيئة جاهلية فنفى الله تعالى كونه من البر، وأثبت أن البر هو التقوى، وكان الظاهر أن يقال: ولكن البر هو التقوى، وإنما عدل إلى قوله: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى﴾، إشعارا بأن الكمال إنما هو في الاتصاف بالتقوى وهو المقصود دون المفهوم الخالي كما مر نظيره في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ﴾

ج. الأمر في قوله تعالى: ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ ليس أمرا مولويا وإنما هو إرشاد إلى حسن إتيان البيوت من أبوابها لما فيه من الجري على العادة المألوفة المستحسنة الموافقة للغرض العقلائي في بناء البيوت ووضع الباب مدخلا ومخرجا فيها، فإن الكلام واقع موقع الردع عن عادة سيئة لا وجه لها إلا خرق العادة الجارية الموافقة للغرض العقلائي، فلا يدل على أزيد من الهداية إلى طريق الصواب من غير إيجاب، نعم الدخول من غير الباب بمقصد أنه من الدين بدعة محرمة.

٣. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ قد عرفت في أول السورة أن التقوى من الصفات التي يجامع جميع مراتب الإيمان ومقامات الكمال، ومن المعلوم أن جميع المقامات لا يستوجب الفلاح والسعادة كما يستوجبه المقامات الأخيرة التي تنفي عن صاحبها الشرك والضلال وإنما تهدي إلى الفلاح وتبشر بالسعادة،

ولذلك قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فأتى بكلمة الترجي، ويمكن أن يكون المراد بالتقوى امتثال هذا الأمر الخاص الموجود في الآية وترك ما ذمه من إتيان البيوت من ظهورها.

٤. أحاديث وآثار:

أ. أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: سأل الناس رسول الله ﷺ عن الأهلة، فنزلت هذه الآية: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٩]، يعلمون بها أجل دينهم وعدة نسائهم ووقت حجهم.

• أقول: وروي هذا المعنى فيه بطرق أخر عن أبي العالية وقتادة وغيرهما، وروي أيضاً أن بعضهم سأل النبي ﷺ عن حالات القمر المختلفة فنزلت الآية، وهذا هو الذي ذكرنا آنفاً أنه مخالف لظاهر الآية، فلا عبرة به.

ب. أخرج وكيع والبخاري وابن جرير عن البراء: كانوا إذا أحرموا في الجاهلية دخلوا البيت من ظهره، فأنزل الله: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ [البقرة: ١٨٩]

ج. أخرج ابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن جابر قال: كانت قريش تدعى الحمس، وكانوا يدخلون من الأبواب في الإحرام، وكانت الأنصار وسائر العرب لا يدخلون من باب في الإحرام، فبينا رسول الله ﷺ في بستان، إذ خرج من بابه وخرج معه قطبة بن عامر الأنصاري، فقالوا: يا رسول الله، إن قطبة بن عامر رجل فاجر، وإنه خرج معك من الباب، فقال له: ما حملك على ما فعلت؟ قال: رأيتك فعلته ففعلته كما فعلت، قال: إني رجل أحمس، قال: فإن ديني دينك، فأنزل الله: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾

• أقول: وقد روي قريباً من هذا المعنى بطرق أخرى، والحمس جمع أحمس كحمر وأحمر، من الحماسة وهي الشدة، سميت به قريش لشدتهم في أمر دينهم أو لصلابتهم وشدة بأسهم، وظاهر الرواية أن رسول الله ﷺ كان قد أمضى قبل الواقعة الدخول من ظهور البيوت لغير قريش، ولذا عاتبه بقوله: (ما حملك على ما صنعت)، وعلى هذا فتكون الآية من الآيات الناسخة، وهي تنسخ حكماً مشرعاً من غير آية، هذا، ولكنك قد عرفت أن الآية تنافيه حيث تقول: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾، وحاشا

الله سبحانه أن يشرع هو أو رسوله بأمره حكماً من الأحكام ثم يذمه أو يقبحه وينسخه بعد ذلك، وهو ظاهر.

د. وفي محاسن البرقي عن الباقر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ [البقرة: ١٨٩]، قال: يعني أن يأتي الأمر من وجهه أي الأمور كان.

هـ. وفي الكافي عن الصادق عليه السلام: الأوصياء هم أبواب الله التي منها يؤتى، ولولاهم ما عرف الله عز وجل، وبهم احتج الله تبارك وتعالى على خلقه.

• أقول: الرواية من الجري وبيان لمصداق من مصاديق الآية بالمعنى الذي فسرت به في الرواية الأولى، ولا شك أن الآية بحسب المعنى عامة، وإن كانت بحسب مورد النزول خاصة.

• وقوله عليه السلام: (ولولاهم ما عرف الله) يعني البيان الحق والدعوة التامة الذين معهم، وله معنى آخر أدق، لعلنا نشير إليه فيما سيأتي إن شاء الله، والروايات في معنى الروايتين كثيرة.

٨٢. الجهاد في سبيل الله والرد على المعتدين وإخماد الفتنة:

المقطع [٨٢] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ للهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠-١٩٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢/ ٦٠»:

١. ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾، القتال محاولة الرجل قتل من يحاول قتله، وكونه في سبيل الله إنما هو لكون الغرض منه إقامة الدين وإعلاء كلمة التوحيد، فهو عبادة يقصد بها وجه الله تعالى دون الاستيلاء على أموال الناس وأعراضهم فإنما هو في الإسلام دفاع يحفظ به حق الإنسانية المشروعة عند الفطرة السليمة كما سنبينه، فإن الدفاع محدود بالذات، والتعدي خروج عن الحد، ولذلك عقبه بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾

٢. ﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ الاعتداء هو الخروج عن الحد، يقال عدا واعتدى إذا جاوز وحده، والنهي عن الاعتداء مطلق يراد به كل ما يصدق عليه أنه اعتداء كالقتال قبل أن يدعى إلى

الحق، والابتداء بالقتال، وقتل النساء والصبيان، وعدم الانتهاء إلى العدو، وغير ذلك مما بينه السنة النبوية.

٣. ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿مِنَ الْقَتْلِ﴾، يقال ثقف ثقافة أي وجد وأدرك فمعنى الآية معنى قوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾، والفتنة هو ما يقع به اختبار حال الشيء، ولذلك يطلق على نفس الامتحان والابتلاء وعلى ما يلازمه غالبا وهو الشدة والعذاب على ما يستعقبه كالضلال والشرك، وقد استعمل في القرآن الشريف في جميع هذه المعاني، والمراد به في الآية الشرك بالله ورسوله بالزجر والعذاب كما كان يفعله المشركون بمكة بالمؤمنين بعد هجرة رسول الله ﷺ وقبلها، فالمعنى شددوا على المشركين بمكة كل التشديد بقتلهم حيث وجدوا حتى ينجر ذلك إلى خروجهم من ديارهم وجلائهم من أرضهم كما فعلوا بكم ذلك، وما فعلوه أشد فإن ذلك منهم كان فتنة والفتنة أشد من القتل لأن في القتل انقطاع الحياة الدنيا، وفي الفتنة انقطاع الحياتين وانهدام الدارين.

٤. ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ﴾ (إلخ)، فيه نهي عن القتال عند المسجد الحرام حفظا لحرمته ما حفظوه، والضمير في قوله: ﴿فِيهِ﴾ راجع إلى المكان المدلول عليه بقوله عند المسجد.

٥. ﴿فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، الانتهاء الامتناع والكف، والمراد به الانتهاء عن مطلق القتال عند المسجد الحرام دون الانتهاء عن مطلق القتال بطاعة الدين وقبول الإسلام فإن ذلك هو المراد بقوله ثانيا: ﴿فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ﴾، وأما هذا الانتهاء فهو قيد راجع إلى أقرب الجمل إليه وهو قوله: ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ﴾، وعلى هذا فكل من الجملتين أعني قوله تعالى: ﴿فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ﴾، قيد لما يتصل به من الكلام من غير تكرار، وفي قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، وضع السبب موضع المسبب إعطاء لعلة الحكم، والمعنى فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم.

٦. ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾، تحديد لأمد القتال كما مر ذكره، والفتنة في لسان هذه الآيات هو الشرك باتخاذ الأصنام كما كان يفعله ويكره عليه المشركون بمكة، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾، والآية نظيرة لقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾، وفي الآية دلالة على وجوب الدعوة قبل القتال، فإن قبلت فلا قتال وإن ردت فلا ولاية إلا لله ونعم المولى ونعم النصير، ينصر عباده المؤمنين، ومن المعلوم أن القتال إنما

هو ليكون الدين لله، ولا معنى لقتال هذا شأنه وغايته إلا عن دعوة إلى الدين الحق وهو الدين الذي يستقر على التوحيد.

٧. يظهر من هذا الذي ذكرناه أن هذه الآية ليست بمنسوخة بقوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ بناء على أن دينهم لله سبحانه وتعالى، وذلك أن الآية أعني قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾، خاصة بالمشركين غير شاملة لأهل الكتاب، فالمراد، بكون الدين لله سبحانه وتعالى هو أن لا يعبد الأصنام ويقر بالتوحيد، وأهل الكتاب مقرون به، وإن كان ذلك كفرا منهم بالله بحسب الحقيقة كما قال تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾، لكن الإسلام قنع منهم بمجرد التوحيد، وإنما أمر بقتالهم حتى يعطوا الجزية لإعلاء كلمة الحق على كلمتهم وإظهار الإسلام على الدين كله.

٨. ﴿فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾، أي فإن انتهوا عن الفتنة وآمنوا بما آمنتم به فلا تقاتلوهم فلا عدوان إلا على الظالمين، فهو من وضع السبب موضع المسبب كما مر نظيره في قوله تعالى: ﴿فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ الآية، فالآية كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾

٩. وضع هنا مبحثا حول [الجهاد في الإسلام: مراحله وحكمته والرد على الشبهات]، خلاصته:

أ. القرآن أمر المسلمين أولاً بالكف عن القتال والصبر على الأذى، ثم نزلت آيات القتال تدريجياً: للدفاع عن المسلمين، ثم قتال أهل الكتاب، ثم قتال المشركين عامة، ثم قتال مطلق الكفار.

ب. الإسلام دين فطري، والدفاع عنه حق مشروع، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ﴾

ج. الجهاد في سبيل الله هو دفاع عن حق الإنسانية في حياتها، لأن الشرك هلاك للفطرة، والقتال إحياء لها.

د. القتال الابتدائي في الإسلام هو دفاع عن حق الإنسانية وكلمة التوحيد، لإماتة الشرك الظاهر أو إعلاء كلمة الحق.

هـ. القرآن وعد باستخلاف المؤمنين في الأرض وتمكين دينهم، وهو ما يشير إلى قتال لإقامة الإخلاص في التوحيد.

و. الرد على شبهة (دين السيف): الإسلام لم يبدأ بالقتال إلا بعد إتمام الحجة بالدعوة الحسنة، والقتال للإكراه على الحق بعد البيان جائز كسائر القوانين المدنية.

ز. الرد على شبهة (الأنبياء لم يقاتلوا): التاريخ يدل على أن بعض الأنبياء قاتلوا، كداود وسليمان وموسى، والقرآن يذكر ذلك.

ح. الجهاد في الإسلام هو دفاع عن الفطرة الإنسانية، وقد روعي فيه التدرج والاعتدال.

١٠. وضع هنا مبحثا حول [الدفاع عن الحقوق: أصل فطري في الاجتماع الإنساني]، خلاصته:

أ. الاجتماع مبني على أساس الاحتياج الفطري لحفظ الوجود والبقاء، والفطرة تعطي كل كائن حق التصرف فيما ينتفع به في حياته.

ب. الفطرة تعطي أيضاً حق الدفاع عن هذه الحقوق، لأن التصرف لا يتم بدون دفاع، والكون دار تزاحم وتنازع في البقاء.

ج. الحيوان يتوسل في الدفاع بأدواته الطبيعية (قرون، أنياب، مخالب)، والإنسان مسلح بالشعور الفكري، ويستخدم غيره في الدفاع والانتفاع.

د. حكم الاستخدام المطلق (استعباد الغير) يعدله الاجتماع، لأن الإنسان يدرك أن الآخرين أمثاله في الحاجة، فيضطر إلى المصالحة والعدل.

هـ. الإنسان لا يستند في مقاتلاته إلى حكم الاستخدام المطلق، بل إلى حق الدفاع عن حقوقه، فيفرض لنفسه حقاً ثم يدفع عنه.

و. كل قتال هو دفاع في الحقيقة، حتى الفاتحون يفرضون لأنفسهم نوعاً من الحق (كحق الحاكمية أو مضيقة المعاش) لتبرير هجومهم.

ز. الدفاع عن حقوق الإنسانية حق فطري مشروع، لكن يجب موازنته بما للغير من الأهمية، وأهم حق هو التوحيد والقوانين الدينية المبنية عليه.

١١. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٠] الآية: نزلت هذه الآية في صلح الحديبية، وذلك أن رسول الله ﷺ لما خرج هو وأصحابه في العام الذي أرادوا فيه العمرة، وكانوا ألفاً وأربعمائة، فساروا حتى نزلوا الحديبية، فصدهم المشركون عن البيت الحرام، فنحروا الهدي بالحديبية، ثم صالحهم المشركون على أن يرجع من عامه ويعود العام القابل، ويخلو له مكة ثلاثة أيام، فيطوف بالبيت ويفعل ما يشاء، فرجع إلى المدينة من فوره، فلما كان العام المقبل، تجهز النبي وأصحابه لعمرة القضاء، وخافوا أن لا تفي لهم قريش بذلك، وأن يصدوهم عن البيت الحرام ويقاتلوهم، وكره رسول الله قتالهم في الشهر الحرام في الحرم، فأنزل الله هذه الآية.

• أقول: وروي هذا المعنى في الدر المنثور بطرق عن ابن عباس وغيره.

ب. وفي المجمع أيضاً عن الربيع بن أنس وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هذه أول آية نزلت في القتال، فلما نزلت كان رسول الله يقاتل من قاتله ويكف عمن كف عنه، حتى نزلت: ﴿اقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]، فنسخت هذه الآية.

• أقول: وهذا اجتهاد منهما، وقد عرفت أن الآية غير ناسخة للآية، بل هو من قبيل تعميم الحكم بعد خصوصه.

ج. وفي المجمع في قوله تعالى: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ [البقرة: ١٩١] الآية: نزلت في سبب رجل من الصحابة قتل رجلاً من الكفار في الشهر الحرام، فعابوا المؤمنين بذلك، فبين الله سبحانه أن الفتنة في الدين ـ وهو الشرك ـ أعظم من قتل المشركين في الشهر الحرام، وإن كان غير جائز.

• أقول: وقد عرفت أن ظاهر وحدة السياق في الآيات الشريفة أنها نزلت دفعة واحدة.

د. وفي الدر المنثور في قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٣] الآية، بطرق عن قتادة قال: وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة، أي شرك، ويكون الدين لله، قال: حتى يقال: لا إله إلا الله، عليها قاتل رسول الله ﷺ، وإليها دعا، وذكر لنا أن النبي ﷺ كان يقول: إن الله أمرني أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين، قال: وإن الظالم الذي أبى أن يقول: لا إله إلا الله، يقاتل حتى يقول: لا إله إلا الله.

• أقول: قوله: (وإن الظالم) من قول قتادة، استفاد ذلك من قول النبي، وهي استفادة حسنة، وروي

نظير ذلك عن عكرمة.

هـ. أخرج البخاري وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عمر: أنه أتاه رجلان في فتنة ابن الزبير فقالا: إن الناس صنعوا، وأنت ابن عمر وصاحب النبي ﷺ، فما يمنعك أن تخرج؟ قال: يمنعني أن الله حرم دم أخي، قالا: ألم يقل الله: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾؟ قال: قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين لله، وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة ويكون الدين لغير الله.

• أقول: وقد أخطأ في معنى الفتنة وأخطأ السائلان، وقد مر بيانه، وإنما المورد من مصاديق الفساد في الأرض أو الاقتتال عن بغي، ولا يجوز للمؤمنين أن يسكتوا فيه.

و. وفي المجمع في قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ الآية، قال: أي شرك، وهو المروي عن أبي عبد الله عليه السلام.

٨٣. حرمة الشهر الحرام والدعوة للإنفاق وعدم الإلقاء بالنفس للتهلكة:

المقطع [٨٣] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤ـ١٩٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢/ ٦٤»:

١. ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾:

أ. الحرمات جمع حرمة وهي ما يحرم هتكه ويجب تعظيمه ورعاية جانبه، والحرمات: حرمة الشهر الحرام وحرمة الحرم وحرمة المسجد الحرام، والمعنى أنهم لو هتكوا حرمة الشهر الحرام بالقتال فيه، وقد هتكوا حين صدوا النبي ﷺ وأصحابه عن الحج عام الحديبية ورموهم بالسهام والحجارة جاز للمؤمنين أن يقاتلوهم فيه وليس بهتك، فإنما يجاهدون في سبيل الله ويمتثلون أمره في إعلاء كلمته ولو هتكوا حرمة الحرم والمسجد الحرام بالقتال فيه وعنده جاز للمؤمنين معاملتهم بالمثل، فقوله: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ بيان خاص عقب ببيان عام يشمل جميع الحرمات وأعم من هذا البيان العام قوله تعالى عقيبه: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾، فالمعنى أن الله سبحانه إنما شرع القصاص في الشهر الحرام لأنه شرع القصاص في جميع الحرمات وإنما شرع القصاص في الحرمات لأنه شرع جواز

الاعتداء بالمثل.

ب. ثم ندبهم إلى ملازمة طريقة الاحتياط في الاعتداء لأن فيه استعمالا للشدة والبأس والسطوة وسائر القوى الداعية إلى الطغيان والانحراف عن جادة الاعتدال والله سبحانه وتعالى لا يحب المعتدين، وهم أحوج إلى محبة الله تعالى وولايته ونصره فقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللهَّ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَّ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾

ج. أما أمره تعالى بالاعتداء مع أنه لا يحب المعتدين فإن الاعتداء مذموم إذا لم يكن في مقابلة اعتداء، وأما إذا كان في مقابلة الاعتداء فليس إلا تعاليا عن ذل الهوان وارتقاء عن حضيض الاستعباد والظلم والضيم، كالتكبر مع المتكبر، والجهر بالسوء لمن ظلم.

٢. ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهَّ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾:

أ. أمر بإنفاق المال لإقامة القتال في سبيل الله والكلام في تقييد الإنفاق هاهنا بكونه في سبيل الله نظير تقييد القتال في أول الآيات بكونه في سبيل الله، كما مر.

ب. الباء في قوله: ﴿بِأَيْدِيكُمْ﴾ زائدة للتأكيد، والمعنى: ولا تلقوا أيديكم إلى التهلكة كناية عن النهي عن إبطال القوة والاستطاعة والقدرة فإن اليد مظهر لذلك، وربما يقال: إن الباء للسببية ومفعول لا تلقوا محذوف، والمعنى: لا تلقوا أنفسكم بأيدي أنفسكم إلى التهلكة، والتهلكة والهلاك واحد وهو مصير الإنسان بحيث لا يدري أين هو، وهو على وزن تفعلة بضم العين ليس في اللغة مصدر على هذا الوزن غيره.

ج. الكلام مطلق أريد به النهي عن كل ما يوجب الهلاك من إفراط وتفريط كما أن البخل والإمساك عن إنفاق المال عند القتال يوجب بطلان القوة وذهاب القدرة، وفيه هلاك العدة بظهور العدو عليهم، وكما أن التبذير بإنفاق جميع المال يوجب الفقر والمسكنة المؤديين إلى انحطاط الحياة وبطلان المروة.

٣. ثم ختم سبحانه وتعالى الكلام بالإحسان فقال: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَّ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾:

أ. وليس المراد بالإحسان الكف عن القتال أو الرأفة في قتل أعداء الدين وما يشبههما بل الإحسان هو الإتيان بالفعل على وجه حسن بالقتال في مورد القتال، والكف في مورد الكف، والشدة في مورد الشدة، والعفو في مورد العفو، فدفع الظالم بما يستحقه إحسان على الإنسانية باستيفاء حقها المشروع لها، ودفاع عن الدين المصلح لشأنها كما أن الكف عن التجاوز في استيفاء الحق المشروع بما لا ينبغي إحسان آخر، ومحبة

الله سبحانه وتعالى هو الغرض الأقصى من الدين، وهو الواجب على كل متدين بالدين أن يجلبها من ربه بالاتباع، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾

ب. بدأت الآيات الشريفة وهي آيات القتال بالنهي عن الاعتداء ﴿وإِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ وختمت بالأمر بالإحسان ﴿وإِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾، وفي ذلك من وجوه الحلاوة ما لا يخفى.

٤. أحاديث وآثار:

أ. وفي تفسير العياشي في قوله تعالى: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾ [البقرة: ١٩٤]، عن العلاء بن الفضيل قال: سئلته عن المشركين أيبتدئهم المسلمون بالقتال في الشهر الحرام؟ قال: إذا كان المشركون ابتدئوهم باستحلالهم، رأى المسلمون بما أنهم يظهرون عليهم فيه، وذلك قوله: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾

ب. وأخرج أحمد وابن جرير والنحاس في ناسخه عن جابر بن عبد الله قال: لم يكن رسول الله ﷺ يغزو في الشهر الحرام حتى يغزى، ويغزو، فإذا حضره أقام حتى ينسلخ.

ج. وفي الكافي عن معاوية بن عمار قال: سئلت أبا عبد الله عليه السلام عن رجل قتل رجلاً في الحل ثم دخل الحرم، فقال عليه السلام: لا يقتل، ولا يطعم، ولا يسقى، ولا يبايع حتى يخرج من الحرم فيقام عليه الحقال: قلت: فما تقول في رجل قتل في الحرم أو سرق؟ قال: يقام عليه الحد في الحرم؛ لأنه لم ير للحرم حرمة، وقد قال الله عز وجل: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤]، فقال: هذا هو في الحرم، فقال: لا عدوان إلا على الظالمين.

د. وفي الكافي عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، قال: لو أن رجلاً أنفق ما في يديه في سبيل الله ما كان أحسن ولا وُفق، أليس الله يقول: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾، يعني المقتصدي

هـ. وروى الصدوق عن ثابت بن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: طاعة السلطان واجبة، ومن ترك طاعة السلطان فقد ترك طاعة الله، ودخل في نهيه، يقول الله: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾

و. وفي الدر المنثور بطرق كثيرة عن أسلم أبي عمران قال: كنا بالقسطنطينية، وعلى أهل مصر عقبة بن عامر، وعلى أهل الشام فضالة بن عبيد، فخرج صف عظيم من الروم فصففنا لهم، فحمل رجل من

المسلمين على صف الروم حتى دخل فيهم، فصاح الناس، فقالوا: سبحان الله، يلقي بيديه إلى التهلكفقام أبو أيوب صاحب رسول الله ﷺ، فقال: يا أيها الناس، إنكم تتأولون هذه الآية هذا التأويل، وإنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار، إنا لما أعز الله دينه وكثر ناصروه، قال بعضنا لبعض سراً دون رسول الله: إن أموالنا قد ضاعت، وإن الله قد أعز الإسلام وكثر ناصروه، فلو أقمنا في أموالنا فأصلحنا ما ضاع فيها، فأنزل الله على نبيه يرد علينا ما قلنا: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾، فكانت التهلكة الإقامة في الأموال وإصلاحها وتركنا الغزو.

• أقول: واختلاف الروايات كما ترى في معنى الآية يؤيد ما ذكرناه: أن الآية مطلقة تشمل جانبي الإفراط والتفريط في الإنفاق جميعاً، بل تعم الإنفاق وغيره.

٨٤. إتمام الحج والعمرة وأحكام الإحصار والتمتع والفدية:

المقطع [٨٤] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [البقرة: ١٩٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢/ ٦٤»:

١. ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾:

أ. تمام الشيء هو الجزء الذي بانضمامه إلى سائر أجزاء الشيء يكون الشيء هو هو، ويترتب عليه آثاره المطلوبة منه فالإتمام هو ضم تمام الشيء إليه بعد الشروع في بعض أجزائه، والكمال هو حال أو وصف أو أمر إذا وجده الشيء ترتب عليه من الأثر بعد تمامه ما لا يترتب عليه لو لا الكمال، فانضمام أجزاء الإنسان بعضها إلى بعض هو تمامه، وكونه إنسانا عالما أو شجاعا أو عفيفا كماله، وربما يستعمل التمام مقام الكمال بالاستعارة بدعوى كون الوصف الزائد على الشيء داخلا فيه اهتماما بأمره وشأنه، والمراد بإتمام الحج والعمرة هو المعنى الأول الحقيقي، والدليل عليه قوله تعالى بعده: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾، فإن ذلك تفريع على التمام بمعنى إيصال العمل إلى آخر أجزائه وضمه إلى أجزائه المأتي بها بعد

الشروع ولا معنى يصحح تفريعه على الإتمام بمعنى الإكمال وهو ظاهر.

ب. الحج هو العمل المعروف بين المسلمين الذي شرعه إبراهيم الخليل عليه السلام، وكان بعده بين العرب ثم أمضاه الله سبحانه لهذه الأمة شريعة باقية إلى يوم القيامة، ويبتدى هذا العمل بالإحرام والوقوف في العرفات ثم المشعر الحرام، وفيها التضحية بمنى ورمي الجمرات الثلاث والطواف وصلاته والسعي بين الصفا والمروة، وفيها أمور مفروضة أخر، وهو على ثلاثة أقسام: حج الإفراد، وحج القران، وحج التمتع الذي شرعه الله في آخر عهد رسول الله ﷺ.

ج. العمرة عمل آخر وهو زيارة البيت بالإحرام من أحد المواقيت والطواف وصلاته والسعي بين الصفا والمروة والتقصير، وهما أعني الحج، والعمرة عبادتان لا يتمان إلا لوجه الله ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ للهِّ﴾ الآية.

٢. ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ﴾، الإحصار هو الحبس والمنع، والمراد الممنوعية عن الإتمام بسبب مرض أو عدو بعد الشروع بالإحرام والاستيسار صيرورة الشيء يسيرا غير عسير كأنه يجلب اليسر لنفسه، والهدي هو ما يقدمه الإنسان من النعم إلى غيره أو إلى محل للتقرب به، وأصله من الهدية بمعنى التحفة أو من الهدى بمعنى الهداية التي هي السوق إلى المقصود، والهدي والهدية كالتمر والتمرة، والمراد به ما يسوقه الإنسان للتضحية به في حجه من النعم.

٣. ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ﴾ الفاء للتفريع، وتفريع هذا الحكم على النهي عن حلق الرأس يدل على أن المراد بالمرض هو خصوص المرض الذي يتضرر فيه من ترك الشعر على الرأس من غير حلق، والإتيان بقوله: أو ﴿بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ﴾ بلفظة ﴿أَوْ﴾ الترديد يدل على أن المراد بالأذى ما كان من غير طريق المرض كالهوام فهو كناية عن التأذي من الهوام كالقمل على الرأس، فهذان الأمران يجوزان الحلق مع الفدية بشيء من الخصال الثلاث: التي هي الصيام، والصدقة، والنسك، وقد وردت السنة أن الصيام ثلاثة أيام، وأن الصدقة إطعام ستة مساكين، وأن النسك شاة.

٤. ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ﴾، تفريع على الإحصار، أي إذا أمنتم المانع من مرض أو عدو أو غير ذلك فمن تمتع بالعمرة إلى الحج، أي تمتع بسبب العمرة من حيث ختمها والإحلال إلى زمان الإهلال بالحج فما استيسر من الهدي، فالباء للسببية، وسببية العمرة للتمتع بما كان لا يجوز له في حال

الإحرام كالنساء والصيد ونحوهما من جهة تمامها بالإحلال.

٥. ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾، ظاهر الآية أن ذلك نسك، لا جبران لما فات منه من الإهلال بالحج من الميقات فإن ذلك أمر يحتاج إلى زيادة مئونة في فهمه من الآية كما هو ظاهر.

٦. سؤال وإشكال: إن ترتب قوله: ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾، على قوله: ﴿فَمَنْ تَمَتَّعَ﴾ ترتب الجزاء على الشرط مع أن اشتمال الشرط على لفظ التمتع مشعر بأن الهدي واقع بإزاء التمتع الذي هو نوع تسهيل شرع له تخفيفا فهو جبران لذلك، والجواب: يدفعه قوله تعالى: ﴿بِالْعُمْرَةِ﴾، فإن ذلك يناسب التجويز للتمتع في أثناء عمل واحد، ولا معنى للتسهيل حيث لا إحرام لتمام العمرة وعدم الإهلال بالحج بعد، على أن هذا الاستشعار لو صح فإنما يتم به كون تشريع الهدي من أجل تشريع التمتع بالعمرة إلى الحج لا كون الهدي جبرانا لما فاته من الإهلال بالحج من الميقات دون مكة، وظاهر الآية كون قوله: ﴿فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ إخبارا عن تشريع التمتع لا إنشاء للتشريع فإنه يجعل التمتع مفروغا عنه ثم يبنى عليه تشريع الهدي، ففرق بين قولنا: (من تمتع فعليه هدي) وقولنا (تمتعوا وسوقوا الهدي)، وأما إنشاء تشريع التمتع فإنما يتضمنه قوله تعالى في ذيل الآية: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾

٧. ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾، جعل الحج ظرفا للصيام باعتبار اتحاده مع زمان الاشتغال به ومكانه، فالزمان الذي يعد زمانا للحج، وهو من زمان إحرام الحج إلى الرجوع، زمان الصيام ثلاثة أيام، ولذلك وردت الروايات عن أئمة أهل البيت أن وقت الصيام قبل يوم الأضحى أو بعد أيام التشريق لمن لم يقدر على الصيام قبله وإلا فعند الرجوع إلى وطنه، وظرف السبعة إنما هو بعد الرجوع فإن ذلك هو الظاهر من قوله: ﴿إِذَا رَجَعْتُمْ﴾، ولم يقل حين الرجوع على أن الالتفات من الغيبة إلى الحضور في قوله ﴿إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ لا يخلو عن إشعار بذلك.

٨. ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾، أي الثلاثة والسبعة عشرة كاملة وفي جعل السبعة مكملة للعشرة لا متممة دلالة على أن لكل من الثلاثة والسبعة حكما مستقلا آخر على ما مر من معنى التمام والكمال في أول الآية فالثلاثة عمل تام في نفسه، وإنما تتوقف على السبعة في كمالها لا تمامها.

٩. ﴿ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾، أي الحكم المتقدم ذكره وهو التمتع بالعمرة

إلى الحج لغير الحاضر، وهو الذي بينه وبين المسجد الحرام أكثر من اثني عشر ميلا على ما فسرته السنة، وأهل الرجل خاصته: من زوجته وعياله، والتعبير عن النائي البعيد بأن لا يكون أهله حاضري المسجد الحرام من ألطف التعبيرات، وفيه إيماء إلى حكمة التشريع وهو التخفيف والتسهيل، فإن المسافر من البلاد النائية للحج، وهو عمل لا يخلو من الكد ومقاسات التعب ووعثاء الطريق، لا يخلو عن الحاجة إلى السكن والراحة، والإنسان إنما يسكن ويستريح عند أهله، وليس للنائي أهل عند المسجد الحرام، فبدله الله سبحانه من التمتع بالعمرة إلى الحج والإهلال بالحج من المسجد الحرام من غير أن يسير ثانيا إلى الميقات، وقد عرفت: أن الجملة الدالة على تشريع المتعة إنما هي هذه الجملة أعني قوله: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ﴾، دون قوله: ﴿فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ﴾، وهو كلام مطلق غير مقيد بوقت دون وقت ولا شخص دون شخص ولا حال دون حال.

١٠. ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، التشديد البالغ في هذا التذليل مع أن صدر الكلام لم يشتمل على أزيد من تشريع حكم في الحج ينبيء عن أن المخاطبين كان المترقب من حالهم إنكار الحكم أو التوقف في قبوله وكذلك كان الأمر فإن الحج خاصة من بين الأحكام المشرعة في الدين كان موجودا بينهم من عصر إبراهيم الخليل معروفا عندهم معمولا به فيهم قد أنسته نفوسهم وألفته قلوبهم وقد أمضاه الإسلام على ما كان تقريبا إلى آخر عهد النبي ﷺ فلم يكن تغيير وضعه أمرا هينا سهل القبول عندهم ولذلك قابلوه بالإنكار وكان ذلك غير واقع في نفوس كثير منهم على ما يظهر من الروايات، ولذلك اضطر النبي ﷺ إلى أن يخطبهم فيبين لهم أن الحكم لله يحكم ما يشاء، وأنه حكم عام لا يستثني فيه أحد من نبي أو أمة فهذا هو الموجب للتشديد الذي في آخر الآية بالأمر بالتقوى والتحذير عن عقاب الله سبحانه.

١١. وضع هنا مبحثا حول [تحقيق حكم متعة الحج]، خلاصته:

أ. متعة الحج (وهي الإتيان بالعمرة في أشهر الحج ثم التحلل، ثم الإحرام بالحج من مكة) مشروعة بالقرآن والسنة، وقد فعلها النبي ﷺ وأصحابه في حجة الوداع، وأمر بها المسلمين، ولم ينسخها قرآن ولا سنة.

ب. النهي عن المتعة صدر من عمر بن الخطاب وغيره من الخلفاء، وليس له أصل في الكتاب ولا

في السنة، بل هو اجتهاد منهم في مقابل النص، وقد اعترفوا بأنها سنة رسول الله ﷺ، ولكنهم رأوا فيها مفسدة (كالتلذذ بالنساء والطيب، أو تعطل أسواق مكة) فمنعوها.

ج. أدلة المشروعية:

• قوله تعالى: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ [البقرة: ١٩٦]، نص في مشروعية التمتع.

• فعل النبي ﷺ في حجة الوداع، حيث أهل بالعمرة ثم أهل بالحج، وأمر أصحابه بذلك.

• إجماع الصحابة على فعلها مع النبي، واعتراف عمر وغيره بأنها سنة رسول الله.

د. الرد على الشبهات:

• شبهة الإتمام: قوله: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦] لا يدل على فصل العمرة عن الحج، بل على إتمامها بعد الشروع فيهما.

• شبهة الخوف: التمتع مشروع في غير حال الخوف أيضاً، لأن الآية مطلقة.

• شبهة اختصاص النبي: التمتع لم يكن خاصاً بالنبي، بل أمر به أصحابه، والآية عامة.

• شبهة المصلحة: لا يجوز لولي الأمر أن يغير حكماً شرعياً ثابتاً بالكتاب والسنة بحجة المصلحة، وإلا بطلت الشريعة.

هـ. ولاية الأمر لا تشمل تغيير الأحكام: طاعة أولي الأمر مقيدة بطاعة الله ورسوله، وليس لأولي الأمر أن يحرموا حلالاً أو يحللوا حراماً، بل تصرفهم في الأمور العامة مع حفظ الأحكام الإلهية على ما هي عليها.

و. الروايات في الباب كثيرة جداً: وقد اقتصرنا على ما له دخل في البحث التفسيري، وهو دلالة النهي على الكتاب والسنة.

١٢. أحاديث وآثار:

أ. في التهذيب وتفسير العياشي عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦]، قال: هما مفروضان.

ب. وفي تفسير العياشي عن زرارة وحمران ومحمد بن مسلم عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهم

السلام قالوا: سألناهما عن قوله: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾، قالا: فإن تمام الحج أن لا يرفث ولا يفسق ولا يجادل.

ج. وفي الكافي عن الصادق عليه السلام في حديث قال: يعني بتمامهما أداءهما، واتقاء ما يتقي المحرم فيهما.

• أقول: والروايات غير منافية لما قدمناه من معنى الإتمام؛ فإن فرضهما وأداءهما هو إتمامهما.

د. وفي الكافي عن الحلبي عن الصادق عليه السلام قال: إن رسول الله ﷺ حين حج حجة الإسلام خرج في أربع بقين من ذي القعدة، حتى أتى الشجرة وصلى بها، ثم قاد راحلته حتى أتى البيداء فأحرم منها وأهل بالحج، وساق مائة بدنة، وأحرم الناس كلهم بالحج لا ينوون عمرة ولا يدرون ما المتعة، حتى إذا قدم رسول الله ﷺ مكة، طاف بالبيت وطاف الناس معه، ثم صلى ركعتين عند المقام واستلم الحجر، ثم قال: أبدأ بما بدأ الله عز وجل به، فأتى الصفا فبدأ بها، ثم طاف بين الصفا والمروة سبعاً، فلما قضى طوافه عند المروة، قام خطيباً وأمرهم أن يحلوا ويجعلوها عمرة، وهو شيء أمر الله عز وجل به، فأحل الناس، وقال رسول الله: لو كنت استقبلت من أمري ما استدبرت، لفعلت كما أمرتكم، ولم يكن يستطيع من أجل الهدي الذي معه، إن الله عز وجل يقول: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾ [البقرة: ١٩٦]، قال سراقة بن جعثم الكناني: علمنا ديننا كأنا خلقنا اليوم، أرأيت هذا الذي أمرتنا به لعامنا أو لكل عام؟ فقال رسول الله ﷺ: لا بل للأبد، وإن رجلاً قام فقال: يا رسول الله، نخرج حجاجاً ورؤوسنا تقطر من نسائنا؟ فقال رسول الله ﷺ: إنك لن تؤمن بها أبداً، قال عليه السلام: وأقبل علي عليه السلام من اليمن حتى وافى الحج، فوجد فاطمة قد أحلت ووجد ريح الطيب، فانطلق إلى رسول الله ﷺ مستفتياً، فقال رسول الله ﷺ: يا علي، بأي شيء أهللت؟ فقال: بما أهل به النبي، فقال: لا تحل أنت، فاشركه في الهدي، وجعل له سبعاً وثلاثين، ونحر رسول الله ﷺ ثلاثاً وستين، فنحرها بيده، ثم أخذ من كل بدنة بضعة فجعلها في قدر واحد، ثم أمر به فطبخ، فأكل منه وحسا من المرق، وقال ﷺ: قد أكلنا الآن منه جميعاً، والمتعة خير من القارن السائق، وخير من الحاج المفرد، قال: وسئلته: ليلاً أحرم رسول الله ﷺ أم نهاراً؟ فقال: نهاراً، فقلت: أي ساعة؟ قال: صلاة الظهر.

• أقول: وقد روي هذا المعنى في المجمع وغيره.

هـ. وفي التهذيب عن الصادق عليه السلام قال: دخلت العمرة في الحج إلى يوم القيامة، فمن تمتع بالعمرة إلى الحج، فما استيسر من الهدي، فليس لأحد إلا أن يتمتع؛ لأن الله أنزل ذلك في كتابه، وجرت به السنة من رسول الله ﷺ.

و. وفي الكافي أيضاً عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ [البقرة: ١٩٦]، قال: شاة.

ز. وفي الكافي أيضاً عن الصادق عليه السلام في المتمتع لا يجد الشاة، قال: يصوم قبل التروية يوم التروية ويوم عرفة، قيل: فإنه قد قدم يوم التروية؟ قال: يصوم ثلاثة أيام بعد التشريق، قيل: لم يقم عليه جماله؟ قال: يصوم يوم الحصبة وبعده يومين، قيل: وما الحصبة؟ قال: يوم نفره، قيل: يصوم وهو مسافر؟ قال: نعم، أليس هو يوم عرفة مسافراً؟ إنا أهل بيت نقول بذلك، يقول الله تعالى: ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٦]، يقول: في ذي الحجة.

ح. وروي الشيخ عن الصادق عليه السلام قال: ما دون المواقيت إلى مكة فهو حاضري المسجد الحرام، وليس له متعة.

• أقول: يعني أن ما دون المواقيت فساكنه يصدق عليه أنه من حاضري المسجد الحرام، وليس له متعة، والروايات في هذه المعاني كثيرة من طرق أئمة أهل البيت.

٨٥. الحج أشهر معلومات وآدابه وذكر الله عند المشعر الحرام:

المقطع [٨٥] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٧-١٩٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢/ ٦٤»:

١. ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ﴾ أي زمان الحج أشهر معلومات عند القوم وقد بينته السنة وهي: شوال وذو القعدة وذو الحجة، وكون زمان الحج من ذي الحجة بعض هذا الشهر

دون كله لا ينافي عده شهرا للحج فإنه من قبيل قولنا: زمان مجيئي إليك يوم الجمعة مع أن المجيء إنما هو في بعضه دون جميعه.

٢. في تكرار لفظ الحج ثلاث مرات في الآية على أنه من قبيل وضع الظاهر موضع المضمر لطف الإيجاز، فإن المراد بالحج الأول زمان الحج، وبالحج الثاني نفس العمل، وبالثالث زمانه ومكانه، ولولا الإظهار لم يكن بد من إطناب غير لازم كما قيل.

٣. فرض الحج جعله فرضا على نفسه بالشروع فيه لقوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ الآية، و﴿الرَّفَثُ﴾ كما مر مطلق التصريح بما يكنى عنه، و﴿الْفُسُوقُ﴾ هو الخروج عن الطاعة، والجدال المراء في الكلام، لكن السنة فسرت الرفث بالجماع، والفسوق بالكذب، والجدال بقول لا والله وبلى والله.

٤. ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾، تذكرة بأن الأعمال غير غائبة عنه تعالى، ودعوة إلى التقوى لئلا يفقد المشتغل بطاعة الله روح الحضور ومعنى العمل، وهذا دأب القرآن يبين أصول المعارف ويقص القصص ويذكر الشرائع ويشفع البيان في جميعها بالعظة والوصية لئلا يفارق العلم العمل، فإن العلم من غير عمل لا قيمة له في الإسلام، ولذلك ختم هذه الدعوة بقوله: ﴿واتقوني يا أولي الألباب﴾، بالعدول من الغيبة إلى التكلم الذي يدل على كمال الاهتمام والاقتراب والتعين.

٥. ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾، هو نظير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ إلى أن قال: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾، فبدل البيع بالابتغاء من فضل الله فهو هو، ولذلك فسرت السنة الابتغاء من الفضل في هذه الآية من البيع فدلت الآية على إباحة البيع أثناء الحج.

٦. ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾، الإفاضة هي الصدور عن المكان جماعة فهي تدل على وقوف عرفات كما تدل على الوقوف بالمشعر الحرام، وهي المزدلفة.

٧. ﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ﴾ أي واذكروه ذكرا يماثل هدايته إياكم وأنكم كنتم من قبل هدايته إياكم لمن الضالين.

٨. ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾، ظاهره إيجاب الإفاضة على ما كان من دأب الناس وإلحاق المخاطبين في هذا الشأن بهم فينطبق على ما نقل أن قريشا وحلفاءها وهم الحمس كانوا لا يقفون

بعرفات بل بالمزدلفة وكانوا يقولون: نحن أهل حرم الله لا نفارق الحرم فأمرهم الله سبحانه بالإفاضه من حيث أفاض الناس وهو عرفات، وعلى هذا فذكر هذا الحكم بعد قوله: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ﴾، بثم الدالة على التأخير اعتبار للترتيب الذكري، والكلام بمنزلة الاستدراك، والمعنى أن أحكام الحج هي التي ذكرت غير أنه يجب عليكم في الإفاضة أن تفيضوا من عرفات لا من المزدلفة، وربما قيل: إن في الآيتين تقديما وتأخيرا في التأليف، والترتيب: ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس، فإذا أفضتم من عرفات.

٩. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي عن الباقر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾ [البقرة: ١٩٧]، قال: الحج أشهر معلومات: شوال وذو القعدة وذو الحجة، ليس لأحد أن يحج فيما سواهن.

ب. وفيه عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ﴾، الفرض: التلبية والإشعار والتقليد، فأي ذلك فعل فقد فرض الحج.

ج. وفي الكافي عنه عليه السلام في قوله تعالى: ﴿فَلَا رَفَثَ﴾ [البقرة: ١٩٧]، الرفث: الجماع، والفسوق: الكذب والسباب، والجدال: قول الرجل: لا والله وبلى والله.

د. وفي تفسير العياشي عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨]، يعني الرزق، فإذا أحل الرجل من إحرامه وقضى، فليشتر وليبع في الموسم.

• أقول: ويقال: إنهم كانوا يتأثمون بالتجارة في الحج، فرفع الله ذلك بالآية.

وفي المجمع، وقيل: معناه لا جناح عليكم أن تطلبوا المغفرة من ربكم، رواه جابر عن أبي جعفر عليه السلام.

• أقول: وفيه تمسك بإطلاق الفضل وتطبيقه بأفضل الأفراد.

هـ. وفي تفسير العياشي عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ [البقرة: ١٩٩] الآية، قال: إن أهل الحرم كانوا يقفون على المشعر الحرام، ويقف الناس بعرفة، ولا يفيضون حتى يطلع عليهم أهل عرفة، وكان رجل يكنى أبا سيار، وكان له حمار فاره، وكان يسبق أهل عرفة، فإذا طلع عليهم قالوا: هذا أبو سيار، ثم أفاضوا، فأمرهم الله أن يقفوا بعرفة وأن يفيضوا منه.

• أقول: وفي هذا المعنى روايات أخر.

٨٦. الدعاء بعد المناسك بين طالب الدنيا وطالب الآخرة:

المقطع [٨٦] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [البقرة: ٢٠٠-٢٠٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢/ ٦٤»:

١. ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿ذِكْرًا﴾:

أ. دعوة إلى ذكر الله والبلاغ فيه بأن يذكره الناسك كذكره آباءه وأشد منه لأن نعمته في حقه وهي نعمة الهداية كما ذكره بقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ﴾ أعظم من حق آبائه عليه، وقد قيل: إن العرب كانت في الجاهلية إذا فرغت من الحج مكثت حينا في منى فكانوا يتفاخرون بالآباء بالنظم والنثر، فبدله الله تعالى من ذكره كذكرهم أو أشد من ذكرهم.

ب. (أو) في قوله أو أشد ذكرا، للإضراب فتفيد معنى بل.

٢. وصف الذكر بالشدة وهو أمر يقبل الشدة في الكيفية كما يقبل الكثرة في الكمية قال تعالى: ﴿واذكروا الله ذكرا كثيرا﴾، وقال تعالى: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾، فإن الذكر بحسب الحقيقة ليس مقصورا في اللفظ، بل هو أمر يتعلق بالحضور القلبي واللفظ حاك عنه، فيمكن أن يتصف بالكثرة من حيث الموارد بأن يذكر الله سبحانه في غالب الحالات كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾، وأن يتصف بالشدة في مورد من الموارد، ولما كان المورد المستفاد من قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ﴾، موردا يستوجب التلهي عنه تعالى ونسيانه كان الأنسب توصيف الذكر الذي أمر به فيه بالشدة دون الكثرة كما هو ظاهر.

٣. ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا﴾ تفريع على قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾، والناس مطلق، فالمراد به أفراد الإنسان أعم من الكافر الذي لا يذكر إلا آباءه أي لا يبتغي إلا المفاخر الدنيوية ولا يطلب إلا الدنيا ولا شغل له بالآخرة، ومن المؤمن الذي لا يريد إلا ما عند الله سبحانه، ولو أراد من الدنيا شيئا لم يرد إلا ما يرتضيه له ربه، وعلى هذا فالمراد بالقول والدعاء ما هو سؤال بلسان الحال دون المقال، ويكون معنى الآية أن من الناس من لا يريد إلا الدنيا ولا نصيب له في الآخرة ومنهم

من لا يريد إلا ما يرتضيه له ربه سواء في الدنيا أو في الآخرة ولهؤلاء نصيب في الآخرة.

٤. من هنا يظهر: وجه ذكر الحسنة في قول أهل الآخرة دون أهل الدنيا، وذلك أن من يريد الدنيا لا يقيده بأن يكون حسنا عند الله سبحانه بل الدنيا وما هو يتمتع به في الحياة الأرضية كلها حسنة عنده موافقة لهوى نفسه، وهذا بخلاف من يريد ما عند الله سبحانه فإن ما في الدنيا وما في الآخرة ينقسم عنده إلى حسنة وسيئة ولا يريد ولا يسأل ربه إلا الحسنة دون السيئة.

٥. المقابلة بين قوله: ﴿وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾، وقوله: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا﴾، تعطي أن أعمال الطائفة الأولى باطلة حابطة بخلاف الثانية كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾، وقال تعالى: ﴿فلا نقيم لهم يوم القيمة وزنا﴾

٦. ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ اسم من أسماء الله الحسنى، وإطلاقه يدل على شموله للدنيا والآخرة معا، فالحساب جار، كلما عمل عبد شيئا من الحسنات أو غيرها آتاه الله الجزاء جزاء وفاقا.

٧. المحصل من معنى قوله: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ﴾ إلى آخر الآيات، أن اذكروا الله تعالى فإن الناس على طائفتين: منهم من يريد الدنيا فلا يذكر غيرها ولا نصيب له في الآخرة، ومنهم من يريد ما عند الله مما يرتضيه له وله نصيب من الآخرة والله سريع الحساب يسرع في حساب ما يريده عبده فيعطيه كما يريد، فكونوا من أهل النصيب بذكر الله ولا تكونوا ممن لا خلاق له بتركه ذكر ربه فتكونوا قانطين آيسين.

٨. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير العياشي عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١]، قال: رضوان الله والجنة في الآخرة، والسعة في الرزق وحسن الخلق في الدنيا.

ب. وعنه عليه السلام قال: رضوان الله، والتوسعة في المعيشة وحسن الصحبة، وفي الآخرة الجنة.

ج. وعن علي عليه السلام: في الدنيا المرأة الصالحة، وفي الآخرة الحوراء، وعذاب النار امرأة السوء.

• أقول: والروايات من قبيل عد المصداق، والآية مطلقة، ولما كان رضوان الله تعالى مما يمكن

حصوله في الدنيا وظهوره التام في الآخرة، صح أن يعد من حسنات الدنيا كما في الرواية الأولى، أو الآخرة كما في الرواية الثانية.

٨٧. ذكر الله في أيام التشريق وتعجيل النفرة أو تأخيرها:

المقطع [٨٧] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [البقرة: ٢٠٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢/ ٦٤»:

١. ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾، الأيام المعدودات هي أيام التشريق وهي اليوم الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر من ذي الحجة، والدليل على أن هذه الأيام بعد العشرة من ذي الحجة ذكر الحكم بعد الفراغ عن ذكر أعمال الحج، والدليل على كونها ثلاثة أيام قوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ إلخ، فإن التعجل في يومين إنما يكون إذا كانت الأيام ثلاثة، يوم ينفر فيه، ويومان يتعجل فيهما فهي ثلاثة، وقد فسرت في الروايات بذلك أيضا.

٢. ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى﴾، لا نافية للجنس فقوله: ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ في الموضعين ينفي جنس الإثم عن الحاج ولم يقيد بشيء أصلا، ولو كان المراد لا إثم عليه في التعجل أو في التأخر لكان من اللازم تقييده به، فالمعنى أن من أتم عمل الحج فهو مغفور لا ذنب له سواء تعجل في يومين أو تأخر، ومن هنا يظهر: أن الآية ليست في مقام بيان التخيير بين التأخر والتعجل للناسك، بل المراد بيان كون الذنوب مغفورة للناسك على أي حال.

٣. ﴿لِمَنِ اتَّقَى﴾ ليس بيانا للتعجل والتأخر وإلا لكان حق الكلام أن يقال: على من اتقى، بل الظاهر أن قوله: ﴿لِمَنِ اتَّقَى﴾ نظير قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ الآية، والمراد أن هذا الحكم لمن اتقى وأما من لم يتق فليس له، ومن اللازم أن يكون هذه التقوى تقوى مما نهى الله سبحانه عنه في الحج واختصه به فيئول المعنى أن الحكم إنما هو لمن اتقى تروك الإحرام أو بعضها أما من لم يتق فيجب أن يقيم بمنى ويذكر الله في أيام معدودات، وقد ورد هذا المعنى في بعض ما روي عن أئمة أهل البيت.

٤. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾، أمر بالتقوى في خاتمة الكلام وتذكير بالحشر

والبعث فإن التقوى لا تتم والمعصية لا تجتنب إلا مع ذكر يوم الجزاء، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِّ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾

٥. في اختيار لفظ الحشر في قوله تعالى: ﴿أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾، مع ما في نسك الحج من حشر الناس وجمعهم لطف ظاهر، وإشعار بأن الناسك ينبغي أن يذكر بهذا الجمع والإفاضة يوما يحشر الله سبحانه الناس لا يغادر منهم أحدا.

٦. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللهَّ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٠٣] الآية، قال: وهي أيام التشريوكانوا إذا أقاموا بمنى بعد النحر تفاخروا، فقال الرجل منهم: كان أبي يفعل كذا وكذا، فقال الله جل شأنه: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللهَّ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٢٠٠]قال: والتكبير: الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله والله أكبر، ولله الحمد، الله أكبر على ما هدانا، الله أكبر على ما رزقنا من بهيمة الأنعا

ب. وفيه عنه عليه السلام قال: والتكبير في أيام التشريق من صلاة الظهر يوم النحر إلى صلاة الفجر من اليوم الثالث، وفي الأمصار يكبر عقيب عشر صلوا

ج. وفي الفقيه في قوله تعالى: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٢٠٣] الآية، سئل الصادق عليه السلام في هذه الآية فقال: ليس هو على أن ذلك واسع إن شاء صنع ذا، لكنه يرجع مغفوراً له لا ذنب ل

د. وفي تفسير العياشي عنه عليه السلام قال: يرجع مغفوراً له لا ذنب له لمن اتق

هـ. وفي الفقيه عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿لِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٠٣] الآية، قال: يتقي الصيد حتى ينفر أهل من

و. وعن الباقر عليه السلام: لمن اتقى الرفث والفسوق والجدال وما حرم الله في إحرام

ز. وعنه أيضاً: لمن اتقى الله عز وج

ح. وعن الصادق عليه السلام: لمن اتقى الكبائر.

• أقول: قد عرفت ما يدل عليه الآية، ويمكن التمسك بعموم التقوى كما في الروايتين الأخيرتين.

٨٨. صفة المنافق المفسد وصفة المؤمن المضحي بنفسه:

المقطع [٨٨] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَّ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللهُّ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَّ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهَّ وَاللهُّ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [البقرة: ٢٠٤-٢٠٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢/ ٩٦»:

١. ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الآية، أعجبه الشيء أي راقه وسره، وقوله: ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ متعلق بقوله: ﴿يُعْجِبُكَ﴾، أي إن الإعجاب في الدنيا من جهة أن هذه الحياة نوع حياة لا تحكم إلا على الظاهر، وأما الباطن والسريرة فتحت الستر ووراء الحجاب، لا يشاهده الإنسان وهو متعلق الحياة بالدنيا إلا أن يستكشف شيئا من أمر الباطن من طريق الآثار ويناسبه ما يتلوه من قوله تعالى: ﴿وَيُشْهِدُ اللهَّ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ﴾، والمعنى أنه يتكلم بما يعجبك كلامه، من ما يشير به إلى رعاية جانب الحق، والعناية بصلاح الخلق، وتقدم الدين والأمة وهو أشد الخصماء للحق خصومة.

٢. ﴿أَلَدُّ﴾، أفعل التفضيل من لد لدودا إذا اشتد خصومة، والخصام جمع خصم كصعب وصعاب وكعب وكعاب، وقيل: الخصام مصدر، ومعنى ألد الخصام أشد خصومة.

٣. ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾ الآية، التولي هو تملك الولاية والسلطان، ويؤيده قوله تعالى في الآية التالية: ﴿أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾، الدال على أن له عزة مكتسبة بالإثم الذي يأثم به قلبه غير الموافق للسانه، والسعي هو العمل والإسراع في المشي، فالمعنى وإذا تمكن هذا المنافق الشديد الخصومة من العمل وأوتي سلطانا وتولى أمر الناس سعى في الأرض ليفسد فيها، ويمكن أن يكون التولي بمعنى الإعراض عن المخاطبة والمواجهة، أي إذا خرج من عندك كانت غيبته مخالفة لحضوره، وتبدل ما كان يظهره من طلب الصلاح والخير إلى السعي في الأرض لأجل الفساد والإفساد.

٤. ﴿وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾، ظاهره أنه بيان لقوله تعالى: ﴿لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾ أي يفسد فيها بإهلاك الحرث والنسل، ولما كان قوام النوع الإنساني من حيث الحياة والبقاء بالتغذي والتوليد فهما الركنان القويمان اللذان لا غناء عنهما للنوع في حال: أما التوليد فظاهر، وأما التغذي فإنما يركن الإنسان فيه إلى

الحيوان والنبات، والحيوان يركن إلى النبات، فالنبات هو الأصل ويستحفظ بالحرث وهو تربية النبات، فلذلك علق الفساد على الحرث والنسل فالمعنى أنه يفسد في الأرض بإفناء الإنسان وإبادة هذا النوع بإهلاك الحرث والنسل.

٥. ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ المراد، بالفساد ليس ما هو فساد في الكون والوجود (الفساد التكويني) فإن النشأة نشأة الكون والفساد، وعالم التنازع في البقاء ولا كون إلا بفساد، ولا حياة إلا بموت، وهما متعانقان في هذا الوجود الطبيعي في النشأة الطبيعية، وحاشا أن يبغض الله سبحانه ما هو مقدره وقاضيه، وإنما هو الفساد المتعلق بالتشريع فإن الله إنما شرع ما شرعه من الدين ليصلح به أعمال عباده فيصلح أخلاقهم وملكات نفوسهم فيعتدل بذلك حال الإنسانية والجامعة البشرية، وعند ذلك تسعد حياتهم في الدنيا وحياتهم في الآخرة على ما سيجيء بيانه في قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾، فهذا الذي يخالف ظاهر قوله باطن قلبه إذا سعى في الأرض بالفساد فإنما يفسد بما ظاهره الإصلاح بتحريف الكلمة عن موضعها، وتغيير حكم الله عما هو عليه، والتصرف في التعاليم الدينية، بما يؤدي إلى فساد الأخلاق واختلاف الكلمة، وفي ذلك موت الدين، وفناء الإنسانية، وفساد الدنيا، وقد صدق هذه الآيات ما جرى عليه التاريخ من ولاية رجال وركوبهم أكتاف هذه الأمة الإسلامية، وتصرفهم في أمر الدين والدنيا بما لم يستعقب للدين إلا وبالا، وللمسلمين إلا انحطاطا، وللأمة إلا اختلافا، فلم يلبث الدين حتى صار لعبة لكل لاعب، ولا الإنسانية إلا خطفة لكل خاطف، فنتيجة هذا السعي فساد الأرض، وذلك بهلاك الدين أولا، وهلاك الإنسانية ثانيا، ولهذا فسر قوله ويهلك الحرث والنسل في بعض الروايات بهلاك الدين والإنسانية كما سيأتي إن شاء الله.

٦. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾:

أ. العزة معروفة، والمهاد الوطاء، والظاهر أن قوله: ﴿بِالْإِثْمِ﴾ متعلق بالعزة، والمعنى أنه إذا أمر بتقوى الله أخذته العزة الظاهرة التي اكتسبها بالإثم والنفاق المستبطن في نفسه، وذلك أن العزة المطلقة إنما هي من الله سبحانه كما قال تعالى: ﴿تُعِزُّ مَنْ تَشاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشاءُ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لله جَمِيعًا﴾، وحاشا أن ينسب تعالى شيئا إلى نفسه ويختصه بإعطائه ثم يستعقب إثما أو شرا فهذه العزة إنما هي عزة يحسبها الجاهل بحقيقة الأمر عزة

بحسب ظاهر الحياة الدنيا لا عزة حقيقية أعطاها الله سبحانه لصاحبها.

ب. من هنا يظهر أن قوله: ﴿بِالْإِثْمِ﴾ ليس متعلقا بقوله: ﴿أَخَذَتْهُ﴾، بأن يكون الباء للتعدية، والمعنى حملته العزة على الإثم ورد الأمر بالتقوى، وتجبيه الأمر بما يسوؤه من القول، أو يكون الباء للسببية، والمعنى ظهرت فيه العزة والمناعة بسبب الإثم الذي اكتسبه، وذلك أن إطلاق العزة على هذه الحالة النفسانية وتسميته بالعزة يستلزم إمضاءها والتصديق منه تعالى بأنها عزة حقيقية وليست بها، بخلاف ما لو سميت عزة بالإثم، أما قوله تعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾، فليس من قبيل التسمية والإمضاء لكون العزة نكرة مع تعقيب الآية بقوله: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ الآية، فهي هناك عزة صورية غير باقية ولا أصيلة.

٧. ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ الآية، مقابلته مع قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ﴾ الآية، يفيد أن الوصف مقابل الوصف أي كما أن المراد من قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ﴾، بيان أن هناك رجلا معتزا بإثمه معجبا بنفسه متظاهرا بالإصلاح مضمرا للنفاق لا يعود منه إلى حال الدين والإنسانية إلا الفساد والهلاك كذلك المراد من قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ﴾ الآية، بيان أن هناك رجلا آخر باع نفسه من الله سبحانه لا يريد إلا ما أراده الله تعالى لا هوى له في نفسه ولا اعتزاز له إلا بربه ولا ابتغاء له إلا لمرضاة الله تعالى، فيصلح به أمر الدين والدنيا، ويحيى به الحق، ويطيب به عيش الإنسانية، ويدر به ضرع الإسلام، وبذلك يظهر ارتباط الذيل بالصدر أعني قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾، بما قبله، فإن وجود إنسان هذه صفته من رأفة الله سبحانه بعباده إذ لولا رجال هذه صفاتهم بين الناس في مقابل رجال آخرين صفتهم ما ذكر من النفاق والإفساد لانهدمت أركان الدين، ولم تستقر من بناء الصلاح والرشاد لبنة على لبنة، لكن الله سبحانه لا يزال يزهق ذاك الباطل بهذا الحق ويتدارك إفساد أعدائه بإصلاح أوليائه كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾، وقال: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾، وقال: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾، فالفساد الطارئ على الدين والدنيا من قبل عدة ممن لا هوى له إلا في نفسه لا يمكن سد ثلمته إلا بالصلاح الفائض من قبل آخرين ممن باع نفسه من الله سبحانه، ولا هوى له إلا في ربه، وإصلاح الأرض ومن عليها، وقد ذكر هذه المعاملة

الرابية عند الله بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ﴾ إلى غير ذلك من الآيات.

٨. أحاديث وآثار:

أ. عن ابن عباس: نزلت الآيات الثلاثة في المرائي لأنه يظهر خلاف ما يبطن، قال وهو المروي عن الصادق عليه السلام، ولكنه غير منطبق على ظاهر الآيات، وفي بعض الروايات عن أئمة أهل البيت أنها من الآيات النازلة في أعدائهم.

ب. عن الصادق عليه السلام: في قوله تعالى: ﴿وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾ أن المراد بالحرث هاهنا الدين، والنسل الإنسان، وقد روي: أن المراد بالحرث الذرية والزرع، والأمر في التطبيق سهل.

ج. في أمالي الشيخ، عن علي بن الحسين عليه السلام: في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ﴾، قال نزلت في علي عليه السلام حين بات على فراش رسول الله ﷺ، وقد تكاثرت الروايات من طرق الفريقين أنها نزلت في شأن ليلة الفراش.، وفي بعضها نزلت في صهيب وأبي ذر بشرائهما أنفسهما بأموالهما، وقد مر أن الآية لا تلائم كون المراد بالشراء الاشتراء.، وفي المجمع، عن علي عليه السلام: أن المراد بالآية الرجل يقتل على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو بيان لعموم الآية ولا ينافي كون النزول لشأن خاص.

د. في الدر المنثور عن السدي في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ﴾ [البقرة: ٢٠٤] الآية، أنها نزلت في الأخنس بن شريق الثقفي حليف لبني زهرة، أقبل إلى النبي ﷺ المدينة وقال: جئت أريد الإسلام، ويعلم الله أني لصادق، فأعجب النبي ﷺ ذلك منه، فذلك قوله تعالى: ﴿وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ﴾ [البقرة: ٢٠٤]، ثم خرج من عند النبي، فمر بزرع لقوم من المسلمين وحمر، فأحرق الزرع وعقر الحمر، فأنزل الله: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٠٥] الآية.

هـ. وفي المجمع عن ابن عباس: نزلت الآيات الثلاثة في المرائي، لأنه يظهر خلاف ما يبطن، قال: وهو المروي عن الصادق عليه السلام.

• أقول: ولكنه غير منطبق على ظاهر الآيات.، وفي بعض الروايات عن أئمة أهل البيت أنها من

الآيات النازلة في أعدائهم.

و. وفي المجمع عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾ [البقرة: ٢٠٥]، أن المراد بالحرث ههنا الدين، والنسل الإنسان.

• أقول: وقد مر بيانه، وقد روي أن المراد بالحرث الذرية والزرع، والأمر التطبيق سهل.

ز. وفي أمالي الشيخ عن علي بن الحسين عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ٢٠٧] الآية، قال: نزلت في علي عليه السلام حين بات على فراش رسول الله ﷺ.

• أقول: وقد تكاثرت الروايات من طرق الفريقين أنها نزلت في شأن ليلة الفراش، ورواه في تفسير البرهان بخمس طرق عن الثعلبي وغيره.

ح. وأخرج ابن مردويه عن صهيب قال: لما أردت الهجرة من مكة إلى النبي ﷺ، قالت لي قريش: يا صهيب، قدمت الينا ولا مال لك، وتخرج أنت ومالك؟ والله لا يكون ذلك أبداً، فقلت لهم: أرأيتم إن دفعت لكم مالي، تخلون عني؟ قالوا: نعم، فدفعت إليهم مالي، فخلوا عني، فخرجت حتى قدمت المدينة، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: ربح البيع صهيب مرتين.

• أقول: ورواه بطرق أخرى، في بعضها: (ونزلت: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ﴾ الآية)، وفي بعضها: (نزلت في صهيب وأبي ذر بشرائهما أنفسهما بأموالهما)، وقد مر أن الآية لا تلائم كون المراد بالشراء الاشتراء.

ط. وفي المجمع عن علي عليه السلام: أن المراد بالآية الرجل يقتل على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

• أقول: وهو بيان لعموم الآية، ولا ينافي كون النزول لشأن خاص.

٨٩. الدخول في الإسلام كاملاً واجتناب خطوات الشيطان:

المقطع [٨٩] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [البقرة: ٢٠٨-٢١٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢/ ١٠١»:

١. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾:

أ. السلم والإسلام والتسليم واحدة، و﴿كَافَّةً﴾ كلمة تأكيد بمعنى جميعا، ولما كان الخطاب للمؤمنين وقد أمروا بالدخول في السلم كافة، فهو أمر متعلق بالمجموع وبكل واحد من أجزائه، فيجب ذلك على كل مؤمن، ويجب على الجميع أيضا أن لا يختلفوا في ذلك ويسلموا الأمر لله ولرسوله ﷺ، وأيضا الخطاب للمؤمنين خاصة، فالسلم المدعو إليه هو التسليم لله سبحانه بعد الإيمان به فيجب على المؤمنين أن يسلموا الأمر إليه، ولا يذعنوا لأنفسهم صلاحا باستبداد من الرأي، ولا يضعوا لأنفسهم من عند أنفسهم طريقا يسلكونه من دون أن يبينه الله ورسوله، فما هلك قوم إلا باتباع الهوى والقول بغير العلم، ولم يسلب حق الحياة وسعادة الجد عن قوم إلا عن اختلاف، ومن هنا ظهر: أن المراد من اتباع خطوات الشيطان ليس اتباعه في جميع ما يدعو إليه من الباطل، بل اتباعه فيما يدعو إليه من أمر الدين بأن يزين شيئا من طرق الباطل بزينة الحق، ويسمي ما ليس من الدين باسم الدين فيأخذ به الإنسان من غير علم، وعلامة ذلك عدم ذكر الله ورسوله إياه في ضمن التعاليم الدينية.

ب. خصوصيات سياق الكلام وقيوده تدل على ذلك أيضا: فإن الخطوات إنما تكون في طريق مسلوك، وإذا كان سالكه هو المؤمن، وطريقه إنما هو طريق الإيمان فهو طريق شيطاني في الإيمان، وإذا كان الواجب على المؤمن هو الدخول في السلم فالطريق الذي يسلكه من غير سلم من خطوات الشيطان، واتباعه اتباع خطوات الشيطان، فالآية نظيرة قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، وقد مر الكلام في الآية، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾، وقوله تعالى: ﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾، والفرق بين هذه الآية وبين تلك أن الدعوة في هذه موجهة إلى الجماعة لمكان قوله تعالى: ﴿كَافَّةً﴾ بخلاف تلك الآيات فهي عامة.

ج. فهذه الآية في معنى قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾، وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾، ويستفاد من الآية أن الإسلام متكفل لجميع ما يحتاج إليه الناس من الأحكام والمعارف التي فيه صلاح الناس.

٢. ﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾، الزلة هي العثرة، والمعنى فإن لم تدخلوا في السلم كافة وزللتم والزلة هي اتباع خطوات الشيطان فاعلموا أن الله عزيز غير مغلوب في أمره، حكيم لا يتعدى عما تقتضيه حكمته من القضاء في شأنكم فيقضي فيكم ما تقتضيه حكمته، ويجريه فيكم من غير أن يمنع عنه مانع.

٣. ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾:

٤. وضع هنا مبحثا حول [تحقيق معنى قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾ ومعنى الإتيان والمجيء في القرآن، وحقيقة يوم القيامة، والرجعة، وظهور المهدي، مع تحليل الروايات الواردة في ذلك]، خلاصته:

أ. معنى الإتيان في الآية: لا يراد به مجيء الله بذاته (لأنه منزه عن الجسمية والانتقال)، بل المراد إتيان أمره أو إحاطته بالقضاء والفصل، أو مجيء الملائكة بأمره، وقد ورد في الروايات عن الرضا عليه السلام: (يقول: هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله بالملائكة في ظلل من الغمام، وهكذا نزلت)

ب. الآية تتضمن الوعيد الذي ينبئ عنه قوله في الآية السابقة: ﴿إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، وهو وعيد بما سيقع في الدنيا (كظهور المهدي أو الرجعة) أو في الآخرة ﴿يَوْمُ الْقِيَامَةِ (٦)﴾، أو فيهما معاً.

ج. تفسير الآية بالقيامة والرجعة والظهور: وردت روايات عن أئمة أهل البيت فسرت الآية بيوم القيامة، وبالرجعة، وبظهور المهدي عليه السلام، وهذا يدل على أن هذه المعاني متحدة في الحقيقة، مختلفة في المراتب، لأن يوم القيامة هو اليوم الذي تظهر فيه آيات الله كمال الظهور، والرجعة والظهور من مراتبه.

د. الرجعة ثابتة بالكتاب والسنة: الروايات في الرجعة متواترة معنى عن أئمة أهل البيت، وعدها المخالفون من مختصات الشيعة، والآيات القرآنية تدل عليها إجمالاً، كقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٤]، وقد وقع إحياء الأموات في قصص الأنبياء.

هـ. الرد على من أنكر الرجعة: لا دليل عقلي على استحالة الرجعة، لأن الموت الطبيعي (مفارقة النفس للبدن بعد كمالها) ليس هو كل موت، بل هناك موت اخترامي (بقتل أو مرض) لا يستلزم المحذور، والروايات متواترة معنى، فلا ترد بضعف بعض الأسانيد.

و. أيام الله ثلاثة: ورد عن أئمة أهل البيت: (أيام الله ثلاثة: يوم الظهور، ويوم الكرة، ويوم

القيامة)، وهذه الأيام متحدة في الحقيقة (ظهور الحق كمال الظهور)، مختلفة في المراتب (فالظهور دون الرجعة، والرجعة دون القيامة)

ز. يوم القيامة حقيقة لا تزاحم نشأة الدنيا: القيامة يوم لا يحجب فيه سبب عن الله، لكنها لا تزاحم النشأة الدنيوية، كما أن البرزخ لا يزاحم الدنيا، وقد قال علي عليه السلام: (من مات قامت قيامته)

٥. ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾، السكوت عن ذكر فاعل القضاء، وهو الله سبحانه كما يدل عليه قوله: ﴿وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾، لإظهار الكبرياء على ما يفعله الأعاظم في الأخبار عن وقوع أحكامهم وصدور أوامرهم وهو كثير في القرآن.

٩٠. سؤال بني إسرائيل عن الآيات وتبديلهم نعمة الله:

المقطع [٩٠] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [البقرة: ٢١١-٢١٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢/ ١١٠»:

١. ﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ﴾:

أ. الآية تثبيت وتأكيد واشتمل عليه قوله تعالى: ﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، الآية من الوعيد بأخذ المخالفين أخذ عزيز مقتدر، يقول: هذه بنو إسرائيل في مرءاكم ومنظركم وهي الأمة التي آتاهم الله الكتاب والحكم والنبوة والملك، ورزقهم من الطيبات، وفضلهم على العالمين، سلهم كم آتيناهم من آية بينة؟ وانظر في أمرهم من أين بدؤوا وإلى أين كان مصيرهم؟ حرفوا الكلم عن مواضعه، ووضعوا في قبال الله وكتابه وآياته أمورا من عند أنفسهم بغيا بعد العلم، فعاقبهم الله أشد العقاب بما حل فيهم من اتخاذ الأنداد، والاختلاف وتشتت الآراء، وأكل بعضهم بعضا، وذهاب السؤدد، وفناء السعادة، وعذاب الذلة والمسكنة في الدنيا، ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون.

ب. وهذه هي السنة الجارية من الله سبحانه: من يبدل نعمة وأخرجها إلى غير مجراها فإن الله يعاقبه، والله شديد العقاب، وعلى هذا فقوله: ﴿وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللهِ﴾ إلى قوله ﴿الْعِقَابِ﴾ من قبيل وضع الكلي موضع الجزئي للدلالة على الحكم، سنة جارية.

٢. ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾، في موضع التعليل لما مر، وأن الملاك في ذلك تزين الحياة الدنيا لهم فإنها إذا زينت لإنسان دعته إلى هوى النفس وشهواتها، وأنست كل حق وحقيقة، فلا يريد الإنسان إلا نيلها: من جاه ومقام ومال وزينة، فلا يلبث دون أن يستخدم كل شيء لأجلها وفي سبيلها، ومن ذلك الدين فيأخذ الدين وسيلة يتوسل بها إلى التميزات والتعينات، فينقلب الدين إلى تميز الزعماء والرؤساء وما يلائم سؤددهم ورئاستهم، وتقرب التبعة والمقلدة المرؤوسين وما يجلب به تمايل رؤسائهم وساداتهم كما نشاهده في أمتنا اليوم، وكنا شاهدناه في بني إسرائيل من قبل، وظاهر الكفر في القرآن هو الستر أعم من أن يكون كفرا اصطلاحيا أو كفرا مطلقا في مقابل الإيمان المطلق فتزين الحياة الدنيا لا يختص بالكفار اصطلاحا بل كل من ستر حقيقة من الحقائق الدينية، وغير نعمة دينية فهو كافر زينت له الحياة الدنيا فليتهيأ لشديد العقاب.

٣. ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ إلخ، تبديل الإيمان بالتقوى في هذه الجملة لكون الإيمان لا ينفع وحده لولا العمل.

٩١. بعثة الأنبياء بالكتاب وسبب اختلاف الناس فيه:

المقطع [٩١] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢/ ١١٢»:

١. الآية الكريمة تبين السبب في تشريع أصل الدين وتكليف النوع الإنساني به، وسبب وقوع الاختلاف فيه ببيان: أن الإنسان، وهو نوع مفطور على الاجتماع والتعاون، كان في أول اجتماعه أمة واحدة، ثم ظهر فيه بحسب الفطرة الاختلاف في اقتناء المزايا الحيوية، فاستدعى ذلك وضع قوانين ترفع الاختلافات الطارئة، والمشاجرات في لوازم الحياة فألبست القوانين الموضوعة لباس الدين، وشفعت بالتبشير والإنذار: بالثواب والعقاب، وأصلحت بالعبادات المندوبة إليها ببعث النبيين، وإرسال المرسلين، ثم اختلفوا في معارف الدين أو أمور المبدإ والمعاد، فاختل بذلك أمر الوحدة الدينية، وظهرت الشعوب والأحزاب، وتبع ذلك الاختلاف في غيره، ولم يكن هذا الاختلاف الثاني إلا بغيا من الذين أوتوا الكتاب،

وظلما وعتوا منهم بعد ما تبين لهم أصوله ومعارفه، وتمت عليهم الحجة، فالاختلاف اختلافان: اختلاف في أمر الدين مستند إلى بغي الباغين دون فطرتهم وغريزتهم، واختلاف في أمر الدنيا وهو فطري وسبب لتشريع الدين، ثم هدى الله سبحانه المؤمنين إلى الحق المختلف فيه بإذنه، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

٢. الدين الإلهي هو السبب الوحيد لسعادة هذا النوع الإنساني، والمصلح لأمر حياته، يصلح الفطرة بالفطرة ويعدل قواها المختلفة عند طغيانها، وينظم للإنسان سلك حياته الدنيوية والآخروية، والمادية والمعنوية، فهذا إجمال تاريخ حياة هذا النوع (الحياة الاجتماعية والدينية) على ما تعطيه هذه الآية الشريفة، وقد اكتفت في تفصيل ذلك بما تفيده متفرقات الآيات القرآنية النازلة في شئون مختلفة.

٣. ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾، قد مر أن المراد به الاختلاف الواقع في نفس الدين من حملته، وحيث كان الدين من الفطرة كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ نسب الله سبحانه الاختلاف الواقع فيه إلى البغي.

٤. في قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ﴾، دلالة على أن المراد بالجملة هو الإشارة إلى الأصل في ظهور الاختلاف الديني في الكتاب لا أن كل من انحرف عن الصراط المستقيم أو تدين بغير الدين يكون باغيا وإن كان ضالا عن الصراط السوي، فإن الله سبحانه لا يعذر الباغي، وقد عذر من اشتبه عليه الأمر ولم يجد حيلة ولم يهتد سبيلا، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، وقال تعالى: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، إلى أن قال ـ: ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ ﴿حَكِيمٌ﴾، وقال تعالى: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾

٥. على أن الفطرة لا تنافي الغفلة والشبهة، ولكن تنافي التعمد والبغي، ولذلك خص البغي بالعلماء ومن استبانت له الآيات الإلهية، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، والآيات في هذا المعنى كثيرة، وقد قيد الكفر في جميعها بتكذيب آيات الله ثم أوقع عليه الوعيد، وبالجملة فالمراد بالآية أن هذا الاختلاف ينتهي إلى بغي حملة الكتاب من بعد علم.

٦. وضع هنا مبحثا حول [تحقيق النظريات الدينية المستفادة من الآية: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ دراسة في معنى الآية، والدليل على النبوة العامة، وحدود الدين، وعلاقة الفطرة بالاختلاف، وعصمة الأنبياء، وموقف الإسلام من الكمال الإنساني]، خلاصته:

أ. الآية الكريمة ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣]، تشتمل على سبع نظريات أساسية في الدين والنبوة.

ب. النظرية الأولى: حد الدين ومعناه: هو نحو سلوك في الحياة الدنيا يتضمن صلاح الدنيا بما يوافق الكمال الأخروي، فلا بد في الشريعة من قوانين تتعرض لحال المعاش على قدر الاحتياج.

ج. النظرية الثانية: الدين أول ما ظهر ظهر رافعاً للاختلاف الناشئ عن الفطرة، ثم استكمل رافعاً للاختلاف الفطري وغير الفطري معاً.

د. النظرية الثالثة: الدين لا يزال يستكمل حتى يستوعب قوانينه جهات الاحتياج في الحياة، فإذا استوعبها ختم ختماً فلا دين بعده، والإسلام هو الدين الخاتم، والقرآن تبيان لكل شيء.

هـ. النظرية الرابعة: كل شريعة لاحقة أكمل من سابقتها، وهذا يتفق مع ختم النبوة واستيعاب الشريعة المحمدية لجميع جهات الاحتياج.

و. النظرية الخامسة: السبب في بعث الأنبياء هو أن الفطرة الإنسانية تؤدي إلى الاختلاف، والفطرة لا تستطيع رفع ما تجذبه إليه نفسها، فرفع الله هذا الاختلاف بالنبوة والتشريع، والنبوة حالة إلهية غيبية، والوحي هو الإدراك والتلقي من الغيب الذي به يرتفع الاختلاف في حياة الإنسان.

ز. النظرية السادسة: الدين الخاتم يقضي بوقوف الاستكمال الإنساني عند حد معين، لأن الإسلام لم يعتبر مجرد الكمال المادي، بل الكمال الروحي والجسمي معاً، والتاريخ يشهد أن البشر منذ نزول القرآن لم يتقدموا في المعارف الحقيقية والأخلاق الفاضلة، بل وقفوا أو تراجعوا.

ح. النظرية السابعة: الأنبياء عليهم السلام معصومون عن الخطأ، وهذا مستفاد من قوله: ﴿فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ﴾، حيث أن هداية الله للمؤمنين إنما كانت بإذنه، والله يهدي من

يشاء، وهذا لا يتم إلا بعصمة الأنبياء في التبليغ.

٧. ﴿فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ﴾، وضع هنا مبحثا حول [عصمة الأنبياء: الأقسام، الأدلة، وحقيقتها النفسانية]، خلاصته:

أ. العصمة ثلاثة أقسام: العصمة عن الخطأ في تلقي الوحي، والعصمة عن الخطأ في التبليغ والرسالة، والعصمة عن المعصية (ما ينافي العبودية)

ب. القرآن يدل على عصمة الأنبياء في جميع الجهات الثلاث، من خلال آيات البعثة والتبشير والإنذار، وآيات الإحاطة بالوحي، وآيات الهداية والنفي للضلال.

ج. العصمة عن المعصية تستفاد من دلالة الفعل كدلالة القول، ومن آيات الهداية (كقوله: ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾، ومن وصفهم بأنهم ليسوا بضالين.

د. البرهان العقلي على العصمة: أن إجراء المعجزات على أيديهم تصديق لقولهم وأهليتهم، والعقل لا يعد من يصدر عنه المعاصي أهلاً للتبليغ.

هـ. الرد على الإشكال: أن الناس قد يبلغون بواسطة من فيه قصور، لكن ذلك للمسامحة أو للقبض على اليسير، ولا يليق بساحة الله.

و. العصمة ليست مجرد عدم صدور المعصية، بل هي قوة نفسانية (ملكة راسخة) تصدر عنها أفعاله على الطاعة والانقياد.

ز. الأدلة العقلية والقرآنية تثبت أن العصمة مستندة إلى سبب في نفس النبي، وهو العلم الراسخ والملكة النفسانية.

٨. وضع هنا مبحثا حول [النبوة: الفرق بين النبي والرسول، عدد الأنبياء، وأولو العزم]، خلاصته:

أ. القرآن يعبر عن حملة الوحي بتعبيرين: ﴿رَسُولٌ﴾ و﴿نَبِيٍّ﴾، ومعنى الرسول حامل الرسالة، ومعنى النبي حامل النبأ (العلم بالله وبما عنده)

ب. القول بأن الرسول أعم من النبي (أو العكس) لا يؤيده القرآن، فالآيات تشير إلى أن كل مبعوث من الله نبي، والرسول هو من يحمل رسالة خاصة مع النبوة.

ج. الأنبياء كثيرون، ولم يقصص الله جميعهم في القرآن، والمذكورون بالاسم بضعة وعشرون نبياً.

د. سادات الأنبياء هم أولو العزم الخمسة: نوح، إبراهيم، موسى، عيسى، ومحمد ﷺ، وكل منهم صاحب شرع وكتاب.

هـ. من لوازم النبوة الوحي، وهو نوع تكليم إلهي.

٩. وضع هنا مبحثا حول [النبوة: بحث فلسفي في حقيقتها وضرورتها]، خلاصته:

أ. مسألة النبوة من حيث تشريع الأحكام والقوانين الاعتبارية هي مسألة كلامية غير فلسفية، لأن الفلسفة تبحث عن الوجودات الخارجية لا الاعتبارات.

ب. لكن النبوة من جهة أخرى مسألة فلسفية، لأن المواد الدينية تثبت في النفس علوماً راسخة وملكات، وهذه الصور تحدد سعادة الإنسان أو شقاءه.

ج. الإنسان نوع حقيقي مبدأ لآثار وجودية، والواجب تعالى تام الإفاضة، فيجب أن تكون هناك إفاضة لكل نفس مستعدة بما يلائم استعدادها من الكمال.

د. هذه الإفاضة تحتاج إلى دعوة دينية بالتبشير والإنذار، والدعوة تحتاج إلى داعٍ وهو النبي المبعوث من الله.

هـ. الرد على القول بأن العقل كافٍ للهداية: العقل العملي يأخذ مقدماته من الإحساسات الشهوية والغضبية التي تدعو إلى الاختلاف، فلا غنى عن تأييد إلهي بالنبوة.

١٠. وضع هنا مبحثا حول [[النبوة والاجتماع: بحث في ضرورة الوحي ورفع الاختلاف]، خلاصته:

أ. ميل الطبيعة إلى الكمال لا يستوجب فعلية الكمال والسعادة الحقيقية، لأن الكمال الجسمي ليس هو كمال الإنسان الحقيقي، بل الإنسان مركب من جسم وروح.

ب. الاجتماع يتوجه بالفعل إلى الكمال الجسماني دون الكمال الإنساني، وهذا الكمال لا يتم إلا بتأييد من النبوة والهداية الإلهية.

ج. أثر الدعوة الدينية مشهود ومعاين، وقد ربت ألوفاً من الأفراد في جانب السعادة، والدنيا لم تقض عمرها بعد، ومن الممكن أن يتحول الاجتماع إلى اجتماع ديني صالح.

د. الأفعال لها ارتباط بالأخلاق والملكات، والدعوة الدينية لها أثر عميق في حياة الإنسان الاجتماعية، حتى فيمن لم يستجب لها.

هـ. ما نشاهده من الخصائل الحميدة بين الناس اليوم هو بقايا من آثار الدين، والتدابير العامة ثلاثة: الاستبداد، والقوانين المدنية، والدين، والأخير هو الوحيد الذي يحكم في الاعتقادات والأخلاق والأفعال جميعاً.

و. الرد على القول بأن الفطرة كافية: الفطرة تهتدي إلى السعادة، لكن هذا الاهتداء لا يتم لها وحدها من غير معين، وهذا المعين هو النبوة، وهي كمال فطري للأنواع.

ز. النبوة ليست نبوغاً اجتماعياً أو فكراً عقلياً، بل هي شعور باطني خاص يختص به بعض الآحاد، وطريق غير طريق الفكر العقلي.

ح. الوحي النبوي مصون عن الخطأ لأنه من سنخ التكوين، والتكوين لا يخطئ، وهذا يقتضي عصمة النبي في تلقي الوحي وتبليغه.

ط. النتائج المستفادة: لزوم بعثة الأنبياء، وكون شعور الوحي غير الشعور الفكري، وعصمة النبي في تلقي الوحي.

٩٢. الابتلاء ضروري لدخول الجنة وتحقق نصر الله:

المقطع [٩٢] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢/ ١٥٩»:

١. ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾:

أ. تثبيت لما تدل عليه الآيات السابقة، وهو أن الدين نوع هداية من الله سبحانه للناس إلى ما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة، ونعمة حباهم الله بها، فمن الواجب أن يسلموا له ولا يتبعوا خطوات الشيطان، ولا يلقوا فيه الاختلاف، ولا يجعلوا الدواء داء، ولا يبدلوا نعمة الله سبحانه كفرا ونقمة من اتباع الهوى، وابتغاء زخرف الدنيا وحطامها فيحل عليهم غضب من ربهم كما حل ببني إسرائيل حيث بدلوا نعمة الله من بعد ما جاءتهم، فإن المحنة دائمة، والفتنة قائمة، ولن ينال أحد من الناس سعادة الدين

وقرب رب العالمين إلا بالثبات والتسليم.

ب. في الآية التفات إلى خطاب المؤمنين بعد تنزيلهم في الآيات السابقة منزلة الغيبة، فإن أصل الخطاب كان معهم ووجه الكلام إليهم في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾، وإنما عدل عن ذلك إلى غيره لعناية كلامية أوجبت ذلك، وبعد انقضاء الوطر عاد إلى خطابهم ثانيا..

ج. كلمة ﴿أَم﴾ منقطعة تفيد الإضراب، والمعنى على ما قيل: بل أحسبتم أن تدخلوا الجنة، والخلاف في أم المنقطعة معروف، والحق أن أم لإفادة الترديد، وأن الدلالة على معنى الإضراب من حيث انطباق معنى الإضراب على المورد، لا أنها دلالة وضعية، فالمعنى في المورد مثلا: هل انقطعتم بها أمرناكم من التسليم بعد الإيمان والثبات على نعمة الدين، والاتفاق والاتحاد فيه أم لا بل حسبتم أن تدخلوا الجنة.

٢. ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾، المثل بكسر الميم فسكون الثاء، والمثل بفتح الميم والثاء كالشبه، والشبه والمراد به ما يمثل الشيء ويحضره ويشخصه عند السامع، ومنه المثل بفتحتين، وهو الجملة أو القصة التي تفيد استحضار معنى مطلوب في ذهن السامع بنحو الاستعارة التمثيلية كما قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾، ومنه أيضا المثل بمعنى الصفة كقوله تعالى: ﴿انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾، وإنما قالوا له ﷺ: مجنون وساحر وكذاب ونحو ذلك، وحيث إنه تعالى يبين المثل الذي ذكره بقوله: ﴿مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ﴾ إلخ فالمراد به المعنى الأول.

٣. ﴿مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ﴾ إلى آخره لما اشتد شوق المخاطب ليفهم تفصيل الإجمال الذي دل عليه بقوله: ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ﴾، بين ذلك بقوله: ﴿مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ﴾ والبأساء هو الشدة المتوجهة إلى الإنسان في خارج نفسه كالمال والجاه والأهل والأمن الذي يحتاج إليه في حياته، والضراء هي الشدة التي تصيب الإنسان في نفسه كالجرح والقتل والمرض، والزلزلة والزلزال معروف وأصله من زل بمعنى عثر، كررت اللفظة للدلالة على التكرار كان الأرض مثلا تحدث لها بالزلزلة عثرة بعد عثرة، وهو كصر وصرصر، وصل وصلصل، وكب وكبكب، والزلزال في الآية كناية عن الاضطراب والإدهاش.

٤. ﴿حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾، قرئ بنصب يقول، والجملة على هذا في محل الغاية لما سبقها، وقرئ برفع يقول والجملة على هذا لحكاية الحال الماضية، والمعنيان وإن كانا جميعا صحيحين لكن الثاني أنسب للسياق، فإن كون الجملة غاية يعلل بها قوله: ﴿وَزُلْزِلُوا﴾ لا يناسب السياق كل المناسبة.

٥. ﴿مَتَى نَصْرُ اللَّهِ﴾، الظاهر أنه مقول قول الرسول والذين آمنوا معه جميعا، ولا ضير في أن يتفوه الرسول بمثل هذا الكلام استدعاء وطلبا للنصر الذي وعد به الله سبحانه رسله والمؤمنين بهم كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾، وقد قال تعالى أيضا: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾، وهو أشد لحنا من هذه الآية، والظاهر أيضا أن قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ مقول له تعالى لا تتمة لقول الرسول والذين آمنوا معه..

٦. الآية (كما مرت إليه الإشارة سابقا) تدل على دوام أمر الابتلاء والامتحان وجريانه في هذه الأمة كما جرى في الأمم السابقة، وتدل أيضا على اتحاد الوصف والمثل بتكرر الحوادث الماضية غابرا، وهو الذي يسمى بتكرر التاريخ وعوده.

٩٣. مصارف الإنفاق في سبيل الله وأهلها:

المقطع [٩٣] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢/ ١٦٤»:

١. ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾:

أ. قالوا: إن الآية واقعة على أسلوب الحكمة، فإنهم إنما سألوا عن جنس ما ينفقون ونوعه، وكان هذا السؤال كاللغو لمكان ظهور ما يقع به الإنفاق وهو المال على أقسامه، وكان الأحق بالسؤال إنما هو من ينفق له: صرف الجواب إلى التعرض بحاله وبيان أنواعه ليكون تنبيها لهم بحق السؤال، والذي ذكروه وجه بليغ غير أنهم تركوا شيئا، وهو أن الآية مع ذلك متعرضة لبيان جنس ما ينفقونه، فإنها تعرضت لذلك: أولا بقولها: ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾، إجمالا، وثانيا بقولها: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾، ففي الآية دلالة على أن الذي ينفق به هو المال كائنا ما كان، من قليل أو كثير، وأن ذلك فعل خير والله به عليم، لكنهم كان عليهم أن يسألوا عمن ينفقون لهم ويعرفوه، وهم: الوالدان والأقربون واليتامى والمساكين وابن السبيل.

ب. من غريب القول ما ذكره بعض المفسرين: أن المراد بما في قوله تعالى: ﴿مَاذَا يُنْفِقُونَ﴾ ليس هو

السؤال عن الماهية فإنه اصطلاح منطقي لا ينبغي أن ينزل عليه الكلام العربي ولا سيما أفصح الكلام وأبلغه، بل هو السؤال عن الكيفية، وأنهم كيف ينفقونه، وفي أي موضع يضعونه، فأجيب بالصرف في المذكورين في الآية، فالجواب مطابق للسؤال لا كما ذكره علماء البلاغة! ومثله وهو أغرب منه ما ذكره بعض آخر: أن السؤال وإن كان بلفظ ما إلا أن المقصود هو السؤال عن الكيفية فإن من المعلوم أن الذي ينفق به هو المال، وإذا كان هذا معلوما لم يذهب إليه الوهم، وتعين أن السؤال عن الكيفية، نظير قوله تعالى: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾، فكان من المعلوم أن البقرة بهيمة نشأتها وصفتها كذا وكذا، فلا وجه لحمل قوله: ما هي على طلب الماهية، فكان من المتعين أن يكون سؤالا عن الصفة التي بها تمتاز البقرة من غيرها، ولذلك أجيب بالمطابقة بقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ﴾

ج. اشتبه الأمر على هؤلاء، فإن (ما) وإن لم تكن موضوعة في اللغة لطلب الماهية التي اصطلح عليها المنطق، وهي الحد المؤلف من الجنس والفصل القريبين، لكنه لا يستلزم أن تكون حينئذ موضوعة للسؤال عن الكيفية، حتى يصح لقائل أن يقول عند السؤال عن المستحقين للإنفاق: ماذا أنفق: أي على من أنفق؟ فيجاب عنه بقوله: ﴿فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾، فإن ذلك من أوضح اللحن، بل (ما) موضوعة للسؤال عما يعرف الشيء سواء كان معرفا بالحد والماهية، أو معرفا بالخواص والأوصاف، فهي أعم مما اصطلح عليه في المنطق لا أنها مغايرة له وموضوعة للسؤال عن كيفية الشيء، ومنه يعلم أن قوله تعالى: ﴿يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ﴾، سؤال وجواب جاريان على أصل اللغة، وهو السؤال عما يعرف الشيء ويخصه والجواب بذلك،أما قول القائل: إن الماهية لما كانت معلومة تعين حمل ما على السؤال عن الكيفية دون الماهية فهو من أوضح الخطإ، فإن ذلك لا يوجب تغير معنى الكلمة مما وضع له إلى غيره.

د. يتلوهما في الغرابة قول من يقول: إن السؤال كان عن الأمرين جميعا: ما ينفقون؟ وأين ينفقون فذكر أحد السؤالين وحذف الآخر، وهو السؤال الثاني لدلالة الجواب عليه! وهو كما ترى.

هـ. وكيف كان لا ينبغي الشك في أن في الآية تحويلا ما للجواب إلى جواب آخر تنبيها على أن الأحق هو السؤال عن من ينفق عليهم، وإلا فكون الإنفاق من الخير والمال ظاهر، والتحول من معنى إلى آخر للتنبيه على ما ينبغي التحول إليه والاشتغال به كثير الورود في القرآن، وهو من ألطف الصنائع

المختصة به كقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً﴾، وقوله: ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾، وقوله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ﴾، وقوله: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾، وقوله: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا﴾، وقوله: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾، إلى غير ذلك من كرائم الآيات.

٢. ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾، في تبديل الإنفاق من فعل الخير هاهنا كتبديل المال من الخير في أول الآية إيماء إلى أن الإنفاق وإن كان مندوبا إليه من قليل المال وكثيره، غير أنه ينبغي أن يكون خيرا يتعلق به الرغبة وتقع عليه المحبة كما قال تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾، وكما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ﴾، وإيماء إلى أن الإنفاق ينبغي أن لا يكون على نحو الشر كالإنفاق بالمن والأذى كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى﴾، وقوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾

٣. أحاديث وآثار:

أ. في الدر المنثور عن ابن عباس قال: ما رأيت قوماً كانوا خيراً من أصحاب محمد، ما سألوه إلا عن ثلاث عشرة مسألة حتى قبض، كلهن في القرآن، منهن: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ [البقرة: ٢١٩]، ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ﴾ [البقرة: ٢٢٠]، ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ﴾ [الأنفال: ١]، ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢١٥]، ما كانوا يسألون إلا عما كان ينفعهم.

ب. في المجمع في الآية: نزلت في عمرو بن الجموح، وكان شيخاً كبيراً ذا مال كثير، فقال: يا رسول الله، بماذا أتصدق؟ وعلى من أتصدق؟ فأنزل الله هذه الآية.

• أقول: ورواه في الدر المنثور عن ابن المنذر عن ابن حيان، وقد استضعفوا الرواية، وهي مع ذلك غير منطبقة على الآية حيث لم يوضع في الآية إلا السؤال عما يتصدق به دون من يتصدق عليه.

• ونظيرها في عدم الانطباق ما رواه أيضاً عن ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج قال: سأل

المؤمنون رسول الله ﷺ أين يضعون أموالهم؟ فنزلت: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ [البقرة: ٢١٥]، فذلك النفقة في التطوع، والزكاة سوى ذلك كله.

• ونظيرها في ذلك أيضاً ما رواه عن السدي قال: يوم نزلت هذه الآية لم يكن زكاة، وهي النفقة ينفقها الرجل على أهله، والصدقة يتصدق بها، فنسختها الزكاة.

• أقول: وليست النسبة بين آية الزكاة: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ [التوبة: ١٠٤]، وبين هذه الآية نسبة النسخ، وهو ظاهر، إلا أن يعني بالنسخ معنى آخر.

٩٤. فرض القتال رغم كرهه والفتنة أكبر من القتل:

المقطع [٩٤] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦ـ٢١٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢/ ١٦٤»:

١. ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ﴾:

أ. الكتابة كما مر مرارا ظاهرة في الفرض إذا كان الكلام مسوقا لبيان التشريع، وفي القضاء الحتم إذا كان في التكوين فالآية تدل على فرض القتال على كافة المؤمنين لكون الخطاب متوجها إليهم إلا من أخرجه الدليل مثل قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾، وغير ذلك من الآيات والأدلة.

ب. لم يظهر فاعل كتب لكون الجملة مذيلة بقوله: ﴿وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ﴾) وهو لا يناسب إظهار الفاعل صونا لمقامه عن الهتك، وحفظا لاسمه عن الاستخفاف أن يقع الكتابة المنسوبة إليه صريحا موردا لكراهة المؤمنين.

ج. الكره بضم الكاف المشقة التي يدركها الإنسان من نفسه طبعا أو غير ذلك، والكره بفتح الكاف: المشقة التي تحمل عليه من خارج كان يجبره إنسان آخر على فعل ما يكرهه قال تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ

لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا﴾، وقال تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾، وكون القتال المكتوب كرها للمؤمنين:

أ. إما لأن القتال لكونه متضمنا لفناء النفوس وتعب الأبدان والمضار المالية وارتفاع الأمن والرخص والرفاهية، وغير ذلك مما يستكرهه الإنسان في حياته الاجتماعية لا محالة كان كرها وشاقا للمؤمنين بالطبع، فإن الله سبحانه وإن مدح المؤمنين في كتابه بما مدح، وذكر أن فيهم رجالا صادقين في إيمانهم مفلحين في سعيهم، لكنه مع ذلك عاتب طائفة منهم بما في قلوبهم من الزيغ والزلل، وهو ظاهر بالرجوع إلى الآيات النازلة في غزوة بدر وأحد والخندق وغيرها، ومعلوم أن من الجائز أن ينسب الكراهة والتثاقل إلى قوم فيهم كاره وغير كاره وأكثرهم كارهون، فهذا وجه.

ب. وإما لأن المؤمنين كانوا يرون أن القتال مع الكفار مع ما لهم من العدة والقوة لا يتم على صلاح الإسلام والمسلمين، وأن الحزم في تأخيره حتى يتم لهم الاستعداد بزيادة النفوس وكثرة الأموال ورسوخ الاستطاعة، ولذلك كانوا يكرهون الإقدام على القتال والاستعجال في النزال، فبين تعالى أنهم مخطئون في هذا الرأي والنظر، فإن لله أمرا في هذا الأمر هو بالغه، وهو العالم بحقيقة الأمر وهم لا يعلمون إلا ظاهره وهذا وجه آخر.

ج. وإما لأن المؤمنين لكونهم متربين بتربية القرآن تعرق فيهم خلق الشفقة على خلق الله، وملكة الرحمة والرأفة فكانوا يكرهون القتال مع الكفار لكونه مؤديا إلى فناء نفوس منهم في المعارك على الكفر، ولم يكونوا راضين بذلك، بل كانوا يحبون أن يداروهم ويخالطوهم بالعشرة الجميلة، والدعوة الحسنة لعلهم يسترشدوا بذلك، ويدخلوا تحت لواء الإيمان فيحفظ نفوس المؤمنين من الفناء، ونفوس الكفار من الهلاك الأبدي والبوار الدائم، فبين ذلك أنهم مخطئون في ذلك، فإن الله، وهو المشرع لحكم القتال، يعلم أن الدعوة غير مؤثرة في تلك النفوس الشقية الخاسرة، وأنه لا يعود من كثير منهم عائد إلى الدين ينتفع به في دنيا أو آخرة، فهم في الجامعة الإنسانية كالعضو الفاسد الساري فساده إلى سائر الأعضاء، الذي لا ينجع فيه علاج دون أن يقطع ويرمى به، وهذا أيضا وجه.

د. هذه وجوه يوجه بها قوله تعالى: ﴿وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ﴾ إلا أن الأول أنسب نظرا إلى ما أشير إليه من آيات العتاب، على أن التعبير في قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾، بصيغة المجهول على ما مر من الوجه يؤيد

ذلك.

٢. ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾:

أ. قد مر فيما مر أن أمثال عسى ولعل في كلامه تعالى مستعمل في معنى الترجي، وليس من الواجب قيام صفة الرجاء بنفس المتكلم بل يكفي قيامها بالمخاطب أو بمقام التخاطب، فالله سبحانه إنما يقول: عسى أن يكون كذا لا لأنه يرجوه، تعالى عن ذلك، بل ليرجوه المخاطب أو السامع.

ب. تكرار عسى في الآية لكون المؤمنين كارهين للحرب، محبين للسلم، فأرشدهم الله سبحانه على خطئهم في الأمرين جميعا، بيان ذلك: أنه لو قيل: (عسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم أو تحبوا شيئا وهو شر لكم)، كان معناه أنه لا عبرة بكرهكم وحبكم فإنهما ربما يخطئان الواقع، ومثل هذا الكلام إنما يلقى إلى من أخطأ خطأ واحدا كمن يكره لقاء زيد فقط، وأما من أخطأ خطاءين كان يكره المعاشرة والمخالطة ويحب الاعتزال، فالذي تقتضيه البلاغة أن يشار إلى خطئه في الأمرين جميعا، فيقال له: لا في كرهك أصبت، ولا في حبك اهتديت، عسى أن تكره شيئا وهو خير لك وعسى أن تحب شيئا وهو شر لك لأنك جاهل لا تقدر أن تهتدي بنفسك إلى حقيقة الأمر، ولما كان المؤمنون مع كرههم للقتال محبين للسلم كما يشعر به أيضا قوله تعالى سابقا: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾، نبههم الله بالخطئين بالجملتين المستقلتين وهما: عسى أن تكرهوا، وعسى أن تحبوا.

٣. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾:

أ. تتميم لبيان خطئهم، فإنه تعالى تدرج في بيان ذلك إرفاقا بأذهانهم، فأخذ أولا بإبداء احتمال خطئهم في كراهتهم للقتال بقوله: ﴿عَسَى أَنْ تَكْرَهُوا﴾، فلما اعتدلت أذهانهم بحصول الشك فيها، وزوال صفة الجهل المركب كر عليهم ثانيا بأن هذا الحكم الذي كرهتموه أنتم إنما شرعه الله الذي لا يجهل شيئا من حقائق الأمور، والذي ترونه مستند إلى نفوسكم التي لا تعلم شيئا إلا ما علمها الله إياه وكشف عن حقيقته، فعليكم أن تسلموا إليه سبحانه الأمر.

ب. الآية في إثباته العلم له تعالى على الإطلاق ونفي العلم عن غيره على الإطلاق تطابق سائر الآيات الدالة على هذا المعنى كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾، وقد سبق بعض الكلام في القتال في قوله: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾

٤. ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾، الآية تشتمل على المنع عن القتال في الشهر الحرام وذمه بأنه صد عن سبيل الله وكفر، واشتمالها مع ذلك على أن إخراج أهل المسجد الحرام منه أكبر عند الله، وأن الفتنة أكبر من القتل، يؤذن بوقوع حادثة هي الموجبة للسؤال وأن هناك قتلا، وأنه إنما وقع خطأ لقوله تعالى في آخر الآيات: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ الآية، فهذه قرائن على وقوع قتل في الكفار خطأ من المؤمنين في الشهر الحرام في قتال واقع بينهم، وطعن الكفار به، ففيه تصديق لما ورد في الروايات من قصة عبد الله بن جحش وأصحابه.

٥. ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾:

أ. الصد هو المنع والصرف، والمراد بسبيل الله العبادة والنسك وخاصة الحج، والظاهر أن ضمير به راجع إلى السبيل فيكون كفرا في العمل دون الاعتقاد، والمسجد الحرام عطف على سبيل الله أي صد عن سبيل الله وعن المسجد الحرام.

ب. الآية تدل على حرمة القتال في الشهر الحرام، وقد قيل: إنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾، وليس بصواب، وقد مر بعض الكلام في ذلك في تفسير آيات القتال.

٦. ﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾، أي والذي فعله المشركون من إخراج رسول الله والمؤمنين من المهاجرين، وهم أهل المسجد الحرام، منه أكبر من القتال، وما فتنوا به المؤمنين من الزجر والدعوة إلى الكفر أكبر من القتل، فلا يحق للمشركين أن يطعنوا المؤمنين وقد فعلوا ما هو أكبر مما طعنوا به، ولم يكن المؤمنون فيما أصابوه منهم إلا راجين رحمة الله والله غفور رحيم.

٧. ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ إلى آخر الآية ﴿حَتَّى﴾ للتعليل أي ليردوكم، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ﴾ الآية، تهديد للمرتد بحبط العمل وخلود النار.

٨. وضع هنا مبحثا حول [الحبط: معناه، أسبابه، وآثاره في الدنيا والآخرة]، خلاصته:«الميزان: ٢/ ١٦٧»:

أ. الحبط هو بطلان العمل وسقوط تأثيره، ولم يُنسب في القرآن إلا إلى العمل، كقوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾

ب. الحبط يتعلق بالأعمال من حيث أثرها في الحياة الدنيا والآخرة، فالإيمان يطيب الحياة، والكفر

يحبط العمل.

ج. الكفر والارتداد يوجبان بطلان العمل عن التأثير في السعادة، والإيمان يوجب حياة في الأعمال تؤثر أثرها في السعادة.

د. النزاع في بقاء أعمال المرتد إلى حين الموت أو بطلانها من أصلها لا وجه له، فالآية بصدد بيان بطلان جميع الأعمال من حيث التأثير في السعادة.

هـ. مسألة الاحباط والتكفير: الاعمال لا تبطل بعضها بعضاً، بل الحسنة لها حكمها والسيئة لها حكمها، والحسنات تكفر السيئات بنص القرآن.

و. الحق في وقت استحقاق الجزاء: أن الإنسان يستحق الثواب والعقاب بمجرد صدور الفعل، لكنه قابل للتحول حتى الموت، وعند الموت يثبت من غير زوال.

ز. حبط الأعمال يتعلق بالأعمال الدنيوية والأخروية، والتحابط بين الأعمال باطل بخلاف التكفير.

٩. وضع هنا مبحثا حول [أحكام الأعمال من حيث الجزاء: نظام المجازاة بين الدنيا والآخرة]، خلاصته:«الميزان: ٢/ ١٧٢»:

أ. من المعاصي ما يحبط حسنات الدنيا والآخرة (كالارتداد والكفر بآيات الله)، ومن الطاعات ما يكفر سيئات الدنيا والآخرة (كالإسلام والتوبة)

ب. من المعاصي ما يحبط بعض الحسنات (كالمشاقة مع الرسول ورفع الصوت فوق صوته)، ومن الطاعات ما يكفر بعض السيئات (كالصلوات المفروضة والحج واجتناب الكبائر)

ج. من المعاصي ما ينقل حسنات فاعلها إلى غيره (كالقتل)، ومن الطاعات ما ينقل السيئات إلى الغير.

د. من المعاصي ما ينقل مثل سيئات الغير لا عينها (كالإضلال)، ومن الطاعات ما ينقل مثل حسنات الغير لا عينها.

هـ. من المعاصي ما يوجب تضاعف العذاب، ومن الطاعات ما يوجب تضاعف الثواب.

و. من الحسنات ما يبدل السيئات إلى حسنات (بالتوبة والعمل الصالح)، ومنها ما يوجب لحوق

مثلها بالغير (كاللحوق بالذرية)

ز. من الحسنات ما يدفع سيئات صاحبها إلى غيره ويجذب حسنات الغير إليه، والعكس في السيئات.

ح. نظام المجازاة يختلف عن نظام الطبيعة، فالفعل في نشأة الجزاء قد يُبدل من غير نفسه، أو يُنقل إلى غير فاعله، أو يُعطى غير حكمه.

ط. القرآن يعلل هذه الأحكام بالقوانين العقلائية الاجتماعية، مع أن الحقائق في الآخرة ذات نظام غير نظام الحس.

ي. الأعمال محفوظة مكتوبة متجسمة، ولها ارتباط بالحوادث الخارجية (كالبركات والمصائب)

ك. قبيل السعادة فائق على قبيل الشقاء، والغلبة للحق والباطل زائل.

ل. الحسنات مطابقة لحكم العقل، والسيئات توجب اختلال حكومته.

١٠. أحاديث وآثار:

أ. أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: كنت رديف رسول الله ﷺ، فقال: يا ابن عباس، ارض عن الله بما قدر، وإن كان خلاف هواك، فإن ذلك مثبت في كتاب الله، قلت: يا رسول الله، فأين وقد قرأت القرآن؟ قال: ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]

• أقول: وفي الرواية إشعار بأن التقدير يعم التشريع والتكوين، وإنما يختلف باختلاف الاعتبار، وأما كون (عسى) بمعنى الوجوب، فلا دلالة لها عليه، وقد مر أن (عسى) في القرآن بمعناه اللغوي وهو الترجي، فلا عبرة بما نقل عن بعض المفسرين: (كل شيء في القرآن عسى، فإن عسى من الله واجب)

• وأعجب منه ما نقل عن بعض آخر: إن كل شيء من القرآن عسى فهو واجب، إلا حرفين: حرف في التحريم: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ﴾ [التحريم: ٥]، وفي بني إسرائيل: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ [الإسراء: ٨]

ب. أخرج ابن جرير من طريق السدي: إن رسول الله ﷺ بعث سرية، وفيهم سبعة نفر، عليهم عبد الله بن جحش الأسدي، وفيهم عمار بن ياسر، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وسعد بن أبي وقاص،

وعتبة بن غزوان السلمي حليف لبني نوفل، وسهل بن بيضاء، وعامر بن فهيرة، وواقد بن عبد الله اليربوعي حليف لعمر بن الخطاب، وكتب مع ابن جحش كتاباً، وأمره أن لا يقرأه حتى ينزل مَلَل، فلما نزل ببطن مَلَل فتح الكتاب، فإذا فيه: (إن سر حتى تنزل بطن نخلة)، فقال لأصحابه: من كان يريد الموت فليمض وليوص، فإني موص وماض لأمر رسول الله ﷺ، فسار، وتخلف عنه سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان، أضلا راحلة لهما، وسار ابن جحش، فإذا هم بالحكم بن كيسان، وعبد الله بن المغيرة بن عثمان، وعمرو الحضرمي، فاقتتلوا، فأسروا الحكم بن كيسان وعبد الله بن المغيرة، وانفلت المغيرة، وقتل عمرو الحضرمي قتله واقد بن عبد الله، فكانت أول غنيمة غنمها أصحاب محمد ﷺ، فلما رجعوا إلى المدينة بالأسيرين وما غنموا من الأموال، قال المشركون: محمد يزعم أنه يتبع طاعة الله، وهو أول من استحل الشهر الحرام! فأنزل الله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢١٧]، وما صنعتم أنتم يا معشر المشركين أكبر من القتل في الشهر الحرام، حين كفرتم بالله وصددتم عنه محمداً، والفتنة وهي الشرك أعظم عند الله من القتل في الشهر الحرام، فذلك قوله: ﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ﴾ [البقرة: ٢١٧]

• أقول: والروايات في هذا المعنى وما يقربه كثيرة من طرقهم، وروي هذا المعنى أيضاً في المجمع، وفي بعض الروايات: إن السرية كانت ثمانية، تاسعهم أميرهم.

ج. أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي من طريق يزيد بن رومان عن عروة قال: بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن جحش إلى نخلة، فقال له: كن بها حتى تأتينا بخبر من أخبار قريش، ولم يأمره بقتال، وذلك في الشهر الحرام، وكتب له كتاباً قبل أن يعلمه أنه يسير، فقال: اخرج أنت وأصحابك، حتى إذا سرت يومين فافتح كتابك وانظر فيه، فما أمرتك به فامض له، ولا تستكرهن أحداً من أصحابك على الذهاب معك، فلما سار يومين، فتح الكتاب، فإذا فيه: (أن امض حتى تنزل نخلة، فتأتينا من أخبار قريش بما اتصل إليك منهم)، فقال لأصحابه حين قرأ الكتاب: سمع وطاعة، من كان منكم له رغبة في الشهادة فلينطلق معي، فإني ماض لأمر رسول الله ﷺ، ومن كره ذلك منكم فليرجع، فإن رسول الله قد نهاني أن استكره منكم أحداً، فمضى معه القوم، حتى إذا كانوا بنجران، أضل سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان بعيراً لهما كانا يعتقبانه، فتخلفا عليه يطلبانه، ومضى القوم حتى نزلوا نخلة، فمر

بهم عمرو بن الحضرمي، والحكم بن كيسان، وعثمان، والمغيرة بن عبد الله، معهم تجارة قد مروا بها من الطائف: أدم وزيت، فلما رآهم القوم، أشرف لهم واقد بن عبد الله، وكان قد حلق رأسه، فلما رأوه حليقاً، قال عمار: ليس عليكم منه بأس، وائتمر القوم بهم أصحاب رسول الله ﷺ، وهو آخر يوم من جمادى، فقالوا: لئن قتلتموهم، إنكم لتقتلونهم في الشهر الحرام، ولئن تركتموهم ليدخلن في هذه الليلة مكة الحرام فليمتنعن منكم، فأجمع القوم على قتلهم، فرمى واقد بن عبد الله التميمي عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله، واستأسر عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان، وهرب المغيرة فأعجزهم، واستاقوا العير، فقدموا بها على رسول الله ﷺ، فقال لهم: والله ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام، فأوقف رسول الله الأسيرين والعير، فلم يأخذ منها شيئاً، فلما قال لهم رسول الله ﷺ ما قال، سقط في أيديهم، وظنوا أن قد هلكوا، وعنفهم إخوانهم من المسلمين، وقالت قريش حين بلغهم أمر هؤلاء: قد سفك محمد الدم الحرام، وأخذ المال، وأسر الرجال، واستحل الشهر الحرام، فأنزل الله في ذلك: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ الآية، فلما نزل ذلك، أخذ رسول الله ﷺ العير وفدى الأسيرين، فقال المسلمون: يا رسول الله، أتطمع أن يكون لنا غزوة؟ فأنزل الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٨]، وكانوا ثمانية، وأميرهم التاسع عبد الله بن جحش.

• أقول: وفي كون قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ الآية نازلة في أمر أصحاب عبد الله بن جحش، روايات أخر، والآية تدل على عذر من فعل فعلاً قربياً فأخطأ الواقع، فلا ذنب مع الخطأ، وتدل أيضاً على جواز تعلق المغفرة بغير مورد الذنب.

• وفي الروايات إشارة إلى أن المراد بالسائلين في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾، هم المؤمنون دون المشركين الطاعنين في فعل المؤمنين، ويؤيده أيضاً ما مر من رواية ابن عباس في البحث الروائي السابق: (ما رأيت قوماً كانوا خيراً من أصحاب محمد، ما سألوه إلا عن ثلاث عشرة مسألة حتى قبض ﷺ، كلهن في القرآن: منهن ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾، و﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾)، الرواية، ويؤيد ذلك أن الخطاب في الآية إنما هو للمؤمنين، حيث يقول تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٧]

٩٥. رجاء رحمة الله للمؤمنين المهاجرين المجاهدين:

المقطع [٩٥] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨]، لم يفسر الآية الكريمة، ومعناها واضح، وهو:

١. يبيّن الله تعالى أن الذين جمعوا بين الإيمان بالله ورسوله، والهجرة من ديار الكفر إلى دار الإسلام، والجهاد في سبيل الله بالمال والنفس، أنهم هم المستحقون لرجاء رحمة الله، ثم يختم الآية بإثبات صفتي المغفرة والرحمة لله، مما يزيدهم طمعًا في فضله.

٢. وهي تشير إلى:

أ. أن الإيمان المجرد لا يكفي، بل لا بد من الاقتران بالهجرة عن مواطن المعصية والجهاد في سبيل الله.

ب. أن الجهاد في سبيل الله يشمل الجهاد بالمال والنفس واللسان والعلم، بحسب الاستطاعة.

ج. أن رجاء رحمة الله لا ينافي العمل، بل هو ثمرة للجمع بين الإيمان والهجرة والجهاد.

د. أن صفتي المغفرة والرحمة لله وسعتا كل شيء، وهما سبب في تفاؤل المؤمنين وقوة عزيمتهم.

هـ. الحث على عدم اليأس من رحمة الله، مع المبادرة إلى الأسباب الموجبة لها من الإيمان والعمل الصالح.

٩٦. تحريم الخمر والميسر وتحديد العفو في الإنفاق:

المقطع [٩٦] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [البقرة: ٢١٩ـ٢٢٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢/ ١٩٢»:

١. ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾:

أ. الخمر على ما يستفاد من اللغة هو كل مائع معمول للسكر، والأصل في معناه الستر، وسمي به لأنه يستر العقل ولا يدعه يميز الحسن من القبح والخير من الشر، ويقال: لما تغطي به المرأة رأسها الخمار، ويقال: خمرت الإناء إذا غطيت رأسها، ويقال: أخمرت العجين إذا أدخلت فيه الخمير، وسميت الخميرة

خميرة لأنها تعجن أولا ثم تغطى وتخمر من قبل، وقد كانت العرب لا تعرف من أقسامه إلا الخمر المعمول من العنب والتمر والشعير، ثم زاد الناس في أقسامه تدريجا فصارت اليوم أنواعا كثيرة ذات مراتب بحسب درجات السكر، والجميع خمر.

ب. الميسر لغة هو القمار ويسمى المقامر ياسرا والأصل في معناه السهولة سمي به لسهولة اقتناء مال الغير به من غير تعب الكسب والعمل، وقد كان أكثر استعماله عند العرب في نوع خاص من القمار، وهو الضرب بالقداح وهي السهام، وتسمى أيضا: الأزلام والأقلام.

٢. ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾، وضع هنا مبحثا حول [تحقيق معنى آية الخمر والميسر، ومعنى الإثم والكبر والمنفعة، وتحريم الخمر، ومضارها، وتاريخ النزول التدريجي، والرد على الشبهات المثارة حول دلالة الآية]، خلاصته:

أ. معنى الإثم: الإثم يقارب الذنب، وهو حالة في الشيء أو في العقل تبطئ الإنسان عن نيل الخيرات، وتستتبع الشقاء والحرمان، وتفسد سعادة الحياة، والإثم في الخمر والميسر موصوف بالكبر، وهو وصف إضافي يدل على عظم المفسدة.

ب. مضار الخمر: تنقسم إلى ثلاث جهات: مضرات طبية (تؤثر في المعدة والكبد والقلب والأعصاب والحواس)، ومضرات خلقية (تؤدي إلى الفحش والجنايات والقتل وهتك الحرمات)، ومضرات عقلية (تسلب العقل وتغير مجرى الإدراك، وهي أعظم المفاسد، ومنها ينشأ جميع المفاسد الأخرى)

ج. تحريم الخمر جاء تدريجياً: نزلت أربع مرات: الأولى في سورة الأعراف (المكية) التي حرمت الإثم صريحاً، والثانية في سورة النساء (النهي عن الصلاة سكرى)، والثالثة في سورة البقرة (بيان الإثم الكبير)، والرابعة في سورة المائدة (التحريم القطعي)، وهذا التدريج من أجل رفع العادة الشائعة برفق وإمهال.

د. الرد على من قال إن آية البقرة ليست صريحة في التحريم: هذا القول فاسد من وجوه: أولاً، لأن الإثم ليس مجرد الضرر، بل هو الذنب الموبق، ثانياً، لأن الآية تعلل بغلبة الضرر على المنفعة، ولفظها صريح في أن الإثم أكبر من النفع، ثالثاً، لأن آية الأعراف المكية سبقتها في تحريم الإثم صريحاً، فكيف يعذر من

سمع التحريم في آية مكية ثم يجتهد في آية مدنية؟

هـ. الميسر: مفاسده الاجتماعية وهدمه لبنيان الحياة أمر مشهود معاين، وسيأتي الكلام عنه في سورة المائدة.

و. الروايات في تحريم الخمر: وردت روايات كثيرة عن أئمة أهل البيت تؤكد أن الخمر رأس كل إثم، وأنها مفتاح المعصية، وأن شاربها ملعون، وأن الله يسقيه من الحميم يوم القيامة، وقد لعن رسول الله في الخمر عشرة: غارسها، وحارسها، وعاصرها، وشاربها، وساقيها، وحاملها، والمحمولة إليه، وبايعها، ومشتريها، وآكل ثمنها.

٣. ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾، العفو على ما ذكره الراغب قصد الشيء لتناوله ثم أوجب لحوق العنايات المختلفة الكلامية به مجيئه لمعاني مختلفة كالعفو بمعنى المغفرة والعفو بمعنى إمحاء الأثر والعفو بمعنى التوسط في الإنفاق، وهذا هو المقصود في المقام، والله العالم.

٤. الكلام في مطابقة الجواب للسؤال في هذه الآية نظير ما مر في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ الآية.

٥. ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ﴾ إلى قوله: ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾، الظرف أعني قوله تعالى: ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾، متعلق بقوله: ﴿تَتَفَكَّرُونَ﴾ وليس بظرف له، والمعنى لعلكم تتفكرون في أمر الدارين وما يرتبط بكم من حقيقتهما، وأن الدنيا دار خلقها الله لكم لتحيوا فيها وتكسبوا ما ينفعكم في مقركم وهو الدار الآخرة التي ترجعون فيه إلى ربكم فيجازيكم بأعمالكم التي عملتموها في الدنيا، وفي الآية:

أ. أولا: حث على البحث عن حقائق الوجود ومعارف المبدإ والمعاد وأسرار الطبيعة، والتفكر في طبيعة الاجتماع ونواميس الأخلاق وقوانين الحياة الفردية والاجتماعية، وبالجملة جميع العلوم الباحثة عن المبدإ والمعاد وما بينهما المرتبطة بسعادة الإنسان وشقاوته.

ب. وثانيا: أن القرآن وإن كان يدعو إلى الإطاعة المطلقة لله ورسوله من غير أي شرط وقيد، غير أنه لا يرضى أن يؤخذ الأحكام والمعارف التي يعطيها على العمى والجمود المحض من غير تفكر وتعقل يكشف عن حقيقة الأمر، وتنور يستضاء به الطريق في هذا السير والسري، وكان المراد بالتبيين هو الكشف عن علل الأحكام والقوانين، وإيضاح أصول المعارف والعلوم.

٦. أحاديث وآثار:

أ. في الدر المنثور عن ابن عباس: (إن نفراً من الصحابة حين أمروا بالنفقة في سبيل الله أتوا النبي فقالوا: إنا لا ندري ما هذه النفقة التي أمرنا بها في أموالنا، فما ننفق منها، فأنزل الله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ [البقرة: ٢١٩]، وكان قبل ذلك ينفق ماله حتى ما يجد ما يتصدق به، ولا مالاً يأكل حتى يتصدق به.

ب. وفي الدر المنثور أيضاً عن يحيى: أنه بلغه أن معاذ بن جبل وثعلبة أتيا رسول الله ﷺ فقالا: (يا رسول الله، إن لنا أرقاء وأهلين، فما ننفق من أموالنا؟)، فأنزل الله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾

ج. وفي الكافي وتفسير العياشي عن الصادق عليه السلام: (العفو الوسط)، وفي تفسير العياشي عن الباقر والصادق عليه السلام: (الكفاف)، وفي رواية أبي بصير: (القصد)، وفيه أيضاً عن الصادق عليه السلام في الآية: (الذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً [الفرقان: ٦٧]، قال: هذه بعد هذه، هي الوسط)، وفي المجمع عن الباقر عليه السلام: (العفو ما فضل عن قوت السنة)

- أقول: والروايات متوافقة، والأخيرة من قبيل بيان المصداق.

٩٧. اليتامى وإصلاح شؤونهم ومخالطتهم بالمعروف:

المقطع [٩٧] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢/ ١٩٨»:

١. ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ﴾، في الآية إشعار بل دلالة على نوع من التخفيف والتسهيل حيث أجازت المخالطة لليتامى، ثم قيل: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾، وهذا يكشف عن تشديد سابق من الله تعالى في أمر اليتامى يوجب التشويش والاضطراب في قلوب المسلمين حتى دعاهم على السؤال عن أمر اليتامى، والأمر على ذلك، فإن هاهنا آيات شديدة اللحن في أمر اليتامى كقوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾، وقوله تعالى: ﴿وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾، فالظاهر أن الآية نازلة بعد آيات سورة النساء، وبذلك يتأيد ما ورد في سبب نزول الآية.

٢. في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ﴾، حيث نكر الإصلاح، دلالة على أن المرضي عند الله سبحانه نوع من الإصلاح لا كل إصلاح ولو كان إصلاحا في ظاهر الأمر فقط، فالتنكير في قوله تعالى: ﴿إِصْلَاحٍ﴾ لإفادة التنويع فالمراد به الإصلاح بحسب الحقيقة لا بحسب الصورة، ويشعر به قوله تعالى، ذيلا: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾

٣. ﴿وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾، إشارة إلى المساواة المجعولة بين المؤمنين جميعا بإلغاء جميع الصفات المميزة التي هي المصادر لبروز أنواع الفساد بين الناس في اجتماعهم من الاستعباد والاستضعاف والاستذلال والاستكبار وأنواع البغي والظلم، وبذلك يحصل التوازن بين أثقال الاجتماع، والمعادلة بين اليتيم الضعيف والولي القوي، وبين الغني المثري والفقير المعدم، وكذا كل ناقص وتام، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾، فالذي تجوزه الآية في مخالطة الولي لليتيم أن يكون كالمخالطة بين الأخوين المتساويين في الحقوق الاجتماعية بين الناس يكون المأخوذ من ماله كالمعطى له، فالآية تحاذي قوله تعالى: ﴿وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾، وهذه المحاذاة من الشواهد على أن في الآية نوعا من التخفيف والتسهيل كما يدل عليه أيضا ذيلها، وكما يدل عليه أيضا بعض الدلالة قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾، فالمعنى: أن المخالطة إن كانت (وهذا هو التخفيف) فلتكن كمخالطة الأخوين، على التساوي في الحقوق، ولا ينبغي عند ذلك الخوف والخشية فإن ذلك لو كان بغرض الإصلاح حقيقة لا صورة كان من الخير، ولا يخفى حقيقة الأمر على الله سبحانه حتى يؤاخذكم بمجرد المخالطة فإن الله سبحانه يميز المفسد من المصلح.

٤. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ إلى آخر الآية، تعدية يعلم بمن كأنها لمكان تضمينه معنى يميز، والعنت هو الكلفة والمشقة.

٥. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي عن الصادق عليه السلام: إنه لما نزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠]، أخرج كل من كان عنده يتيم، وسألوا رسول الله في إخراجهم، فأنزل الله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٠])

ب. وفي الدر المنثور عن ابن عباس قال: (لما أنزل الله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: ٣٤]، و﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ﴾ الآية، انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه، فجعل يفضل له الشيء من طعامه فيحبس له حتى يأكله أو يفسد فيرمي به، فاشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فأنزل الله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٠]، فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم)

• أقول: وروي هذا المعنى عن سعيد بن جبير وعطاء وقتادة.

٩٨. ضوابط الزواج بين المسلمين والمشركين وأولوية الإيمان:

المقطع [٩٨] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٢١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢/ ٢٠٣»:

١. ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ﴾:

أ. قال الراغب في المفردات: (أصل النكاح للعقد، ثم أستعير للجماع، ومحال أن يكون في الأصل للجماع، ثم أستعير للعقد لأن أسماء الجماع، كلها كنايات، لاستقباحهم ذكره كاستقباح تعاطيه، ومحال أن يستعير من لا يقصد فحشا اسم ما يستفظعونه لما يستحسنونه)، وهو جيد غير أنه يجب أن يراد بالعقد علقة الزوجية دون العقد اللفظي المعهود.

ب. المشركات اسم فاعل من الإشراك بمعنى اتخاذ الشريك لله سبحانه، ومن المعلوم أنه ذو مراتب مختلفة بحسب الظهور والخفاء نظير الكفر والإيمان، فالقول بتعدد الإله واتخاذ الأصنام والشفعاء شرك ظاهر، وأخفى منه ما عليه أهل الكتاب من الكفر بالنبوة، وخاصة، أنهم قالوا: عزير ابن الله أو المسيح ابن الله، وقالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه وهو شرك، وأخفى منه القول باستقلال الأسباب والركون إليها وهو شرك، إلى أن ينتهي إلى ما لا ينجو منه إلا المخلصون وهو الغفلة عن الله والالتفات إلى غير الله عزت ساحته، فكل ذلك من الشرك، غير أن إطلاق الفعل غير إطلاق الوصف والتسمية به، كما أن من ترك من المؤمنين شيئا من الفرائض فقد كفر به لكنه لا يسمى كافرا، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ إلى

أن قال ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَّ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾، وليس تارك الحج كافرا بل هو فاسق كفر بفريضة واحدة، ولو أطلق عليه الكافر قيل كافر بالحج، وكذا سائر الصفات المستعملة في القرآن كالصالحين والقانتين والشاكرين والمتطهرين، وكالفاسقين والظالمين إلى غير ذلك لا تعادل الأفعال المشاركة لها في مادتها، وهو ظاهر فللتوصيف والتسمية حكم، ولإسناد الفعل حكم آخر.

ج. على أن لفظ المشركين في القرآن غير ظاهر الإطلاق على أهل الكتاب بخلاف لفظ الكافرين بل إنما أطلق فيما يعلم مصداقه على غيرهم من الكفار كقوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾، وقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾، وقوله: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ﴾، وقوله: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾، وقوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾، إلى غير ذلك من الموارد، أما قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، فليس المراد بالمشركين في الآية اليهود والنصارى ليكون تعريضا لهم بل الظاهر أنهم غيرهم بقرينة قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، ففي إثبات الحنف له عليه السلام تعريض لأهل الكتاب، وتبرئة لساحة إبراهيم عن الميل عن حاق الوسط إلى مادية اليهود محضا أو إلى مثنوية النصارى محضا بل هو عليه السلام غير يهودي ولا نصراني ومسلم لله غير متبع له يكن المشركين عبدة الأوثان، وكذا قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهَّ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾، وقوله: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾، وقوله: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾، فإن هذه الآيات ليست في مقام التسمية بحيث يعد المورد الذي يصدق وصف الشرك عليه مشركا غير مؤمن، والشاهد على ذلك صدقه على بعض طبقات المؤمنين، بل على جميعهم غير النادر الشاذ منهم وهم الأولياء المقربون من صالحي عباد الله.

د. ظهر من هذا البيان على طوله: أن ظاهر الآية أعني قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ﴾، قصر التحريم على المشركات والمشركين من الوثنيين دون أهل الكتاب، ومن هنا يظهر: فساد القول بأن الآية ناسخة لآية المائدة وهي قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾، أو أن الآية أعني قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ﴾، وآية الممتحنة أعني قوله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ

الْكَوَافِرِ﴾، ناسختان لآية المائدة، وكذا القول بأن آية المائدة ناسخة لآيتي البقرة والممتحنة، ووجه الفساد: أن هذه الآية أعني آية البقرة بظاهرها لا تشمل أهل الكتاب وآية المائدة لا تشمل إلا الكتابية فلا نسبة بين الآيتين بالتنافي حتى تكون آية البقرة ناسخة لآية المائدة أو منسوخة بها، وكذا آية الممتحنة وإن أخذ فيها عنوان الكوافر وهو أعم من المشركات ويشمل أهل الكتاب، فإن الظاهر أن إطلاق الكافر يشمل الكتابي بحسب التسمية بحيث يوجب صدقه عليه انتفاء صدق المؤمن عليه كما يشهد به قوله تعالى ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا للهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ إلا أن ظاهر الآية كما سيأتي إن شاء الله العزيز أن من آمن من الرجال وتحته زوجة كافرة يحرم عليه الإمساك بعصمتها أي إبقاؤها على الزوجية السابقة إلا أن تؤمن فتمسك بعصمتها، فلا دلالة لها على النكاح الابتدائي للكتابية.

هـ. ولو سلم دلالة الآيتين أعني: آية البقرة وآية الممتحنة على تحريم نكاح الكتابية ابتداء لم تكونا بحسب السياق ناسختين لآية المائدة، وذلك لأن آية المائدة واردة مورد الامتنان والتخفيف، على ما يعطيه التدبر في سياقها، فهي آبية عن المنسوخية بل التخفيف المفهوم منها هو الحاكم على التشديد المفهوم من آية البقرة، فلو بني على النسخ كانت آية المائدة هي الناسخة، على أن سورة البقرة أول سورة نزلت بالمدينة بعد الهجرة، وسورة الممتحنة نزلت بالمدينة قبل فتح مكة وسورة المائدة آخر سورة نزلت على رسول الله ناسخة غير منسوخة ولا معنى لنسخ السابق اللاحق.

٢. ﴿وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾، الظاهر أن المراد بالأمة المؤمنة المملوكة التي تقابل الحرة وقد كان الناس يستذلون الإماء ويعيرون من تزوج بهن، فتقييد الأمة بكونها مؤمنة، وإطلاق المشركة مع ما كان عليه الناس من استحقار أمر الإماء واستذلالهن، والتحرز عن التزوج بهن يدل على أن المراد أن المؤمنة وإن كانت أمة خير من المشركة وإن كانت حرة ذات حسب ونسب ومال مما يعجب الإنسان بحسب العادة، وقيل: إن المراد بالأمة كالعبد في الجملة التالية أمة الله وعبده وهو بعيد.

٣. ﴿وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ﴾، الكلام فيه كالكلام في الجملة السابقة.

٤. ﴿أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ﴾:

أ. إشارة إلى حكمة الحكم بالتحريم، وهو أن المشركين لاعتقادهم بالباطل، وسلوكهم سبيل الضلال رسخت فيهم الملكات الرذيلة المزينة للكفر والفسوق، والمعمية عن إبصار طريق الحق والحقيقة

فأثبتت في قولهم وفي فعلهم الدعوة إلى الشرك، والدلالة إلى البوار، والسلوك بالآخرة إلى النار فهم يدعون إلى النار، والمؤمنون، بخلافهم، بسلوكهم سبيل الإيمان، وتلبسهم بلباس التقوي يدعون بقولهم وفعلهم إلى الجنة والمغفرة بإذن الله حيث أذن في دعوتهم إلى الإيمان، واهتدائهم إلى الفوز والصلاح المؤدي إلى الجنة والمغفرة، وكان حق الكلام أن يقال: وهؤلاء يدعون إلى الجنة (إلخ)، ففيه استخلاف عن المؤمنين ودلالة على أن المؤمنين في دعوتهم بل في مطلق شئونهم الوجودية إلى ربهم، لا يستقلون في شيء من الأمور دون ربهم تبارك وتعالى وهو وليهم كما قال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾

ب. في الآية وجه آخر: وهو أن يكون المراد بالدعوة إلى الجنة والمغفرة هو الحكم المشرع في صدر الآية بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ﴾ (إلخ)، فإن جعل الحكم لغرض ردع المؤمنين عن الاختلاط في العشرة مع من لا يزيد القرب منه والأنس به إلا البعد من الله سبحانه، وحثهم بمخالطة من في مخالطته التقرب من الله سبحانه وذكر آياته ومراقبة أمره ونهيه دعوة من الله إلى الجنة، ويؤيد هذا الوجه تذييل هذه الجملة بقوله تعالى: ﴿وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾، ويمكن أن يراد بالدعوة الأعم من الوجهين، ولا يخلو حينئذ السياق عن لطف فافهم.

٥. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع في الآية: نزلت في مرثد بن أبي مرثد الغنوي، بعثه رسول الله ﷺ إلى مكة ليخرج منها ناساً من المسلمين، وكان قوياً شجاعاً، فدعته امرأة يقال لها: عناق، إلى نفسها، فأبى، وكانت بينهما خلة في الجاهلية، فقالت: هل لك أن تتزوج بي؟ فقال: حتى أستأذن رسول الله ﷺ، فلما رجع، استأذن في التزوج بها.

• أقول: وروي هذا المعنى السيوطي في الدر المنثور عن ابن عباس.

أ. أخرج الواحدي من طريق السدي عن أبي مالك عن ابن عباس في هذه الآية: ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ﴾ [البقرة: ٢٢١]، قال: نزلت في عبد الله بن رواحة، وكانت له أمة سوداء، وإنه غضب عليها فلطمها، ثم إنه فزع، فأتى النبي ﷺ فأخبره خبرها، فقال له النبي ﷺ: ما هي يا عبد الله؟ قال: تصوم وتصلي وتحسن الوضوء، وتشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسوله، فقال: يا عبد الله، هذه مؤمنة، فقال عبد الله: فو الذي بعثك بالحق لأعتقنها ولأتزوجنها، ففعل، فطعن عليه ناس من المسلمين، وقالوا: نكح أمة،

وكانوا يريدون أن ينكحوا إلى المشركين وينكحوهم، رغبة في أحسابهم، فأنزل الله فيهم: ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ﴾

ب. وفيه أيضاً عن مقاتل في الآية: ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ﴾، قال: بلغنا أنها كانت أمة لحذيفة، فأعتقها وتزوجها حذيفة.

• أقول: لا تنافي بين هذه الروايات الواردة في أسباب النزول؛ لجواز وقوع عدة حوادث تنزل بعدها آية تشتمل على حكم جميعها، وهنا روايات متعارضة مروية في كون قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ [البقرة: ٢٢١]، الآية ناسخاً لقوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة: ٥]، أو منسوخاً به، ستمر بك في تفسير الآية من سورة المائدة.

٩٩. الحيض وطهارة المرأة ومباشرتها:

المقطع [٩٩] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢-٢٢٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢/ ٢٠٧»:

١. ﴿وَيسألونك عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَأَذًى﴾:

أ. المحيض مصدر كالحيض، يقال: حاضت المرأة تحيض حيضا ومحيضا إذا نزفت طبيعتها الدم المعروف ذا الصفات المعهودة المختصة بالنساء، ولذلك يقال هي حائض كما يقال: هي حامل.

ب. الأذى هو الضرر على ما قيل، لكنه لا يخلو عن نظر، فإنه لو كان هو الضرر بعينه لصح مقابلته مع النفع كما أن الضرر مقابل النفع وليس بصحيح، يقال: دواء مضر وضار، ولو قيل دواء موذ أفاد معنى آخر، وأيضا قال تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى﴾، ولو قيل لن يضروكم إلا ضررا لفسد الكلام، وأيضا كونه بمعنى الضرر غير ظاهر في أمثال قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، وقوله تعالى: ﴿لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾، فالظاهر أن الأذى هو الطارئ على الشيء غير الملائم لطبعه فينطبق عليه معنى الضرر بوجه، وتسمية المحيض أذى على هذا المعنى لكون هذا الدم المستند إلى عادة النساء حاصلا من عمل خاص من طبعها يؤثر به في مزاج الدم الطبيعي الذي يحصله جهاز التغذية فيفسد

مقدارا منه عن الحال الطبيعي وينزله إلى الرحم لتطهيره أو لتغذية الجنين أو لتهيئة اللبن للإرضاع، وأما على قولهم: إن الأذى هو الضرر فقد قيل: إن المراد بالمحيض إتيان النساء في حال الحيض، والمعنى: يسألونك عن إتيانهن في هذه الحال فأجيب بأنه ضرر وهو كذلك فقد ذكر الأطباء أن الطبيعة مشتغلة في حال الطمث بتطهير الرحم وإعداده للحمل، والوقاع يختل به نظام هذا العمل فيضر بنتائج هذا العمل الطبيعي من الحمل وغيره.

٢. ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ﴾:

أ. الاعتزال هو أخذ العزلة التجنب عن المخالطة والمعاشرة، يقال: عزلت نصيبه إذا ميزته ووضعته في جانب بالتفريق بينه وبين سائر الأنصباء، والقرب مقابل البعد يتعدى بنفسه وبمن، والمراد بالاعتزال ترك الإتيان من محل الدم على ما سنبين.

ب. كان للناس في أمر المحيض مذاهب شتى: فكانت اليهود تشدد في أمره، ويفارق النساء في المحيض في المأكل والمشرب والمجلس والمضجع، وفي التوراة أحكام شديدة في أمرهن في المحيض، وأمر من قرب منهن في المجلس والمضجع والمس وغيره ذلك، وأما النصارى فلم يكن عندهم ما يمنع الاجتماع بهن أو الاقتراب منهن بوجه، وأما المشركون من العرب فلم يكن عندهم شيء من ذلك غير أن العرب القاطنين بالمدينة وحواليها سرى فيهم بعض آداب اليهود في أمر المحيض والتشديد في أمر معاشرتهن في هذا الحال، وغيرهم ربما كانوا يستحبون إتيان النساء في المحيض ويعتقدون أن الولد المرزوق حينئذ يصير سفاحا ولوعا في سفك الدماء وذلك من الصفات المستحسنة عند العشائر من البدويين.

ج. كيف كان فقوله تعالى: ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾، وإن كان ظاهره الأمر بمطلق الاعتزال على ما قالت به اليهود، ويؤكده قوله تعالى ثانيا: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ﴾، إلا أن قوله تعالى أخيرا ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾، ومن المعلوم أنه محل الدم، قرينة على أن قوله: فاعتزلوا ولا تقربوا، واقعان موقع الكناية لا التصريح، والمراد به الإتيان من محل الدم فقط لا مطلق المخالطة والمعاشرة ولا مطلق التمتع والاستلذاذ.

د. الإسلام قد أخذ في أمر المحيض طريقا وسطا بين التشديد التام الذي عليه اليهود والأعمال المطلق الذي عليه النصارى، وهو المنع عن إتيان محل الدم والإذن فيما دونه وفي قوله تعالى في المحيض، وضع الظاهر موضع المضمر وكان الظاهر أن يقال: فاعتزلوا النساء فيه والوجه فيه أن المحيض الأول أريد

به المعنى المصدري والثاني زمان الحيض فالثاني غير الأول، ولا يفيد معناه تبديله من الضمير الراجع إلى غير معناه.

٣. ﴿حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾ معنى (يطهرن) و(تطهرن)، فقوله تعالى: ﴿حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، أي ينقطع عنهن الدم، وهو الطهر بعد الحيض، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾، أي يغسلن محل الدم أو يغتسلن.

٤. ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾، أمر يفيد الجواز لوقوعه بعد الحظر، وهو كناية عن الأمر بالجماع على ما يليق بالقرآن الشريف من الأدب الإلهي البارع، وتقييد الأمر بالإتيان بقوله: ﴿أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾، لتتميم هذا التأدب، فإن الجماع مما يعد بحسب بادي النظر لغواً ولهواً، فقيده بكونه مما أمر الله به أمراً تكوينياً للدلالة على أنه مما يتم به نظام النوع الإنساني في حياته وبقائه، فلا ينبغي عده من اللغو واللهو، بل هو من أصول النواميس التكوينية.

٥. وضع هنا مبحثا حول [تحقيق معنى الطهارة والنجاسة في الإسلام]، خلاصته:

أ. الطهارة والنجاسة من المعاني الدائرة في ملة الإسلام، وقد صارتا من الحقائق الشرعية أو المتشرعة بكثرة الاستعمال، وتشتملان على شطر عظيم من المسائل الدينية.

ب. أصل الطهارة مما يعرفه الناس على اختلاف ألسنتهم، وهو قائم على أساس الرغبة الفطرية في الشيء لما فيه من فائدة، والنفرة عنه إذا عرض له عارض يغير صفاته (كالطعم والرائحة واللون)، وهذا هو المسمى بالنجاسة.

ج. الطهارة والنجاسة وصفان وجوديان في الأشياء، وقد انتقل الإنسان بهما من المحسوسات إلى المعقولات، فعممهما للأمور غير المحسوسة كالأنساب والأفعال والأخلاق والعقائد والأقوال.

د. النظافة والنزاهة والقدس والسبحان ألفاظ قريبة المعنى من الطهارة، لكن النظافة تختص بالمحسوسات، والنزاهة أصلها البعد، والقدس والسبحان يختصان بالمعقولات والمعنويات.

هـ. القذارة والرجس قريبا المعنى من النجاسة، لكن الأصل في القذارة معنى البعد، والرجس أصله الهول والوحشة، ودلالتها على النجاسة استعارية.

و. الإسلام عمم الطهارة والنجاسة في المحسوس والمعقول، وطردهما في المعارف الكلية والقوانين

الموضوعة، وعد عدة أشياء نجسة (كالدم والبول والغائط والمني والميتة والخنزير)، وشرع الطهارة الخبثية (المزيلة للنجاسة) والطهارة الحدثية (كالوضوء والغسل)

ز. أصل التوحيد هو الطهارة الكبرى عند الله، وبعده بقية المعارف الكلية والأخلاق الفاضلة والأحكام الموضوعة، وعلى هذا تنطبق الآيات كقوله: ﴿يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾، وقوله: ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾

٦. هذه الآية أعني قوله تعالى: ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾، تماثل قوله تعالى: ﴿فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾، وقوله: ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ﴾، من حيث السياق، فالظاهر أن المراد بالأمر بالإتيان في الآية هو الأمر التكويني المدلول عليه بتجهيز الإنسان بالأعضاء والقوى الهادية إلى التوليد، كما أن المراد بالكتابة في قوله تعالى: ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أيضا ذلك، وهو ظاهر، ويمكن أن يكون المراد بالأمر هو الإيجاب الكفائي المتعلق بالأزواج والتناكح نظير سائر الواجبات الكفائية التي لا تتم حياة النوع إلا به لكنه بعيد.

٧. استدلّ بعض المفسرين بهذه الآية على حرمة إتيان النساء من أدبارهن، وهو من أوهن الاستدلال وأرداه، فإنه مبني: إما على الاستدلال بمفهوم قوله تعالى: ﴿فَأْتُوهُنَّ﴾ وهو من مفهوم اللقب المقطوع عدم حجيته، وإما على الاستدلال بدلالة الأمر على النهي عن الضد الخاص وهو مقطوع الضعف، على أن الاستدلال لو كان بالأمر في قوله تعالى: ﴿فَأْتُوهُنَّ﴾ فهو واقع عقيب الحظر لا يدل على الوجوب ولو كان بالأمر في قوله تعالى: ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾، فهو إن كان أمرا تكوينيا كان خارجا عن الدلالة اللفظية، وإن كان أمرا تشريعيا كان للإيجاب الكفائي، والدلالة على النهي عن الضد على تقدير التسليم إنما هي للأمر الإيجابي العيني المولوي.

٨. ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾، التوبة هي الرجوع إلى الله سبحانه والتطهر هو الأخذ بالطهارة وقبولها فهو انقلاع عن القذارة ورجوع إلى الأصل الذي هو الطهارة فالمعنيان يتصادقان في مورد أوامر الله سبحانه ونواهيه، وخاصة في مورد الطهارة والنجاسة فالإيتمار بأمر من أوامره تعالى والانتهاء عن كل ما نهى عنه تطهر عن قذارة المخالفة والمفسدة، وتوبة ورجوع إليه عز شأنه، ولمكان هذه المناسبة علل تعالى ما ذكره من الحكم بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾، فإن من اللازم أن ينطبق ما ذكره من العلة على كل ما ذكره من الحكم، أعني قوله تعالى: ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾،

وقوله: ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ﴾ والآية أعني قوله: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾، مطلقة غير مقيدة فتشمل جميع مراتب التوبة والطهارة كما مر بيانه، ولا يبعد استفادة المبالغة من قوله تعالى: ﴿الْمُتَطَهِّرِينَ﴾، كما جيء بصيغة المبالغة في قوله: ﴿التَّوَّابِينَ﴾، فينتج استفادة الكثرة في التوبة والطهارة من حيث النوع ومن حيث العدد جميعا، أعني: أن الله يحب جميع أنواع التوبة سواء كانت بالاستغفار أو بامتثال كل أمر ونهي من تكاليفه أو باتخاذ كل اعتقاد من الاعتقادات الحقة، ويحب جميع أنواع التطهر سواء كان بالاغتسال والوضوء والغسل أو التطهر بالأعمال الصالحة أو العلوم الحقة، ويحب تكرار التوبة وتكرار التطهر.

٩. ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾:

أ. الحرث مصدر بمعنى الزراعة ويطلق كالزراعة على الأرض التي يعمل فيها الحرث والزراعة، وأنى من أسماء الشرط يستعمل في الزمان كمتى، وربما استعمل في المكان أيضا قال تعالى: ﴿يا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هذا قالَتْ هُوَمِنْ عِنْدِ اللهِ﴾، فإن كان بمعنى المكان كان المعنى من أي محل شئتم، وإن كان بمعنى الزمان كان المعنى في أي زمان شئتم، وكيف كان يفيد الإطلاق بحسب معناه وخاصة من حيث تقييده بقوله: ﴿شِئْتُمْ﴾، وهذا هو الذي يمنع الأمر أعني قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ﴾، أن يدل على الوجوب إذ لا معنى لإيجاب فعل مع إرجاعه إلى اختيار المكلف ومشيته.

ب. ثم إن تقديم قوله تعالى: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ﴾، على هذا الحكم وكذا التعبير عن النساء ثانيا بالحرث لا يخلو عن الدلالة على أن المراد التوسعة في إتيان النساء من حيث المكان أو الزمان الذي يقصدن منه دون المكان الذي يقصد منهن، فإن كان الإطلاق من حيث المكان فلا تعرض للآية للإطلاق الزماني ولا تعارض له مع قوله تعالى في الآية السابقة: ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾ الآية، وإن كان من حيث الزمان فهو مقيد بآية المحيض، والدليل عليه اشتمال آية المحيض على ما يأبى معه أن ينسخه آية الحرث، وهو دلالة آية المحيض على أن المحيض أذى وأنه السبب لتشريع حرمة إتيانهن في المحيض والمحيض أذى دائما، ودلالتها أيضا على أن تحريم الإتيان في المحيض نوع تطهير من القذارة والله سبحانه يحب التطهر دائما، ويمتن على عباده بتطهيرهم كما قال تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾، ومن المعلوم أن هذا اللسان لا يقبل التقييد بمثل قوله تعالى:

﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾، المشتمل أولا على التوسعة، وهو سبب كان موجودا مع سبب التحريم وعند تشريعه ولم يؤثر شيئا فلا يتصور تأثيره بعد استقرار التشريع وثانيا على مثل التذييل الذي هو قوله تعالى: ﴿وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، ومن هذا البيان يظهر: أن آية الحرث لا تصلح لنسخ آية المحيض سواء تقدمت عليها نزولا أو تأخرت.

ج. محصل معنى الآية: أن نسبة النساء إلى المجتمع الإنساني نسبة الحرث إلى الإنسان فكما أن الحرث يحتاج إليه لإبقاء البذور وتحصيل ما يتغذى به من الزاد لحفظ الحياة وإبقائها كذلك النساء يحتاج إليهن النوع في بقاء النسل ودوام النوع لأن الله سبحانه جعل تكون الإنسان وتصور مادته بصورته في طباع أرحامهن، ثم جعل طبيعة الرجال وفيهم بعض المادة الأصلية مائلة منعطفة إليهن، وجعل بين الفريقين مودة ورحمة، وإذا كان كذلك كان الغرض التكويني من هذا الجعل هو تقديم الوسيلة لبقاء النوع فلا معنى لتقييد هذا العمل بوقت دون وقت، أو محل دون محل إذا كان مما يؤدي إلى ذلك الغرض ولم يزاحم أمرا آخر واجبا في نفسه لا يجوز إهماله وبما ذكرنا يظهر معنى قوله تعالى ﴿وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ﴾

د. من غريب التفسير الاستدلال بقوله تعالى: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ﴾ الآية، على جواز العزل عند الجماع والآية غير ناظرة إلى هذا النوع من الإطلاق، ونظيره تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ﴾، بالتسمية قبل الجماع.

١٠. ﴿وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾:

أ. قد ظهر: أن المراد من قوله ﴿قَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ﴾ وخطاب الرجال أو مجموع الرجال والنساء بذلك الحث على إبقاء النوع بالتناكح والتناسل، والله سبحانه لا يريد من نوع الإنسان وبقائه إلا حياة دينه وظهور توحيده وعبادته بتقويهم العام، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ الذاريات، ٥٦، فلو أمرهم بشيء مما يرتبط بحياتهم وبقائهم فإنما يريد توصلهم بذلك إلى عبادة ربهم لا إخلادهم إلى الأرض وانهماكهم في شهوات البطن والفرج، وتيههم في أودية الغي والغفلة.

ب. فالمراد بقوله: ﴿قَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ﴾ وإن كان هو الاستيلاد وتقدمه أفراد جديدي الوجود والتكون إلى المجتمع الإنساني الذي لا يزال يفقد أفرادا بالموت والفناء، وينقص عدده بمرور الدهر لكن لا لمطلوبيتهم في نفسه بل للتوصل به إلى إبقاء ذكر الله سبحانه ببقاء النسل وحدوث أفراد صالحين ذوي

أعمال صالحة تعود مثوباتها وخيراتها إلى أنفسهم وإلى صالحي آبائهم المتسببين إليهم كما قال تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾

ج. وبهذا الذي ذكرنا يتأيد: أن المراد بتقديمهم لأنفسهم تقديم العمل الصالح ليوم القيامة كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾، وقال تعالى أيضا: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾، فقوله تعالى: ﴿وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ﴾ الآية، مماثل السياق لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، فالمراد (والله أعلم) بقوله تعالى: ﴿وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ﴾ تقديم العمل الصالح، ومنه تقديم الأولاد برجاء صلاحهم للمجتمع، وبقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾، التقوي بالأعمال الصالحة في إتيان الحرث وعدم التعدي عن حدود الله والتفريط في جنب الله وانتهاك محارم الله، وبقوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ﴾ الآية، الأمر بتقوى الله بمعنى الخوف من يوم اللقاء وسوء الحساب كما أن المراد بقوله تعالى في آية الحشر ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ الآية، التقوى بمعنى الخوف، وإطلاق الأمر بالعلم وإرادة لازمه وهو المراقبة والتحفظ والاتقاء شائع في الكلام، قال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ الأنفال، ٢٤، أي اتقوا حيلولته بينكم وبين قلوبكم ولما كان العمل الصالح وخوف يوم الحساب من اللوازم الخاصة بالإيمان ذيل تعالى كلامه بقوله: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، كما صدر آية الحشر بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾

١١. أحاديث وآثار:

أ. أخرج أحمد وعبد بن حميد والدارمي ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة وأبو يعلى وابن المنذر وأبو حاتم والنحاس في ناسخه وأبو حيان والبيهقي في سننه عن أنس: إن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة منهم أخرجوها من البيت، ولم يؤاكلوها، ولم يشاربوها، ولم يجامعوها في البيوت، فسئل رسول الله ﷺ عن ذلك، فأنزل الله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ [البقرة: ٢٢٢] الآية، فقال رسول الله ﷺ: جامعوهن في البيوت، واصنعوا كل شيء إلا النكاح، فبلغ ذلك اليهود، فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئاً إلا خالفنا فيه، فجاء أسيد بن خضير وعباد بن بشر فقالا: يا رسول الله، إن اليهود قالت: كذا وكذا، أفلا نجامعهن؟ فتغير وجه رسول الله ﷺ حتى ظننا

أن قد وجد عليهما، فخرجا، فاستقبلهما هدية من لبن إلى رسول الله ﷺ، فأرسل في أثرهما فسقاهما، فعرفا أنه لم يجد عليهما.

ب. وفي الدر المنثور عن السدي في قوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾، قال: الذي سأل عن ذلك ثابت بن الدحداح.

• أقول: وروي مثله عن مقاتل أيضاً.

ج. وفي التهذيب عن الصادق عليه السلام في حديث في قوله تعالى: ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ﴾ [البقرة: ٢٢٢] الآية، قال عليه السلام: هذا في طلب الولد، فاطلبوا الولد من حيث أمركم الله.

د. وفي الكافي: سئل عن الصادق عليه السلام: ما لصاحب المرأة الحائض منها؟ فقال عليه السلام: كل شيء ما عدا القبل بعينه.

هـ. وفيه أيضاً عنه عليه السلام: في المرأة ينقطع عنها دم الحيض في آخر أيامها، قال عليه السلام: إذا أصاب زوجها شبق، فليأمرها فلتغسل فرجها، ثم يمسها إن شاء قبل أن تغتسل، وفي رواية: والغسل أحب إلي.

• أقول: والروايات في هذه المعاني كثيرة جداً، وهي تؤيد قراءة: ﴿يَطْهُرْنَ﴾ بالتخفيف، وهو انقطاع الدم، كما قيل: إن الفرق بين (يطهرن) و(يتطهرن) أن الثاني قبول الطهارة، ففيه معنى الاختيار، فيناسب الاغتسال، بخلاف الأول فإنه حصول الطهارة، فليس فيه معنى الاختيار، فيناسب الطهارة بانقطاع الدم، والمراد بالتطهر إن كان هو الغسل بفتح الغين، أفاد استحباب ذلك، وإن كان هو الغسل بضم الغين، أفاد استحباب الإتيان بعد الغسل، كما أفاده عليه السلام بقوله: (والغسل أحب إلي)، لا حرمة الإتيان قبله، أعني فيما بين الطهارة والتطهر، لمنافاته كون (يطهرن) غاية مضروبة للنهي، فافهم ذلك.

و. وفي الكافي أيضاً عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، قال: كان الناس يستنجون بالكرسف والأحجار، ثم أحدث الوضوء، وهو خلق كريم، فأمر به رسول الله ﷺ صنعه، فأنزل الله في كتابه: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾

• أقول: والأخبار في هذا المعنى كثيرة، وفي بعضها: إن أول من استنجى بالماء براء بن عازب، فنزلت الآية وجرت به السنة.

ز. وفيه عن سلام بن المستنير قال: كنت عند أبي جعفر عليه السلام، فدخل عليه حمران بن أعين وسأله عن أشياء، فلما هم حمران بالقيام، قال لأبي جعفر عليه السلام: أخبرك أطال الله بقاك وأمتعنا بك: إنا نأتيك فما نخرج من عندك حتى تَرِقَّ قلوبنا، وتسلوا أنفسنا عن الدنيا، وهون علينا ما في أيدي الناس من هذه الأموال، ثم نخرج من عندك، فإذا صرنا مع الناس والتجار، أحببنا الدنيا، قال: فقال أبو جعفر عليه السلام: إنما هي القلوب، مرة تصعب ومرة تسهل، ثم قال أبو جعفر عليه السلام: أما إن أصحاب محمد قالوا: يا رسول الله، نخاف علينا من النفاق؟ قال: فقال ﷺ: ولم تخافون ذلك؟ قالوا: إذا كنا عندك فذكرتنا ورغبتنا، وجلنا ونسينا الدنيا وزهدنا، حتى كنا نعاين الآخرة والجنة والنار ونحن عندك، فإذا خرجنا من عندك ودخلنا هذه البيوت، وشممنا الأولاد، ورأينا العيال والأهل، يكاد أن يحول عن الحالة التي كنا عليها عندك، وحتى كأنا لم نكن على شيء، أفتخاف علينا أن يكون ذلك نفاقاً؟ فقال لهم رسول الله ﷺ: كلا، إن هذه خطوات الشيطان، فيرغبكم في الدنيا، والله لو تدومون على الحالة التي وصفتم أنفسكم بها، لصافحتكم الملائكة، ومشيتم على الماء، ولولا أنكم تذنبون فتستغفرون الله تعالى، لخلق خلقاً حتى يذنبوا فيستغفروا الله تعالى فيغفر لهم، إن المؤمن مفتن تواب، أما سمعت قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ [هود: ٣]

• أقول: وروي مثله العياشي في تفسيره، قوله ﷺ: (لو تدومون على الحالة) إشارة إلى مقام الولاية، وهو الانصراف عن الدنيا والإشراف على ما عند الله سبحانه، وقد مر شطر من الكلام فيها في البحث عن قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ﴾ [البقرة: ١٥٦]

• وقوله ﷺ: (لولا أنكم تذنبون) إشارة إلى سر القدر، وهو انسحاب حكم أسمائه تعالى إلى مرتبة الأفعال وجزئيات الحوادث بحسب ما لمفاهيم الأسماء من الاقتضاءات، وسيجيء الكلام فيه في ذيل قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١]، وسائر آيات القدر.

• وقوله: (أما سمعت قول الله عز وجل: إن الله يحب التوابين) من كلام أبي جعفر عليه السلام، والخطاب لحمران، وفيه تفسير التوبة والتطهر بالرجوع إلى الله تعالى من المعاصي، وإزالة قذارات الذنوب عن النفس، ورينها عن القلب، وهذا من استفادة مراتب الحكم من حكم بعض المراتب، نظير ما ورد في قوله تعالى: ﴿لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٩]، من الاستدلال به على أن علم الكتاب عند المطهرين

من أهل البيت، والاستدلال على حرمة مس كتابة القرآن على غير طهارة.

• وكما أن الخلقة تتنزل آخذة من الخزائن التي عند الله تعالى حتى تنتهي إلى آخر عالم المقادير، على ما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١]، كذلك أحكام المقادير لا تتنزل إلا بالمرور من منازل الحقائق، فافهم ذلك.

• وسيجيء له زيادة توضيح في البحث عن قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ﴾ [آل عمران: ٧]، ومن هنا يستأنس ما مرت إليه الإشارة: أن المراد بالتوبة والتطهر في الآية على ظاهر التنزيل هو الغسل بالماء، فهو إرجاع البدن إلى الله سبحانه بإزالة القذر عنه، ويظهر أيضاً معنى ما تقدم نقله عن تفسير القمي من قوله عليه السلام: أنزل الله على إبراهيم عليه السلام الحنيفية، وهي الطهارة، وهي عشرة أشياء: خمسة في الرأس وخمسة في البدن، فأما التي في الرأس: فأخذ الشارب، وإعفاء اللحى، وطم الشعر، والسواك، والخلال، وأما التي في البدن: فأخذ الشعر من البدن، والختان، وقلم الأظفار، والغسل من الجنابة، والطهور بالماء، وهي الحنيفية الطاهرة التي جاء بها إبراهيم، فلم تنسخ ولا تنسخ إلى يوم القيامة، الحديث، والأخبار في كون هذه الأمور من الطهارة كثيرة، وفيها: إن النورة طهور.

ح. وفي تفسير العياشي في قوله تعالى: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣] الآية، عن معمر بن خلاد عن أبي الحسن الرضا عليه السلام أنه قال: أي شيء تقولون في إتيان النساء في أعجازهن؟ قلت: بلغني أن أهل المدينة لا يرون به بأساً، قال عليه السلام: إن اليهود كانت تقول: إذا أتى الرجل من خلفها، خرج ولده أحول، فأنزل الله: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾، يعني من خلف أو قدام، خلافاً لقول اليهود في أدبارهن.

ط. وفيه عن الصادق عليه السلام في الآية، فقال عليه السلام: من قدامها ومن خلفها في القبل.

ي. وفيه عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن الرجل يأتي أهله في دبرها، فكره ذلك، وقال: وإياكم ومحاش النساء، وقال: إنما معنى ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾، أي ساعة شئتم.

ك. وفيه عن الفتح بن يزيد الجرجاني قال: كتبت إلى الرضا عليه السلام في مثله، فورد الجواب: سألت عمن أتى جارية في دبرها، والمرأة لعبة لا تؤذي، وهي حرث كما قال الله.

• أقول: والروايات في هذه المعاني عن أئمة أهل البيت كثيرة، مروية في الكافي والتهذيب وتفسيري العياشي والقمي، وهي تدل جميعاً: أن الآية لا تدل على أزيد من الإتيان من قدامهن.

• وعلى ذلك يمكن أن يحمل قول الصادق عليه السلام في رواية العياشي عن عبد الله بن أبي يعفور قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن إتيان النساء في أعجازهن، قال: لا بأس، ثم تلا هذه الآية: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾

• أقول: الظاهر أن المراد بالإتيان في أعجازهن هو الإتيان من الخلف في الفرج، والاستدلال بالآية على ذلك، كما يشهد به خبر معمر بن خلاد المتقدم.

ل. أخرج ابن عساكر عن جابر بن عبد الله قال: كانت الأنصار تأتي نساءها مضاجعة، وكانت قريش تشرح شرحاً كثيراً، فتزوج رجل من قريش امرأة من الأنصار، فأراد أن يأتيها، فقالت: لا إلا كما يفعل، فأخبر بذلك رسول الله ﷺ، فأنزل: ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾، أي قائماً وقاعداً ومضطجعاً، بعد أن يكون في صمام واحد.

• أقول: وقد روي في هذا المعنى بعدة طرق عن الصحابة في سبب نزول الآية، وقد مرت الرواية فيه عن الرضا عليه السلام، وقوله: (في صمام واحد) أي في مسلك واحد، كناية عن كون الإتيان في الفرج فقط، فإن الروايات متكاثرة من طرقهم في حرمة الإتيان من أدبار النساء، رووها بطرق كثيرة عن عدة من الصحابة عن النبي ﷺ، وقول أئمة أهل البيت وإن كان هو الجواز على كراهة شديدة، على ما رواه أصحابنا بطرقهم الموصولة إليهم عليهم السلام، إلا أنهم عليهم السلام لم يتمسكوا فيه بقوله تعالى: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ الآية، كما مر بيانه، بل استدلوا عليه بقوله تعالى حكاية عن لوط: ﴿قَالَ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [الحجر: ٧١]، حيث عرض عليهم بناته وهو يعلم أنهم لا يريدون الفروج، ولم ينسخ الحكم بشيء من القرآن.

• والحكم مع ذلك غير متفق عليه فيما رووه من الصحابة، فقد روي عن عبد الله ابن عمر ومالك بن أنس وأبي سعيد الخدري وغيرهم: أنهم كانوا لا يرون به بأساً، وكانوا يستدلون على جوازه بقوله تعالى: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ الآية، حتى أن المنقول عن ابن عمر أن الآية إنما نزلت لبيان جوازه.

م. ففي الدر المنثور عن الدارقطني في غرائب مالك مسنداً عن نافع قال: قال لي ابن عمر: أمسك

علي المصحف يا نافع! فقرأ حتى أتى على: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾، قال لي: تدري يا نافع فيمن نزلت هذه الآية؟ قلت: لا، قال: نزلت في رجل من الأنصار أصاب امرأته في دبرها، فأعظم الناس ذلك، فأنزل الله: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ الآية، قلت له: من دبرها في قبلها؟ قال: لا، إلا في دبرها.

• أقول: وروي في هذا المعنى عن ابن عمر بطرق كثيرة، قال: وقال ابن عبد البر: الرواية بهذا المعنى عن ابن عمر صحيحة معروفة عنه مشهورة.

ن. وفي الدر المنثور أيضاً: أخرج ابن راهويه وأبو يعلى وابن جرير والطحاوي في مشكل الآثار وابن مردويه بسند حسن عن أبي سعيد الخدري: أن رجلاً أصاب امرأته في دبرها، فأنكر الناس عليه ذلك، فأنزلت: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ الآية.

س. وفيه أيضاً: أخرج الخطيب في رواة مالك عن أبي سليمان الجوزجاني قال: سألت مالك بن أنس عن وطء الحلائل في الدبر، فقال لي: الساعة غسلت رأسي عنه.

ع. وفيه أيضاً: أخرج الطحاوي من طريق إصبغ بن الفرج عن عبد الله بن القاسم قال: ما أدركت أحداً أقتدي به في ديني يشك في أنه حلال، يعني وطء المرأة في دبرها، ثم قرأ: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾، ثم قال: فأي شيء أبين من هذا؟

ف. وفي سنن أبي داود عن ابن عباس قال: إن ابن عمر ـ والله يغفر له ـ أوهم، إنما كان هذا الحي من الأنصار وهم أهل وثن، مع هذا الحي من يهود وهم أهل كتاب، وكان يرون لهم فضلاً عليهم في العلم، فكانوا يقتدون بكثير من فعلهم، وكان من أمر أهل الكتاب أن لا يأتوا النساء إلا على حرف، وذلك أثر ما تكون المرأة، وكان هذا الحي من الأنصار قد أخذوا بذلك من فعلهم، وكان هذا الحي من قريش يشرحون النساء شرحاً منكراً، ويتلذذون مقبلات ومدبرات ومستلقيات، فلما قدم المهاجرون المدينة، تزوج رجل منهم امرأة من الأنصار، فذهب يصنع بها ذلك، فأنكرته عليه، فقالت: إنما كنا نؤتى على حرف، فاصنع ذلك، وإلا فاجتنبني، فسرى أمرهما، فبلغ ذلك رسول الله، فأنزل الله عز وجل: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾، أي مقبلات ومدبرات ومستلقيات، يعنى بذلك موضع الولد.

• أقول: ورواه السيوطي في الدر المنثور بطرق أخرى أيضاً عن مجاهد عن ابن عباس.

ص. وفيه أيضاً: أخرج ابن عبد الحكم: أن الشافعي ناظر محمد بن الحسن في ذلك، فاحتج عليه ابن الحسن بأن الحرث إنما يكون في الفرج، فقال له: فيكون ما سوى الفرج محرماً، فالتزمه، فقال: أرأيت لو وطئها بين ساقيها أو في أعكانها (الأعكان: جمع عكنة بضم العين: ما انطوى وثنى من لحم البطن)، أفي ذلك حرث؟ قال: لا، قال: أفيحرم؟ قال: لا، قال: فكيف تحتج بما لا تقولون به؟

ق. وفيه أيضاً: أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال: بينا أنا ومجاهد جالسان عند ابن عباس، إذ أتاه رجل فقال: ألا تشفيني من آية المحيض؟ قال: بلى، فأقرأ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾ إلى قوله: ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، فقال ابن عباس: من حيث جاء الدم، من ثم أمرت أن تأتي، فقال: كيف بالآية: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾؟ فقال: أي، ويحك، وفي الدبر من حرث؟ لو كان ما تقول حقاً، كان المحيض منسوخاً، إذا شغل من ههنا جئت من ههنا، ولكن أنى شئتم من الليل والنهار.

• أقول: واستدلاله كما ترى مدخول، فإن آية المحيض لا تدل على أزيد من حرمة الإتيان من محل الدم عند المحيض، فلو دلت آية الحرث على جواز إتيان الأدبار، لم يكن بينها نسبة تنافي أصلاً حتى يوجب نسخ حكم آية المحيض، على أنك قد عرفت أن آية الحرث أيضاً لا تدل على ما راموه من جواز إتيان الأدبار.

• نعم، يوجد في بعض الروايات المروية عن ابن عباس: الاستدلال على حرمة الإتيان من محاشيهن بالأمر الذي في قوله تعالى: ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ الآية، وقد عرفت فيما مر من البيان أنه من أفسد الاستدلال، وأن الآية تدل على حرمة الإتيان من محل الدم ما لم يطهرن، وهي ساكتة عما دونه، وأن آية الحرث أيضاً غير دالة إلا على التوسعة من حيث الحرث، والمسألة فقهية، إنما اشتغلنا بالبحث عنها بمقدار ما تتعلق بدلالة الآيات.

١٠٠. النهي عن جعل الله عرضة للأيمان وعفو الله عن اللغو فيها:

المقطع [١٠٠] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٤ـ٢٢٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢/ ٢٢٢»:

١. ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا﴾:

أ. العرضة بالضم من العرض وهو كإرائة الشيء للشيء حتى يرى صلوحه لما يريده ويقصده كعرض المال للبيع وعرض المنزل للنزول وعرض الغذاء للأكل، ومنه ما يقال للهدف: أنه عرضة للسهام، وللفتاة الصالحة للازدواج أنها عرضة للنكاح، وللدابة المعدة للسفر أنها عرضة للسفر، وهذا هو الأصل في معناها، وأما العرضة بمعنى المانع المعرض في الطريق وكذا العرضة بمعنى ما ينصب ليكون معرضا لتوارد الواردات وتواليها في الورود كالهدف للسهام حتى يفيد كثرة العوارض إلى غير ذلك من معانيها فهي مما لحقها من موارد استعمالها غير دخيلة في أصل المعنى.

ب. الأيمان جمع يمين بمعنى الحلف مأخوذة من اليمين بمعنى الجارحة لكونهم يضربون بها في الحلف والعهد والبيعة ونحو ذلك فاشتق من آلة العمل اسم للعمل، للملازمة بينها كما يشتق من العمل اسم لآلة العمل كالسبابة للإصبع التي يسب بها.

ج. معنى الآية (والله أعلم): ولا تجعلوا الله عرضة تتعلق بها أيمانكم التي عقدتموها بحلفكم أن لا تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس فإن الله سبحانه لا يرضى أن يجعل اسمه ذريعة للامتناع عما أمر به من البر والتقوى والإصلاح بين الناس، ويؤيد هذا المعنى ما ورد من سبب نزول الآية، وعلى هذا يصير قوله تعالى: ﴿أَنْ تَبَرُّوا﴾ الآية، بتقدير، لا، أي أن لا تبروا، وهو شائع مع أن المصدرية كقوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا﴾، أي أن لا تضلوا أو كراهة أن تضلوا.

د. يمكن أن لا يكون بتقدير، لا، وقوله تعالى: ﴿أَنْ تَبَرُّوا﴾، متعلقا بما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا﴾، من النهي أي ينهاكم الله عن الحلف الكذائي أو يبين لكم حكمه الكذائي أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس، ويمكن أن يكون العرضة بمعنى ما يكثر عليه العرض فيكون نهيا عن الإكثار من الحلف بالله سبحانه، والمعنى لا تكثروا من الحلف بالله فإنكم إن فعلتم ذلك أداكم إلى أن لا تبروا ولا تتقوا ولا تصلحوا بين الناس، فإن الحلاف المكثر من اليمين لا يستعظم ما حلف به ويصغر أمر ما أقسم به لكثرة تناوله فلا يبالي الكذب فيكثر منه هذا عند نفسه، وكذا يهون خطبه وينزل قدره عند الناس لاستشعارهم أنه لا يرى لنفسه عند الناس قدم صدق ويعتقد أنهم لا يصدقونه فيما يقول، ولا أنه يوقر نفسه بالاعتماد عليها، فيكون على حد قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ﴾، والأنسب على هذا المعنى أيضا عدم

تقدير لا في الكلام بل قوله تعالى: ﴿أَنْ تَبَرُّوا﴾ منصوب بنزع الخافض أو مفعول له لما يدل عليه النهي في قوله ﴿وَلَا تَجْعَلُوا﴾، كما مر.

هـ. في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ نوع تهديد على جميع المعاني غير أن المعنى الأول أظهرها كما لا يخفى.

٢. ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ إلى آخر الآية، اللغو من الأفعال ما لا يستتبع أثرا، وأثر الشيء يختلف باختلاف جهاته ومتعلقاته، فلليمين أثر من حيث إنه لفظ، وأثر من حيث إنه مؤكد للكلام، وأثر من حيث إنه عقد وأثر من حيث حنثه ومخالفة مؤداه، وهكذا إلا أن المقابلة في الآية بين عدم المؤاخذة على لغو اليمين وبين المؤاخذة على ما كسبته القلوب وخاصة من حيث اليمين تدل على أن المراد بلغو اليمين ما لا يؤثر في قصد الحالف، وهو اليمين الذي لا يعقد صاحبه على شيء من قول: لا والله وبلى والله.

٣. وضع هنا مبحثا حول [تحقيق معنى الكسب والقلب في القرآن، ومعنى الكسب والاكتساب، والفرق بينهما، ودلالة نسبة الكسب إلى القلب، وتحقيق معنى القلب في القرآن]، خلاصته:

أ. الكسب هو اجتلاب المنافع بالعمل، وأصله في اقتناء ما يرتفع به حوائج الإنسان المادية، ثم استعير لكل ما يجتلبه الإنسان بعمله من خير أو شر، ككسب المدح والفخر، أو كسب اللوم والذم، والذنوب والآثام، والكاسب والمكتسب هو الإنسان لا غير.

ب. الفرق بين الكسب والاكتساب: قيل إن الاكتساب اجتلاب الإنسان المنفعة لنفسه، والكسب أعم مما يكون لنفسه أو لغيره، ككسب العبد لسيده، وكسب الولي للمولى عليه.

ج. الكسب من الشواهد على أن المراد بالقلب هو الإنسان بمعنى النفس والروح، فإن الكسب والاكتساب لا ينسبان إلا إلى الإنسان البتة، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾، وقوله: ﴿وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾

د. سبب إسناد الإدراك والشعور إلى القلب: الإنسان لما رأى أن الشعور والإدراك ربما بطل أو غاب عن الحيوان بإغماء أو صرع، والحياة المدلول عليها بحركة القلب باقية، قطع على أن مبدأ الحياة هو القلب، وأن الروح أول تعلقها بالقلب، وإن سرت منه إلى جميع الأعضاء، فنسب إليها الآثار الروحية كالإحساسات الوجدانية.

هـ. التجارب العلمية تؤيد هذا النظر: الطيور لا تموت بفقد الدماغ، لكنها تفقد الإدراك وتبقى على تلك الحال حتى تموت بفقد المواد الغذائية ووقوف القلب عن ضربانه، والأبحاث العلمية لم توفق حتى اليوم لتشخيص المصدر الذي يصدر عنه الأحكام البدنية.

و. إطلاق القلب على الروح مجاز مستقر: استقر التجوز في الاستعمال فأطلق القلب وأريد به النفس مجازاً، كما تعدوا عنه إلى الصدر فجعلوه لاشتماله على القلب مكاناً لأنحاء الإدراك والأفعال والصفات الروحية.

ز. القرآن استعمل الصدر والقلب في معنى الإدراك: كقوله: ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾، وقوله: ﴿أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ﴾، وقوله: ﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾

ح. ترجيح ابن سينا: رجح الشيخ أبو علي بن سينا كون الإدراك للقلب بمعنى أن دخالة الدماغ فيه دخالة الآلة، فللقلب الإدراك وللدماغ الوساطة.

٤. لا يخلو قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾، عن مجاز عقلي فإن ظاهر الإضراب عن المؤاخذة في بعض أقسام اليمين وهو اللغو إلى بعض آخر أن تتعلق بنفسه ولكن عدل عنه إلى تعليقه بأثره وهو الإثم المترتب عليه عند الحنث ففيه مجاز عقلي وإضراب في إضراب للإشارة إلى أن الله سبحانه لا شغل له إلا بالقلب كما قال تعالى: ﴿إِنْ تُبْدُوا ما فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ﴾، وقال: ﴿وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾

٥. في قوله تعالى: ﴿وَاللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾، إشارة إلى كراهة اللغو من اليمين، فإنه مما لا ينبغي صدوره من المؤمن، وقد قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ إلى أن قال ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾

٦. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير العياشي عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٤] الآية، قال عليه السلام: هو قول الرجل: لا والله، وبلى والله.

ب. وفيه أيضاً عن الباقر والصادق عليهما السلام في الآية: يعني الرجل يحلف أن لا يكلم أخاه وما أشبه ذلك، أو لا يكلم أمه.

ج. وفي الكافي عن الصادق عليه السلام في الآية، قال: إذا دعيت لتصلح بين اثنين، فلا تقل على

يمين أن لا أفعل.

• أقول: والرواية الأولى كما ترى تفسر الآية بأحد المعنيين، والثانية والثالثة بالمعنى الآخر، ويقرب منهما ما في تفسير العياشي أيضاً عن الباقر والصادق عليهما السلام قالا: هو الرجل يصلح بين الرجلين، فيحمل ما بينهما من الإثم، الحديث، فكأن المراد أنه ينبغي أن لا يحلف، بل يصلح ويحمل الإثم، والله يغفر له، فيكون مصداقاً للعامل بالآية.

د. وفي الكافي عن مسعدة عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥] الآية، قال: اللغو قول الرجل: لا والله وبلى والله، ولا يعقد على شيء.

• أقول: وهذا المعنى مروي في الكافي عنه عليه السلام من غير هذا الطريق، وفي المجمع عنه وعن الباقر عليه السلام.

١٠١. الإيلاء وأحكامه:

المقطع [١٠١] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٦-٢٢٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢/ ٢٢٧»:

١. ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ الآية، الإيلاء من الألية بمعنى الحلف، وغلب في الشرع في حلف الزوج أن لا يأتي زوجته غضبا وإضرارا، وهو المراد في الآية، والتربص هو الانتظار، والفيء هو الرجوع، والظاهر أن تعدية الإيلاء بمن لتضمينه معنى الابتعاد ونحوه فيفيد وقوع الحلف على الاجتناب عن المباشرة، ويشعر به تحديد التربص بالأربعة أشهر فإنها الأمد المضروب للمباشرة الواجبة شرعا، ومنه يعلم أن المراد بالعزم على الطلاق العزم مع إيقاعه، ويشعر به أيضا تذييله بقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، فإن السمع إنما يتعلق بالطلاق الواقع لا بالعزم عليه.

٢. في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، دلالة على أن الإيلاء لا عقاب عليه على تقدير الفيء، وأما الكفارة فهي حكم شرعي لا يقبل المغفرة، قال تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ﴾ الآية، فالمعنى أن من آلى من امرأته يتربص له الحاكم أربعة أشهر فإن رجع إلى حق الزوجية وهو المباشرة وكفر وباشر فلا عقاب عليه وإن عزم الطلاق

وأوقعه فهو المخلص الآخر، والله سميع عليم.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي أيضاً عن الباقر والصادق عليهما السلام أنهما قالا: إذا آلى الرجل أن لا يقرب امرأته، فليس لها قول ولا حق في الأربعة أشهر، ولا إثم عليه في الكف عنها في الأربعة أشهفإن مضت الأربعة أشهر قبل أن يمسها، فما سكتت ورضيت، فهو في حل وسعفإن رفعت أمرها، قيل له: إما أن تفيء فتمسها، وإما أن تطلوعزم الطلاق أن يخلي عنها، فإذا حاضت وطهرت طلقها، وهو أحق برجعتها ما لم يمض ثلاثة قروفهذا الإيلاء الذي أنزل الله في كتابه وسنه رسول الل

ب. وفيه أيضاً عن الصادق عليه السلام في حديث: والإيلاء أن يقول: والله لا أجامعك كذا وكذا، أو يقول: والله لأغيظنك، ثم يغاظها، الحديث.

• أقول: وفي خصوصيات الإيلاء وبعض ما يتعلق به خلاف بين العامة والخاصة، والبحث فقهي مذكور في الفقه.

١٠٢. عدة المطلقة وحق الزوج في الرجعة:

المقطع [١٠٢] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢/ ٢٣٠»:

١. ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾:

أ. أصل الطلاق التخلية عن وثاق وتقييد ثم أستعير لتخلية المرأة عن حبالة النكاح وقيد الزوجية ثم صار حقيقة في ذلك بكثرة الاستعمال.

ب. التربص هو الانتظار والحبس، وقد قيد بقوله تعالى: ﴿بِأَنْفُسِهِنَّ﴾، ليدل على معنى التمكين من الرجال فيفيد معنى العدة أعني عدة الطلاق، وهو حبس المرأة نفسها عن الازدواج تحذرا عن اختلاط المياه، ويزيد على معنى العدة الإشارة إلى حكمة التشريع، وهو التحفظ عن اختلاط المياه وفساد الأنساب، ولا يلزم اطراد الحكمة في جميع الموارد فإن القوانين والأحكام إنما تدور مدار المصالح والحكم الغالبة دون

العامة، فقوله تعالى ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ﴾ بمنزله قولنا: يعتددن احترازا من اختلاط المياه وفساد النسل بتمكين الرجال من أنفسهن، والجملة خبر أريد به الإنشاء تأكيدا.

ج. القروء جمع القرء، وهو لفظ يطلق على الطهر والحيض معا، فهو على ما قيل من الأضداد، غير أن الأصل في مادة قرء هو الجمع لكن لا كل جمع بل الجمع الذي يتلوه الصرف والتحويل ونحوه، وعلى هذا فالأظهر أن يكون معناه الطهر لكونه حالة جمع الدم ثم استعمل في الحيض لكونه حالة قذفه بعد الجمع، وبهذه العناية أطلق على الجمع بين الحروف للدلالة على معنى القراءة، وقد صرح أهل اللغة بكون معناه هو الجمع، ويشعر بأن الأصل في مادة قرء الجمع، قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾، وقوله: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ﴾، حيث عبر تعالى في الآيتين بالقرآن، ولم يعبر بالكتاب أو الفرقان أو ما يشبهها، وبه سمي القرآن قرآنا، قال الراغب في مفرداته: والقرء في الحقيقة اسم للدخول في الحيض عن طهر ولما كان اسما جامع للأمرين: الطهر والحيض المتعقب له أطلق على كل واحد لأن كل اسم موضوع لمعنيين معا يطلق على كل واحد منهما إذا انفرد، كالمائدة للخوان والطعام، ثم قد يسمى كل واحد منهما بانفراده به، وليس القرء اسما للطهر مجردا ولا للحيض مجردا، بدليل أن الطاهر التي لم تر أثر الدم لا يقال لها: ذات قرء، وكذا الحائض التي استمر بها الدم لا يقال لها: ذلك.

٢. ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، المراد به تحريم كتمان المطلقة الدم أو الولد استعجالا في خروج العدة أو إضرارا بالزوج في رجوعه ونحو ذلك وفي تقييده بقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ مع عدم اشتراط أصل الحكم بالإيمان نوع ترغيب وحث لمطاوعة الحكم والتثبت عليه لما في هذا التقييد من الإشارة إلى أن هذا الحكم من لوازم الإيمان بالله واليوم الآخر الذي عليه بناء الشريعة الإسلامية فلا استغناء في الإسلام عن هذا الحكم، وهذا نظير قولنا: أحسن معاشرة الناس إن أردت خيرا، وقولنا للمريض: عليك بالحمية إن أردت الشفاء والبرء.

٣. ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾:

أ. البعولة جمع البعل وهو الذكر من الزوجين ما داما زوجين وقد استشعر منه معنى الاستعلاء والقوة والثبات في الشدائد لما أن الرجل كذلك بالنسبة إلى المرأة ثم جعل أصلا يشتق منه الألفاظ بهذا

المعنى فقيل لراكب الدابة بعلها، وللأرض المستعلية بعل، وللصنم بعل، وللنخل إذا عظم بعل ونحو ذلك.

ب. الضمير في بعولتهن للمطلقات إلا أن الحكم خاص بالرجعيات دون مطلق المطلقات الأعم منها ومن البائنات، والمشار إليه بذلك التربص الذي هو بمعنى العدة، والتقييد بقوله إن أرادوا إصلاحا، للدلالة على وجوب أن يكون الرجوع لغرض الإصلاح لا لغرض الإضرار المنهي عنه بعد بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا﴾، الآية.

ج. لفظ ﴿أَحَقُّ﴾ اسم تفضيل حقه أن يتحقق معناه دائما مع مفضل عليه كأن يكون للزوج الأول حق في المطلقة ولسائر الخطاب حق، والزوج الأول أحق بها لسبق الزوجية، غير أن الرد المذكور لا يتحقق معناه إلا مع الزوج الأول، ومن هنا يظهر: أن في الآية تقديرا لطيفا بحسب المعنى، والمعنى وبعولتهن أحق بهن من غيرهم، ويحصل ذلك بالرد والرجوع في أيام العدة، وهذه الأحقية إنما تتحقق في الرجعيات دون البائنات التي لا رجوع فيها، وهذه هي القرينة على أن الحكم مخصوص بالرجعيات، لا أن ضمير بعولتهن راجع إلى بعض المطلقات بنحو الاستخدام أو ما أشبه ذلك، والآية خاصة بحكم المدخول بهن من ذوات الحيض غير الحوامل، وأما غير المدخول بها والصغيرة واليائسة والحامل فلحكمها آيات أخر.

٤. ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾:

أ. المعروف هو الذي يعرفه الناس بالذوق المكتسب من نوع الحياة الاجتماعية المتداولة بينهم، وقد كرر سبحانه المعروف في هذه الآيات فذكره في اثني عشر موضعا اهتماما بأن يجري هذا العمل أعني الطلاق وما يلحق به على سنن الفطرة والسلامة، فالمعروف تتضمن هداية العقل، وحكم الشرع، وفضيلة الخلق الحسن وسنن الأدب.

ب. حيث بنى الإسلام شريعته على أساس الفطرة والخلقة كان المعروف عنده هو الذي يعرفه الناس إذا سلكوا مسلك الفطرة ولم يتعدوا طور الخلقة، ومن أحكام الاجتماع المبني على أساس الفطرة أن يتساوى في الحكم أفراده وأجزاؤه فيكون ما عليهم مثل ما لهم إلا أن ذلك التساوي إنما هو مع حفظ ما لكل من الأفراد من الوزن في الاجتماع والتأثير والكمال في شئون الحياة فيحفظ للحاكم حكومته، وللمحكوم محكوميته، وللعالم علمه، وللجاهل حاله، وللقوي من حيث العمل قوته، وللضعيف ضعفه

ثم يبسط التساوي بينها بإعطاء كل ذي حق حقه، وعلى هذا جرى الإسلام في الأحكام المجعولة للمرأة وعلى المرأة فجعل لها مثل ما جعل عليها مع حفظ ما لها من الوزن في الحياة الاجتماعية في اجتماعها مع الرجل للتناكح والتناسل، والإسلام يرى في ذلك أن للرجال عليهن درجة، والدرجة المنزلة.

٥. من هنا يظهر: أن قوله تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾، قيد متمم للجملة السابقة، والمراد بالجميع معنى واحد وهو: أن النساء أو المطلقات قد سوى الله بينهن وبين الرجال مع حفظ ما للرجال من الدرجة عليهن فجعل لهن مثل ما عليهن، من الحكم.

٦. وضع هنا مبحثا حول [المرأة في الإسلام: هويتها، وزنها الاجتماعي، وأحكامها بين الفطرة والمدنية الغربية]، خلاصته:

أ. الإسلام لم يبن شرائعه على التجارب، لكننا نحتاج للرجوع إلى التاريخ لمعرفة موقفه من المرأة ومقارنته بالآخرين.

ب. المرأة في الأمم غير المتمدنة كانت كالحيوان الأهلي، تُباع وتُوهب وتُقتل، ولا حقوق لها إلا ما يراه الرجل.

ج. في الأمم المتمدنة قبل الإسلام (كالهند والصين وإيران والروم)، كانت المرأة تحت الولاية والقيمومة، محرومة من الاستقلال، وممنوعة من التصرف في المال والإرث والزواج.

د. الإسلام أبدع في حق المرأة: ساوى بينها وبين الرجل في الإنسانية، وجعل الفضل بالتقوى، وأعطاها الاستقلال في الإرادة والعمل، وحررها من القيود.

هـ. وزن المرأة الاجتماعي في الإسلام: مساوية للرجل في التكليف والثواب، ولها الاستقلال في الكسب والإرث والتعليم وسائر الحقوق، مع مراعاة خصوصياتها التكوينية (ككونها حرثاً للنوع، ولطافة البنية)

و. الأحكام المختصة بالمرأة: نصف سهم الرجل في الإرث، والحجاب، وطاعة الزوج في التمتع، وحضانة الأولاد، وإعفاؤها من بعض العبادات في الحيض والنفاس.

ز. أساس الأحكام هو الفطرة، والتفريق بين الرجل والمرأة في بعض الوظائف (كالولاية والقتال والقضاء) راجع إلى غلبة التعقل عند الرجل، وغلبة الإحساس عند المرأة.

ح. المدنية الغربية قلدت الإسلام في تحرير المرأة لكنها أساءت التقليد، وساوت بينهما مع وجود الفروق التكوينية، والإحصاءات تثبت تقدم الرجال في مجالات الولاية والقضاء والقتال.

٧. وضع هنا مبحثا حول [النكاح والطلاق في الإسلام: الأساس الفطري ومقارنته بالقوانين الوضعية]، خلاصته:

أ. النكاح من أصول الأعمال الاجتماعية، ولا بد له من أصل طبيعي ترجع إليه ابتداءً أو بالآخرة.

ب. الإسلام وضع النكاح على أساس خلقة الفحولة والأنوثة، والتجهيز المتقابل في الرجل والمرأة لا غاية له إلا توليد المثل وإبقاء النوع.

ج. القوانين الوضعية الحاضرة وضعت النكاح على أساس تشريك الزوجين مساعيهما في الحياة، وهذا لا ينطبق على أساس الخلقة والفطرة، لأنه انحراف عن الاقتضاء الطبيعي للتناسل.

د. لو كان الازدواج على أساس التعاون فقط، لأدى إلى إبطال فضيلة العفة، وإبطال أحكام الأنساب والمواريث، كما التزمته الشيوعية.

هـ. الطلاق من مفاخر الشريعة الإسلامية، وقد وضع جوازه على الفطرة، إذ لا دليل من الفطرة يدل على المنع عنه.

و. الأمم المعظمة اليوم اضطرت إلى إدخال الطلاق في قوانينها المدنية بعد أن كان غير موجود.

٨. أحاديث وآثار:

أ. في سنن أبي داود عن أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية قالت: طلقت على عهد رسول الله ﷺ، ولم يكن للمطلقة عدة، فأنزل حين طلقت العدة للطلاق: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، فكانت أول من أنزلت فيها العدة للطلاق.

ب. وفي تفسير العياشي في قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾، عن زرارة قال: سمعت ربيعة الرأي وهو يقول: إن من رأيي أن الأقراء التي سمى الله في القرآن إنما هي الطهر فيما بين الحيضتين، وليس بالحيض، قال: فدخلت على أبي جعفر عليه السلام فحدثته بما قال ربيعة، فقال: ولم يقل برأيه، إنما بلغه عن علي عليه السلام، فقلت: أصلحك الله، أكان علي عليه السلام يقول ذلك؟ قال: نعم، كان يقول: إنما القرء الطهر، تقرأ فيه الدم فتجمعه، فإذا جاءت دفعته، قلت: أصلحك الله، رجل

طلق امرأته طاهراً غير جماع بشهادة عدلين؟ قال: إذا دخلت في الحيضة الثالثة فقد انقضت عدتها، وحلت للأزواج، الحديث.

• أقول: هذا المعنى مروي بعدة طرق عنه عليه السلام، وقوله: (قلت: أصلحك الله، أكان علي عليه السلام يقول ذلك) إنما استفهم ذلك بعد قوله عليه السلام: (إنما بلغه عن علي)، لما اشتهر بين العامة عن علي أنه كان يقول: إن الأقراء في الآية هي الحيض دون الأطهار، كما في الدر المنثور عن الشافعي وعبد الرزاق وعبد بن حميد والبيهقي عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: تحل لزوجها الرجعة عليها حتى تغتسل من الحيضة الثالثة، وتحل للأزواج، لكن أئمة أهل البيت ينكرون ذلك، وينسبون إليه عليه السلام أن الأقراء الأطهار دون الحيض، كما مر في الرواية، وقد نسبوا هذا القول إلى عدة أخرى من الصحابة غيره عليه السلام، كزيد بن ثابت وعبد الله بن عمر وعائشة، ورووه عنهم.

١٠٣. الطلاق مرتان ثم إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان:

المقطع [١٠٣] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢/ ٢٣٤»:

١. ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾:

أ. المرة بمعنى الدفعة مأخوذة من المرور للدلالة على الواحد من الفعل كما أن الدفعة والكرة والنزلة مثلها وزنا ومعنى واعتبارا، والتسريح أصله الإطلاق في الرعي مأخوذ من سرحت الإبل وهو أن ترعيه السرح، وهو شجر له ثمر يرعاه الإبل، وقد أستعير في الآية لإطلاق المطلقة بمعنى عدم الرجوع إليها في العدة، والتخلية عنها حتى تنقضي عدتها على ما سيجيء.

ب. المراد بالطلاق في قوله تعالى: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ﴾، الطلاق الذي يجوز فيه الرجعة ولذا أردفه بقوله بعد: ﴿فَإِمْسَاكٌ﴾ الآية، وأما الثالث فالطلاق الذي يدل عليه قوله تعالى: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ الآية.

ج. المراد بتسريحها بإحسان ظاهرا التخلية بينها وبين البينونة وتركها بعد كل من التطليقتين

الأولين حتى تبين بانقضاء العدة وإن كان الأظهر أنه التطليقة الثالثة كما هو ظاهر الإطلاق في تفريع قوله تعالى: ﴿فَإِمْسَاكٌ﴾ الآية، وعلى هذا فيكون قوله تعالى بعد: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا﴾ الآية، بيانا تفصيليا للتسريح بعد البيان الإجمالي.

د. في تقييد الإمساك بالمعروف والتسريح بالإحسان من لطيف العناية ما لا يخفى، فإن الإمساك والرد إلى حبالة الزوجية ربما كان للإضرار بها وهو منكر غير معروف، كمن يطلق امرأته ثم يخليها حتى تبلغ أجلها فيرجع إليها ثم يطلق ثم يرجع كذلك، يريد بذلك إيذاءها والإضرار بها وهو إضرار منكر غير معروف في هذه الشريعة منهي عنه، بل الإمساك الذي يجوزه الشرع أن يرجع إليها بنوع من أنواع الالتيام، ويتم به الأنس وسكون النفس الذي جعله الله تعالى بين الرجل والمرأة.

هـ. وكذلك التسريح ربما كان على وجه منكر غير معروف يعمل فيه عوامل السخط والغضب، ويتصور بصورة الانتقام، والذي يجوزه هذه الشريعة أن يكون تسريحا بنوع يتعارفه الناس ولا ينكره الشرع، وهو التسريح بالمعروف كما قال تعالى في الآية الآتية: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾، وهذا التعبير هو الأصل في إفادة المطلوب الذي ذكرناه، وأما ما في هذه الآية ﴿أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾، حيث قيد التسريح بالإحسان وهو معنى زائد على المعروف فذلك لكون الجملة ملحوقة بما يوجب ذلك أعني قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا﴾

و. بيانه: أن التقييد بالمعروف والإحسان لنفي ما يوجب فساد الحكم المشرع المقصود، والمطلوب بتقييد الإمساك بالمعروف نفي الإمساك الواقع على نحو المضارة كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا﴾، والمطلوب في مورد التسريح نفي أن يأخذ الزوج بعض ما آتاه للزوجة من المهر، ولا يكفي فيه تقييد التسريح بالمعروف كما فعل في الآية الآتية فإن مطالبة الزوج بعض ما آتاه زوجته وأخذه ربما لم ينكره التعارف الدائر بين الناس فزيد في تقييده بالإحسان في هذه الآية دون الآية الآتية ليستقيم قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا﴾، وليتدارك بذلك ما يفوت المرأة من مزية الحياة التي في الزوجية والالتيام النكاحي، ولو قيل: (أو تسريح بمعروف ولا يحل لكم)، فاتت النكتة.

٢. ﴿إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾، الخوف هو الغلبة على ظنهما أن لا يقيما حدود الله، وهي أوامره ونواهيه من الواجبات والمحرمات في الدين، وذلك إنما يكون بتباعد أخلاقهما وما يستوجبه

حوائجهما والتباغض المتولد بينهما من ذلك.

٣. ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾، العدول عن التثنية إلى الجمع في قوله تعالى: ﴿خِفْتُمْ﴾، كأنه للإشارة إلى لزوم أن يكون الخوف خوفا يعرفه العرف والعادة، لا ما ربما يحصل بالتهوس والتلهي أو بالوسوسة ونحوها، ولذلك عدل أيضا عن الإضمار فقيل ﴿أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾، ولم يقل فإن خفتم ذلك لمكان اللبس، وأما نفي الجناح عنهما مع أن النهي في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا﴾ الآية، إنما تعلق بالزوج فلأن حرمة الأخذ على الزوج توجب حرمة الإعطاء على الزوجة من باب الإعانة على الإثم والعدوان إلا في طلاق الخلع فيجوز توافقهما على الطلاق مع الفدية، فلا جناح على الزوج أن يأخذ الفدية، ولا جناح على الزوجة أن تعطي الفدية وتعين على الأخذ فلا جناح عليهما فيما افتدت به.

٤. ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ﴾ الآية، المشار إليه هي المعارف المذكورة في الآيتين وهي أحكام فقهية مشوبة بمسائل أخلاقية، وأخرى علمية مبتنية على معارف أصلية، والاعتداء والتعدي هو التجاوز.

٥. ربما استشعر من الآية عدم جواز التفرقة بين الأحكام الفقهية والأصول الأخلاقية، والاقتصار في العمل بمجرد الأحكام الفقهية والجمود على الظواهر والتقشف فيها، فإن في ذلك إبطالا لمصالح التشريع وإماتة لغرض الدين وسعادة الحياة الإنسانية فإن الإسلام كما مر مرارا دين الفعل دون القول، وشريعة العمل دون الفرض، ولم يبلغ المسلمون إلى ما بلغوا من الانحطاط والسقوط إلا بالاقتصار على أجساد الأحكام والإعراض عن روحها وباطن أمرها، ويدل على ذلك ما سيأتي من قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾

٦. في الآية التفات عن خطاب الجمع في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ إلى خطاب المفرد في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾، ثم إلى الجمع في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾، ثم إلى المفرد في قوله تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ فيفيد تنشيط ذهن المخاطب وتنبيهه للتيقظ ورفع الكسل في الإصغاء.

٧. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ﴾ [البقرة: ٢٢٨] الآية: الحبل والحيض.

ب. وفي تفسير القمي: وقد فوض الله إلى النساء ثلاثة أشياء: الطهر والحيض والحبل.

ج. وفي تفسير القمي أيضاً في قوله تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، قال: قال عليه السلام: حق الرجال على النساء أفضل من حق النساء على الرجال.

• أقول: وهذا لا ينافي التساوي من حيث وضع الحقوق، كما مر.

د. وفي تفسير العياشي في قوله تعالى: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، عن أبي جعفر عليه السلام قال: إن الله يقول: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾، والتسريح بالإحسان هو التطليقة الثالثة.

هـ. وفي التهذيب عن أبي جعفر عليه السلام قال: طلاق السنة: يطلقها تطليقة، يعني على طهر من غير جماع بشهادة شاهدين، ثم يدعها حتى تمضي أقراؤها، فإذا مضت أقراؤها فقد بانت منه، وهو خاطب من الخطاب: إن شاءت نكحته، وإن شاءت فلا، وإن أراد أن يراجعها، أشهد على رجعتها قبل أن تمضي أقراؤها، فتكون عنده على التطليقة الماضية، الحديث.

و. وفي الفقيه عن الحسن بن فضال قال: سألت الرضا عليه السلام عن العلة التي من أجلها لا تحل المطلقة لعدتها لزوجها حتى تنكح زوجاً غيره، فقال عليه السلام: إن الله عز وجل إنما أذن في الطلاق مرتين، فقال عز وجل: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾، يعني في التطليقة الثالثة، ولدخوله فيما كره الله عز وجل من الطلاق الذي حرمها عليه، فلا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره، لئلا يوقع الناس في الاستخفاف بالطلاق، ولا تضار النساء، الحديث.

• أقول: مذهب أئمة أهل البيت: أن الطلاق بلفظ واحد أو في مجلس واحد لا يقع إلا تطليقة واحدة، وإن قال: (طلقتك ثلاثاً) على ما رواه الشيعة، وأما أهل السنة والجماعة، فرواياتهم فيه مختلفة: بعضها يدل على وقوعه طلاقاً واحداً، وبعضها يدل على وقوع الثلاثة، وربما رووا ذلك عن علي وجعفر بن محمد عليهما السلام، لكن يظهر من بعض رواياتهم التي رواها أرباب الصحاح كمسلم والنسائي وأبي داود وغيرهم: أن وقوع الثلاث بلفظ واحد مما أجازه عمر بعد مضي سنتين أو ثلاثة من خلافته، ففي الدر

المنثور: أخرج عبد الرزاق ومسلم وأبو داود والنسائي والحاكم والبيهقي عن ابن عباس قال: كان الطلاق على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وسنتين من خلافة عمر طلاق الثلاث واحداً، فقال عمر بن الخطاب: إن الناس قد استعجلوا في أمر كان لهم فيه أناة، فلو أمضيناه عليهم، فأمضاه عليهم.

ز. وفي سنن أبي داود عن ابن عباس قال: طلق عبد يزيد أبو ركانة أم ركانة، ونكح امرأة من مزينة، فجاءت النبي ﷺ فقالت: ما يغني عني إلا كما تغني هذه الشعرة لشعرة أخذتها من رأسها، ففرق بيني وبينه، فأخذت النبي ﷺ حمية، فدعا بركانة وإخوته، ثم قال لجلسائه: أترون فلاناً يشبه منه كذا وكذا، وفلان منه كذا وكذا؟ قالوا: نعم، قال النبي ﷺ لعبد يزيد: طلقها، ففعل، قال: راجع امرأتك أم ركانة، فقال: إني طلقتها ثلاثاً يا رسول الله، قال: قد علمت، ارجعها، وتلا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ١]

ح. وفي الدر المنثور عن البيهقي عن ابن عباس قال: طلق ركانة امرأة ثلاثاً في مجلس واحد، فحزن عليها حزناً شديداً، فسأله رسول الله ﷺ: كيف طلقتها؟ قال: طلقتها ثلاثاً في مجلس واحد، قال: نعم، فإنما تلك واحدة، فارجعها إن شئت، فراجعها، فكان ابن عباس يرى: إنما الطلاق عند كل طهر، فتلك السنة التي أمر الله بها: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ١]

• أقول: وهذا المعنى مروي في روايات أخرى أيضاً، والكلام على هذه الإجازة نظير الكلام المتقدم في متعة الحج، وقد استدل على عدم وقوع الثلاث بلفظ واحد بقوله تعالى: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ﴾، فإن المرتين والثلاث لا يصدق على ما أنشئ بلفظ واحد، كما في مورد اللعان بإجماع الكل.

ط. وفي المجمع في قوله تعالى: ﴿أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، قال: فيه قولان: أحدهما: أنه الطلقة الثالثة، والثاني: أنه يترك المعتدة حتى تبين بانقضاء العدة، عن السدي والضحاك، وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام.

• أقول: والأخبار كما ترى تختلف في معنى قوله: ﴿أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾

ي. وفي تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَن يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٢٩] الآية، عن الصادق عليه السلام قال: الخلع لا يكون إلا أن تقول المرأة لزوجها: لا أبر لك قسماً، ولأخرجن بغير إذنك، ولأوطئن فراشك غيرك، ولا أغتسل لك من جنابة، أو

تقول: لا أطيع لك أمراً، أو تطلقني، فإذا قالت ذلك، فقد حل له أن يأخذ منها جميع ما أعطاها، وكل ما قدر عليه مما تعطيه من مالها، فإذا تراضيا على ذلك، طلقها على طهر بشهود، فقد بانت منه بواحدة، وهو خاطب من الخطاب، فإن شاءت زوجته نفسها، وإن شاءت لم تفعل، فإن زوجها، فهي عنده على اثنتين باقيتين، وينبغي له أن يشترط عليها، كما اشترط صاحب المباراة: (فإذا ارتجعت في شيء مما أعطيتني، فأنا أملك ببضعك)، وقال عليه السلام: لا خلع ولا مباراة ولا تخيير إلا على طهر من غير جماع بشهادة شاهدين عدلين، والمختلعة إذا تزوجت زوجاً آخر ثم طلقها، يحل للأول أن يتزوج بها، وقال: لا رجعة للزوج على المختلعة ولا على المباراة إلا أن يبدو للمرأة، فيرد عليها ما أخذ منها.

ك. وفي الفقيه عن الباقر عليه السلام قال: إذا قالت المرأة لزوجها جملة: لا أطيع لك أمراً، مفسرة أو غير مفسرة، حل له أن يأخذ منها، وليس له عليها رجعة.

ل. أخرج أحمد عن سهل بن أبي حثمة قال: كانت حبيبة بنت سهل تحت ثابت بن قيس بن شماس، فكرهته وكان رجلاً دميماً، فجاءت وقالت: يا رسول الله، إني لا أراه، فلولا مخافة الله لبزقت في وجهه، فقال لها: أتردين عليه حديقته التي أصدقك؟ قالت: نعم، فردت عليه حديقته، وفرق بينهما، فكان ذلك أول خلع كان في الإسلام.

م. وفي تفسير العياشي عن الباقر عليه السلام في قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة: ٢٢٩] الآية، فقال: إن الله غضب على الزاني فجعل له مائة جلدة، فمن غضب عليه فزاد، فأنا إلى الله منه بريء، فذلك قوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾

ن. وفي الكافي عن أبي بصير قال: المرأة التي لا تحل لزوجها حتى تنكح زوجاً غيره، قال: هي التي تطلق ثم تراجع، ثم تطلق الثالثة، وهي التي لا تحل لزوجها حتى تنكح زوجاً غيره، ويذوق عسيلتها.

• أقول: العسيلة: الجماع، قال في الصحاح: (وفي الجماع العسيلة، شبهت تلك اللذة بالعسل، وصغرت بالهاء لأن الغالب في العسل التأنيث، ويقال: إنما أنث لأنه أريد به العسلة وهي القطعة منه، كما يقال للقطعة من الذهب: ذهبة)، انتهى، وقوله عليه السلام: (ويذوق عسيلتها) كالاقتباس من كلمة رسول الله: (لا حتى تذوقي عسيلته ويذوق عسيلتك) في قصة رفاعة، ففي الدر المنثور عن البزاز والطبراني والبيهقي: أن رفاعة بن سموأل طلق امرأته، فأتت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، قد تزوجني عبد الرحمن،

وما معه إلا مثل هذه، وأومأت إلى هدبة من ثوبها، فجعل رسول الله يعرض عن كلامها، ثم قال لها: تريدين أن ترجعي إلى رفاعة؟ لا، حتى تذوقي عسيلته ويذوق عسيلتك.

• أقول: والرواية من المشهورات، رواها جمع كثير من الرواة من أرباب الصحاح وغيرهم من طرق أهل السنة والجماعة وبعض الخاصة، وألفاظ الروايات وإن كانت مختلفة، لكن أكثرها تشتمل على هذه اللفظة.

١٠٤. الطلاق البائن وحكم الرجوع للزوجة:

المقطع [١٠٤] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢/ ٢٣٦»:

١. ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ إلى آخر الآية:

أ. بيان لحكم التطليقة الثالثة وهو الحرمة حتى تنكح زوجا غيره، وقد نفى الحل عن نفس الزوجة مع أن المحرم إنما هو عقدها أو وطؤها ليدل به على تعلق الحرمة بها جميعا، وليشعر قوله تعالى: ﴿حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾، على العقد والوطء جميعا، فإن طلقها الزوج الثاني فلا جناح عليهما أي على المرأة والزوج الأول أن يتراجعا إلى الزوجية بالعقد بالتوافق من الجانبين، وهو التراجع، وليس بالرجوع الذي كان حقا للزوج في التطليقتين الأولين، وذلك إن ظنا أن يقيما حدود الله.

ب. وضع الظاهر موضع المضمر في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ﴾، لأن المراد بالحدود غير الحدود، وفي الآية من عجيب الإيجاز ما يبهت العقل، فإن الكلام على قصره مشتمل على أربعة عشر ضميرا مع اختلاف مراجعها واختلاطها من غير أن يوجب تعقيدا في الكلام، ولا إغلاقا في الفهم.

٢. اشتملت هذه الآية والتي قبلها على عدد كثير من الأسماء المنكرة والكنايات من غير رداءة في السياق كقوله تعالى: ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾، أربعة أسماء منكرة، وقوله تعالى: ﴿مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا﴾ كنى به عن المهر، وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾، كنى به عن وجوب كون الخوف جاريا على مجرى العادة المعروفة، وقوله تعالى: ﴿فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾، كنى به عن مال الخلع، وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا﴾، أريد به التطليقة الثالثة، وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُ﴾، أريد به تحريم العقد والوطء، وقوله تعالى:

﴿حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾، أريد به العقد والوطء معا كناية مؤدبة، وقوله تعالى: ﴿أَنْ يَتَرَاجَعَا﴾، كنى به عن العقد.

٣. في الآيتين حسن المقابلة بين الإمساك والتسريح، وبين قوله ﴿أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِّ﴾ وبين قوله تعالى: ﴿إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللهِّ﴾، والتفنن في التعبير في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ﴾

٤. أحاديث وآثار:

أ. في التهذيب عن الصادق عليه السلام عن تزويج المتعة: أيحلل؟ قال: لا، لأن الله يقول: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا﴾ [البقرة: ٢٣٠]، والمتعة ليس فيه طلاق.

ب. وفيه أيضاً عن محمد بن مضارب قال: سئلت الرضا عليه السلام عن الخصي يحلل؟ قال: لا يحلل.

وفي تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا﴾ [البقرة: ٢٣١] الآية، قال: قال عليه السلام: إذا طلقها، لم يجز له أن يراجعها إن لم يردها.

١٠٥. إمساك المطلقة بمعروف أو تسريحها والنهي عن الضرار:

المقطع [١٠٥] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللهَّ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهَّ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللهَّ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَّ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢/ ٢٣٧»:

١. ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿لِتَعْتَدُوا﴾، المراد ببلوغ الأجل الإشراف على انقضاء العدة فإن البلوغ كما يستعمل في الوصول إلى الغاية كذلك يستعمل في الاقتراب منها، والدليل على أن المراد به ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾، إذ لا معنى للإمساك ولا التسريح بعد انقضاء العدة وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا﴾، نهى عن الرجوع بقصد المضارة كما نهى عن التسريح بالأخذ من المهر في غير الخلع.

٢. ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ إلى آخر الآية:

أ. إشارة إلى حكمة النهي عن الإمساك للمضارة فإن التزوج لتتميم سعادة الحياة، ولا يتم ذلك إلا بسكون كل من الزوجين إلى الآخر وإعانته في رفع حوائج الغرائز، والإمساك خاصة رجوع إلى الاتصال والاجتماع بعد الانفصال والافتراق، وفيه جمع الشمل بعد شتاته، وأين ذلك من الرجوع بقصد المضارة، فمن يفعل ذلك أي أمسك ضرارا فقد ظلم نفسه حيث حملها على الانحراف عن الطريقة التي تهدي إليها فطرته الإنسانية.

ب. على أنه اتخذ آيات الله هزوا يستهزئ بها فإن الله سبحانه لم يشرع ما شرعه لهم من الأحكام تشريعا جامدا يقتصر فيه على أجرام الأفعال أخذا وإعطاء وإمساكا وتسريحا وغير ذلك، بل بناها على مصالح عامة يصلح بها فاسد الاجتماع، ويتم بها سعادة الحياة الإنسانية، وخلطها بأخلاق فاضلة تتربى بها النفوس، وتطهر بها الأرواح، وتصفو بها المعارف العالية: من التوحيد والولاية وسائر الاعتقادات الزاكية، فمن اقتصر في دينه على ظواهر الأحكام ونبذ غيرها وراء ظهره فقد اتخذ آيات الله هزوا.

٣. المراد بالنعمة في قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾:

أ. نعمة الدين أو حقيقة الدين وهي السعادة التي تنال بالعمل بشرائع الدين كسعادة الحياة المختصة بتألف الزوجين، فإن الله تعالى سمى السعادة الدينية نعمة كما في قوله تعالى: ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾، وقوله: ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾، وقوله: ﴿فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾، وعلى هذا يكون قوله تعالى بعده: ﴿وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ﴾، كالمفسر لهذه النعمة، ويكون المراد بالكتاب والحكمة ظاهر الشريعة وباطنها أعني أحكامها وحكمها.

ب. يمكن أن يكون المراد بالنعمة مطلق النعم الإلهية، التكوينية وغيرها فيكون المعنى: اذكروا حقيقة معنى حياتكم وخاصة المزايا ومحاسن التألف والسكونة بين الزوجين وما بينه الله تعالى لكم بلسان الوعظ من المعارف المتعلقة بها في ظاهر الأحكام وحكمها فإنكم إن تأملتم ذلك أوشك أن تلزموا صراط السعادة، ولا تفسدوا كمال حياتكم ونعمة وجودكم، واتقوا الله ولتتوجه نفوسكم إلى أن الله بكل شيء عليم، حتى لا يخالف ظاهركم باطنكم، ولا تجترؤوا على الله بهدم باطن الدين في صورة تعمير ظاهره.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في الفقيه عن الصادق عليه السلام قال: لا ينبغي للرجل أن يطلق امرأته ثم يراجعها، وليس له فيها حاجة، ثم يطلقها، فهذا الضرار الذي نهى الله عنه، إلا أن يطلق ثم يراجع وهو ينوي الإمساك.

ب. وفي تفسير العياشي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾ [البقرة: ٢٣١] الآية، عن عمر ابن الجميع رفعه إلى أمير المؤمنين عليه السلام في حديث، قال: ومن قرأ القرآن من هذه الأمة ثم دخل النار، فهو ممن كان يتخذ آيات الله هزواً، الحديث.

١٠٦. النهي عن عضل المطلقات عن الزواج إذا تراضوا بالمعروف:

المقطع [١٠٦] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢/ ٢٣٨»:

١. ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾:

أ. العضل المنع، والظاهر أن الخطاب في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾، لأوليائهن ومن يجري مجراهم ممن لا يسعهن مخالفته، والمراد بأزواجهن، الأزواج قبل الطلاق، فالآية تدل على نهي الأولياء ومن يجري مجراهم عن منع المرأة أن تنكح زوجها ثانيا بعد انقضاء العدة سخطا ولجاجا كما يتفق كثيرا، ولا دلالة في ذلك على أن العقد لا يصح إلا بولي:

• أما أولا: فلأن قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾، لو لم يدل على عدم تأثير الولاية في ذلك لم يدل على تأثيره.

• وأما ثانيا: فلأن اختصاص الخطاب بالأولياء فقط لا دليل عليه بل الظاهر أنه أعم منهم، وأن النهي نهي إرشادي إلى ما يترتب على هذا الرجوع من المصالح والمنافع كما قال تعالى: ﴿ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾

ب. ربما قيل: إن الخطاب للأزواج جريا على ما جرى به قوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾، والمعنى: وإذا طلقتم النساء يا أيها الأزواج فانقضت عدتهن فلا تمنعوهن أن ينكحن أزواجا يكونون أزواجهن، وذلك بأن يخفى عنهن الطلاق لتضار بطول العدة ونحو ذلك، وهذا الوجه لا يلائم قوله تعالى:

﴿أَزْوَاجَهُنَّ﴾، فإن التعبير المناسب لهذا المعنى أن يقال: أن ينكحن أو أن ينكحن أزواجا وهو ظاهر.

٢. المراد بقوله تعالى: ﴿فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾، انقضاء العدة، فإن العدة لو لم تنقض لم يكن لأحد من الأولياء وغيرهم أن يمنع ذلك وبعولتهن أحق بردهن في ذلك، على أن قوله تعالى: ﴿أَنْ يَنْكِحْنَ﴾، دون أن يقال: يرجعن ونحوه ينافي ذلك.

٣. ﴿ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ كقوله فيما مر ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ الآية، وإنما خص الموردان من بين الموارد بالتقييد بالإيمان بالله واليوم الآخر، وهو التوحيد، لأن دين التوحيد يدعو إلى الاتحاد دون الافتراق، ويقضي بالوصل دون الفصل.

٤. في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ﴾ التفات إلى خطاب المفرد عن خطاب الجمع ثم التفات عن خطاب المفرد إلى خطاب الجمع، والأصل في هذا الكلام خطاب المجموع أعني خطاب رسول الله ﷺ وأمته جميعا لكن ربما التفت إلى خطاب الرسول ﷺ وحده في غير جهات الأحكام كقوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾، وقوله ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾، وقوله: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ وقوله: ﴿ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾، حفظا لقوام الخطاب، ورعاية لحال من هو ركن في هذه المخاطبة وهو رسول الله ﷺ فإنه هو المخاطب بالكلام من غير واسطة، وغيره فمخاطب بوساطته، وأما الخطابات المشتملة على الأحكام فجميعها موجهة نحو المجموع، ويرجع حقيقة هذا النوع من الالتفات الكلامي إلى توسعة الخطاب بعد تضييقه وتضييقه بعد توسعته فليتدبر فيه.

٥. ﴿ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾، الزكاة هو النمو الصالح الطيب، وقد مر الكلام في معنى الطهارة، والمشار إليه بقوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ﴾ عدم المنع عن رجوعهن إلى أزواجهن، أو نفس رجوعهن إلى أزواجهن، والمآل واحد، وذلك أن فيه رجوعا من الانثلام والانفصال إلى الالتيام والاتصال، وتقوية لغريزة التوحيد في النفوس فينمو على ذلك جميع الفضائل الدينية، وفيه تربية لملكة العفة والحياء فيهن وهو أستر لهن وأطهر لنفوسهن، ومن جهة أخرى فيه حفظ قلوبهن عن الوقوع على الأجانب إذا منعن عن نكاح أزواجهن، والإسلام دين الزكاة والطهارة والعلم، قال تعالى: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ آل عمران، ١٦٤، وقال تعالى: ﴿وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾

٦. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، أي إلا ما يعلمكم كما قال تعالى، ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾، فلا تنافي بين هذه الآية وبين قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ الآية أي يعلمون بتعليم الله.

٧. أحاديث وآثار:

أ. في صحيح البخاري في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣١] الآية: أن أخت معقل بن يسار طلقها زوجها، فتركها حتى انقضت عدتها، فخطبها، فأبى معقل، فنزلت: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٢]

• أقول: وروى هذا المعنى في الدر المنثور عنه وعن عدة من أرباب الصحاح كالنسائي وابن ماجة والترمذي وابن داود وغيرهم.

ب. وفي الدر المنثور أيضاً عن السدي قال: نزلت هذه الآية في جابر بن عبد الله الأنصاري، كانت له ابنة عم، فطلقها زوجها تطليقة، وانقضت عدتها، فأراد مراجعتها، فأبى جابر، وقال: طلقت ابنة عمنا، ثم تريد أن تنكحها الثانية، وكانت المرأة تريد زوجها، فأنزل الله: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ الآية.

• أقول: لا ولاية للأخ ولا لابن العم على مذهب أئمة أهل البيت، فلو سلمت إحدى الروايتين، كان النهي في الآية غير مسوق لتحديد ولاية، ولا لجعل حكم وضعي، بل للإرشاد إلى قبح الحيلولة بين الزوجين، أو لكراهة أو حرمة تكليفية متعلقة بكل من يعضلهن عن النكاح، لا غير.

١٠٧. إرضاع الحولين وحقوق المرضعة والوالد:

المقطع [١٠٧] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢/ ٢٤٠»:

١. ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾:

أ. الوالدات هن الأمهات، وإنما عدل عن الأمهات إلى الوالدات لأن الأم أعم من الوالدة كما أن

الأب أعم من الوالد والابن أعم من الولد، والحكم في الآية مشروع في خصوص مورد الوالدة والولد والمولود له، وأما تبديل الوالد بالمولود له، ففيه إشارة إلى حكمة التشريع فإن الوالد لما كان مولودا للوالد ملحقا به في معظم أحكام حياته لا في جميعها كان عليه أن يقوم بمصالح حياته ولوازم تربيته، ومنها كسوة أمه التي ترضعه، ونفقتها، وكان على أمه أن لا تضار والدة لأن الولد مولود له.

ب. من أعجب الكلام ما ذكر بعض المفسرين: أنه إنما قيل: المولود له دون الوالد: ليعلم أن الوالدات إنما ولدن لهن لأن الأولاد للآباء ولذلك ينسبون إليهم لا إلى الأمهات، وأنشد المأمون بن الرشيد:

وإنما أمهات الناس أوعية...مستودعات وللآباء أبناء

وكأنه ذهل عن صدر الآية وذيلها حيث يقول تعالى: ﴿أَوْلَادَهُنَّ﴾ ويقول: ﴿بِوَلَدِهَا﴾، وأما ما أنشده من شعر المأمون فهو وأمثاله أنزل قدرا من أن يتأيد بكلامه كلام الله تعالى وتقدس.

ج. اختلط على كثير من علماء الأدب أمر اللغة، وأمر التشريع، حكم الاجتماع وأمر التكوين فربما استشهدوا باللغة على حكم اجتماعي، أو حقيقة تكوينية، وجملة الأمر في الولد أن التكوين يلحقه بالوالدين معا لاستناده في وجوده إليهما معا، والاعتبار الاجتماعي فيه مختلف بين الأمم: فبعض الأمم يلحقه بالوالدة، وبعضهم بالوالد والآية تقرر قول هذا البعض، وتشير إليه بقوله تعالى: ﴿الْمَوْلُودِ لَهُ﴾ كما تقدم.

د. الإرضاع إفعال من الرضاعة والرضع وهو مص الثدي بشرب اللبن منه، والحول هو السنة سميت به لأنها تحول وإنما وصف بالكمال لأن الحول والسنة لكونه ذا أجزاء كثيرة ربما يسامح فيه فيطلق على الناقص كالكامل، فكثيرا ما يقال: أقمت هناك حولا أو حولين إذا أقيم مدة تنقص منه أياما.

٢. في قوله تعالى: ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾، دلالة على أن الحضانة والإرضاع حق للوالدة المطلقة موكول إلى اختيارها والبلوغ إلى آخر المدة أيضا من حقها فإن شاءت إرضاعه حولين كاملين فلها ذلك وإن لم تشأ التكميل فلها ذلك، وأما الزوج فليس له في ذلك حق إلا إذا وافقت عليه الزوجة بتراض منهما كما يشير إليه قوله تعالى ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا﴾

٣. ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾، المراد بالمولود له هو الوالد كما مر، والرزق والكسوة هما النفقة واللباس، وقد نزلها الله تعالى على المعروف وهو المتعارف

من حالهما، وقد علل ذلك بحكم عام آخر رافع للحرج، وهو قوله تعالى: ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ وقد فرع عليه حكمين آخرين:

أ. أحدهما: حق الحضانة والإرضاع الذي للزوجة وما أشبهه فلا يحق للزوج أن يحول بين الوالدة وولدها بمنعها عن حضانته أو رؤيته أو ما أشبه ذلك فإن ذلك مضارة وحرج عليها.

ب. ثانيهما: نفي مضارة الزوجة للزوج بولده بأن تمنعه عن الرؤية ونحو ذلك، وذلك قوله تعالى: ﴿لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ﴾، والنكتة في وضع الظاهر موضع الضمير أعني في قوله: ﴿بِوَلَدِهِ﴾ دون أن يقول به رفع التناقض المتوهم، فإنه لو قيل: ولا مولود له به رجع الضمير إلى قوله ولدها وكان ظاهر المعنى: ولا مولود له بولد المرأة فأوهم التناقض لأن إسناد الولادة إلى الرجل يناقض إسنادها إلى المرأة، ففي الجملة مراعاة لحكم التشريع والتكوين معا أي أن الولد لهما معا تكوينا فهو ولده وولدها وله فحسب تشريعا لأنه مولود له.

٤. ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾، ظاهر الآية: أن الذي جعل على الوالد من الكسوة والنفقة فهو مجعول على وارثه إن مات، وقد قيل في معنى الآية أشياء أخر لا يوافق ظاهرها، وقد تركنا ذكرها لأنها بالبحث الفقهي أمس فلتطلب من هناك، والذي ذكرناه هو الموافق لمذهب أئمة أهل البيت فيما نقل عنهم من الأخبار، وهو الموافق أيضا لظاهر الآية.

٥. ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ﴾ إلى آخر الآية، الفصال الفطام، والتشاور: الاجتماع على المشورة، والكلام تفريع على الحق المجعول للزوجة ونفي الحرج عن البين، فالحضانة والرضاع ليس واجبا عليها غير قابل التغيير، بل هو حق يمكنها أن تتركه، فمن الجائز أن يتراضيا بالتشاور على فصال الولد من غير جناح عليهما ولا بأس، وكذا من الجائز أن يسترضع الزوج لولده من غير الزوجة الوالدة إذا ردت الولد إليه بالامتناع عن إرضاعه، أو لعلة أخرى من انقطاع لبن أو مرض ونحوه إذا سلم لها ما تستحقها تسليما بالمعروف بحيث لا يزاحم في جميع ذلك حقها، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾

٦. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، أمر بالتقوى وأن يكون هذا التقوى بإصلاح صورة هذه الأعمال، فإنها أمور مرتبطة بالظاهر من الصورة ولذلك قال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ

بَصِيرٌ﴾، وهذا بخلاف ما في ذيل قوله تعالى السابق: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ الآية من قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، فإن تلك الآية مشتملة على قوله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا﴾، والمضارة ربما عادت إلى النية من غير ظهور في صورة العمل إلا بحسب الأثر بعد.

٧. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير العياشي في قوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٣] الآية، عن الصادق عليه السلام قال: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾، قال: ما دام الولد في الرضاع، فهو بين الأبوين بالسوية، فإذا فطم، فالوالد أحق به من العصبة، وإن وجد الأب من يرضعه بأربعة دراهم، وقالت الأم: لا أرضعه إلا بخمسة دراهم، فإن له أن ينزعه منها، إلا أن ذلك أجبر له وأقدم وأرفق به أن يترك مع أمه.

ب. وفيه أيضاً عنه في قوله تعالى: ﴿لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ﴾ [البقرة: ٢٣٣] الآية، قال عليه السلام: كانت المرأة ممن ترفع يدها إلى الرجل إذا أراد مجامعتها، فتقول: لا أدعك، إني أخاف أن أحمل على ولدي، ويقول الرجل للمرأة: لا أجامعك، إني أخاف أن تعلقي فأقتل ولدي، فنهى الله أن يضار الرجل المرأة والمرأة الرجل.

ج. وفيه أيضاً عن أحدهما عليهما السلام في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، قال: هو في النفقة: على الوارث مثل ما على الوالد.

د. وفيه أيضاً عن الصادق عليه السلام في الآية، قال: لا ينبغي للوارث أيضاً أن يضار المرأة، فيقول: لا أدع ولدها يأتيها، ويضار ولدها إن كان لهم عنده شيء، ولا ينبغي له أن يقتر عليه.

هـ. وفيه أيضاً عن حماد عن الصادق عليه السلام قال: لا رضاع بعد فطام، قال: قلت له: جعلت فداك، وما الفطام؟ قال: الحولان الذي قال الله عز وجل.

• أقول: قوله: (الحولان) حكاية لما في لفظ الآية، ولذا وصفه عليه السلام بقوله: (الذي قال الله)

و. أخرج عبد الرزاق في المصنف وابن عدي عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: لا يتم بعد حلم، ولا رضاع بعد فصال، ولا صمت يوم إلى الليل، ولا وصال في الصيام، ولا نذر في معصية، ولا

نفقة في المعصية، ولا يمين في قطيعة رحم، ولا تعرب بعد الهجرة، ولا هجرة بعد الفتح، ولا يمين لزوجة مع زوج، ولا يمين لولد مع والد، ولا يمين لمملوك مع سيده، ولا طلاق قبل نكاح، ولا عتق قبل ملك.

١٠٨. عدة المتوفى عنها زوجها:

المقطع [١٠٨] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣٤ـ٢٣٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢/ ٢٤٣»:

١. ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾، التوفي هو الإماتة، يقال: توفاه الله إذا أماته فهو متوفى بصيغة اسم المفعول، ويذرون مثل يدعون بمعنى يتركون ولا ماضي لهما من مادتهما، والمراد بالعشر الأيام حذفت لدلالة الكلام عليه.

٢. ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾:

أ. المراد ببلوغ الأجل انقضاء العدة، وقوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾ كناية عن إعطاء الاختيار لهن في أفعالهن فإن اخترن لأنفسهن الازدواج فلهن ذلك، وليس لقرابة الميت منعهن عن شيء من ذلك استنادا إلى بعض العادات المبنية على الجهالة والعمى أو الشح والحسد فإن لهن حقا في ذلك معروفا في الشرع وليس لأحد أن ينهى عن المعروف.

ب. كانت الأمم على أهواء شتى في المتوفى عنها زوجها، بين من يحكم بإحراق الزوجة الحية مع زوجها الميت أو إلحادها وإقبارها معه، وبين من يقضي بعدم جواز ازدواجها ما بقيت بعده إلى آخر عمرها كالنصارى، وبين من يوجب اعتزالها عن الرجال إلى سنة من حين الوفاة كالعرب الجاهلي، أو ما يقرب من السنة كتسعة أشهر كما هو كذلك عند بعض الملل الراقية، وبين من يعتقد أن للزوج المتوفى حقا على الزوجة في الكف عن الازدواج حينا من غير تعيين للمدة، كل ذلك لما يجدونه من أنفسهم أن الازدواج للاشتراك في الحياة والامتزاج فيها، وهو مبني على أساس الأنس والألفة، وللحب حرمة يجب رعايتها، وهذا وإن

كان معنى قائما بالطرفين، ومرتبطا بالزوج والزوجة معا فكل منهما أخذته الوفاة كان على الآخر رعاية هذه الحرمة بعد صاحبه، غير أن هذه المراعاة على المرأة أوجب وألزم، لما يجب عليها من مراعاة جانب الحياة والاحتجاب والعفة، فلا ينبغي لها أن تبتذل فتكون كالسلعة المبتذلة الدائرة تعتورها الأيدي واحدة بعد واحدة، فهذا هو الموجب لما حكم به هذه الأقوام المختلفة في المتوفى عنها زوجها، وقد عين الإسلام هذا التربص بما يقرب من ثلث سنة، أعني أربعة أشهر وعشرا.

٣. ﴿وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ لما كان الكلام مشتملا على تشريع عدة الوفاة وعلى تشريع حق الازدواج لهن بعدها، وكان كل ذلك تشخيصا للأعمال مستندا إلى الخبرة الإلهية كان الأنسب تعليله بأن الله خبير بالأعمال مشخص للمحظور منها عن المباح، فعليهن أن يتربصن في مورد وأن يخترن ما شئن لأنفسهن في مورد آخر، ولذا ذيل الكلام بقوله تعالى: ﴿وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾

٤. ﴿لا جُناحَ عَلَيْكُمْ فِيما عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّساءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ﴾:

أ. التعريض هو الميل بالكلام إلى جانب ليفهم المخاطب أمرا مقصودا للمتكلم لا يريد التصريح به، من العرض بمعنى الجانب فهو خلاف التصريح، والفرق بين التعريض والكناية أن للكلام الذي فيه التعريض معنى مقصودا غير ما اعترض به كقول المخاطب للمرأة: إني حسن المعاشرة وأحب النساء، أي لو تزوجت بي سعدت بطيب العيش وصرت محبوبة، بخلاف الكناية إذ لا يقصد في الكناية غير المكنى عنه كقولك: (فلان كثير الرماد) تريد أنه سخي.

ب. الخطبة بكسر الخاء من الخطب بمعنى التكلم والمراجعة في الكلام، يقال: خطب المرأة خطبة بالكسر إذا كلمها في أمر التزوج بها فهو خاطب ولا يقال: خطيب ويقال خطب القوم خطبة بضم الخاء إذا كلمهم، وخاصة في الوعظ فهو خاطب من الخطاب وخطيب من الخطباء.

ج. الإكنان من الكن بالفتح بمعنى الستر لكن يختص الإكنان بما يستر في النفس كما قال ﴿أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ﴾، والكن بما يستر بشيء من الأجسام كمحفظة أو ثوب أو بيت، قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾ الصافات، ٤٩، وقال تعالى: ﴿كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ الواقعة، ٢٣، والمراد بالآية نفي البأس عن التعريض في الخطبة أو إخفاء أمور في القلب في أمرها.

٥. ﴿عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾، في مورد التعليل لنفي الجناح عن الخطبة والتعريض فيها،

والمعنى: أن ذكركم إياهن أمر مطبوع في طباعكم والله لا ينهى عن أمر تقضي به غريزتكم الفطرية ونوع خلقتكم، بل يجوزه، وهذا من الموارد الظاهرة في أن دين الإسلام مبني على أساس الفطرة.

٦. ﴿وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾، العزم عقد القلب على الفعل وتثبيت الحكم بحيث لا يبقى فيه وهن في تأثيره إلا أن يبطل من رأس، والعقدة من العقد بمعنى الشد، وفي الكلام تشبيه علقة الزوجية بالعقدة التي يعقد بها أحد الخيطين بالآخر بحيث يصيران واحدا بالاتصال، كان حبالة النكاح تصير الزوجين واحدا متصلا، ثم في تعليق عقدة النكاح بالعزم الذي هو أمر قلبي إشارة إلى أن سنخ هذه العقدة والعلقة أمر قائم بالنية والاعتقاد فإنها من الاعتبارات العقلائية التي لا موطن لها إلا ظرف الاعتقاد والإدراك، نظير الملك وسائر الحقوق الاجتماعية العقلائية كما مر بيانه في ذيل قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ الآية البقرة، ٢١٣ ففي الآية استعارة وكناية، والمراد بالكتاب هو المكتوب أي المفروض من الحكم وهو التربص الذي فرضه الله على المعتدات، فمعنى الآية: ولا تجروا عقد النكاح حتى تنقضي عدتهن، وهذه الآية تكشف أن الكلام فيها وفي الآية السابقة عليها أعني قوله تعالى: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ﴾ الآية إنما هو في خطبة المعتدات وفي عقدهن، وعلى هذا فاللام في قوله: ﴿النِّسَاءَ﴾ للعهد دون الجنس وغيره.

٧. ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ إيراد ما ذكر من صفاته تعالى في الآية، أعني العلم والمغفرة والحكم يدل على أن الأمور المذكورة في الآيتين وهي خطبة المعتدات والتعريض لهن ومواعدتهن سرا من موارد الهلكات لا يرتضيها الله سبحانه كل الارتضاء وإن كان قد أجاز ما أجازه منها.

٨. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير العياشي عن أبي بكر الحضرمي عن الصادق عليه السلام قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤]، جئن النساء يخاصمن رسول الله وقلن: لا نصبر، فقال لهن رسول الله: كانت إحداكن إذا مات زوجها، أخذت بعرة فألقتها خلفها في دبرها في خدرها، ثم قعدت، فإذا كان مثل ذلك اليوم من الحول، أخذتها ففتقتها، ثم اكتحلت بها، ثم تزوجت، فوضع الله عنكن ثمانية أشهر.

ب. وفي التهذيب عن الباقر عليه السلام: كل النكاح، إذا مات الزوج، فعلى المرأة حرة كانت أو

أمة، وعلى أي وجه كان النكاح منه متعة أو تزويجاً أو ملك يمين، فالعدة أربعة أشهر وعشراً.

ج. وفي تفسير العياشي عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال: قلت له: جعلت فداك، كيف صارت عدة المطلقة ثلاث حيض أو ثلاثة أشهر، وصارت عدة المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشراً؟ فقال: أما عدة المطلقة ثلاث قروء، فلأجل استبراء الرحم من الولد، وأما عدة المتوفى عنها زوجها، فإن الله شرط للنساء شرطاً وشرط عليهن: وأما ما شرط لهن، ففي الإيلاء أربعة أشهر، إذ يقول: ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ [البقرة: ٢٢٦]، فلن يجوز لأحد أكثر من أربعة أشهر، لعلمه تبارك وتعالى أنها غاية صبر المرأة من الرجل، وأما ما شرط عليهن، فإنه أمرها أن تعتد إذا مات زوجها أربعة أشهر وعشراً، فأخذ له منها عند موته ما أخذ لها منه في حياته.

• أقول: وهذا المعنى مروي أيضاً عن الرضا والهادي عليهما السلام بطرق أخرى.

١٠٩. متعة المطلقة قبل المساس أو بعد الفريضة:

المقطع [١٠٩] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٦-٢٣٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢/ ٢٤٥»:

١. ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾، المس كناية عن المواقعة، والمراد بفرض الفريضة تسمية المهر، والمعنى: أن عدم مس الزوجة لا يمنع عن صحة الطلاق وكذا عدم ذكر المهر.

٢. ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ﴾:

أ. التمتيع إعطاء ما يتمتع به، والمتاع والمتعة ما يتمتع به، ومتاعا مفعول مطلق لقوله تعالى: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ﴾، اعترض بينهما قوله تعالى: ﴿عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ﴾، والموسع اسم فاعل من أوسع إذا كان على سعة من المال وكأنه من الأفعال المتعدية التي كثر استعمالها مع حذف المفعول اختصارا حتى صار يفيد ثبوت أصل المعنى فصار لازما والمقتر اسم فاعل من أقتر إذا كان على ضيق من المعاش،

والقدر بفتح الدال وسكونها بمعنى واحد.

ب. معنى الآية: يجب عليكم أن تمتعوا المطلقات عن غير فرض فريضة متاعا بالمعروف وإنما يجب على الموسع قدره أي ما يناسب حاله ويتقدر به وضعه من التمتيع، وعلى المقتر قدره من التمتيع، وهذا يختص بالمطلقة غير المفروضة لها التي لم يسم مهرها، والدليل على أن هذا التمتيع المذكور مختص بها ولا يعم المطلقة المفروضة لها التي لم يدخل بها ما في الآية التالية من بيان حكمها.

٣. ﴿حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾، أي حق الحكم حقا على المحسنين، وظاهر الجملة وإن كان كون الوصف أعني الإحسان دخيلا في الحكم، وحيث ليس الإحسان واجبا استلزم كون الحكم استحبابيا غير وجوبي، إلا أن النصوص من طرق أهل البيت تفسر الحكم بالوجوب، ولعل الوجه فيه ما مر من قوله تعالى: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ الآية فأوجب الإحسان على المسرحين وهم المطلقون فهم، المحسنون، وقد حق الحكم في هذه الآية على المحسنين وهم المطلقون.

٤. ﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ﴾، أي وإن أوقعتم الطلاق قبل الدخول بهن وقد فرضتم لهن فريضة وسميتم المهر فيجب عليكم تأدية نصف ما فرضتم من المهر إلى أن يعفون هؤلاء المطلقات أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح من وليهن فيسقط النصف المذكور أيضا، أو الزوج فإن عقدة النكاح بيده أيضا، فلا يجب على الزوجة المطلقة رد نصف المهر الذي أخذت، والعفو على أي حال أقرب للتقوى لأن من أعرض عن حقه الثابت شرعا فهو عن الإعراض عما ليس له بحق من محارم الله سبحانه أقوى وأقدر.

٥. ﴿وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾، الفضل هو الزيادة كالفضول غير أن الفضل هو الزيادة في المكارم والمحامد والفضول هو الزيادة غير المحمودة على ما قيل، وفي الكلام ذكر الفضل الذي ينبغي أن يؤثره الإنسان في مجتمع الحياة فيتفاضل به البعض على بعض، والمراد به الترغيب في الإحسان والفضل بالعفو عن الحقوق والتسهيل والتخفيف من الزوج للزوجة وبالعكس، والنكتة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَّ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، كالنكتة فيما مر في ذيل قوله تعالى ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ الآية.

٦. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير العياشي عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ

مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ﴾ [البقرة: ٢٣٥] الآية: المرأة في عدتها، تقول لها قولاً جميلاً ترغبها في نفسك، ولا تقول: إني أصنع كذا أو كذا، أو أصنع كذا القبيح من الأمر في البضع، وكل أمر قبيح، وفي رواية أخرى: تقول لها وهي في عدتها: يا هذه، لا أحب إلا ما أسرك، ولو قد مضى عدتك لا تفوتيني إن شاء الله، ولا تستبقي بنفسك، وهذا كله من غير أن يعزموا عقدة النكاح.

• أقول: وفي هذا المعنى روايات أخر عنهم عليهم السلام.

ب. وفي تفسير العياشي في قوله تعالى: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ [البقرة: ٢٣٦] الآية، عن الصادق عليه السلام قال: إذا طلق الرجل امرأته قبل أن يدخل بها، فلها نصف مهرها، وإن لم يكن سمى لها مهراً، فمتاع بالمعروف، على الموسع قدره، وعلى المقتر قدره، وليس لها عدة، وتزوج من شاءت من ساعتها.

ج. وفي الكافي عن الصادق عليه السلام في رجل طلق امرأته قبل أن يدخل بها، قال: عليه نصف المهر إن كان فرض لها شيئاً، وإن لم يكن فرض لها، فليمتعها على نحو ما يمتع مثلها من النساء.

• أقول: وفيه تفسير المتاع بالمعروف.

د. وفي الكافي والتهذيب وتفسير العياشي وغيرها عن الباقر والصادق عليهما السلام في قوله تعالى: ﴿الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، قالا: هو الولي.

• أقول: والروايات فيه كثيرة، وقد ورد في بعض الروايات من طرق أهل السنة والجماعة عن النبي ﷺ وعليّ عليه السلام: أن الذي بيده عقدة النكاح هو الزوج.

١١٠. المحافظة على الصلوات والصلاة الوسطى والقنوت لله:

المقطع [١١٠] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا للهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢/ ٢٤٧»:

١. ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ﴾ إلى آخر الآية:

أ. حفظ الشيء ضبطه وهو في المعاني أعني حفظ النفس لما تستحضره أو تدركه من المعاني أغلب، والوسطى مؤنث الأوسط، والصلاة الوسطى هي الواقعة في وسطها، ولا يظهر من كلامه تعالى ما هو المراد من الصلاة الوسطى، وإنما تفسيره السنة، وسيجيء ما ورد من الروايات في تعيينه.

ب. اللام في قوله تعالى: {قُومُوا لِلهِّ}، للغاية والقيام بأمر كناية عن تقلده والتلبس بفعله، والقنوت هو الخضوع بالطاعة، قال تعالى: ﴿كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ للهِ وَرَسُولِهِ﴾، فمحصل المعنى: تلبسوا بطاعة الله سبحانه بالخضوع مخلصين له ولأجله.

٢. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي والفقيه وتفسير العياشي والقمي في قوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٨] الآية، بطرق كثيرة عن الباقر والصادق عليهما السلام: أن الصلاة الوسطى هي الظهر.

• أقول: هذا هو المأثور عن أئمة أهل البيت في الروايات المروية عنهم لساناً واحداً، نعم، في بعضها أنها الجمعة، إلا أن المستفاد منها أنهم أخذوا الظهر والجمعة نوعاً واحداً لا نوعين اثنين، كما رواه في الكافي وتفسير العياشي عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام، واللفظ لما في الكافي، قال: قال الله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ﴾، وهي صلاة الظهر، أول صلاة صلاها رسول الله ﷺ، وهي وسط النهار، ووسط صلاتين بالنهار: صلاة الغداة وصلاة العصر، قال: ونزلت هذه الآية ورسول الله في سفره، فقنت فيها رسول الله، وتركها على حالها في السفر والحضر، وأضاف للمقيم ركعتين، وإنما وضعت الركعتان اللتان أضافهما النبي ﷺ يوم الجمعة للمقيم، لمكان الخطبتين مع الإمام، فمن صلى يوم الجمعة في غير جماعة، فليصلها أربع ركعات كصلاة الظهر في سائر الأيام، الحديث، والرواية كما ترى تعد الظهر والجمعة صلاة واحدة، وتحكم بأنها هي الصلاة الوسطى، ولكن معظم الروايات مقطوعة، وما كان منها مسنداً، فمتنه لا يخلو عن تشويش، كرواية الكافي، وهي مع ذلك غير واضحة الانطباق على الآية، والله العالم.

ب. أخرج أحمد وابن المنيع والنسائي وابن جرير والشاشي والضياء من طريق الزبرقان: أن رهطاً من قريش مر بهم زيد بن ثابت وهم مجتمعون، فأرسلوا إليه غلامين لهم يسألانه عن الصلاة الوسطى، فقال: هي الظهر، ثم انصرفا إلى أسامة بن زيد فسألاه، فقال: هي الظهر، إن رسول الله كان يصلي الظهر بالهجير، فلا يكون وراءه إلا الصف والصفان، والناس في قائلتهم وتجارتهم، فأنزل الله: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، فقال رسول الله ﷺ: لينتهين رجال، أو

لأحرقن بيوتهم.

• أقول: وروي هذا السبب عن زيد بن ثابت وغيره بطرق أخرى، واعلم أن الأقوال في تفسير الصلاة الوسطى مختلفة، معظمها ناش من اختلاف روايات القوم: فقيل إنها صلاة الصبح، ورووه عن علي عليه السلام وبعض الصحابة، وقيل: إنها صلاة الظهر، ورووه عن النبي وعدة من الصحابة، وقيل: إنها صلاة العصر، ورووه عن النبي وعدة من الصحابة، وقد روى السيوطي في الدر المنثور فيه بضعاً وخمسين رواية، وقيل: إنها صلاة المغرب، وقيل: إنها مخفية بين الصلوات، كليلة القدر بين الليالي، وروي فيهما روايات عن الصحابة، وقيل: إنها صلاة العشاء، وقيل: إنها الجمعة.

ج. وفي المجمع في قوله تعالى: ﴿وَقُومُوا للهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، قال: هو الدعاء في الصلاة حال القيام، وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام.

• أقول: وروي ذلك عن بعض الصحابة.

د. وفي تفسير العياشي عن الصادق عليه السلام في الآية: إقبال الرجل على صلاته، ومحافظته على وقتها، حتى لا يلهيه عنها ولا يشغله شيء.

• أقول: ولا منافاة بين الروايتين، وهو ظاهر.

١١١. صلاة الخوف وذكر الله في الأمن:

المقطع [١١١] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢/ ٢٤٧»:

١. ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ إلى آخر الآية، عطف الشرط على الجملة السابقة يدل على تقدير شرط محذوف أي حافظوا إن لم تخافوا، وإن خفتم فقدروا المحافظة بقدر ما يمكن من الصلاة راجلين وقوفا أو مشيا أو راكبين، والرجال جمع راجل والركبان جمع راكب، وهذه صلاة الخوف.

٢. الفاء في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ﴾، للتفريع أي إن المحافظة على الصلاة أمر غير ساقط من أصله بل إن لم تخافوا شيئا وأمكنت لكم وجبت عليكم وإن تعسر عليكم فقدروها بقدر ما يمكن لكم، وإن زال عنكم الخوف بتجدد الأمن ثانيا عاد الوجوب ووجب عليكم ذكر الله سبحانه.

٣. الكاف في قوله تعالى: ﴿كَمَا عَلَّمَكُمْ﴾، للتشبيه وقوله تعالى: ﴿مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ من قبيل وضع العام موضع الخاص دلالة على الامتنان بسعة النعمة والتعليم، والمعنى على هذا: فاذكروا الله ذكرا يماثل ما علمكم من الصلاة المفروضة المكتوبة في حال الأمن في ضمن ما علمكم من شرائع الدين.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ [البقرة: ٢٣٩] الآية: إذا خاف من سبع أو لص، يكبر ويومئ إيماءً.

ب. وفي الفقيه عنه عليه السلام في صلاة الزحف قال: تكبير وتهليل، ثم تلا الآية.

ج. وفيه عنه عليه السلام: إن كنت في أرض مخوفة، فخشيت لصاً أو سبعاً، فصل الفريضة وأنت على دابتك.

د. وفيه عن الباقر عليه السلام: الذي يخاف اللصوص، يصلي إيماءً على دابته.

• أقول: والروايات في هذه المعاني كثيرة.

١١٢. وصية المتوفى لزوجته ومتعة المطلقة بالمعروف:

المقطع [١١٢] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٠ـ٢٤٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢/ ٢٤٨»:

١. ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ﴾:

أ. وصية مفعول مطلق لمقدر، والتقدير ليوصوا وصية ينتفع به أزواجهم ويتمتعن متاعا إلى الحول بعد التوفي.

ب. تعريف الحول باللام لا يخلو عن دلالة على كون الآية نازلة قبل تشريع عدة الوفاة، أعني الأربعة أشهر وعشرة أيام فإن عرب الجاهلية كانت نساؤهم يقعدن بعد موت أزواجهن حولا كاملا، فالآية توصي بأن يوصي الأزواج لهن بمال يتمتعن به إلى تمام الحول من غير إخراجهن من بيوتهن، غير أن هذا لما كان حقا لهن والحق يجوز تركه كان لهن أن يطالبن به، وأن يتركنه فإن خرجن فلا جناح للورثة ومن

يجري مجراهم فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف، وهذا نظير ما أوصى الله به من حضره الموت أن يوصي للوالدين والأقربين بالمعروف، قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾، ومما ذكرنا يظهر أن الآية منسوخة بآية عدة الوفاة وآية الميراث بالربع والثمن.

٢. ﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾، الآية في حق مطلق المطلقات، وتعليق ثبوت الحكم بوصف التقوى مشعر بالاستحباب.

٣. ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، الأصل في معنى العقل العقد والإمساك وبه سمي إدراك الإنسان إدراكا يعقد عليه عقلا، وما أدركه عقلا، والقوة التي يزعم أنها إحدى القوى التي يتصرف بها الإنسان يميز بها بين الخير والشر والحق والباطل عقلا، ويقابله الجنون والسفه والحمق والجهل باعتبارات مختلفة.

٤. وضع هنا مبحثا حول [تحقيق معنى العقل وأنواع الإدراك في القرآن]، خلاصته:

أ. الألفاظ المستعملة في القرآن في أنواع الإدراك كثيرة، ربما بلغت العشرين، كالظن، والحسبان، والشعور، والذكر، والعرفان، والفهم، والفقه، والدراية، واليقين، والفكر، والرأي، والزعم، والحفظ، والحكمة، والخبرة، والشهادة، والعقل، ويلحق بها القول والفتوى والبصيرة.

ب. الألفاظ الخمسة الأخيرة (العلم، الحفظ، الحكمة، الخبرة، الشهادة) هي التي تستعمل في حق الله تعالى، لأنها لا تستلزم النقص والفقدان، بخلاف الألفاظ الأخرى التي تستلزم المادة والحركة والتغير.

ج. العقل: هو الإدراك الذي يتم للإنسان مع سلامة فطرته، وهو الذي يعبد به الرحمن، وهو عقد القلب بالتصديق على ما جبل الله عليه الإنسان من إدراك الحق والباطل والخير والشر.

د. العقل الحقيقي هو ما ينتفع به الإنسان في دينه ويركب به هداه إلى حقائق المعارف وصالح العمل، وإذا لم يجر على هذا المجرى فلا يسمى عقلاً حقيقياً، وإن عمل في الخير والشر الدنيوي فقط.

٥. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير العياشي عن أبي بصير قال: سألته عن قول الله: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ [البقرة: ٢٤٠]، قال عليه السلام: هي منسوخة،

قلت: وكيف كانت؟ قال: كان الرجل إذا مات، أنفق على امرأته من صلب المال حولاً، ثم أخرجت بلا ميراث، ثم نسختها آية الربع والثمن، فالمرأة ينفق عليها من نصيبها.

ب. وفيه عن معاوية بن عمار قال: سألته عن قول الله: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ﴾، قال: منسوخة، نسختها آية: ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤]، ونسختها آية الميراث.

ج. وفي الكافي وتفسير العياشي: سئل الصادق عليه السلام عن الرجل يطلق امرأته، يمتعها؟ قال: نعم، أما يحب أن يكون من المحسنين؟ أما يحب أن يكون من المتقين؟

١١٣. قصة الذين خرجوا من ديارهم حذر الموت فأحياهم الله:

المقطع [١١٣] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢/ ٢٧٩»:

١. ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾، الرؤية هاهنا بمعنى العلم، عبر بذلك لدعوى ظهوره بحيث يعد فيه العلم رؤية فهو كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾، وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾، وقد ذكر الزمخشري أن لفظ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ [الفيل: ١] جرى مجرى المثل، يؤتى به في مقام التعجيب فقولنا: ألم تر كذا وكذا معناه ألا تعجب لكذا وكذا، وحذر الموت مفعول له، ويمكن أن يكون مفعولا مطلقا والتقدير يحذرون الموت حذرا.

٢. ﴿فَقَالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾، الأمر تكويني ولا ينافي كون موتهم واقعا عن مجرى طبيعي كما ورد في الروايات: أن ذلك كان بالطاعون، وإنما عبر بالأمر، دون أن يقال: فأماتهم الله ثم أحياهم ليكون أدل على نفوذ القدرة وغلبة الأمر:

أ. فإن التعبير بالإنشاء في التكوينيات أقوى وآكد من التعبير بالإخبار.

ب. كما أن التعبير بصورة الإخبار الدال على الوقوع في التشريعيات أقوى وآكد من الإنشاء.

٣. لا يخلو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ عن الدلالة على أن الله أحياهم ليعيشوا فعاشوا بعد حياتهم، إذ لو كان إحياؤهم لعبرة يعتبر بها غيرهم أو لإتمام حجة أو لبيان حقيقة لذكر ذلك على ما هو دأب القرآن في بلاغته كما في قصة أصحاب الكهف، على أن قوله تعالى بعد: ﴿إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ [غافر:

٦١] يشعر بذلك أيضا.

٤. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾، الإظهار في موضع الإضمار أعني تكرار لفظ الناس ثانيا لما فيه من الدلالة على انخفاض سطح أفكارهم، على أن هؤلاء الذين تفضل الله عليهم بالإحياء طائفة خاصة، وليس المراد كون الأكثر منهم بعينهم غير شاكرين بل الأكثر من جميع الناس، وهذه الآية لا تخلو عن مناسبة ما مع ما بعدها من الآيات المتعرضة لفرض القتال، لما في الجهاد من إحياء الملة بعد موتها.

٥. ذكر بعض المفسرين أن الآية مثل ضربه الله لحال الأمة في تأخرها وموتها باستخزاء الأجانب إياها ببسط السلطة والسيطرة عليها، ثم حياتها بنهضتها ودفاعها عن حقوقها الحيوية واستقلالها في حكومتها على نفسها، قال ما حاصله: (إن الآية لو كانت مسوقة لبيان قصة من قصص بني إسرائيل كما يدل عليه أكثر الروايات أو غيرهم كما في بعضها لكان من الواجب الإشارة إلى كونهم من بني إسرائيل، وإلى النبي الذي أحياهم كما هو دأب القرآن في سائر قصصه مع أن الآية خالية عن ذلك على أن التوراة أيضا لم تتعرض لذلك في قصص حزقيل النبي على نبينا وآله وعليه السلام فليست الروايات إلا من الإسرائيليات التي دستها اليهود، مع أن الموت والحياة الدنيويتين ليستا إلا موتا واحدا أو حياة واحدة كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾، وقوله: ﴿وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾، فلا معنى لحياتين في الدنيا هذا، فالآية مسوقة سوق المثل، والمراد بها قوم هجم عليهم أولو القدرة والقوة من أعدائهم باستذلالهم واستخزائهم وبسط السلطة فيهم والتحكم عليهم فلم يدافعوا عن استقلالهم، وخرجوا من ديارهم وهم ألوف لهم كثرة وعزيمة حذر الموت، فقال لهم الله: موتوا موت الخزي والجهل، فإن الجهل والخمود موت كما أن العلم وإباء الضيم حياة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لله وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾، وقال: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾، وبالجملة فهؤلاء يموتون بالخزي وتمكن الأعداء منهم ويبقون أمواتا، ثم أحياهم الله بإلقاء روح النهضة والدفاع عن الحق فيهم، فقاموا بحقوق أنفسهم واستقلوا في أمرهم، وهؤلاء الذين أحياهم الله وإن كانوا بحسب الأشخاص غير الذين أماتهم الله إلا أن الجميع أمة واحدة ماتت في حين وحييت في حين بعد حين، وقد عد الله تعالى القوم واحدا مع اختلاف الأشخاص كقوله تعالى في بني إسرائيل: ﴿أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾، وقوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾، ولولا ما

ذكرناه من كون الآية مسوقا للتمثيل لم يستقم ارتباط الآية بما يتلوها من آيات القتال وهو ظاهر)<الكلام هنا كما مر معنا لمحمد عبده»، انتهى ما ذكره ملخصا.

٦. هذا الكلام كما ترى مبني:

أ. أولا: على إنكار المعجزات وخوارق العادات أو بعضها كإحياء الموتى وقد مر إثباتها، على أن ظهور القرآن في إثبات خرق العادة بإحياء الموتى ونحو ذلك مما لا يمكن إنكاره ولو لم يسع لنا إثبات صحته من طريق العقل.

ب. وثانيا: على دعوى أن القرآن يدل على امتناع أكثر من حياة واحدة في الدنيا كما استدلّ بمثل قوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾، وقوله: ﴿أَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾، وفيه أن جميع الآيات الدالة على إحياء الموتى كما في قصص إبراهيم وموسى وعيسى وعزير، بحيث لا تدفع دلالتها، يكفي في رد ما ذكره، على أن الحياة الدنيا لا تصير بتخلل الموت حياتين كما يستفاد أحسن الاستفادة من قصة عزير، حيث لم يتنبه لموته الممتد، والمراد بما أورده من الآيات الدالة على نوع الحياة.

ج. ثالثا: على أن الآية لو كانت مسوقة لبيان القصة لتعرضت لتعيين قومهم وتشخيص النبي الذي أحياهم، وأنت تعلم أن مذاهب البلاغة مختلفة متشتتة، والكلام كما ربما يجري مجرى الإطناب كذلك يجري مجرى الإيجاز، وللآية نظائر في القرآن كقوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾، وقوله: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾

د. رابعا: على أن الآية لو لم تحمل على التمثيل لم ترتبط بما بعدها من الآيات بحسب المعنى، وأنت تعلم أن نزول القرآن نجوما يغني عن كل تكلف بارد في ربط الآيات بعضها ببعض إلا ما كان منها ظاهر الارتباط، بين الاتصال على ما هو شأن الكلام البليغ.

٧. الحق أن الآية كما هو ظاهرها مسوقة لبيان القصة، وليت شعري أي بلاغة في أن يلقي الله سبحانه للناس كلاما لا يرى أكثر الناظرين فيه إلا أنه قصة من قصص الماضين، وهو في الحقيقة تمثيل مبني على التخييل من غير حقيقة، مع أن دأب كلامه تعالى على تمييز المثل عن غيره في جميع الأمثال الموضوعة فيه بنحو قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي﴾، وقوله: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، وقوله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا﴾، إلى غير ذلك.

٨. أحاديث وآثار:

في الاحتجاج، عن الصادق عليه السلام في حديث قال عليه السلام: (أحيا الله قوما خرجوا من أوطانهم هاربين من الطاعون، لا يحصى عددهم، فأماتهم الله دهرا طويلا حتى بليت عظامهم، وتقطعت أوصالهم، وصاروا ترابا، فبعث الله في وقت أحب أن يرى خلقه نبيا يقال له: حزقيل، فدعاهم فاجتمعت أبدانهم، ورجعت فيها أرواحهم، وقاموا كهيئة يوم ماتوا، لا يفتقدون في أعدادهم رجلا، فعاشوا بعد ذلك دهرا طويلا)

• وروى هذا المعنى الكليني والعياشي بنحو أبسط، وفي آخره: وفيهم نزلت هذه الآية.

١١٤. الأمر بالقتال في سبيل الله والحث على القرض الحسن:

المقطع [١١٤] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٤ـ٢٤٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢/ ٢٨٤»:

١. ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية، فرض وإيجاب للجهاد، وقد قيده تعالى هاهنا وسائر المواضع من كلامه بكونه في سبيل الله لئلا يسبق إلى الوهم ولا يستقر في الخيال أن هذه الوظيفة الدينية المهمة لإيجاد السلطة الدنيوية الجافة، وتوسعة المملكة الصورية، كما تخيله الباحثون اليوم في التقدم الإسلامي من الاجتماعيين وغيرهم، بل هو لتوسعة سلطة الدين التي فيها صلاح الناس في دنياهم وآخرتهم.

٢. في قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، تحذير للمؤمنين في سيرهم هذا السير أن لا يخالفوا بالقول إذا أمر الله ورسوله بشيء، ولا يضمروا نفاقا كما كان ذلك من بني إسرائيل حيث تكلموا في أمر طالوت فقالوا: ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا﴾ الآية، وحيث قالوا: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾، وحيث فشلوا وتولوا لما كتب عليهم القتال وحيث شربوا من النهر بعد ما نهاهم طالوت عن شربه.

٣. ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ إلى قوله ﴿أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾، القرض معروف وقد عد الله سبحانه ما ينفقونه في سبيله قرضا لنفسه لما مر أنه للترغيب، ولأنه إنفاق في سبيله، ولأنه مما سيرد إليهم أضعافا مضاعفة.

٤. غير سياق الخطاب من الأمر إلى الاستفهام فقيل بعد قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾، ولم يقل: قاتلوا في سبيل الله وأقرضوا، لينشط بذلك ذهن المخاطب بالخروج من حيز الأمر غير الخالي من كلفة التكليف إلى حيز الدعوة والندب فيستريح بذلك ويتهيج.

٥. ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٥]،، القبض، الأخذ بالشيء إليك ويقابله البسط، والبصط، هو البسط قلب سينه صادا لمجاورته حرف الإطباق والتفخيم وهو الطاء، وإيراد صفاته الثلاثة أعني: كونه قابضا وباسطا ومرجعا يرجعون إليه للإشعار بأن ما أنفقوه بإقراضه تعالى لا يعود باطلا ولا يستبعد تضعيفه أضعافا كثيرة فإن الله هو القابض الباسط، ينقص ما شاء، ويزيد ما شاء، وإليه يرجعون فيوفيهم ما أقرضوه أحسن التوفية.

٦. أحاديث وآثار:

أ. أخرج عبد الرزاق وابن جرير عن زيد بن أسلم قال: لما نزلت: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥] الآية، جاء أبو الدحداح إلى النبي ﷺ فقال: يا نبي الله، ألا أرى ربنا يستقرضنا مما أعطانا لأنفسنا؟ وإن لي أرضين: إحداهما بالعالية والأخرى بالسافلة، وإني قد جعلت خيرهما صدقة، وكان النبي ﷺ يقول: كم من عذق مدلّل لأبي الدحداح في الجنة.

• أقول: والرواية مروية بطرق كثيرة.

ب. وفي المعاني عن الصادق عليه السلام: لما نزلت هذه الآية: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ [النمل: ٨٩]، قال رسول الله ﷺ: اللهم زدني، فأنزل الله: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]، قال رسول الله ﷺ: اللهم زدني، فأنزل الله: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥]، فعلم رسول الله أن الكثير من الله لا يحصى، وليس له منتهى.

• أقول: وروى الطبرسي في المجمع والعياشي في تفسيره نظيره، وروي قريب منه من طرق أهل السنة أيضاً، قوله عليه السلام: (فعلم رسول الله) يومئ إليه آخر الآية: ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ﴾ [البقرة: ٢٤٥]، إذ لا حد يحد عطاءه تعالى، وقد قال: ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠]

ج. وفي تفسير العياشي عن أبي الحسن عليه السلام في الآية، قال: هي صلة الإمام.

• أقول: وروى مثله في الكافي عن الصادق عليه السلام، وهو من باب عد المصداق.

١١٥. طلب بني إسرائيل ملكاً للقتال واختيار طالوت:

المقطع [١١٥] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٦ـ٢٤٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢/ ٢٨٦»:

١. ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، الملأ كما قيل: الجماعة من الناس على رأي واحد، سميت بالملإ لكونها تملأ العيون عظمة وأبهة، وقولهم لنبيهم ﴿ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، على ما يعطيه السياق يدل على أن الملك المسمى بجالوت كان قد تملكهم، وسار فيهم بما افتقدوا به جميع شئون حياتهم المستقلة من الديار و الأولاد بعد ما كان الله أنجاهم من آل فرعون، يسومونهم سوء العذاب ببعثة موسى وولايته وولاية من بعده من أوصيائه، وبلغ من اشتداد الأمر عليهم ما انتبه به الخامد من قواهم الباطنة، وعاد إلى أنفسهم العصبية الزائلة المضعفة فعند ذلك سأل الملأ منهم نبيهم أن يبعث لهم ملكا ليرتفع به اختلاف الكلمة من بينهم وتجتمع به قواهم المتفرقة الساقطة عن التأثير، ويقاتلوا تحت أمره في سبيل الله.

٢. ﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾:

أ. كان بنو إسرائيل سألوا نبيهم أن يبعث لهم ملكا يقاتلون معه في سبيل الله وليس ذلك للنبي بل الأمر في ذلك إلى الله سبحانه، ولذلك أرجع نبيهم الأمر في القتال وبعث الملك إلى الله تعالى، ولم يصرح باسمه تعظيما لأن الذي أجابهم به هو السؤال عن مخالفتهم وكانت مرجوة منهم ظاهرة من حالهم بوحيه تعالى فنزه اسمه تعالى من التصريح به بل إنما أشار إلى أن الأمر منه وإليه تعالى بقوله: إن كتب، والكتابة، وهي الفرض إنما تكون من الله تعالى.

ب. كانت المخالفة والتولي عن القتال مرجوا منهم لكنه أورده بطريق الاستفهام ليتم الحجة عليهم بإنكارهم فيما سيجيبون به من قولهم: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِّ﴾

٣. قالوا: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِّ وَقَدْ أُخْرِجْنَا﴾،، الإخراج، من البلاد لما كان ملازما للتفرقة بينهم وبين أوطانهم المألوفة، ومنعهم عن التصرف فيها والتمتع بها، كني به عن مطلق التصرف والتمتع، ولذلك نسب الإخراج إلى الأبناء أيضا كما نسب إلى البلاد.

٤. ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللهُّ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾، تفريع على قول نبيهم: ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ﴾ الآية، وقولهم: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ﴾، وفي قوله تعالى: ﴿وَاللهُّ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾، دلالة على أن قول نبيهم لهم: ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾، إنما كان لوحي من الله سبحانه: أنهم سيتولون عن القتال.

٥. ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللهَّ قَدْ بَعَثَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿مِنَ الْمَالِ﴾:

أ. في جوابه عليه السلام هذا حيث نسب بعث الملك إلى الله تنبيه بما فات منهم إذ قالوا لنبيهم ابعث لنا ملكا نقاتل ولم يقولوا: اسأل الله أن يبعث لنا ملكا ويكتب لنا القتال.

ب. بالجملة التصريح باسم طالوت هو الذي أوجب منهم الاعتراض على ملكه وذلك لوجود صفتين فيه كانتا تنافيان عندهم الملك، وهما ما حكاهما الله تعالى من قولهم: ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ﴾، ومن المعلوم أن قولهم هذا لنبيهم، ولم يستدلوا على كونهم أحق بالملك منه بشيء يدل على أن دليله كان أمرا بينا لا يحتاج إلى الذكر، وليس إلا أن بيت النبوة وبيت الملك في بني إسرائيل وهما بيتان مفتخران بموهبة النبوة والملك كانتا غير البيت الذي كان منه طالوت، وبعبارة أخرى لم يكن طالوت من بيت الملك ولا من بيت النبوة ولذلك اعترضوا على ملكه بأنى، وهم أهل بيت الملك أو الملك والنبوة معا، أحق بالملك منه لأن الله جعل الملك فينا فكيف يقبل الانتقال إلى غيرنا، وهذا الكلام منهم من فروع قولهم بنفي البداء وعدم جواز النسخ والتغيير حيث قالوا ﴿يَدُ اللهَّ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾، وقد أجاب عنه نبيهم بقوله: ﴿إِنَّ اللهَّ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ﴾ فهذه إحدى الصفتين المنافيتين للملك عندهم، والصفة الثانية ما في قولهم ﴿وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ﴾ وقد كان طالوت فقيرا، وقد أجاب عنه نبيهم بقوله: ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ الآية.

٦. ﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾، الاصطفاء والاستصفاء، الاختيار وأصله الصفو، والبسطة، هي السعة والقدرة، وهذان جوابان عن اعتراضهم:

أ. أما اعتراضهم بكونهم أحق بالملك من طالوت لشرف بيتهم، فجوابه: أن هذه مزية كان الله سبحانه خص بيتهم بها وإذا اصطفى عليهم غيرهم كان أحق بالملك منهم، وكان الشرف والتقدم لبيته على بيوتهم ولشخصه على أشخاصهم، فإنما الفضل يتبع تفضيله تعالى.

ب. أما اعتراضهم بأنه لم يؤت سعة من المال، فجوابه: أن الملك وهو استقرار السلطة على مجتمع من الناس حيث كان الغرض الوحيد منه أن يتلاءم الإرادات المتفرقة من الناس وتجتمع تحت إرادة واحدة وتتحد الأزمة باتصالها بزمام واحد فيسير بذلك كل فرد من أفراد المجتمع طريق كماله اللائق به فلا يزاحم بذلك فرد فردا، ولا يتقدم فرد من غير حق، ولا يتأخر فرد من غير حق، وبالجملة الغرض من الملك أن يدبر صاحبه المجتمع تدبيرا يوصل كل فرد من أفراده إلى كماله اللائق به، ويدفع كل ما يمانع ذلك، والذي يلزم وجوده في نيل هذا المطلوب أمران:

- أحدهما: العلم بجميع مصالح حياة الناس ومفاسدها.
- ثانيهما: القدرة الجسمية على إجراء ما يراه من مصالح المملكة، وهما اللذان يشير إليهما قوله تعالى: ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾، وأما سعة المال فعده من مقومات الملك من الجهل.

٧. ثم جمع الجميع تحت حجة واحدة ذكرها بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ﴾:

أ. وهو أن الملك لله وحده ليس لأحد فيه نصيب إلا ما آتاه الله سبحانه منه وهو مع ذلك لله كما يفيده الإضافة في قوله تعالى، ﴿يُؤْتِي مُلْكَهُ﴾، وإذا كان كذلك فله تعالى التصرف في ملكه كيف شاء وأراد، ليس لأحد أن يقول: لماذا أو بما ذا (أي أن يسأل عن علة التصرف لأن الله تعالى هو السبب المطلق، ولا عن متمم العلية وأداة الفعل لأن الله تعالى تام لا يحتاج إلى متمفلا ينبغي السؤال عن نقل الملك من بيت إلى بيت، أو تقليده أحدا ليس له أسبابه الظاهرة من الجمع والمال.

ب. الإيتاء والإفاضة الإلهية وإن كانت كيف شاء ولمن شاء غير أنها مع ذلك لا تقع جزافا خالية عن الحكم والمصالح، فإن المقصود من قولنا: إنه تعالى يفعل ما يشاء، ويؤتي الملك من يشاء ونظائر ذلك ليس أن الله سبحانه لا يراعي في فعله جانب المصلحة أو أنه يفعل فعلا فإن اتفق أن صادف المصلحة فقد

صادف وإن لم يصادف فقد صار جزافا ولا محذور لأن الملك له فله أن يفعل ما يشاء هذا، فإن هذا مما يبطله الظواهر الدينية والبراهين العقلية، بل المقصود بذلك: أن الله سبحانه حيث ينتهي إليه كل خلق وأمر فالمصالح وجهات الخير مثل سائر الأشياء مخلوقة له تعالى، وإذا كان كذلك لم يكن الله سبحانه في فعله مقهورا لمصلحة من المصالح محكوما بحكمها، كما أننا في أفعالنا كذلك، فإذا فعل سبحانه فعلا أو خلق خلقا ولا يفعل إلا الجميل، ولا يخلق إلا الحسن كان فعله ذا مصلحة مرعيا فيه صلاح العباد غير أنه تعالى غير محكوم ولا مقهور للمصلحة.

ج. من هنا صح اجتماع هذا التعليل مع ما تقدمه، أعني اجتماع قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ﴾، مع قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾، فإن الحجة الأولى مشتملة على التعليل بالمصالح والأسباب، والحجة الثانية على إطلاق الملك الذي يفعل ما يشاء، ولولا أن إطلاق الملك وكونه تعالى يفعل ما يشاء لا ينافي كون أفعاله مقارنة للمصالح والحكم لم يصح الجمع بين الكلامين فضلا عن تأييد أحدهما أو تتميمه بالآخر.

٨. أوضح هذا المعنى أحسن الإيضاح تذييل الآية بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ فإن الواسع يدل على عدم ممنوعيته تعالى عن فعل وإيتاء أصلا والعليم يدل على أن فعله تعالى فعل يقع عن علم ثابت غير مخطئ فهو سبحانه يفعل كل ما يشاء ولا يفعل إلا فعلا ذا مصلحة، والوسعة والسعة في الأصل حال في الجسم به يقبل أشياء أخر من حيث التمكن كسعة الإناء لما يصب فيه، والصندوق لما يوضع فيه، والدار لمن يحل فيها ثم أستعير للغني ولكن لا كل غني ومن كل جهة، بل من جهة إمكان البذل معه كان المال يسع بذل ما أريد بذله وبهذا المعنى يطلق عليه سبحانه، فهو سبحانه واسع أي غني لا يعجزه بذل ما أراد بذله بل يقدر على ذلك.

٩. ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾، التابوت، هو الصندوق، وهو على ما قيل فعلوت من التوب بمعنى الرجوع لأن الإنسان يرجع إلى الصندوق رجوعا بعد رجوع.

١٠. وضع هنا مبحثا حول [السكينة: معناها، حقيقتها، وعلاقتها بالإيمان والروح الإلهي]، خلاصته:

أ. السكينة من السكون، وتستعمل في سكون القلب واستقرار النفس وعدم الاضطراب في تصميم الإرادة.

ب. الله جعل السكينة من خواص الإيمان في مرتبة كماله، وعدّها من مواهبه السامية.

ج. المؤمن بإيمانه مستند إلى سناد لا يتحرك، وركن لا ينهدم، بخلاف غير المؤمن الذي يقع في ظلمات الأفكار الناشئة من الهوى والخيال.

د. الآيات القرآنية تضع كل خوف وحزن واضطراب في جانب الكفر، وما يقابلها من الصفات في جانب الإيمان.

هـ. المؤمن له نور إلهي يبصر به طريقه، وهذه الحياة الجديدة هي التي تستتبع السكينة والاستقرار.

و. السكينة في الآيات تنطبق على ﴿الرُّوحُ﴾ الإلهي، وتستلزم روحاً من أمر الله توجب سكينة القلب واستقرار النفس.

ز. إطلاق السكينة على الروح الإلهي لا يخرج الكلام عن معناه الظاهر، بل هو استعمال في معناها الحقيقي مع التوسع.

١١. ﴿وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ الآية، آل الرجل خاصته من أهله ويدخل فيهم نفسه إذا أطلق، فآل موسى وآل هارون هم موسى وهارون وخاصتهما من أهلهما، وقوله تعالى: ﴿تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾، حال عن التابوت، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، كسياق صدر الآية دلالة على أنهم سألوا نبيهم آية على صدق ما أخبر به ﴿إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾

١٢. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ﴾ [البقرة: ٢٤٦] الآية، هو أشموئيل، وهو بالعربية إسماعيل.

• أقول: وهو مروي من طرق أهل السنة أيضاً، وشموئيل هو الذي يوجد في العهدين بلفظ صموئيل.

ب. وفي تفسير القمي عن أبيه عن النضر بن سويد عن يحيى الحلبي عن هارون بن خارجة عن أبي

بصير عن أبي جعفر عليه السلام: أن بني إسرائيل بعد موت موسى عملوا بالمعاصي، وغيروا دين الله، وعتوا عن أمر ربهم، وكان فيهم نبي يأمرهم وينهاهم فلم يطيعوه، وروي أنه أرميا النبي على نبينا وآله وعليه السلام، فسلط الله عليهم جالوت وهو من القبط، فأذلهم وقتل رجالهم وأخرجهم من ديارهم وأموالهم، واستعبد نساءهم، ففزعوا إلى نبيهم، وقالوا: سل الله أن يبعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله، وكانت النبوة في بني إسرائيل في بيت، والملك والسلطان في بيت آخر، ولم يجمع الله النبوة والملك في بيت واحد، فمن أجل ذلك قالوا لنبيهم: ﴿ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٦]، فقال لهم نبيهم: ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾ [البقرة: ٢٤٦]؟ فقالوا: وما لنا أن لا نقاتل في سبيل الله، وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا؟ فكان كما قال الله: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٦]، فقال لهم نبيهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ [البقرة: ٢٤٧]، فغضبوا من ذلك، وقالوا: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ﴾ [البقرة: ٢٤٧]، وكانت النبوة في بيت لاوي، والملك في بيت يوسف، وكان طالوت من ولد بنيامين أخي يوسف لأمه وأبيه، ولم يكن من بيت النبوة ولا من بيت المملكة، فقال لهم نبيهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٧]، وكان أعظمهم جسماً، وكان قوياً وكان أعلمهم، إلا أنه كان فقيراً، فعابوه بالفقر، فقالوا: لم يؤت سعة من المال، فقال لهم نبيهم: ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ [البقرة: ٢٤٨]، وكان التابوت الذي أنزل الله على موسى، فوضعته فيه أمه وألقته في اليم، فكان في بني إسرائيل يتبركون به، فلما حضر موسى الوفاة، وضع فيه الألواح ودرعه وما كان عنده من آيات النبوة، وأودعه عند يوشع وصيه، ولم يزل التابوت بينهم حتى استخفوا به، وكان الصبيان يلعبون به في الطرقات، فلم يزل بنو إسرائيل في عز وشرف ما دام التابوت عندهم، فلما عملوا بالمعاصي واستخفوا بالتابوت، رفعه الله عنهم، فلما سألوا النبي، بعث الله عليهم طالوت ملكاً، فقاتل معهم، فرد الله عليهم التابوت، كما قال: ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ﴾، قال: البقية ذرية الأنبياء.

• أقول: قوله: (وروي أنه أرميا النبي) رواية معترضة في الرواية، قوله عليه السلام: (فكان كما قال الله) أي تولى الكثيرون، ولم يبق على تسليم حكم القتال إلا قليل منهم، وفي بعض الأخبار أن هذا القليل

كانوا ستين ألفاً، روى ذلك القمي في تفسيره عن أبيه عن الحسين بن خالد عن الرضا عليه السلام، ورواه العياشي عن الباقر عليه السلام، وقوله: (وكانت النبوة في بيت لاوي، والملك في بيت يوسف)، وقد قيل: إن الملك كان في بيت يهوذا، وقد اعترض عليه أن لم يكن بينهم ملك قبل طالوت وداود وسليمان حتى يكون في بيت يهوذا، وهذا يؤيد ما ورد في أحاديث أئمة أهل البيت أن الملك كان في بيت يوسف، فإن كون يوسف ملكاً مما لا ينكر، وقوله: (قال: والبقية ذرية الأنبياء) هو من الراوي، وإنما فسر عليه السلام بقوله: (ذرية الأنبياء) قوله: ﴿آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ﴾، ويؤيد ما ذكرناه ما في تفسير العياشي عن الصادق عليه السلام: أنه سئل عن قول الله: ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾، فقال: ذرية الأنبياء.

ج. وفي الكافي بإسناده عن أحمد بن محمد عن الحسين بن سعيد عن فضالة بن أيوب عن يحيى الحلبي عن عبد الله بن سليمان عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ﴾ إلى قوله: ﴿تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾، قال: كانت تحمله في صورة البقرة.

• واعلم أن الوجه في ذكر سند هذا الحديث، مع أنه ليس من دأب الكتاب ذلك، لأن إسقاط الأسانيد فيه إنما هو لمكان موافقة القرآن، ومعه لا حاجة إلى ذكر سند الحديث، أما فيما لا يطرد فيه الموافقة، ولا يتأتى التطبيق، فلا بد من ذكر الإسناد، ونحن مع ذلك نختار للإيراد روايات صحيحة الإسناد أو مؤيدة بالقرائن.

د. في المجمع قال: إن السكينة التي كانت فيه ريح هفافة من الجنة، لها وجه كوجه الإنسان، عن علي عليه السلام.

• أقول: وروي هذا المعنى في الدر المنثور عن سفيان بن عيينة وابن جرير من طريق سلمة بن كهيل عن علي عليه السلام، وكذا عن عبد الرزاق وأبي عبيد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه، وابن عساكر والبيهقي في الدلائل من طريق أبي الأحوص عن علي عليه السلام مثله.

هـ. وفي تفسير القمي عن أبيه عن علي بن الحسين بن خالد عن الرضا عليه السلام: السكينة ريح من الجنة، لها وجه كوجه الإنسان.

• أقول: وروى هذا المعنى أيضاً الصدوق في المعاني والعياشي في تفسيره عن الرضا عليه السلام.

• وهذه الأخبار الواردة في معنى السكينة وإن كانت آحاداً، إلا أنها قابلة التوجيه والتقريب إلى

معنى الآية، فإن المراد بها على تقدير صحتها: أن السكينة مرتبة من مراتب النفس في الكمال، توجب سكون النفس وطمأنينتها إلى أمر الله.

• وأمثال هذه التعبيرات المشتملة على التمثيل كثيرة في كلام الأئمة، فينطبق حينئذ على روح الإيمان.

• وقد عرفت في البيان السابق أن السكينة منطبقة على روح الإيمان، وعلى هذا المعنى ينبغي أن يحمل ما في المعاني عن أبي الحسن عليه السلام في السكينة، قال عليه السلام: روح الله يتكلم، كانوا إذا اختلفوا في شيء كلمهم وأخبرهم، الحديث، فإنما هو روح الإيمان يهدي المؤمن إلى الحق المختلف فيه.

١١٦. اختبار طالوت للجنود بالنهر وهزيمة جالوت:

المقطع [١١٦] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللهَّ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللهَّ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهَّ وَاللهَّ مَعَ الصَّابِرِينَ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللهَّ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللهَّ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٤٩-٢٥١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢/ ٢٩٢»:

١. ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللهَّ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ﴾:

أ. الفصل هاهنا مفارقة المكان كما في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾، وربما استعمل بمعنى القطع وهو إيجاد المفارقة بين الشيئين كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧]، فالكلمة مما يتعدى ولا يتعدى، والجند المجتمع الغليظ من كل شيء وسمي العسكر جندا لتراكم الأشخاص فيه وغلظتهم، وفي جمع الجند في الكلام دلالة على أنهم كانوا من الكثرة على حد يعتنى به وخاصة مع ما فيه المؤمنين من القلة بعد جواز النهر وتفرق الناس، ونظير هذه النكتة موجود في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ﴾

ب. في مجموع الكلام إشارة إلى حق الأمر في شأن بني إسرائيل وإيفائهم بميثاق الله، فإنهم سألوا بعث الملك جميعا وشدوا الميثاق، وقد كانوا من الكثرة بحيث لما تولوا إلا قليلا منهم عن القتال كان ذلك

القليل الباقي جنودا وهذه الجنود، أيضا لم تغن عنهم شيئا بل تخلفوا بشرب النهر ولم يبق إلا القليل من القليل مع شائبة فشل ونفاق بينهم من جهة المغترفين، ومع ذلك كان النصر للذين آمنوا وصبروا مع ما كان عليه جنود طالوت من الكثرة.

ج. الابتلاء الامتحان، والنهر مجرى الماء الفائض، والاغتراف والغرف رفع الشيء وتناوله، يقال: غرف الماء غرفة واغترفه غرفة إذا رفعه ليتناوله ويشربه، وفي استثناء قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ عن مطلق الشرب دلالة على أنه كان المنهي عنه هو الشرب على حالة خاصة.

د. وقد كان الظاهر أن يقال: فمن شرب منه فليس مني إلا من اغترف غرفة بيده غير أن وضع قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾، في الكلام مع تبديل الشرب بالطعم ومعناه الذوق أوجب تحولا في الكلام من جهة المعنى إذ لو لم تضف الجملة الثانية كان مفاد الكلام أن جميع الجنود كانوا من طالوت، والشرب يوجب انقطاع جمع منه والاغتراف يوجب الانقطاع من المنقطع أي الاتصال وأما لو أضيفت الجملة الثانية، أعني قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ إلى الجملة الأولى كان مفاد الكلام أن الأمر غير مستقر بحسب الحقيقة بعد إلا بحسب الظاهر فالجنود في الظاهر مع طالوت لكن لم يتحقق بعد أن الذين هم مع طالوت من هم، ثم النهر الذي سيبتليهم الله به سيحقق كلا الفريقين ويشخصهما فيعين به من ليس منه وهو من شرب من النهر، ويتعين به من هو منه وهو من لم يطعمه، وإذا كان هذا هو المفاد من الكلام لم يفد قوله في الاستثناء إلا من اغترف غرفة بيده كون المغترفين من طالوت لأن ذلك إنما كان مفادا لو كان المذكور هناك الجملة الأولى فقط، وأما مع وجود الجملتين فيتعين الطائفتان: أعني الذين ليسوا منه وهم الشاربون، والذين هم منه وهم غير الطاعمين، ومن المعلوم أن الإخراج من الطائفة الأولى إنما يوجب الخروج منها لا الدخول في الثانية، ولازم ذلك أن الكلام يوجب وجود ثلاث طوائف: الذين ليسوا منه، والذين هم منه، والمغترفون، وعلى هذا فالباقون معه بعد الجواز طائفتان: الذين هم منه، والذين ليسوا من الخارجين، فجاز أن يختلف حالهم في الصبر والجزع والاعتماد بالله والقلق والاضطراب.

٢. ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ الفئة القطعة من الناس، والتدبر في الآيات يعطي أن يكون القائلون: لا طاقة لنا، هم المغترفون، والمجيبون لهم هم الذين لم يطعموه أصلا، والظن بلقاء الله إما بمعنى اليقين به وإما كناية عن الخشوع، ولم يقولوا: يمكن أن تغلب الفئة القليلة الفئة الكثيرة بإذن الله، بل قالوا

﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ﴾ الآية، أخذا بالواقع في الاحتجاج بآرائه المصداق ليكون أقنع للخصم.

٣. ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ الآية، البروز هو الظهور، ومنه البراز وهو الظهور للحرب، والإفراغ صب نحو المادة السيالة في القالب والمراد إفاضة الله سبحانه الصبر عليهم على قدر ظرفيتهم فهو استعارة بالكناية لطيفة، وكذا تثبيت الأقدام كناية عن الثبات وعدم الفرار، ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ الآية، الهزم الدفع.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي عن محمد بن يحيى، عن محمد بن أحمد، عن محمد بن خالد، والحسين بن سعيد، عن النصر بن سويد، عن يحيى الحلبي، عن هارون بن خارجة، عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام في حديث: وقال الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾، فشربوا منه إلا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، منهم من اغترف، ومنهم من لم يشرب، فلما برزوا لجالوت، قال الذين اغترفوا: لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده، وقال الذين لم يغترفوا: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾

• أقول: وأما كون الباقين مع طالوت ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً بعدد أهل بدر، فقد كثر فيه الروايات من طرق الخاصة والعامة، وأما كون القائلين: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا﴾ هم المغترفين، وكون القائلين: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ﴾ هم الذين لم يشربوا أصلاً، فيمكن استفادته من نحو الاستثناء في الآية على ما بيناه من معنى الاستثناء.

ب. وفي تفسير العياشي عن محمد الحلبي عن الصادق عليه السلام قال: كان داود وإخوة له أربعة، ومعهم أبوهم شيخ كبير، وتخلف داود في غنم لأبيه، ففصل طالوت بالجنود، فدعاه أبو داود وهو أصغرهم، فقال: يا بني، اذهب إلى إخوتك بهذا الذي صنعناه لهم يتقووا به على عدوهم، وكان رجلاً قصيراً أرزق قليل الشعر طاهر القلب، فخرج وقد تقارب القوم بعضهم من بعض، فذكر عن أبي بصير قال: سمعته يقول: فمر داود على حجر، فقال الحجر: يا داود، خذني واقتل بي جالوت، فإني إنما خلقت لقتله، فأخذه فوضعه في مخلاته التي تكون فيها حجارته التي يرمي بها عن غنمه بمقذافه، فلما دخل العسكر، سمعهم يتعظمون أمر جالوت، فقال لهم داود: ما تعظمون من أمره؟ فوالله لئن عاينته لأقتلنه،

فحدثوا بخبره حتى أدخل على طالوت، فقال: يا فتى، وما عندك من القوة؟ وما جربت من نفسك؟ قال: كان الأسد يعدو على الشاة من غنمي، فأدركه فآخذ برأسه، فأفك لحييه منها، فآخذها من فيه، قال: فقال: ادع لي بدرع سابغة، فأتي بدرع، فقذفها في عنقه فتملأ منها، حتى راع طالوت ومن حضره من بني إسرائيل، فقال طالوت: والله لعسى الله أن يقتله به، قال: فلما أصبحوا ورجعوا إلى طالوت والتقى الناس، قال داود: أروني جالوت، فلما رآه، أخذ الحجر فجعله في مقذافه، فرماه فصك به بين عينيه، فدمغه ونكس عن دابته، وقال الناس: قتل داود جالوت، وملكه الناس حتى لم يكن يسمع لطالوت ذكر، واجتمعت بنو إسرائيل على داود، وأنزل الله عليه الزبور، وعلمه صنعة الحديد فلين له، وأمر الجبال والطير يسبحن معه، قال: ولم يعط أحد مثل صوته، فأقام داود في بني إسرائيل مستخفياً، وأعطى قود في عبادته.

• أقول: المقذاف: المقلاع الذي يكون للرعاة يرمون به الأحجار، وقد اتفقت ألسنة الأخبار من طرق الفريقين أن داود قتل جالوت بالحجر.

١١٧. دفع الله الناس بعضهم ببعض سبب صلاح الأرض:

المقطع [١١٧] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١-٢٥٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢/ ٢٩٢»:

١. ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ إلى آخر الآية:

أ. من المعلوم أن المراد بفساد الأرض فساد من على الأرض أي فساد الاجتماع الإنساني ولو استتبع فساد الاجتماع فسادا في أديم الأرض فإنما هو داخل في الغرض بالتبع لا بالذات، وهذه حقيقة من الحقائق العلمية ينبه لها القرآن.

ب. بيان ذلك: أن سعادة هذه النوع لا تتم إلا بالاجتماع والتعاون، ومن المعلوم أن هذا الأمر لا يتم إلا مع حصول وحدة ما في هيكل الاجتماع بها تتحد أعضاء الاجتماع وأجزاؤه بعضها مع بعض بحيث يعود الجميع كالفرد الواحد يفعل وينفعل عن نفس واحدة وبدن واحد، والوحدة الاجتماعية ومركبها الذي هو اجتماع أفراد النوع حالها شبيه حال الوحدة الاجتماعية التي في الكون ومركبها الذي هو اجتماع أجزاء هذا العالم المشهود، ومن المعلوم أن وحدة هذا النظام أعني نظام التكوين إنما هي نتيجة التأثير والتأثر

الموجودين بين أجزاء العالم فلولا المغالبة بين الأسباب التكوينية وغلبة بعضها على بعض واندفاع بعضها الآخر عنه ومغلوبيتها له لم يرتبط أجزاء النظام بعضها ببعض بل بقي كل على فعليته التي هي له، وعند ذلك بطل الحركات فبطل عالم الوجود.

ج. كذلك نظام الاجتماع الإنساني لو لم يقم على أساس التأثير والتأثر، والدفع والغلبة لم يرتبط أجزاء النظام بعضها ببعض، ولم يتحقق حينئذ نظام وبطلت سعادة النوع، فإنا لو فرضنا ارتفاع الدفع بهذا المعنى، وهو الغلبة وتحميل الإرادة من البين كان كل فرد من أفراد الاجتماع فعل فعلا ينافي منافع الآخر (سواء منافعه المشروعة أو غيرهلم يكن للآخر إرجاعه إلى ما يوافق منافعه ويلائمها وهكذا، وبذلك تنقطع الوحدة من بين الأجزاء وبطل الاجتماع، وهذا البحث هو الذي بحثنا عنه فيما مر: أن الأصل الأول الفطري للإنسان المكون للاجتماع هو الاستخدام، وأما التعاون والمدنية فمتفرع عليه وأصل ثانوي، وقد مر تفصيل الكلام في تفسير قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾

د. في الحقيقة معنى الدفع والغلبة معنى عام سار في جميع شئون الاجتماع الإنساني وحقيقته حمل الغير بأي وجه أمكن على ما يريده الإنسان، ودفعه عما يزاحمه ويمانعه عليه، وهذا معنى عام موجود في الحرب والسلم معا، وفي الشدة والرخاء، والراحة والعناء جميعا، وبين جميع الأفراد في جميع شعوب الاجتماع، نعم إنما يتنبه الإنسان له عند ظهور المخالفة ومزاحمة بعض الأفراد بعضهم في حقوق الحياة أو في الشهوات والميول ونحوها، فيشرع الإنسان في دفع الإنسان المزاحم المانع عن حقه أو عن مشتهاه ومعلوم أن هذا على مراتب ضعيفة وشديدة، والقتال والحرب إحدى مراتبه.

هـ. هذه الحقيقة أعني كون الدفع والغلبة من الأصول الفطرية عند الإنسان أصل فطري أعم من أن يكون هذا الدفع دفعا بالعدل عن حق مشروع أو بغير ذلك، إذ لو لم يكن في فطرة الإنسان أصل مسلم على هذه الوتيرة لم يتحقق منه، لا دفاع مشروع على الحق لا غيره، فإن أعمال الإنسان تستند إلى فطرته كما مر بيانه سابقا فلولا اشتراك الفطرة بين المؤمن والكافر لم يمكن أن يختص المؤمن بفطرة يبني عليها أعماله.

و. هذا الأصل الفطري ينتفع به الإنسان في إيجاد أصل الاجتماع على ما مر من البيان، ثم ينتفع به في تحميل إرادته على غيره وتمالك ما بيده تغلبا وبغيا، وينتفع به في دفعه واسترداد ما تملكه تغلبا وبغيا، وينتفع به في إحياء الحق بعد موته جهلا بين الناس وتحميل سعادتهم عليهم، فهو أصل فطري ينتفع به

الإنسان أكثر مما يستضر به.

٢. هذا الذي ذكرناه (لعله) هو المراد بقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾، ويؤيد ذلك تذييله بقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١]:

أ. وقد ذكر بعض المفسرين أن المراد بالدفع في الآية دفع الله الكافرين بالمؤمنين كما أن المورد أيضا كذلك وربما أيده أيضا قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ﴾، وفيه أنه في نفسه معنى صحيح لكن ظاهر الآية أن المراد بصلاح الأرض مطلق الصلاح الدائم المبقي للاجتماع دون الصلاح الخاص الموجود في أحيان يسيرة كقصة طالوت وقصص أخرى يسيرة معدودة.

ب. وربما ذكر آخرون: أن المراد بها دفع الله العذاب والهلاك عن الفاجر بسبب البر، وقد وردت فيه من طرق العامة والخاصة روايات كما في المجمع، والدر المنثور، عن جابر، قال قال رسول الله ﷺ: (إن الله يصلح بصلاح الرجل المسلم ولده وولد ولده وأهل دويرته ودويرات حوله، ولا يزالون في حفظ الله ما دام فيهم)، وفي الكافي، وتفسير العياشي، عن الصادق عليه السلام، قال: (إن الله ليدفع بمن يصلي من شيعتنا عمن لا يصلي من شيعتنا، ولو اجتمعوا على ترك الصلاة لهلكوا، وإن الله ليدفع بمن يزكي من شيعتنا عمن لا يزكي، ولو اجتمعوا على ترك الزكاة لهلكوا، وإن الله ليدفع بمن يحج من شيعتنا عمن لا يحج، ولو اجتمعوا على ترك الحج لهلكوا) الحديث، ومثلهما غيرهما، وفيه: أن عدم انطباق الآيتين على معنى الحديثين مما لا يخفى إلا أن تنطبق عليهما من جهة أن موردهما أيضا من مصاديق دفع الناس.

ج. وربما ذكر بعضهم: أن المراد دفع الله الظالمين بالظالمين، وهو كما ترى.

٣. ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ﴾ الآية، كالخاتمة يختم بها الكلام والقصة غير أن آخر الآية ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾، لا يخلو عن ارتباط بالآية التالية.

٤. وضع هنا مبحثا حول [تنازع البقاء والانتخاب الطبيعي في ضوء القرآن والفلسفة الاجتماعية]، خلاصته:

أ. التجارب العلمية تثبت قانونين طبيعيين: تنازع البقاء، والانتخاب الطبيعي وبقاء الأمثل، وهما يجريان في الطبيعة والاجتماع.

ب. المتأخرون ناقضوا هذين القانونين بوجود أنواع ضعيفة باقية، وبنجاح التربية في تحسين الأنواع مع بقاء البريء منها، مما يدل على عدم اطراد القاعدتين.

ج. بعضهم علل ذلك بقاعدة (تبعية المحيط)، لكنها أيضاً غير مطردة، والحق أن هذه القواعد صحيحة في الجملة لكنها غير مطردة.

د. النظر الفلسفي يؤكد قانون العلية، فالموجودات تتنازع في البقاء، والأقوى يتصرف في الأضعف، وهذا يوجه قانوني الانتخاب وتبعية المحيط.

هـ. بعض المفسرين فسروا آية ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ وقوله: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ بقانوني تنازع البقاء والانتخاب، لكن الطباطبائي يردّ بأن الآيات ليست مسوقة لبيان هذين القانونين.

و. آية الدفع مسوقة لبيان أن الله غير مغلوب، وأن الحق منصور، وأن الغلبة للحق لا للقوي الطبيعي.

ز. آية ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ مسوقة لبيان بقاء الحق وزهوق الباطل، سواء كان بالتنازع أو بدونه.

ح. الآية التي نحن فيها ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ﴾ تشير إلى غريزة الاستخدام التي تؤدي إلى التصالح والاجتماع، وليس إلى قانوني التنازع والانتخاب، لأن هذين القانونين يوجبان الفناء والوحدة، بينما الاجتماع يقوم على الكثرة والتعاون.

٥. وضع هنا مبحثا حول [التاريخ النقلي في القرآن: الفساد، وموقف القرآن من قصصه]، خلاصته:

أ. التاريخ النقلي (ضبط الحوادث بالنقل) لم يزل الإنسان مهتماً به، وينتفع به في مجالات متعددة.

ب. عاملان يفسدان التاريخ النقلي: الأول، تبعية المؤرخين للحكومات القوية التي تميل إلى إظهار ما ينفعها وستر ما يضرها، الثاني، تأثر الناقلين والمؤلفين بالإحساسات الباطنية والعصبيات القومية والمذهبية.

ج. اليوم، السياسة تدخلت في جميع شؤون التاريخ، مما زاد من سوء الظن به، ودفع العلماء إلى الاعتماد على الآثار الأرضية بدلاً من النقل.

د. القرآن لا يعارض بالتاريخ إذا خالفه، لأنه وحي إلهي منزه عن الخطأ، بينما التاريخ النقلي مملوء بالكذب والتحريف.

هـ. القرآن ليس كتاب تاريخ، ولا يقص القصة بتمام أطرافها، بل يأخذ منها نكاتاً متفرقة للعبرة والموعظة والحكمة.

و. الهدف من القصص القرآني هو الهداية والبيان، لا التسجيل التاريخي التفصيلي.

١١٨. تفضيل الله بعض الرسل على بعض واختلاف الأتباع:

المقطع [١١٨] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢/ ٣٠٩»:

١. ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾:

أ. إشارة إلى فخامة أمر الرسل وعلو مقامهم ولذلك جيء في الإشارة بكلمة تلك الدالة على الإشارة إلى بعيد، وفيه دلالة على التفضيل الإلهي الواقع بين الأنبياء عليه السلام ففيهم من هو أفضل وفيهم من هو مفضل عليه، وللجميع فضل فإن الرسالة في نفسها فضيلة وهي مشتركة بين الجميع، ففيما بين الرسل أيضا اختلاف في المقامات وتفاوت في الدرجات كما أن بين الذين بعدهم اختلافا على ما يدل عليه ذيل الآية إلا أن بين الاختلافين فرقا، فإن الاختلاف بين الأنبياء اختلاف في المقامات وتفاضل في الدرجات مع اتحادهم في أصل الفضل وهو الرسالة، واجتماعهم في مجمع الكمال وهو التوحيد، وهذا بخلاف الاختلاف الموجود بين أمم الأنبياء بعدهم فإنه اختلاف بالإيمان والكفر، والنفي والإثبات، ومن المعلوم أن لا جامع في هذا النحو من الاختلاف، ولذلك فرق تعالى بينهما من حيث التعبير فسمى ما للأنبياء تفضيلا ونسبه إلى نفسه، وسمى ما عند الناس بالاختلاف ونسبه إلى أنفسهم، فقال في مورد الرسل فضلنا، وفي مورد أممهم اختلفوا.

ب. لما كان ذيل الآية متعرضا لمسألة القتال مرتبطا بها والآيات المتقدمة على الآية أيضا راجعة إلى القتال بالأمر به والاقتصاص فيه لم يكن مناص من كون هذه القطعة من الكلام أعني قوله تعالى: ﴿تِلْكَ

الرُّسُلُ فَضَّلْنَا﴾ إلى قوله: ﴿بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ مقدمة لتبيين ما في ذيل الآية من قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾، وعلى هذا فصدر الآية لبيان أن مقام الرسالة على اشتراكه بين الرسل عليه السلام مقام تنمو فيه الخيرات والبركات، وتنبع فيه الكمال والسعادة ودرجات القربى والزلفى كالتكليم الإلهي وإيتاء البينات والتأييد بروح القدس، وهذا المقام على ما فيه من الخير والكمال لم يوجب ارتفاع القتال لاستناده إلى اختلاف الناس أنفسهم.

ج. بعبارة أخرى محصل معنى الآية أن الرسالة على ما هي عليه من الفضيلة مقام تنمو فيه الخيرات كلما انعطفت إلى جانب منه وجدت فضلا جديدا، وكلما ملت إلى نحو من أنحائه ألفيت غضا طريا، وهذا المقام على ما فيه من البهاء والسناء والإتيان بالآيات البينات لا يتم به رفع الاختلاف بين الناس بالكفر والإيمان، فإن هذا الاختلاف إنما يستند إلى أنفسهم فهم أنفسهم أوجدوا هذا الاختلاف كما قال تعالى في موضع قد مر بيانه في قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾، ولو شاء الله لمنع من هذا القتال الواقع بعدهم منعا تكوينيا، لكنهم اختلفوا فيما بينهم بغيا وقد أجرى الله في سنة الإيجاد سببية ومسببية بين الأشياء والاختلاف من علل التنازع، ولو شاء الله تعالى لمنع من هذا القتال منعا تشريعيا أو لم يأمر به؟ ولكنه تعالى أمر به وأراد بأمره البلاء والامتحان ليميز الله الخبيث من الطيب وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن الكاذبين.

د. بالجملة القتال بين أمم الأنبياء بعدهم لا مناص عنه لمكان الاختلاف عن بغي، والرسالة وبيناتها إنما تدحض الباطل وتزيل الشبه، وأما البغي واللجاج وما يشابههما من الرذائل فلا سبيل إلى تصفية الأرض منها، وإصلاح النوع فيها إلا القتال، فإن التجارب يعطي أن الحجة لم تنجح وحدها قط إلا إذا شفع بالسيف، ولذلك كان كلما اقتضت المصلحة أمر الله سبحانه بالقيام للحق والجهاد في سبيل الله كما في عهد إبراهيم وبني إسرائيل، وبعد بعثة رسول الله ص، وقد مر بعض الكلام في هذا المعنى في تفسير آيات القتال سابقا.

٢. ﴿مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾، في الجملتين التفات من الحضور إلى الغيبة، والوجه فيه والله أعلم، أن الصفات الفاضلة على قسمين:

أ. منها ما هو بحسب نفس مدلول الاسم يدل على الفضيلة كالآيات البينات، وكالتأييد بروح

القدس كما ذكر لعيسى عليه السلام فإن هذه الخصال بنفسها غالية سامية.

ب. ومنها: ما ليس كذلك، وإنما يدل على الفضيلة ويستلزم المنقبة بواسطة الإضافة كالتكليم، فإنه لا يعد في نفسه منقبة وفضيلة إلا أن يضاف إلى شيء فيكتسب منه البهاء والفضل كإضافته إلى الله عز اسمه، وكذا رفع الدرجات لا فضيلة فيه بنفسه إلا أن يقال: رفع الله الدرجات مثلا فينسب الرفع إلى الله، إذا عرفت هذا علمت: أن هذا هو الوجه في الالتفات من الحضور إلى الغيبة في اثنتين من الجمل الثلاث حيث قال تعالى: ﴿مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾، فحول وجه الكلام من التكلم إلى الغيبة في الجملتين الأولين حتى إذا استوفى الغرض عاد إلى وجه الكلام الأول وهو التكلم فقال تعالى: ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾

٣. اختلف المفسرون في المراد من الجملتين من هو؟

أ. فقيل المراد بمن كلم الله: موسى عليه السلام لقوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ وغيره من الآيات.

ب. وقيل المراد به رسول الله محمد ﷺ لما كلمه الله تعالى ليلة المعراج حيث قربه إليه تقريبا سقطت به الوسائط جملة فكلمه بالوحي من غير واسطة، قال تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾

ج. وقيل المراد به الوحي مطلقا لأن الوحي تكليم خفي، وقد سماه الله تعالى تكليما حيث قال: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ الآية، وهذا الوجه لا يلائم من التبعيضية التي في قوله تعالى: ﴿مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ﴾

د. الأوفق بالمقام كون المراد به موسى عليه السلام لأن تكليمه هو المعهود من كلامه تعالى النازل قبل هذه السورة المدنية، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ إلى أن قال: ﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي﴾، وهي آية مكية فقد كان كون موسى مكلما معهودا عند نزول هذه الآية.

٤. كذا في قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾:

أ. قيل المراد به محمد ﷺ لأن الله رفع درجته في تفضيله على جميع الرسل ببعثته إلى كافة الخلق كما

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾، وبجعله رحمة للعالمين كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾،وبجعله خاتما للنبوة كما قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾، وبإيتائه قرآنا مهيمنا على جميع الكتب وتبيانا لكل شيء ومحفوظا من تحريف المبطلين، ومعجزا باقيا ببقاء الدنيا كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾، وباختصاصه بدين قيم يقوم على جميع مصالح الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾

ب. وقيل المراد به ما رفع الله من درجة غير واحد من الأنبياء كما يدل عليه قوله تعالى في نوح عليه السلام: ﴿سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾، وقوله تعالى في إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، وقوله تعالى فيه ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾، وقوله تعالى في إدريس عليه السلام: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾، وقوله تعالى في يوسف ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ﴾، وقوله في داوود عليه السلام: ﴿وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾، إلى غير ذلك من مختصات الأنبياء.

٥. وكذا اختلفوا:

أ. قيل: إن المراد بالرسل في الآية هم الذين اختصوا بالذكر في سورة البقرة كإبراهيم وموسى وعيسى وعزير وأرميا وشموئيل وداوود ومحمد ﷺ، وقد ذكر موسى وعيسى من بينهم وبقي الباقون، فالبعض المرفوع الدرجة هو محمد ﷺ بالنسبة إلى الباقين.

ب. وقيل: لما كان المراد بالرسل في الآية هم الذين ذكرهم الله قبيل الآية في القصة وهم موسى وداوود وشموئيل ومحمد، وقد ذكر ما اختص به موسى من التكليم ثم ذكر رفع الدرجات وليس له إلا محمد ﷺ، ويمكن أن يوجه التصريح باسم عيسى على هذا القول: بأن يقال: إن الوجه فيه عدم سبق ذكره عليه السلام فيمن ذكر من الأنبياء في هذه الآيات.

٦. الذي ينبغي أن يقال: إنه لا شك أن ما رفع الله به درجة النبي ﷺ مقصود في الآية غير أنه لا وجه لتخصيص الآية به، ولا بمن ذكر في هذه الآيات أعني أرميا وشموئيل وداوود ومحمد ﷺ، ولا بمن ذكر في هذه السورة من الأنبياء فإن كل ذلك تحكم من غير وجه ظاهر، بل الظاهر من إطلاق الآية شمول

الرسل لجميع الرسل عليه السلام وشمول البعض في قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾، لكل من أنعم الله عليه منهم برفع الدرجة.

٧. ما قيل: إن الأسلوب يقتضي كون المراد به محمد ﷺ لأن السياق في بيان العبرة للأمم التي تقتتل بعد رسلهم مع كون دينهم دينا واحدا، والموجود منهم اليهود والنصارى والمسلمون فالمناسب تخصيص رسلهم بالذكر، وقد ذكر منهم موسى وعيسى بالتفصيل في الآية، فتعين أن يكون البعض الباقي محمدا ﷺ فيه: أن القرآن يقضي بكون جميع الرسل رسلا إلى جميع الناس، قال تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾، فإتيان الرسل جميعا بالآيات البينات كان ينبغي أن يقطع دابر الفساد والقتال بين الذين بعدهم لكن اختلفوا بغيا بينهم فكان ذلك أصلا يتفرع عليه القتال فأمر الله تعالى به حين تقتضيه المصلحة ليحق الحق بكلماته ويقطع دابر المبطلين، فالعموم وجيه في الآية.

٨. وضع هنا مبحثا حول [الكلام الإلهي: حقيقته، أنواعه، وعلاقته بالمعاني الاعتبارية والحقيقية]، خلاصته:

أ. قوله تعالى: ﴿مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾ يدل على وقوع تكليم حقيقي من الله لبعض الناس، لا مجاز ولا تمثيل.

ب. الآيات القرآنية تؤكد أن الوحي والتكليم ونزول الروح والملائكة كلها أمور حقيقية واقعية، وليست مجرد قوى عقلية أو نفسانية كما يزعم بعض الماديين.

ج. الكلام الإلهي يختلف عن الكلام البشري، فهو ليس صوتاً أو حرفاً، بل إيجاد أمر يحصل به العلم والمعنى في نفس النبي.

د. الله تكلم مع موسى وغيره من الأنبياء تكليماً حقيقياً، لكن على نحو خاص (وحي، أو من وراء حجاب، أو بإرسال رسول)

هـ. الكلام في حق الله فعل من أفعاله، يتحقق بعد تمامية الذات، وهو زماني كسائر الأفعال (كالخلق والإحياء والإماتة)

و. لفظ ﴿الْقَوْلِ﴾ في القرآن يستعمل في موارد متعددة: للإنسان، والملائكة، والشيطان، وحتى للسماء والأرض، وكلها تدل على إيجاد أمر يدل على المعنى المقصود.

ز. في التكوينيات، القول الإلهي هو نفس إيجاد الشيء، فقوله ﴿كُنَّ﴾ عين وجود المخلوق.

ح. استعمال الألفاظ كـ (الكلام) و﴿الْقَوْلِ﴾ و(الوحي) في القرآن حقيقي، لا مجازي، لأن الغاية والأثر باقيان، وإن اختلفت المصداقية.

ط. ما يتوهمه البعض من أن المقامات الإلهية (كجنة ونار) هي اعتبارات وهمية، هو خطأ، بل هي حقائق حقيقية، والرابطة بينها وبين الأعمال رابطة حقيقية وجودية، لا اعتبارية وضعية.

٩. وضع هنا مبحثا حول [الكلام الإلهي: بحث فلسفي في حقيقته وقدمه وحدوثه]، خلاصته:

أ. حقيقة الكلام عند الحكماء: ما يدل على معنى خفي مضمر، سواء كان بالصوت أو بالإشارة أو بوجود المعلول الذي يدل على علته.

ب. كل موجود معلول هو كلام لعلته، ومجموع العالم الإمكاني هو كلام الله المتكلم به، مظهراً خبايا أسمائه وصفاته.

ج. الردّ على هذا الرأي بأن الكلام والقول في القرآن (كقوله: ﴿وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى﴾ لا ينطبق على معنى (عين الذات)، بل هو تكليم حقيقي بين الله والنبي.

د. نزاع الأشاعرة والمعتزلة في قدم الكلام أو حدوثه: الأشاعرة قالوا بقدم الكلام النفسي (المعاني الذهنية القائمة بذات الله)، والمعتزلة قالوا بحدوث الكلام اللفظي الدال على المعنى.

هـ. هذا النزاع ينحل بإبطال افتراض (العلم الحصولي) في الله، لأن علم الله حضوري لا حصولي، والمفاهيم والماهيات لا تتحقق إلا في ذهن الإنسان، والله منزه عن ذلك.

١٠. ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾، رجوع إلى أصل السياق وهو التكلم دون الغيبة كما مر، والوجه في التصريح باسم عيسى مع عدم ذكر غيره من الرسل في الآية: أن ما ذكره له عليه السلام من جهات التفضيل وهو إيتاء البينات، والتأييد بروح القدس مشترك بين الرسل جميعا ليس مما يختص ببعضهم دون بعض، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾، وقال: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا﴾، لكنهما في عيسى بنحو خاص فجميع آياته كإحياء الموتى وخلق الطير بالنفخ وإبراء الأكمه والأبرص، والإخبار عن المغيبات كانت أمورا متكئة على الحياة مترشحة عن الروح، فلذلك نسبها إلى عيسى عليه السلام وصرح باسمه إذ لولا التصريح لم يدل

على كونه فضيلة خاصة كما لو قيل: وآتينا بعضهم البينات وأيدناه بروح القدس، إذ البينات وروح القدس كما عرفت مشتركة غير مختصة، فلا يستقيم نسبتها إلى البعض بالاختصاص إلا مع التصريح باسمه ليعلم أنها فيه بنحو خاص غير مشترك تقريبا، على أن في اسم عيسى عليه السلام خاصة أخرى وآية بينة وهي أنه ابن مريم لا أب له، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾، فمجموع الابن والأم آية بينة إلهية وفضيلة اختصاصية أخرى.

١١. ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾، العدول إلى الغيبة ثانيا لأن المقام مقام إظهار أن المشية والإرادة الربانية غير مغلوبة، والقدرة غير باطلة، فجميع الحوادث على طرفي إثباتها ونفيها غير خارجة عن السلطنة الإلهية، وبالجملة وصف الألوهية هي التي تنافي تقيد القدرة وتوجب إطلاق تعلقها بطرفي الإيجاب والسلب فمست حاجة المقام إلى إظهار هذه الصفة المتعالية أعني الألوهية للذكر فقيل: ولو شاء الله ما اقتتل، ولم يقل: ولو شئنا ما اقتتل، وهذا هو الوجه أيضا في قوله تعالى في ذيل الآية ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلُوا﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾، وهو الوجه أيضا في العدول عن الإضمار إلى الإظهار.

١٢. ﴿وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ﴾، نسب الاختلاف إليهم لا إلى نفسه لأنه تعالى ذكر في مواضع من كلامه: أن الاختلاف بالإيمان والكفر وسائر المعارف الأصلية المبينة في كتب الله النازلة على أنبيائه إنما حدث بين الناس بالبغي، وحاشا أن ينتسب إليه سبحانه بغي أو ظلم.

١٣. ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾، أي ولو شاء الله لم يؤثر الاختلاف في استدعاء القتال ولكن الله يفعل ما يريد وقد أراد أن يؤثر هذا الاختلاف في سوقه الناس إلى الاقتتال جريا على سنة الأسباب.

١٤. محصل معنى الآية والله العالم: أن الرسل التي أرسلوا إلى الناس عباد لله مقربون عند ربهم، مرتفع عن الناس أفقهم وهم مفضل بعضهم على بعض على ما لهم من الأصل الواحد والمقام المشترك، فهذا حال الرسل وقد أتوا للناس بآيات بينات أظهروا بها الحق كل الإظهار وبينوا طريق الهداية أتم البيان، وكان لازمه أن لا ينساق الناس بعدهم إلا إلى الوحدة والألفة والمحبة في دين الله من غير اختلاف وقتال لكن كان هناك سبب آخر أعقم هذا السبب، وهو الاختلاف عن بغي منهم وانشعابهم إلى مؤمن وكافر،

ثم التفرق بعد ذلك في سائر شئون الحياة والسعادة، ولو شاء الله لأعقم هذا السبب أعني الاختلاف فلم يوجب الاقتتال وما اقتتلوا، ولكن لم يشأ وأجرى هذا السبب كسائر الأسباب والعلل على سنة الأسباب التي أرادها الله في عالم الصنع والإيجاد، والله يفعل ما يريد.

١٥. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي عن الباقر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا﴾ [البقرة: ٢٥٣] الآية: في هذا ما يستدل به على أن أصحاب محمد قد اختلفوا من بعده، فمنهم من آمن ومنهم من كفر.

ب. وفي تفسير العياشي عن أصبغ بن نباتة قال: كنت واقفاً مع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام يوم الجمل، فجاء رجل حتى وقف بين يديه، فقال: يا أمير المؤمنين، كبر القوم وكبرنا، وهلل القوم وهللنا، وصلى القوم وصلينا، فعلى ما نقاتلهم؟! فقال عليه السلام: على هذه الآية: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، فنحن الذين آمنا، وهم الذين كفروا، فقال الرجل: كفر القوم ورب الكعبة، ثم حمل فقاتل حتى قتل ـ رحمه الله ـ.

• أقول: وروي هذه القصة المفيد والشيخ في أماليهما والقمي في تفسيره، والرواية تدل على أنه عليه السلام أخذ الكفر في الآية بالمعنى الأعم من الكفر الخاص المصطلح الذي له أحكام خاصة في الدين؛ فإن النقل المستفيض وكذا التاريخ يشهدان أنه عليه السلام ما كان يعامل مع مخالفيه من أصحاب الجمل وأصحاب صفين والخوارج معاملة الكفار من غير أهل الكتاب، ولا معاملة أهل الكتاب، ولا معاملة أهل الردة من الدين، فليس إلا أنه عدهم كافرين على الباطن دون الظاهر، وقد كان عليه السلام يقول: (أقاتلهم على التأويل دون التنزيل)، وظاهر الآية يساعد هذا المعنى؛ فإنه يدل على أن البينات التي جاءت بها الرسل لم تنفع في رفع الاقتتال من الذين من بعدهم، لمكان الاختلاف المستند إليهم أنفسهم، فوقوع الاختلاف مما لا تنفع فيه البينات من الرسل، بل هو مما يؤدي إليه الاجتماع الإنساني الذي لا يخلو عن البغي والظلم، فالآية في مساق قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس: ١٩]، وقوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ

النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٣]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١١٨-١١٩]، كل ذلك يدل على أن الاختلاف في الكتاب ـ وهو الاختلاف في الدين ـ بين أتباع الأنبياء بعدهم مما لا مناص عنه، وقد قال تعالى في خصوص هذه الأمة: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم﴾ [البقرة: ٢١٤]، وقال تعالى حكاية عن رسوله ليوم القيامة: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠]، وفي مطاوي الآيات تصريحات وتلويحات بذلك، وأما أن ذيل هذا الاختلاف منسحب إلى زمان الصحابة بعد الرحلة، فالمعتمد من التاريخ والمستفيض أو المتواتر من الأخبار يدل على أن الصحابة أنفسهم كان يعامل بعضهم مع بعض في الفتن والاختلافات الواقعة بعد رسول الله ﷺ هذه المعاملة، من غير أن يستثنوا أنفسهم من ذلك، استناداً إلى عصمة أو بشارة أو اجتهاد أو استثناء من الله ورسوله، الزائد على هذا المقدار من البحث لا يناسب وضع هذا الكتاب.

ج. وفي أمالي المفيد عن أبي بصير قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: لم يزل الله جل اسمه عالماً بذاته ولا معلوم، ولم يزل قادراً بذاته ولا مقدور، قلت: جعلت فداك، فلم يزل متكلماً؟ قال: الكلام محدث، كان الله عز وجل وليس بمتكلم، ثم أحدث الكلام.

د. وفي الاحتجاج عن صفوان بن يحيى قال: سأل أبو قرة المحدث عن الرضا عليه السلام فقال: أخبرني ـ جعلت فداك ـ عن كلام الله لموسى، فقال: الله أعلم بأي لسان كلمه، بالسريانية أم بالعبرانية؟ فأخذ أبو قرة بلسانه، فقال: إنما أسألك عن هذا اللسان، فقال أبو الحسن عليه السلام: سبحان الله عما تقول، ومعاذ الله أن يشبه خلقه، أو يتكلم بمثل ما هم متكلمون، ولكنه سبحانه ليس كمثله شيء، ولا كمثله قائل فاعل، قال: كيف؟ قال: كلام الخالق لمخلوق ليس ككلام المخلوق لمخلوق، ولا يلفظ بشق فم ولسان، ولكن يقول له: كن، فيكون بمشيئته، ما خاطب به موسى من الأمر والنهي من غير تردد في نفس، الخبر.

هـ. وفي نهج البلاغة في خطبة له عليه السلام: متكلم لا بروية، مريد لا بهمة، الخطبة.

و. وفي النهج أيضاً في خطبة له عليه السلام: الذي كلم موسى تكليماً، وأراه من آياته عظيماً، بلا جوارح ولا أدوات، ولا نطق ولا لهوات، الخطبة.

• أقول: والأخبار المروية عن أئمة أهل البيت في هذا المعنى كثيرة، وهي مطبقة على أن كلامه تعالى الذي يسميه الكتاب والسنة كلاماً، صفة فعل لا صفة ذات.

١١٩. الإسراع بالإنفاق قبل اليوم الذي لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة:

المقطع [١١٩] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢/ ٣٢٩»:

١. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا﴾ الآية، معناه واضح وفي ذيل الآية دلالة على أن الاستنكاف عن الإنفاق كفر وظلم.

١٢٠. آية الكرسي وتوحيد الله وقيوميته وعظمته:

المقطع [١٢٠] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢/ ٣٢٩»:

١. وضع هنا مبحثا حول [تحقيق معنى اسمي ﴿الْحَيُّ﴾ و﴿الْقَيُّومِ﴾ في القرآن]، خلاصته:

أ. اسم الجلالة ﴿اللَّهُ﴾ يدل على الذات المستجمع لجميع صفات الكمال، وقوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ ينفي حق الثبوت عن الآلهة المزعومة دون الله.

ب. الحياة: هي نحو وجود يترشح عنه العلم والقدرة، والناس أذعنوا بوجودها عندما رأوا أن بعض الموجودات (كالحيوان والنبات) تتغير حالها وتعطل قواها مع بقاء وجودها، ثم يطرأ عليها الفساد، فأدركوا أن وراء الحواس أمراً آخر هو مبدأ الإحساسات والإدراكات والأفعال، وهو المسمى بالحياة.

ج. الحياة الحقيقية: هي التي يستحيل طرو الموت عليها لذاتها، ولا يتصور ذلك إلا بكون الحياة عين ذات الحي، لا عارضة عليها ولا طارئة بتمليك الغير، قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]، وهي حياة الله سبحانه وحده.

د. القصر في قوله: ﴿هُوَ الْحَيُّ﴾ قصر حقيقي غير إضافي، فحياة الله هي الحياة التي لا يشوبها موت

ولا يعتريها فناء، وأي حياة لغيره فهي مستعارة ومفاضة منه.

هـ. الحياة الدنيا في القرآن وصفها الله بالمتاع، والعرض، والزينة، واللهو، واللعب، ومتاع الغرور، في مقابل الحياة الآخرة التي هي الحياة الحقيقية ﴿الْحَيَوَانُ﴾ التي لا موت بعدها، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤]

و. الحياة الأخروية وإن كانت حياة حقيقية (لعدم الموت فيها)، لكنها أيضاً مملوكة لله ومسخرة، وليست مالكة بنفسها، فهي مفاضة من الله.

ز. القيوم: صيغة مبالغة من القيام، والقيام يشمل: حفظ الشيء، وتدبيره، وتربيته، والمراقبة عليه، والقدرة عليه، والله قائم على كل شيء بالقسط، كما قال: ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨]

ح. اسم القيوم هو أم الأسماء الإضافية الثابتة له تعالى جميعاً (كالخالق، الرازق، المبدئ، المعيد، المحيي، المميت، الغفور، الرحيم، الودود)، لأنه يدل على قيامه بكل شيء وإحاطته به.

ط. في الآية حصران: حصر القيام على الله (الله القيوم)، وحصر القيام على الله ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾، أي أنه لا يعتريه عجز ولا فتور، بخلاف غيره.

٢. ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾، السنة بكسر السين الفتور الذي يأخذ الحيوان في أول النوم، والنوم هو الركود الذي يأخذ حواس الحيوان لعوامل طبيعية تحدث في بدنه، والرؤيا غيره وهي ما يشاهده النائم في منامه.

٣. سؤال وإشكال: أورد على قوله تعالى: ﴿سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ إنه على خلاف الترتيب الذي تقتضيه البلاغة فإن المقام مقام الترقي، والترقي في الإثبات إنما هو من الأضعف إلى الأقوى كقولنا: فلان يقدر على حمل عشرة أمنان بل عشرين، وفلان يجود بالمئات بل بالألوف وفي النفي بالعكس كما نقول: لا يقدر فلان على حمل عشرين ولا عشرة، ولا يجود بالألوف ولا بالمئات، فكان ينبغي أن يقال: لا تأخذه نوم ولا سنة، والجواب: أن الترتيب المذكور لا يدور مدار الإثبات والنفي دائما كما يقال: فلان يجهده حمل عشرين بل عشرة ولا يصح العكس، بل المراد هو صحة الترقي وهي مختلفة بحسب الموارد، ولما كان أخذ النوم أقوى تأثيرا وأضر على القيومية من السنة كان مقتضى ذلك أن ينفي تأثير السنة وأخذها أولا ثم يترقى إلى

نفي تأثير ما هو أقوى منه تأثيرا، ويعود معنى لا تأخذه سنة ولا نوم إلى مثل قولنا: لا يؤثر فيه هذا العامل الضعيف بالفتور في أمره ولا ما هو أقوى منه.

٤. ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ لما كانت القيومية التامة التي له تعالى لا تتم إلا بأن يملك السماوات والأرض وما فيهما بحقيقة الملك ذكره بعدهما، كما أن التوحيد التام في الألوهية لا يتم إلا بالقيومية، ولذلك ألحقها بها أيضا، وهاتان جملتان كل واحدة منهما مقيدة أو كالمقيدة بقيد في معنى دفع الدخل، أعني قوله تعالى: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، مع قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾، وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾، مع قوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾

٥. أما قوله تعالى: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، فقد عرفت معنى ملكه تعالى (بالكسر) للموجودات وملكه تعالى (بالضم) لها، والملك بكسر الميم وهو قيام ذوات الموجودات وما يتبعها من الأوصاف والآثار بالله سبحانه هو الذي يدل عليه قوله تعالى: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، فالجملة تدل على ملك الذات وما يتبع الذات من نظام الآثار.

٦. سؤال وإشكال: تم بقوله تعالى: ﴿الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ إن السلطان المطلق في الوجود لله سبحانه لا تصرف إلا وهو له ومنه، فيقع من ذلك في الوهم أنه إذا كان الأمر على ذلك فهذه الأسباب والعلل الموجودة في العالم ما شأنها؟ وكيف يتصور فيها ومنها التأثير ولا تأثير إلا لله سبحانه؟ والجواب: تصرف هذه العلل والأسباب في هذه الموجودات المعلولة توسط في التصرف، وبعبارة أخرى شفاعة في موارد المسببات بإذن الله سبحانه، فإنما هي شفعاء، والشفاعة، وهي بنحو توسط في إيصال الخير أو دفع الشر، وتصرف ما من الشفيع في أمر المستشفع، إنما تنافي السلطان الإلهي والتصرف الربوبي المطلق إذا لم ينته إلى إذن الله، ولم يعتمد على مشية الله تعالى بل كانت مستقلة غير مرتبطة وما من سبب من الأسباب ولا علة من العلل إلا وتأثيره بالله ونحو تصرفه بإذن الله، فتأثيره وتصرفه نحو من تأثيره وتصرفه تعالى فلا سلطان في الوجود إلا سلطانه ولا قيومية إلا قيوميته المطلقة عز سلطانه.

٧. على ما بيناه فالشفاعة هي التوسط المطلق في عالم الأسباب والوسائط أعم من الشفاعة

التكوينية وهي توسط الأسباب في التكوين، والشفاعة التشريعية أعني التوسط في مرحلة المجازاة التي تثبتها الكتاب والسنة في يوم القيامة على ما تقدم البحث عنها في قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾، وذلك أن الجملة أعني قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ﴾، مسبوقة بحديث القيومية والملك المطلق الشاملين للتكوين والتشريع معا، بل المتماسين بالتكوين ظاهرا فلا موجب لتقييدهما بالقيومية والسلطنة التشريعيتين حتى يستقيم تذييل الكلام بالشفاعة المخصوصة بيوم القيامة.

٨. مساق هذه الآية في عموم الشفاعة مساق قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾، وقوله تعالى: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾، وقد عرفت في البحث عن الشفاعة أن حدها كما ينطبق على الشفاعة التشريعية كذلك ينطبق على السببية التكوينية، فكل سبب من الأسباب يشفع عند الله لمسببه بالتمسك بصفات فضله وجوده ورحمته لإيصال نعمة الوجود إلى مسببه، فنظام السببية بعينه ينطبق على نظام الشفاعة كما ينطبق على نظام الدعاء والمسألة، قال تعالى: ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾، وقد مر بيانه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾

٩. ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾، سياق الجملة مع مسبوقيتها بأمر الشفاعة يقرب من سياق قوله تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾، فالظاهر أن ضمير الجمع الغائب راجع إلى الشفعاء الذي تدل عليه الجملة السابقة معنى فعلمه تعالى بما بين أيديهم وما خلفهم كناية عن كمال إحاطته بهم، فلا يقدرون بواسطة هذه الشفاعة والتوسط المأذون فيه على إنفاذ أمر لا يريده الله سبحانه ولا يرضى به في ملكه، ولا يقدر غيرهم أيضا أن يستفيد سوءا من شفاعتهم ووساطتهم فيداخل في ملكه تعالى فيفعل فيه ما لم يقدره.

١٠. إلى نظير هذا المعنى يدل قوله تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾، وقوله تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ

وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾، فإن الآيات تبين إحاطته تعالى بالملائكة والأنبياء لئلا يقع منهم ما لم يرده، ولا يتنزلوا إلا بأمره، ولا يبلغوا إلا ما يشاؤه، وعلى ما بيناه فالمراد بما بين أيديهم: ما هو حاضر مشهود معهم، وبما خلفهم: ما هو غائب عنهم بعيد منهم كالمستقبل من حالهم، ويؤول المعنى إلى الشهادة والغيب، وبالجملة قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾، كناية عن إحاطته تعالى بما هو حاضر معهم موجود عندهم وبما هو غائب عنهم آت خلفهم، ولذلك عقبه بقوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾، تبيينا لتمام الإحاطة الربوبية والسلطة الإلهية أي أنه تعالى عالم محيط بهم وبعلمهم وهم لا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء.

١١. لا ينافي إرجاع ضمير الجمع المذكر العاقل وهو قوله (هم) في المواضع الثلاث إلى الشفعاء ما قدمناه من أن الشفاعة أعم من السببية التكوينية والتشريعية، وأن الشفعاء هم مطلق العلل والأسباب، وذلك لأن الشفاعة والوساطة والتسبيح والتحميد لما كان المعهود من حالها أنها من أعمال أرباب الشعور والعقل شاع التعبير عنها بما يخص أولي العقل من العبارة، وعلى ذلك جرى ديدن القرآن في بياناته كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾، وقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾، إلى غير ذلك من الآيات.

١٢. بالجملة قوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾، يفيد معنى تمام التدبير وكماله، فإن من كمال التدبير أن يجهل المدبر (بالفتح) بما يريده المدبر (بالكسر) من شأنه ومستقبل أمره لئلا يحتال في التخلص عما يكرهه من أمر التدبير فيفسد على المدبر (بالكسر) تدبيره، كجماعة مسيرين على خلاف مشتهاهم ومرادهم فيبالغ في التعمية عليهم حتى لا يدروا من أين سيروا، وفي أين نزلوا، وإلى أين يقصد بهم، فيبين تعالى بهذه الجملة أن التدبير له وبعلمه بروابط الأشياء التي هو الجاعل لها، وبقية الأسباب والعلل وخاصة أولو العلم منها وإن كان لها تصرف وعلم لكن ما عندهم من العلم الذي ينتفعون به ويستفيدون منه فإنما هو من علمه تعالى وبمشيته وإرادته، فهو من شئون العلم الإلهي، وما تصرفوا به فهو من شئون التصرف الإلهي وأنحاء تدبيره، فلا يسع لمقدم منهم أن يقدم على خلاف ما يريده الله سبحانه من التدبير الجاري في مملكته إلا وهو بعض التدبير.

١٣. في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾، على تقدير أن يراد بالعلم المعنى

المصدري أو معنى اسم المصدر لا المعلوم دلالة على أن العلم كله لله ولا يوجد من العلم عند عالم إلا وهو شيء من علمه تعالى، ونظيره ما يظهر من كلامه تعالى من اختصاص القدرة والعزة والحياة بالله تعالى، قال تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ للهِ جَمِيعًا﴾، وقال: ﴿أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ للهِ جَمِيعًا﴾، وقال: ﴿هُوَ الْحَيُّ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، ويمكن أن يستدل على ما ذكرناه من انحصار العلم بالله تعالى بقوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠]، وقوله: ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، إلى غير ذلك من الآيات، وفي تبديل العلم بالإحاطة في قوله: ولا يحيطون بشيء من علمه، لطف ظاهر.

١٤. ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾، الكرسي معروف وسمي به لتراكم بعض أجزائه بالصناعة على بعض، وربما كني بالكرسي عن الملك فيقال كرسي الملك، ويراد منطقة نفوذه ومتسع قدرته، وكيف كان فالجمل السابقة على هذه الجملة أعني قوله تعالى: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ الآية، تفيد أن المراد بسعة الكرسي إحاطة مقام السلطنة الإلهية، فيتعين للكرسي من المعنى: أنه المقام الربوبي الذي يقوم به ما في السماوات والأرض من حيث إنها مملوكة مدبرة معلومة، فهو من مراتب العلم، ويتعين للسعة من المعنى: أنها حفظ كل شيء مما في السماوات والأرض بذاته وآثاره، ولذلك ذيله بقوله: ﴿وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾ [البقرة: ٢٥٥]

١٥. ﴿وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، يقال: آده يئوده أودا إذا ثقل عليه وأجهده وأتعبه، والظاهر أن مرجع الضمير في يئوده، هو الكرسي وإن جاز رجوعه إليه تعالى، ونفي الأود والتعب عن حفظ السماوات والأرض في ذيل الكلام ليناسب ما افتتح به من نفي السنة والنوم في القيومية على ما في السماوات والأرض.

١٦. محصل ما تفيده الآية من المعنى: أن الله لا إله إلا هو له كل الحياة وله القيومية المطلقة من غير ضعف ولا فتور، ولذلك وقع التعليل بالاسمين الكريمين: العلي العظيم فإنه تعالى لعلوه لا تناله أيدي المخلوقات فيوجبوا بذلك ضعفا في وجوده وفتورا في أمره، ولعظمته لا يجهده كثرة الخلق ولا يطيقه عظمة السماوات والأرض.

١٧. جملة: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [الشورى: ٤]، لا تخلو عن الدلالة على الحصر، وهذا الحصر إما حقيقي كما هو الحق، فإن العلو والعظمة من الكمال وحقيقة كل كمال له تعالى، وأما دعوى لمسيس

الحاجة إليه في مقام التعليل ليختص العلو والعظمة به تعالى دعوى، فيسقط السماوات والأرض عن العلو والعظمة في قبال علوه وعظمته تعالى.

١٨. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير العياشي عن الصادق عليه السلام قال: قال أبو ذر: يا رسول الله، ما أفضل ما أنزل عليك؟ قال: آية الكرسي، ما السموات السبع والأرضون السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، ثم قال: وإن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على الحلقة.

• أقول: وروي صدر الرواية السيوطي في الدر المنثور عن ابن راهويه في مسنده عن عوف بن مالك عن أبي ذر، ورواه أيضاً عن أحمد وابن الضريس والحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي ذر.

ب. وأخرج أحمد والطبراني عن أبي أمامة قال: قلت: يا رسول الله، أيما أنزل عليك أعظم؟ قال: ﴿اللهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، آية الكرسي.

• أقول: وروي فيه هذا المعنى أيضاً عن الخطيب البغدادي في تاريخه عن أنس عنه ﷺ.

ج. وفيه أيضاً عن الدارمي عن أيفع بن عبد الله الكلاغي قال: قال رجل: يا رسول الله، أي آية في كتاب الله أعظم؟ قال: آية الكرسي: ﴿اللهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾، الحديث.

• أقول: تسمية هذه الآية بآية الكرسي مما قد اشتهرت في صدر الإسلام، حتى في زمان حياة النبي ﷺ، حتى في لسانه، كما تفيده الروايات المنقولة عنه ﷺ وعن أئمة أهل البيت عليهم السلام وعن الصحابة، وليس إلا للاعتناء التام بها وتعظيم أمرها، وليس إلا لشرافة ما تدل عليه من المعنى ورقتة ولطفه، وهو التوحيد الخالص المدلول عليه بقوله: ﴿اللهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، ومعنى القيومية المطلقة التي يرجع إليها جميع الأسماء الحسنى ما عدا أسماء الذات، على ما مر بيانه، وتفصيل جريان القيومية في ما دق وجل من الموجودات من صدرها إلى ذيلها، ببيان أن ما خرج منها من السلطنة الإلهية فهو من حيث أنه خارج منها داخل فيها، ولذلك ورد فيها أنها أعظم آية في كتاب الله، وهو كذلك من حيث اشتمالها على تفصيل البيان؛ فإن مثل قوله تعالى: ﴿اللهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [طه: ٨]، وإن اشتملت على ما تشتمل عليه آية الكرسي، غير أنها مشتملة على إجمال المعنى دون تفصيله، ولذا ورد في بعض الأخبار أن آية الكرسي

سيدة آي القرآن، رواها في الدر المنثور عن أبي هريرة عن النبي ﷺ، وورد في بعضها أن لكل شيء ذروة، وذروة القرآن آية الكرسي، رواها العياشي في تفسيره عن عبد الله بن سنان عن الصادق عليه السلام.

د. وفي أمالي الشيخ بإسناده عن أبي أمامة الباهلي: أنه سمع علي بن أبي طالب عليه السلام يقول: ما أرى رجلاً أدرك عقله الإسلام أو ولد في الإسلام يبيت ليلة سوادها، قلت: وما سوادها؟ قال: جميعها حتى يقرأ هذه الآية: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾، فقرأ الآية إلى قوله: ﴿وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، قال: فلو تعلمون ما هي، أو قال: ما فيها، ما تركتموها على حال: إن رسول الله ﷺ قال: أعطيت آية الكرسي من كنز تحت العرش، ولم يؤتها نبي كان قبلي، قال علي: فما بت ليلة قط منذ سمعتها من رسول الله إلا قرأتها، الحديث.

• أقول: وروي هذا المعنى في الدر المنثور عن عبيد وابن أبي شيبة والدارمي ومحمد بن نصر وابن الضريس عنه عليه السلام، ورواه أيضاً عن الديلمي عنه عليه السلام، والروايات من طرق الشيعة وأهل السنة في فضلها كثيرة، وقوله عليه السلام: إن رسول الله قال: (أعطيت آية الكرسي من كنز تحت العرش)، روي في هذا المعنى أيضاً في الدر المنثور عن البخاري في تاريخه وابن الضريس عن أنس أن النبي قال: (أُعطيت آية الكرسي من تحت العرش)، فيه إشارة إلى كون الكرسي تحت العرش ومحاطاً له، وسيأتي الكلام في بيانه.

هـ. وفي الكافي عن زرارة قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، السموات والأرض وسعن الكرسي، أو الكرسي وسع السموات والأرض؟ فقال عليه السلام: إن كل شيء في الكرسي.

• أقول: وهذا المعنى مروي عنهم في عدة روايات بما يقرب من هذا السؤال والجواب، وهو بظاهره غريب؛ إذ لم ترو قراءة (كرسيه) بالنصب والسموات والأرض بالرفع حتى يستصح بها هذا السؤال، والظاهر أنه مبني على ما يتوهمه الأفهام العامية: أن الكرسي جسم مخصوص موضوع فوق السموات أو السماء السابعة (أعني فوق عالم الأجسام)، منه يصدر أحكام العالم الجسماني، فتكون السموات والأرض وسعته إذ كان موضوعاً عليها كهيئة الكرسي على الأرض، فيكون معنى السؤال أن الأنسب أن السموات والأرض وسعت الكرسي، فما معنى سعته لها؟ وقد قيل بنظير ذلك في خصوص العرش، فأجيب بأن

الوسعة من غير سنخ سعة بعض الأجسام لبعض.

هـ. وفي المعاني عن حفص بن الغياث قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾، قال: علمه.

و. وفيه أيضاً عنه عليه السلام في الآية: السموات والأرض وما بينهما في الكرسي، والعرش هو العلم الذي لا يقدر أحد قدره.

• أقول: ويظهر من الروايتين: أن الكرسي من مراتب علمه تعالى، كما مر استظهاره، وفي معناهما روايات أخرى، وكذا يظهر منهما ومما سيجيء: أن في الوجود مرتبة من العلم غير محدودة، أعني أن فوق هذا العالم الذي نحن من أجزائها عالماً آخر، موجوداتها أمور غير محدودة في وجودها بهذه الحدود الجسمانية، والتعينات الوجودية التي لوجوداتنا، وهي في عين أنها غير محدودة معلومة لله سبحانه، أي أن وجودها عين العلم، كما أن الموجودات المحدودة التي في الوجود معلومة لله سبحانه في مرتبة وجودها، أي إن وجودها نفس علمه تعالى بها وحضورها عنده، ولعلنا نوفق لبيان هذا العلم المسمى بالعلم الفعلي فيما سيأتي من قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس: ٦١]، وما ذكرناه من علم غير محدود هو الذي يرشد إليه قوله عليه السلام في الرواية: (والعرش هو العلم الذي لا يقدر أحد قدره)، ومن المعلوم أن عدم التقدير والتحديد ليس من حيث كثرة معلومات هذا العلم عدداً، لاستحالة وجود عدد غير متناه، وكل عدد يدخل الوجود فهو متناه، لكونه أقل مما يزيد عليه بواحد، ولو كان عدم تناهي العلم، أعني العرش، لعدم تناهي معلوماته كثرة، لكان الكرسي بعض العرش لكونه أيضاً علماً وإن كان محدوداً، بل عدم التناهي والتقدير إنما هو من جهة كمال الوجود؛ أي أن الحدود والقيود الوجودية توجب التكثر والتميز والتمايز بين موجودات عالمنا المادي، فتوجب انقسام الأنواع بالأصناف والأفراد، والأفراد بالحالات، والإضافات غير موجودة، فينطبق على قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١]

• وسيجيء تمام الكلام فيه إن شاء الله تعالى، وهذه الموجودات كما أنها معلومة بعلم غير مقدر، أي موجودة في ظرف العلم وجوداً غير مقدر، كذلك هي معلومة بحدودها، موجودة في ظرف العلم بأقدارها، وهذا هو الكرسي على ما يستظهر، وربما لوح إليه أيضاً قوله تعالى فيها: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا

خَلْفَهُمْ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، حيث جعل المعلوم: ما بين أيديهم وما خلفهم، وهما أعني ما بين الأيدي وما هو خلف غير مجتمع الوجود في هذا العالم المادي، فهناك مقام يجتمع فيه جميع المتفرقات الزمانية ونحوها، وليست هذه الوجودات وجودات غير متناهية الكمال غير محدودة ولا مقدرة، وإلا لم يصح الاستثناء من الإحاطة في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فلا محالة هو مقام يمكن لهم الإحاطة ببعض ما فيه، فهو مرحلة العلم بالمحدودات والمقدرات من حيث هي محدودة مقدرة، والله أعلم.

ز. وفي التوحيد عن حنان قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن العرش والكرسي، فقال عليه السلام: إن للعرش صفات كثيرة مختلفة، له في كل سبب وصنع في القرآن صفة على حدة، فقوله: ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩]، يقول: رب الملك العظيم، وقوله: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، يقول: على الملك احتوى، وهذا علم الكيفوفية في الأشياء، ثم العرش في الوصل مفرد عن الكرسي، لأنهما بابان من أكبر أبواب الغيوب، وهما جميعاً غيبان، وهما في الغيب مقرونان؛ لأن الكرسي هو الباب الظاهر من الغيب، الذي منه مطلع البدع، ومنه الأشياء كلها، والعرش هو الباب الباطن الذي يوجد فيه علم الكيف والكون والقدر والحد والمشية وصفة الإرادة وعلم الألفاظ والحركات والترك وعلم العود والبدء، فهما في العلم بابان مقرونان، لأن ملك العرش سوى ملك الكرسي، وعلمه أغيب من علم الكرسي، فمن ذلك قال: ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾، أي صفته أعظم من صفة الكرسي، وهما في ذلك مقرونان، قلت: جعلت فداك، فلم صار في الفضل جار الكرسي؟ قال عليه السلام: إنه صار جارها لأن علم الكيفوفية فيه، وفيه الظاهر من أبواب البداء وإنيتها وحد رتقها وفتقها، فهذان جاران، أحدهما حمل صاحبه في الظرف، وبمثل صرف العلماء، وليستدلوا على صدق دعواهما؛ لأنه يختص برحمته من يشاء، وهو القوي العزيز.

• أقول: قوله عليه السلام: (لأن الكرسي هو الباب الظاهر من الغيب)، قد عرفت الوجه فيه إجمالاً؛ فمرتبة العلم المقدر المحدود أقرب إلى عالمنا الجسماني المقدر المحدود مما لا قدر له ولا حد، وسيجيء شرح فقرات الرواية في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقوله عليه السلام: (وبمثل صرف العلماء) إشارة إلى أن هذه الألفاظ من العرش والكرسي ونظائرهما

أمثال مصرفة مضروبة للناس، وما يعقلها إلا العالمون.

ح. وفي الاحتجاج عن الصادق عليه السلام في حديث: كل شيء خلق الله في جوف الكرسي خلا عرشه، فإنه أعظم من أن يحيط به الكرسي.

• أقول: وقد تقدم توضيح معناه، وهو الموافق لسائر الروايات، فما وقع في بعض الأخبار أن العرش هو العلم الذي اطلع الله عليه أنبياءه ورسله، والكرسي هو العلم الذي لم يطلع عليه أحداً، كما رواه الصدوق عن المفضل عن الصادق عليه السلام، كأنه من وهم الراوي بتبديل موضعي اللفظين أعني العرش والكرسي، أو أنه مطروح كالرواية المنسوبة إلى زينب العطارة.

ط. وفي تفسير العياشي عن علي عليه السلام قال: إن السماء والأرض وما بينهما من خلق مخلوق في جوف الكرسي، وله أربعة أملاك يحملونه بأمر الله.

• أقول: ورواه الصدوق عن الأصبغ بن نباتة عنه عليه السلام، ولم يرو عنهم عليهم السلام للكرسي حملة إلا في هذه الرواية، بل الأخبار إنما تثبت الحملة للعرش وفقاً لكتاب الله تعالى، كما قال: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ [غافر: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧]، ويمكن أن يصحح الخبر بأن الكرسي - كما سيجيء بيانه - يتحد مع العرش بوجه اتحاد ظاهر الشيء بباطنه، وبذلك يصح عد حملة أحدهما حملة للآخر.

ي. وفي تفسير العياشي أيضاً عن معاوية بن عمار عن الصادق عليه السلام قال: قلت: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]؟ قال: نحن أولئك الشافعون.

• أقول: ورواه البرقي أيضاً في المحاسن، وقد عرفت أن الشفاعة في الآية مطلقة تشمل الشفاعة التكوينية والتشريعية معاً، فتشمل شفاعتهم عليهم السلام، فالرواية من باب الجري.

١٢١. لا إكراه في الدين بعد تبين الرشد من الغي:

المقطع [١٢١] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢/ ٣٤٣»:

١. ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾، الإكراه هو الإجبار والحمل على الفعل من غير

رضى، والرشد بالضم والضمتين: إصابة وجه الأمر ومحجة الطريق ويقابله الغي، فهما أعم من الهدى والضلال، فإنهما إصابة الطريق الموصل وعدمها على ما قيل، والظاهر أن استعمال الرشد في إصابة محجة الطريق من باب الانطباق على المصداق، فإن إصابة وجه الأمر من سألك الطريق أن يركب المحجة وسواء السبيل، فلزومه الطريق من مصاديق إصابة وجه الأمر، فالحق أن معنى الرشد والهدى معنيان مختلفان ينطبق أحدهما بعناية خاصة على مصاديق الآخر وهو ظاهر، قال تعالى: ﴿فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا﴾، وقال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ﴾، وكذلك القول في الغي والضلال، ولذلك ذكرنا سابقا: أن الضلال هو العدول عن الطريق مع ذكر الغاية والمقصد، والغي هو العدول مع نسيان الغاية فلا يدري الإنسان الغوي ماذا يريد وما ذا يقصد.

٢. في قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾، نفى الدين الإجباري، لما أن الدين وهو سلسلة من المعارف العلمية التي تتبعها أخرى عملية يجمعها أنها اعتقادات، والاعتقاد والإيمان من الأمور القلبية التي لا يحكم فيها الإكراه والإجبار، فإن الإكراه إنما يؤثر في الأعمال الظاهرية والأفعال والحركات البدنية المادية، وأما الاعتقاد القلبي فله علل وأسباب أخرى قلبية من سنخ الاعتقاد والإدراك، ومن المحال أن ينتج الجهل علما، أو تولد المقدمات غير العلمية تصديقا علميا، فقوله: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾:

أ. إن كان قضية إخبارية حاكية عن حال التكوين أنتج حكما دينيا بنفي الإكراه على الدين والاعتقاد.

ب. وإن كان حكما إنشائيا تشريعيا كما يشهد به ما عقبه تعالى من قوله: ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾، كان نهيا عن الحمل على الاعتقاد والإيمان كرها، وهو نهي متك على حقيقة تكوينية، وهي التي مر بيانها أن الإكراه إنما يعمل ويؤثر في مرحلة الأفعال البدنية دون الاعتقادات القلبية.

٣. بين تعالى هذا الحكم بقوله: ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾، وهو في مقام التعليل فإن الإكراه والإجبار إنما يركن إليه الأمر الحكيم والمربي العاقل في الأمور المهمة التي لا سبيل إلى بيان وجه الحق فيها لبساطة فهم المأمور ورداءة ذهن المحكوم، أو لأسباب وجهات أخرى، فيتسبب الحاكم في حكمه بالإكراه أو الأمر بالتقليد ونحوه، وأما الأمور المهمة التي تبين وجه الخير والشر فيها، وقرر وجه الجزاء الذي يلحق فعلها وتركها فلا حاجة فيها إلى الإكراه، بل للإنسان أن يختار لنفسه ما شاء من طرفي الفعل وعاقبتي

الثواب والعقاب، والدين لما انكشفت حقائقه واتضح طريقه بالبيانات الإلهية الموضحة بالسنة النبوية فقد تبين أن الدين رشد والرشد في اتباعه، والغي في تركه والرغبة عنه، وعلى هذا لا موجب لأن يكره أحد أحدا على الدين.

٤. هذه إحدى الآيات الدالة على أن الإسلام لم يبتن على السيف والدم، ولم يفت بالإكراه والعنوة على خلاف ما زعمه عدة من الباحثين من المنتحلين وغيرهم أن الإسلام دين السيف استدلوا عليه: بالجهاد الذي هو أحد أركان هذا الدين، وقد تقدم الجواب عنه في ضمن البحث عن آيات القتال وذكرنا هناك أن القتال الذي ندب إليه الإسلام ليس لغاية إحراز التقدم وبسط الدين بالقوة والإكراه، بل لإحياء الحق والدفاع عن أنفس متاع للفطرة وهو التوحيد.، وأما بعد انبساط التوحيد بين الناس وخضوعهم لدين النبوة ولو بالتهود والتنصر فلا نزاع لمسلم مع موحد ولا جدال، فالإشكال ناش عن عدم التدبر.

٥. يظهر مما تقدم أن الآية أعني قوله: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ غير منسوخة بآية السيف كما ذكره بعضهم، ومن الشواهد على أن الآية غير منسوخة التعليل الذي فيها أعني قوله: ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾، فإن الناسخ ما لم ينسخ علة الحكم لم ينسخ نفس الحكم، فإن الحكم باق ببقاء سببه، ومعلوم أن تبين الرشد من الغي في أمر الإسلام أمر غير قابل للارتفاع بمثل آية السيف، فإن قوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ مثلا، أو قوله: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية لا يؤثران في ظهور حقية الدين شيئا حتى ينسخا حكما معلولا لهذا الظهور، وبعبارة أخرى الآية تعلل قوله: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ بظهور الحق: وهو معنى لا يختلف حاله قبل نزول حكم القتال وبعد نزوله، فهو ثابت على كل حال، فهو غير منسوخ.

٦. ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ الآية، الطاغوت هو الطغيان والتجاوز عن الحد ولا يخلو عن مبالغة في المعنى كالملكوت والجبروت، ويستعمل فيما يحصل به الطغيان كأقسام المعبودات من دون الله كالأصنام والشياطين والجن وأئمة الضلال من الإنسان وكل متبوع لا يرضى الله سبحانه باتباعه، ويستوي فيه المذكر والمؤنث والمفرد والتثنية والجمع.

٧. إنما قدم الكفر على الإيمان في قوله: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ﴾، ليوافق الترتيب الذي يناسبه الفعل الواقع في الجزاء أعني الاستمساك بالعروة الوثقى، لأن الاستمساك بشيء إنما يكون بترك كل شيء والأخذ بالعروة، فهناك ترك ثم أخذ، فقدم الكفر وهو ترك على الإيمان وهو أخذ ليوافق

ذلك، والاستمساك هو الأخذ والإمساك بشدة، والعروة: ما يؤخذ به من الشيء كعروة الدلو وعروة الإناء، والعروة هي كل ما له أصل من النبات وما لا يسقط ورقه، وأصل الباب التعلق يقال: عراه واعتراه أي تعلق به.

٨. ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾، موضوع على الاستعارة للدلالة على أن الإيمان بالنسبة إلى السعادة بمنزلة عروة الإناء بالنسبة إلى الإناء وما فيه، فكما لا يكون الأخذ أخذا مطمئنا حتى يقبض على العروة كذلك السعادة الحقيقية لا يستقر أمرها ولا يرجى نيلها إلا أن يؤمن الإنسان بالله ويكفر بالطاغوت.

٩. ﴿لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، الانفصام: الانقطاع والانكسار، والجملة في موضع الحال من العروة تؤكد معنى العروة الوثقى، ثم عقبه بقوله: ﴿وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، لكون الإيمان والكفر متعلقا بالقلب واللسان.

١٢٢. ولاية الله للمؤمنين وولاية الطاغوت للكافرين:

المقطع [١٢٢] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢/ ٣٤٦»:

١. ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ﴾ إلى آخر الآية:

أ. قد مر شطر من الكلام في معنى إخراجه من النور إلى الظلمات، وقد بينا هناك أن هذا الإخراج وما يشاكله من المعاني أمور حقيقية غير مجازية خلافا لما توهمه كثير من المفسرين وسائر الباحثين أنها معان مجازية يراد بها الأعمال الظاهرية من الحركات والسكنات البدنية، وما يترتب عليها من الغايات الحسنة والسيئة، فالنور مثلا هو الاعتقاد الحق بما يرتفع به ظلمة الجهل وحيرة الشك واضطراب القلب، والنور هو صالح العمل من حيث إن رشده بين، وأثره في السعادة جلي، كما أن النور الحقيقي على هذه الصفات، والظلمة هو الجهل في الاعتقاد والشبهة والريبة وطالح العمل، كل ذلك بالاستعارة، والإخراج من الظلمة إلى النور الذي ينسب إلى الله تعالى كالإخراج من النور إلى الظلمات الذي ينسب إلى الطاغوت نفس هذه الأعمال والعقائد فليس وراء هذه الأعمال والعقائد، لا فعل من الله تعالى وغيره كالإخراج مثلا ولا أثر

لفعل الله تعالى وغيره كالنور والظلمة وغيرهما، هذا ما ذكره قوم من المفسرين والباحثين.

ب. ذكر آخرون: أن الله يفعل فعلا كالإخراج من الظلمات إلى النور وإعطاء الحياة والسعة والرحمة وما يشاكلها ويترتب على فعله تعالى آثار كالنور والظلمة والروح والرحمة ونزول الملائكة، لا ينالها أفهامنا ولا يسعها مشاعرنا، غير أنا نؤمن بحسب ما أخبر به الله، وهو يقول الحق، بأن هذه الأمور موجودة وأنها أفعال له تعالى وإن لم نحط بها خبرا، ولازم هذا القول أيضا كالقول السابق أن يكون هذه الألفاظ أعني أمثال النور والظلمة والإخراج ونحوها مستعملة على المجاز بالاستعارة، وإنما الفرق بين القولين أن مصاديق النور والظلمة ونحوهما على القول الأول نفس أعمالنا وعقائدنا، وعلى القول الثاني أمور خارجة عن أعمالنا وعقائدنا لا سبيل لنا إلى فهمها، ولا طريق إلى نيلها والوقوف عليها.

ج. القولان جميعا خارجان عن صراط الاستقامة كالمفرط والمفرط، والحق في ذلك أن هذه الأمور التي أخبر الله سبحانه بإيجادها وفعلها عند الطاعة والمعصية إنما هي أمور حقيقية واقعية من غير تجوز غير أنها لا تفارق أعمالنا وعقائدنا بل هي لوازمها التي في باطنها، وقد مر الكلام في ذلك، وهذا لا ينافي كون قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾، وقوله تعالى: ﴿يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾، كنايتين عن هداية الله سبحانه وإضلال الطاغوت، لما تقدم في بحث الكلام أن النزاع في مقامين:

- أحدهما: كون النور والظلمة وما شابههما ذا حقيقة في هذه النشأة أو مجرد تشبيه لا حقيقة له.
- ثانيهما: أنه على تقدير تسليم أن لها حقائق وواقعيات هل استعمال اللفظ كالنور مثلا في الحقيقة التي هي حقيقة الهداية حقيقة أو مجاز؟

٢. على أي حال فالجملتان أعني: قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾، وقوله تعالى: ﴿يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾، كنايتان عن الهداية والإضلال وإلا لزم أن يكون لكل من المؤمن والكافر نور وظلمة معا، فإن لازم إخراج المؤمن من الظلمة إلى النور أن يكون قبل الإيمان في ظلمة وبالعكس في الكافر، فعامة المؤمنين والكفار، وهم الذين عاشوا مؤمنين فقط أو عاشوا كفارا فقط، إذا بلغوا مقام التكليف فإن آمنوا خرجوا من الظلمات إلى النور، وإن كفروا خرجوا من النور إلى الظلمات، فهم قبل ذلك في نور وظلمة معا وهذا كما ترى.

٣. لكن يمكن أن يقال: إن الإنسان بحسب خلقته على نور الفطرة، هو نور إجمالي يقبل التفصيل،

وأما بالنسبة إلى المعارف الحقة والأعمال الصالحة تفصيلا فهو في ظلمة بعد لعدم تبين أمره، والنور والظلمة بهذا المعنى لا يتنافيان ولا يمتنع اجتماعهما، والمؤمن بإيمانه يخرج من هذه الظلمة إلى نور المعارف والطاعات تفصيلا، والكافر بكفره يخرج من نور الفطرة إلى ظلمات الكفر والمعاصي التفصيلية، والإتيان بالنور مفردا وبالظلمات جمعا في قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾، وقوله تعالى: ﴿يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾، للإشارة إلى أن الحق واحد لا اختلاف فيه كما أن الباطل متشتت مختلف لا وحدة فيه، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ﴾

٤. أحاديث وآثار:

أ. أخرج أبو داود والنسائي وابن المنذر وابن أبي حاتم والنحاس في ناسخه وابن منده في غرائب شعبه وابن حبان وابن مردويه والبيهقي في سننه والضياء في المختارة عن ابن عباس قال: كانت المرأة من الأنصار تكون مقلاة لا يكاد يعيش لها ولد، فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوده، فلما أجلت بنو النضير، كان فيهم من أبناء الأنصار، فقالوا: لا ندع أبناءنا، فأنزل الله: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]

• أقول: وروي أيضاً هذا المعنى بطرق أخرى عن سعيد بن جبير وعن الشعبي.

ب. وفيه: أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد قال: كانت النضير أرضعت رجالاً من الأوس، فلما أمر النبي ﷺ بإجلائهم، قال أبناؤهم من الأوس: لنذهبن معهم، ولندينن دينهم، فمنعهم أهلوهم وأكرهوهم على الإسلام، ففيهم نزلت هذه الآية: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾

• أقول: وهذا المعنى أيضاً مروي بغير هذا الطريق، وهو لا ينافي ما تقدم من نذر النساء اللاتي ما كان يعيش أولادهن أن يهودنهم.

ج. وفيه أيضاً: أخرج ابن إسحاق وابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾، قال: نزلت في رجل من الأنصار من بني سالم بن عوف يقال له: الحصين، كان له ابنان نصرانيان، وكان هو رجلاً مسلماً، فقال للنبي ﷺ: ألا استكرههما، فإنهما قد أبيا إلا النصرانية؟ فأنزل الله فيه ذلك.

د. وفي الكافي عن الصادق عليه السلام قال: النور آل محمد، والظلمات أعداؤهم.

• أقول: وهو من قبيل الجري، أو من باب الباطن أو التأويل.

١٢٣. محاجة إبراهيم للملك الذي ادعى الربوبية:

المقطع [١٢٣] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢/ ٣٤٨»:

١. ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾:

أ. المحاجة إلقاء الحجة قبال الحجة لإثبات المدعى أو لإبطال ما يقابله، وأصل الحجة هو القصد، غلب استعماله فيما يقصد به إثبات دعوى من الدعاوي، وقوله: ﴿فِي رَبِّهِ﴾ متعلق بحاج، والضمير لإبراهيم كما يشعر به قوله تعالى فيما بعد: ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾، وهذا الذي حاج إبراهيم عليه السلام في ربه هو الملك الذي كان يعاصره وهو نمرود من ملوك بابل على ما يذكره التاريخ والرواية.

ب. بالتأمل في سياق الآية، والذي جرى عليه الأمر عند الناس ولا يزال يجري عليه يعلم معنى هذه المحاجة التي ذكرها الله تعالى في هذه الآية، والموضوع الذي وقعت فيه محاجتهما، بيان ذلك: أن الإنسان لا يزال خاضعا بحسب الفطرة للقوى المستعلية عليه، المؤثرة فيه، وهذا مما لا يرتاب فيه الباحث عن أطوار الأمم الخالية المتأمل في حال الموجودين من الطوائف المختلفة وقد بينا ذلك فيما مر من المباحث، وهو بفطرته يثبت للعالم صانعا مؤثرا فيه بحسب التكوين والتدبير، وقد مر أيضا بيانه، وهذا أمر لا يختلف في القضاء عليه حال الإنسان سواء قال بالتوحيد كما يبتني عليه دين الأنبياء وتعتمد عليه دعوتهم أو ذهب إلى تعدد الآلهة كما عليه الوثنيون أو نفي الصانع كما عليه الدهريون والماديون، فإن الفطرة لا تقبل البطلان ما دام الإنسان إنسانا وإن قبلت الغفلة والذهول.

ج. لكن الإنسان الأولي الساذج لما كان يقيس الأشياء إلى نفسه، وكان يرى من نفسه أن أفعاله المختلفة تستند إلى قواه وأعضائه المختلفة، وكذا الأفعال المختلفة الاجتماعية تستند إلى أشخاص مختلفة في الاجتماع، وكذا الحوادث المختلفة إلى علل قريبة مختلفة وإن كانت جميع الأزمة تجتمع عند الصانع الذي يستند إليه مجموع عالم الوجود لا جرم أثبت لأنواع الحوادث المختلفة أربابا مختلفة دون الله سبحانه فتارة كان يثبت ذلك باسم أرباب الأنواع كرب الأرض ورب البحار ورب النار ورب الهواء والأرياح وغير ذلك، وتارة كان يثبته باسم الكواكب وخاصة السيارات التي كان يثبت لها على اختلافها تأثيرات مختلفة

في عالم العناصر والمواليد كما نقل عن الصابئين ثم كان يعمل صورا وتماثيل لتلك الأرباب فيعبدها لتكون وسيلة الشفاعة عند صاحب الصنم ويكون صاحب الصنم شفيعا له عند الله العظيم سبحانه، ينال بذلك سعادة الحياة والممات، ولذلك كانت الأصنام مختلفة بحسب اختلاف الأمم والأجيال لأن الآراء كانت مختلفة في تشخيص الأنواع المختلفة وتخيل صور أرباب الأنواع المحكية بأصنامها، وربما لحقت بذلك أميال وتهوسات أخرى، وربما انجر الأمر تدريجا إلى التشبث بالأصنام ونسيان أربابها حتى رب الأرباب لأن الحس والخيال كان يزين ما ناله لهم، وكان يذكرها وينسى ما وراءها، فكان يوجب ذلك غلبة جانبها على جانب الله سبحانه، كل ذلك إنما كان منهم لأنهم كانوا يرون لهذه الأرباب تأثيرا في شئون حياتهم بحيث تغلب إرادتها إرادتهم، وتستعلي تدبيرها على تدبيرهم، وربما كان يستفيد بعض أولي القوة والسطوة والسلطة من جبابرة الملوك من اعتقادهم ذلك ونفوذ أمره في شئون حياتهم المختلفة، فيطمع في المقام ويدعي الألوهية كما ينقل عن فرعون ونمرود وغيرهما، فيسلك نفسه في سلك الأرباب وإن كان هو نفسه يعبد الأصنام كعبادتهم، وهذا وإن كان في بادئ الأمر على هذه الوتيرة لكن ظهور تأثيره ونفوذ أمره عند الحس كان يوجب تقدمه عند عباده على سائر الأرباب وغلبة جانبه على جانبها، وقد تقدمت الإشارة إليه آنفا كما يحكيه الله تعالى من قول فرعون لقومه: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾، فقد كان يدعي أنه أعلى الأرباب مع كونه ممن يتخذ الأرباب كما قال تعالى: ﴿وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾، وكذلك كان يدعي نمرود على ما يستفاد من قوله: ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾، في هذه الآية على ما سنبين.

د. ينكشف بهذا البيان معنى هذه المحاجة الواقعة بين إبراهيم عليه السلام ونمرود، فإن نمرود كان يرى لله سبحانه ألوهية، ولولا ذلك لم يسلم لإبراهيم عليه السلام قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾، ولم يبهت عند ذلك بل يمكنه أن يقول: أنا آتي بها من المشرق دون من زعمت أو أن بعض الآلهة الأخرى يأتي بها من المشرق، وكان يرى أن هناك آلهة أخرى دون الله سبحانه، وكذلك قومه كانوا يرون ذلك كما يدل عليه عامة قصص إبراهيم عليه السلام كقصة الكوكب والقمر والشمس وما كلم به أباه في أمر الأصنام وما خاطب به قومه وجعله الأصنام جذاذا إلا كبيرا لهم وغير ذلك، فقد كان يرى لله تعالى ألوهية، وأن معه آلهة أخرى لكنه كان يرى لنفسه ألوهية، وأنه أعلى الآلهة، ولذلك استدلّ على ربوبيته عندما حاج إبراهيم عليه السلام في ربه، ولم يذكر من أمر الآلهة الأخرى شيئا.

هـ. من هنا يستنتج أن المحاجة التي وقعت بينه وبين إبراهيم عليه السلام هي، أن إبراهيم عليه السلام كان يدعي أن ربه الله لا غير ونمرود كان يدعي أنه رب إبراهيم وغيره ولذلك لما احتج إبراهيم عليه السلام على دعواه بقوله: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾، قال ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾، فادعى أنه متصف بما وصف به إبراهيم ربه فهو ربه الذي يجب عليه أن يخضع له ويشتغل بعبادته دون الله سبحانه ودون الأصنام، ولم يقل: وأنا أحيي وأميت لأن لازم العطف أن يشارك الله في ربوبيته ولم يكن مطلوبه ذلك بل كان مطلوبه التعين بالتفوق كما عرفت، ولم يقل أيضا: والآلهة تحيي وتميت، ولم يعارض إبراهيم عليه السلام بالحق، بل بالتمويه والمغالطة وتلبيس الأمر على من حضر، فإن إبراهيم عليه السلام إنما أراد بقوله: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾، الحياة والموت المشهودين في هذه الموجودات الحية الشاعرة المريدة فإن هذه الحياة المجهولة لكنه لا يستطيع أن يوجدها إلا من هو واجد لها فلا يمكن أن يعلل بالطبيعة الجامدة الفاقدة لها، ولا بشيء من هذه الموجودات الحية، فإن حياتها هي وجودها، وموتها عدمها، والشيء لا يقوى لا على إيجاد نفسه ولا على إعدام نفسه.

و. لو كان نمرود أخذ هذا الكلام بالمعنى الذي له لم يمكنه معارضته بشيء لكنه غالط فأخذ الحياة والموت بمعناهما المجازي أو الأعم من معناهما الحقيقي والمجازي فإن الإحياء كما يقال على جعل الحياة في شيء كالجنين إذا نفخت فيه الحياة كذلك يقال: على تلخيص إنسان من ورطة الهلاك، وكذا الإماتة تطلق على التوفي وهو فعل الله وعلى مثل القتل بآلة قتالة، وعند ذلك أمر بإحضار رجلين من السجن فأمر بقتل أحدهما وإطلاق الآخر فقتل هذا وأطلق ذاك فقال: ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾، ولبس الأمر على الحاضرين فصدقوه فيه.

ز. لم يستطع لذلك إبراهيم عليه السلام أن يبين له وجه المغالطة، وأنه لم يرد بالإحياء والإماتة هذا المعنى المجازي، وأن الحجة لا تعارض الحجة، ولو كان في وسعه عليه السلام ذلك لبينه، ولم يكن ذلك إلا لأنه شاهد حال نمرود في تمويهه، وحال الحضار في تصديقهم لقوله الباطل على العمياء، فوجد أنه لو بين وجه المغالطة لم يصدقه أحد، فعدل إلى حجة أخرى لا يدع المكابر أن يعارضه بشيء فقال إبراهيم عليه السلام: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾، وذلك أن الشمس وإن كانت من جملة الآلهة عندهم أو عند بعضهم كما يظهر من ما يرجع إلى الكوكب والقمر من قصته عليه السلام لكنها

وما يلحق وجودها من الأفعال كالطلوع والغروب مما يستند بالآخرة إلى الله الذي كانوا يرونه رب الأرباب، والفاعل الإرادي إذا اختار فعلا بالإرادة كان له أن يختار خلافه كما اختار نفسه فإن الأمر يدور مدار الإرادة، وبالجملة لما قال إبراهيم ذلك بهت نمرود، إذ ما كان يسعه أن يقول: إن هذا الأمر المستمر الجاري على وتيرة واحدة وهو طلوعها من المشرق دائما أمر اتفاقي لا يحتاج إلى سبب، ولا كان يسعه أن يقول: إنه فعل مستند إليها غير مستند إلى الله فقد كان يسلم خلاف ذلك، ولا كان يسعه أن يقول: إني أنا الذي آتيها من المشرق وإلا طولب بإتيانها من المغرب، فألقمه الله حجرا وبهته ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾

٢. ﴿أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾:

أ. ظاهر السياق: أنه من قبيل قول القائل: أساء إلي فلان لأني أحسنت إليه يريد: أن إحساني إليه كان يستدعي أن يحسن إلي لكنه بدل الإحسان من الإساءة فأساء إلي، وقولهم: واتق شر من أحسنت إليه، قال الشاعر:

جزى بنوه أبا الغيلان عن كبر...وحسن فعل كما يجزى سنمار

أ. فالجملة أعني قوله: ﴿أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ بتقدير لام التعليل وهي من قبيل وضع الشيء موضع ضده للشكوى والاستعداء ونحوه، فإن عدوان نمرود وطغيانه في هذه المحاجة كان ينبغي أن يعلل بضد إنعام الله عليه بالملك، لكن لما لم يتحقق من الله في حقه إلا الإحسان إليه وإيتاؤه الملك فوضع في موضع العلة فدل على كفرانه لنعمة الله فهو بوجه كقوله تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾، فهذه نكتة في ذكر إيتائه الملك.

ب. وهناك نكتة أخرى وهي: الدلالة على رداءة دعواه من رأس، وذلك أنه إنما كان يدعي هذه الدعوى لملك آتاه الله تعالى من غير أن يملكه لنفسه، فهو إنما كان نمرود الملك ذا السلطة والسطوة بنعمة من ربه، وأما هو في نفسه فلم يكن إلا واحدا من سواد الناس لا يعرف له وصف، ولا يشار إليه بنعت، ولهذا لم يذكر اسمه وعبر عنه بقوله: ﴿الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾، دلالة على حقارة شخصه وخسة أمره.

ج. أما نسبة ملكه إلى إيتاء الله تعالى فقد مر في المباحث السابقة: أنه لا محذور فيه، فإن الملك وهو نوع سلطنة منبسطة على الأمة كسائر أنواع السلطنة والقدرة نعمة من الله وفضل يؤتيه من يشاء، وقد أودع

في فطرة الإنسان معرفته، والرغبة فيه، فإن وضعه في موضعه كان نعمة وسعادة، قال تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾، وإن عدا طوره وانحرف به عن الصراط كان في حقه نقمة وبوارا، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾، وقد مر بيان أن لكل نسبة إليه تعالى على ما يليق بساحة قدسه تعالى وتقدس من جهة الحسن الذي فيه دون جهة القبح والمساءة.

٣. من هنا يظهر سقوط ما ذكره بعض المفسرين: أن الضمير في قوله: ﴿أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ﴾، يعود إلى إبراهيم عليه السلام، والمراد بالملك ملك إبراهيم كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾، لا ملك نمرود لكونه ملك جور ومعصية لا يجوز نسبته إلى الله سبحانه، ففيه:

أ. أولا: أن القرآن ينسب هذا الملك وما في معناه كثيرا إليه تعالى كقوله حكاية عن مؤمن آل فرعون: ﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ﴾، قوله تعالى حكاية عن فرعون، وقد أمضاه بالحكاية ـ: ﴿يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾، وقد قال: ﴿لَهُ الْمُلْكُ﴾، فقصر كل الملك لنفسه فما من ملك إلا وهو منه تعالى، وقال تعالى حكاية عن موسى عليه السلام: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً﴾، وقال في قارون: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾، وقال خطابا لنبيه ﷺ: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا﴾ إلى أن قال: ﴿وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾، إلى غير ذلك.

ب. وثانيا: أن ذلك لا يلائم ظاهر الآية فإن ظاهرها أن نمرود كان ينازع إبراهيم في توحيده وإيمانه لا أنه كان ينازعه ويحاجه في ملكه فإن ملك الظاهر كان لنمرود، وما كان يرى لإبراهيم ملكا حتى يشاجره فيه.

ج. وثالثا: أن لكل شيء نسبة إلى الله سبحانه والملك من جملة الأشياء ولا محذور في نسبته إليه تعالى وقد مر تفصيل بيانه.

٤. ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾:

أ. الحياة والموت وإن كانا يوجدان في غير جنس الحيوان أيضا كالنبات، وقد صدقه القرآن كما مر بيانه في تفسير آية الكرسي، لكن مراده عليه السلام منهما إما خصوص الحياة والممات الحيوانيين أو الأعم الشامل له لإطلاق اللفظ، والدليل على ذلك قول نمرود: ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾، فإن هذا الذي ادعاه لنفسه

لم يكن من قبيل إحياء النبات بالحرث والغرس مثلا، ولا إحياء الحيوان بالسفاد والتوليد مثلا، فإن ذلك وأشباهه كان لا يختص به بل يوجد في غيره من أفراد الإنسان، وهذا يؤيد ما وردت به الروايات: أنه أمر بإحضار رجلين ممن كان في سجنه فأطلق أحدهما وقتل الآخر، وقال عند ذلك: ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾

ب. إنما أخذ عليه السلام في حجته الإحياء والإماتة لأنهما أمران ليس للطبيعة الفاقدة للحياة فيهما صنع، وخاصة الحياة التي في الحيوان حيث تستتبع الشعور والإرادة وهما أمران غير ماديين قطعا، وكذا الموت المقابل لها.

ج. الحجة على ما فيها من السطوع والوضوح لم تنجح في حقهم، لأن انحطاطهم في الفكر وخبطهم في التعقل كان فوق ما كان يظنه عليه السلام في حقهم، فلم يفهموا من الإحياء والإماتة إلا المعنى المجازي الشامل لمثل الإطلاق والقتل، فقال نمرود: ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ وصدقه من حضره، ومن سياق هذه المحاجة يمكن أن يحدس المتأمل ما بلغ إليه الانحطاط الفكري يومئذ في المعارف والمعنويات، ولا ينافي ذلك الارتقاء الحضاري والتقدم المدني الذي يدل عليه الآثار والرسوم الباقية من بابل كلدة ومصر الفراعنة وغيرهما، فإن المدنية المادية أمر والتقدم في معنويات المعارف أمر آخر، وفي ارتقاء الدنيا الحاضرة في مدنيتها وانحطاطها في الأخلاق والمعارف المعنوية ما تسقط به هذه الشبهة.

د. من هنا يظهر: وجه عدم أخذه عليه السلام في حجته مسألة احتياج العالم بأسره إلى الصانع الفاطر للسماوات والأرض كما أخذ به في استبصار نفسه في بادي أمره على ما يحكيه الله عنه بقوله: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، فإن القوم على اعترافهم بذلك بفطرتهم إجمالا كانوا أنزل سطحا من أن يعقلوه على ما ينبغي أن يعقل عليه بحيث ينجح احتجاجه ويتضح مراده عليه السلام، وناهيك في ذلك ما فهموه من قوله: ربي الذي يحيي ويميت.

٥. ﴿قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾، أي فأنا ربك الذي وصفته بأنه يحيي ويميت.

٦. ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾:

أ. لما أيس عليه السلام من مضي احتجاجه بأن ربه الذي يحيي ويميت، لسوء فهم الخصم وتمويهه وتلبيسه الأمر على من حضر عندهما عدل عن بيان ما هو مراده من الإحياء والإماتة إلى حجة أخرى، إلا أنه بنى هذه الحجة الثانية على دعوى الخصم في الحجة الأولى كما يدل عليه التفريع بالفاء في قوله: ﴿فَإِنَّ

الله﴾، والمعنى: إن كان الأمر كما تقول: إنك ربي ومن شأن الرب أن يتصرف في تدبير أمر هذا النظام الكوني فالله سبحانه يتصرف في الشمس بإتيانها من المشرق فتصرف أنت بإتيانها من المغرب حتى يتضح أنك رب كما أن الله رب كل شيء أو أنك الرب فوق الأرباب فبهت الذي كفر.

ب. إنما فرع الحجة على ما تقدمها لئلا يظن أن الحجة الأولى تمت لنمرود وأنتجت ما ادعاه، ولذلك أيضا قال ﴿فَإِنَّ اللهَ﴾ ولم يقل: فإن ربي لأن الخصم استفاد من قوله: ربي سوءا وطبقه على نفسه بالمغالطة فأتى عليه السلام ثانيا بلفظة الجلالة ليكون مصونا عن مثل التطبيق السابق! وقد مر بيان أن نمرود ما كان يسعه أن يتفوه في مقابل هذه الحجة بشيء دون أن يبهت فيسكت.

٧. ﴿وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾:

أ. ظاهر السياق أنه تعليل لقوله ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ فبهته هو عدم هداية الله سبحانه إياه لا كفره، وبعبارة أخرى معناه أن الله لم يهده فبهت لذلك ولو هداه لغلب على إبراهيم في الحجة لا أنه لم يهده فكفر لذلك وذلك لأن العناية في المقام متوجهة إلى محاجته إبراهيم عليه السلام لا إلى كفره وهو ظاهر.

ب. من هنا يظهر: أن في الوصف إشعارا بالعلية أعني: أن السبب لعدم هداية الله الظالمين هو ظلمهم كما هو كذلك في سائر موارد هذه الجملة من كلامه تعالى كقول: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾، وقوله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾، ونظير الظلم الفسق في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾

ج. بالجملة الظلم وهو الانحراف عن صراط العدل والعدول عما ينبغي من العمل إلى غير ما ينبغي موجب لعدم الاهتداء إلى الغاية المقصودة، ومؤد إلى الخيبة والخسران بالأخرة، وهذه من الحقائق الناصعة التي ذكرها القرآن الشريف وأكد القول فيها في آيات كثيرة.

٨. وضع هنا مبحثا حول [الإحسان وهدايته والظلم وإضلاله: سنة الله في التكوين والتشريع]، خلاصته:

أ. كل شيء بعد تمام خلقه يهتدي بهداية من الله إلى مقاصد وجوده وكمالاته، والامور التكوينية لا تغلط في آثارها.

ب. لكل شيء روابط حقيقية مع غيره، وطرق خاصة للوصول إلى غاياته، فما كل سبب يؤدي إلى كل مسبب.

ج. الامور غير التكوينية (كالاعتبارات الاجتماعية) تابعة للفطرة المتكئة على التكوين، فالتربية الصالحة لا تتحقق إلا من مرب صالح، والمربي الفاسد لا ينتج إلا أثراً فاسداً.

د. الحق لا يموت ولا يتزلزل أثره، والباطل لا يثبت ولا يبقى أثره، وإن اشتبه أمره أحياناً.

هـ. الظالم لا يفلح في ظلمه، والله يضل الظالمين في شأنهم، بينما يهدي المحسنين والمتقين.

و. الآيات القرآنية تؤكد أن الحق يثبت والباطل يزول، والعقل والتجربة يشهدان بذلك.

١٢٤. إماتة الله وإحياؤه لمن مر على القرية الخاوية:

المقطع [١٢٤] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢/ ٣٥٩»:

١. ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ الخاوية هي الخالية يقال: خوت الدار تخوي خواء إذا خلت، والعروش جمع العرش وهو ما يعمل مثل السقف للكرم قائما على أعمدة، قال تعالى: ﴿جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾، ومن هنا أطلق على سقف البيت العرش، لكن بينهما فرقا، فإن السقف هو ما يقوم من السطح على الجدران والعرش هو السقف مع الأركان التي يعتمد عليها كهيئة عرش الكرم، ولذا صح أن يقال في الديار إنها خالية على عروشها ولا يصح أن يقال: خالية على سقفها.

٢. ذكر المفسرون وجوها في توجيه العطف في قوله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي﴾:

أ. فقيل: إنه عطف على قوله في الآية السابقة: ﴿الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ﴾، والكاف اسمية، والمعنى أو هل رأيت مثل الذي مر على قرية.، وقد جيء بهذا الكاف للتنبيه على تعدد الشواهد.

ب. وقيل: بل الكاف زائدة، والمعنى: ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم أو الذي مر على قرية.

ج. وقيل: إنه عطف محمول على المعنى، والمعنى: ألم تر كالذي حاج إبراهيم أو كالذي مر على

قرية.

د. وقيل: إنه من كلام إبراهيم جوابا عن دعوى الخصم أنه يحيي ويميت، والتقدير: وإن كنت تحيي فأحي كإحياء الذي مر على قرية.

٣. فهذه وجوه ذكروه في الآية لتوجيه العطف لكن الجميع كما ترى، وأظن أن العطف على المعنى كما مر في الوجه الثالث إلا أن التقدير غير التقدير، توضيحه: أن الله سبحانه لما ذكر قوله: ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾، تحصل من ذلك: أنه يهدي المؤمنين إلى الحق ولا يهدي الكافر في كفره بل يضله أولياؤه الذين اتخذته من دون الله أولياء، ثم ذكر لذلك شواهد ثلاث يبين بها أقسام هدايته تعالى، وهي مراتب ثلاث مترتبة:

أ. أولاها: الهداية إلى الحق بالبرهان والاستدلال كما في قصة الذي حاج إبراهيم في ربه، حيث هدى إبراهيم إلى حق القول، ولم يهد الذي حاجه بل أبهته وأضله كفره، وإنما لم يصرح بهداية إبراهيم بل وضع عمدة الكلام في أمر خصمه ليدل على فائدة جديدة يدل عليها قوله: ﴿وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾

ب. الثانية: الهداية إلى الحق بالإراءة والإشهاد كما في قصة الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها فإنه بين له ما أشكل عليه من أمر الإحياء بإماتته وإحيائه وسائر ما ذكره في الآية، كل ذلك بالإراءة والإشهاد.

ج. الثالثة: الهداية إلى الحق وبيان الواقعة بإشهاد الحقيقة والعلة التي تترشح منه الحادثة، وبعبارة أخرى بإراءة السبب والمسبب معا، وهذا أقوى مراتب الهداية والبيان وأعلاها وأسناها كما أن من كان لم ير الجبن مثلا وارتاب في أمره تزاح شبهته تارة بالاستشهاد بمن شاهده وأكل منه وذاق طعمه، وتارة بإراءته قطعة من الجبن وإذاقته طعمه وتارة بإحضار الحليب وعصارة الإنفحة وخلط مقدار منها به حتى يجمد ثم إذاقته شيئا منه وهي أنفى المراتب للشبهة.

٤. إذا عرفت ما ذكرناه علمت أن المقام في الآيات الثلاث، وهو مقام الاستشهاد، يصح فيه جميع السياقات الثلاث في إلقاء المراد إلى المخاطب:

أ. بأن يقال: إن الله يهدي المؤمنين إلى الحق: ألم تر إلى قصة إبراهيم ونمرود، أو لم تر إلى قصة الذي مر على قرية، أو لم تر إلى قصة إبراهيم والطير.

ب. أو يقال إن الله يهدي المؤمنين إلى الحق: إما كما هدى إبراهيم في قصة المحاجة وهي نوع من الهداية، أو كالذي مر على قرية وهي نوع آخر، أو كما في قصة إبراهيم والطير وهي نوع آخر.

ج. أو يقال: إن الله يهدي المؤمنين إلى الحق وأذكرك ما يشهد بذلك فاذكر قصة المحاجة، واذكر الذي مر على قرية، واذكر إذ قال إبراهيم رب أرني.

٥. هذا ما يقبله الآيات الثلاث من السياق بحسب المقام، غير أن الله سبحانه أخذ بالتفنن في البيان وخص كل واحدة من الآيات الثلاث بواحد من السياقات الثلاث تنشيطا لذهن المخاطب واستيفاء لجميع الفوائد السياقية الممكنة الاستيفاء.

٦. من هنا يظهر: أن قوله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي﴾، معطوف على مقدر يدل عليه الآية السابقة، والتقدير: إما كالذي حاج إبراهيم أو كالذي مر على قرية، ويظهر أيضا أن قوله في الآية التالية: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾، معطوف على مقدر مدلول عليه بالآية السابقة والتقدير: اذكر قصة المحاجة وقصة الذي مر على قرية، واذكر ﴿إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّ أَرِنِي﴾

٧. أبهم الله سبحانه اسم هذا الذي مر على قرية واسم القرية والقوم الذين كانوا يسكنونها، والقوم الذين بعث هذا المار آية لهم كما يدل عليه قوله: ﴿وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ﴾، مع أن الأنسب في مقام الاستشهاد الإشارة إلى أسمائهم ليكون أنفى للشبهة، لكن الآية وهي الإحياء بعد الموت وكذا أمر الهداية بهذا النحو من الصنع لما كانت أمرا عظيما، وقد وقعت موقع الاستبعاد والاستعظام، كان مقتضى البلاغة أن يعبر عنها المتكلم الحكيم القدير بلحن الاستهانة والاستصغار لكسر سورة استبعاد المخاطب والسامعين كما أن العظماء يتكلمون عن عظماء الرجال وعظائم الأمور بالتصغير والتهوين تعظيما لمقام أنفسهم، ولذلك أبهم في الآية كثير من جهات القصة مما لا يتقوم به أصلها ليدل على هوان أمرها على الله، ولذلك أيضا أبهم خصم إبراهيم في الآية السابقة وأبهم جهات القصة من أسماء الطيور وأسماء الجبال وعدد الأجزاء وغيرها في الآية اللاحقة، أما التصريح باسم إبراهيم عليه السلام فإن للقرآن عناية تشريف به عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾، وقال: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ في ذكره عليه السلام بالاسم عناية خاصة، ولما ذكرناه من النكتة ترى أنه تعالى يذكر أمر الإحياء والإماتة في غالب الموارد من كلامه بما لا يخلو من الاستهانة

والاستصغار، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، وقال: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾، إلى قوله:، ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾

٨. ﴿قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ﴾، أي أنى يحيي الله أهل هذه القرية ففيه مجاز كما في قوله تعالى: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾، وإنما قال هذا القول استعظاما للأمر ولقدرة الله سبحانه من غير استبعاد يؤدي إلى الإنكار أو ينشأ منه، والدليل على ذلك قوله على ما حكى الله تعالى عنه في آخر القصة: ﴿أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ولم يقل: الآن كما فيما يماثله من قوله تعالى حكاية عن امرأت العزيز: ﴿الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾، وسيجيء توضيحه قريبا، على أن الرجل نبي مكلم وآية مبعوثة إلى الناس والأنبياء معصومون حاشاهم عن الشك والارتياب في البعث الذي هو أحد أصول الدين.

٩. ﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾، ظاهره توفيه بقبض روحه وإبقاؤه على هذا الحال مائة عام ثم إحياؤه برد روحه إليه، وقد ذكر بعض المفسرين: أن المراد بالموت هو الحال المسمى عند الأطباء بالسبات وهو أن يفقد الموجود الحي الحس والشعور مع بقاء أصل الحياة مدة من الزمان، أياما أو شهورا أو سنين، كما أنه الظاهر من قصة أصحاب الكهف ورقودهم ثلاثمائة وتسع سنين ثم بعثهم عن الرقدة واحتجاجه تعالى به على البعث فالقصة تشبه القصة، قال والذي وجد من موارد اتفاقه لا يزيد على سنين معدودة فسبات مائة سنة أمر غير مألوف وخارق للعادة لكن القادر على توفي الإنسان بالسبات زمانا كعدة سنين قادر على إلقاء السبات مائة سنة، ولا يشترط عندنا في التسليم بما تواتر به النص من آيات الله تعالى وأخذها على ظاهرها إلا أن تكون من الممكنات دون المستحيلات، فقد احتج الله بهذا السبات ورجوع الحس والشعور إليه ثانيا بعد سلبه مائة سنة على إمكان رجوع الحياة إلى الأموات بعد سلبها عنهم ألوفا من السنين، هذا ملخص ما ذكره، وليت شعري كيف يصح الحكم بكون الإماتة المذكورة في الآية من قبيل السبات من جهة كون قصة أصحاب الكهف من قبيل السبات (على تقدير تسليمه) بمجرد شباهة ما بين القصتين مع ظهور قوله تعالى: ﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ﴾، في الموت المعهود دون السبات الذي اختلقه للآية؟ وهل هو إلا قياس فيما لم يقل بالقياس فيه أحد، وهو أمر الدلالة؟ وإذا جاز أن يلقي الله على رجل سبات مائة سنة مع كونه خرقا للعادة فليجز له إماتته مائة سنة ثم إحياؤه، فلا فرق عنده تعالى بين خارق وخارق إلا أن

هذا القائل يرى إحياء الموتى في الدنيا محالا من غير دليل يدل عليه، وقد تأول لذلك أيضا قوله تعالى في ذيل الآية: ﴿وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾، وسيجيء التعرض له.

١٠. بالجملة دلالة قوله تعالى: ﴿فَأَمَاتَهُ اللهُ مِائَةَ عَامٍ﴾، من حيث ظهور اللفظ وبالنظر إلى قوله قبله: ﴿أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ﴾، وقوله بعده: ﴿فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ﴾ وقوله: ﴿وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ﴾ مما لا ريب فيه.

١١. ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ﴾ اللبث هو المكث وترديد الجواب بين اليوم وبعض اليوم يدل على اختلاف وقت إماتته وإحيائه كأوائل النهار وأواخره، فحسب الموت والحياة نوما وانتباها، ثم شاهد اختلاف وقتيهما فتردد في تخلل الليلة بين الوقتين وعدم تخللها فقال يوما (لو تخللت الليلة) أو بعض يوم (لو لم تتخلل) قال ﴿بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ﴾

١٢. ﴿فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ إلى قوله: ﴿لَحْمًا﴾، سياق هذه الجمل في أمره عجيب فقد كرر فيها قوله: انظر ثلاث مرات وكان الظاهر أن يكتفي بواحد منها، وذكر فيها أمر الطعام والشراب والحمار والظاهر السابق إلى الذهن أنه لم يكن إلى ذكرها حاجة، وجيء بقوله: ولنجعلك متخللا في الكلام وكان الظاهر أن يتأخر عن جملة: ﴿وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ﴾، على أن بيان ما استعظمه هذا المار بالقرية، وهو إحياء الموتى بعد طول المدة وعروض كل تغير عليها، قد حصل بإحيائه نفسه بعد الموت فما الموجب لأن يؤمر ثانيا بالنظر إلى العظام؟ لكن التدبر في أطراف الآية الشريفة يوضح خصوصيات القصة إيضاحا ينحل به العقدة وتنجلي به الشبهة المذكورة.

١٣. التدبر في الآية يعطي:

أ. أن الرجل كان من صالحي عباد الله، عالما بمقام ربه، مراقبا لأمره، بل نبيا مكلما فإن ظاهر قوله: ﴿أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ﴾، أنه بعد تبين الأمر له رجع إلى ما لم يزل يعلمه من قدرة الله المطلقة، وظاهر قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ﴾، إنه كان مأنوسا بالوحي والتكليم، وأن هذا لم يكن أول وحي يوحى إليه وإلا كان حق الكلام أن يقال: فلما بعثه قال أو ما يشبهه كقوله تعالى في موسى عليه السلام: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾، وقوله تعالى فيه أيضا: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ﴾

ب. وكيف كان فقد كان عليه السلام خرج من داره قاصدا مكانا بعيدا عن قريته التي كان بها،

والدليل عليه خروجه مع حمار يركبه، وحمله طعاما وشرابا يتغذى بهما، فلما سار إلى ما كان يقصده مر بالقرية التي ذكر الله تعالى أنها كانت خاوية على عروشها، ولم يكن قاصدا نفس القرية، وإنما مر بها مرورا ثم وقف معتبرا بما يشاهده من أمر القرية الخربة التي كان قد أبيد أهلها وشملتهم نازلة الموت وعظامهم الرميمة بمرأى ومنظر منه عليه السلام، فإنه يشير إلى الموتى بقوله: ﴿أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ﴾، ولو كان مراده بذلك عمران نفس القرية بعد خرابها والإشارة إلى نفس القرية لكان حق الكلام أن يقال: أنى يعمر هذه الله، على أن القرية الخربة ليس من المترقب عمرانها بعد خرابها، ولا أن عمرانها بعد الخراب مما يستعظم عادة، ولو كانت الأموات المشار إليهم مقبورين وقد اعتبر بمقابرهم لكان من اللازم ذكره والصفح عن ذكر نفس القرية على ما يليق بأبلغ الكلام.

ج. ثم إنه تعمق في الاعتبار فهاله ما شاهده منها فاستعظم طول مدة مكثها مع ما يصاحبه من تحولها من حال إلى حال، وتطورها من صورة إلى صورة بحيث يصير الأصل نسيا منسيا، وعند ذلك قال ﴿أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ﴾، وقد كان هذا الكلام ينحل إلى جهتين:

- إحداهما: استعظام طول المدة والإحياء مع ذلك.
- الثانية: استعظام رجوع الأجزاء إلى صورتها الأولى الفانية بعد عروض هذه التغيرات غير المحصورة، فبين الله له الأمر من الجهتين جميعا: أما من الجهة الأولى فبإماتته ثم إحيائه وسؤاله وأما من الجهة الثانية فبإحياء العظام بمنظر ومرأى منه.

١٤. ﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾، وقد كان الإماتة والإحياء في وقتين مختلفين من النهار كما مر ذكره، ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ نظرا إلى اختلاف الوقتين، وقد كان موته في الطرف المقدم من النهار وبعثه في الطرف المؤخر منه ولو كان بالعكس من ذلك لقال: لبثت يوما من غير ترديد، فرد الله سبحانه عليه وقال: ﴿بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ﴾، فرأى من نفسه أنه شاهد مائة سنة كيوم أو بعض يوم، فكان فيه جواب ما استعظمه من طول المكث.

١٥. ثم استشهد تعالى على قوله: ﴿بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ﴾ بقوله: ﴿فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ﴾، وذلك: أن قوله: ﴿لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ يدل على أنه لم يحس بشيء من طول المدة وقصره، وإنما استدلّ على ما ذكره بما شاهد من حال النهار من شمس أو ظل ونحوهما، فلما أجيب

بقوله تعالى: ﴿بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ﴾ كان الجواب في مظنة أن يرتاب فيه من جهة ما كان يشاهد نفسه ولم يتغير شيء من هيئة بدنه، والإنسان إذا مات ومضى عليه مائة سنة على طولها تغير لا محالة بدنه عما هو عليه من النضارة والطراوة وكان ترابا وعظاما رميمة، فدفع الله تعالى هذا الذي يمكن أن يخطر بباله بأمره أن ينظر إلى طعامه وشرابه لم يتغير شيء منهما عما كان عليه وأن ينظر إلى الحمار وقد صار عظاما رميمة، فحال الحمار يدل على طول مدة المكث وحال الطعام والشراب يدل على إمكان أن يبقى طول هذه المدة على حال واحد من غير أن يتغير شيء من هيئته عما هي عليه، ومن هنا يظهر أن الحمار أيضا قد أميت وكان رميما وكان السكوت عن ذكر إماتته معه لما عليه القرآن من الأدب البارع.

١٦. بالجملة تم عند ذلك البيان الإلهي: أن استعظامه طول المدة قد كان في غير محله حيث أخذ الله منه الاعتراف بأن مائة سنة، مدة لبثه، كيوم أو بعض يوم كما يأخذ اعتراف أهل الجمع يوم القيامة بمثل ما اعترف به، فبين له أن تخلل الزمان بين الإماتة والإحياء بالطول والقصر لا يؤثر في قدرته الحاكمة على كل شيء، فليست قدرة مادية زمانية حتى يتخلف حالها بعروض تغيرات أقل أو أزيد على المحل، فيكون إحياء الموتى القديمة أصعب عليه من إحياء الموتى الجديدة، بل البعيد عنده كالقريب من غير فرق كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ﴾

١٧. ثم قال تعالى: ﴿وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ﴾، عطف الغاية يدل على أن هناك غيرها من الغايات، والمعنى أنا فعلنا بك ما فعلنا لنبين لك كذا وكذا ولنجعلك آية للناس فبين أن الغرض الإلهي لم يكن في ذلك منحصرا في بيان الأمر له نفسه بل هناك غاية أخرى وهي جعله آية للناس، فالغرض من قوله: ﴿وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ﴾ الآية بيان الأمر له فقط ومن إماتته وإحيائه بيان الأمر له وجعله آية للناس، ولذلك قدم قوله: ﴿وَلِنَجْعَلَكَ﴾ الآية على قوله: ﴿وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ﴾ الآية.

١٨. ومما بينا يظهر وجه تكرار قوله انظر، ثلاث مرات في الآية، فلكل واحد من الموارد الثلاث غرض خاص به لا يشاركه فيه غيره، وكان في إماتته وإحيائه وبيان ذلك له بيان ما يجده الميت من نفسه إذا أحياه الله ليوم البعث كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

١٩. ثم بين الله له الجهة الثانية التي يشتمل عليه قوله: ﴿أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ﴾ وهو: أنه كيف يعود الأجزاء إلى صورتها بعد كل هذه التغيرات والتحولات الطارئة عليها واستلفت نظره إلى العظام فقال: ﴿وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا﴾ والإنشاز الإنماء، وظاهر الآية أن المراد بالعظام عظام الحمار إذ لو كانت عظام أهل القرية لم تكن الآية منحصرة فيه كما هو ظاهر قوله: ﴿وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً﴾ بل شاركه فيه الموتى الذين أحياهم الله تعالى!

٢٠. من الغريب ما ذكره بعض المفسرين أن المراد بالعظام العظام التي في الأبدان الحية فإنها في نمائها واكتسائها باللحم من آيات البعث، فإن الذي أعطاها الرشد والنماء بالحياة لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير، وقد احتج الله على البعث بمثلها وهو الأرض الميتة التي يحييها الله بالإنبات، وهذا كما ترى تكلف من غير موجب.

٢١. تبين من جميع ما مر أن جميع ما تشتمل عليه الآية من قوله: ﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ﴾ إلى آخر الآية جواب واحد غير مكرر لقوله: ﴿أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ﴾

٢٢. ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾:

أ. رجوع منه بعد التبين إلى علمه الذي كان معه قبل التبين، كأنه عليه السلام لما خطر بباله الخاطر الذي ذكره بقوله: ﴿أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ﴾ أقنع نفسه بما عنده من العلم بالقدرة المطلقة ثم لما بين الله له الأمر بيان إشهاد وعيان رجع إلى نفسه وصدق ما اعتمد عليه من العلم، وقال لم تزل تنصح لي ولا تخونني في هدايتك وتقويمك وليس ما لا تزال نفسي تعتمد عليه من كون القدرة مطلقة جهلا، بل علم يليق بالاعتماد عليه، وهذا أمر كثير النظائر فكثيرا ما يكون للإنسان علم بشيء ثم يخطر بباله ويهجس في نفسه خاطر ينافيه، لا للشك وبطلان العلم، بل لأسباب وعوامل أخرى فيقنع نفسه حتى تنكشف الشبهة ثم يعود فيقول أعلم أن كذا كذا وليس كذا كذا فيقرر بذلك علمه ويطيب نفسه!

ب. ليس معنى الكلام: أنه لما تبين له الأمر حصل له العلم وقد كان شاكا قبل ذلك فقال: ﴿أَعْلَمُ﴾ الآية كما مرت الإشارة إليه لأن الرجل كان نبيا مكلما:

• وساحة الأنبياء منزه عن الجهل بالله وخاصة في مثل صفة القدرة التي هي من صفات الذات أولا.

• ولأن حق الكلام حينئذ أن يقال: علمت أو ما يؤدي معناه ثانيا.

• ولأن حصول العلم بتعلق القدرة بإحياء الموتى لا يوجب حصول العلم بتعلقها بكل شيء وقد قال ﴿أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، نعم ربما يحصل الحدس بذلك في بعض النفوس كمن يستعظم أمر الإحياء في القدرة فإذا شاهدها له ما شاهده وذهلت نفسه عن سائر الأمور فحكم بأن الذي يحيي الموتى يقدر على كل ما يريد أو أريد منه، لكنه اعتقاد حدسي معلول الروع والاستعظام النفسانيين المذكورين، يزول بزوالهما ولا يوجد لمن لم يشاهد ذلك، وعلى أي حال لا يستحق التعويل والاعتماد عليه، وحاشا أن يعد الكلام الإلهي مثل هذا الاعتقاد والقول نتيجة حسنة ممدوحة لبيان إلهي كما هو ظاهر قوله تعالى بعد سرد القصة: فلما تبين له قال ﴿أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، على أنه خطأ في القول لا يليق بساحة الأنبياء ثالثا.

١٢٥ . سؤال إبراهيم ربه كيف يحيي الموتى ليطمئن قلبه:

المقطع [١٢٥] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢/ ٣٦١»:

١ . ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾، قد مر أنه معطوف على مقدر والتقدير: واذكر إذ قال.، وهو العامل في الظرف، وقد احتمل بعضهم أن يكون عامل الظرف هو قوله: ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ﴾، وترتيب الكلام: أولم تؤمن إذ قال إبراهيم رب أرني.، وليس بشيء.

٢ . في قوله تعالى: ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾، دلالة:

أ. أولا: على أنه عليه السلام إنما سأل الرؤية دون البيان الاستدلالي، فإن الأنبياء وخاصة مثل النبي الجليل إبراهيم الخليل أرفع قدرا من أن يعتقد البعث ولا حجة له عليه، والاعتقاد النظري من غير حجة عليه إما اعتقاد تقليدي أو ناش عن اختلال فكري وشيء منهما لا ينطبق على إبراهيم عليه السلام، على أنه عليه السلام إنما سأل ما سأل بلفظ كيف، وإنما يستفهم بكيف عن خصوصية وجود الشيء لا عن أصل وجوده فإنك إذا قلت: أرأيت زيدا كان معناه السؤال عن تحقق أصل الرؤية، وإذا قلت: كيف رأيت زيدا

كان أصل الرؤية مفروغا عنه وإنما السؤال عن خصوصيات الرؤية، فظهر أنه عليه السلام إنما سأل البيان بالإراءة والإشهاد لا بالاحتجاج والاستدلال.

ب. ثانيا: على أن إبراهيم عليه السلام إنما سأل أن يشاهد كيفية الإحياء لا أصل الإحياء كما أنه ظاهر قوله: ﴿كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾

٣. هذا السؤال متصور على وجهين:

أ. الأول: أن يكون سؤالا عن كيفية قبول الأجزاء المادية الحياة، وتجمعها بعد التفرق والتبدد، وتصورها بصورة الحي، ويرجع محصله إلى تعلق القدرة بالإحياء بعد الموت والفناء.

ب. الثاني: أن يكون عن كيفية إفاضة الله الحياة على الأموات وفعله بأجزائها الذي به تلبس الحياة، ويرجع محصله إلى السؤال عن السبب وكيفية تأثيره، وهذا بوجه هو الذي يسميه الله سبحانه بملكوت الأشياء في قوله عز من قائل: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾، وإنما سأل إبراهيم عليه السلام عن الكيفية بالمعنى الثاني دون المعنى الأول:

• أما أولا: فلأنه قال ﴿كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾، بضم التاء من الإحياء فسأل عن كيفية الإحياء الذي هو فعل ناعت لله تعالى وهو سبب حياة الحي بأمره، ولم يقل: كيف تحيي الموتى، بفتح التاء من الحياة حتى يكون سؤالا عن كيفية تجمع الأجزاء وعودها إلى صورتها الأولى وقبولها الحياة، ولو كان السؤال عن الكيفية بالمعنى الثاني لكان من الواجب أن يرد على الصورة الثانية.

• وأما ثانيا: فلأنه لو كان سؤاله عن كيفية قبول الأجزاء للحياة لم يكن لإجراء الأمر بيد إبراهيم وجه، ولكفى في ذلك أن يريد الله إحياء شيء من الحيوان بعد موته.

• وأما ثالثا: فلأنه كان اللازم على ذلك أن يختم الكلام بمثل أن يقال: وأعلم أن الله على كل شيء قدير لا بقوله: ﴿وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، على ما هو المعهود من دأب القرآن الكريم فإن المناسب للسؤال المذكور هو صفة القدرة دون صفتي العزة والحكمة فإن العزة والحكمة، وهما وجدان الذات كل ما تفقده وتستحقه الأشياء وإحكامه في أمرهـ إنما ترتبطان بإفاضة الحياة لا استفاضة المادة لها فافهم ذلك.

٤. مما ذكرنا يظهر فساد ما ذكره بعض المفسرين: أن إبراهيم عليه السلام إنما سأل بقوله: ﴿رَبِّ أَرِنِي﴾ حصول العلم بكيفية حصول الإحياء دون مشاهدة كيفية الإحياء، وأن الذي أجيب به في الآية لا

يدل على أزيد من ذلك، قال ما محصله: أنه ليس في الكلام ما يدل على أن الله سبحانه أمره بالإحياء، ولا أن إبراهيم عليه السلام فعل ما أمره به، فما كل أمر يقصد به الامتثال، فإن من الخبر ما يأتي بصورة الإنشاء كما إذا سألك سائل كيف يصنع الحبر مثلا؟ فتقول: خذ كذا وكذا وأفعل به كذا وكذا يكن حبرا تريد أن هذه كيفيته، ولا تريد به أن تأمره أن يصنع الحبر بالفعل، قال: وفي القرآن شيء كثير مما ورد فيه الخبر في صورة الأمر، والكلام هاهنا مثل لإحياء الموتى، ومعناه خذ أربعة من الطير فضمها إليك وآنسها بك حتى تأنس وتصير بحيث تجيب دعوتك إذا دعوتها فإن الطيور من أشد الحيوان استعدادا لذلك، ثم اجعل كل واحد منها على جبل ثم ادعها فإنها تسرع إليك من غير أن يمنعها تفرق أمكنتها وبعدها، كذلك أمر ربك إذا أراد إحياء الموتى يدعوهم بكلمة التكوين: كونوا أحياء، فيكونون أحياء كما كان شأنه في بدء الخلقة، ذلك إذ قال للسماوات والأرض ﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾، قال والدليل على ذلك من الآية:

أ. أولا: قوله تعالى: ﴿فَصُرْهُنَّ﴾، فإن معناه أملهن أي أوجد ميلها إليك وأنسها بك، ويشهد به تعديته بإلى فإن صار إذا تعدى بإلى كان بمعنى الإمالة، وما ذكره المفسرون من كونه بمعنى التقطيع أي قطعهن أجزاء بعد الذبح لا يساعد عليه تعديته بإلى، وأما ما قيل: إن قوله: ﴿إِلَيْكَ﴾ متعلق بقوله: ﴿فَخُذْ﴾ دون قوله: ﴿فَصُرْهُنَّ﴾ والمعنى: خذ إليك أربعة من الطير فقطعهن فخلاف ظاهر الكلام،

ب. وثانيا: أن الظاهر: أن ضمائر فصرهن ومنهن وادعهن ويأتينك جميعا راجعة إلى الطير، ويلزم على قولهم: إن المراد تقطيعها وتفريق أجزائها، ووضع كل جزء منها على جبل ثم دعوتهن أن يفرق بين الضمائر فيعود الأولان إلى الطيور، والثالث والرابع إلى الأجزاء وهو خلاف الظاهر، وأضاف إلى ذلك بعض من وافقه في معنى الآية وجوها أخرى نتبعها بها.

ج. وثالثا: أن إراءة كيفية الخلقة إن كان بمعنى مشاهدة كيفية تجمع أجزائها وتغير صورها إلى الصورة الأولى الحية فهي مما لا تحصل على ما ذكروه من تقطيعه الأجزاء ومزجه إياها ووضعه على جبل بعيد، جزءا منها فكيف يتصور على هذا مشاهدة ما يعرض ذرأت الأجزاء من الحركات المختلفة والتغيرات المتنوعة، وإن كان المراد إراءة كيفية الإحياء بمعنى الإحاطة على كنه كلمة التكوين التي هي الإرادة الإلهية المتعلقة بوجود الشيء وحقيقة نطقها بالأشياء فظاهر القرآن وهو ما عليه المسلمون أن هذا غير ممكن للبشر، فصفات الله منزهة عن الكيفية.

د. ورابعا: أن قوله: ﴿ثُمَّ اجْعَلْ﴾، يدل على التراخي الذي هو المناسب لمعنى التأنيس وكذلك قوله: ﴿فَصُرْهُنَّ﴾ بخلاف ما ذكروه من معنى الذبح والتقطيع.

هـ. وخامسا: أنه لو كان كما يقولون لكان الأنسب هو ختم الآية باسم القدير دون الاسمين: العزيز الحكيم فإن العزيز هو الغالب الذي لا ينال، هذا ما ذكروه.

٥. بالتأمل فيما قدمناه من البيان تعرف سقوط ما ذكروه، فإن اشتمال الآية على السؤال بلفظ ﴿أَرِنِي﴾، وقوله: ﴿كَيْفَ تُحْيِي﴾ وإجراء الأمر بيد إبراهيم على ما مر بيانها كل ذلك ينافي هذا المعنى، على أن الجزء في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا﴾ ظاهره جزء الطير لا واحد من الطيور، أما الوجوه التي ذكروها فالجواب:

أ. عن الأول: أن معنى صرهن قطعهن، وتعديته بإلى لمكان تضمينه معنى الإمالة كما في قوله تعالى: ﴿الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ البقرة، ١٨٧، حيث ضمن معنى الإفضاء.

ب. وعن الثاني: أن جميع الضمائر الأربع راجعة إلى الطيور، والوجه في رجوع ضمير ادعهن ويأتينك إليها مع أنها غير موجودة بأجزائها وصورها بل هي موجودة بأجزائها فقط هو الوجه في رجوع الضمير إلى السماء مع عدم وجودها إلا بمادتها في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ فصلت، ١٠، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ﴾ يس، ٨٢، وحقيقة الأمر: أن الخطاب اللفظي فرع وجود المخاطب قبل الخطاب، وأما الخطاب التكويني فالأمر فيه بالعكس، والمخاطب فيه فرع الخطاب، فإن الخطاب فيه هو الإيجاد ومن المعلوم أن الوجود فرع الإيجاد، كما يشير إليه قوله تعالى: أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ الآية فقوله فيكون إشارة إلى وجود الشيء المتفرع على قوله كن وهو خطاب الأمر.

ج. وعن الثالث: أنا نختار الشق الثاني وأن السؤال إنما هو عن كيفية فعل الله سبحانه وإحيائه لا عن كيفية قبول المادة وحياتها، وقوله: إن البشر لا يمكنه أن ينال كنه الإرادة الإلهية التي هي من صفاته كما يدل ظاهر القرآن وعليه المسلمون، قلنا: إن الإرادة من صفات الفعل المنتزعة منه كالخلق والإحياء ونحوهما، والذي لا سبيل إليه هو الذات المتعالية كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾، فالإراده منتزعة من الفعل، وهو الإيجاد المتحد مع وجود الشيء، وهو كلمة كن في قوله تعالى: ﴿أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾،

وقد ذكر الله في تالي الآية أن هذه الكلمة، كلمة ﴿كُنْ﴾، هي ملكوت كل شيء إذ قال: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ الآية، وقد ذكر الله تعالى أنه أرى إبراهيم ملكوت خلقه إذ قال ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾، ومن الملكوت إحياء الطيور المذكورة في الآية، ومنشأ هذه الشبهة ونظائرها من هؤلاء الباحثين أنهم يظنون أن دعوة إبراهيم عليه السلام للطيور في إحيائها، وقول عيسى عليه السلام لميت عند إحيائه: قم بإذن الله وجريان الريح بأمر سليمان وغيرها مما يشتمل عليه الكتاب والسنة إنما هو لأثر وضعه الله تعالى في ألفاظهم المؤلفة من حروف الهجاء، أو في إدراكهم التخيلي الذي تدل عليه ألفاظهم نظير النسبة التي بين ألفاظنا العادية ومعانيها وقد خفي عليهم أن ذلك إنما هو عن اتصال باطني بقوة إلهية غير مغلوبة وقدرة غير متناهية هي المؤثرة الفاعلة بالحقيقة.

د. وعن الرابع: أن التراخي المدلول عليه بقوله: ثُمَّ كما يناسب معنى التربية والتأنيس كما ذكروه يناسب معنى التقطيع وتفريق الأجزاء ووضعها على الجبال كما هو ظاهر.

هـ. وعن الخامس: أن الإشكال مقلوب عليهم فإن الذي ذكروه هو أن الله إنما بين كيفية الإحياء لإبراهيم بالبيان العلمي النظري دون الشهودي، فيرد عليهم أن المناسب حينئذ ختم الآية بصفة القدرة دون العزة والحكمة، وقد عرفت مما قدمنا أن الأنسب على ما بيناه من معنى الآية هو الختم بالاسمين: العزيز الحكيم كما في الآية.

٦. يظهر مما ذكرنا أيضا فساد ما ذكره بعض آخر من المفسرين: أن المراد بالسؤال في الآية إنما هو السؤال عن إشهاد كيفية الإحياء بمعنى كيفية قبول الأجزاء صورة الحياة، قال ما محصله: أن السؤال لم يكن في أمر ديني، والعياذ بالله، ولكنه سؤال عن كيفية الإحياء ليحيط علما بها، وكيفية الإحياء لا يشترط في الإيمان الإحاطة بصورتها فإبراهيم عليه السلام طلب علم لا يتوقف الإيمان على علمه، ويدل على ذلك ورود السؤال بصيغة كيف، وموضوعها السؤال عن الحال، ونظير هذا أن يقول القائل: كيف يحكم زيد في الناس، فهو لا يشك أنه يحكم فيهم، ولكنه سأل عن كيفية حكمه المعلوم ثبوته، ولو كان سائلا عن ثبوت ذلك لقال: أيحكم زيد في الناس، وإنما جاء التقرير أعني قوله: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ﴾، بعده لأن تلك الصيغة وإن كانت تستعمل ظاهرا في السؤال عن الكيفية كما علمت إلا أنها قد تستعمل أيضا في الاستعجاز كما إذا ادعى مدع: أنه يحمل ثقلا من الأثقال وأنت تعلم بعجزه عن حمله فتقول له: أرني كيف تحمل هذا تريد

أنك عاجز عن حمله، والله سبحانه لما علم براءة إبراهيم عليه السلام عن الحوم حول هذا الحمى أراد أن ينطقه في الجواب بما يدفع عنه ذلك الاحتمال اللفظي في العبارة الأولى لكون إيمانه مخلصا بعبارة تنص عليه بحيث يفهمها كل من سمعها فهما لا يتخالجه فيه شك، ومعنى الطمأنينة حينئذ سكون القلب عن الجولان في كيفيات الإحياء المحتملة بظهور التصوير المشاهد، وعدم حصول هذه الطمأنينة قبل لا ينافي حصول الإيمان بالقدرة على الإحياء على أكمل الوجودة، ورؤية الكيفية لم يزد في إيمانه المطلوب منه شيئا، وإنما أفادت أمرا لا يجب الإيمان به.

٧. ثم قال بعد كلام له طويل: إن الآية تدل على فضل إبراهيم عليه السلام حيث أراه الله سبحانه ما سأله في الحال على أيسر ما يكون من الوجوه، وأرى عزيرا ما أراه بعد ما أماته مائة عام.

٨. بالتدبر في الآية والتأمل فيما قدمناه من البيان تعرف سقوط ما ذكره فإن السؤال إنما وقع عن كيفية إحيائه تعالى لا عن كيفية قبول الأجزاء الحياة ثانيا فقد قيل: كيف تحيي، بضم التاء لا بفتحها، على أن إجراء الأمر على يد إبراهيم عليه السلام يدل على ذلك ولو كان السؤال عن كيفية القبول لكفى في ذلك إراءة شيء من الموتى يحييه الله كما في قصة المار على القرية الخاوية في الآية السابقة حيث قال تعالى: ﴿وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾، ولم تكن حاجة إلى إجراء الإحياء على يد إبراهيم عليه السلام، وهذا هو الذي أشرنا إليه آنفا: أنهم يقيسون نفوس الأنبياء في تلقيهم المعارف الإلهية ومصدريتهم للأمور الخارقة بنفوسهم العادية فينتج ذلك مثلا: أن لا فرق بين تكون الحياة بيد إبراهيم وتكونه في الخارج بالنسبة إلى حال إبراهيم، وهذا أمر لا يخطر على بال الباحث عن الحقائق الخبير بها، لكن هؤلاء لإهمالهم أمر الحقائق وقعوا فيما وقعوا فيه من الفساد، وكلما أمعنوا في البحث زادوا بعدا عن الحق، ألا ترى أنه فسر الطمأنينة بارتفاع الخطورات في الصور المحتملة في التكون والأشكال المتصورة مع أن هذا التردد الفكري من اللغو الذي لا سبيل له إلى ساحة مثل إبراهيم عليه السلام، مع أن الجواب المنقول في الآية لم يأت في ذلك بشيء فإن إبراهيم عليه السلام قال: ﴿كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾؟ فأطلق الموتى وهو يريد موتى الإنسان أو الأعم منه ومن غيره والله سبحانه ما أراه إلا تكون الحياة في أربعة من الطير.

٩. ثم ذكر فضل إبراهيم عليه السلام على عزير (يريد به صاحب القصة في الآية السابقة) بما ذكر فأخذ القصة في الآيتين من نوع واحد وهو السؤال عن الكيفية التي فسرها بما فسرها والجواب عنها،

فاختلط عليه معنى الآيتين جميعا، مع أن الآيتين جميعا، على ما فيهما من غرر البيان ودقائق المعاني، أجنبيتان عن الكيفية بالمعنى الذي ذكره كل ذلك واضح بالرجوع إلى ما مر فيهما، على أن المناسب لبيان الكيفية ختم الآية بصفة القدرة لا بصفتي العزة والحكمة كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آياتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خاشِعَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْياها لَمُحْيِ الْمَوْتى إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، فالآية كما ترى في مقام بيان الكيفية وقد ختمت بصفة القدرة المطلقة، ونظيره قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، ففيه أيضا بيان الكيفية بإراءة الأمثال ثم ختم الكلام بصفة القدرة.

١٠. ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾، بلى كلمة يرد به النفي ولذلك ينقلب به النفي إثباتا كقوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾، ولو قالوا نعم لكان كفرا، والطمأنينة والاطمئنان سكون النفس بعد انزعاجها واضطرابها، وهو مأخوذ من قولهم: اطمأنت الأرض وأرض مطمئنة إذا كانت فيه انخفاض يستقر فيها الماء إذا سال إليها والحجر إذا هبط إليها.

١١. قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ﴾، ولم يقل: ألم تؤمن للإشعار بأن للسؤال والطلب محلا لكنه لا ينبغي أن يقارن عدم الإيمان بالإحياء: ولو قيل: ألم تؤمن دل على أن المتكلم تلقى السؤال منبعثا عن عدم الإيمان، فكان عتابا وردعا عن مثل هذا السؤال، وذلك أن الواو للجميع، فكان الاستفهام معه استفهاما عن أن هذا السؤال هل يقارنه عدم الإيمان، لا استفهاما عن وجه السؤال حتى ينتج عتابا وردعا.

١٢. الإيمان مطلق في كلامه تعالى، وفيه دلالة على أن الإيمان بالله سبحانه لا يتحقق مع الشك في أمر الإحياء والبعث، ولا ينافي ذلك اختصاص المورد بالإحياء لأن المورد لا يوجب تخصيص عموم اللفظ ولا تقييد إطلاقه، وكذا قوله تعالى حكاية عنه عليه السلام: ﴿لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾، مطلق يدل على كون مطلوبه عليه السلام من هذا السؤال حصول الاطمئنان المطلق وقطع منابت كل خطور قلبي وأعراقه، فإن الوهم في إدراكاتها الجزئية وأحكامها لما كانت معتكفة على باب الحس وكان جل أحكامها وتصديقاتها في المدركات التي تتلقاها من طريق الحواس فهي تنقبض عن مطاوعة ما صدقه العقل، وإن كانت النفس مؤمنة موقنة به، كما في الأحكام الكلية العقلية الحقة من الأمور الخارجة عن المادة الغائبة عن الحس فإنها تستنكف عن قبولها وإن سلمت مقدماتها المنتجة لها، فتخطر بالبال أحكاما مناقضة لها، ثم تثير الأحوال

النفسانية المناسبة لاستنكافها فتقوى وتتأيد بذلك في تأثيرها المخالف، وإن كانت النفس من جهة عقلها موقنة بالحكم مؤمنة بالأمر فلا تضرها إلا أذى، كما أن من بات في دار مظلمة فيها جسد ميت فإنه يعلم: أن الميت جماد من غير شعور وإرادة فلا يضر شيئا، لكن الوهم تستنكف عن هذه النتيجة وتستدعي من المتخيلة أن تصور للنفس صورا هائلة موحشة من أمر الميت ثم تهيج صفة الخوف فتتسلط على النفس، وربما بلغ إلى حيث يزول العقل أو تفارق النفس، فقد ظهر:

أ. أن وجود الخطورات المنافية للعقائد اليقينية لا ينافي الإيمان والتصديق دائما، غير أنها تؤذي النفس، وتسلب السكون والقرار منها، ولا يزول وجود هذه الخواطر إلا بالحس أو المشاهدة، ولذلك قيل: إن للمعاينة أثرا لا يوجد مع العلم، وقد أخبر الله تعالى موسى في الميقات بضلال قومه بعبادة العجل فلم يوجب ذلك ظهور غضبه حتى إذا جاءهم وشاهدهم وعاين أمرهم غضب وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه.

ب. وقد ظهر من هنا ومما مر سابقا أن إبراهيم عليه السلام ما كان يسأل المشاهدة بالحس الذي يتعلق بقبول أجزاء الموتى الحياة بعد فقدها، بل إنما كان يسأل مشاهدة فعل الله سبحانه وأمره في إحياء الموتى، وليس ذلك بمحسوس وإن كان لا ينفك عن الأمر المحسوس الذي هو قبول الأجزاء المادية للحياة بالاجتماع والتصور بصورة الحي، فهو عليه السلام إنما كان يسأل حق اليقين.

١٣. ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾، صرهن بضم الصاد على إحدى القراءتين من صار يصور إذا قطع أو أمال، أو بكسر الصاد على القراءة الأخرى من صار يصير بأحد المعنيين، وقرائن الكلام يدل على إرادة معنى القطع، وتعديته بإلى تدل على تضمين معنى الإمالة، فالمعنى: أقطعهن مميلا إليك أو أملهن إليك قاطعا إياهن على الخلاف في التضمين من حيث التقدير.

١٤. كيف كان فقوله تعالى: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ﴾ الآية، جواب عن ما سأله إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾، ومن المعلوم وجوب مطابقة الجواب للسؤال، فبلاغة الكلام وحكمة المتكلم يمنعان عن اشتمال الكلام على ما هو لغو زائد لا يترتب على وجوده فائدة عائدة إلى الغرض المقصود من الكلام وخاصة القرآن الذي هو خير كلام ألقاه خير متكلم إلى خير سامع واع،

وليست القصة على تلك البساطة التي تتراءى منها في بادي النظر، ولو كان كذلك لتم الجواب بإحياء ميت ما كيف كان، ولكان الزائد على ذلك لغوا مستغنى عنه وليس كذلك، ولقد أخذ فيها قيود وخصوصيات زائدة على أصل المعنى، فاعتبر فيما أريد إحياؤه أن يكون طيرا، وأن يكون حيا، وأن يكون ذا عدد أربعة، وأن يقتل ويخلط ويمزج أجزاؤها، وأن يفرق الأجزاء المختلطة أبعاضا ثم يوضع كل بعض في مكان بعيد من الآخر كقلة هذا الجبل وذاك الجبل، وأن يكون الإحياء بيد إبراهيم عليه السلام (نفس السائل) بدعوته إياهن، وأن يجتمع الجميع عنده، فهذه كما ترى خصوصيات زائدة في القصة، هي لا محالة دخيلة في المعنى المقصود إفادته، وقد ذكروا لها وجوها من النكات لا تزيد الباحث إلا عجبا (يعلم صحة ما ذكرناه بالرجوع إلى مفصلات التفاسير)

١٥. كيف كان فهذه الخصوصيات لا بد أن تكون مرتبطة بالسؤال، والذي يوجد في السؤال، وهو قوله: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ أمران:

أ. أحدهما: ما اشتمل عليه قوله: ﴿تُحْيِي﴾ وهو أن المسئول مشاهدة الإحياء من حيث إنه وصف لله سبحانه لا من حيث إنه وصف لأجزاء المادة الحاملة للحياة.، فيرتبط به في الجواب إجراء هذا الأمر بيد إبراهيم نفسه حيث يقول: ﴿فَخُذْ﴾، ﴿فَصُرْهُنَّ﴾، ﴿ثُمَّ اجْعَلْ﴾، بصيغة الأمر ويقول ﴿ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ﴾، فإنه تعالى جعل إتيانهن سعيا وهو الحياة مرتبطا متفرعا على الدعوة، فهذه الدعوة هي السبب الذي يفيض عنه حياة ما أريد إحياؤه، ولا إحياء إلا بأمر الله، فدعوة إبراهيم إياهن بأمر الله، قد كانت متصلة نحو اتصال بأمر الله الذي منه تترشح حياة الأحياء، وعند ذلك شاهده إبراهيم ورأى كيفية فيضان الأمر بالحياة، ولو كانت دعوة إبراهيم إياهن غير متصلة بأمر الله الذي هو أن يقول لشيء أراده: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾، كمثل أقوالنا غير المتصلة إلا بالتخيل كان هو أيضا كمثلنا إذ قلنا لشيء كن فلا يكون، فلا تأثير جزافي في الوجود.

ب. ثانيهما: ما اشتمل عليه لفظ الموتى من معنى الجمع فإنه خصوصية زائدة.، فقوله: ﴿كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ تدل على أن لكثرة الأموات وتعددها دخلا في السؤال، وليس إلا أن الأجساد بموتها وتبدد أجزائها وتغير صورها وتحول أحوالها تفقد حالة التميز والارتباط الذي بينها فتضل في ظلمة الفناء والبوار، وتصير كالأحاديث المنسية لا خبر عنها في خارج ولا ذهن فكيف تحيط بها القوة المحيية ولا محاط

في الواقع، وهذا هو الذي أورده فرعون على موسى عليه السلام وأجاب عنه موسى بالعلم كما حكاه الله تعالى بقوله: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾

١٦. بالجملة أجابه الله تعالى بأن أمره بأن يأخذ أربعة من الطير (ولعل اختيار الطير لكون هذا العمل فيها أسهل وأقل زمانا) فيشاهد حياتها ويرى اختلاف أشخاصها وصورها، ويعرفها معرفة تامة أولا، ثم يقتلها ويخلط أجزاءها خلطا دقيقا ثم يجعل ذلك أبعاضا، وكل بعض منها على جبل لتفقد التميز والتشخص، وتزول المعرفة، ثم يدعوهن يأتينه سعيا، فإنه يشاهد حينئذ أن التميز والتصور بصورة الحياة كل ذلك تابع للدعوة التي تتعلق بأنفسها، أي إن أجسادها تابعة لأنفسها لا بالعكس فإن البدن فرع تابع للروح لا بالعكس، بل نسبة البدن إلى الروح بوجه نسبة الظل إلى الشاخص، فإذا وجد الشاخص تبع وجوده وجود الظل وإلى أي حال تحول الشاخص أو أجزاؤه تبعه فيه الظل حتى إذا انعدم تبعه في الانعدام، والله سبحانه إذا أوجد حيا من الأحياء، أو أعاد الحياة إلى أجزاء مسبوقة بالحياة فإنما يتعلق إيجاده بالروح الواجدة للحياة أولا ثم يتبعه أجزاء المادة بروابط محفوظة عند الله سبحانه لا نحيط بها علما فيتعين الجسد بتعين الروح من غير فصل ولا مانع وبذلك يشعر قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ أي مسرعات مستعجلات، وهذا هو الذي يستفاد من قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾، وقد مر بعض الكلام في الآية في البحث عن تجرد النفس، وسيأتي تفصيل الكلام في محله إن شاء الله.

١٧. ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ﴾ إنما أمر بذلك ليعرفها فلا يشك فيها عند إعادة الحياة إليها ولا ينكرها، وأما هي عليه من الاختلاف والتميز أولا وزوالها ثانيا.

١٨. ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا﴾ أي اذبحهن وبدد أجزاءهن وأخلطها ثم فرقها على الجبال الموجودة هناك لتتباعد الأجزاء وهي غير متميزة، وهذا من الشواهد على أن القصة إنما وقعت بعد مهاجرة إبراهيم من أرض بابل إلى سورية فإن أرض بابل لا جبل بها.

١٩. ﴿ثُمَّ ادْعُهُنَّ﴾، أي ادع الطيور يا طاووس ويا فلان ويا فلان، ويمكن أن يستفاد ذلك مضافا إلى دلالة ضمير ﴿فَصُرْهُنَّ﴾ الراجعة إلى الطيور من قوله: ﴿ادْعُهُنَّ﴾، فإن الدعوة لو كانت لأجزاء الطيور دون أنفسها كان الأنسب أن يقال: ثم نادهنّ فإنها كانت على جبال بعيدة عن موقفه عليه السلام واللفظ

المستعمل في البعيد خاصة هو النداء دون الدعاء، وقوله: ﴿يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾، أي يتجسدن واتصفن بالإتيان والإسراع إليك.

٢٠. ﴿وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، أي عزيز لا يفقد شيئا بزواله عنه، حكيم لا يفعل شيئا إلا من طريقه اللائق به، فيوجد الأجساد بإحضار الأرواح وإيجادها دون العكس، وفي قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمْ أَنَّ﴾ الآية، دون أن يقال إن الله..، دلالة على أن الخطور القلبي الذي كان إبراهيم يسأل ربه المشاهدة ليطمئن قلبه من ناحيته كان راجعا إلى حقيقة معنى الاسمين: العزيز الحكيم، فأفاده الله سبحانه بهذا الجواب العلم بحقيقتهما.

٢١. أحاديث وآثار:

أ. أخرج الطيالسي وابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب قال: الذي حاج إبراهيم في ربه هو نمرود بن كنعان.

ب. وفي تفسير البرهان: أبو علي الطبرسي قال: اختلف في وقت هذه المحاجة، فقيل: عند كسر الأصنام قبل إلقائه في النار، عن مقاتل، وقيل: بعد إلقائه في النار وجعلها عليه برداً وسلاماً، عن الصادق عليه السلام.

• أقول: الآية وإن لم تتعرض لكونها قبل أو بعد، لكن الاعتبار يساعد كونها بعد الإلقاء في النار؛ فإن قصصه المذكورة في القرآن في بدو أمره من محاجته أباه وقومه وكسره الأصنام، تعطي أن أول ما لاقى إبراهيم عليه السلام نمرود، وكان حين رفع أمره إليه في قضية كسر الأصنام مجرماً عندهم، فحكم عليه بالإحراق، وكان القضاء عليه في جرمه شاغلاً عن تكليمه في أمر ربه: أهو الله أو نمرود؟ ولو حاجه نمرود حينئذ لحاجه في أمر الله وأمر الأصنام، دون أمر الله وأمر نفسه!

ج. وفي عدة من الروايات التي روتها العامة والخاصة في قوله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩] الآية، أن صاحب القصة أرميا النبي، وفي عدة منها: أنها عزير، إلا أنها آحاد غير واجبة القبول، وفي أسانيدها بعض الضعف، ولا شاهد لها من ظاهر الآيات، والقصة غير مذكورة في التوراة، والتي في الروايات من القصة طويلة فيها بعض الاختلاف، لكنها خارجة عن غرضنا، من أرادها فليرجع إلى مظانها.

د. وفي المعاني عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٠] الآية، في حديث قال عليه السلام: وهذه آية متشابهة، ومعناها أنه سأل عن الكيفية، والكيفية من فعل الله عز وجل، متى لم يعلمها العالم لم يلحقه عيب، ولا عرض في توحيده نقص، الحديث.

• أقول: وقد اتضح معنى الحديث مما مر.

هـ. وفي تفسير العياشي عن علي بن أسباط: أن أبا الحسن الرضا عليه السلام سئل عن قول الله: ﴿قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠]، أكان في قلبه شك؟ قال: لا، ولكن أراد من الله الزيادة، الحديث.

• أقول: وروي هذا المعنى في الكافي عن الصادق وعن العبد الصالح عليهما السلام، وقد مر بيانه.

و. وفي تفسير القمي عن أبيه عن ابن أبي عمير عن أبي أيوب عن أبي بصير عن الصادق عليه السلام قال: إن إبراهيم نظر إلى جيفة على ساحل البحر، تأكلها سباع البحر، ثم يثب السباع بعضها على بعض، فيأكل بعضها بعضاً، فتعجب إبراهيم، فقال: يا رب، أرني كيف تحيي الموتى؟ فقال الله: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾؟ قال: ﴿بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾، قال: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠]، فأخذ إبراهيم الطاووس والديك والحمام والغراب، فقال الله عز وجل: ﴿فَصُرْهُنَّ﴾ أي قطعهن، ثم اخلط لحمهن، وفرقهن على عشرة جبال، ثم دعاهن فقال: احيي بإذن الله، فكانت تجتمع وتتألف لحم واحد وعظمه إلى رأسه، فطارت إلى إبراهيم، فعند ذلك قال إبراهيم: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

• أقول: وروي هذا المعنى العياشي في تفسيره عن أبي بصير عن الصادق عليه السلام، وروي من طرق أهل السنة عن ابن عباس، قوله: (إن إبراهيم نظر إلى جيفة) إلى قوله: (فقال: يا رب أرني) بيان للشبهة التي دعته إلى السؤال، وهي تفرق أجزاء الجسد بعد الموت تفرقاً يؤدي إلى تغيرها وانتقالها إلى أماكن مختلفة وحالات متنوعة، لا يبقى معها من الأصل شيء.

• فإن قلت: ظاهر الرواية أن الشبهة كانت هي شبهة الآكل والمأكول، حيث اشتملت على وثوب بعض وأكل بعضها بعضاً، ثم فرعت على ذلك تعجب إبراهيم وسؤاله.

• قلت: الشبهة شبهتان: إحداهما: تفرق أجزاء الجسد وفناء أصلها من الصور والأعراض، وبالجملة عدم بقائها حتى تتميز وتركبها الحياة، وثانيتهما: صيرورة أجزاء بعض الحيوان جزءاً من بدن بعض آخر، فيؤدي إلى استحالة إحياء الحيوانين ببدنيهما تامين معاً؛ لأن المفروض أن بعض بدن أحدهما بعينه بعض لبدن الآخر، فكل واحد منهما أعيد تاماً، بقي الآخر ناقصاً لا يقبل الإعادة، وهذه هي شبهة الآكل والمأكول، وما أجاب الله سبحانه به ـ وهو تبعية البدن للروح ـ وإن كان وافياً لدفع الشبهتين جميعاً، إلا أن الذي أمر به إبراهيم على ما تحكيه الآية لا يتضمن مادة شبهة الآكل والمأكول، وهو أكل بعض الحيوان بعضاً، بل إنما تشتمل على تفرق الأجزاء واختلاطها وتغير صورها وحالاتها، وهذه مادة الشبهة الأولى، فالآية إنما تتعرض لدفعها، وإن كانت الشبهتان مشتركتين في الاندفاع بما أجيب به في الآية كما مر، وما اشتملت عليه الرواية من أكل البعض للبعض غير مقصود في تفسير الآية.

• قوله عليه السلام: (فأخذ إبراهيم الطاووس والديك والحمام والغراب)، وفي بعض الروايات أن الطيور كانت هي النسر والبط والطاووس والديك، رواه الصدوق في العيون عن الرضا عليه السلام، ونقل عن مجاهد وابن جريج وعطاء وابن زيد، وفي بعضها أنها الهدهد والصرد والطاووس والغراب، رواه العياشي عن صالح بن سهل عن الصادق عليه السلام، وفي بعضها: أنها النعامة والطاووس والوزة والديك، رواه العياشي عن معروف بن خربوذ عن الباقر عليه السلام، ونقل عن ابن عباس، وروي من طرق أهل السنة عن ابن عباس أيضاً: أنها الغرنوق والطاووس والديك والحمامة، والذي تشترك فيه جميع الروايات والأقوال: الطاووس.

• قوله عليه السلام: (وفرقهن على عشرة جبال)، كون الجبال عشرة مما اتفقت عليه الأخبار المأثورة عن أئمة أهل البيت، وقيل إنها كانت أربعة، وقيل سبعة.

ز. وفي العيون مسنداً عن علي بن محمد بن الجهم قال: حضرت مجلس المأمون، وعنده الرضا علي بن موسى، فقال له المأمون: يا ابن رسول الله، أليس من قولك: إن الأنبياء معصومون؟ قال: بلى، فسأله عن آيات من القرآن، فكان فيما سأله أن قال له: فأخبرني عن قول الله: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾، قال الرضا: إن الله تبارك وتعالى كان أوحى إلى إبراهيم: إني متخذ من عبادي خليلاً، إن سألني إحياء الموتى أجبته، فوقع في قلب إبراهيم أنه ذلك الخليل، فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي

كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾، قال: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾؟ قال: ﴿بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي بِالْخُلَّةِ﴾، الحديث.

• أقول: وقد تقدم في أخبار جنة آدم كلام في علي بن محمد بن الجهم، وفي هذه الرواية التي رواها عن الرضا عليه السلام، فارجع، واعلم أن الرواية لا تخلو عن دلالة ما على أن مقام الخلة يستلزم استجابة الدعاء، واللفظ يساعده؛ فإن الخلة هي الحاجة، والخليل إنما يسمى خليلاً لأن الصداقة إذا كملت رفع الصديق حوائجه إلى صديقه، ولا معنى لرفعها مع عدم الكفاية والقضاء.

١٢٦. مثل المنفقين في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل:

المقطع [١٢٦] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٦١-٢٦٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢/ ٣٨٢»:

١. وضع هنا مبحثا حول [الإنفاق في الإسلام: أساس العدالة الاجتماعية وعلاج الفساد الاقتصادي]، خلاصته:

أ. الإنفاق من أعظم ما يهتم به الإسلام في حقوق الناس، وقد شرع له وسائل متعددة: الزكاة، والخمس، والكفارات، والصدقات، والوقف، والوصايا، والهبة.

ب. الغرض من الإنفاق: رفع مستوى معيشة الطبقة السفلى، وتقريب أفاقهم من أفاق أهل النعمة، مع منع الطبقة العالية من التظاهر بالجمال والزينة.

ج. الهدف الأسمى: إيجاد حياة نوعية متوسطة متقاربة الأجزاء، تحيي الوحدة والمعاضدة، وتميت الأحقاد والضغائن.

د. السيرة النبوية أثبتت صحة هذه النظرية في برهة من الزمان، لكن الانحراف بعد ذلك أوصل إلى فساد عالمي.

هـ. المدنية الغربية أوجبت عكوف الثروة على أولي القوة، وسلب حق الحياة من الأكثرين، وأثارت الرذائل الخلقية، ونشبت الحروب العالمية وظهرت الشيوعية.

و. من أعظم عوامل الفساد: انسداد باب الإنفاق وانفتاح أبواب الربا، وهو ما تنبأ به القرآن في

سورة الروم.

ز. آيات الإنفاق في القرآن تحث بشدة على الإنفاق، لأنه السبيل الوحيد لإصلاح النوع الإنساني.

٢. ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ﴾ الآية، المراد بسبيل الله كل أمر ينتهي إلى مرضاته سبحانه لغرض ديني فعل الفعل لأجله، فإن الكلمة في الآية مطلقة، وإن كانت الآية مسبوقة بآيات ذكر فيها القتال في سبيل الله، وكانت كلمة، في سبيل الله، مقارنة للجهاد في غير واحد من الآيات، فإن ذلك لا يوجب التخصيص وهو ظاهر.

٣. ذكروا أن قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ﴾ الآية، على تقدير قولنا كمثل من زرع حبة أنبتت..، فإن الحبة المنبتة لسبع سنابل مثل المال الذي أنفق في سبيل الله لا مثل من أنفق وهو ظاهر، وهذا الكلام وإن كان وجيها في نفسه لكن التدبر يعطي خلاف ذلك فإن جل الأمثال المضروبة في القرآن حالها هذا الحال فهو صناعة شائعة في القرآن كقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلَّا دُعاءً وَنِداءً﴾، فإنه مثل من يدعو الكفار لا مثل الكفار، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ﴾، وقوله تعالى في الآيات التالية لهذه الآية: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمُ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللهِ وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ﴾ الآية إلى غير ذلك من الموارد الكثيرة، وهذه الأمثال المضروبة في الآيات تشترك جميعا في أنها اقتصر فيها على مادة التمثيل الذي يتقوم بها المثل مع الإعراض عن باقي أجزاء الكلام للإيجاز، وتوضيحه: أن المثل في الحقيقة قصة محققة أو مفروضة مشابهة لأخرى في جهاتها يؤتى بها لينتقل ذهن المخاطب من تصورها إلى كمال تصور الممثل كقولهم: لا ناقة لي ولا جمل، وقولهم: في الصيف ضيعت اللبن من الأمثال التي لها قصص محققة يقصد بالتمثيل تذكر السامع لها وتطبيقها لمورد الكلام للاستيضاح، ولذا قيل: إن الأمثال لا تتغير، وكقولنا: مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل من زرع حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة، وهي قصة مفروضة خيالية.

٤. المعنى الذي يشتمل عليه المثل ويكون هو الميزان الذي يوزن به حال الممثل ربما كان تمام القصة التي هي المثل كما في قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾، وربما كان بعض القصة مما يتقوم به غرض التمثيل وهو

الذي نسميه مادة التمثيل، وإنما جيء بالبعض الآخر لتتميم القصة كما في المثال الأخير (مثال الإنفاق والحبة) فإن مادة التمثيل إنما هي الحبة المنبتة لسبعمائة حبة، وإنما ضممنا إليها الذي زرع لتتميم القصة، وما كان من أمثال القرآن مادة التمثيل فيه تمام المثل فإنه وضع على ما هو عليه، وما كان منها مادة التمثيل فيه بعض القصة فإنه اقتصر على مادة التمثيل فوضعت موضع تمام القصة لأن الغرض من التمثيل حاصل بذلك، على ما فيه من تنشيط ذهن السامع بفقده أمرا ووجدانه أمرا آخر مقامه يفي بالغرض منه، فهو هو بوجه وليس به بوجه، فهذا من الإيجاز بالقلب على وجه لطيف يستعمله القرآن.

٥. ﴿أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ﴾:

أ. السنبل معروف وهو على فنعل، قيل الأصل في معنى مادته الستر سمي به لأنه يستر الحبات التي تشتمل عليها في الأغلفة.

ب. من أسخف الإشكال ما أورد على الآية أنه تمثيل بما لا تحقق له في الخارج وهو اشتمال السنبلة على مائة حبة، وفيه أن المثل كما عرفت لا يشترط فيه تحقق مضمونه في الخارج فالأمثال التخيلية أكثر من أن تعد وتحصى، على أن اشتمال السنبلة على مائة حبة وإنبات الحبة الواحدة سبعمائة حبة ليس بعزيز الوجود.

٦. ﴿وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾، أي يزيد على سبعمائة لمن يشاء فهو الواسع لا مانع من جوده ولا محدد لفضله كما قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾، فأطلق الكثرة ولم يقيدها بعدد معين، وقيل: إن معناه أن الله يضاعف هذه المضاعفة لمن يشاء فالمضاعفة إلى سبعمائة ضعف غاية ما تدل عليه الآية، وفيه أن الجملة على هذا يقع موقع التعليل، وحق الكلام فيه حينئذ أن يصدر بأن كقوله تعالى: ﴿اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾، وأمثال ذلك.

٧. لم يقيد ما ضربه الله من المثل بالآخرة بل الكلام مطلق يشمل الدنيا كالآخرة وهو كذلك والاعتبار يساعده، فالمنفق بشيء من ماله وإن كان يخطر بباله ابتداء أن المال قد فات عنه ولم يخلف بدلا، لكنه لو تأمل قليلا وجد أن المجتمع الإنساني بمنزلة شخص واحد ذو أعضاء مختلفة بحسب الأسماء والأشكال لكنها جميعا متحدة في غرض الحياة، مرتبطة من حيث الأثر والفائدة، فإذا فقد واحد منها نعمة

الصحة والاستقامة، وعي في فعله أوجب ذلك كلال الجميع في فعلها، وخسرانها في أغراضها فالعين واليد وإن كانا عضوين اثنين من حيث الاسم والفعل ظاهرا، لكن الخلقة إنما جهز الإنسان بالبصر ليميز به الأشياء ضوءا ولونا وقربا وبعدا فتتناول اليد ما يجب أن يجلبه الإنسان لنفسه، وتدفع ما يجب أن يدفعه عن نفسه، فإذا سقطت اليد عن التأثير وجب أن يتدارك الإنسان ما يفوته من عامة فوائدها بسائر أعضائه فيقاسي أولا كدا وتعبا لا يتحمل عادة، وينقص من أفعال سائر الأعضاء بمقدار ما يستعملها في موضع العضو الساقط عن التأثير، وأما لو أصلح حال يده الفاسدة بفضل ما ادخره لبعض الأعضاء الآخر كان في ذلك إصلاح حال الجميع، وعاد إليه من الفائدة الحقيقية أضعاف ما فاته من الفضل المفيد أضعافا ربما زاد على المئات والألوف بما يورث من إصلاح حال الغير، ودفع الرذائل التي يمكنها الفقر والحاجة في نفسه، وإيجاد المحبة في قلبه، وحسن الذكر في لسانه، والنشاط في عمله، والمجتمع يربط جميع ذلك ويرجعه إلى المنفق لا محالة، ولا سيما إذا كان الإنفاق لدفع الحوائج النوعية كالتعليم والتربية ونحو ذلك، فهذا حال الإنفاق.

٨. إذا كان الإنفاق في سبيل الله وابتغاء مرضاة الله كان النماء والزيادة من لوازمه من غير تخلف، فإن الإنفاق لو لم يكن لوجه الله لم يكن إلا لفائدة عائدة إلى نفس المنفق كإنفاق الغني للفقير لدفع شره، أو إنفاق المثري الموسر للمعسر ليدفع حاجته ويعتدل حال المجتمع فيصفو للمثري المنفق عيشه، وهذا نوع استخدام للفقير واستثمار منه لنفع نفسه، ربما أورث في نفس الفقير أثرا سيئا، وربما تراكمت الآثار وظهرت فكانت بلوى، لكن الإنفاق الذي لا يراد به إلا وجه الله ولا يبتغي فيه إلا مرضاته خال عن هذه النواقص لا يؤثر إلا الجميل ولا يتعقبه إلا الخير.

٩. ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى﴾ الآية، الاتباع اللحوق والإلحاق، قال تعالى: ﴿فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ﴾، أي لحقوهم، وقال تعالى: ﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾، أي ألحقناهم.

١٠. المن هو ذكر ما ينغص المعروف كقول المنعم للمنعم عليه: أنعمت عليك بكذا وكذا ونحو ذلك، والأصل في معناه على ما قيل القطع، ومنه قوله تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾، أي غير مقطوع، والأذى الضرر العاجل أو الضرر اليسير، والخوف توقع الضرر، والحزن الغم الذي يغلظ على النفس من

مكروه واقع أو كالواقع.

١١. أحاديث وآثار:

أ. أخرج ابن ماجه وابن أبي حاتم عن عمران بن حصين عن رسول الله ﷺ قال: من أرسل بنفقة في سبيل الله وأقام في بيته، فله بكل درهم سبعمائة درهم، ومن غزا بنفسه في سبيل الله وأنفق في وجهه ذلك، فله بكل درهم يوم القيامة سبعمائة ألف درهم، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾

ب. وفي تفسير العياشي، ورواه البرقي أيضاً، عن الصادق عليه السلام: إذا أحسن المؤمن عمله، ضاعف الله عمله بكل حسنة سبعمائة ضعف، وذلك قول الله: ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾، فأحسنوا أعمالكم التي تعملونها لثواب الله.

ج. وفي تفسير العياشي عن عمر بن مسلم قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إذا أحسن المؤمن عمله، ضاعف الله عمله بكل حسنة سبعمائة ضعف، فذلك قول الله: ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾، فأحسنوا أعمالكم التي تعملونها لثواب الله، قلت: وما الإحسان؟ قال: إذا صليت فأحسن ركوعك وسجودك، وإذا صمت فتوق ما فيه فساد صومك، وإذا حججت فتوق كل ما يحرم عليك في حجتك وعمرتك، قال: وكل عمل تعمله فليكن نقياً من الدنس.

د. وفيه عن حمران عن أبي جعفر عليه السلام قال: قلت له: أرأيت المؤمن له فضل على المسلم في شيء من المواريث والقضايا والأحكام، حتى يكون للمؤمن أكثر مما يكون للمسلم في المواريث أو غير ذلك؟ قال: لا، هما يجريان في ذلك مجرى واحداً إذا حكم الإمام عليهما، ولكن للمؤمن فضلاً على المسلم في أعمالهما، قال: فقلت: أليس الله يقول: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]، وزعمت أنهم مجتمعون على الصلاة والزكاة والصوم والحج مع المؤمن؟ قال: فقال: أليس الله قد قال: ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٦١]؟ فالمؤمنون هم الذين يضاعف لهم الحسنات، لكل حسنة سبعين ضعفاً، فهذا من فضيلتهم، ويزيد الله المؤمن في حسناته على قدر صحة إيمانه أضعافاً مضاعفة كثيرة، ويفعل الله بالمؤمن ما يشاء.

• أقول: وفي هذا المعنى أخبار أخر، وهي مبتنية جميعاً على الأخذ بإطلاق قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾ بالنسبة إلى غير المنفقين، والأمر على ذلك؛ إذ لا دليل على التقييد بالمنفقين غير المورد،

ولا يكون المورد مخصصاً ولا مقيداً، وإذا كانت الآية مطلقة كذلك، كان قوله: ﴿يُضَاعِفُ﴾ مطلقاً بالنسبة إلى الزائد عن العدد وغيره، ويكون المعنى: والله يضاعف العمل كيفما شاء على من شاء، يضاعف لكل محسن على قدر إحسانه سبعمائة ضعف أو أزيد أو أقل، كما يزيد للمنفقين على سبعمائة إذا شاء، ولا ينافي هذا ما تقدم في البيان من نفي كون المراد: (والله يضاعف هذه المضاعفة لمن يشاء)؛ لأن الذي نفيناه هناك إنما هو تقييده بالمنفقين، والمعنى الذي تدل عليه الرواية نفي التقييد، وقوله عليه السلام: (أليس الله قد قال: والله يضاعف لمن يشاء أضعافاً كثيرة) نقل بالمعنى مأخوذ من مجموع آيتين: إحداهما هذه الآية من سورة البقرة، والأخرى قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَّ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥]، ومما يستفاد من الرواية إمكان قبول أعمال غير المؤمنين من سائر فرق المسلمين وترتب الثواب عليها، وسيجيء البحث عنها في قوله تعالى: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ﴾ [النساء: ٩٨]

• وفي المجمع قال: والآية عامة في النفقة في جميع ذلك (يشير إلى الجهاد وغيره من أبواب البر)، وهو المروي عن أبي عبد الله عليه السلام.

هـ. وأخرج عبد الرزاق في المصنف عن أيوب قال: أشرف على النبي ﷺ رجل من رأس تل، فقالوا: ما أجلد هذا الرجل لو كان جلده في سبيل الله، فقال النبي ﷺ: أوليس في سبيل الله إلا من قتل؟ ثم قال: من خرج في الأرض يطلب حلالاً يكف به والديه، فهو في سبيل الله، ومن خرج يطلب حلالاً يكف به أهله، فهو في سبيل الله، ومن خرج يطلب حلالاً يكف به نفسه، فهو في سبيل الله، ومن خرج يطلب التكاثر، فهو في سبيل الشيطان.

و. وفيه أيضاً: أخرج ابن المنذر والحاكم وصححه: أن رسول الله ﷺ سأل البراء بن عازب فقال: يا براء، كيف نفقتك على أمك؟ وكان موسعاً على أهله، فقال: يا رسول الله، ما أحسنها؟ قال: فإن نفقتك على أهلك وولدك وخادمك صدقة، فلا تتبع ذلك مناً ولا أذى.

• أقول: والروايات في هذه المعاني كثيرة من طرق الفريقين، وفيها أن كل عمل يرتضيه الله سبحانه فهو في سبيل الله، وكل نفقة في سبيل الله فهي صدقة.

١٢٧. القول المعروف والمغفرة خير من صدقة يتبعها أذى:

المقطع [١٢٧] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ

صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٦٣-٢٦٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢/ ٣٩٠»:

١. ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ﴾ الآية المعروف من القول ما لا ينكره الناس بحسب العادة، ويختلف باختلاف الموارد، والأصل في معنى المغفرة هو الستر، والغنى مقابل الحاجة والفقر، والحلم السكوت عند المكروه من قول أو فعل.

٢. ترجيح القول المعروف والمغفرة على صدقة يتبعها أذى ثم المقابلة يشهد بأن المراد بالقول المعروف الدعاء أو لفظ آخر جميل عند رد السائل إذا لم يتكلم بما يسوء المسئول عنه، والستر والصفح إذا شفع سؤاله بما يسوؤه وهما خير من صدقة يتبعها أذى، فإن أذى المنفق للمنفق عليه يدل على عظم إنفاقه والمال الذي أنفقه في عينه، وتأثره عما يسوؤه من السؤال، وهما علتان يجب أن تزاحا عن نفس المؤمن، فإن المؤمن متخلق بأخلاق الله، والله سبحانه غني لا يكبر عنده ما أنعم وجاد به، حليم لا يتعجل في المؤاخذة على السيئة، ولا يغضب عند كل جهالة، وهذا معنى ختم الآية بقوله: ﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾

٣. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ﴾ الآية، تدل الآية على حبط الصدقة بلحوق المن والأذى، وربما يستدل بها على حبط كل معصية أو الكبيرة خاصة لما يسبقها من الطاعات، ولا دلالة في الآية على غير المن والأذى بالنسبة إلى الصدقة.

٤. ﴿كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، لما كان الخطاب للمؤمنين، والمرائي غير مؤمن كما ذكره الله سبحانه لأنه لا يقصد بأعماله وجه الله لم يعلق النهي بالرئاء كما علقه على المن والأذى، بل إنما شبه المتصدق الذي يتبع صدقته بالمن والأذى بالمرائي في بطلان الصدقة، مع أن عمل المرائي باطل من رأس وعمل المان والمؤذي وقع أولا صحيحا ثم عرضه البطلان.

٥. اتحاد سياق الأفعال في قوله: ﴿يُنْفِقُ مَالَهُ﴾، وقوله: ﴿وَلَا يُؤْمِنُ﴾ من دون أن يقال: ولم يؤمن يدل على أن المراد من عدم إيمان المرائي في الإنفاق بالله واليوم الآخر عدم إيمانه بدعوة الإنفاق الذي يدعو إليها الله سبحانه، ويعد عليه جزيل الثواب، إذ لو كان يؤمن بالداعي في دعوته هذه، وبيوم القيامة الظاهر

فيه الجزاء لقصد في فعله وجه الله، وأحب واختار جزيل الثواب، ولم يقصد به رئاء الناس، فليس المراد من عدم إيمان المرائي عدم إيمانه بالله سبحانه رأسا، ويظهر من الآية أن الرياء في عمل يستلزم عدم الإيمان بالله واليوم الآخر فيه.

٦. ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ﴾ إلى آخر الآية الضمير في قوله: ﴿فَمَثَلُهُ﴾ راجع إلى الذي ينفق ماله رئاء الناس والمثل له، والصفوان والصفا الحجر الأملس وكذا الصلد، والوابل: المطر الغزير الشديد الوقع.

٧. الضمير في قوله: ﴿لَا يَقْدِرُونَ﴾ راجع إلى الذي ينفق رئاء لأنه في معنى الجمع، والجملة تبين وجه الشبه وهو الجامع بين المشبه والمشبه به، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ بيان للحكم بوجه عام وهو أن المرائي في ريائه من مصاديق الكافر، ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾، ولذلك أفاد معنى التعليل.

٨. خلاصة معنى المثل: أن حال المرائي في إنفاقه رئاء وفي ترتب الثواب عليه كحال الحجر الأملس الذي عليه شيء من التراب إذا أنزل عليه وابل المطر، فإن المطر وخاصة وابله هو السبب البارز لحياة الأرض واخضرارها وتزينها بزينة النبات، إلا أن التراب إذا وقع على الصفوان الصلد لا يستقر في مكانه عند نزول الوابل بل يغسله الوابل ويبقى الصلد الذي لا يجذب الماء، ولا يتربى فيه بذر لنبات، فالوابل وإن كان من أظهر أسباب الحياة والنمو وكذا التراب لكن كون المحل صلدا يبطل عمل هذين السببين من غير أن يكون النقص والقصور من جانبها فهذا حال الصلد.

٩. هذا حال المرائي فإنه لما لم يقصد من عمله وجه الله لم يترتب على عمله ثواب وإن كان العمل كالإنفاق في سبيل الله من الأسباب البارزة لترتب الثواب، فإنه مسلوب الاستعداد لا يقبل قلبه الرحمة والكرامة.

١٠. ظهر من الآية: أن قبول العمل يحتاج إلى نية الإخلاص وقصد وجه الله، وقد روى الفريقان عن النبي ﷺ أنّه قال: (إنما الأعمال بالنيات)

١٢٨. مثل المنفقين ابتغاء مرضات الله كجنة بربوة:

المقطع [١٢٨] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ

مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٦٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢/ ٣٩١»:

١. ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمُ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللهِ وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾، ابتغاء المرضاة هو طلب الرضاء، ويعود إلى إرادة وجه الله، فإن وجه الشيء هو ما يواجهك ويستقبلك به، ووجهه تعالى بالنسبة إلى عبده الذي أمره بشيء وأراده منه هو رضاؤه عن فعله وامتثاله، فإن الأمر يستقبل المأمور أولا بالأمر فإذا امتثل استقبله بالرضاء عنه، فمرضاة الله عن العبد المكلف بتكليف هو وجهه إليه، فابتغاء مرضاة الله هو إرادة وجهه عز وجل.

٢. ﴿وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ قيل: إن المراد التصديق واليقين، وقيل: هو التثبت أي يتثبتون أين يضعون أموالهم، وقيل: هو التثبت في الإنفاق فإن كان لله أمضى، وإن كان خالطه شيء من الرياء أمسك، وقيل: التثبيت توطين النفس على طاعة الله تعالى، وقيل: هو تمكين النفس في منازل الإيمان بتعويدها على بذل المال لوجه الله، وأنت خبير بأن شيئا من الأقوال لا ينطبق على الآية إلا بتكلف، والذي ينبغي أن يقال، والله العالم، في المقام: هو أن الله سبحانه لما أطلق القول أولا في مدح الإنفاق في سبيل الله، وأن له عند الله عظيم الأجر اعترضه أن استثنى منه نوعين من الإنفاق لا يرتضيهما الله سبحانه، ولا يترتب عليهما الثواب، وهما الإنفاق رياء الموجب لعدم صحة العمل من رأس والإنفاق الذي يتبعه من أو أذى فإنه يبطل بهما وإن انعقد أولا صحيحا، وليس يعرض البطلان، لهذين النوعين إلا من جهة عدم ابتغاء مرضاة الله فيه من رأس، أو لزوال النفس عن هذه النية أعني ابتغاء المرضاة ثانيا بعد ما كانت عليها أولا، فأراد في هذه الآية بيان حال الخاصة من أهل الإنفاق الخالصة بعد استثناء المرائين وأهل المن والأذى، وهم الذين ينفقون أموالهم ابتغاء وجه الله ثم يقرون أنفسهم على الثبات على هذه النية الطاهرة النامية من غير أن يتبعوها بما يبطل العمل ويفسده.

٣. من هنا يظهر أن المراد بابتغاء مرضاة الله أن لا يقصد بالعمل رئاء ونحوه مما يجعل النية غير خالصة لوجه الله، وبقوله تثبيتا من أنفسهم تثبيت الإنسان نفسه على ما نواه من النية الخالصة، وهو تثبيت ناش من النفس واقع على النفس، فقوله تثبيتا تميز وكلمة من نشوية وقوله أنفسهم في معنى الفاعل، وما في معنى المفعول مقدر، والتقدير تثبيتا من أنفسهم لأنفسهم، أو مفعول مطلق لفعل من مادته.

٤. ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾ إلى آخر الآية، الأصل في مادة ربا الزيادة، والربوة بالحركات الثلاث في الراء الأرض الجيدة التي تزيد وتعلو في نموها، والأكل بضمتين ما يؤكل من الشيء والواحدة أكلة، والطل أضعف المطر القليل الأثر.

٥. الغرض من المثل أن الإنفاق الذي أريد به وجه الله لا يتخلف عن أثره الحسن البتة، فإن العناية الإلهية واقعة عليه متعلقة به لانحفاظ اتصاله بالله سبحانه وإن كانت مراتب العناية مختلفة لاختلاف درجات النية في الخلوص، واختلاف وزن الأعمال باختلافها، كما أن الجنة التي في الربوة إذا أصابها المطر لم تلبث دون أن تؤتي أكلها إيتاء جيدا البتة وإن كان إيتاؤها مختلفا في الجودة باختلاف المطر النازل عليه من وابل وطل.

٦. لوجود هذا الاختلاف ذيل الكلام بقوله: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي لا يشتبه عليه أمر الثواب، ولا يختلط عليه ثواب الأعمال المختلفة فيعطي ثواب هذا لذاك وثواب ذاك لهذا.

١٢٩. مثل المرائي المنفق:

المقطع [١٢٩] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢/ ٣٩٣»:

١. ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ الآية:

أ. الود هو الحب وفيه معنى التمني، والجنة: الشجر الكثير الملتف كالبستان سميت بذلك لأنها تجن الأرض وتسترها وتقيها من ضوء الشمس ونحوه، ولذلك صح أن يقال: تجري من تحتها الأنهار، ولو كانت هي الأرض بما لها من الشجر مثلا لم يصح ذلك لإفادته خلاف المقصود، ولذلك قال تعالى في مثل الربوة وهي الأرض المعمورة: ﴿رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾، وكرر في كلامه قوله: ﴿جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ فجعل المعين (وهو الماء) فيها لا جاريا تحتها.

ب. (من) في قوله: ﴿مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ للتبيين ويفيد معنى الغلبة دون الاستيعاب، فإن الجنة والبستان وما هو من هذا القبيل إنما يضاف إلى الجنس الغالب فيقال جنة العنب أو جنة من أعناب إذا كان

الغالب فيها الكرم وهي لا تخلو مع ذلك من شجر شتى، ولذلك قال تعالى ثانيا: ﴿لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾

ج. الكبر كبر السن وهو الشيخوخة، والذرية الأولاد، والضعفاء جمع الضعيف، وقد جمع تعالى في المثل بين إصابة الكبر ووجود الذرية الضعفاء لتثبيت مسيس الحاجة القطعية إلى الجنة المذكورة مع فقدان باقي الأسباب التي يتوصل إليها في حفظ سعادة الحياة وتأمين المعيشة، فإن صاحب الجنة لو فرض شابا قويا لأمكنه أن يستريح إلى قوة يمينه لو أصيبت جنته بمصيبة، ولو فرض شيخا هرما من غير ذرية ضعفاء لم يسوء حاله تلك المساءة لأنه لا يرى لنفسه إلا أياما قلائل لا يبطئ عليه زوالها وانقضاؤها، ولو فرض ذا كبر وله أولاد أقوياء يقدرون على العمل واكتساب المعيشة أمكنهم أن يقتاتوا بها يكتسبونه، وأن يستغنوا عنها بوجه! لكن إذا اجتمع هناك الكبر والذرية الضعفاء، واحترقت الجنة انقطعت الأسباب عنهم عند ذلك، فلا صاحب الجنة يمكنه أن يعيد لنفسه الشباب والقوة أو الأيام الخالية حتى يهيئ لنفسه نظير ما كان قد هيأها، ولا لذريته قوة على ذلك، ولا لهم رجاء أن ترجع الجنة بعد الاحتراق إلى ما كانت عليه من النضارة والأثمار.

د. الإعصار الغبار الذي يلتف على نفسه بين السماء والأرض كما يلتف الثوب على نفسه عند العصر.

٢. هذا مثل ضربه الله للذين ينفقون أموالهم ثم يتبعونه منا وأذى فيحبط عملهم ولا سبيل لهم إلى إعادة العمل الباطل إلى حال صحته واستقامته، وانطباق المثل على الممثل ظاهر، ورجا منهم التفكر لأن أمثال هذه الأفاعيل المفسدة للأعمال إنما تصدر من الناس ومعهم حالات نفسانية كحب المال والجاه والكبر والعجب والشح، لا تدع للإنسان مجال التثبت والتفكر وتميز النافع من الضار، ولو تفكروا لتبصروا.

٣. أحاديث وآثار: في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٦١] الآية، عن الصادق عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: من أسدى إلى مؤمن معروفاً، ثم آذاه بالكلام أو منّ عليه، فقد أبطل صدقته، إلى أن قال الصادق عليه السلام: والصفوان هي الصخرة الكبيرة التي تكون في المفازة، إلى أن قال في قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ﴾ [البقرة: ٢٦٥]، وابل أي مطر، والطل

ما يقع بالليل على الشجر والنبات، وقال في قوله تعالى: ﴿إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ﴾ [البقرة: ٢٦٦]، الإعصار الرياح.

١٣٠. الإنفاق من طيبات الكسب:

المقطع [١٣٠] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٦٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢/ ٣٩٤»:

١. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ الآية، التيمم هو القصد والتعمد، والخبيث ضد الطيب، وقوله: ﴿مِنْهُ﴾، متعلق بالخبيث، وقوله: ﴿تُنْفِقُونَ﴾ حال من فاعل ﴿لا تَيَمَّمُوا﴾، وقوله: ﴿وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ﴾ حال من فاعل ﴿تُنْفِقُونَ﴾، وعامله الفعل، وقوله: ﴿أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ في تأويل المصدر، واللام مقدر على ما قيل والتقدير إلا لإغماضكم فيه، أو المقدر باء المصاحبة والتقدير إلا بمصاحبة الإغماض.

٢. معنى الآية ظاهر، وإنما بين تعالى كيفية مال الإنفاق، وأنه ينبغي أن يكون من طيب المال لا من خبيثه الذي لا يأخذه المنفق إلا بإغماض، فإنه لا يتصف بوصف الجود والسخاء، بل يتصور بصورة التخلص، فلا يفيد حبا للصنيعة والمعروف ولا كمالا للنفس، ولذلك ختمها بقوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ أي راقبوا في إنفاقكم غناه وحمده فهو في عين غناه يحمد إنفاقكم الحسن فأنفقوا من طيب المال، أو أنه غني محمود لا ينبغي أن تواجهوه بما لا يليق بجلاله جل جلاله.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في الدر المنثور في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ﴾ [البقرة: ٢٦٧] الآية، أخرج ابن جرير عن علي بن أبي طالب في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾، قال: من الذهب والفضة، ومما أخرجنا لكم من الأرض، قال: يعني من الحب والتمر وكل شيء عليه زكاة.

ب. وفيه أيضاً: أخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد والترمذي وصححه وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم وصححه والبيهقي في سننه عن البراء بن عازب في قوله: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٧]، قال: نزلت فينا معشر الأنصار، كنا أصحاب نخل،

كان الرجل يأتي من نخله على قدر كثرته وقلته، وكان الرجل يأتي بالقنو والقنوين فيعلقه في المسجد، وكان أهل الصفة ليس لهم طعام، فكان أحدهم إذا جاع أتى القنو فضربه بعصاه فيسقط البسر والتمر فيأكل، وكان ناس ممن لا يرغب في الخير يأتي الرجل بالقنو فيه الشيص والحشف، وبالقنو قد انكسر فيعلقه، فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ﴾، قال: لو أن أحدكم أهدي إليه مثل ما أعطي، لم يأخذه إلا عن إغماض وحياء، قال: فكنا بعد ذلك يأتي أحدنا بصالح ما عنده.

ج. وفي الكافي عن الصادق عليه السلام في قول الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾، قال: كان رسول الله ﷺ إذا أمر بالنخل أن يزكى، يجيء قوم بألوان من التمر وهو من أردأ التمر، يؤدونه عن زكاتهم تمر يقال له الجعرور والمعافارة، قليلة اللحى عظيمة النوى، وكان بعضهم يجيء بها عن التمر الجيد، فقال رسول الله: لا تخرصوا هاتين النخلتين، ولا تجيئوا منها بشيء، وفي ذلك نزل: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ﴾، والإغماض أن تأخذ هاتين التمرتين، وفي رواية أخرى عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى: ﴿أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾، قال: كان القوم كسبوا مكاسب سوء في الجاهلية، فلما أسلموا أرادوا أن يخرجوها من أموالهم ليتصدقوا بها، فأبى الله تبارك وتعالى إلا أن يخرجوا من أطيب ما كسبوا.

• أقول: وفي هذا المعنى أخبار كثيرة من طرق الفريقين.

١٣١. الشيطان يعد الفقر والله يعد المغفرة والفضل:

المقطع [١٣١] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ٢٦٨-٢٦٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢/ ٣٩٤»:

١. ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾:

أ. إقامة للحجة على أن اختيار خبيث المال للإنفاق ليس بخير للمنفقين بخلاف اختيار طيبه فإنه خير لهم، ففي النهي مصلحة أمرهم كما أن في المنهي عنه مفسدة لهم، وليس إمساكهم عن إنفاق طيب المال وبذله إلا لما يرونه مؤثرا في قوام المال والثروة فتنقبض نفوسهم عن الإقدام إلى بذله بخلاف خبيثه فإنه لا

قيمة له يعنى بها فلا بأس بإنفاقه، وهذا من تسويل الشيطان يخوف أولياءه من الفقر، مع أن البذل وذهاب المال والإنفاق في سبيل الله وابتغاء مرضاته مثل البذل في المعاملات لا يخلو عن العوض والربح كما مر، مع أن الذي يغني ويقني هو الله سبحانه دون المال، قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى﴾

ب. بالجملة لما كان إمساكهم عن بذل طيب المال خوفا من الفقر خطأ نبه عليه بقوله: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾، غير أنه وضع السبب موضع المسبب، أعني أنه وضع وعد الشيطان موضع خوف أنفسهم ليدل على أنه خوف مضر لهم فإن الشيطان لا يأمر إلا بالباطل والضلال إما ابتداء ومن غير واسطة، وإما بالآخرة وبواسطة ما يظهر منه أنه حق.

٢. لما كان من الممكن أن يتوهم أن هذا الخوف حق وإن كان من ناحية الشيطان دفع ذلك باتباع قوله: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾:

أ. بقوله: ﴿وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾ أولا، فإن هذا الإمساك والتثاقل منهم يهيئ في نفوسهم ملكة الإمساك وسجية البخل، فيؤدي إلى رد أوامر الله المتعلقة بأموالهم وهو الكفر بالله العظيم، ويؤدي إلى إلقاء أرباب الحاجة في تهلكة الإعسار والفقر والمسكنة التي فيه تلف النفوس وانتهاك الأعراض وكل جناية وفحشاء، قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ إلى أن قال ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

ب. ثم بإتباعه بقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ ثانيا، فإن الله قد بين للمؤمنين: أن هناك حقا وضلالا لا ثالث لهما، وأن الحق وهو الطريق المستقيم هو من الله سبحانه، وأن الضلال من الشيطان، قال تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾، وقال: ﴿قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾، وقال في الشيطان: ﴿إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾، والآيات جميعا مكية.

٣. بالجملة نبه تعالى بقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ﴾، بأن هذا الخاطر الذي يخطر ببالكم من جهة الخوف ضلال من الفكر فإن مغفرة الله والزيادة التي ذكرها في الآيات السابقة إنما هما في البذل من طيبات المال، فقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ﴾ الآية، نظير قوله: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ﴾ الآية، من قبيل وضع السبب موضع

المسبب، وفيه إلقاء المقابلة بين وعد الله سبحانه الواسع العليم ووعد الشيطان، لينظر المنفقون في أمر الوعدين ويختاروا ما هو أصلح لبالهم منهما.

٤. حاصل حجة الآية: أن اختياركم الخبيث على الطيب إنما هو لخوف الفقر، والجهل بما يستتبعه هذا الإنفاق، أما خوف الفقر فهو إلقاء، شيطاني، ولا يريد الشيطان بكم إلا الضلال والفحشاء فلا يجوز أن تتبعوه، وأما ما يستتبعه هذا الإنفاق فهو الزيادة والمغفرة اللتان ذكرتا لكم في الآيات السابقة، وهو استتباع بالحق لأن الذي يعدكم استتباع الإنفاق لهذه المغفرة والزيادة هو الله سبحانه ووعده حق، وهو واسع يسعه أن يعطي ما وعده من المغفرة والزيادة وعليم لا يجهل شيئا ولا حالا من شيء فوعده وعد عن علم.

٥. ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ﴾:

أ. الإيتاء هو الإعطاء، والحكمة بكسر الحاء على فعلة بناء نوع يدل على نوع المعنى فمعناه النوع من الإحكام والإتقان أو نوع من الأمر المحكم المتقن الذي لا يوجد فيه ثلمة ولا فتور، وغلب استعماله في المعلومات العقلية الحقة الصادقة التي لا تقبل البطلان والكذب البتة.

ب. الجملة تدل على أن البيان الذي بين الله به حال الإنفاق بجمع علله وأسبابه وما يستتبعه من الأثر الصالح في حقيقة حياة الإنسان هو من الحكمة، فالحكمة هي القضايا الحقة المطابقة للواقع من حيث اشتمالها بنحو على سعادة الإنسان كالمعارف الحقة الإلهية في المبدإ والمعاد، والمعارف التي تشرح حقائق العالم الطبيعي من جهة مساسها بسعادة الإنسان كالحقائق الفطرية التي هي أساس التشريعات الدينية.

٦. ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾، المعنى ظاهر، وقد أبهم فاعل الإيتاء مع أن الجملة السابقة عليه تدل على أنه الله تبارك وتعالى ليدل الكلام على أن الحكمة بنفسها منشأ الخير الكثير فالتلبس بها يتضمن الخير الكثير، لا من جهة انتساب إتيانه إليه تعالى، فإن مجرد انتساب الإتيان لا يوجب ذلك كإيتاء المال، قال تعالى في قارون ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾ إلى آخر الآيات.، وإنما نسب إليها الخير الكثير دون الخير مطلقا، مع ما عليه الحكمة من ارتفاع الشأن ونفاسة الأمر لأن الأمر مختوم بعناية الله وتوفيقه، وأمر السعادة مراعى بالعاقبة والخاتمة.

٧. ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾:

أ. اللب هو العقل لأنه في الإنسان بمنزلة اللب من القشر، وعلى هذا المعنى استعمل في القرآن، وكان لفظ العقل بمعناه المعروف اليوم من الأسماء المستحدثة بالغلبة ولذلك لم يستعمل في القرآن وإنما استعمل منه الأفعال مثل يعقلون.

ب. التذكر هو الانتقال من النتيجة إلى مقدماتها، أو من الشيء إلى نتائجها، والآية تدل على أن اقتناص الحكمة يتوقف على التذكر، وأن التذكر يتوقف على العقل، فلا حكمة لمن لا عقل له، وقد مر بعض الكلام في العقل عند البحث عن ألفاظ الإدراك المستعملة في القرآن الكريم.

٨. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾ [البقرة: ٢٦٨] الآية، قال: قال: إن الشيطان يقول: لا تنفقوا، فإنكم تفتقرون، والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً، أي يغفر لكم إن أنفقتم لله، وفضلاً يخلف عليكم.

ب. وفي الدر المنثور: أخرج الترمذي وحسنه والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: إن للشيطان لمة بابن آدم، وللملك لمة، فأما لمة الشيطان، فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق، وأما لمة الملك، فإيعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله، فليحمد الله، ومن وجد الأخرى، فليتعوذ بالله من الشيطان، ثم قرأ: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾ [البقرة: ٢٦٨] الآية.

ج. وفي تفسير العياشي عن أبي جعفر عليهما السلام في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩]، قال: المعرفة.

د. وفيه عن الصادق عليه السلام: إن الحكمة المعرفة والتفقه في الدين.

هـ. وفي الكافي عن الصادق عليه السلام في الآية قال: طاعة الله ومعرفة الإمام.

• أقول: وفي معناه روايات أخر، وهي من قبيل عد المصداق.

هـ. وفي الكافي عن عدة من أصحابنا عن أحمد بن محمد بن خالد عن بعض أصحابنا رفعه قال: قال رسول الله ﷺ: ما قسم الله للعباد شيئاً أفضل من العقل، فنوم العاقل أفضل من سهر الجاهل، وإقامة العاقل أفضل من شخوص الجاهل، ولا بعث الله نبياً ولا رسولاً حتى يستكمل العقل، ويكون عقله

أفضل من جميع عقول أمته، وما يضمر النبي في نفسه أفضل من اجتهاد المجتهدين، وما أدى العبد فرائض الله حتى عقل عنه، ولا بلغ جميع العابدين في فضل عبادتهم ما بلغ العاقل، والعقلاء هم أولو الألباب، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ٢٦٩]

و. وعن الصادق عليه السلام قال: الحكمة ضياء المعرفة، وميزان التقوى، وثمرة الصدق، ولو قلت: ما أنعم الله على عبده بنعمة أعظم وأرفع وأجزل وأبهى من الحكمة، لقلت، قال الله عز وجل: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ٢٦٩]

• أقول: وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم﴾ في الصدقة والنذر والظلم أخبار كثيرة، سنوردها في مواردها إن شاء الله.

١٣٢. الإنفاق سراً وعلانية وتكفير السيئات:

المقطع [١٣٢] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٧٠-٢٧١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢/ ٣٩٧»:

١. ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾، أي ما دعاكم الله سبحانه إليه أو دعوتم أنفسكم إليه بإيجابه عليها بالنذر من بذل المال فلا يخفى على الله يثيب من أطاعه ويؤاخذ من ظلم، ففيه إيماء إلى التهديد، ويؤكده قوله تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾

٢. في هذه الجملة: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾، دلالة:

أ. أولا: على أن المراد بالظلم هو الظلم على الفقراء والمساكين في الإمساك عن الإنفاق عليهم، وحبس حقوقهم المالية، لا الظلم بمعنى مطلق المعصية فإن في مطلق المعصية أنصارا ومكفرات وشفعاء كالتوبة، والاجتناب عن الكبائر، وشفعاء يوم القيامة إذا كان من حقوق الله تعالى، قال تعالى: ﴿لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ إلى أن قال ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾، ومن هنا يظهر: وجه إتيان الأنصار بصيغة الجمع فإن في مورد مطلق الظلم أنصارا.

ب. وثانيا: أن هذا الظلم وهو ترك الإنفاق لا يقبل التكفير ولو كان من الصغائر لقبله فهو من الكبائر، وأنه لا يقبل التوبة، ويتأيد بذلك ما وردت به الروايات: أن التوبة في حقوق الناس غير مقبولة، إلا برد الحق إلى مستحقه، وأنه لا يقبل الشفاعة يوم القيامة كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ الْمُجْرِمِينَ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ﴾ إلى أن قال ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾

ج. وثالثا: أن هذا الظالم غير مرتضى عند الله إذ لا شفاعة إلا لمن ارتضى الله دينه كما مر بيانه في بحث الشفاعة، ومن هنا تظهر النكتة في قوله تعالى: ﴿يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾، حيث أتى بالمرضاة ولم يقل ابتغاء وجه الله.

د. ورابعا: أن الامتناع من أصل إنفاق المال على الفقراء مع وجودهم واحتياجهم من الكبائر الموبقة، وقد عد تعالى الامتناع عن بعض أقسامه كالزكاة شركا بالله وكفرا بالآخرة، قال تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾، والسورة مكية ولم تكن شرعت الزكاة المعروفة عند نزولها.

٣. ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ﴾ الآية، الإبداء هو الإظهار، والصدقات جمع صدقة، وهي مطلق الإنفاق في سبيل الله أعم من الواجب والمندوب وربما يقال: إن الأصل في معناها الإنفاق المندوب، وقد مدح الله سبحانه كلا من شقي الترديد، لكون كل واحد من الشقين ذا آثار صالحة:

أ. فأما إظهار الصدقة فإن فيه دعوة عملية إلى المعروف، وتشويقا للناس إلى البذل والإنفاق، وتطييبا لنفوس الفقراء والمساكين حيث يشاهدون أن في المجتمع رجالا رحماء بحالهم، وأموالا موضوعة لرفع حوائجهم، مدخرة ليوم بؤسهم فيؤدي إلى زوال اليأس والقنوط عن نفوسهم، وحصول النشاط لهم في أعمالهم، واعتقاد وحدة العمل والكسب بينهم وبين الأغنياء المثرين، وفي ذلك كل الخير.

ب. وأما إخفاؤها فإنه حينئذ يكون أبعد من الرياء والمن والأذى، وفيه حفظ لنفوس المحتاجين عن الخزي والمذلة، وصون لماء وجوههم عن الابتذال، وكلاءة لظاهر كرامتهم، فصدقة العلن أكثر نتاجا، وصدقة السر أخلص طهارة.

٤. لما كان بناء الدين على الإخلاص وكان العمل كلما قرب من الإخلاص كان أقرب من الفضيلة

رجح سبحانه جانب صدقة السر فقال: وإن تخفوها وتعطوها الفقراء فهو خير لكم فإن كلمة خير أفعل التفضيل، والله تعالى خبير بأعمال عباده لا يخطئ في تمييز الخير من غيره، وهو قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾

٥. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي عن الصادق عليه السلام في قول الله عز وجل: ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١]، فقال: هي سوى الزكاة، إن الزكاة علانية غير سر.

ب. وفيه عنه عليه السلام: كل ما فرض الله عليك، فإعلانه أفضل من إسراره، وما كان تطوعاً، فإسراره أفضل من إعلانه.

• أقول: وفي معنى الحديثين أحاديث أخرى، وقد تقدم ما يتضح به معناها.

١٣٣. هداية الناس ليست على الرسول والإنفاق لله:

المقطع [١٣٣] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢/ ٣٩٩»:

١. ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾:

أ. في الكلام التفات عن خطاب المؤمنين إلى خطاب رسول الله ﷺ، وكان ما كان يشاهده رسول الله ﷺ من فعال المؤمنين في صدقاتهم من اختلاف السجايا بالإخلاص من بعضهم والمن والأذى والتثاقل في إنفاق طيب المال من بعض مع كونهم مؤمنين أوجد في نفسه الشريفة وجدا وحزنا فسلاه الله تعالى بالتنبيه على أن أمر هذا الإيمان الموجود فيهم والهدى الذي لهم إنما هو إلى الله تعالى يهدي من يشاء إلى الإيمان وإلى درجاته، وليس يستند إلى النبي لا وجوده ولا بقاؤه حتى يكون عليه حفظه، ويشنق من زواله أو ضعفه، أو يسوؤه ما آل إليه الكلام في هذه الآيات من التهديد والإيعاد والخشونة.

ب. الشاهد على ما ذكرناه قوله تعالى: ﴿هَدَاهُمْ﴾، بالتعبير بالمصدر المضاف الظاهر في تحقق التلبس، على أن هذا المعنى أعني نفي استناد الهداية إلى النبي ﷺ وإسناده إلى الله سبحانه حيث وقع في القرآن وقع في مقام تسلية النبي وتطييب قلبه.

ج. جملة ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ جملة معترضة اعترضت في الكلام لتطييب قلب النبي ﷺ بقطع خطاب المؤمنين والإقبال عليه ﷺ، نظير الاعتراض الواقع في قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾، فلما تم الاعتراض عاد إلى الأصل في الكلام من خطاب المؤمنين.

٢. ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾ إلى آخر الآية:

أ. رجوع إلى خطاب المؤمنين بسياق خال عن التبشير والإنذار والتحنن والتغيظ معا، فإن ذلك مقتضى معنى قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ كما لا يخفى، فقصر الكلام على الدعوة الخالية بالدلالة على أن ساحة المتكلم الداعي منزهة عن الانتفاع بما يتعقب هذه الدعوة من المنافع، وإنما يعود نفعه إلى المدعوين، ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ﴾ لكن لا مطلقا بل في حال لا تنفقون إلا ابتغاء وجه الله، فقوله: ﴿وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾ حال، من ضمير الخطاب وعامله متعلق الظرف أعني قوله: ﴿فَلِأَنْفُسِكُمْ﴾

ب. لما أمكن أن يتوهم أن هذا النفع العائد إلى أنفسهم ببذل المال مجرد اسم لا مسمى له في الخارج، وليس حقيقته إلا تبديل الحقيقة من الوهم عقب الكلام بقوله: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾، فبين أن نفع هذا الإنفاق المندوب وهو ما يترتب عليه من مثوبة الدنيا والآخرة ليس أمرا وهميا، بل هو أمر حقيقي واقعي سيوفيه الله تعالى إليكم من غير أن يظلكم بفقد أو نقص.

ج. إبهام الفاعل في قوله: ﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾، لما تقدم أن السياق سياق الدعوة فطوي، ذكر الفاعل ليكون الكلام أبلغ في النصح وانتفاء غرض الانتفاع من الفاعل كأنه كلام لا متكلم له، فلو كان هناك نفع فلسامعه لا غير.

٣. أحاديث وآثار: في الدر المنثور بعدة طرق عن ابن عباس وابن جبير وأسماء بنت أبي بكر وغيرهم: أن رسول الله كان يمنع عن الصدقة على غير أهل الإسلام، وأن المسلمين كانوا يكرهون الإنفاق على قرابتهم من الكفار، فأنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٢] الآية، فأجاز ذلك.

• أقول: قد مر أن قوله: ﴿هُدَاهُمْ﴾ إنما يصلح لأن يراد به هدى المسلمين الموجود فيهم دون الكفار، فالآية أجنبية عما في الروايات من قصة النزول، على أن تعيين المورد في قوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ

أُحْصِرُوا﴾ [البقرة: ٢٧٣] الآية لا يلائمه كثير ملائمة، وأما مسألة الإنفاق على غير المسلم إذا كان في سبيل الله وابتغاء مرضاته، فيكفي فيه إطلاق الآيات.

١٣٤. صفات الفقراء المتعففين المستحقين للصدقات:

المقطع [١٣٤] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٧٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢/ ٤٠٠»:

١. ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ إلى آخر الآية، الحصر هو المنع والحبس، والأصل في معناه التضييق، قال الراغب في المفردات،: والحصر والإحصار المنع من طريق البيت، فالإحصار يقال: في المنع الظاهر كالعدو، والمنع الباطن كالمرض، والحصر لا يقال، إلا في المنع الباطن، فقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ فمحمول على الأمرين وكذلك قوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، وقوله عز وجل: ﴿أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾، أي ضاقت بالبخل والجبن، انتهى، والتعفف التلبس بالعفة، والسيماء العلامة، والإلحاف هو الإلحاح في السؤال.

٢. في الآية بيان مصرف الصدقات، وهو أفضل المصرف، وهم الفقراء الذين منعوا في سبيل الله وحبسوا فيه بتأدية عوامل وأسباب إلى ذلك: إما عدو أخذ ما لهم من الستر واللباس أو منعهم التعيش بالخروج إلى الاكتساب أو مرض أو اشتغال بما لا يسعهم معه الاشتغال بالكسب كطالب العلم وغير ذلك.

٣. في قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ﴾ أي الجاهل بحالهم أغنياء من التعفف دلالة على أنهم غير متظاهرين بالفقر إلا ما لا سبيل لهم إلى ستره من علائم الفقر والمسكنة من بشرة أو لباس خلق أو نحوهما، ومن هنا يظهر: أن المراد بقوله: ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ أنهم لا يسألون الناس أصلا حتى ينجر إلى الإلحاف والإصرار في السؤال، فإن السؤال أول مرة يجوز للنفس الجزع من مرارة الفقر فيسرع إليها أن لا تصبر وتهم بالسؤال في كل موقف، والإلحاف على كل أحد، كذا قيل، ولا يبعد أن يكون المراد نفي الإلحاف لا أصل السؤال، ويكون المراد بالإلحاف ما يزيد على القدر الواجب من إظهار الحاجة، فإن مسمى الإظهار عند الحاجة المبرمة لا بأس به بل ربما صار واجبا، والزائد عليه وهو الإلحاف هو المذموم.

٤. في قوله تعالى: ﴿تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ دون أن يقال تعرفونهم نوع صون لجاههم وحفظ لسترهم الذي تستروا به تعففا من الانهتاك فإن كونهم معروفين بالفقر عند كل أحد لا يخلو من هوان أمرهم وظهور ذلهم، وأما معرفة رسول الله ص بحالهم بتوسمه من سيماهم، وهو نبيهم المبعوث إليهم الرَؤُوف الحنين بهم فليس فيه كسر لشأنهم، ولا ذهاب كرامتهم، وهذا هو السر في الالتفات عن خطاب المجموع إلى خطاب المفرد.

٥. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع في قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٧٣] الآية، قال: قال أبو جعفر عليه السلام: نزلت الآية في أصحاب الصفة، قال: وكذلك رواه الكلبي عن ابن عباس، وهم نحو من أربعمائة رجل، لم يكن لهم مساكن بالمدينة ولا عشائر يأوون إليهم، فجعلوا أنفسهم في المسجد، وقالوا: نخرج في كل سرية يبعثها رسول الله، فحث الله الناس عليهم، فكان الرجل إذا أكل وعنده فضل أتاهم به إذا أمسى.

ب. وفي تفسير العياشي عن أبي جعفر عليه السلام: إن الله يبغض الملحف.

١٣٥. جزاء الإنفاق المستمر سراً وعلانية:

المقطع [١٣٥] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢/ ٤٠١»:

١. ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ إلى آخر الآية، السر والعلانية متقابلان وهما حالان من ينفقون والتقدير مسرين ومعلنين، واستيفاء الأزمة والأحوال في الإنفاق للدلالة على اهتمام هؤلاء المنفقين في استيفاء الثواب، وإمعانهم في ابتغاء مرضاة الله، وإرادة وجهه، ولذلك تدلى الله سبحانه منهم فوعدهم وعدا حسنا بلسان الرأفة والتلطف فقال: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ الآية.

٢. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [البقرة: ٢٧٤] الآية، قال: سبب النزول عن ابن عباس: نزلت هذه الآية في علي بن أبي طالب عليه السلام، كانت معه أربعة دراهم،

فتصدق بواحد ليلاً، وبواحد نهاراً، وبواحد سراً، وبواحد علانية، فنزل: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾، قال الطبرسي: وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام.

• أقول: وروي هذا المعنى العياشي في تفسيره، والمفيد في الاختصاص، والصدوق في العيون.

ب. وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن عساكر من طريق عبد الوهاب بن مجاهد عن أبيه عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾، قال: نزلت في علي بن أبي طالب عليه السلام، كانت له أربعة دراهم، فأنفق بالليل درهماً، وبالنهار درهماً، وسراً درهماً، وعلانية درهماً.

ج. وفي تفسير البرهان عن ابن شهرآشوب في المناقب عن ابن عباس والسدي ومجاهد والكلبي وأبي صالح والواحدي والطوسي والثعلبي والطبرسي والماوردي والقشيري والثمالي والنقاش والفتال وعبد الله بن الحسين وعلي بن حرب الطائي في تفاسيرهم: أنه كان عند ابن أبي طالب دراهم فضة، فتصدق بواحد ليلاً، وبواحد نهاراً، وبواحد سراً، وبواحد علانية، فنزل: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾، فسمى كل درهم مالاً، وبشره بالقبول.

د. وفي بعض التفاسير: إن الآية نزلت في أبي بكر، تصدق بأربعين ألف دينار: عشرة بالليل، وعشرة بالنهار، وعشرة بالسر، وعشرة بالعلانية.

• أقول: ذكر الآلوسي في تفسيره في ذيل هذا الحديث: أن الإمام السيوطي تعقبه بأن خبر تصدقه بأربعين ألف دينار إنما رواه ابن عساكر في تاريخه عن عائشة، وليس فيه ذكر من نزول الآية، وكأن من ادعى ذلك فهمه مما أخرجه ابن المنذر عن ابن إسحاق قال: لما قبض أبو بكر واستخلف عمر، خطب الناس فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: أيها الناس، إن بعض الطمع فقر، وإن بعض اليأس غنى، وإنكم تجمعون ما لا تأكلون، وتؤملون ما لا تدركون، واعلموا أن بعض الشح شعبة من النفاق، فأنفقوا خيراً لأنفسكم، فأين أصحاب هذه الآية، وقرأ الآية الكريمة، وأنت تعلم أنها لا دلالة فيها على نزولها في حقه، انتهى.

هـ. وفي الدر المنثور بعدة طرق عن أبي أمامة وأبي الدرداء وابن عباس وغيرهم: أن الآية نزلت في أصحاب الخيل.

• أقول: والمراد بهم المرابطون الذين ينفقون على الخيل ليلاً ونهاراً، لكن لفظ الآية أعني قوله: ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ لا ينطبق عليه، إذ لا معنى لهذا التعميم والترديد في الإنفاق على الخيل أصلاً.

و. وفي الدر المنثور أيضاً: أخرج المسيب: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ﴾ الآية كلها في عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان في نفقتهم في جيش العسرة.

• أقول: والإشكال فيه من حيث عدم الانطباق نظير الإشكال في سابقه.

١٣٦. تحريم الربا ووعيد آكليه وعقوبة المعاودة:

المقطع [١٣٦] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢/ ٤٠٩»:

١. الآيات مسوقة لتأكيد حرمة الربا والتشديد على المرابين وليست مسوقة للتشريع الابتدائي، كيف ولسانها غير لسان التشريع، وإنما الذي يصلح لهذا الشأن قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، نعم تشتمل هذه الآيات على مثل قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، وسياق الآية يدل على أن المسلمين ما كانوا ينتهون عن النهي السابق عن الربا، بل كانوا يتداولونها بينهم بعض التداول فأمرهم الله بالكف عن ذلك، وترك ما للغرماء في ذمة المدينين من الربا، ومن هنا يظهر معنى قوله: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ﴾ الآية على ما سيجيء بيانه.

٢. تقدم على ما في سورة آل عمران من النهي قوله تعالى في سورة الروم وهي مكية: ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾، ومن هنا يظهر أن الربا كان أمرا مرغوبا عنه من أوائل عهد رسول الله ﷺ قبل الهجرة حتى تم أمر النهي عنه في سورة آل عمران، ثم اشتد أمره في سورة البقرة بهذه الآيات السبع التي يدل سياقها على تقدم نزول النهي عليها، ومن هنا يظهر: أن هذه الآيات إنما نزلت بعد سورة آل عمران.

٣. على أن حرمة الربا في مذهب اليهود على ما يذكره الله تعالى في قوله: ﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا

عَنْهُ﴾، ويشعر به قوله:، حكاية عنهم، ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾، مع تصديق القرآن لكتابهم وعدم نسخ ظاهر كانت تدل على حرمته في الإسلام.

٤. شدد الله سبحانه في هذه الآيات في أمر الربا بما لم يشدد بمثله في شيء من فروع الدين إلا في تولي أعداء الدين، فإن التشديد فيه يضاهي تشديد الربا، وأما سائر الكبائر فإن القرآن وإن أعلن مخالفتها وشدد القول فيها فإن لحن القول في تحريمها دون ما في هذين الأمرين، حتى الزنا وشرب الخمر والقمار والظلم، وما هو أعظم منها كقتل النفس التي حرم الله والفساد، فجميع ذلك دون الربا وتولي أعداء الدين، وليس ذلك إلا لأن تلك المعاصي لا تتعدى الفرد أو الأفراد في بسط آثارها المشؤومة، ولا تسري إلا إلى بعض جهات النفوس، ولا تحكم إلا في الأعمال والأفعال بخلاف هاتين المعصيتين فإن لهما من سوء التأثير ما ينهدم به بنيان الدين ويعفي أثره، ويفسد به نظام حياة النوع، ويضرب الستر على الفطرة الإنسانية ويسقط حكمها فيصير نسيا منسيا على ما سيتضح إن شاء الله العزيز بعض الاتضاح، وقد صدق جريان التاريخ كتاب الله فيما كان يشدد في أمرهما حيث أهبطت المداهنة والتولي والتحاب والتمايل إلى أعداء الدين الأمم الإسلامية في مهبط من الهلكة صاروا فيها نهبا منهوبا لغيرهم: لا يملكون مالا ولا عرضا ولا نفسا، ولا يستحقون موتا ولا حياة، فلا يؤذن لهم فيموتوا، ولا يغمض عنهم فيستفيدوا من موهبة الحياة، وهجرهم الدين، وارتحلت عنهم عامة الفضائل، وحيث ساق أكل الربا إلى ادخار الكنوز وتراكم الثروة والسؤدد فجر ذلك إلى الحروب العالمية العامة، وانقسام الناس إلى قسمي المثري السعيد والمعدم الشقي، وبان البين، فكان بلوى يدكدك الجبال، ويزلزل الأرض، ويهدد الإنسانية بالانهدام، والدنيا بالخراب، ثم كان عاقبة الذين أساؤوا السوأى، وسيظهر لك إن شاء الله تعالى أن ما ذكره الله تعالى من أمر الربا وتولي أعداء الدين من ملاحم القرآن الكريم.

٥. وضع هنا مبحثا حول [تفسير آية الربا ودلالتها على خبط المرابي]، خلاصته:

أ. بيان معنى (الخبط) في الآية الكريمة، وأنه يشير إلى اضطراب المنهج الحياتي وفساد التمييز بين الأمور، لا إلى الحركات الجسمانية فقط.

ب. تفسير قيام المرابي في الدنيا على أنه اضطراب في إدارة شؤون المعيشة، وليس قياماً من القبر يوم القيامة كما ذهب إليه الجمهور.

ج. كشف المغالطة الأساسية للمرابين في تسوية البيع بالربا، وأن هذه التسوية هي عين الخبط والاضطراب الفكري.

د. إبطال القول بأن تشبيه المرابي بالممسوس هو مجاراة لاعتقادات عامة الناس الفاسدة، وتقرير إمكانية تأثير الشيطان من خلال الأسباب الطبيعية.

هـ. الرد على الاعتراضات المتعلقة بعدالة الله في تسليط الشيطان، وبيان أن ذلك لا ينافي العدل الإلهي.

٦. ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ تقدم الوجه في تشبيه البيع بالربا دون العكس بأن يقال: إنما الربا مثل البيع فإن من استقر به الخبط والاختلال كان واقفا في موقف خارج عن العادة المستقيمة، والمعروف عند العقلاء والمنكر عندهم سيان عنده، فإذا أمرته بترك ما يأتيه من المنكر والرجوع إلى المعروف أجابك، لو أجاب، إن الذي تأمرني به كالذي تنهاني عنه لا مزية له عليه، ولو قال إن الذي تنهاني عنه كالذي تأمرني به كان عاقلا غير مختل الإدراك فإن معنى هذا القول: أنه يسلم أن الذي يؤمر به أصل ذو مزية يجب اتباعه لكنه يدعي أن الذي ينهى عنه ذو مزية مثله، ولم يكن معنى كلامه إبطال المزية وإهماله كما يراه الممسوس، وهذا هو قول المرابي المستقر في نفسه الخبط: إنما البيع مثل الربا، ولو أنّه قال إن الربا مثل البيع لكان رادا على الله جاحدا للشريعة لا خابطا كالممسوس.

٧. الظاهر أن قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ حكاية لحالهم الناطق بذلك وإن لم يكونوا قالوا ذلك بألسنتهم، وهذا السياق أعني حكاية الحال بالقول، معروف عند الناس، وبذلك يظهر فساد ما ذكره بعضهم: أن المراد بقولهم: ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ نظمهما في سلك واحد، وإنما قلبوا التشبيه وجعلوا الربا أصلا وشبهوا به البيع للمبالغة كما في قوله:

ومهمة مغبرة أرجاؤه...كأن لون أرضه سماؤه

وكذا فساد ما ذكره آخرون: أنه يجوز أن يكون التشبيه غير مقلوب بناء على ما فهموه: أن البيع إنما حل لأجل الكسب والفائدة، وذلك في الربا متحقق وفي غيره موهوم، ووجه الفساد ظاهر مما تقدم.

٨. ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾

أ. جملة مستأنفة بناء على أن الجملة الفعلية المصدرة بالماضي لو كانت حالا لوجب تصديرها بقد،

يقال: جاءني زيد وقد ضرب عمرا، ولا يلائم كونها حالا ما يفيده أول الكلام من المعنى، فإن الحال قيد لزمان عامله وظرف لتحققه، فلو كانت حالا لأفادت: أن تخبطهم لقولهم إنما البيع مثل الربا إنما هو في حال أحل الله البيع وحرم الربا عليهم، مع أن الأمر على خلافه فهم خابطون بعد تشريع هذه الحلية والحرمة وقبل تشريعهما، فالجملة ليست حالية وإنما هي مستأنفة، وهذه المستأنفة غير متضمنة للتشريع الابتدائي على ما تقدم أن الآيات ظاهرة في سبق أصل تشريع الحرمة، بل بانية على ما تدل عليها آية آل عمران: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

ب. فالجملة أعني قوله: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ﴾ الآية لا تدل على إنشاء الحكم، بل على الإخبار عن حكم سابق وتوطئة لتفرع قوله بعدها: فمن جاءه موعظة من ربه إلخ، هذا ما ينساق إليه ظاهر الآية الشريفة، وقد قيل: إن قوله: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ مسوق لإبطال قولهم: ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾، والمعنى لو كان كما يقولون لما اختلف حكمهما عند أحكم الحاكمين مع أن الله أحل أحدهما وحرم الآخر، وفيه أنه وإن كان استدلالا صحيحا في نفسه لكنه لا ينطبق على لفظ الآية فإنه معنى كون الجملة، ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ﴾ الآية، حالية وليست بحال، وأضعف منه ما ذكره آخرون: أن معنى قوله: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ﴾ الآية إنه ليست الزيادة في وجه البيع نظير الزيادة في وجه الربا، لأني أحللت البيع وحرمت الربا، والأمر أمري، والخلق خلقي، أقضي فيهم بما أشاء، وأستعبدهم بما أريد، ليس لأحد منهم أن يعترض في حكمي، وفيه: أنه أيضا مبني على أخذ الجملة حالية لا مستأنفة، على أنه مبني على إنكار ارتباط الأحكام بالمصالح والمفاسد ارتباط السببية والمسببية، وبعبارة أخرى على نفي العلية والمعلولية بين الأشياء وإسناد الجميع إلى الله سبحانه من غير واسطة، والضرورة تبطله، على أنه خلاف ما هو دأب القرآن من تعليل أحكامه وشرائعه بمصالح خاصة أو عامة، على أن قوله في ضمن هذه الآيات: ﴿وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ الآية، وقوله: ﴿لَا تُظْلَمُونَ﴾ الآية، وقوله: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا﴾ إلى قوله: ﴿مِثْلُ الرِّبَا﴾، تدل على نوع تعليل لإحلال البيع بكونه جاريا على سنة الفطرة والخلقة ولتحريم الربا بكونه خارجا عن سنن الاستقامة في الحياة، وكونه منافيا غير ملائم للإيمان بالله تعالى، وكونه ظلما.

٩. ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ﴾:

أ. تفريع على قوله: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ﴾ الآية، والكلام غير مقيد بالربا، فهو حكم كلي وضع في

مورد جزئي للدلالة على كونه مصداقا من مصاديقه يلحقه حكمه، والمعنى: أن ما ذكرناه لكم في أمر الربا موعظة جاءتكم من ربكم ومن جاءه موعظة،فإن انتهيتم فلكم ما سلف وأمركم إلى الله، ومن هنا يظهر: أن المراد من مجيء الموعظة بلوغ الحكم الذي شرعه الله تعالى، ومن الانتهاء التوبة وترك الفعل المنهي عنه انتهاء عن نهيه تعالى، ومن كون ما سلف لهم عدم انعطاف الحكم وشموله لما قبل زمان بلوغه، ومن قوله: ﴿فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ﴾، إنه لا يتحتم عليهم العذاب الخالد الذي يدل عليه قوله: ﴿وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، فهم منتفعون فيما أسلفوا بالتخلص من هذه المهلكة، ويبقى عليهم: أن أمرهم إلى الله فربما أطلقهم في بعض الأحكام، وربما وضع عليهم ما يتدارك به ما فوتوه.

ب. أمر الآية عجيب، فإن قوله: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ﴾ إلى آخر الآية مع ما يشتمل عليه من التسهيل والتشديد حكم غير خاص بالربا، بل عام يشمل جميع الكبائر الموبقة، والقوم قد قصروا في البحث عن معناها حيث اقتصروا بالبحث عن مورد الربا خاصة من حيث العفو عما سلف منه، ورجوع الأمر إلى الله فيمن انتهى، وخلود العذاب لمن عاد إليه بعد مجيء الموعظة، هذا كله مع ما تراه من العموم في الآية، إذا علمت هذا ظهر لك: أن قوله: ﴿فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ لا يفيد إلا معنى مبهما يتعين بتعين المعصية التي جاء فيها الموعظة ويختلف باختلافها، فالمعنى: أن من انتهى عن موعظة جاءته فالذي تقدم منه من المعصية سواء كان في حقوق الله أو في حقوق الناس فإنه لا يؤاخذ بعينها لكنه لا يوجب تخلصه من تبعاته أيضا كما تخلص من أصله من حيث صدوره، بل أمره فيه إلى الله، إن شاء وضع فيها تبعة كقضاء الصلاة الفائتة والصوم المنقوض وموارد الحدود والتعزيرات ورد المال المحفوظ المأخوذ غصبا أو ربا وغير ذلك مع العفو عن أصل الجرائم بالتوبة والانتهاء، وإن شاء عفا عن الذنب ولم يضع عليه تبعة بعد التوبة كالمشرك إذا تاب عن شركه ومن عصى بنحو شرب الخمر واللهو فيما بينه وبين الله ونحو ذلك، فإن قوله: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى﴾، مطلق يشمل الكافرين والمؤمنين في أول التشريع وغيرهم من التابعين وأهل الأعصار اللاحقة.

١٠. أما قوله: ﴿وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾:

أ. فوقوع العود في هذه الجملة في مقابل الانتهاء الواقع في الجملة السابقة يدل على أن المراد به العود الذي يجامع عدم الانتهاء، ويلازم ذلك الإصرار على الذنب وعدم القبول للحكم وهذا هو الكفر أو الردة

باطنا ولو لم يتلفظ في لسانه بما يدل على ذلك، فإن من عاد إلى ذنب ولم ينته عنه ولو بالندم فهو غير مسلم للحكم تحقيقا ولا يفلح أبدا، فالترديد في الآية بحسب الحقيقة بين تسليم الحكم الذي لا يخلو عن البناء على عدم المخالفة وبين الإصرار الذي لا يخلو غالبا عن عدم التسليم المستوجب للخلود على ما عرفت.

ب. من هنا يظهر الجواب عن استدلال المعتزلة بالآية على خلود مرتكب الكبيرة في العذاب، فإن الآية وإن دلت على خلود مرتكب الكبيرة بل مطلق من اقترف المعصية في العذاب لكن دلالتها مقصورة على الارتكاب مع عدم تسليم الحكم ولا محذور فيه.

١١. وقد ذكر في قوله تعالى: ﴿فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾، وفي قوله: ﴿وَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ﴾، وقوله: ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ الآية وجوه من المعاني والاحتمالات على أساس ما فهمه الجمهور من الآية على ما تقدم لكنا تركنا إيرادها لعدم الجدوى فيها بعد فساد المنشإ.

١٢. وضع هنا مبحثا حول [الربا: تعريفه، آثاره الاقتصادية، ومفاسده الاجتماعية]، خلاصته:

أ. الإنسان يعمل لرفع حوائجه المادية، ويملك ما عمل فيه، ثم دعته الحاجة إلى الاجتماع التعاوني والمعاوضة.

ب. المعاوضة أدت إلى اعتبار القيمة بوضع النقود (الدرهم والدينار) كمعيار عام للقيمة.

ج. الربا هو تبديل المثل بالمثل مع زيادة (كإعطاء عشرة إلى أجل وأخذ اثني عشر)، وهو يحدث عند اضطرار المقترض.

د. الربا يؤدي إلى فناء طبقة المعسرين، وانجرار المال إلى طبقة الموسرين، ويؤدي إلى تحكم الأغنياء واستذلال الفقراء.

هـ. الربا يسبب التراكم الفاحش للثروة، وحرمان الأكثرين من أوجب حقوقهم، وهو السبب الرئيسي في ظهور الشيوعية والاشتراكية.

و. الربا يسهل كنز الأموال في البنوك، ويعطل جريانها في البيع والشراء، ويؤدي إلى البطالة والترف لطبقة، وحرمان أخرى من العمل.

١٣. وضع هنا مبحثا حول [حكمة خلق النقود والربا]، خلاصته:

أ. الغزالي قال: إن الدراهم والدنانير خلقا لتكون حاكمين بين الأموال، ووسيلة إلى كل غرض،

ولا غرض في أعيانها.

ب. الردّ على الغزالي: أن النقود لا يمكن أن تقدر غيرها بما ليس فيها، والاعتراف بعزتها يستلزم كونها مقصودة لذاتها.

ج. حرمة الكنز ليست لإعطاء المقصودية الاستقلالية للنقود، بل لتحريم الفقراء عن الارتزاق بها.

د. اتخاذ آنية الذهب والفضة ليس حراماً بنفس القياس، لأن الحلي والصرف ليسا حراماً مع وجود نفس المعنى.

هـ. حكمة تحريم الربا في القرآن: أخذ الزيادة من غير عوض، مما يؤدي إلى نمو الربا وانقاص أموال الناس، وهو ظلم.

و. الآية ﴿وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ (٢٧٩)﴾ تعني: لا تظلمون الناس ولا تظلمون من قبلهم أو من قبل الله.

١٤. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٥] الآية، عن الصادق عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: لما أُسري بي إلى السماء، رأيت قوماً يريد أحدهم أن يقوم فلا يقدر أن يقوم من عظم بطنه، فقلت: من هؤلاء يا جبرائيل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون الربا، ﴿لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، وإذا هم بسبيل آل فرعون: ﴿يُعْرَضُونَ عَلَى النَّارِ غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَقُولُونَ رَبَّنَا مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ [غافر: ٤٦]

• أقول: وهو مثال برزخي، وتصديق لقوله ﷺ: (كما تعيشون تموتون، وكما تموتون تبعثون)

ب. وأخرج الأصبهاني في ترغيبه عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: يأتي آكل الربا يوم القيامة مختبلاً يجر شقيه، ثم قرأ: ﴿لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾

• أقول: وقد ورد في عقاب الربا روايات كثيرة من طرق الشيعة وأهل السنة، وفي بعضها: أنه يعدل سبعين زنية يزنيها المرابي مع أمه.

ج. وفي التهذيب بإسناده عن عمر بن يزيد بياع السابري قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام:

جعلت فداك، إن الناس زعموا أن الربح على المضطر حرام، فقال: وهل رأيت أحداً اشترى غنياً أو فقيراً إلا من ضرورة؟ يا عمر، قد أحل الله البيع وحرم الربا، فاربح ولا تَرْبِ، قلت: وما الربا؟ قال: دراهم بدراهم مثلين بمثل، وحنطة بحنطة مثلين بمثل.

د. وفي الفقيه بإسناده عن عبيد بن زرارة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لا يكون الربا إلا فيما يكال أو يوزن.

• أقول: وقد اختلف فيما يقع فيه الربا على أقوال، والذي هو مذهب أهل البيت عليهم السلام: أنه إنما يكون في النقدين وما يكال أو يوزن، والمسألة فقهية لا يتعلق منها غرضنا إلا بهذا المقدار.

هـ. وفي الكافي عن أحدهما، وفي تفسير العياشي عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ [البقرة: ٢٧٥] إلى آخر الآية، قال: الموعظة التوبة.

و. وفي التهذيب عن محمد بن مسلم قال: دخل رجل على أبي عبد الله عليه السلام من أهل خراسان، قد عمل بالربا حتى كثر ماله، ثم إنه سأل الفقهاء، فقالوا: ليس يقبل منك شيء حتى ترده إلى أصحابه، فجاء إلى أبي جعفر عليه السلام فقص عليه قصته، فقال أبو جعفر عليه السلام: مخرجك من كتاب الله عز وجل: ﴿فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ إلى قوله: ﴿فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، فله ما سلف، وأمره إلى الله، قال: الموعظة التوبة.

ز. وفي الكافي والفقيه عن الصادق عليه السلام: كل ربا أكله الناس بجهالة ثم تابوا، فإنه يقبل منهم إذا عرف منهم التوبة، وقال: لو أن رجلاً ورث من أبيه مالاً، وقد عرف أن في ذلك المال ربا، ولكن قد اختلط في التجارة بغيره، فإنه له حلال فليأكله، وإن عرف منه شيئاً معروفاً، فليأخذ رأس ماله، وليرد الزيادة.

ح. وفي الفقيه والعيون عن الرضا عليه السلام: هي كبيرة بعد البيان، قال: والاستخفاف بذلك دخول في الكفر.

ط. وفي الكافي: أنه سئل عن الرجل يأكل الربا وهو يرى أنه حلال، قال: لا يضره حتى يصيبه متعمداً، فإذا أصابه متعمداً، فهو بالمنزلة التي قال الله عز وجل.

١٣٧ . محق الربا وربو الصدقات وجزاء المؤمنين الصالحين:

المقطع [١٣٧] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٦-٢٧٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢/ ٤١٩»:

١. وضع هنا مبحثا حول [آية ﴿يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ ودلالتها على السنن الاجتماعية]، خلاصته:

أ. بيان أن محق الربا وإرباء الصدقات حكم عام يشمل الدنيا والآخرة معاً، وليس مقصوراً على أحدهما.

ب. توضيح الأثر الاجتماعي للصدقة في نماء المال، وللربا في محقه وفنائه، من خلال تأثيرهما في النفوس والعلاقات الاجتماعية.

ج. بيان أن السنن الاجتماعية في القرآن مبنية على الأغلبية لا على الدوام، وأن الاجتماعيات تختلف عن الفرديات في سرعة ظهور آثارها وبطئها.

د. إبطال الأقوال التي تحصر محق الربا في الآخرة فقط، أو في إبطال السعي والغايات دون المال نفسه.

هـ. الرد على من استدل بالآية على خلود مرتكب الكبيرة في النار، وبيان وجه الضعف في ذلك الاستدلال.

و. تفسير التعليل الإلهي في قوله: ﴿وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (٢٧٦)﴾، وبيان أن المرابي كفّارٌ بِنِعَمِ الله، أثيمٌ في نفسه.

٢. ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ تعليل يبين به ثواب المتصدقين والمنتهين عما نهى الله عنه من أكل الربا بوجه عام ينطبق على المورد انطباقا.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي والفقيه عن الصادق عليه السلام، وقد سأل عن قوله تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦] الآية، وقيل: قد أرى من يأكل الربا يربو ماله، قال: فأي محق أمحق من درهم الربا، يمحق الدين، وإن تاب منه ذهب ماله وافتقر.

• أقول: والرواية كما ترى تفسر المحق التشريعي، أعني: عدم اعتبار الملكية والتحريم، وتقابله الصدقة في شأنه، وهي لا تنافي ما مر من عموم المحق.

ب. وفي المجمع عن علي عليه السلام: أنه قال: لعن رسول الله ﷺ في الربا خمسة: آكله، وموكله، وشاهديه، وكاتبه.

• أقول: وروي هذا المعنى في الدر المنثور بطرق عنه ﷺ.

ج. وفي تفسير العياشي عن الباقر عليه السلام قال: قال الله تعالى: إنا خالق كل شيء، وكلت بالأشياء غيري إلا الصدقة، فإني أقبضها بيدي، حتى إن الرجل والمرأة يتصدق بشق التمرة، فأربيها له كما يربي الرجل منكم فصيله وفلوه، حتى أتركه يوم القيامة أعظم من أحد.

د. وفيه عن علي بن الحسين عليهما السلام عن النبي ﷺ قال: إن الله ليربي لأحدكم الصدقة كما يربي أحدكم ولده، حتى يلقاه يوم القيامة وهو مثل أحد.

• أقول: وقد روي هذا المعنى من طرق أهل السنة عن عدة من الصحابة، كأبي هريرة وعائشة وابن عمر وأبي برزة الأسلمي عن النبي ﷺ.

١٣٨. النهي عن الربا وإعلان الحرب من الله ورسوله على المرابين:

المقطع [١٣٨] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَّ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهَّ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٨-٢٧٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢/ ٤٢٣»:

١. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَّ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾:

أ. خطاب للمؤمنين وأمر لهم بتقوى الله وهو توطئة لما يتعقبه من الأمر بقوله وَذَرُوا ما بَقِيَ مِنَ الرِّبا، وهو يدل على أنه كان من المؤمنين في عهد نزول الآيات من يأخذ الربا، وله بقايا منه في ذمة الناس من الربا فأمر بتركها، وهدد في ذلك بما سيأتي من قوله: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهَّ وَرَسُولِهِ﴾ الآية، وهذا يؤيد ما ورد من الرواية في سبب نزول الآية.

ب. في تقييد الكلام بقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ إشارة إلى أن تركه من لوازم الإيمان، وتأكيد لما تقدم من قوله: ﴿وَمَنْ عَادَ﴾.، وقوله: ﴿وَاللهَّ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ﴾

٢. ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾:

أ. الإذن كالعلم وزنا ومعنى، وقرئ فآذنوا بالأمر من الإيذان، والباء في قوله بحرب لتضمينه معنى اليقين ونحوه، والمعنى: أيقنوا بحرب أو أعلموا أنفسكم باليقين بحرب من الله ورسوله، وتنكير الحرب لإفادة التعظيم أو التنويع، ونسبة الحرب إلى الله ورسوله لكونه مرتبطا بالحكم الذي لله سبحانه فيه سهم بالجعل والتشريع ولرسوله فيه سهم بالتبليغ، ولو كان لله وحده لكان أمرا تكوينيا، وأما رسوله فلا يستقل في أمر دون الله سبحانه قال تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾

ب. الحرب من الله ورسوله في حكم من الأحكام مع من لا يسلمه هو تحميل الحكم على من رده من المسلمين بالقتال كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ على أن لله تعالى صنعا آخر في الدفاع عن حكمه وهو محاربته إياهم من طريق الفطرة وهو تهييج الفطرة العامة على خلافهم، وهي التي تقطع أنفاسهم، وتخرب ديارهم، وتعفي آثارهم، قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾

٣. ﴿وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ﴾، كلمة ﴿وَإِنْ تُبْتُمْ﴾، تؤيد ما مر أن الخطاب في الآية لبعض المؤمنين ممن كان يأخذ الربا وله بقايا على مدينيه ومعامليه، وقوله: ﴿فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ﴾ أي أصول أموالكم الخالصة من الربا لا تظلمون بأخذ الربا ولا تظلمون بالتعدي إلى رؤوس أموالكم، وفي الآية دلالة على إمضاء أصل الملك أولا: وعلى كون أخذ الربا ظلما كما تقدم ثانيا: وعلى إمضاء أصناف المعاملات حيث عبر بقوله ﴿رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ﴾ والمال إنما يكون رأسا إذا صرف في وجوه المعاملات وأصناف الكسب ثالثا.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي: إنه لما أنزل الله: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا﴾ الآية، قام خالد بن الوليد إلى رسول الله، فقال: يا رسول الله، ربا أبي في ثقيف، وقد أوصاني عند موته بأخذه، فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٨] الآية.

• أقول: وروي قريباً منه في المجمع عن الباقر عليه السلام.

ب. وفي المجمع أيضاً عن السدي وعكرمة قالا: نزلت في بقية من الربا كانت للعباس وخالد بن

الوليد، وكانا شريكين في الجاهلية يسلفان في الربا إلى بني عمرو بن عمير، ناس من ثقيف، فجاء الإسلام ولهما أموال عظيمة في الربا، فأنزل الله هذه الآية، فقال النبي: ألا إن كل ربا من ربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضعه ربا العباس بن عبد المطلب، وكل دم في الجاهلية موضوع، وأول دم أضعه دم ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، كان مرضعاً في بني ليث، فقتله هذيل.

• أقول: ورواه في الدر المنثور عن ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن السدي، إلا أن فيه: (ونزلت في العباس بن عبد المطلب ورجل من بني المغيرة)

ج. وفي الدر المنثور: أخرج أبو داود والترمذي وصححه والنسائي وابن ماجة وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه عن عمرو بن الأحوص: أنه شهد حجة الوداع مع رسول الله ﷺ، فقال: ألا إن كل ربا في الجاهلية موضوع، لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون.

• أقول: والروايات في هذه المعاني كثيرة، والمتحصل من روايات الخاصة والعامة: أن الآية نزلت في أموال من الربا كانت لبني المغيرة على ثقيف، وكانوا يربونهم في الجاهلية، فلما جاء الإسلام طالبوهم ببقايا كانت لهم عليهم، فأبوا التأدية لوضع الإسلام ذلك، فرفع أمرهم إلى رسول الله ﷺ، فنزلت الآية، وهذا يؤيد ما قدمناه في البيان: أن الربا كان محرماً في الإسلام قبل نزول هذه الآيات ومبيناً للناس، وأن هذه الآيات إنما تؤكد التحريم وتقرره، فلا يعبأ ببعض ما روي أن حرمة الربا إنما نزلت في آخر عهد رسول الله ﷺ، وأنه قبض ولم يبين للناس أمر الربا، كما في الدر المنثور عن ابن جرير وابن مردويه عن عمر بن الخطاب: أنه خطب فقال: من آخر القرآن نزولاً آية الربا، وإنه قد مات رسول الله ولم يبينه لنا، فدعوا ما يريبكم إلى ما لا يريبكم، على أن من مذهب أئمة أهل البيت عليهم السلام: أن الله تعالى لم يقبض نبيه حتى شرع كل ما يحتاج إليه الناس من أمر دينهم، وبين ذلك للناس نبيه ﷺ.

١٣٩. النظرة للمعسر والتصدق عليه والدعوة للتقوى:

المقطع [١٣٩] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨٠-٢٨١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢/ ٤٢٤»:

١. ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾:

أ. لفظة كان تامة أي إذا وجد ذو عسرة، والنظرة المهلة، والميسرة اليسار، والتمكن مقابل العسرة أي إذا وجد غريم من غرمائكم لا يتمكن من أداء دينه الحال فانظروه وأمهلوه حتى يكون متمكنا ذا يسار فيؤدي دينه.

ب. الآية وإن كانت مطلقة غير مقيدة لكنها منطبقة على مورد الربا، فإنهم كانوا إذا حل أجل الدين يطالبونه من المدين فيقول المدين لغريمه زد في أجلي كذا مدة أزيدك في الثمن بنسبة كذا، والآية تنهى عن هذه الزيادة الربوية ويأمر بالإنظار.

٢. ﴿وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، أي وإن تضعوا الدين عن المعسر فتتصدقوا به عليه فهو خير لكم إن كنتم تعلمون فإنكم حينئذ قد بدلتم ما تقصدونه من الزيادة من طريق الربا الممحوق من الزيادة من طريق الصدقة الرابية حقا.

٣. ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾:

أ. فيه تذييل لآيات الربا بما تشتمل عليه من الحكم والجزاء بتذكير عام بيوم القيامة ببعض أوصافه الذي يناسب المقام، ويهيئ ذكره النفوس لتقوى الله تعالى والورع عن محارمه في حقوق الناس التي تتكي عليه الحياة، وهو أن أمامكم يوما ترجعون فيه إلى الله فتوفي كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون، وأما معنى هذا الرجوع مع كوننا غير غائبين عن الله، ومعنى هذه التوفية فسيجيء الكلام فيه في تفسير سورة الأنعام إن شاء الله تعالى.

ب. قيل: إن هذه الآية: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾، آخر آية نزلت على رسول الله ﷺ.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في الدر المنثور بطرق عديدة عن ابن عباس والسدي وعطية العوفي وأبي صالح وسعيد بن جبير: أن آخر آية نزلت من القرآن قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١] إلى آخر الآية.

ب. وفي المجمع عن الصادق عليه السلام: إنما شدد في تحريم الربا، لئلا يمتنع الناس من اصطناع المعروف قرضاً أو رفداً.

ج. وفي المجمع أيضاً عن علي عليه السلام: إذا أراد الله بقرية هلاكاً، ظهر فيهم الربا.

• أقول: وقد مر في البيان السابق ما يتبين به معنى هذه الروايات.

د. وفيه: في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠] الآية، قال: واختلف في حد الإعسار، فروي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: هو إذا لم يقدر على ما يفضل من قوته وقوت عياله على الاقتصاد.

هـ. وفيه: أنه أي إنظار المعسر واجب في كل دين، عن ابن عباس والضحاك والحسن، وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام.

و. وفيه: قال الباقر عليه السلام: ﴿إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ معناه: إذا بلغ خبره الإمام، فيقضي عنه من سهم الغارمين إذا كان أنفقه في المعروف.

ز. وفي الكافي عن الصادق عليه السلام قال: صعد رسول الله المنبر ذات يوم، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على أنبيائه، ثم قال: أيها الناس، ليبلغ الشاهد منكم الغائب، ألا ومن أنظر معسراً، كان له على الله في كل يوم صدقة بمثل ماله حتى يستوفيه، ثم قال أبو عبد الله عليه السلام: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨٠]، إنه معسر فتصدقوا عليه بما لكم، فهو خير لكم.

• أقول: والرواية تشتمل على تفسير قوله: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، وقد مر له معنى آخر، والروايات في هذه المعاني وما يلحق بها كثيرة، والمرجع فيها كتاب الدين من الفقه.

١٤٠. كتابة الدين بالعدل وإملاء المدين بالحق:

المقطع [١٤٠] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢/ ٤٣٥»:

١. ﴿إِذَا تَدَايَنتُم﴾ الآية، التداين، مداينة بعضهم بعضا، والإملال والإملاء إلقاء الرجل للكاتب ما يكتبه، والبخس هو النقص والحيف والسأمة هي الملال، والمضارة مفاعلة من الضرر ويستعمل لما بين الاثنين وغيره، والفسوق هو الخروج عن الطاعة، والرهان، وقرئ فرهن بضمتين وكلاهما جمع الرهن

بمعنى المرهون.

٢. الإظهار الواقع في موقع الإضمار في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾، لرفع اللبس برجوع الضمير إلى الكاتب السابق ذكره.

٣. الضمير البارز في قوله: ﴿أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ﴾، فائدته تشريك من عليه الحق مع وليه، فإن هذه الصورة تغاير الصورتين الأولیين بأن الولي في الصورتين الأوليين هو المسئول بالأمر المستقل فيه بخلاف هذه الصورة فإن الذي عليه الحق يشارك الولي في العمل فكأنه قيل: ما يستطيعه من العمل فعليه ذلك وما لا يستطيعه هو فعلى وليه.

١٤١. الإشهاد على الدين وعدالة الشهود:

المقطع [١٤١] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢/ ٤٣٥»:

١. ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا﴾، على تقدير حذر أن تضل إحداهما، وفي قوله: ﴿إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ وضع الظاهر موضع المضمر، والنكتة فيه اختلاف معنى اللفظ في الموضعين، فالمراد من الأول إحداهما لا على التعيين، ومن الثاني إحداهما بعد ضلال الأخرى، فالمعنيان مختلفان.

٢. ﴿وَاتَّقُوا﴾ أمر بالتقوى فيما ساقه الله إليهم في هذه الآية من الأمر والنهي، وأما قوله: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، فكلام مستأنف مسوق في مقام الامتنان كقوله تعالى في آية الإرث: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا﴾، فالمراد به الامتنان بتعليم شرائع الدين ومسائل الحلال والحرام.

٣. ما قيل: إن قوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ يدل على أن التقوي سبب للتعليم الإلهي، فيه أنه وإن كان حقا يدل عليه الكتاب والسنة، لكن هذه الآية بمعزل عن الدلالة عليه لمكان واو العطف على أن هذا المعنى لا يلائم سياق الآية وارتباط ذيلها بصدرها، ويؤيد ما ذكرنا تكرار لفظ الجلالة ثانيا فإنه لولا

كون قوله: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾، كلاما مستأنفا كان مقتضى السياق أن يقال: يعلمكم بإضمار الفاعل، ففي قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، أظهر الاسم أولا وثانيا لوقوعه في كلامين مستقلين، وأظهر ثالثا ليدل به على التعليل، كأنه قيل: هو بكل شيء عليم لأنه الله.

١٤٢. الرهن في السفر وعدم كتمان الشهادة:

المقطع [١٤٢] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢/ ٤٣٥»:

١. الآيتان تدلان على ما يقرب من عشرين حكما من أصول أحكام الدين والرهن وغيرهما، والأخبار فيها وفيما يتعلق بها كثيرة لكن البحث عنها راجع إلى الفقه، ولذلك آثرنا الإغماض عن ذلك فمن أراد البحث عنها فعليه بمظانه من الفقه.

١٤٣. لله ما في السماوات والأرض والمحاسبة على ما في الصدور:

المقطع [١٤٣] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢/ ٤٣٦»:

١. ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، كلام يدل على ملكه تعالى لعالم الخلق مما في السماوات والأرض، وهو توطئة لقوله بعده: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾، أي إن له ما في السماوات والأرض ومن جملتها أنتم وأعمالكم وما اكتسبتها نفوسكم، فهو محيط بكم مهيمن على أعمالكم لا يتفاوت عنده كون أعمالكم بادية ظاهرة، أو خافية مستورة فيحاسبكم عليها، وربما استظهر من الآية: كون السماء مسانخا لأعمال القلوب وصفات النفس فما في النفوس هو مما في السماوات، ولله ما في السماوات كما أن ما في النفوس إذا أبدي بعمل الجوارح كان مما في الأرض، ولله ما في الأرض فما انطوى في النفوس سواء أبدي أو أظهر مملوك لله محاط له سيتصرف فيه بالمحاسبة.

٢. ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾:

أ. الإبداء هو الإظهار مقابل الإخفاء، ومعنى ﴿مَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ ما استقر في أنفسكم على ما يعرفه

أهل العرف واللغة من معناه، ولا مستقر في النفس إلا الملكات والصفات من الفضائل والرذائل كالإيمان والكفر والحب والبغض والعزم وغيرها فإنها هي التي تقبل الإظهار والإخفاء، أما إظهارها فإنما تتم بأفعال مناسبة لها تصدر من طريق الجوارح يدركها الحس ويحكم العقل بوجود تلك المصادر النفسية المسانخة لها، إذ لولا تلك الصفات والملكات النفسانية من إرادة وكراهة وإيمان وكفر وحب وبغض وغير ذلك لم تصدر هذه الأفعال، فبصدور الأفعال يظهر للعقل وجود ما هو منشؤها، وأما إخفاؤها فبالكف عن فعل ما يدل على وجودها في النفس.

ب. بالجملة ظاهر قوله: ﴿مَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾، الثبوت والاستقرار في النفس، ولا يعني بهذا الاستقرار التمكن في النفس بحيث يمتنع الزوال كالملكات الراسخة، بل ثبوتا تاما يعتد به في صدور الفعل كما يشعر به قوله: ﴿إِنْ تُبْدُوا﴾ وقوله: ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ فإن الوصفين يدلان على أن ما في النفس بحيث يمكن أن يكون منشأ للظهور أو غير منشإ له وهو الخفاء، وهذه الصفات يمكن أن تكون كذلك سواء كانت أحوالا أو ملكات، وأما الخطورات والهواجس النفسانية الطارقة على النفس من غير إرادة من الإنسان وكذلك التصورات الساذجة التي لا تصديق معها كتصور صور المعاصي من غير نزوع وعزم فلفظ الآية غير شامل لها البتة لأنها كما عرفت غير مستقرة في النفس، ولا منشأ لصدور الأفعال، فتحصل: أن الآية إنما تدل على الأحوال والملكات النفسانية التي هي مصادر الأفعال من الطاعات والمعاصي، وأن الله سبحانه وتعالى يحاسب الإنسان بها، فتكون الآية في مساق قوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾، وقوله: ﴿فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾، فجميع هذه الآيات دالة على أن للقلوب وهي النفوس أحوالا وأوصافا يحاسب الإنسان بها، وكذا قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾، فإنها ظاهرة في أن العذاب إنما هو على الحب الذي هو أمر قلبي، هذا.

ج. هذا ظاهر الآية ويجب أن يعلم: أن الآية إنما تدل على المحاسبة بما في النفوس سواء أظهر أو أخفى، وأما كون الجزاء في صورتي الإخفاء والإظهار على حد سواء، وبعبارة أخرى كون الجزاء دائرا مدار العزم سواء فعل أو لم يفعل وسواء صادف الفعل الواقع المقصود أو لم يصادف كما في صورة التجري مثلا فالآية غير ناظرة إلى ذلك.

٣. أخذ القوم في معنى الآية مسالك شتى لما توهموا أنها تدل على المؤاخذة على كل خاطر نفساني مستقر في النفس أو غيره وليس إلا تكليفا بما لا يطاق، فمن ملتزم بذلك ومن مؤول يريد به التخلص:

أ. فمنهم من قال إن الآية تدل على المحاسبة بكل ما يرد القلب، وهو تكليف بما لا يطاق، لكن الآية منسوخة بما يتلوها من قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ الآية، وفيه: أن الآية غير ظاهرة في هذا العموم كما مر، على أن التكليف بما لا يطاق غير جائز بلا ريب، على أنه تعالى يخبر بقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ الحج، ٧٨، بعدم تشريعه في الدين ما لا يطاق.

ب. ومنهم من قال إن الآية مخصوصة بكتمان الشهادة ومرتبطة بما تقدمتها من آية الدين المذكورة فيها وهو مدفوع بإطلاق الآية كقول من قال إنها مخصوصة بالكفار.

ج. ومنهم من قال إن المعنى أن تبدوا بأعمالكم ما في أنفسكم من السوء بأن تتجاهروا وتعلنوا بالعمل أو تخفوه بأن تأتوا الفعل خفية يحاسبكم به الله.

د. ومنهم من قال إن المراد بالآية مطلق الخواطر إلا أن المراد بالمحاسبة الأخبار أي جميع ما يخطر ببالكم سواء أظهرتموها أو أخفيتموها فإن الله يخبركم به يوم القيامة فهو في مساق قوله تعالى: ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، ويدفع هذا وما قبله؟ بمخالفة ظاهر الآية كما تقدم.

٤. ﴿فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، الترديد في التفريع بين المغفرة والعذاب لا يخلو من الإشعار بأن المراد بما في النفوس هي الصفات والأحوال النفسانية السيئة، وإن كانت المغفرة ربما استعملت في القرآن في غير مورد المعاصي أيضا لكنه استعمال كالنادر يحتاج إلى مئونة القرائن الخاصة، وقوله: ﴿وَاللَّهُ﴾ تعليل راجع إلى مضمون الجملة الأخيرة، أو إلى مدلول الآية بتمامها.

٥. أحاديث وآثار:

أ. في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: لما نزلت على رسول الله ﷺ: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، فأتوا رسول الله ﷺ، ثم جثوا على الركب، فقالوا: يا رسول الله، كلفنا من الأعمال ما نطيق: الصلاة، والصيام، والجهاد، والصدقة، وقد أنزل الله هذه الآية، ولا نطيقها، فقال رسول الله ﷺ: أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتاب من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا، غفرانك ربنا، وإليك

المصير، فلما اقترأها القوم وذلت بها ألسنتهم، أنزل الله في أثرها: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٢٨٥] الآية، فلما فعلوا ذلك، نسخها الله تعالى، فأنزل: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] إلى آخرها.

• أقول: ورواه في الدر المنثور عن أحمد ومسلم وأبي داود في ناسخه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي هريرة، وروي قريباً منه بعدة من الطرق عن ابن عباس، وروي النسخ أيضاً بعدة طرق عن غيرهما، كابن مسعود وعائشة.

أ. وروي عن الربيع بن أنس: أن الآية محكمة غير منسوخة، وإنما المراد بالمحاسبة ما يخبر الله العبد به يوم القيامة بأعماله التي عملها في الدنيا.

ب. وروي عن ابن عباس بطرق: أن الآية مخصوصة بكتمان الشهادة وأدائها، فهي محكمة غير منسوخة.

ج. وروي عن عائشة أيضاً: أن المراد بالمحاسبة ما يصيب الرجل من الغم والحزن إذا هم بالمعصية ولم يفعلها، فالآية أيضاً محكمة غير منسوخة.

د. وروي من طريق علي عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾: فذلك سرائرك وعلانيتك، ﴿يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾، فإنها لم تنسخ، ولكن الله إذا جمع الخلائق يوم القيامة يقول: إني أخبركم بما أخفيتم في أنفسكم مما لم تطلع عليه ملائكتي، فأما المؤمنون، فيخبرهم ويغفر لهم ما حدثوا به أنفسهم، وهو قوله: ﴿يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾، يقول: يخبركم، وأما أهل الشك والريب، فيخبرهم بما أخفوا من التكذيب، وهو قوله: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٤]

• أقول: والروايات على اختلافها في مضامينها مشتركة في أنها مخالفة لظاهر القرآن على ما تقدم: إن ظاهر الآية هو أن المحاسبة إنما تقع على ما كسبته القلوب، إما في نفسها، وإما من طريق الجوارح، وليس في الخطور النفساني كسب، ولا يتفاوت في ذلك الشهادة وغيرها، ولا فرق في ذلك بين المؤمن والكافر، وظاهر المحاسبة هو المحاسبة بالجزاء دون الإخبار بالخطورات والهمم النفسانية، فهذا ما تدل عليه الآية وتؤيده سائر الآيات على ما تقدم، وأما حديث النسخ خاصة، ففيه وجوه من الخلل توجب سقوطه عن الحجية:

• أولها: مخالفته لظاهر الكتاب على ما تقدم بيانه.

• ثانيها: اشتماله على جواز تكليف ما لا يطاق، وهو مما لا يرتاب العقل في بطلانه، ولا سيما منه تعالى، ولا ينفع في ذلك النسخ كما لا يخفى، بل ربما زاد إشكالاً على إشكال؛ فإن ظاهر قوله في الرواية: (فلما اقترأها القوم) أن النسخ إنما وقع قبل العمل، وهو محذور.

• ثالثها: أنك ستقف في الكلام على الآيتين التاليتين أن قوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، لا يصلح لأن يكون ناسخاً لشيء، وإنما يدل على أن كل نفس إنما يستقبلها ما كسبته، سواء شق ذلك عليها أو سهل، فلو حمل عليها ما لا تطيقه، أو حمل عليها إصراً كما حمل على الذين من قبلنا، فإنما هو أمر كسبته النفس بسوء اختيارها، فلا تلو من إلا نفسها، فالجملة، أعني قوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، كالمعترضة لدفع الدخل.

• رابعها: أنه سيجيء أيضاً أن وجه الكلام في الآيتين ليس إلى أمر الخطورات النفسانية أصلاً، ومواجهة الناسخ للمنسوخ مما لا بد منه في باب النسخ، بل قوله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ﴾ إلى آخر الآيتين مسوق لبيان غرض غير الغرض الذي سيق لبيانه قوله تعالى: ﴿لِلهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ إلى آخر الآية على ما سيأتي إن شاء الله.

١٤٤. إيمان الرسول والمؤمنين بجميع الرسل والتسليم لله:

المقطع [١٤٤] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢/ ٤٤٠»:

١. في الآية من الإجمال والتفصيل، والإيجاز ثم الإطناب، وأدب العبودية وجمع مجامع الكمال والسعادة عجائب.

٢. ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾، تصديق لإيمان الرسول والمؤمنين، وإنما أفرد رسول الله عنهم بالإيمان بما أنزل إليه من ربه ثم ألحقهم به تشريفا له، وهذا دأب القرآن في الموارد التي تناسب التشريف أن يكرم النبي بإفراده وتقديم ذكره ثم اتباع ذلك بذكر المؤمنين كقوله تعالى: ﴿فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾

٣. ﴿كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾، تفصيل للإجمال الذي تدل عليه الجملة السابقة، فإن ما أنزل إلى رسول الله يدعو إلى الإيمان وتصديق الكتب والرسل والملائكة الذين هم عباد مكرمون، فمن آمن بما أنزل على رسول الله ص فقد آمن بجميع ذلك، كل على ما يليق به.

٤. ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾، حكاية لقولهم من دون توسيط لفظ القول، وقد مر في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، النكتة العامة في هذا النحو من الحكاية، وأنه من أجمل السياقات القرآنية، والنكتة المختصة بالمقام مضافا إلى أن فيه تمثيلا لحالهم وقالهم أن هذا الكلام إنما هو كلام منتزع من خصوص حالهم في الإيمان بما أنزل الله تعالى، فهم لم يقولوه إلا بلسان حالهم، وإن كانوا قالوه فقد قاله كل منهم وحده وفي نفسه، وأما تكلمهم به لسانا واحدا فليس إلا بلسان الحال.

٥. من عجيب أمر السياق في هذه الآية ما جمع بين قولين محكيين منهم مع التفرقة في نحو الحكاية أعني قوله تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ الآية، حيث حكى البعض من غير توسيط القول والبعض الآخر بتوسيطه، وهما جميعا من قول المؤمنين في إجابة دعوة الداعي، والوجه في هذه التفرقة أن قولهم: ﴿لَا نُفَرِّقُ﴾ الآية مقول لهم بلسان حالهم بخلاف قولهم: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾

٦. بدأ تعالى بالإخبار عن حال كل واحد منهم على نعت الأفراد فقال: ﴿كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ ثم عدل إلى الجمع فقال: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ﴾ إلى آخر الآيتين، لأن الذي جرى من هذه الأمور في أهل الكتاب كان على نعت الجمع كما أن اليهود فرقت بين موسى وبين عيسى ومحمد، والنصارى فرقت بين موسى وعيسى، وبين محمد فانشعبوا شعبا وتحزبوا أحزابا وقد كان الله تعالى خلقهم أمة واحدة على الفطرة، وكذلك المؤاخذة والحمل والتحميل الواقع عليهم إنما وقعت على جماعتهم، وكذلك ما وقع في آخر الآية من سؤال النصرة على الكافرين، كل ذلك أمر مرتبط بالجماعة دون الفرد، بخلاف الإيمان فإنه أمر قائم بالفرد حقيقة.

٧. ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾:

أ. قولهم ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، إنشاء وليس بإخبار وهو كناية عن الإجابة إيمانا بالقلب وعملا بالجوارح، فإن السمع يكنى به لغة عن القبول والإذعان، والإطاعة تستعمل في الانقياد بالعمل فمجموع

السمع والإطاعة يتم به أمر الإيمان.

ب. ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ إيفاء لتمام ما على العبد من حق الربوبية في دعوتها، وهذا تمام الحق الذي جعله الله سبحانه لنفسه على عبده: أن يسمع ليطيع، وهو العبادة كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ﴾، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ وَأَنِ اعْبُدُونِي﴾

ج. جعل سبحانه في قبال هذا الحق الذي جعله لنفسه على عبده حقا آخر لعبده على نفسه وهو المغفرة التي لا يستغني عنه في سعادة نفسه أحد: الأنبياء والرسل فمن دونهم فوعدهم أن يغفر لهم إن أطاعوه بالعبودية كما ذكره أول ما شرع الشريعة لآدم وولده فقال: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، وليس إلا المغفرة.

د. القوم لما قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ وهو الإجابة بالسمع والطاعة المطلقين من غير تقييد فأوفوا الربوبية حقها سألوه تعالى حقهم الذي جعله لهم وهو المغفرة فقالوا عقيب قولهم ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾، والمغفرة والغفران: الستر، ويرجع مغفرته تعالى إلى دفع العذاب وهو ستر على نواقص مرحلة العبودية، ويظهر عند مصير العبد إلى ربه، ولذلك عقبوا قولهم: ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾ بقولهم: ﴿وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾

١٤٥. التكليف بالوسع ودعاء المؤمنين:

المقطع [١٤٥] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢/ ٤٤٤»:

١. ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾:

أ. الوسع هو الجدة والطاقة، والأصل في الوسع هو السعة المكانية ثم يتخيل لقدرة الإنسان شبه الظرفية لما يصدر عنه من الأفعال الاختيارية، فما يقدر عليه الإنسان من الأعمال كأنه تسعه قدرته، وما لا يقدر عليه لا تسعه فانطبق عليه معنى الطاقة، ثم سميت الطاقة وسعا فقيل: وسع الإنسان أي طاقته

وظرفية قدرته.

ب. عرفت: أن تمام حق الله تعالى على عبده: أن يسمع ويطيع، ومن البين أن الإنسان إنما يقول: (سمعت) فيما يمكن أن تقبله نفسه بالفهم، وأما ما لا يقبل الفهم فلا معنى لإجابته بالسمع والقبول، ومن البين أيضا أن الإنسان إنما يقول: (طاعة) فيما يقبل مطاوعة الجوارح وأدوات العمل، فإن الإطاعة هي مطاوعة الإنسان وتأثر قواه وأعضائه عن تأثير الأمر المؤثر مثلا، وأما ما لا يقبل المطاوعة كأن يؤمر الإنسان أن يسمع ببصره، أو يحل بجسمه أزيد من مكان واحد، أو يتولد من أبويه مرة ثانية فلا يقبل إطاعة ولا يتعلق بذلك تكليف مولوي، فأجابه داعي الحق بالسمع والطاعة لا تتحقق إلا فيما هو اختياري للإنسان تتعلق به قدرته، وهو الذي يكسب به الإنسان لنفسه ما ينفعه أو يضره، فالكسب نعم الدليل على أن ما كسبه الإنسان إنما وجده وتلبس به من طريق الوسع والطاقة.

ج. ظهر مما ذكرنا أن قوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ﴾، كلام جار على سنة الله الجارية بين عباده: أن لا يكلفهم ما ليس في وسعهم من الإيمان بما هو فوق فهمهم والإطاعة لما هو فوق طاقة قواهم، وهي أيضا السنة الجارية عند العقلاء وذوي الشعور من خلقه، وهو كلام ينطبق معناه على ما يتضمنه قوله حكاية عن الرسول والمؤمنين: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ من غير زيادة ولا نقيصة.

٢. الجملة أعني قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا﴾، متعلقة المضمون بما تقدمها وما تأخر عنها من الجمل المسرودة في الآيتين:

أ. أما بالنسبة إلى ما تقدمها فإنها تفيد: أن الله لا يكلف عباده بأزيد مما يمكنهم فيه السمع والطاعة وهو ما في وسعهم أن يأتوا به.

ب. وأما بالنسبة إلى ما تأخر عنها فإنها تفيد أن ما سأله النبي والمؤمنون من عدم المؤاخذة على الخطإ والنسيان، وعدم حمل الإصر عليهم، وعدم تحميلهم ما لا طاقة لهم به، كل ذلك وإن كانت أمورا حرجية لكنها ليست من التكليف بما ليس في الوسع، فإن الذي يمكن أن يحمل عليهم مما لا طاقة لهم به ليس من قبيل التكليف، بل من قبيل جزاء التمرد والمعصية، وأما المؤاخذة على الخطإ والنسيان فإنهما وإن كانا بنفسهما غير اختياريين لكنهما اختياريان من طريق مقدماتهما، فمن الممكن أن يمنع عنهما مانع بالمنع عن مقدماتهما أو بإيجاب التحفظ عنهما، وخاصة إذا كان ابتلاء الإنسان بهما مستندا إلى سوء الاختيار، ومثله

الكلام في حمل الإصر فإنه إذا استند إلى التشديد على الإنسان جزاء لتمرده عن التكاليف السهلة بتبديلها مما يشق عليه ويتحرج منه، فإن ذلك ليس من التكليف المنفي عنه تعالى غير الجائز عند العقل، لأنها مما اختاره الإنسان لنفسه بسوء اختياره فلا محذور في توجيهه إليه.

٣. ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾، لما قالوا في مقام إجابة الدعوة سمعنا وأطعنا وهو قول ينبئ عن الإجابة المطلقة من غير تقييد ثم التفتوا إلى ما عليه وجودهم من الضعف والفتور، والتفتوا أيضا إلى ما آل إليه أمر الذين كانوا من قبلهم وقد كانوا أمما أمثالهم استرحموا ربهم وسألوه أن لا يعاملهم معاملة من كان قبلهم من المؤاخذة والحمل والتحميل لأنهم علموا بما علمهم الله أن لا حول ولا قوة إلا بالله، وأن لا عاصم من الله إلا رحمته، والنبي ﷺ وإن كان معصوما من الخطإ والنسيان لكنه إنما يعتصم بعصمة الله ويصان به تعالى فصح له أن يسأل ربه ما لا يأمنه من نفسه، ويدخل نفسه لذلك في زمرة المؤمنين.

٤. ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾، الإصر هو الثقل على ما قيل، وقيل هو حبس الشيء بقهره، وهو قريب من المعنى الأول فإن في الحبس حمل الشيء على ما يكرهه ويثقل عليه، والمراد بالذين من قبلنا: هم أهل الكتاب وخاصة اليهود على ما تشير السورة إلى كثير من قصصهم، وعلى ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ الأعراف، ١٥٧.

٥. ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾، المراد بما لا طاقة لنا به ليس هو التكليف الابتدائي بما لا يطاق، إذ قد عرفت أن العقل لا يجوزه أبدا، وأن كلامه تعالى أعني ما حكاه بقوله: ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ يدل على خلافه بل المراد به جزاء السيئات الواصلة إليهم من تكليف شاق لا يتحمل عادة، أو عذاب نازل، أو رجز مصيب كالمسخ ونحوه.

٦. ﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾، العفو محو أثر الشيء، والمغفرة ستره، والرحمة معروفة، وأما بحسب المصداق فاعتبار المعاني اللغوية يوجب أن يكون سوق الجمل الثلاث من قبيل التدرج من الفرع إلى الأصل، وبعبارة أخرى من الأخص فائدة إلى الأعم، فعليها يكون العفو منه تعالى هو إذهاب أثر الذنب وإمحاؤه كالعقاب المكتوب على المذنب، والمغفرة هي إذهاب ما في النفس من هيئة الذنب والستر عليه، والرحمة هي العطية الإلهية التي هي الساترة على الذنب وهيئته.

٧. عطف هذه الثلاثة أعني قوله: ﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾ على قوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا

إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ على ما للجميع من السياق والنظم يشعر: بأن المراد من العفو والمغفرة والرحمة ما يتعلق بذنوبهم من جهة الخطإ والنسيان ونحوها، ومنه يظهر أن المراد بهذه المغفرة المسئولة هاهنا غير الغفران المذكور في قوله: ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾ فإنه مغفرة مطلقة في مقابلة الإجابة المطلقة على ما تقدم، وهذه مغفرة خاصة في مقابل الذنب عن نسيان أو خطأ فسؤال المغفرة غير مكرر.

٨. كرر لفظ الرب في هذه الأدعية أربع مرات لبعث صفة الرحمة بالإيماء والتلويح إلى صفة العبودية فإن ذكر الربوبية يخطر بالبال صفة العبودية والمذلة.

٩. ﴿أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾، استيناف ودعاء مستقل، والمولى هو الناصر لكن لا كل ناصر بل الناصر الذي يتولى أمر المنصور فإنه من الولاية بمعنى تولي الأمر، ولما كان تعالى وليا للمؤمنين فهو مولاهم فيما يحتاجون فيه إلى نصره، قال تعالى: ﴿وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾

١٠. هذا الدعاء منهم يدل على أنهم ما كان لهم بعد السمع والطاعة لأصل الدين هم إلا في إقامته ونشره والجهاد لإعلان كلمة الحق، وتحصيل اتفاق كلمة الأمم عليه، قال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، فالدعوة إلى دين التوحيد هو سبيل الدين وهو الذي يتعقب الجهاد والقتال والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وسائر أقسام الدعوة والإنذار، كل ذلك لحسم مادة الاختلاف من بين هذا النوع، ويشير إلى ما به من الأهمية في نظر شارع الدين قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾، فقولهم أنت مولانا فانصرنا يدل على جعلهم الدعوة العامة في الدين أول ما يسبق إلى أذهانهم بعد عقد القلب على السمع والطاعة.

سورة آل عمران

هذه السورة الكريمة تحتوي على [١٠٨] مقطعاً، وهذا تعريف بمقاصدها، ومحتويات مقاطعها:

مقاصد السورة ومحتوياتها:

أ. غرض السورة دعوة المؤمنين إلى توحيد الكلمة في الدين، والصبر والثبات في حماية حماه بتنبيههم بما هم عليه من دقة الموقف لمواجهتهم أعداء كاليهود والنصارى والمشركين وقد جمعوا جمعهم وعزموا عزمهم على إطفاء نور الله تعالى بأيديهم وبأفواههم.

ب. ويشبه أن تكون هذه السورة نازلة دفعة واحدة فإن آياتها وهي مائتا آية، ظاهرة الاتساق والانتظام من أولها إلى آخرها، متناسبة آياتها، مرتبطة أغراضها، ولذلك كان مما يترجح في النظر أن تكون السورة إنما نزلت على رسول الله ﷺ، وقد استقر له الأمر بعض الاستقرار ولما يتم استقراره، فإن فيها ذكر غزوة أحد، وفيها ذكر المباهلة مع نصارى نجران وذكراً من أمر اليهود، وحثاً على المشركين، ودعوة إلى الصبر والمصابرة والمرابطة، وجميع ذلك يؤيد أن السورة نزلت أيام كان المسلمون مبتلين بالدفاع عن حمى الدين بعامة قواهم وجميع أركانهم، فمن جانب كانوا يقاومون الفشل والفتور اللذين يدبان في داخل جماعتهم بفتنة اليهود والنصارى، ويحاجونهم ويجاوبونهم، ومن جانب كانوا يقاتلون المشركين، ويعيشون في حال الحرب وانسلاب الأمن، فقد كان الإسلام في هذه الأيام قد انتشر صيته فثارت الدنيا عليه من اليهود والنصارى ومشركي العرب، ووراء ذلك الروم والعجم وغيرهم.

ج. الله سبحانه يذكر المؤمنين في هذه السورة من حقائق دينه الذي هداهم به ما يطيب به نفوسهم، ويزول به رين الشبهات والوساوس الشيطانية وتسويلات أهل الكتاب عن قلوبهم، ويبين لهم: أن الله سبحانه لم يغفل عن تدبير ملكه، ولم يعجزه خلقه، وإنما اختار دينه وهدى جمعاً من عباده إليه على طريقة العادة الجارية، والسنة الدائمة، وهي سنة العلل والأسباب، فالمؤمن والكافر جاريان على سنة الأسباب، فيوم للكافر ويوم للمؤمن، فالدار دار الامتحان، واليوم يوم العمل، والجزاء غداً.

د. أحاديث وآثار: في المجمع عن الكلبي ومحمد بن إسحاق والربيع بن أنس: نزلت أوائل السورة إلى نيف وثمانين آية في وفد نجران، وكانوا ستين راكباً، قدموا على رسول الله ﷺ، وفيهم أربعة عشر رجلاً

من أشرافهم، وفي الأربعة عشر ثلاثة نفر يؤل إليهم أمرهم: العاقب أمير القوم وصاحب مشورتهم الذي لا يصدرون إلا عن رأيه، واسمه عبد المسيح؛ والسيد ثمالهم وصاحب رحلهم، واسمه الأيهم؛ وأبو حارثة بن علقمة أسقفهم وحبرهم وإمامهم وصاحب مدارسهم، وكان قد شرف فيهم ودرس كتبهم، وكانت ملوك الروم قد شرفوه ومولوه وبنوا له الكنائس لعلمه واجتهاده، فقدموا على رسول الله ﷺ المدينة ودخلوا مسجده حين صلى العصر، عليهم ثياب الحبرات: جبب وأردية، في جمال رجال بلحرث بن كعب، يقول بعض من رآهم من أصحاب رسول الله ﷺ: ما رأينا وفداً مثلهم، وقد حانت صلاتهم، فأقبلوا يضربون بالناقوس، وقاموا فصلوا في مسجد رسول الله ﷺ، فقالت الصحابة: يا رسول الله، هذا في مسجدك؟ فقال رسول الله ﷺ: دعوهم، فصلوا إلى المشرق، فكلم السيد والعاقب رسول الله ﷺ، فقال لهما رسول الله ﷺ: أسلما، قالا: قد أسلمنا قبلك، قال: كذبتما، يمنعكما من الإسلام دعاؤكما لله ولداً، وعبادتكما الصليب، وأكلكما الخنزير، قالا: إن لم يكن ولداً لله، فمن أبوه؟ وخاصموه جميعاً في عيسى، فقال لهما النبي ﷺ: ألستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا ويشبه أباه؟ قالوا: بلى، قال: ألستم تعلمون أن ربنا حي لا يموت، وأن عيسى يأتيه الفناء؟ قالوا: بلى، قال: ألستم تعلمون أن ربنا قيم على كل شيء ويحفظه ويرزقه؟ قالوا: بلى، قال: فهل يملك عيسى من ذلك شيئاً؟ قالوا: لا، قال: ألستم تعلمون أن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء؟ قالوا: بلى، قال: فهل يعلم عيسى من ذلك إلا ما علم؟ قالوا: لا، قال: فإن ربنا صور عيسى في الرحم كيف شاء، وربنا لا يأكل ولا يشرب ولا يحدث، قالوا: بلى، قال: ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة، ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها، ثم غذي كما يغذي الصبي، ثم كان يطعم ويشرب ويحدث؟ قالوا: بلى، قال: فكيف يكون هذا كما زعمتم؟ فسكتوا، فأنزل الله فيهم صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية.

• أقول: وروى هذا المعنى السيوطي في الدر المنثور عن أبي إسحاق وابن جرير وابن المنذر عن محمد بن جعفر بن الزبير، وعن ابن إسحاق عن محمد بن سهل بن أبي أمامة، أما القصة فسيجيء نقلها، وأما نزول أول السورة في ذلك فكأنه اجتهاد منهم، وقد تقدم أن ظاهر سياقها نزولها دفعة.

مقاطع السورة ونظمها:

١. الآيات [١ ـ ٦] لما كانت هذه الآيات الست في أول السورة على طريق براعة الاستهلال مشتملة

على إجمال ما تحتويه السورة من التفصيل، وقد مر ذكر غرض السورة، كانت هذه الآية بمنزلة تصدير الكلام بالبيان الكلي الذي يستنتج به الغرض، كما أن الآيتين الأخيرتين أعني قوله: ﴿إِنَّ اللهَّ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ﴾ الآية بمنزلة التعليل بعد البيان، وعلى هذا فالكلام الذي يتم به أمر براعة الاستهلال هما الآيتان المتوسطتان أعني قوله: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ وعلى هذا فيعود المعنى إلى أنه يجب على المؤمنين أن يتذكروا أن الله الذي آمنوا به واحد في ألوهيته قائم على الخلق والتدبير قيام حياة، لا يغلب في ملكه ولا يكون إلا ما شاء وأذن فيه فإنهم إذا تذكروا ذلك علموا أنه هو المنزل للكتاب الهادي إلى الحق، والفرقان المميز بين الحق والباطل، وأنه إنما جرى في ذلك على ما أجري عليه عالم الأسباب، وظرف الاختيار، فمن آمن فله أجره، ومن كفر فإن الله سيجزيه لأنه عزيز ذو انتقام، وذلك أنه الله الذي لا إله غيره حتى يحكم في هذه الجهات، ولا يخفى عليه أمرهم، ولا يخرج عن إرادته ومشيئته فعالهم وكفرهم.

٢. الآيات [٧ ـ ٩] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تذكر أن من القرآن آيات محكمات هن أم الكتاب، وأخر متشابهات، ويعلم تأويلها الراسخون في العلم الذين يقولون آمنا به كل من عند ربنا، وتذكر أنهم يسألون ربهم ألا يزيغ قلوبهم بعد إذ هداهم، ويهب لهم من لدنه رحمة، وهو وليهم وناصرهم.

٣. الآيات [١٠ ـ ١٨]:

أ. تقدم: أن المسلمين عند نزول السورة كانوا مبتلين في داخل جماعتهم بالمنافقين وآخرين سماعين لهم ولما يلقيه إليهم أعداء الإسلام من النزاعات والوساوس لتقليب الأمور عليهم وإفساد دعوتهم، ومبتلين في خارج جمعهم بثوران الدنيا عليهم وانتهاض المشركين واليهود والنصارى لإبطال دعوتهم وإخماد نارهم وإطفاء نورهم بأي وسيلة أمكنت من لسان أو يد، وأن غرض السورة دعوتهم إلى توحيد الكلمة وإلى الصبر والثبات ليصلح بذلك أمرهم وينقطع ما نشأ من الفساد في داخل جوهم، وما يطرأ ويهجم عليهم منه من خارجه.

ب. كانت الآيات السابقة، أعني قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَّ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾، تعريضاً للمنافقين والزائغين قلباً ودعوة للمسلمين إلى التثبت فيما فهموه من معارف الدين، والتسليم والإيمان فيما اشتبه لهم ولم يفتهموه من كنهه وحقيقته بالتنبيه على أن شر ما يفسد أمر الدين ويجر المسلمين إلى الفتنة واختلال نظام السعادة هو اتباع المتشابهات وابتغاء التأويل فيتحول

بذلك الهداية الدينية إلى الغي والضلال ويتبدل به الاجتماع افتراقاً، والشمل شتاتاً.

ج. وقع التعرض في هذه الآيات لحال الكفار والمشركين وأنهم سيغلبون وليسوا بمعجزين لله سبحانه ولا ناجحين في عتوهم بالتنبيه على أن الذي أوجب ضلالهم والالتباس عليهم هو ما زين لهم من مشتهيات الدنيا فزعموا بما رزقوا من مالها وولدها أن ذلك مغن لهم من الله سبحانه شيئاً وقد أخطئوا في زعمهم فالله سبحانه هو الغالب في أمره، ولو كان المال والأولاد وما أشبهها مغنية من الله شيئاً لأغنت آل فرعون ومن قبلهم من الأمم الظالمة أولي الشوكة والقدرة لكنها لم تغن عنهم شيئاً وأخذهم الله بذنوبهم فكذلك هؤلاء سيغلبون ويؤخذون فمن الواجب على المؤمنين أن يتقوا الله في هذه المشتهيات حتى ينالوا بذلك سعادة الدنيا وثواب الآخرة ورضوان ربهم سبحانه، فالآيات كما تعطيه مضامينها متعرضة لحال الكفار كما أن الآيات التالية لهذه الآيات متعرضة لحال أهل الكتاب من اليهود والنصارى على ما سيأتي.

٤. الآيات [١٩ ـ ٢٥] الآيات متعرضة لحال أهل الكتاب وهم آخر الفرق الثلاث التي تقدم أنها عرضة للكلام في هذه السورة، وأهمهم بحسب قصد الكلام أهل الكتاب من اليهود والنصارى، ففيهم وفي أمرهم نزل معظم السورة وإليهم يعود.

٥. الآيات [٢٦ ـ ٢٧] الآيتان لا تخلوان عن ارتباط بما تقدمها من الكلام في شأن أهل الكتاب وخاصة اليهود لاشتماله على وعيدهم وتهديدهم بعذاب الدنيا والآخرة ومن العذاب ما سلب الله عنهم الملك وضرب عليهم الذل والمسكنة إلى يوم القيامة وأخذ أنفاسهم وذهب باستقلالهم في السؤدد، على أن غرض السورة كما مر بيان أن الله سبحانه هو القائم على خلق العالم وتدبيره فهو مالك الملك يملك من يشاء ويعز من يشاء وبالجملة هو المعطي للخير لمن يشاء وهو الآخذ النازع للملك والعزة ولكل خير عمن يشاء فمضمون الآيتين غير خارج عن غرض السورة.

٦. الآيات [٢٧ ـ ٣٢] الآيات غير خالية عن الارتباط بما تقدمها بناء على ما ذكرناه في الآيات السابقة: أن المقام مقام التعرض لحال أهل الكتاب والمشركين والتعريض لهم، فالمراد بالكافرين إن كان يعم أهل الكتاب فهذه الآيات تنهى عن توليهم والامتزاج الروحي بالمشركين وبهم جميعاً، وإن كان المراد بهم المشركين فحسب فالآيات متعرضة لهم ودعوة إلى تركهم، والاتصال بحزب الله، وحب الله وطاعة رسوله.

٧. الآيات [٣٣ ـ ٣٤] افتتاح لقصص عيسى بن مريم وما يلحق بها وذكر حق القول فيها، والاحتجاج على أهل الكتاب فيها، وبالآيتين يرتبط ما بعدهما بما قبلهما من الآيات المتعرضة لحال أهل الكتاب.

٨. الآيات [٣٥ ـ ٤١] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تذكر قصة امرأة عمران حين نذرت ما في بطنها محرراً لله، فولدت مريم، وكفالة زكريا لها، وإجابة دعائه بالذرية الصالحة رغم كبر سنه وعقم زوجته، وولادة يحيى.

٩. الآيات [٤٢ ـ ٦٠] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تذكر اصطفاء الله لمريم وفضله عليها، وبشارتها بعيسى، وولادته من غير أب، وتذكر قصته مع بني إسرائيل، وإتيانه الآيات، ومحاولتهم قتله ورفعه إلى السماء، وردّ شبهتهم في صلبه، وتقرر أن عيسى عبد الله ورسوله.

١٠. الآيات [٦١ ـ ٦٣] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تدعو النبي ﷺ إلى المباهلة مع أهل الكتاب في شأن عيسى، وتقرر أن هذا هو القصص الحق، وأنهم إن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين.

١١. الآيات [٦٤ ـ ٧٨] شروع في المرحلة الثانية من البيان المتعرض لحال أهل الكتاب عامة والنصارى خاصة وما يلحق بذلك، فقد كانت الآيات فيما مر تعرضت لحال أهل الكتاب عامة بقوله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ﴾، وبقوله ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ﴾، ثم انعطف البيان إلى شأن النصارى خاصة بقوله: ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا﴾ الآية، وتعرضت في أثنائها لولاية المؤمنين للكافرين بقوله: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ﴾، فهذا في المرحلة البادئة، ثم عادت إلى بيان ما ذكرته ثانياً بلسان آخر ونظم دون النظم السابق فتعرضت لحال أهل الكتاب عامة في هذه الآيات المنقولة آنفاً، وما سيلحق بذلك من متفرقات بحسب مساس خصوصيات البيانات بذلك كقوله: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ﴾ الآية، وقوله: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ الآية، وتعرضت لحال النصارى وما تدعيه في أمر عيسى عليه السلام بقوله: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ﴾ الخ، وتعرضت لأمور ترجع إلى المؤمنين من دعوتهم إلى الإسلام والاتحاد والاتقاء من ولاية الكفار واتخاذ البطانة من دون المؤمنين في آيات كثيرة متفرقة.

١٢. الآيات [٧٩ ـ ٨٠] وقوع الآيات عقيب الآيات المرتبطة بأمر عيسى عليه السلام يفيد أنها

بمنزلة الفصل الثاني من الاحتجاج على براءة ساحة المسيح مما يعتقده في حقه أهل الكتاب من النصارى، والكلام بمنزلة قولنا: إنه ليس كما تزعمون فلا هو رب ولا أنه ادعى لنفسه الربوبية:

أ. أما الأول: فلأنه مخلوق بشري حملته أمه ووضعته وربته في المهد غير أنه لا أب له كآدم عليه السلام فمثله عند الله كمثل آدم.

ب. وأما الثاني: فلأنه كان نبياً أوتي الكتاب والحكم والنبوة والنبي الذي هذا شأنه لا يعدو طور العبودية ولا يتعرى عن زي الرقية فكيف يتأتى أن يقول للناس اتخذوني رباً وكونوا عباداً لي من دون الله، أو يجوز ذلك في حق غيره من عباد الله من ملك أو نبي فيعطي لعبد من عباد الله ما ليس له بحق، أو ينفي عن نبي من الأنبياء ما أثبت الله في حقه من الرسالة فيأخذ منه ما هو له من الحق.

١٣. الآيات [٨١ ـ ٨٥]:

أ. الآيات غير خالية عن الارتباط بما قبلها والسياق سياق واحد مستمر جار على وحدته وكأنه تعالى لما بين أن أهل الكتاب لم يزالوا يبغون فيما حملوه من علم الكتاب والدين يحرفون الكلم عن مواضعه، ويستغشون بتلبيس الأمر على الناس والتفرقة بين النبيين وإنكار آيات نبوة رسول الله ﷺ، ونفي أن يكون نبي من الأنبياء كموسى وعيسى عليه السلام يأمرهم باتخاذ نفسه أو غيره من النبيين والملائكة أرباباً على ما هو صريح قول النصارى، وظاهر قول اليهود.

ب. شدد النكير عليهم في ذلك بأنه كيف يتأتى ذلك، وقد أخذ الله الميثاق من النبيين أن يؤمنوا بكل نبي يأتيهم ممن تقدمهم أو تأخر عنهم وينصروه، وذلك بتصديق كل منهم لمن تقدم عليه من الأنبياء، وتبشيره بمن تأخر عنه كتصديق عيسى عليه السلام لموسى وشريعته، وتبشيره بمحمد ﷺ وكذا أخذه تعالى الميثاق منهم أن يأخذوا العهد على ذلك من أممهم وأشهدهم عليهم، وبين أن هذا هو الإسلام الذي شمل حكمه من في السماوات والأرض.

ج. ثم أمر نبيه أن يجري على هذا الميثاق جري قبول وطاعة فيؤمن بالله وبجميع ما أنزله على أنبيائه من غير تفرقة بينهم، وأن يسلم لله سبحانه، وأن يأتي بذلك عن نفسه وعن أمته، وهو معنى أخذ الميثاق منه بلا واسطة ومن أمته بواسطته كما سيجيء بيانه.

١٤. الآيات [٨٦ ـ ٩١] اختلف في علاقة الآية الكريمة بما قبلها:

أ. الآيات ممكنة الارتباط بما تقدمها من الكلام على أهل الكتاب.

ب. وإن كان يمكن أن تستقل بنفسها وتنفصل عما تقدمها، وهو ظاهر.

ج. ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾، الاستفهام يفيد الاستبعاد والإنكار، والمراد به استحالة الهداية، وقد ختم الآية بقوله: ﴿وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾، وقد مر في نظير هذه الجملة أن الوصف مشعر بالعلية أي لا يهديهم مع وجود هذا الوصف فيهم، وذلك لا ينافي هدايته لهم على تقدير رجوعهم وتوبتهم منه.

١٥. الآيات [٩٢ ـ ٩٥]:

أ. ارتباط الآية الأولى بما قبلها غير واضح، ومن الممكن أن لا تكون نازلة في ضمن بقية الآيات التي لا غبار على ارتباط بعضها ببعض، وقد عرفت نظير هذا الإشكال في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا﴾ الآية، من حيث تاريخ النزول.

ب. ربما يقال: إن الخطاب في الآية موجه إلى بني إسرائيل، ولا يزال موجهاً إليهم، ومحصل المعنى بعد ما مر من توبيخهم ولومهم على حب الدنيا وإيثار المال والمنال على دين الله: أنكم كاذبون في دعواكم أنكم منسوبون إلى الله سبحانه وأنبيائه وأنكم أهل البر والتقوى، فإنكم تحبون كرائم أموالكم وتبخلون في بذلها ولا تنفقون منها إلا الردي الذي لا تتعلق به النفوس مما لا يعبأ بزواله وفقده مع أنه لا ينال البر إلا بإنفاق الإنسان ما يحبه من كرائم ماله، ولا يفوت الله سبحانه حفظه، هذا محصل ما قيل: وفيه تمحل ظاهر!.، وأما بقية الآيات فارتباطها بالبيانات السابقة ظاهر لا غبار عليه.

١٦. الآيات [٩٦ ـ ٩٧] الآيتان جواب عن شبهة أخرى كانت اليهود توردها على المؤمنين من جهة النسخ، وهي ما حدث في أمر القبلة بتحويلها من بيت المقدس إلى الكعبة، وقد مر في تفسير قوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ الآية أن تحويل القبلة كان من الأمور الهامة التي كانت له تأثيرات عميقة مادية ومعنوية في حياة أهل الكتاب وخاصة اليهود، مضافاً إلى كونه مخالفاً لمذهبهم من النسخ، ولذلك طالت المشاجرات والمشاغبات بينهم وبين المسلمين بعد نزول حكم القبلة إلى أمد بعيد.

١٧. الآيات [٩٨ ـ ١٠١]:

أ. الآيات كما ترى باتصال السياق تدل على أن أهل الكتاب (فريق منهم وهم اليهود أو فريق من

اليهود) كانوا يكفرون بآيات الله، ويصدون المؤمنين عن سبيل الله بإراءتهم إياه عوجاً غير مستقيم، وتمثيل سبيل الضلال المعوج المنحرف سبيلاً لله، وذلك بإلقاء شبهات إلى المؤمنين يرون بها الحق باطلاً، والباطل الذي يدعونهم إليه حقاً، والآيات السابقة تدل على ما انحرفوا فيه من إنكار حلية كل الطعام قبل التوراة، وإنكار نسخ استقبال بيت المقدس، فهذه الآيات متممات للآيات السابقة المتعرضة لحل الطعام قبل التوراة، وكون الكعبة أول بيت وضع للناس فهي تشتمل على الإنكار والتوبيخ لليهود في إلقائهم الشبهات وتفتينهم المؤمنين في دينهم، وتحذير للمؤمنين أن يطيعوهم فيما يدعون إليه فيكفروا بالدين، وترغيب وتحريض لهم أن يعتصموا بالله فيهتدوا إلى صراط الإيمان وتدوم هدايتهم.

ب. ورد عن زيد بن أسلم كما رواه السيوطي في لباب النقول، على ما قيل: أن شاش بن قيس، وكان يهودياً، مر على نفر من الأوس والخزرج يتحدثون، فغاظه ما رأى من تألفهم بعد العداوة، فأمر شاباً معه من اليهود أن يجلس بينهم، فيذكرهم يوم بعاث ففعل، فتنازعوا وتفاخروا، حتى وثب رجلان، أوس بن قرظي من الأوس، وجبار بن صخر من الخزرج فتقاولا وغضب الفريقان، وتواثبوا للقتال فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فجاء، حتى وعظهم وأصلح بينهم فسمعوا وأطاعوا، فأنزل الله في أوس وجبار: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ الآية، وفي شاش بن قيس: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ الآية، والرواية مختصرة مستخرجة مما رواه في الدر المنثور، عن زيد بن أسلم مفصلاً وروي ما يقرب منها عن ابن عباس وغيره.

ج. كيف كان، الآيات أقرب انطباقاً على ما ذكرنا منها على الرواية كما هو ظاهر، على أن الآيات يذكر الكفر والإيمان، وشهادة اليهود، وتلاوة آيات الله على المؤمنين، ونحو ذلك، وكل ذلك لما ذكرناه أنسب، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾، فالحق كما ذكرنا أن الآيات متممة لسابقتها.

١٨. الآيات [١٠٢ ـ ١١٠] الآيات من تتمة ما خاطب به المؤمنين بالتحذير من أهل الكتاب وتفتينهم، وأن عندهم ما يمكنهم أن يعتصموا به فلا يضلوا ولا يسقطوا في حفر المهالك، وهي مع ذلك كلام اعتقبه كلام، ولا تغير السياق السابق أعني أن التعرض لحال أهل الكتاب لم يختتم بعد، والدليل على ذلك قوله تعالى بعد هذه الآيات: ﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى﴾

١٩. الآيات [١١ ـ ١٢٠] الآيات الكريمة، كما ترى، تنعطف إلى ما كان الكلام فيه قبل من التعرض لحال أهل الكتاب وخاصة اليهود في كفرهم بآيات الله وإغوائهم أنفسهم، وصدهم المؤمنين عن سبيل الله، وإنما كانت الآيات العشر المتقدمة من قبيل الكلام في طي الكلام، فاتصال الآيات على حاله.

٢٠. الآيات [١٢١ ـ ١٢٩] رجوع إلى ما بدأت به السورة من تنبيه المؤمنين بما هم عليه من الموقف الصعب، وتذكيرهم بنعم الله عليهم من إيمان ونصر وكفاية، وتعليمهم ما يسبقون به إلى شريف مقصدهم، وهدايتهم إلى ما يسعدون به في حياتهم وبعد مماتهم، وفيها قصة غزوة أحد، وأما الآيات المشيرة إلى غزوة بدر فإنها هي من قبيل الضميمة المتممة ومحلها محل شاهد القصة وليست مقصودة بالأصالة على ما سيجيء.

٢١. الآيات [١٣٠ ـ ١٣٨]:

أ. آيات داعية إلى الخير، زاجرة عن الشر والسوء، وهي مع ذلك لا تفقد الاتصال بما قبلها ولا ما بعدها من الآيات الشارحة لقصة غزوة أحد، وبيان ما كان في المؤمنين يومئذ من مساوئ الحالات والخصال المذمومة التي لا يرتضيها الله سبحانه، وهي الموجبة لما دب فيهم من الوهن والضعف ومعصية الله ورسوله، فالآيات من تتمة الآيات النازلة في غزوة أحد، ثم هدايتهم إلى ما يأمنون به الوقوع في هذه الورطات المهلكة، والعقبات المردية ودعوتهم إلى تقوى الله والثقة به والثبات على طاعة الرسول، فهذه الآيات التسع خاصة فيها ترغيب وتحذير، فهي ترغب المؤمنين على المسارعة إلى الخير وهي الإنفاق في سبيل الله في السراء والضراء، وكظم الغيظ والعفو عن الناس، ويجمعها بث الإحسان والخير في المجتمع، والصبر على تحمل الأذى والسوء، والصفح عن الإساءة قبالة الإساءة، فهذه هي الطريقة الوحيدة التي تستحفظ بها حياة المجتمع ويشد بها عظمه فيقوم على ساق.

ب. من لوازم هذا الإنفاق والإحسان ترك الربا ولذلك بدأ به، وهو كالتوطئة للدعوة إلى الإحسان والإنفاق، فقد مر في آيات الإنفاق والربا من سورة البقرة أن الإنفاق بجميع طرقه من أعظم ما يعتمد عليه بنية المجتمع، وأنه الذي ينفخ روح الوحدة في المجتمع الإنساني فتتحد به قواه المتفرقة فتنال بذلك سعادته في الحياة، ويقوى به على دفع كل آفة مهلكة أو موذية تقصده، وإن الربا من أعظم ما يضاد الإنفاق في خاصته هذه، فهذا ما يرغبهم الله فيه ثم يرغبهم في أن لا ينقطعوا عن ربهم بقواطع الذنوب والمعاصي فإن

أتوا بها لا يرضاه لهم ربهم تداركوه بالتوبة والرجوع إليه ثانياً وثالثاً من غير أن يكسلوا أو يتوانوا، وبهذين الأمرين يستقيم سيرهم في صراط الحياة السعيدة فلا يضلون ولا يقفون فيهلكون.

ج. هذا البيان كما ترى أحسن طريق يهدي به الإنسان إلى تكميل نفسه بعد ظهور النقص وأجود سبيل في علاج الرذائل النفسانية التي ربما دبت في النفوس المحلاة بالفضائل فأورثت السفال والسقوط وهددت بالهلكة والردى.

د. تعليم القرآن وقرانه العلم بالعمل، من دأب القرآن في تعليمه الإلهي، إذ لم يزل يجعل في مدة نزولها، وهي ثلاث وعشرون سنة، لكليات تعاليمه مواد أولية حتى إذا عمل بشيء منها أخذ صورة العمل الواقع مادة لتعليمهم ثانياً فألقاها إليهم بعد إصلاح الفاسد من أجزائه وتركيبه بالصحيح الباقي، وذم الفاسد، والثناء على الصحيح المستقيم والوعد الجميل والشكر الجزيل لفاعله، فكتاب الله العزيز كتاب علم وعمل لا كتاب فرض وتقدير، ولا كتاب تعمية وتقليد، فمثله مثل المعلم يلقي إلى تلامذته الكليات العلمية في أوجز بيان وأقصر لفظ ويأمرهم بالعمل بها ثم يأخذ ما عملوه ثانياً ويحلله إلى أوائل أجزائه من صحيح وفاسد فيبين لهم موارد النقص والقصور مشفعة بالعظة والوعيد، ويمدح موارد الاستقامة والصحة ويقارنها بالوعد والشكر ويأمرهم بالعمل ثانياً، وهذا فعاله حتى يكملوا في فنهم ويسعدوا في جدهم.

هـ. هذا الذي ذكرناه من الحقائق القرآنية اللائحة للمتدبر الدقيق في بادئ مرة فتراه سبحانه ينزل كليات الجهاد مثلاً في آياته بادئ مرة: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾، ويأمر المؤمنين به فيها ثم يأخذ قصة بدر ثانياً ويأمرهم بما يبين لهم فيها ثم قصة أحد ثم قصة أخرى وهكذا، وتراه سبحانه يقص قصص السابقين من الأنبياء وأممهم ثم يجعلها بعد إصلاحها وبيان وجه الحق فيها عبرة للاحقين ودستوراً لعملهم وهكذا، وقد نزل في هذه الآيات من هذا القبيل قوله: ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ﴾ الآيات.

٢٢. الآيات [١٣٩ ـ ١٤٨] الآيات كما ترى تتمة للآيات السابقة المبتدئة بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، كما أن الآيات السابقة بأوامرها ونواهيها توطئة لهذه الآيات التي تشتمل على أصل المقصود من أمر ونهي وثناء وتوبيخ.

٢٣. الآيات [١٤٩ ـ ١٥٥] من تتمة الآيات النازلة في خصوص غزوة أحد، وفيها حث وترغيب للمؤمنين أن لا يطيعوا غير ربهم فإنه هو مولاهم وناصرهم، وإشهاد لهم على صدق وعده وأن الهزيمة والخذلان لم يكن يوم أحد إلا من قبل أنفسهم، وتعديهم حدود ما أمرهم الله به ودعاهم رسوله إليه وأن الله سبحانه مع ذلك عفا عن جرائمهم لأنه غفور حليم.

٢٤. الآيات [١٥٦ ـ ١٦٤]:

أ. الآيات من تتمة الآيات النازلة في خصوص غزوة أحد أيضاً، وهي تتضمن التعرض لأمر آخر عرض لهم، وهو الأسف والحسرة الواردة في قلوبهم من قتل رجالاتهم وسراة قومهم، ومعظم المقتولين كانوا من الأنصار فما قتل من المهاجرين، على ما قيل، إلا أربعة، وهذا يقوي الحدس أن معظم المقاومة كانت من ناحية الأنصار، وأن الهزيمة أسرعت إلى المهاجرين قبلهم.

ب. بالجملة الآيات تبين ما في هذا الأسف والحسرة من الخطإ والخبط، وتعطف على أمر آخر يستتبعه هذا الأسف والتحسر وهو سوء ظنهم برسول الله ﷺ، وأنه هو الذي أوردهم هذا المورد وألقاهم في هذه التهلكة كما يشير إليه قولهم على ما تلوح إليه هذه الآيات: ﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ الآية، وقول المنافقين فيما سيجيء: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ الآية، أي أطاعونا ولم يطيعوا رسول الله ﷺ فهو الذي أهلكهم، فهي تبين أنه ﷺ ليس له أن يخون أحداً بل هو رسول منه تعالى شريف النفس كريم المحتد عظيم الخلق يلين لهم برحمة من الله، ويعفو عنهم ويستغفر لهم ويشاورهم في الأمر منه تعالى، وأن الله من به عليهم ليخرجهم من الضلال إلى الهدى.

٢٥. الآيات [١٦٥ ـ ١٧١] الآيات من تتمة الآيات النازلة في خصوص غزوة أحد، وفيه تعرض لحال عدة من المنافقين خذلوا جماعة المؤمنين عند خروجهم من المدينة إلى أحد، وفيها جواب ما قالوه في المقتولين، ووصف حال المستشهدين بعد القتل وأنهم منعمون في حضرة القرب يستبشرون بإخوانهم من خلفهم.

٢٦. الآيات [١٧٢ ـ ١٧٥] الآيات من تتمة الآيات النازلة في خصوص غزوة أحد، وفيه تعرض لحال عدة من المنافقين خذلوا جماعة المؤمنين عند خروجهم من المدينة إلى أحد، وفيها جواب ما قالوه في المقتولين، ووصف حال المستشهدين بعد القتل وأنهم منعمون في حضرة القرب يستبشرون بإخوانهم من

خلفهم.

٢٧. الآيات [١٧٦ ـ ١٨٠] الآيات مرتبطة بما تقدم من الآيات النازلة في غزوة أحد فكأنها وخاصة الآيات الأربع الأول منها تتمة لها لأن أهم ما تتعرض له تلك الآيات قضية الابتلاء والامتحان الإلهي لعباده، وعلى ذلك فهذه الآيات بمنزلة الفذلكة لآيات أحد يبين الله سبحانه فيها أن سنة الابتلاء والامتحان سنة جارية لا مناص عنها في كافر ولا مؤمن، فالله سبحانه مبتليهما ليخرج ما في باطن كل منهما إلى ساحة الظهور فيتمحض الكافر للنار ويتميز الخبيث من الطيب في المؤمن.

٢٨. الآيات [١٨١ ـ ١٨٩] الآيات مرتبطة بما قبلها، فقد كانت عامة الآيات السابقة في استنهاض الناس وترغيبهم على الجهاد في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، وتحذيرهم عن الوهن والفشل والبخل فيرتبط بها قول اليهود: إن الله فقير ونحن أغنياء، وتقليبهم الأمر على المسلمين، وتكذيبهم آيات الرسالة، وكتمانهم ما أخذ منهم الميثاق لبيانه، وهذه هي التي تتعرض الآيات لبيانها مع ما فيها من تقوية قلوب المؤمنين على الاستقامة والصبر والثبات، والتحريض على الإنفاق في سبيل الله.

٢٩. الآيات [١٩٠ ـ ١٩٩]:

أ. ثم ذكر تعالى حديث ملكه للسماوات والأرض، وقدرته على كل شيء، وهذان الوصفان يصلحان لتعليل مضامين جميع ما تقدم من الآيات.

ب. الآيات بمنزلة تلخيص ما تقدم من بيان حال المؤمنين والمشركين وأهل الكتاب في هذه السورة، بيان أن حال أبرار المؤمنين هو ذكر الله سبحانه، والتفكر في آياته والاستجارة بالله من عذاب النار، وسؤال المغفرة والجنة، وأن الله استجاب لهم وسيرزقهم ما سألوه، هذه عامة حالهم، وأن الذين كفروا حالهم أنهم يتقلبون في متاع قليل ثم لهم مهاد النار فلا يقاس حال المؤمنين بحالهم، وقد استثنى منهم المتبعين للحق من أهل الكتاب فهم مع المؤمنين.

٣٠. الآيات [٢٠٠] الآية بمنزلة الفذلكة لتفصيل البيان الوارد في السورة، وفيه تخلص منه بأخذ النتيجة وإعطائها.

١. الله الحي القيوم وإنزال الكتب والهداية:

المقطع [١] من سورة آل عمران، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿الم اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ

نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ [آل عمران: ١ـ٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٣/ ٦»:

١. ﴿اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾، قد مر الكلام فيه في تفسير آية الكرسي، وتحصل من هناك أن المراد به بيان قيامه تعالى أتم القيام على أمر الإيجاد والتدبير، فنظام الموجودات بأعيانها وآثارها تحت قيمومة الله لا مجرد قيمومة التأثير كالقيمومة في الأسباب الطبيعية الفاقدة للشعور بل قيمومة حياة تستلزم العلم والقدرة، فالعلم الإلهي نافذ فيها لا يخفى عليه شيء منها والقدرة مهيمنة عليها لا يقع منها إلا ما شاء وقوعه وأذن فيه، ولذلك عقبه بقوله بعد آيتين: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾

٢. ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾:

أ. مر أن التنزيل يدل على التدريج كما أن الإنزال يدل على الدفعة، وربما ينقض ذلك بقول: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾، وبقوله تعالى: ﴿أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً﴾، وقوله تعالى: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ﴾، وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً﴾

ب. ولذلك ذكر بعض المفسرين: أن الأولى أن يقال: إن معنى ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾: أنزله إنزالا بعد إنزال دفعا للنقض، والجواب: أن المراد بالتدريج في النزول ليس هو تخلل زمان معتد به بين نزول كل جزء من أجزاء الشيء وبين جزئه الآخر بل الأشياء المركبة التي توجد بوجود أجزائها لوجودها نسبة إلى مجموع الأجزاء وبذلك يصير الشيء أمرا واحدا غير منقسم، والتعبير عنه من هذه الجهة بالنزول كقوله تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ وهو الغيث، ونسبته من حيث وجوده بوجود أجزائه واحدا بعد واحد سواء تخلل بينهما زمان معتد به أو لم يتخلل وهو التدريج، والتعبير عنه بالتنزيل كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾

ج. ومن هنا يظهر: أن الآيات المذكورة للنقض غير ناقضة، فإن المراد بقوله تعالى: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ الآية: أن ينزل عليه القرآن آية بعد آية في زمان متصل واحد من غير تخلل زمان معتد به كما كان عليه الأمر في نزول القرآن في الشئون والحوادث والأوقات المختلفة، وبذلك يظهر الجواب عن

بقية الآيات المذكورة، وأما ما ذكره البعض المزبور فهو على أنه استحسان غير جائز في اللغة البتة، لا يدفع شيئا من النقض بالآيات المذكورة، بل هي بحالها وهو ظاهر.

د. جرى كلامه تعالى أن يعبر عن إفاضة الكتاب على النبي ﷺ بالتنزيل والنزول، والنزول يستلزم مقاما أو مكانا عاليا رفيعا يخرج منه الشيء نوعا من الخروج ويقصد مقاما أو مكانا آخر أسفل فيستقر فيه، وقد وصف نفسه تعالت ذاته بالعلو ورفعة الدرجات وقد وصف كتابه أنه من عنده، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ﴾، فصح بذلك استعمال لفظ النزول في مورد استقرار الوحي في قلب رسول الله ﷺ، وقد ذكروا أن الحق هو الخبر من حيث إن بحذائه خارجا ثابتا كما أن الصدق هو الخبر من حيث إنه مطابق للخارج، وعلى هذا فإطلاق الحق على الأعيان الخارجية والأمور الواقعية كما يطلق على الله سبحانه: أنه حق، وعلى الحقائق الخارجية أنها حقة إنما هو من جهة أن كلا منها حق من جهة الخبر عنها، وكيف كان فالمراد بالحق في الآية: الأمر الثابت الذي لا يقبل البطلان.

هـ. الظاهر أن الباء في قوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾ للمصاحبة والمعنى: نزل عليك الكتاب تنزيلا يصاحب الحق ولا يفارقه، فيوجب مصاحبة الحق أن لا يطرأ عليه ولا يخالطه باطل فهو في أمن من جهة ظهور الباطل عليه، ففي قوله: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ استعارة بالكناية، وقد قيل في معنى الباء وجوه أخر لا يخلو عن سقم.

و. التصديق من الصدق يقال صدقت مقالا كذا أي قررته على الصدق واعترفت بكونه صدقا وصدقت فلانا أي اعترفت بصدقه فيما يخبر به.

٣. المراد مما بين يديه التوراة والإنجيل كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى﴾ إلى أن قال: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى﴾ إلى أن قال: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ﴾ الآية، والكلام لا يخلو عن دلالة على أن ما بأيدي اليهود والنصارى من التوراة والإنجيل لا يخلو عن بعض ما أنزله الله على موسى وعيسى عليه السلام، وإن كانا لا يخلوان عن السقط والتحريف، فإن الدائر بينهم في عصر رسول الله ﷺ هو التوراة الموجودة اليوم والأناجيل الأربعة المشهورة، فالقرآن يصدق التوراة والإنجيل الموجودين، لكن في الجملة لا بالجملة لمكان الآيات الناطقة بالتحريف والسقط فيهما قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ إلى أن قال ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ إلى أن قال ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ الآية.

٤. ﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ﴾:

أ. التوراة كلمة عبرانية بمعنى الشريعة، والإنجيل لفظ يوناني، وقيل فارسي الأصل معناه البشارة، وسيجيء استيفاء البحث عن الكتابين في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ الآيات.

ب. مما أصر عليه القرآن تسمية كتاب عيسى عليه السلام بالإنجيل بصيغة الإفراد والقول بأنه نازل من عند الله سبحانه مع أن الأناجيل كثيرة، والمعروفة منها أعني الأناجيل الأربعة كانت موجودة قبل نزول القرآن وفي عهده، وهي التي ينسب تأليفها إلى لوقا ومرقس ومتى ويوحنا، ولا يخلو ما ذكرناه من إفراد الاسم والتوصيف بالنزول عن دلالة على التحريف والإسقاط، وكيف كان لا يخلو ذكر التوراة والإنجيل في هذه الآية وفي أول السورة من التعريض لليهود والنصارى على ما سيذكره من أمرهم وقصص تولد عيسى ونبوته ورفعه.

٥. ﴿وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾:

أ. الفرقان ما يفرق به بين الحق والباطل على ما في الصحاح، واللفظ بمادته يدل على الأعم من ذلك، وهو كل ما يفرق به بين شيء وشيء، قال تعالى: ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾، وقال تعالى: ﴿يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾، وإذا كان الفرق المطلوب عند الله فيما يرجع إلى معنى الهداية هو الفرق بين الحق والباطل في العقائد والمعارف وبين وظيفة العبد وما ليس بوظيفة له بالنسبة إلى الأعمال الصادرة عنه في الحياة الدنيا انطبق معناه على مطلق المعارف الأصلية والفرعية التي أنزلها الله تعالى على أنبيائه بالوحي، أعم من الكتاب وغيره، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ﴾، وقال تعالى ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾، وقد عبر تعالى عن هذا المعنى بالميزان في قوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾، وهو في وزان قوله: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾فالميزان كالفرقان هو الدين الذي يحكم بين الناس

بالعدل مع ما ينضم إليه من المعارف ووظائف العبودية.

ب. ﴿وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾، قيل: المراد بالفرقان القرآن، وقيل: الدلالة الفاصلة بين الحق والباطل، وقيل: الحجة القاطعة لرسول الله ﷺ على من حاجه في أمر عيسى، وقيل النصر، وقيل: العقل، والوجه ما قدمناه.

٦. ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ذُوانْتِقامٍ﴾:

أ. الانتقام على ما قيل مجازاة المسيء على إساءته، وليس من لازم المعنى أن يكون للتشفي، فإن ذلك من لوازم الانتقامات التي بيننا حيث إن إساءة المسيء يوجب منقصة وضررا في جانبنا فنتدارك ذلك بالمجازاة الشديدة التي توجب تشفي قلوبنا، وأما هو تعالى فأعز ساحة من أن ينتفع أو يتضرر بشيء من أعمال عباده لكنه وعد، وله الوعد الحق، أن سيقضي بين عباده بالحق إن خيرا فخيرا وإن شرا فشرا، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾، وقال تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أساؤوا بِما عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾، كيف وهو عزيز على الإطلاق منيع الجانب من أن ينتهك محارمه، وقد قيل إن الأصل في معنى العزة الامتناع.

ب. ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾، من حيث إطلاق العذاب وعدم تقييده بالآخرة أو يوم القيامة ربما تضمن الوعيد بالعذاب في الدنيا كما في الآخرة، وهذا من الحقائق القرآنية التي ربما قصر الباحثون في استيفاء البحث عنه وليس ذلك إلا لكوننا لا نعد شيئا عذابا إلا إذا اشتمل على شيء من الآلام الجسمانية، أو نقص أو فساد في النعم المادية كذهاب الأموال وموت الأعزة ونقاهة الأبدان، مع أن الذي يعطيه القرآن بتعليمه أمر وراء ذلك.

٧. وضع هنا مبحثا حول [معنى العذاب في القرآن: بين السعادة المادية والسعادة الروحية]، خلاصته:

أ. القرآن يعد معيشة الناسي لربه ضنكاً، ويعد الأموال والأولاد عذاباً، وإن كنا نعدها نعمة، لأن السرور والغم يدوران حول ما يراه الإنسان سعادة أو شقاوة.

ب. النعمة والعذاب يختلفان باختلاف ما ينسبان إليه: للروح سعادة، وللجسم سعادة، وللحيوان شيء، وللإنسان شيء آخر.

ج. الإنسان المادي يرى السعادة المادية فقط، ولا يعبأ بسعادة الروح، فيتعلق بالمال والجاه، ويكون ما يناله محفوفاً بالآلام، فلا يصفو له عيش.

د. القرآن يرى أن الإنسان مؤلف من روح خالد وبدن مادي، فما كان فيه سعادة الروح محضاً (كالعلم) فهو سعادة، وما كان فيه سعادة الجسم والروح معاً (كالمال والبنين مع ذكر الله) فهو نعمة، وما كان فيه سعادة الجسم وشقاء الروح فهو شقاء وعذاب.

هـ. القرآن يسمي سعادة الجسم فقط (متاعاً قليلاً)، وما فيه شقاء الجسم والروح معاً يعده عذاباً.

و. السعادة والشقاوة يتقومان بالشعور والإدراك، فتعليم القرآن يختلف عن مسلك المادة، ويهدف إلى تعلق القلب بالله.

ز. الإنسان المتعلق بالدنيا سوف يطلع على خبطه، وتنقلب سعادته المظنونة شقاوة.

ح. القرآن لا يستنكف عن تسمية الشقاء الجسماني عذاباً، لكنه عذاب في مرحلة الجسم دون الروح.

٢. علم الله المحيط وتصويره في الأرحام:

المقطع [٢] من سورة آل عمران، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ٥-٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٣/ ١٤»:

١. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ علل تعالى عذاب الذين كفروا بآياته بأنه عزيز ذو انتقام لكن لما كان هذا التعليل لا يخلو عن حاجة إلى ضميمة تنضم إليه ليتم المطلوب فإن العزيز ذا الانتقام يمكن أن يخفى عليه كفر بعض من كفر بنعمته فلا يبادر بالعذاب والانتقام، فعقب لذلك الكلام بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ﴾، فبين أنه عزيز لا يخفى عليه شيء ظاهر على الحواس ولا غائب عنها، ومن الممكن أن يكون المراد مما في الأرض وما في السماء الأعمال الظاهرة القائمة بالجوارح والخفية الكامنة في القلوب على حد ما نبهنا عليه في قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ الآية.

٢. ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾:

أ. التصوير إلقاء الصورة على الشيء والصورة تعم ما له ظل كالتمثال وما لا ظل له، والأرحام جمع رحم وهو مستقر الجنين من الإناث، وهذه الآية في معنى الترقي بالنسبة إلى ما سبقها من الآيتين، فإن محصل الآيتين: أن الله تعالى يعذب الذين كفروا بآياته لأنه العزيز المنتقم العالم بالسر والعلانية فلا يغلب في أمره، بل هو الغالب، ومحصل هذه الآية أن الأمر أعظم من ذلك، ومن يكفر بآياته ويخالف عن أمره أذل وأوضع من أن يكفر باستقلال من نفسه واعتماد على قدرته من غير أن يأذن الله في ذلك فيغلب هو على أمره تعالى، ويبطل النظام الأحسن الذي نظم الله سبحانه عليه الخلقة فتظهر إرادته على إرادة ربه، بل الله سبحانه هو أذن له في ذلك، بمعنى أنه نظم الأمور نوع نظم يؤدي إلى وجود الاختيار في الإنسان، وهو الوصف الذي يمكنه به ركوب صراط الإيمان والطاعة أو التزام طريق الكفر والمعصية، ليتم بذلك أمر الفتنة والامتحان، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، وما يشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين، فما من كفر ولا إيمان ولا غيرهما إلا عن تقدير، وهو نظم الأشياء على نحو يتيسر لكل شيء ما يتوجه إليه من مقاصده التي سوف يستوفيها بعمله بتصويره بصورته الخاصة التي تمهد له السلوك إلى ما يسلك إليفالله سبحانه هو الغالب على أمره القاهر في إرادته المهيمن على خلقه، يظن الإنسان أنه يفعل ما يشاء ويتصرف فيما يريد، ويقطع بذلك النظم المتصل الذي نظمه الله في الكون فيسبق التقدير، وهذا بعينه من القدر.

ب. هذا هو المراد بقوله: ﴿يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾، أي ينظم أجزاء وجودكم في بدء الأمر على نحو يؤدي إلى ما يشاؤه في ختمه مشية إذن لا مشية حتم، وإنما خص الكلام بالتقدير الجاري في الإنسان ولم يذكر التقدير العام الجاري في العالم كله لينطبق على المورد، ولما مر أن في الآيات تعريضا للنصارى في قولهم في المسيح عليه السلام والآيات منتهية إلى ما هو الحق من أمره، فإن النصارى لا ينكرون كينونته عليه السلام في الرحم وأنه لم يكون نفسه.

ج. التعميم بعد التخصيص في الخطاب أعني قوله: ﴿يُصَوِّرُكُمْ﴾ بعد قوله: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ﴾، للدلالة على أن إيمان المؤمنين أيضا ككفر الكافرين غير خارج عن حكم القدر، فتطيب نفوسهم بالرحمة والموهبة الإلهية في حق أنفسهم، ويتسلوا بما سمعوه من أمر القدر ومن أمر الانتقام فيما يعظم عليهم من كفر الكافرين.

٣. ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، فيه عود إلى ما بدئ به الكلام في الآيات من التوحيد، وهو

بمنزلة تلخيص الدليل للتأكيد، فإن هذه الأمور المذكورة أعني هداية الخلق بعد إيجادهم، وإنزال الكتاب والفرقان، وإتقان التدبير بتعذيب الكافرين أمور لا بد أن تستند إلى إله يدبرها وإذ لا إله إلا الله تعالى شأنه فهو الذي يهدي الناس وهو الذي ينزل الكتاب والفرقان، وهو يعذب الكافرين بآياته، وإنما يفعل ما يفعل من الهداية والإنزال والانتقام والتقدير بعزته وحكمته.

٤. وضع هنا مبحثا حول [تفسير الروايات الواردة في خلق الإنسان وتكوينه في بطن أمه، وبيان العلاقة بين الأسباب المعنوية والمادية]، خلاصته:

أ. بيان معنى حديث (الشقي من شقي في بطن أمه، والسعيد من سعد في بطن أمه)، وأنه يشير إلى سبق النشأة الدنيوية بنشأة أخرى هي عالم الذر والميثاق.

ب. شرح مراحل تكوين الجنين كما وردت في الرواية، من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى نفخ الروح.

ج. توضيح معنى (الروح القديمة المنقولة في أصلاب الرجال وأرحام النساء) وأنها الروح النباتية التي تترقى إلى الروح الإنساني.

د. بيان دور الملكين الخلاقين في كتابة القضاء والقدر، ومعنى اشتراط البداء في الكتابة.

هـ. تفسير معنى (اللوح الذي يقرع جبهة الأم) ودلالته على اتصال الجنين بأمه بعد انفصاله عن أبيه.

و. الرد على الإشكال في نسبة التفاصيل التكوينية إلى الله والملائكة مع وجود الأسباب الطبيعية، وبيان أن الأسباب المعنوية والمادية في طول بعضها لا في عرضها.

٣. المحكم أم الكتاب والمتشابه ابتلاء للزائغين:

المقطع [٣] من سورة آل عمران، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٣/ ٢٠»:

١. ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾، عبر تعالى بالإنزال دون التنزيل لأن المقصود بيان بعض أوصاف مجموع الكتاب النازل وخواصه، وهو أنه مشتمل على آيات محكمة وأخر متشابهة ترجع إلى

المحكمات وتبين بها، فالكتاب مأخوذ بهذا النظر أمرا واحدا من غير نظر إلى تعدد وتكثر فناسب استعمال الإنزال دون التنزيل.

٢. ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ﴾:

أ. مادة حكم تفيد معنى كون الشيء بحيث يمنع ورود ما يفسده أو يبعضه أو يخل أمره عليه، ومنه الإحكام والتحكيم، والحكم بمعنى القضاء، والحكمة بمعنى المعرفة التامة والعلم الجازم النافع، والحكمة بفتح الحاء لزمام الفرس، ففي الجميع شيء من معنى المنع والإتقان، وربما قيل: إن المادة تدل على معنى المنع مع إصلاح.

ب. المراد هاهنا من إحكام المحكمات إتقان هذه الآيات من حيث عدم وجود التشابه فيها كالمتشابهات، فإنه تعالى وإن وصف كتابه بإحكام الآيات في قوله: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾، لكن اشتمال الآية على ذكر التفصيل بعد الإحكام دليل على أن المراد بالإحكام حال من حالات الكتاب كان عليها قبل النزول وهي كونه واحدا لم يطرأ عليه التجزي والتبعض بعد بتكثر الآيات، فهو إتقانه قبل وجود التبعض، فهذا الإحكام وصف لتمام الكتاب، بخلاف وصف الإحكام والإتقان الذي لبعض آياته بالنسبة إلى بعض آخر من جهة امتناعها عن التشابه في المراد، وبعبارة أخرى لما كان قوله تعالى: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ مشتملا على تقسيم آيات الكتاب إلى قسمي المحكم والمتشابه علمنا به أن المراد بالإحكام غير الإحكام الذي وصف به جميع الكتاب في قوله: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ الآية وكذا المراد بالتشابه فيه غير التشابه الذي وصف به جميع الكتاب في قوله: ﴿كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ﴾

٣. وصف الله تعالى المحكمات بأنها أم الكتاب، والأم بحسب أصل معناه ما يرجع إليه الشيء، وليس إلا أن الآيات المتشابهة ترجع إليها فالبعض من الكتاب وهي المتشابهات ترجع إلى بعض آخر وهي المحكمات ومن هنا يظهر أن الإضافة في قوله ﴿أُمِّ الْكِتَابِ﴾ ليست لامية كقولنا: أم الأطفال، بل هي بمعنى من، كقولنا نساء القوم وقدماء الفقهاء ونحو ذلك، فالكتاب يشتمل على آيات هي أم آيات أخر، وفي إفراد كلمة الأم من غير جمع دلالة على كون المحكمات غير مختلفة في أنفسها بل هي متفقة مؤتلفة.

٤. قوبلت المحكمات في الآية بقوله: ﴿وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾، والتشابه توافق أشياء مختلفة واتحادها

في بعض الأوصاف والكيفيات، وقد وصف الله سبحانه جميع القرآن بهذا الوصف حيث قال: ﴿كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ الآية، والمراد به لا محالة كون آيات الكتاب ذات نسق واحد من حيث جزالة النظم، وإتقان الأسلوب، وبيان الحقائق والحكم، والهداية إلى صريح الحق كما تدل عليه القيود المأخوذة في الآية، فهذا التشابه وصف لجميع الكتاب، وأما التشابه المذكور في هذه الآية، أعني قوله: ﴿وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾، فمقابلته لقوله: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾، وذكر اتباع الذين في قلوبهم زيغ لها ابتغاء الفتنة وابتغاء التأويل، كل ذلك يدل على أن المراد بالتشابه كون الآية بحيث لا يتعين مرادها لفهم السامع بمجرد استماعها بل يتردد بين معنى ومعنى حتى يرجع إلى محكمات الكتاب فتعين هي معناها وتبينها بيانا، فتصير الآية المتشابهة عند ذلك محكمة بواسطة الآية المحكمة، والآية المحكمة محكمة بنفسها:

أ. كما أن قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾، يشتبه المراد منه على السامع أول ما يسمعه، فإذا رجع إلى مثل قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، استقر الذهن على أن المراد به التسلط على الملك والإحاطة على الخلق دون التمكن والاعتماد على المكان المستلزم للتجسم المستحيل على الله سبحانه.

ب. وكذا قوله تعالى: ﴿إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، إذا أرجع إلى مثل قوله: ﴿لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ وَهُوَيُدْرِكُ الْأَبْصارَ﴾، علم به أن المراد بالنظر غير النظر بالبصر الحسي، وكذا إذا عرضت الآية المنسوخة على الآية الناسخة تبين أن المراد بها حكم محدود بحد الحكم الناسخ وهكذا.

٥. هذا ما يتحصل من معنى المحكم والمتشابه، ويتلقاه الفهم الساذج من مجموع قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾، فإن الآية محكمة بلا شك ولو فرض جميع القرآن غيرها متشابها، ولو كانت هذه الآية متشابهة عادت جميع آيات القرآن متشابهة وفسد التقسيم الذي يدل عليه قوله: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ﴾.، وبطل العلاج الذي يدل عليه قوله: ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾، ولم يصدق قوله: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾، ولم يتم الاحتجاج الذي يشتمل عليه قوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن القرآن نور وهدى وتبيان وبيان ومبين وذكر ونحو ذلك.

٦. على أن كل من يرعى نظره في آيات القرآن من أوله إلى آخره لا يشك في أن ليس بينها آية لها

مدلول وهي لا تنطق بمعناها وتضل في مرادها، بل ما من آية إلا وفيها دلالة على المدلول: إما مدلول واحد لا يرتاب فيه العارف بالكلام، أو مداليل يلتبس بعضها ببعض، وهذه المعاني الملتبسة لا تخلو عن حق المراد بالضرورة وإلا بطلت الدلالة كما عرفت، وهذا المعنى الواحد الذي هو حق المراد لا محالة لا يكون أجنبيا عن الأصول المسلمة في القرآن كوجود الصانع وتوحيده وبعثة الأنبياء وتشريع الأحكام والمعاد ونحو ذلك، بل هو موافق لها وهي تستلزمه وتنتجه وتعين المراد الحق من بين المداليل المتعددة المحتملة، فالقرآن بعضه يبين بعضا، وبعضه أصل يرجع إليه البعض الآخر.

٧. ثم إن هذا الناظر إذا عثر بعد هذه النظرة على قوله تعالى: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾، لم يشك في أن المراد بالمحكمات هي الآيات المتضمنة للأصول المسلمة من القرآن وبالمتشابهات الآيات التي تتعين وتتضع معانيها بتلك الأصول.

٨. سؤال وإشكال: رجوع الفروع إلى الأصول مما لا ريب فيه فيما كان هناك أصول متعرقة وفروع متفرقة سواء فيه المعارف القرآنية وغيرها، لكن ذلك لا يستوجب حصول التشابه، فما وجه ذلك؟

والجواب: وجهه أحد أمرين، فإن المعارف التي يلقيها القرآن على قسمين:

أ. فمنها معارف عالية خارجة عن حكم الحس والمادة، والأفهام العادية لا تلبث دون أن تتردد فيها بين الحكم الجسماني الحسي وبين غيره كقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾، وقوله: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾، فيتبادر منها إلى الذهن المستأنس بالمحسوس من الأحكام معان هي من أوصاف الأجسام وخواصها، وتزول بالرجوع إلى الأصول التي تشتمل على نفي حكم المادة والجسم عن المورد، وهذا مما يطرد في جميع المعارف والأبحاث غير المادية والغائبة عن الحواس، ولا يختص بالقرآن الكريم بل يوجد في غيره من الكتب السماوية بما تشتمل عليه من المعارف العالية من غير تحريف، ويوجد أيضا في المباحث الإلهية من الفلسفة، وهو الذي يشير إليه القرآن بلسان آخر في قوله تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ الآية، وقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾

ب. ومنها ما يتعلق بالنواميس الاجتماعية والأحكام الفرعية، واشتمال هذا القسم من المعارف على الناسخ والمنسوخ بالنظر إلى تغير المصالح المقتضية للتشريعات ونحوها من جهة، ونزول القرآن نجوما من جهة أخرى يوجب ظهور التشابه في آياتها، ويرتفع التشابه بإرجاع المتشابه إلى المحكم، والمنسوخ إلى

الناسخ.

٩. لا يغسل رين الزيغ من القلوب ولا يسد طريق ابتغاء الفتنة اللذين منشؤهما الركون إلى الدنيا والإخلاد إلى الأرض واتباع الهوى إلا ذكر يوم الحساب كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾، ولذلك ترى الراسخين في العلم المتأبين تأويل القرآن بما لا يرتضيه ربهم يشيرون إلى ذلك في خاتمة مقالهم حيث يقولون: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾

١٠. اختلف في سبب كون الآيات المحكمة أم الكتاب:

أ. ذكر جماعة: أن كون الآيات المحكمة أم الكتاب كونها أصلا في الكتاب عليه تبتني قواعد الدين وأركانها فيؤمن بها، ويعمل بها وليس الدين إلا مجموعا من الاعتقاد والعمل، وأما الآيات المتشابهة فهي لتزلزل مرادها وتشابه مدلولها لا يعمل بها بل إنما يؤمن بها إيمانا، وأنت بالتأمل فيما تقدم من الأقوال تعلم أن هذا لازم بعض الأقوال المتقدمة، وهي التي ترى أن المتشابه إنما صار متشابها لاشتماله على تأويل يتعذر الوصول إليه وفهمه، أو أن المتشابه يمكن حصول العلم به ورفع تشابهه في الجملة أو بالجملة بالرجوع إلى عقل أو لغة أو طريقة عقلائية يستراح إليها في رفع الشبهات اللفظية.

ب. وقال آخرون: إن معنى أمومة المحكمات رجوع المتشابهات إليها، وكلامهم مختلف في تفسير هذا الرجوع فظاهر بعضهم: أن المراد بالرجوع هو قصر المتشابهات على الإيمان والاتباع العملي في مواردها للمحكم كالآية المنسوخة يؤمن بها ويرجع في موردها إلى العمل بالناسخة، وهذا القول لا يغاير القول الأول كثير مغايرة، وظاهر بعض آخر أن معناها كون المحكمات مبينة للمتشابهات، رافعة لتشابهها.

ج. والحق هو المعنى الثالث، فإن معنى الأمومة الذي تدل عليه قوله: ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ الآية يتضمن عناية زائدة وهو أخص من معنى الأصل الذي فسرت به الأم في القول الأول، فإن في هذه اللفظة، أعني لفظة الأم عناية بالرجوع الذي فيه انتشاء واشتقاق وتبعض، فلا تخلو اللفظة عن الدلالة على كون المتشابهات ذات مداليل ترجع وتتفرع على المحكمات، ولازمه كون المحكمات مبينة للمتشابهات، على أن المتشابه إنما كان متشابها لتشابه مراده لا لكونه ذا تأويل، فإن التأويل كما مر يوجد للمحكم كما يوجد للمتشابه، والقرآن يفسر بعضه بعضا، فللمتشابه مفسر وليس إلا المحكم، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿إِلَى رَبِّهَا

نَاظِرَةٌ﴾، فإنه آية متشابهة، وبإرجاعها إلى قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، وقوله تعالى ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾، يتبين: أن المراد بها نظرة ورؤية من غير سنخ رؤية البصر الحسي، وقد قال تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى﴾ إلى أن قال ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾، فأثبت للقلب رؤية تخصه، وليس هو الفكر فإن الكفر إنما يتعلق بالتصديق والمركب الذهني والرؤية إنما تتعلق بالمفرد العيني، فيتبين بذلك أنه توجه من القلب ليست بالحسية المادية ولا بالعقلية الذهنية، والأمر على هذه الوتيرة في سائر المتشابهات.

١١. وضع هنا مبحثا حول [المحكم والمتشابه والتأويل: بحث تفصيلي في المعنى والمصاديق]، خلاصته:

أ. الخلاف في المحكم والمتشابه نشأ من الخلط بين البحث عنهما وبين البحث عن معنى التأويل.

ب. الأقوال في تفسير المحكم والمتشابه تجاوزت العشرة، معظمها فاسد أو ناقص، والصحيح أن المحكم ما لا تشابه في مراده، والمتشابه ما تشابه مراده ويحتاج إلى ردّه إلى المحكم.

ج. المحكمات هي ﴿أُمّ الْكِتَابِ﴾ التي ترجع إليها المتشابهات لتتبين،:

د. التأويل ليس تفسيراً أو معنى خلاف الظاهر، بل هو الحقيقة الواقعية التي يستند إليها الكلام، وهي أمر خارجي نسبتُه إلى الكلام نسبة الممثل إلى المثل.

هـ. التأويل موجود لجميع الآيات (محكمها ومتشابهها)، وليس مختصاً بالمتشابه.

و. الآية ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ﴾ تدل على حصر علم التأويل بالله، لكن لا ينافي أن يُعلمه الله لمن ارتضى من رسله أو المطهرين.

ز. الراسخون في العلم لا يعلمون التأويل بكونهم راسخين، بل الطهارة الإلهية هي التي تمكن من مسّ الكتاب المكنون.

ح. اشتمال القرآن على المتشابه ضروري، لأن المعارف الإلهية تُلقى على سبيل الأمثال، وتكرار القصص والأمثال يزيل الإبهام.

ط. للقرآن مراتب مختلفة من المعنى، تختلف بحسب مراتب الناس في العمل والعلم.

ي. القرآن يجري في كل مورد يتحد مع مورد النزول ملاكاً، وهو ما يسمى (جري القرآن)

١٢. وضع هنا مبحثا حول [تفسير آية المتشابهات والزيغ، وبيان معنى التأويل في القرآن]، خلاصته:

أ. بيان معنى الزيغ في الآية، وأنه ميل القلب واضطرابه، وأن اتباع المتشابه المذموم هو اتباعه عملاً دون ردّه إلى المحكم.

ب. تفسير ابتغاء الفتنة بأنه طلب إضلال الناس، وابتغاء التأويل بأنه محاولة الوصول إلى مرجع الأحكام لنسخ الدين من أصله.

ج. توضيح أن التأويل في القرآن ليس هو المعنى المخالف لظاهر اللفظ، بل هو أمر خارجي عيني يرجع إليه الكلام.

د. الاستدلال على معنى التأويل من قصة موسى والخضر عليهما السلام، ومن قصة يوسف عليه السلام، ومن آيات الأحكام والقيامة.

هـ. إثبات أن التأويل يشمل جميع آيات القرآن (محكمها ومتشابهها)، ولا يختص بالمتشابه فقط.

و. نقد المعاني المولدة للتأويل التي نشأت بعد نزول القرآن، وبيان عدم دليل عليها.

١٣. ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ﴾:

أ. ظاهر الكلام رجوع الضمير إلى ما تشابه، لقربه كما هو الظاهر أيضا في قوله: ﴿وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾، وقد عرفت أن ذلك لا يستلزم كون التأويل مقصورا على الآيات المتشابهة، ومن الممكن أيضا رجوع الضمير إلى الكتاب كالضمير في قوله: ﴿مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾

ب. ظاهر الحصر كون العلم بالتأويل مقصورا عليه سبحانه، وأما قوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾، فظاهر الكلام أن الواو للاستئناف بمعنى كونه طرفا للترديد الذي يدل عليه قوله في صدر الآية: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾، والمعنى: أن الناس في الأخذ بالكتاب قسمان: فمنهم من يتبع ما تشابه منه ومنهم من يقول إذا تشابه عليه شيء منه: ﴿آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾، وإنما اختلفا لاختلافهم من جهة زيغ القلب ورسوخ العلم.

ج. على أنه لو كان الواو للعطف وكان المراد بالعطف تشريك الراسخين في العلم بالتأويل كان منهم رسول الله ﷺ وهو أفضلهم وكيف يتصور أن ينزل القرآن على قلبه وهو لا يدري ما أريد به ومن

دأب القرآن إذا ذكر الأمة أو وصف أمر جماعة وفيهم رسول الله ﷺ أن يفرده بالذكر أولا ويميزه بالشخص تشريفا له وتعظيما لأمره ثم يذكرهم جميعا كقوله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾، وقوله تعالى: ﴿لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾، وقوله تعالى: ﴿لَا يُخْزِي اللهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾، إلى غير ذلك، فلو كان المراد بقوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾، أنهم عالمون بالتأويل، ورسول الله ﷺ منهم قطعا، كان حق الكلام كما عرفت أن يقال: وما يعلم تأويله إلا الله ورسوله والراسخون في العلم، هذا وإن أمكن أن يقال: إن قوله في صدر الآية: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾،يدل على كون النبي عالما بالكتاب فلا حاجة إلى ذكره ثانيا.

د. فالظاهر أن العلم بالتأويل مقصور في الآية عليه تعالى، ولا ينافي ذلك ورود الاستثناء عليه كما أن الآيات دالة على انحصار علم الغيب عليه تعالى مع ورود الاستثناء عليه كما في قوله تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾، ولا ينافيه أيضا كون المستثنى الراسخين في العلم بعينهم، إذ لا منافاة بين أن تدل هذه الآية على شأن من شئون الراسخين في العلم، وهو الوقوف عند الشبهة والإيمان والتسليم في مقابل الزائغين قلبا وبين أن تدل آيات أخر على أنهم أو بعضا منهم عالمون بحقيقة القرآن وتأويل آياته على ما سيجيء بيانه.

١٤. ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾، الرسوخ هو أشد الثبات، ووقوع الراسخين في العلم في مقابلة الذين في قلوبهم زيغ ثم توصيفهم بأنهم يقولون آمنا به كل من عند ربنا يدل على تمام تعريفهم، وهو أن لهم علما بالله وبآياته لا يدخله ريب وشك، فما حصل لهم من العلم بالمحكمات ثابت لا يتزلزل، وهم يؤمنون به ويتبعونه أي يعلمون به وإذا وردت عليهم آية متشابهة لم يوجب تشابهها اضطراب قلوبهم فيما عندهم من العلم الراسخ بل آمنوا بها وتوقفوا عن اتباعها عملا.

١٥. في قولهم: ﴿آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ ذكر الدليل والنتيجة معا فإن كون المحكم والمتشابه جميعا من عند الله تعالى يوجب الإيمان بالكل: محكمه ومتشابهه، ووضوح المراد في المحكم يوجب اتباعه عملا، والتوقف في المتشابه من غير رده لأنه من عند الله ولا يجوز اتباع ما ينافي المحكم من معانيه المتشابهة لسطوع البيان في المحكم فيجب أن يتبع من معانيه المحتملة ما يوافق معنى المحكم، وهذا بعينه إرجاع

المتشابه إلى المحكم فقوله: ﴿كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ بمنزلة الدليل على الأمرين جميعا، أعني: الإيمان والعمل في المحكم، والإيمان فقط في المتشابه والرجوع في العمل إلى المحكم.

١٦. ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾، التذكر هو الانتقال إلى دليل الشيء لاستنتاجه، ولما كان قولهم: ﴿كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ كما مر استدلالا منهم وانتقالا لما يدل على فعلهم سماه الله تعالى تذكرا ومدحهم به، والألباب جمع لب وهو العقل الزكي الخالص من الشوائب، وقد مدحهم الله تعالى مدحا جميلا في موارد من كلامه، وعرفهم بأنهم أهل الإيمان بالله والإنابة إليه واتباع أحسن القول، ثم وصفهم بأنهم على ذكر من ربهم دائما فأعقب ذلك أنهم أهل التذكر أي الانتقال إلى المعارف الحقة بالدليل وأهل الحكمة والمعرفة، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾، وهذا الذكر الدائم وما يتبعه من التذلل والخضوع هو الإنابة الموجبة لتذكرهم بآيات الله وانتقالهم إلى المعارف الحقة كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾، وقد قال: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾

٤. دعاء الراسخين وثباتهم على الهدى:

المقطع [٤] من سورة آل عمران، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٨-٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٣/ ٣٠»:

١. ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ هذا من آثار رسوخهم في العلم فإنهم لما علموا بمقام ربهم، وعقلوا عن الله سبحانه أيقنوا أن الملك لله وحده وأنهم لا يملكون لأنفسهم شيئا فمن الجائز أن يزيغ قلوبهم بعد رسوخ العلم فالتجئوا إلى ربهم، وسألوه أن لا يزيغ قلوبهم بعد إذ هداهم، وأن يهب لهم من لدنه رحمة تبقي لهم هذه النعمة ويعينهم على السير في صراط الهداية والسلوك في مراتب القرب.

٢. أما سؤال أن يهبهم رحمة بعد سؤال أن لا يزيغ قلوبهم فلأن عدم إزاغة القلب لا يستلزم بقاء

الرسوخ في العلم، فمن الجائز أن لا يزاغ قلوبهم وينتزع عنها العلم فتبقى سدى مهملة لا سعداء بالعلم ولا أشقياء بالإزاغة بل في حال الجهل والاستضعاف، وهم في حاجة مبرمة إلى ما هم عليه من العلم، ومع ذلك لا تقف حاجتهم في ما هم عليه من الموقف بل هم سائروا طريق يحتاجون فيه إلى أنواع من الرحمة لا يعلمها ولا يحصيها إلا الله سبحانه، وهم مستشعرون بحاجتهم هذه والدليل عليه قولهم بعد: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾:

أ. فقولهم: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾، استعاذة من نزول الزيغ إلى قلوبهم وإزاحته العلم الراسخ الذي فيها.

ب. وقولهم: ﴿وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ استمطار لسحاب الرحمة حتى تدوم بها حياة قلوبهم وتنكير الرحمة، وتوصيفها بكونها من لدنه إظهار منهم الجهل بشأن هذه الرحمة، وأنها كيف ينبغي أن تكون غير أنهم يعلمون أنه لولا رحمة من ربهم ولولا كونها من لدنه لم يتم لهم أمر.

٣. في الاستعاذة من الزيغ إلى الله محضا واستيهاب الرحمة من لدنه محضا دلالة على أنهم يرون تمام الملك لله محضا من غير توجه إلى أمر الأسباب.

٤. ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾، هذا منهم بمنزلة التعليل لسؤال الرحمة، وذلك لعلمهم بأن إقامة نظام الخلقة ودعوة الدين وكدح الإنسان في مسير وجوده كل ذلك مقدمة لجمعهم إلى يوم القيامة الذي لا يغني فيه ولا ينصر أحد إلا بالرحمة كما قال تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ﴾، ولذلك سألوا رحمة من ربهم وفوضوا تعيينها وتشخيصها إليه لينفعهم في أمرهم.

٥. وصفوا هذا اليوم بأنه لا ريب فيه ليتجه بذلك كمال اهتمامهم بالسؤال والدعاء، وعللوا هذا التوصيف أيضا بقولهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ لأن شأنهم الرسوخ في العلم، ولا يرسخ العلم بشيء ولا يستقر تصديق إلا مع العلم بعلته المنتجة، وعلة عدم ارتيابهم في تحقق هذا اليوم هو ميعاد الله سبحانه به فذكروه.

٦. نظير هذا الوجه جار في تعليلهم قولهم: ﴿وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾ بقولهم: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ فكونه تعالى وهابا يعلل به سؤالهم الرحمة، وإتيانهم بلفظة أنت وتعريف الخبر باللام المفيد

للحصر يعلل به قولهم: ﴿مِنْ لَدُنْكَ﴾، الدال على الاختصاص، وكذا يجري مثل الوجه في قولهم: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾، حيث عقبوه بما يجري مجرى العلة بالنسبة إليه، وهو قولهم: ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾، وقد مر آنفا أن قولهم: ﴿آمَنَّا بِهِ﴾، من حيث تعقيبه بقولهم: ﴿كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾، من هذا القبيل أيضا، فهؤلاء رجال آمنوا بربهم وثبتوا عليه فهداهم الله سبحانه، وكمل عقولهم فلا يقولون إلا عن علم ولا يفعلون إلا عن علم فسماهم الله تعالى راسخين في العلم، وكنى عنهم بأولى الألباب.

٧. إذا تدبرت ما عرف الله به أولي الألباب وجدته منطبقا على ما ذكره من شأنهم في هذه الآيات، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوها وَأَنابُوا إِلَى اللهِ لَهُمُ الْبُشْرى فَبَشِّرْ عِبادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولئِكَ الَّذِينَ هَداهُمُ اللهُ وَأُولئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبابِ﴾، فوصفهم بالإيمان واتباع أحسن القول، والإنابة إلى الله سبحانه، وقد وصف بهذه الأوصاف الراسخين في العلم في هذه الآيات.

٨. الالتفات من الخطاب إلى الغيبة في قوله: ﴿إِنَّ اللهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعادَ﴾ لأن هذا الميعاد لا يختص بهم بل يعمهم وغيرهم فكان الأولى تبديل قولهم: ﴿رَبَّنَا﴾، إلى لفظة الجلالة لأن حكم الألوهية عام شامل لكل شيء.

٩. وضع هنا مبحثا حول [تفسير المحكم والمتشابه، والراسخون في العلم، والنهي عن التفسير بالرأي]، خلاصته:

أ. بيان معنى المحكم والمتشابه في الروايات، وأن المتشابه قابل للارتفاع بردّه إلى المحكم.

ب. تفسير الراسخين في العلم، وأنهم آل محمد عليهم السلام، مع بيان معنى رسوخ العلم وعلاماته.

ج. توضيح أن للقرآن ظهراً وبطناً وحدّاً ومطلعاً، وأن هذه الأوصاف نسبية، وأن للقرآن مراتب من المعاني بحسب مراتب أهل الإيمان.

د. بيان أن النهي عن التفسير بالرأي إنما هو نهي عن الطريق لا عن المكشوف، أي عن تفسير القرآن ككلام غيره دون الاستمداد من القرآن نفسه.

هـ. إبطال الأقوال العشرة في تفسير (التفسير بالرأي)، وبيان أن التحقيق هو أن المنهي عنه هو الاستقلال في التفسير دون الرجوع إلى القرآن كله.

و. الرد على من يوجب الاقتصار على أقوال الصحابة والتابعين، وبيان أن القرآن بيان لنفسه، وأن طريق فهمه غير مسدود.

ز. الجمع بين الأحاديث الدالة على بعد القرآن عن العقول، والأحاديث الآمرة بالتدبر فيه، بأن المتعين هو الاستمداد بالقرآن على فهمه.

٥. عدم إغناء الأموال والأولاد عن الكفار يوم القيامة:

المقطع [٥] من سورة آل عمران، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللهِّ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللهُّ بِذُنُوبِهِمْ وَاللهُّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [آل عمران: ١٠-١١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٣/ ٨٨»:

١. ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللهِّ شَيْئًا﴾:

أ. أغنى عنه ماله من فلان أي أعطاه الغنى ورفع حاجته فلا حاجة به إليه، والإنسان في بادي تكونه وشعوره يرى نفسه محتاجة إلى الخارج منه، وهذا أول علمه الفطري إلى احتياجه إلى الصانع المدبر ثم إنه لما توسط في الأسباب وأحس بحوائجه بدأ بإحساس الحاجة إلى كماله البدني النباتي وهو الغذاء والولد، ثم عرفت له نفسه سائر الكمالات الحيوانية، وهي التي يزينوا له الخيال من زخارف الدنيا من زينة الملبس والمسكن والمنكح وغير ذلك، وعندئذ يتبدل طلب الغذاء إلى طلب المال الذي يظنه مفتاحا لحل جميع مشكلات الحياة لأن العادة الغالبة تجري على ذلك فيظن أن سعادة حيوته في المال والولد بعد ما كان يظن أن ضامن سعادته هو الغذاء والولد، ثم انكباب نفسه على مشتهياته، وقصر همه على الأسباب يوجب أن يقف قلبه عند الأسباب، ويعطي لها الاستقلال، وحينئذ ينسى ربه، ويتشبث بذيل المال والولد، وفي هذا الجهل هلاكه فإنه يستر به آيات ربه ويكفر بها، وقد التبس عليه الأمر فإن ربه هو الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا يستغني عنه شيء بحال ولا يغني عنه شيء بحال.

ب. بهذا البيان يظهر وجه تقديم الأموال على الأولاد في الآية فإن الركون إلى المال، وقد عرفت أن الأصل فيه الغذاء، أقدم عند الإنسان من الركون إلى الأولاد وأعرف منه وإن كان حب الولد ربما غلب عند الإنسان على حب المال.

ج. في الآية إيجاز شبيه دفع الدخل، والتقدير: إن الذين كفروا كذبوا بآياتنا وزعموا أن أموالهم

وأولادهم تغنيهم من الله، وقد أخطئوا فلا غنى من الله سبحانه في وقت ولا في شيء، على ما تدل عليه الآية التالية.

٢. ﴿وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾:

أ. الوقود بفتح الواو ما توقد به النار وتشتعل، والآية جارية مجرى قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾، وقوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾، وقد مر بعض الكلام في معنى ذلك في سورة البقرة.

ب. الإتيان بالجملة الاسمية، والابتداء باسم الإشارة، وكونه دالا على البعد وتوسيط ضمير الفصل، وإضافة الوقود إلى النار دون أن يقال وقود، كل ذلك يؤكد ظهور الكلام في الحصر، ولازمه كون المكذبين من الكفار هم الأصل في عذاب النار وإيقاد جهنم، وأن غيرهم إنما يحترقون بنارهم، ويتأيد بذلك ما سيأتي بيانه في قوله تعالى: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ﴾ الآية.

٣. ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾:

أ. الدأب على ما ذكروه هو السير المستمر قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾، ومنه تسمية العادة دأبا لأنه سير مستمر.

ب. وهذا المعنى هو المراد في الآية، وقوله: ﴿كَدَأْبِ﴾، متعلق بمقدر يدل عليه قوله في الآية السابقة: ﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ﴾، ويفسر الدأب قوله: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ وهو في موضع الحال، وتقدير الكلام كما مرت إليه الإشارة: إن الذين كفروا كذبوا بآياتنا واستمروا عليها دائبين فزعموا أن في أموالهم وأولادهم غنى لهم من الله كدأب آل فرعون ومن قبلهم وقد كذبوا بآياتنا.

٤. ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾:

أ. ظاهر الباء أنها تفيد السببية، يقال: أخذته بذنبه أي بسبب ذنبه لكن مقتضى المحاذاة التي بين الآيتين، وقياسه حال هؤلاء الذين كفروا في دأبهم على آل فرعون والذين من قبلهم في دأبهم أن يكون البناء للآلة، فإنه ذكر في الذين كفروا أنهم وقود النار تشتعل عليهم أنفسهم ويعذبون بها فكذلك آل فرعون ومن قبلهم إنما أخذوا بذنوبهم وكان العذاب الذي حل بساحتهم هو عين الذنوب التي أذنبوها، وكان مكرهم هو الحائق بهم، وظلمهم عائدا إليهم، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾:، وقال تعالى:

﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

ب. من هنا يتبين معنى كونه شديد العقاب، فإن عقابه تعالى لا يقصد الإنسان ولا يتوجه إليه من جهة دون جهة، وفي محل دون محل، وعلى شرط دون شرط كما أن عقاب غيره كذلك فإن الشر الذي يوجهه إلى الإنسان مثله مثلا إنما يتوجه إليه من بعض الجهات دون بعض كفوق وتحت، وفي بعض الأماكن دون بعض فيدفع بالفرار والتوقي والالتجاء مثلا وهذا بخلاف عقابه تعالى فإنه يأخذ الإنسان بعمله وذنبه وهو مع الإنسان في باطنه وظاهره من غير أن ينفك عنه، ويجعل الإنسان وقودا لنار أحاط به سرداقها، ولا ينفعه فرار ولا قرار، ولا يوجد منه مناص ولا خلاص، فهو شديد العقاب.

٥. في قوله تعالى: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾، التفات من الغيبة إلى الحضور أولا ثم من الحضور إلى الغيبة ثانيا، أما قوله: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ ففيه تنشيط لذهن السامع وتقريب للخبر إلى الصدق فإنه بمنزلة أن يقول القائل: إن فلانا بذي فحاش سيئ المحاضرة وقد ابتليت به فيجب الاجتناب عن معاشرته، فجملة وقد ابتليت به تصحيح للخبر وإثبات لصدقه بإرجاعه إلى الدراية ونحو من الشهادة، فالمعنى أن آل فرعون كانوا دائبين على دأب هؤلاء الذين كفروا في الكفر وتكذيب الآيات، ولا ريب في هذا الخبر فإنا كنا حاضرين شاهدين وقد كذبوا بآياتنا نحن فأخذناهم.

٦. ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾ هو رجوع بعد استيفاء المقصود إلى الأصل في الكلام وهو أسلوب الغيبة، وفيه مع ذلك إرجاع الحكم إلى مقام الألوهية القائمة بجميع شئون العالم والمهيمنة على كل ما دق وجل، ولذلك كرر لفظ الجلالة ثانيا في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، ولم يقل وهو شديد العقاب للدلالة على أن كفرهم وتكذيبهم هذا منازعة ومحاربة مع من له جلال الألوهية ويهون عليه أخذ المذنب بذنبه، وهو شديد العقاب لأنه الله جل اسمه.

٦. وعد الله بالتغلب على الكافرين ودعوتهم للاعتبار بيوم بدر:

المقطع [٦] من سورة آل عمران، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: ١٢-١٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٣/ ٩٣»:

١. ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ﴾:

أ. الحشر هو إخراج الجماعة عن مقرهم بالإزعاج، ولا يستعمل في الواحد، قال تعالى: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾، والمهاد هو الفراش.

ب. ظاهر السياق أن المراد بالذين كفروا هم المشركون كما أنه ظاهر الآية السابقة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ﴾ الآية دون اليهود، وهذا هو الأنسب لاتصال الآيتين حيث تذكر هذه الآية الغلبة عليهم وحشرهم إلى جهنم وقد أشارت الآية السابقة إلى تقويهم وتعززهم بالأموال والأولاد.

٢. ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا﴾:

أ. ظاهر السياق أن يكون الخطاب للذين كفروا، والكلام من تتمة قول النبي ﷺ: ﴿سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ﴾ الآية ومن الممكن أن يكون خطابا للمؤمنين بدعوتهم إلى الاعتبار والتفكر بما من الله عليهم يوم بدر حيث أيدهم بنصره تأييدا عجيبا بالتصرف في أبصار العيون، وعلى هذا يكون الكلام مشتملا على نوع من الالتفات بتوسعة خطاب رسول الله ﷺ في قوله: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ﴾ بتوجيهه إليه وإلى من معه من المؤمنين، لكن السياق، كما عرفت، للأول أنسب.

ب. الآية، بما تشتمل عليه من قصة التقاء الفئتين ونصرة تعالى للفئة المقاتلة في سبيل الله، وإن لم تتعرض بتشخيص القصة وتسمية الوقعة غير أنها قابلة الانطباق على وقعة بدر، والسورة نازلة بعدها بل وبعد أحد، على أن الآية ظاهرة في أن هذه القصة كانت معهودة عند المخاطبين بهذه الخصوصية وهم على ذكر منها حيث يقول: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ﴾ الآية ولم يقص تعالى قصة يذكر فيها التصرف في أبصار المقاتلين غير قصة بدر، والذي ذكره في قصة بدر في سورة الأنفال من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾، وإن كان هو التقليل دون التكثير لكن لا يبعد أن يكون قد قلل فيها المؤمنين في أعين المشركين ليجترئوا عليهم ولا يتولوا عن المقارعة ثم كثرهم في أعينهم بعد التلاقي والاختلاط لينهزموا بذلك.

ج. كيف كان فالمعتمد ما كان في ذكرهم من التكثير في العيون فعلى تقدير أن يكون الخطاب في الآية متوجها إلى المشركين لا تنطبق الآية على غير وقعة بدر، على أن قراءة ترونهم بالتاء أيضا تؤيد ما ذكرناه.

د. محصل معنى الآية: أنكم أيها المشركون لو كنتم من أولي الأبصار والبصائر لكفاكم في الاعتبار والدلالة على أن الغلبة للحق وأن الله يؤيد بنصره من يشاء ولا يغلب بمال ولا ولد ما رأيتموه يوم بدر فقد كان المؤمنون مقاتلين في سبيل الله سبحانه، وقد كانوا فئة قليلة مستذلين لا يبلغون ثلث الفئة الكافرة، ولا يقاسون بهم قوة، كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا ليس لهم إلا ستة أدرع وثمانية سيوف وفرسان، وكان جيش المشركين قريبا من ألف مقاتل لهم من العدة والقوة والخيل والجمال والهيئة ما لا يقدر بقدر، فنصر الله المؤمنين على قلتهم وذلتهم على أعدائه وكثرهم في أعينهم فكانوا يرونهم مثليهم رأي العين، وأيدهم الملائكة فلم ينفع المشركين ما كانوا يتعززون به من أموال وأولاد ولم يغنهم جمعهم ولا كثرتهم وقوتهم من الله شيئا.

هـ. ذكر الله سبحانه دأب آل فرعون والذين من قبلهم في تكذيب آيات الله وأخذهم بذنوبهم في سورة الأنفال عند ذكر القصة مرتين ما ذكره هاهنا بعينه، وفي موعظتهم بتذكير وقعة بدر إيماء إلى أن المراد بالغلبة في الآيات السابقة الغلبة بالقتل والإبادة ففي آياته تهديد بالقتال.

٣. ﴿فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ﴾:

أ. لم يقل وأخرى في سبيل الشيطان أو في سبيل الطاغوت ونحو ذلك لأن الكلام غير مسوق للمقايسة بين السبيلين بل لبيان أن لا غنى من الله تعالى وأن الغلبة له فالمقابلة بالحقيقة بين الإيمان بالله والجهاد في سبيله وبين الكفر به تعالى.

ب. الظاهر من السياق أن الضميرين في قوله تعالى: ﴿يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ﴾ راجعان إلى قوله: ﴿فِئَةٌ تُقَاتِلُ﴾، أي الفئة الكافرة يرون المؤمنين مثلي المؤمنين فهم يرونهم ستمائة وستة وعشرين ولقد كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا، وأما احتمال اختلاف الضميرين مرجعا بأن يكون المعنى: يرون المؤمنين مثلي عدد الكافرين فبعيد عن اللفظ، وهو ظاهر.

ج. ربما احتمل أن يكون الضميران راجعين إلى الفئة الكافرة، ويكون المعنى: يرى الكافرون أنفسهم مضاعفة مثلي عددهم (يرون الألف ألفين) ولازمه تقليلهم المؤمنين في النسبة فكانوا يرونهم سدس أنفسهم عددا مع كونهم ثلثا لهم في النسبة وذلك ليطابق ما ذكره في هذه الآية قوله تعالى في قصة بدر: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾، فإن الآية تنافي الآية، وأجيب بأن

ذلك يؤدي إلى اللبس غير اللائق بأبلغ الكلام بل كان من اللازم على هذا أن يقال: يرون أنفسهم مثليهم أو ما يؤدي ذلك، وأما التنافي بين الآيتين فإنما يتحقق مع اتحاد الموقف والمقام، ولا دليل على ذلك لإمكان أن يقلل الله سبحانه كلا من الطائفتين في عين صاحبتها في بدء التلاقي لتشد بذلك قلوبهم وتزيد جرأتهم حتى إذا نشبت المقارعة وحمي الوطيس رأى الكافرون المؤمنين مثلي عددهم فانهزموا بذلك وولوا الأدبار، وهذا نظير قوله تعالى في وصف يوم القيامة: ﴿لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾، مع قوله: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾، وليس إلا أن الموقف غير الموقف.

د. في شأن الضميرين أعني في قوله: ﴿يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ﴾، احتمالات أخر ذكروها غير أن الجميع تشترك في كونها خلاف ظاهر اللفظ، ولذلك تركنا ذكرها.

٤. ﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾:

أ. التأييد من الأيد وهو القوة، والمراد بالأبصار قيل: هو العيون الظاهرية لكون الآية مشتملة على التصرف في رؤية العيون، وقيل: هو البصائر لأن العبرة إنما تكون بالبصيرة القلبية دون البصر الظاهري، والأمر هين، فإن الله سبحانه في كلامه يعد من لا يعتبر بالعبر والمثلات أعمى، ويذكر أن العين يجب أن تبصر وتميز الحق من الباطل وفي ذلك دعوى أن الحق الذي يدعو إليه ظاهر متجسد محسوس يجب أن يبصره البصر الظاهر، وأن البصيرة والبصر في مورد المعارف الإلهية واحد (بنوع من الاستعارة) لنهاية ظهورها ووضوحها، والآيات في ذلك كثيرة جدا، ومن أحسنها دلالة على ما ذكرنا قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾، أي إن الأبصار إنما هي في القلوب دون الرؤوس، وقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾، والآية في مقام التعجيب، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾، إلى غير ذلك من الآيات، فالمراد بالأبصار فيما نحن فيه هو العيون الظاهرية بدعوى أنها هي التي تعتبر وتفهم فهو من الاستعارة بالكناية، والنكتة فيه ظهور المعنى كأنه بالغ حد الحس، ويزيد في لطفه أن المورد يتضمن التصرف في رؤية العين الظاهرة.

ب. ظاهر قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الآية أنه تتمة لكلامه تعالى الذي يخاطب به النبي ﷺ وليس تتمة لقول النبي المدلول عليه بقوله: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية، والدليل عليه الكاف في قوله: ﴿ذَلِكَ﴾، فإنه خطاب للنبي ﷺ، وفي هذا العدول إلى الخطاب الخاص بالنبي ﷺ إيماء إلى قلة فهمهم وعمى قلوبهم

أن يعتبروا بأمثال هذه العبر.

٥. أحاديث وآثار: في المجمع في قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ﴾ [آل عمران: ١٢] الآية، روى محمد بن إسحاق عن رجاله قال: لما أصاب رسول الله ﷺ قريشاً ببدر، وقدم المدينة، جمع اليهود في سوق قينقاع، فقال: يا معشر اليهود، احذروا من الله مثل ما نزل بقريش يوم بدر، وأسلموا قبل أن ينزل بكم ما نزل بهم، وقد عرفتم أني نبي مرسل، تجدون ذلك في كتابكم، فقالوا: يا محمد، لا يغرنك أنك لقيت قوماً أغماراً لا علم لهم بالحرب، فأصبت منهم فرصة؛ إنا والله لو قاتلناك لعرفت أنا نحن الناس، فأنزل الله هذه الآية.

• أقول: ورواه في الدر المنثور عن ابن إسحاق وابن جرير والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس، وروى ما يقرب منه القمي في تفسيره، وقد عرفت مما تقدم: أن سياق الآيات لا يلائم نزولها في حق اليهود كل الملائمة، وأن الأنسب بسياقها أن تكون نازلة بعد غزوة أحد، والله أعلم.

٧. زينة الدنيا ومتاعها الفاني وحسن المآب عند الله:

المقطع [٧] من سورة آل عمران، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران: ١٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٣/ ٩٦»:

١. وضع هنا مبحثا حول [تفسير قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾ وبيان فاعل التزيين]، خلاصته:

أ. بيان أن الآية وما يتلوها شرح لحال الكافرين الذين استغنوا بالأموال والأولاد عن الله، وانكبوا على شهوات الدنيا متخذين إياها غاية لا وسيلة.

ب. توضيح أن التزيين نوعان: تزيين إلهي محمود للتوسل بالدنيا إلى الآخرة، وتزيين شيطاني مذموم للإلهاء عن ذكر الله.

ج. إثبات أن فاعل التزيين في قوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ هو الشيطان أو النفس، وليس الله سبحانه، وذلك بقرائن لفظية ومعنوية.

د. الرد على القائلين بأن التزيين منسوب إلى الله، وبيان أن نسبة التزيين إلى الله إنما تكون بالإذن لا

بالفعل المباشر.

هـ. بيان أن الحوادث والأفعال مرتبطة ارتباطاً تكوينياً، وأن الخير والشر متقابلان لا يقوم أحدهما إلا بالآخر في نظام الامتحان.

و. الرد على المجبرة والمفوضة، وإثبات أن الاختيار الإنساني قائم مع خلق الله للأفعال وإذنه للأسباب.

ز. الجواب عن الإشكالات الواردة على القول بأن فاعل التزيين غير الله، وتفصيل الفرق بين هذه الآية وآية ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ﴾

٢. ﴿مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ﴾:

أ. النساء جمع لا واحد له من لفظه، والبنين جمع ابن وهو ذكور الأولاد بواسطة أو بلا واسطة، والقناطير جمع قنطار وهو ملء مسك ذهبا أو هو المسك المملوء، والمقنطرة اسم مفعول مشتق من القنطار وهو جامد، وهذا من دأبهم يعتبرون في الجوامد شيئا من النسب يكسب بها معنى مصدريا ثم يشتقون منه المشتقات كالباقل والتامر والعطار لبائع البقل والتمر والعطر، وفائدة توصيف الشيء بالوصف المأخوذ من لفظه تثبيت معناه له، والتلميح إلى أنه واجد لمعنى لفظه غير فاقدة كما يقال: دنانير مدنرة ودواوين مدونة، ويقال: حجاب محجوب وستر مستور، والخيل: هو الأفراس، والمسومة مأخوذة من سامت الإبل سوما بمعنى ذهبت لترعى فهي سائمة، أو من سمت الإبل في المرعى وأسمتها وسومتها بمعنى أعلمتها، فالخيل المسومة إما المرسلة للرعي أو المعلمة، والأنعام جمع نعم بفتحتين وهو الإبل والبقر والغنم، والبهائم أعم منه ويطلق على غير الوحش والطير والحشرات، والحرث هو الزرع وفيه معنى الكسب وهو تربية النبات أو النبات المربي للانتفاع به في المعاش.

ب. بناء التعداد في الآية ليس على تكثر حب الشهوات بحسب تكثر المشتهيات أعني متعلقات الشهوة بمعنى أن الإنسان بحسب طبعه يميل إلى الأزواج والأولاد والمال حتى يتكلف في توجيه التعبيرات الواقعة في الآية كالتعبير عن الإنسان بالناس والتعبير عن الأولاد بخصوص البنين، والتعبير عن المال بالقناطير المقنطرة.. بما تكلف به جمع من المفسرين، بل على كون الناس أصنافا في الشغف والولوع بمشتهيات الدنيا فمن شهواني لا هم له إلا التعشق بالنساء وغرامهن والتقرب إليهن والأنس بصحبتهن،

ويستصحب ذلك أذنابا من وجوه الفساد ومعاصي الله سبحانه كاتخاذ المعازف والأغاني وشرب المسكرات وأمور أخر غيرهما، وهذا مما يختص بالرجال عادة، ولا يوجد في النساء إلا في غاية الشذوذ، ومن محب للبنين والتكاثر والتقوي بهم كما يوجد غالبا في أهل البدو، ويختص أيضا بالبنين دون البنات، ومن مغرم بالمال أكبر همه أن يقنطر القناطير، ويملأ المخازن من وجوه النقد، وظهور هذا الجنون أيضا في جمع المال إنما هو في وجوه النقد من الذهب والفضة أو ما يتقوم بهما دون أمثال الأثاث إلا أن يراد لأجلهما بوجه، ويوجد غالبا في الحاضر دون البادي، أو أن المختار عنده اتخاذ الخيل المسومة كالمغرمين بالفروسة وأمثالهم أو اتخاذ الماشية من الأنعام، أو يستحب الحرث، وربما يجتمع البعض من هذه الثلاثة الأخيرة مع البعض وربما تفترق.

ج. هذه أقسام الشهوات التي ينسل الناس إليها صنفا صنفا بالتعلق بواحد منها وجعله أصلا في اقتناء مزايا الحياة، وجعل غيره فرعا مقصودا بالقصد الثاني، وقلما يوجد (أو لا يوجد أصلا) في الناس من ساوى بين جميعها، وقصد الجميع قصدا أولا معتدلا، وأما مثل الجاه والمقام والصدارة ونحوها فهي جميعا أمور وهمية بالحقيقة إنما تتعلق الرغبة إليها بالقصد الثاني لا يعد الالتذاذ بها التذاذا شهويا، على أن الآية ليست في مقام حصر الشهوات، ومن هنا يتأيد ما تقدمت الإشارة إليه من أن المراد بحب الشهوات التوغل والانغمار في حبها (وهو المنسوب إلى الشيطان) دون أصل الحب المودع في الفطرة (وهو المنسوب إلى الله سبحانه)

٣. ﴿ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، أي هذه الشهوات أمور يتمتع بها لإقامة هذه الحياة التي هي أقرب الحياتين منكم (وهما الحياة الدنيا والحياة الأخرى)، والحياة الدنيا وكذا المتاع الذي يتمتع به لها أمر فان داثر ليس لها عاقبة باقية صالحة، وصلاح العقبى وحسن المآب إنما هو عند الله سبحانه وهو قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾

٤. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي وتفسير العياشي عن الصادق عليه السلام: ما تلذذ الناس في الدنيا والآخرة بلذة أكبر لهم من لذة النساء، وهو قوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤] الآية، ثم قال: وإن أهل الجنة ما يتلذذون بشيء من الجنة أشهى عندهم من النكاح، لا طعام ولا شراب.

• أقول: وقد استفيد ذلك من الترتيب المجعول في الآية للشهوات، ثم تقديم النساء على باقي المشتهيات، ثم جعل هذه الشهوات متاع الدنيا، وشهوات الجنة خيراً منها.

• ومراده عليه السلام من الحصر في كون النكاح أكبر لذائذ الناس إنما هو الحصر الإضافي، أي أن النكاح أكبر لذة بالنسبة إلى هذه الشهوات المتعلقة بجسم الإنسان، وأما غيرها، كالتذاذ الإنسان بوجود نفسه، أو التذاذ ولي من أولياء الله تعالى بقرب ربه ومشاهدة آياته الكبرى ولطائف رضوانه وإكرامه وغيرهما، فذلك خارج عن مورد كلامه عليه السلام.

• وقد قامت البراهين العلمية على أن أعظم اللذائذ التذاذ الشيء بنعمة وجوده، وأخرى على أن التذاذ الأشياء بوجود ربها أعظم من التذاذها بنفسها، وهناك روايات كثيرة دالة على أن التذاذ العبد بلذة الحضور والقرب منه تعالى أكبر عنده من كل لذة، وقد روي في الكافي عن الباقر عليه السلام: كان علي بن الحسين عليهما السلام يقول: إنه يسخي نفسي في سرعة الموت والقتل فينا قول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ [الرعد: ٤١]، وهو ذهاب العلماء، وسيجيء عدة من هذه الروايات في المواضع المناسبة لها من هذا الكتاب.

ب. وفي المجمع في قوله تعالى: ﴿الْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ﴾ [آل عمران: ١٤]، عن الباقر والصادق عليهما السلام: القنطار ملء مسك ثور ذهباً.

ج. وفي تفسير القمي قال عليه السلام: ﴿الْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ﴾ [آل عمران: ١٤] المرعية.

٨. الجنة والرضوان للمتقين وصفاتهم الخيرة:

المقطع [٨] من سورة آل عمران، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٥-١٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٣/ ١٠٧»:

١. ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ﴾ إلى آخر الآية:

أ. الآية مسوقة لبيان قوله: ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ وقد وضع فيها محل هذه الشهوات الفانية الباطلة أمور هي خير للإنسان لكونها باقية وحسنة حقيقة من غير بطلان، وهي أمور مجانسة لهذه الشهوات

في ما يريده الإنسان من خواصها وآثارها غير أنها خالية عن القبح والفساد غير صارفة للإنسان عن ما هو خير منها، وهي الجنة ومطهرات الأزواج ورضوان الله تعالى.

ب. اختصت الأزواج بالذكر مع كون ذكر الجنة كالمشتمل عليها لكون الوقاع أعظم اللذائذ الجسمية عند الإنسان، ولذلك أيضا قدم ذكر النساء في قوله: ﴿مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ﴾ الآية.

ج. الرضوان بكسر الراء وضمها هو الرضا وهو أن يلائم الأمر الواقع نفس صاحبه من غير أن يمتنع منه ويدافعه، ويقابله السخط، وقد تكرر في القرآن ذكر رضى الله سبحانه، وهو منه تعالى كما يتصور بالنسبة إلى فعل عباده في باب الطاعة كذلك يتصور بالنسبة إلى غير باب الطاعة كالأوصاف والأحوال وغير ذلك إلا أن جل الموارد التي ذكر فيها أو كلها من قبيل الرضا بالطاعة، ولذلك ربما قوبل بينه وبين رضا العبد فرضاه عن عبده لطاعته، ورضى العبد عنه لجزائه الحسن أو لحكمة كقوله تعالى: ﴿مْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾، وقوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ مْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ﴾ الآية.

د. ذكر الرضوان هاهنا أعني في عداد ما هو خير للناس من مشتهيات الحياة الدنيا يدل على أنه نفسه من مشتهيات الإنسان أو يستلزم أمرا هو كذلك عنى بذكره في مقابل الجنات والأزواج في هذه الآية، وكذا في مقابل الفضل والرحمة في قوله: ﴿فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾، وقوله: ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾، وقوله: ﴿بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ﴾

هـ. لعل الذي يكشف عن هذا الذي أبهمته هذه الآية هو التدبر في المعنى الذي ذكرناه وفي قوله تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [البينة: ٨] الآية وقوله: ﴿رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾ الآية حيث علق رضاه بأنفسهم، والرضا عن أنفسهم غير الرضا عن أفعالهم فيعود المعنى إلى أنه لا يمنعهم عن نفسه فيما يسألونه فيئول إلى معنى قوله تعالى: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا﴾، ففي رضوان الله عن الإنسان المشية المطلقة للإنسان.

و. من هنا يظهر: أن الرضوان في هذه الآية قوبل به من الشهوات المذكورة في الآية السابقة أن الإنسان يحسب أنه لو اقتناها وخاصة القناطير المقنطرة من بينها أفادته إطلاق المشية وأعطته سعة القدرة فله ما يشاء، وعنده ما يريد، وقد اشتبه عليه الأمر فإنما يتم ذلك برضا الله الذي إليه أمر كل شيء.

٢. ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾، لما تحصل من هذه الآية والتي قبلها: أن الله أعد للإنسان في كلتا الدارين (الدنيا والآخرة) نعما يتنعم بها ومآرب أخرى مما تلتذ به نفسه كالأزواج، وما يؤكل ويشرب، والملك ونحوها، وهي متشابهة في الدارين غير أن ما في الدنيا مشترك بين الكافر والمؤمن مبذول لهما معا وما في الآخرة مختص بالمؤمن لا يشاركه فيها الكفار كان المقام مظنة سؤال الفرق في ذلك، وبلفظ آخر سؤال وجه المصلحة في اختصاص المؤمن بنعم الآخرة أجاب عنه بقوله: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾، ومعناه: أن هذا الفرق الذي فرق الله به بين المؤمن والكافر ليس مبنيا على العبث والجزاف تعالى عن ذلك بل إن في الفريقين أمرا هو المستدعي لهذا الفرق والله بصير بهم يرى ما فيهم من الفرق وهو التقوي في المؤمن دون الكافر، وقد وصف هذا التقوي وعرفه بما يلحق بهذه الآية من قوله: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا﴾ إلى آخر الآيتين وملخصه: أنهم يظهرون فاقتهم إلى ربهم وعدم استغنائهم عنه، ويصدقون ذلك بالعمل الصالح ولكن الكافر يستغني عن ربه بشهوات الدنيا وينسى آخرته وعاقبة أمره.

٣. وضع هنا مبحثا حول [الجواب عن الإشكال: كيف تكون لذائذ الجنة من سنخ لذائذ الدنيا مع اختلاف الغاية؟]، خلاصته:

أ. بيان الإشكال الوارد على ظواهر الآيات الواصفة لنعم الجنة، وهو أن لذائذ الدنيا مقصودة لأغراض محدودة (حفظ الفرد والنوع) فلا معنى لتحققها في دار البقاء حيث لا موت ولا فناء.

ب. توضيح أن الله خلق لذائذ الدنيا لتكون زينة تجذب الإنسان إلى الحياة، لا أنها مقصودة لذاتها، بل هي وسائل لحفظ الوجود.

ج. إثبات أن الإنسان في الآخرة هو نفس الإنسان الدنيوي، وأن وجوده لا يبطل بل يثبت ويتحول من دار الفناء إلى دار البقاء.

د. بيان أن الفرق بين الدنيا والآخرة إنما هو في البقاء والزوال، لا في سنخ النعم، وأن الإنسان يبقى محتاجاً إلى ما كان يحتاجه من المطالب والمقاصد.

هـ. الاستدلال بالآيات القرآنية على أن الحياة الدنيا نفسها متاع في الآخرة، وأن الإنسان يبعث على ما مات عليه.

و. تقرير أن سعادة الإنسان في الآخرة هي نيل ما كان يريده من لذائذ الحياة، وشقاؤه هو الحرمان

منها، لقوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾

٤. ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ وصف للمتقين المدلول عليهم بقوله في الآية السابقة: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾، فوصفهم أنهم يقولون ربنا وفيه إظهار للعبودية بذكره تعالى بالربوبية واسترحام منه تعالى فيما يسألونه بقولهم: ﴿إِنَّنَا آمَنَّا﴾، والجملة ليست في مقام الامتنان عليه تعالى فإن المن منه تعالى بالإيمان كما قال تعالى: ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ بل استنجاز لما وعد الله تعالى عباده أنه يغفر لمن آمن منهم، قال تعالى: ﴿وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ﴾، ولذلك فرعوا عليه قولهم: ﴿فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾، بفاء التفريع، وفي تأكيد قولهم بأن دلالة على صدقهم وثباتهم في إيمانهم، والمغفرة للذنوب لا يستلزم التخلص من العذاب بمعنى أن الوقاية من عذاب النار فضل من الله سبحانه بالنسبة إلى من آمن به وعبده من غير استحقاق من العبد يثبت له حقا على الله سبحانه أن يجيره من عذاب النار، أو ينعمه بالجنة فإن الإيمان والإطاعة أيضا من نعمه ولا يملك غيره تعالى منه شيئا إلا ما جعله على نفسه من حق، ومن الحق الذي جعل على نفسه لعباده أن يغفر لهم ويقيهم عذاب النار إن آمنوا به، قال تعالى: ﴿وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾

٥. ربما استفيد من بعض الآيات أن الوقاية من عذاب النار هو المغفرة والجنة كقوله تعالى: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾، فإن في الآيتين الأخيرتين تفصيل لما أجمل في الآية الأولى من قوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، وهذا معنى دقيق سنشرحه في مورد يناسبه إن وفقنا له.

٦. ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ﴾ إلى آخر الآية وصفهم بخمس خصال لا يشذ منها تقوى من متق:

أ. فالصبر لسبقه على بقية الخصال وإطلاقه يشمل أقسام الصبر، وهي ثلاث: صبر على الطاعة، وصبر عن المعصية، وصبر عند المصيبة.

ب. والصدق وإن كان بحسب تحليل حقيقته هو مطابقة ظاهر الإنسان من قول وفعل لباطنه لكنه بهذا المعنى يشتمل جميع الفضائل الباقية كالصبر والقنوت وغيرهما وليس بمراد فالمراد به (والله أعلم) الصدق في القول فحسب.

ج. والقنوت هو الخضوع لله سبحانه ويشمل العبادات وأقسام النسك.

د. والإنفاق هو بذل المال لمن يستحق البذل.

هـ. والاستغفار بالأسحار يستلزم قيام آخر الليل والاستغفار فيه، والسنة تفسره بصلاة الليل والاستغفار في قنوت الوتر، وقد ذكر الله أنه سبيل الإنسان إلى ربه كما في سورتي المزمل والدهر من قوله تعالى بعد ذكر قيام الليل والتهجد به: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا﴾

٧. أحاديث وآثار: في الفقيه والخصال عن الصادق عليه السلام: من قال في وتره إذا أوتر: (أستغفر الله وأتوب إليه) سبعين مرة وهو قائم، فواظب على ذلك حتى تمضي سنة، كتبه الله عنده من المستغفرين بالأسحار، ووجبت له المغفرة من الله تعالى.

• أقول: وهذا المعنى مروي في روايات أخر عن أئمة أهل البيت، وهو من سنن النبي ﷺ، وروي ما يقرب منه في الدر المنثور أيضاً عن ابن جرير عن جعفر بن محمد قال: من صلى من الليل ثم استغفر في آخر الليل سبعين مرة، كتب من المستغفرين، وقوله عليه السلام: (ووجبت له المغفرة من الله)، مستفاد من قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ [آل عمران: ١٦]، فإن في الحكاية لدعائهم من غير رد إمضائاً للاستجابة.

٩. شهادة الله والملائكة وأولي العلم بالتوحيد والقسط:

المقطع [٩] من سورة آل عمران، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٣/ ١١٣»:

١. ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾:

أ. أصل الشهادة هو المعاينة أعني تحمل العلم عن حضور وحس ثم استعمل في أدائها وإظهار الشاهد ما تحمله من العلم ثم صار كالمشترك بين التحمل والتأدية بعناية وحدة الغرض، فإن التحمل يكون غالبا لحفظ الحق والواقع من أن يبطل بنزاع أو تغلب أو نسيان أو خفاء فكانت الشهادة تحفظا على الحق والواقع، فبهذه العناية كان التحمل والتأدية كلاهما شهادة أي حفظا وإقامة للحق والقسط هو العدل.

ب. لما كانت الآيات السابقة أعني قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ

مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾، إلى قوله: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾، تبين: أن الله سبحانه لا إله غيره ولا يغني عنه شيء، وأن ما يحسبه الإنسان مغنيا عنه ويركن إليه في حياته ليس إلا زينة وإلا متاعا خلقه الله ليتمتع به في سبيل ما هو خير منه ولا ينال إلا بتقوى الله تعالى، وبعبارة أخرى: هذه النعم التي يحن إليها الإنسان مشتركة في الدنيا بين الكافر والمؤمن مختصة في الآخرة بالمؤمن أقام الشهادة في هذه الآية على أن هذا الذي بينته الآيات حق لا ينبغي أن يرتاب فيه.

ج. فشهد (وهو الله عز اسمه) على أنه لا إله إلا هو وإذ ليس هناك إله غيره فليس هناك أحد يغني منه شيئا من مال أو ولد أو غير ذلك من زينة الحياة أو أي سبب من الأسباب إذ لو أغنى شيء من هذه منه شيئا لكان إلها دونه أو معتمدا إلى إله دونه منتهيا إليه ولا إله غيره،شهد بهذه الشهادة وهو قائم بالقسط في فعله، حاكم بالعدل في خلقه إذ دبر أمر العالم بخلق الأسباب والمسببات وإلقاء الروابط بينها، وجعل الكل راجعا إليه بالسير والكدح والتكامل وركوب طبق، عن طبق ووضع في مسير هذا المقصد نعما لينتفع منها الإنسان في عاجله لأجله وفي طريقه لمقصده لا ليركن إليه ويستقر عنده فالله يشهد بذلك وهو شاهد عدل.

د. من لطيف الأمر أن عدله يشهد على نفسه وعلى وحدته في ألوهيته أي إن عدله ثابت بنفسه ومثبت لوحدانيته، بيان ذلك: أنا إنما نعتبر في الشاهد العدالة ليكون جاريا على مستوى طريق الحياة ملازما لصراط الفطرة من غير أن يميل إلى إفراط أو تفريط فيضع الفعل في غير موضعه فتكون شهادته مأمونة عن الكذب والزور فملازمة الصدق والمجاراة مع صراط التكوين يوجب عدالة الإنسان فنفس النظام الحاكم في العالم والجاري بين أجزائه الذي هو فعله سبحانه هو العدل محضا، ونحن في جميع الوقائع التي لا ترضى بها نفوسنا من الحوادث الكونية أو نجدها على خلاف ما نميل إليه ونطمع فيه ثم نعترض عليها ونناقش فيها إنما نذكر في الاعتراض عليه ما يظهر لنا من حكم عقولنا أو تميل إليه غرائزنا، وجميع ذلك مأخوذة من نظام الكون ثم نبحث عنها فيظهر سبب الحادثة فتسقط الشبهة أو نعجز عن الحصول على السبب فلا يقع في أيدينا إلا الجهل بالسبب أي عدم العلم دون العلم بالعدم، فنظام الكون (وهو فعل الله سبحانه) هو العدل فافهم ذلك، ولو كان هناك إله يغني منه في شيء من الأمور لم يكن نظام التكوين عدلا مطلقا بل كان فعل كل إله عدلا بالنسبة إليه وفي دائرة قضائه وعمله.

٢. بالجملة فالله سبحانه يشهد، وهو شاهد عدل، على أنه لا إله إلا هو يشهد لذلك بكلامه وهو

قوله: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، على ما هو ظاهر الآية الشريفة، فالآية في اشتمالها على شهادته تعالى للتوحيد نظيرة قوله تعالى: ﴿لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾

٣. الملائكة يشهدون بأنه لا إله إلا هو، فإن الله يخبر في آيات مكية نازلة قبل هذه الآيات بأنهم عباد مكرمون لا يعصون ربهم ويعملون بأمره ويسبحونه وفي تسبيحهم شهادة أن لا إله غيره، قال تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾

٤. وأولو العلم يشهدون أنه لا إله إلا هو يشاهدون من آياته الآفاقية والأنفسية وقد ملأت مشاعرهم ورسخت في عقولهم.

٥. ظهر مما تقدم:

أ. أولا: أن المراد بالشهادة شهادة القول على ما هو ظاهر الآية الشريفة دون شهادة الفعل وإن كانت صحيحة حقة في نفسها فإن عالم الوجود يشهد على وحدانيته في الألوهية بالنظام الواحد المتصل الجاري فيه، وبكل جزء من أجزائه التي هي أعيان الموجودات.

ب. وثانيا: أن قوله تعالى: ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ حال من فاعل قوله: ﴿شَهِدَ اللَّهُ﴾، والعامل فيه شهد، وبعبارة أخرى قيامه بالقسط ليس بمشهود له لا له تعالى ولا للملائكة وأولي العلم بل الله سبحانه حال كونه قائما بالقسط يشهد أن لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم يشهدون بالوحدانية كما هو ظاهر الآية حيث فرقت بين قوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، وقوله: ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾: بتوسيط قوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ﴾، ولو كان القيام بالقسط من أجزاء الشهادة لكان حق الكلام أن يقال: إنه لا إله إلا هو قائما بالقسط والملائكة، ومن ذلك يظهر ما فيما ذكره عدة من المفسرين في تفسير الآية من الجهتين جميعا كما لا يخفى على من راجع ما ذكروه في المقام.

٦. سؤال وإشكال: من أردإ الإشكال ما ذكره بعضهم: أن حمل الشهادة على الشهادة الكلامية كما مر يوجب الاستناد في أمر التوحيد إلى النقل دون العقل مع كونه حينئذ متوقفا على صحة الوحي فإن صدق هذه الشهادة يتوقف على كون القرآن وحيا حقا وهو متوقف عليه فيكون بيانا دوريا، ومن هنا ذكر بعضهم أن المراد بالشهادة هنا معنى استعاري بدعوى أن دلالة جميع ما خلقه الله من خلق على ما فيها من

وحدة الحاجة واتصال النظام على وحدة صانعها بمنزلة نطقه وإخباره تعالى بأنه واحد لا إله غيره وكذا عبادة ملائكته له وإطاعتهم لأمره، وكذا ما يشاهده أولو العلم من أفراد الإنسان من آيات وحدانيته بمنزلة شهادتهم على وحدانيته تعالى، والجواب: أن فيه خلطا ومغالطة فإن النقل إنما لا يعتمد عليه فيما للعقل أو الحس إليه سبيل لكونه لا يفيد العلم فيما يجب فيه تحصيل العلم، أما لو فرض إفادته من العلم ما يفيد العقل مثلا أو أقوى منه كان في الاعتبار مثل العقل أو أقوى منه كما أن المتواتر من الخبر أقوى أثرا وأجلى صدقا من القضية التي أقيم عليها برهان مؤلف من مقدمات عقلية نظرية وإن كانت يقينية وأنتجت اليقين، فإذا كان الشاهد المفروض يمتنع عليه الكذب والزور بصريح البرهان كانت شهادته تفيد ما يفيده البرهان من اليقين، والله سبحانه (وهو الله الذي لا سبيل للنقص والباطل إليه) لا يتصور في حقه الكذب فشهادته على وحدانية نفسه شهادة حق كما أن إخباره عن شهادة الملائكة وأولي العلم يثبت شهادتهم.

٧. على أن من أثبت له شركاء كالأصنام وأربابها فإنما يثبتها بعنوان أنها شفعاء عند الله ووسائط بينه وبين خلقه كما حكى الله تعالى عنهم بقوله: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى﴾، وكذا من اتخذ له شريكا بالشرك الخفي من هوى أو رئيس مطاع أو مال أو ولد إنما يتخذه سببا من الله غير أنه مستقل بالتأثير بعد حصوله له، وبالجملة ما اتخذ له من شريك فإنما يشاركه فيما يشاركه بتشريكه لا بنفسه، وإذا شهد الله على أنه لم يتخذ لنفسه شريكا أبطل ذلك دعوى من يدعي له شريكا، وجرى الكلام مجرى قوله: ﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾، فإنه إبطال لدعوى وجود الشريك بأن الله لا يعلم به في السموات والأرض ولا يخفى عليه شيء، وبالحقيقة هو خبر مثل سائر الأخبار الصادرة عن مصدر الربوبية والعظمة كقوله: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، ونحو ذلك، غير أنه لوحظ فيه انطباق معنى الشهادة عليه لكونه خبرا في مورد دعوى، والمخبر به قائم بالقسط فكان شهادة فعبر بلفظ الشهادة تفننا في الكلام، فيئول المعنى إلى أنه لو كان في الوجود أرباب من دون الله مؤثرون في الخلق والتدبير شركاء أو شفعاء في ذلك لعلمه الله وشهد به لكنه يخبر أنه ليس يعلم لنفسه شريكا فلا شريك له، ولعلم واعترف به الملائكة الكرام الذين هم الوسائط المجرون للأمر في الخلق والتدبير لكنهم يشهدون أن لا شريك له، ولعلم به وشهد أثره أولو العلم لكنهم يشهدون بما شاهدوا من الآيات أن لا شريك له.

٨. فالكلام نظير قولنا: لو كان في المملكة الفلانية ملك مؤثر في شئون المملكة وإدارة أمورها غير

الملك الذي نعرفه لعلم به الملك وعرفه لأنه من المحال أن لا يحس بوجوده وهو يشاركه، ولعلم به القوى المجرية والعمال المتوسطون بين العرش والرعية وكيف يمكن أن لا يشعروا بوجوده وهم يحملون أوامره ويجرون أحكامه بين ما في أيديهم من الأحكام والأوامر ولعلم به العقلاء من عامة أهل المملكة وكيف لا وهم يطيعون أوامره وعهوده ويعيشون في ملكه لكن الملك ينكر وجوده، وعمال الدولة لا يعرفونه، وعقلاء الرعية لا يشاهدون ما يدل على وجوده؟

٩. ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، الجملة كالمعترضة الدخيلة في الكلام لاستيفاء حق معترض يفوت لولا ذكره مع عدم كونه مقصودا في الكلام أصالة، ومن أدب القرآن أن يظهر تعظيم الله جل شأنه في موارد يذكر أمره ذكرا يخطر منه بالبال ما لا يليق بساحة كبريائه كقوله تعالى: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ﴾، فقوله: سبحانه قصد به التعظيم في مقام يحكى فيه قول لا يلائم حقه تعالى، ونظيره بوجه قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ الآية.

١٠. بالجملة لما اشتمل أول الآية على شهادة الله والملائكة وأولي العلم، بنفي الشريك كان من حق الله سبحانه على من يحكي ويخبر عن هذه الشهادة أعني المتكلم (وهو في الآية هو الله سبحانه) وعلى من يسمع ذلك أن يوحد الله بنفي الشريك عنه فيقول: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، نظير ذلك قوله تعالى في قصة الإفك: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾، فإن من حقه تعالى عليهم أن إذا سمعوا بهتانا وأرادوا تنزيه من بهت عليه أن ينزهوا الله قبله فإنه تعالى أحق من يجب تنزيهه، فموضع قوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ موضع الثناء عليه تعالى لاستيفاء حق تعظيمه ولذا تمم بالاسمين العزيز الحكيم، ولو كان في محل النتيجة من الشهادة لكان حق الكلام أن يتمم بوصفي الوحدة والقيام بالقسط، فهو تعالى حقيق بالتوحيد إذا ذكرت الشهادة المذكورة على وحدانيته لأنه المتفرد بالعزة التي يمنع جانبه أن يستذل بوجود شريك له في مقام الألوهية، والمتوحد بالحكمة التي تمنع غيره أن ينقض أمره في خلقه أو ينفذ في خلال تدبيره وما نظمه من أمر العالم فيفسد عليه ما أراده.

١١. تبين بما مر من البيان وجه تكرار كلمة التوحيد في الآية، وكذا وجه تتميمها بالاسمين: العزيز الحكيم، والله العالم.

١٠. الدين الحق عند الله الإسلام واختلاف أهل الكتاب:

المقطع [١٠] من سورة آل عمران، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللهِ فَإِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٣/ ١٢٠»:

١. ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ﴾:

أ. قد مر معنى الإسلام بحسب اللغة وكان هذا المعنى هو المراد هاهنا بقرينة ما يذكره من اختلاف أهل الكتاب بعد العلم بغيا بينهم فيكون المعنى: أن الدين عند الله سبحانه واحد لا اختلاف فيه لم يأمر عباده إلا به، ولم يبين لهم فيما أنزله من الكتاب على أنبيائه إلا إياه، ولم ينصب الآيات الدالة إلا له وهو الإسلام الذي هو التسليم للحق الذي هو حق الاعتقاد وحق العمل، وبعبارة أخرى هو التسليم للبيان الصادر عن مقام الربوبية في المعارف والأحكام، وهو وإن اختلف كما وكيفا في شرائع أنبيائه ورسله على ما يحكيه الله سبحانه في كتابه غير أنه ليس في الحقيقة إلا أمرا واحدا وإنما اختلاف الشرائع بالكمال والنقص دون التضاد والتنافي، والتفاضل بينها بالدرجات، ويجمع الجميع أنها تسليم وإطاعة لله سبحانه فيما يريده من عباده على لسان رسله.

ب. فهذا هو الدين الذي أراده الله من عباده وبينه لهم، ولازمه أن يأخذ الإنسان بما تبين له من معارفه حق التبين، ويقف عند الشبهات وقوف التسليم من غير تصرف فيها من عند نفسه وأما اختلاف أهل الكتاب من اليهود والنصارى في الدين مع نزول الكتاب الإلهي عليهم، وبيانه تعالى لما هو عنده دين وهو الإسلام له فلم يكن عن جهل منهم بحقيقة الأمر وكون الدين واحدا بل كانوا عالمين بذلك، وإنما حملهم على ذلك بغيهم وظلمهم من غير عذر وذلك كفر منهم بآيات الله المبينة لهم حق الأمر وحقيقته لا بالله فإنهم يعترفون به، ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب، يحاسبه سريعا في دنياه وآخرته: أما في الدنيا فبالخزي وسلب سعادة الحياة عنه، وأما في الآخرة فبأليم عذاب النار، والدليل على عموم سرعة الحساب للدنيا والآخرة قوله تعالى بعد آيتين: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾

٢. مما تقدم يظهر أولا:

أ. أن المراد بكون الدين عند الله وحضوره لديه سبحانه هو الحضور التشريعي بمعنى كونه شرعا

واحدا لا يختلف إلا بالدرجات وبحسب استعدادات الأمم المختلفة دون كونه واحدا بحسب التكوين بمعنى كونه واحدا مودعا في الفطرة الإنسانية على وتيرة واحدة.

ب. وثانيا: أن المراد بالآيات هو آيات الوحي، والبيانات الإلهية التي ألقاها إلى أنبيائه دون الآيات التكوينية الدالة على الوحدانية وما يزاملها من المعارف الإلهية.

٣. الآية تشتمل على تهديد أهل الكتاب بما يستدل عليه بالبغي وهو الانتقام، كما يشتمل قوله تعالى في الآيات السابقة: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ﴾ الآية على تهديد المشركين والكفار، ولعل هذا هو السبب في أنه جمع أهل الكتاب والمشركين معا في الآية التالية في الخطاب بقوله: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ﴾ الآية، وفيه إشعار بالتهديد أيضا.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير العياشي عن محمد بن مسلم قال: سألته عن قوله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، فقال: الذي فيه الإيمان.

ب. وعن ابن شهرآشوب عن الباقر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ﴾ الآية، قال: التسليم لعلي بن أبي طالب بالولاية.

• أقول: وهو من الجري؛ ولعل ذلك هو المراد أيضاً من الرواية السابقة.

ج. وعنه أيضاً عن علي عليه السلام قال: لأنسبن الإسلام نسبة لم ينسبها أحد قبلي، ولا ينسبها أحد بعدي: الإسلام هو التسليم، والتسليم هو اليقين، واليقين هو التصديق، والتصديق هو الإقرار، والإقرار هو الأداء، والأداء هو العمل، المؤمن أخذ دينه عن ربه، إن المؤمن يعرف إيمانه في عمله، وإن الكافر يعرف كفره بانكاره، أيها الناس! دينكم دينكم، فإن السيئة فيه خير من الحسنة في غيره؛ إن السيئة فيه تغفر، وإن الحسنة في غيره لا تقبل.

أ. • أقول: قوله عليه السلام: (لأنسبن الإسلام نسبة)، المراد بالنسبة التعريف، كما سميت سورة التوحيد في الأخبار (نسبة الرب)، والذي عرف به تعريف باللازم في غير الأول، أعني قوله: (الإسلام هو التسليم)، فإنه تعريف لفظي عرف فيه اللفظ بلفظ آخر أوضح منه، ويمكن أن يراد بالإسلام المعنى الاصطلاحي له، وهو هذا الدين الذي أتى به محمد ﷺ، إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ

﴿الْإِسْلَامُ﴾، وبالتسليم الخضوع والانقياد ذاتاً وفعلاً، فيعود الجميع إلى التعريف باللازم.

ب. والمعنى: أن هذا الدين المسمى بالإسلام يستتبع خضوع الإنسان لله سبحانه ذاتاً وفعلاً، ووضعه نفسه وأعماله تحت أمره وإرادته، وهو التسليم، والتسليم لله يستتبع أو يلزم اليقين بالله وارتفاع الريب فيه، واليقين يستتبع التصديق وإظهار صدق الدين، والتصديق يستتبع الإقرار وهو الإذعان بقراره وكونه ثابتاً لا يتزلزل في مقره ولا يزول عن مكانه، والإقرار يستتبع أداءه، وأداؤه يستتبع العمل.

ج. وقوله عليه السلام: (وإن الحسنة في غيره لا تقبل)، المراد بعدم القبول عدم الثواب بإزائه في الآخرة، أو عدم الأثر الجميل المحمود عند الله في الدنيا بسعادة الحياة، وفي الآخرة بنعيم الجنة، فلا ينافي ما ورد أن الكفار يوجرون في مقابل حسناتهم بشيء من حسنات الدنيا، قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧]

١١. الدعوة إلى التسليم لله والبلاغ المبين:

المقطع [١١] من سورة آل عمران، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ للهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٢٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٣/ ١٢٢»:

١. ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ للهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾:

أ. الضمير في ﴿حَاجُّوكَ﴾ راجع إلى أهل الكتاب وهو ظاهر والمراد به محاجتهم في أمر الاختلاف بأن يقولوا: إن اختلافنا ليس لبغي منا بعد البيان، بل إنما هو شيء ساقنا إليه عقولنا وأفهامنا واجتهادنا في تحصيل العلم بحقائق الدين من غير أن ندع التسليم لجانب الحق سبحانه وأن ما تراه وتدعو إليه يا محمد من هذا القبيل، أو يقولوا ما يشابه ذلك، والدليل على ذلك قوله: ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ للهِ﴾، وقوله: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ﴾، فإن الجملتين حجة سيقت لقطع خصامهم وحجاجهم لا إعراض عن المحاجة معهم.

ب. ومعناها مع حفظ ارتباطها بما قبلها: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الْإِسْلَامُ﴾ لا يختلف فيه كتب الله ولا يرتاب فيه سليم العقل، ويتفرع عليه أن لا حجة عليك في إسلامك وأنت مسلم، فإن حاجوك في أمر الدين ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ للهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ فهذا هو الدين ولا حجة بعد الدين في أمر الدين ثم سلهم:

أأسلموا فإن أسلموا فقد اهتدوا وليقبلوا ما أنزل الله عليك وعلى من قبلك ولا حجة عليهم ولا مخاصمة بعد ذلك بينكم، وإن تولوا فلا تخاصمهم ولا تحاجهم فلا ينبغي الخصام في أمر ضروري، وهو أن الدين هو التسليم لله سبحانه، وما عليك إلا البلاغ.

ج. وقد أشرك سبحانه في الآية بين أهل الكتاب والأميين بقوله: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ﴾، لكون الدين مشتركا بينهم وإن اختلفوا في التوحيد والتشريك.

د. وقد علق الإسلام على الوجه، وهو ما يستقبلك من الشيء أو الوجه بالمعنى الأخص لكون إسلام الوجه لاشتماله على معظم الحواس والمشاعر إسلاما لجميع البدن، ليدل على معنى الإقبال والخضوع لأمر الرب تعالى، وعطف قوله: ﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ حفظا لمقام التبعية وتشريفا للنبي ص.

٢. ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ﴾ إلى آخر الآية، المراد بالأميين المشركين سموا بذلك لتسمية من وضع في مقابلهم بأهل الكتاب، وكذا كان أهل الكتاب يسمونهم كما حكاه تعالى من قوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ والأمي هو الذي لا يكتب ولا يقرأ.

٣. في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ دلالة:

أ. أولا: على النهي عن المراء والإلحاح في المحاجة فإن المحاجة مع من ينكر الضروري لا تكون إلا مراء ولجاجا في البحث.

ب. وثانيا: على أن الحكم في حق الناس والأمر مطلقا إلى الله سبحانه، وليس للنبي ﷺ إلا أنه رسول مبلغ لا حاكم مسيطر كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾، وقال تعالى: ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾

ج. وثالثا: على تهديد أهل الكتاب والمشركين فإن ختم الكلام بقوله: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾، بعد قوله: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾ لا يخلو من ذلك ويدل على ذلك ما وقع من التهديد في نظير الآية، وهو قوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ إلى أن قال ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، تذكر الآية أن أهل الكتاب إن تولوا عن الإسلام فهم مصرون على الخلاف ثم يهددهم بما يسلي به النبي ويطيب نفسه، فالآية أعني قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾، كناية عن الأمر بتخلية ما بينهم وبين ربهم، وإرجاع أمرهم إليه، وهو بصير بعباده

يحكم فيهم بما تقتضيه حالهم ويسأله لسان استعدادهم.

٤. من هنا يظهر: أن ما ذكره بعض المفسرين، أن في الآية دليلا على حرية الاعتقاد في أمر الدين وأن لا إكراه فيه ليس بوجيه فإن الآية كما عرفت مسوقة لغير ذلك.

٥. في قوله: ﴿بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ حيث أخذ عنوان العبودية ولم يقل: بصير بهم أو بصير بالناس ونحو ذلك إشعار بأن حكمه نافذ فيهم ماض عليهم فإنهم عباده ومربوبون له أسلموا أو تولوا.

١٢. وعيد قتلة الأنبياء والآمرين بالقسط وحبوط أعمالهم:

المقطع [١٢] من سورة آل عمران، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [آل عمران: ٢١-٢٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٣/ ١٢٤»:

١. ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ﴾ إلى آخر الآية:

أ. الكلام في الآية وإن كان مسوقا سوق الاستيناف لكنه مع ذلك لا يخلو عن إشعار وبيان للتهديد الذي يشعر به آخر الآية السابقة فإن مضمونها منطبق على أهل الكتاب وخاصة اليهود.

ب. ﴿يَكْفُرُونَ﴾، و﴿يَقْتُلُونَ﴾، في موضعين للاستمرار ويدلان على كون الكفر بآيات الله وهو الكفر بعد البيان بغيا، وقتل الأنبياء وهو قتل من غير حق، وقتل الذين يدعون إلى القسط والعدل وينهون عن الظلم والبغي دأبا وعادة جارية فيما بينهم كما يشتمل عليه تاريخ اليهود، فقد قتلوا جمعا كثيرا وجما غفيرا من أنبيائهم وعبادهم الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر وكذا النصارى جروا مجراهم.

٢. ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ تصريح بشمول الغضب ونزول السخط، وليس هو العذاب الأخروي فحسب بدليل قوله تعالى عقيب الآية: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ الآية فهم مبشرون بالعذاب الدنيوي والأخروي معا، أما الأخروي فأليم عذاب النار، وأما الدنيوي فهو ما لقوه من التقتيل والإجلاء وذهاب الأموال والأنفس، وما سخط الله عليهم بإلقاء العداوة والبغضاء بينهم إلى يوم القيامة على ما تصرح به آيات الكتاب العزيز.

٣. في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾، دلالة:

أ. أولا: على حبط عمل من قتل رجلا من جهة أمره بالمعروف أو نهيه عن المنكر.

ب. وثانيا على عدم شمول الشفاعة له يوم القيامة لقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾

٤. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع عن أبي عبيدة الجراح قال: قلت: يا رسول الله، أي الناس أشد عذاباً يوم القيامة؟ قال: رجل قتل نبياً، أو رجلاً أمر بمعروف أو نهى عن منكر، ثم قرأ: ﴿الَّذِينَ يَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ٢١]، ثم قال: يا أبا عبيدة، قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبياً في ساعة، فقام مائة رجل واثنا عشر رجلاً من عباد بني إسرائيل، فأمروا من قتلهم بالمعروف، ونهوهم عن المنكر، فقتلوا جميعاً آخر النهار من ذلك اليوم، وهو الذي ذكره الله.

• أقول: وروي هذا المعنى في الدر المنثور عن ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي عبيدة.

ب. أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: دخل رسول الله ﷺ بيت المدراس على جماعة من يهود، فدعاهم إلى الله، فقال له النعمان بن عمرو وحرث بن زيد: على أي دين أنت يا محمد؟ قال: على ملة إبراهيم ودينه، قالا: فإن إبراهيم كان يهودياً، فقال لهما رسول الله ﷺ: فهلمّا إلى التوراة، فهي بيننا وبينكم، فأبيا عليه، فأنزل الله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ [آل عمران: ٢٣] إلى قوله: ﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ٢٤]

• أقول: وروى بعضهم: أن قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ نزل في قصة الرجم، وسيجيء ذكرها في ذيل الكلام على قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ [المائدة: ١٥] الآية، والروايتان من الآحاد وليستا بتلك القوة.

١٣. إعراض أهل الكتاب عن حكم الله واغترارهم بالأماني:

المقطع [١٣] من سورة آل عمران، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٢٣-٢٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٣/ ١٢٥»:

١. ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ﴾:

أ. إلى آخر الآية يومئ إلى تسجيل البغي على أهل الكتاب حسب ما نسبه الله تعالى إليهم وأنهم يبغون باتخاذ الخلاف وإيجاد اختلاف الكلمة في الدين فإنها إذا دعوا إلى حكم الكتاب كتاب الله بينهم لم يسلموا له وتولوا وأعرضوا عنه وليس ذلك إلا باغترارهم بقولهم: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا﴾ الآية وبها افتروه على الله في دينهم.

ب. والمراد بالذين أوتوا نصيبا من الكتاب أهل الكتاب وإنما لم يقل: أوتوا الكتاب، وقيل: ﴿أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ﴾ ليدل على أن الذي في أيديهم من الكتاب ليس إلا نصيبا منه دون جميعه لأن تحريفهم له وتغييرهم وتصرفهم في كتاب الله أذهب كثيرا من أجزائه كما يومئ إليه قوله في آخر الآية التالية: ﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾، وكيف كان فالمراد، والله أعلم، أنهم يتولون عن حكم كتاب الله اعتزازا بما قالوا واغترارا بما وضعوه من عند أنفسهم واستغناء به عن الكتاب.

٢. ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ﴾ الآية معناه واضح، واغترارهم بفريتهم التي افترتها أنفسهم مع أن الإنسان لا ينخدع عن نفسه مع العلم بأنها خدعة باطلة إنما هو لكون المغرورين غير المفترين، وعلى هذا فنسبة الافتراء الذي توسل إليها سابقوهم إلى هؤلاء المغرورين من اللاحقين لكونهم أمة واحدة يرضى بعضهم بفعال بعض، وإما لأن الاغترار بغرور النفس والغرور بالفرية الباطلة مع العلم بكونها فرية باطلة وذكر المغرور أنه هو الذي افترى ما يغتر به من الفرية ليس من أهل الكتاب ومن اليهود خاصة ببعيد وقد حكى الله عنهم مثله بل ما هو أعجب من ذلك حيث قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ على أن الإنسان يجري في أعماله وأفعاله على ما تحصل عنده من الأحوال أو الملكات النفسانية، والصور التي زينتها ونمقتها له نفسه دون الذي حصل له العلم به كما أن المعتاد باستعمال المضرات كالبنج والدخان وأكل التراب ونحوها يستعملها وهو يعلم أنها مضرة، وأن استعمال المضر مما لا ينبغي إلا أن الهيئة الحاصلة في نفسه ملذة له جاذبة إياه إلى الاستعمال لا تدع له مجالا للتفكر والاجتناب، ونظائر ذلك كثيرة، فهم لاستحكام الكبر والبغي وحب الشهوات في أنفسهم يجرون على طبق ما تدعوهم إليه فريتهم فكانت فريتهم هي الغارة لهم في دينهم، وهم مع ذلك كرروا ذكر ما

افتروه على الله سبحانه ولم يزالوا يكررونه ويلقنونه أنفسهم حتى أذعنوا به أي اطمأنوا وركنوا إليه بالتلقين الذي يؤثر أثر العلم كما بينه علماء النفس فصارت الفرية الباطلة بالتكرار والتلقين تغرهم في دينهم وتمنعهم عن التسليم لله والخضوع للحق الذي أنزله في كتابه.

٣. ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ إلى آخر الآية، مدخول كيف مقدر يدل عليه الكلام مثل يصنعون ونحوه، وفي الآية إيعاد لهؤلاء الذين تولوا إذا دعوا إلى كتاب الله ليحكم بينهم وهم معرضون غير أنه لما أريد بيان أنهم غير معجزين لله سبحانه أخذ في الكلام من حالهم يوم القيامة وهم مستسلمون يومئذ ما يضاهي حالهم في الدنيا عند الدعوة إلى حكم كتاب الله وهم غير مسلمين له مستكبرون عنه، ولهذا أخذ بالمحاذاة بين الكلامين، وعبر عن ما يجري عليهم يوم القيامة بمثل قوله: ﴿إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ الآية دون أن يقال: إذا أحييناهم أو بعثناهم أو ما يماثل ذلك، والمعنى، والله أعلم، أنهم يتولون ويعرضون إذا دعوا إلى كتاب الله ليحكم بينهم اغترارا بما افتروه في دينهم واستكبارا عن الحق فكيف يصنعون إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه وهو يوم القضاء الفصل، والحكم الحق ووفيت كل نفس ما كسبت والحكم حكم عدل وهم لا يظلمون، وإذا كان كذلك كان الواجب عليهم أن لا يتولوا ويعرضوا مظهرين بذلك أنهم معجزون لله غالبون على أمره فإن القدرة كله لله وما هي إلا أيام مهلة وفتنة.

١٤. ملك الله المطلق وتدبيره للكون والعز والذل:

المقطع [١٤] من سورة آل عمران، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٢٦-٢٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٣/ ١٢٩»:

١. ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ﴾:

أ. أمر بالالتجاء إلى الله تعالى الذي بيده الخير على الإطلاق وله القدرة المطلقة ليتخلص من هذه الدعاوي الوهمية التي نشبت في قلوب المنافقين والمتمردين من الحق من المشركين وأهل الكتاب فضلوا وهلكوا بما قدروه لأنفسهم من الملك والعزة والغنى من الله سبحانه ويعرض الملتجئ نفسه على إفاضة مفيض الخير والرازق لمن يشاء بغير حساب.

ب. الملك بكسر الميم مما نعرفه فيما بيننا ونعهده من غير ارتياب في أصله:

• فمن الملك بكسر الميم ما هو حقيقي وهو كون شيء كالإنسان مثلا بحيث يصح له أن يتصرف في شيء أي تصرف أمكن بحسب التكوين والوجود كما يمكن للإنسان أن يتصرف في باصرته بإعمالها وإهمالها بأي نحو شاء وأراد وكذا في يده بالقبض والبسط، والأخذ بها والترك ونحو ذلك ولا محالة بين المالك وملكه بهذا المعنى رابطة حقيقية غير قابلة التغير يوجب قيام المملوك بالمالك نحو قيام لا يستغني عنه ولا يفارقه إلا بالبطلان كالبصر واليد إذا فارقا الإنسان ومن هذا القبيل ملكه تعالى (بكسر الميللعالم ولجميع أجزائه وشئونه على الإطلاق، فله أن يتصرف فيما شاء كيفما شاء.

• ومن الملك (بكسر الميم) هو وضعي اعتباري وهو كون الشيء كالإنسان بحيث يصح له أن يتصرف في شيء كيف شاء بحسب الرابطة التي اعتبرها العقلاء من أهل الاجتماع لغرض نيل الغايات والأغراض الاجتماعية، وإنما هو محاذاة منهم لما عرفوه في الوجود من الملك الحقيقي وآثاره فاعتبروا مثله في ظرف اجتماعهم بالوضع والدعوى لينالوا بذلك من هذه الأعيان والأمتعة فوائد نظير ما يناله المالك الحقيقي من ملكه الحقيقي التكويني، ولكون الرابطة بين المالك والمملوك في هذا النوع من الملك بالوضع والاعتبار نرى ما نرى فيه من جواز التغير والتحول فمن الجائز أن ينتقل هذا النوع من الملك من إنسان إلى آخر بالبيع والهبة وسائر أسباب النقل.

• أما الملك (بالضم)، فهو وإن كان من سنخ الملك (بالكسر) إلا أنه ملك لما يملكه جماعة الناس فإن المليك مالك لما يملكه رعاياه، له أن يتصرف فيما يملكونه من غير أن يعارض تصرفهم تصرفه، ولا أن يزاحم مشيئتهم مشيئته فهو في الحقيقة ملك على ملك، وهو ما نصطلح عليه بالملك الطولي كملك المولى للعبد وما في يده، ولهذا كان للملك (بالضم) من الأقسام ما ذكرناه للملك (بالكسر)

٢. الله سبحانه مالك كل شيء ملكا مطلقا:

أ. أما أنه مالك لكل شيء على الإطلاق فلأن له الربوبية المطلقة والقيمومة المطلقة على كل شيء فإنه خالق كل شيء وإله كل شيء، قال تعالى: ﴿ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، وقال: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن كل ما يسمى شيئا فهو قائم الذات به مفتقر الذات إليه لا يستقل دونه فلا يمنعه فيما أراده منها وفيها شيء وهذا هو الملك (بالكسر) كما مر.

ب. وأما أنه مليك على الإطلاق فهو لازم إطلاق كونه مالكا للموجودات فإن الموجودات أنفسها يملك بعضها بعضا كالأسباب حيث تملك مسبباتها، والأشياء تملك قواها الفعالة، والقوى الفعالة تملك أفعالها كالإنسان يملك أعضاءه وقواه الفعالة من سمع وبصر وغير ذلك، وهي تملك أفعالها، وإذ كان الله سبحانه يملك كل شيء فهو يملك كل من يملك منها شيئا، ويملك ما يملكه، وهذا هو الملك (بالضم) فهو مليك على الإطلاق، قال تعالى: ﴿لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ﴾، وقال تعالى: ﴿عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾، إلى غير ذلك من الآيات، هذا هو الحقيقي من الملك والملك.

ج. أما الاعتباري منها فإنه تعالى مالك لأنه هو المعطي لكل من يملك شيئا من المال، ولو لم يملك لم يصح منه ذلك ولكان معطيا لما لا يملك لمن لا يملك، قال تعالى: ﴿وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ الله الَّذِي آتَاكُمْ﴾

٣. وهو تعالى مليك يملك ما في أيدي الناس لأنه شارع حاكم يتصرف بحكمه فيما يملكه الناس كما يتصرف الملوك فيما عند رعاياهم من المال، قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ الله لَا تُحْصُوهَا﴾، وقال: ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾، وقال: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ الله وَللهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، وقال: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ للهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾، فهو تعالى يملك ما في أيدينا قبلنا ويملكه معنا وسيراه بعدنا عز ملكه.

٤. من التأمل فيما تقدم يظهر أن قوله تعالى: ﴿اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ﴾، مسوق:

أ. أولا: لبيان ملكه تعالى (بالكسر) لكل ملك (بالضم) ومالكية الملك (بالضم) هو الملك على الملك (بالضم فيهما) فهو ملك الملوك، الذي هو المعطي لكل ملك ملكه كما قال تعالى: ﴿أَنْ آتَاهُ الله الْمُلْكَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾

ب. وثانيا: يدل بتقديم لفظ الجلالة على بيان السبب فهو تعالى مالك الملك لأنه الله جلت كبرياؤه وهو ظاهر.

ج. وثالثا: أن المراد بالملك في الآية الشريفة والله أعلم ما هو أعم من الحقيقي والاعتباري فإن ما ذكر من أمره تعالى في الآية الأولى أعني قوله: ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ﴾ على ما سنوضحه من شئون الملك الاعتباري وما ذكره في الآية الثانية من شئون الملك الحقيقي فهو مالك الملك مطلقا.

٥. ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ﴾، الملك بإطلاقه شامل لكل ملك حقا أو باطلا عدلا أو جورا فإن ﴿الْمُلْكُ﴾ (كما تقدم بيانه في قوله: ﴿أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ﴾ الآية) في نفسه موهبة من مواهب الله ونعمة يصلح لأن يترتب عليه آثار حسنة في المجتمع الإنساني وقد جبل الله النفوس على حبه والرغبة فيه، والملك الذي تقلده غير أهله ليس بمذموم من حيث إنه ملك، وإنما المذموم إما تقلد من لا يليق بتقلده كمن تقلده جورا وغصبا، وإما سيرته الخبيثة مع قدرته على حسن السيرة، ويرجع هذا الثاني أيضا بوجه إلى الأول، وبوجه آخر يكون الملك بالنسبة إلى من هو أهله نعمة من الله سبحانه إليه، وبالنسبة إلى غير أهله نقمة وهو على كل حال منسوب إلى الله سبحانه وفتنة يمتحن به عباده، وقد تقدم: أن التعليق على المشية في أفعاله تعالى كما في هذه الآية ليس معناه وقوع الفعل جزافا تعالى عن ذلك بل المراد عدم كونه تعالى مجبرا في فعله ملزما عليه فهو تعالى يفعل ما يفعل بمشيته المطلقة من غير أن يجبره أحد أو يكرهه وإن جرى فعله على المصلحة دائما.

٦. ﴿وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ﴾، العز كون الشيء بحيث يصعب مناله، ولذا يقال للشيء النادر الوجود إنه عزيز الوجود أي صعب المنال، ويقال عزيز القوم لمن يصعب قهره والغلبة عليه من بينهم فهو صعب المنال بالقهر والغلبة، وصعب المنال من حيث مقامه فيهم ووجدانه كل ما لهم من غير عكس ثم استعمل في كل صعوبة كما يقال: يعز علي كذا، قال تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾، أي صعب عليه، واستعمل في كل غلبة كما يقال، من عز بز أي من غلب سلب، قال تعالى: ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾، أي غلبني والأصل في معناه ما مر، ويقابله الذل وهو سهولة المنال بقهر محقق أو مفروض قال تعالى: {ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ}، وقال تعالى: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ﴾، وقال تعالى ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾

٧. العزة من لوازم الملك على الإطلاق وكل من سواه إذا تملك شيئا فهو تعالى خوله ذلك وملكه، وإن ملك على قوم فهو تعالى آتاه ذلك فكانت العزة له تعالى محضا وما عند غيره منها فإنما هو بإيتائه وإفضاله، قال تعالى: ﴿أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ للهِ جَمِيعًا﴾، وقال: ﴿وَللهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وهذه هي العزة الحقيقية وأما غيرها فإنما هي ذل في صورة عز، قال تعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ ولذا أردفه بقوله: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾،

وللذل بالمقابلة ما يقابل العز من الحكم فكل شيء غيره تعالى ذليل في نفسه إلا من أعزه الله تعالى {تُعِزُّ مَنْ تَشاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشاءُ}

٨. ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، الأصل في معنى الخير هو الانتخاب وإنما نسمي الشيء خيرا لأنا نقيسه إلى شيء آخر نريد أن نختار أحدهما فننتخبه فهو خير ولا نختاره إلا لكونه متضمنا لما نريده ونقصده فما نريده هو الخير بالحقيقة، وإن كنا أردناه أيضا لشيء آخر فذلك الآخر هو الخير بالحقيقة، وغيره خير من جهته، فالخير بالحقيقة هو المطلوب لنفسه يسمى خيرا لكونه هو المطلوب إذا قيس إلى غيره، وهو المنتخب من بين الأشياء إذا أردنا واحدا منها وترددنا في اختياره من بينها، فالشيء كما عرفت إنما يسمى خيرا لكونه منتخبا إذا قيس إلى شيء آخر مؤثرا بالنسبة إلى ذلك الآخر ففي معناه نسبة إلى الغير ولذا قيل: إنه صيغة التفضيل وأصله أخير، وليس بأفعل التفضيل، وإنما يقبل انطباق معنى التفضيل على مورده فيتعلق بغيره كما يتعلق أفعل التفضيل، يقال: زيد أفضل من عمرو، وزيد أفضلهما، ويقال: زيد خير من عمرو، وزيد خيرهما، ولو كان خير صيغة التفضيل لجرى فيه ما يجري عليه، ويقال أفضل وأفاضل وفضلى وفضليات، ولا يجري ذلك في خير بل يقال: خير وخيرة وأخيار وخيرات كما يقال: شيخ وشيخة وأشياخ وشيخات فهو صفة مشبهة، ومما يؤيده استعماله في موارد لا يستقيم فيه معنى أفعل التفضيل كقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا عِنْدَ الله خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ﴾، فلا خير في اللهو حتى يستقيم معنى أفعل، وقد اعتذروا عنه وعن أمثاله بأنه منسلخ فيها عن معنى التفضيل، وهو كما ترى، فالحق أن الخير إنما يفيد معنى الانتخاب، واشتمال ما يقابله من المقيس عليه على شيء من الخير من الخصوصيات الغالبة في الموارد.

٩. يظهر مما تقدم أن الله سبحانه هو الخير على الإطلاق لأنه الذي ينتهي إليه كل شيء، ويرجع إليه كل شيء، ويطلبه ويقصده كل شيء لكن القرآن الكريم لا يطلق عليه سبحانه الخير إطلاق الاسم كسائر أسمائه الحسنى جلت أسماؤه، وإنما يطلقه عليه إطلاق التوصيف كقوله تعالى: ﴿وَالله خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾، وكقوله: ﴿أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ الله الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾، نعم وقع الإطلاق على نحو التسمية بالإضافة كقوله تعالى: ﴿وَالله خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾، وقوله: ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾، وقوله: ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ وقوله: ﴿وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾، وقوله: ﴿وَالله خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾، وقوله: ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾، وقوله: ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾، وقوله: ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾، وقوله: ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾، وقوله: ﴿وَأَنْتَ

خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾، ولعل الوجه في جميع ذلك اعتبار ما في مادة الخير من معنى الانتخاب فلم يطلق إطلاق الاسم عليه تعالى صونا لساحته تعالى أن يقاس إلى غيره بنحو الإطلاق وقد عنت الوجوه لجنابة، وأما التسمية عند الإضافة والنسبة، وكذا التوصيف في الموارد المقتضية لذلك فلا محذور فيه.

١٠. الجملة ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ تدل على حصر الخير فيه تعالى لمكان اللام وتقديم الظرف الذي هو الخبر، والمعنى أن أمر كل خير مطلوب إليك، وأنت المعطي المفيض إياه، فالجملة في موضع التعليل لما تقدمت عليها من الجمل أعني قوله: ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ﴾ الآية من قبيل تعليل الخاص بما يعمه وغيره أعني أن الخير الذي يؤتيه تعالى أعم من الملك والعزة، وهو ظاهر.

١١. كما يصح تعليل إيتاء الملك والإعزاز بالخير الذي بيده تعالى كذلك يصح تعليل نزع الملك والإذلال فإنهما وإن كانا شرين لكن ليس الشر إلا عدم الخير فنزع الملك ليس إلا عدم الإعزاز فانتهاء كل خير إليه تعالى هو الموجب لانتهاء كل حرمان من الخير بنحو إليه تعالى نعم الذي يجب انتفاؤه عنه تعالى هو الاتصاف بما لا يليق بساحة قدسه من نواقص أفعال العباد وقبائح المعاصي إلا بنحو الخذلان وعدم التوفيق كما مر البحث عن ذلك.

١٢. بالجملة هناك خير وشر تكوينيان كالملك والعزة ونزع الملك والذلة، والخير التكويني أمر وجودي من إيتاء الله تعالى، والشر التكويني إنما هو عدم إيتاء الخير ولا ضير في انتسابه إلى الله سبحانه فإنه هو المالك للخير لا يملكه غيره، فإذا أعطي غيره شيئا من الخير فله الأمر وله الحمد، وإن لم يعط أو منع فلا حق لغيره عليه حتى يلزمه عليه فيكون امتناعه من الإعطاء ظلما، على أن إعطاءه ومنعه كليهما مقارنان للمصالح العامة الدخيلة في صلاح النظام الدائر بين أجزاء العالم.

١٣. هناك خير وشر تشريعيان وهما أقسام الطاعات والمعاصي، وهما الأفعال الصادرة عن الإنسان من حيث انتسابها إلى اختياره، ولا تستند من هذه الجهة إلى غير الإنسان قطعا، وهذه النسبة هي الملاك لحسنها وقبحها ولولا فرض اختيار في صدورها لم تتصف بحسن ولا قبح، وهي من هذه الجهة لا تنتسب إليه تعالى إلا من حيث توفيقه تعالى وعدم توفيقه لمصالح تقتضي ذلك.

١٤. تبين: أن الخير كله بيد الله وبذلك ينتظم أمر العالم في اشتماله على كل وجدان وحرمان وخير وشر، وقد ذكر بعض المفسرين: أن في قوله: ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ إيجازا بالحذف، والتقدير: بيدك الخير والشر

كما قيل نظير ذلك في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾، أي والبرد، وكان السبب في ذلك الفرار عن الاعتزال لقول المعتزلة بعدم استناد الشرور إليه تعالى، وهو من عجيب الاجتراء على كلامه تعالى، والمعتزلة وإن أخطئوا في نفي الانتساب نفيا مطلقا حتى بالواسطة لكنه لا يجوز هذا التقدير الغريب، وقد تقدم البحث عن ذلك وبيان حقيقة الأمر.

١٥. ﴿إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ في مقام التعليل لكون الخير بيده تعالى فإن القدرة المطلقة على كل شيء توجب أن لا يقدر أحد على شيء إلا بإقداره تعالى إياه على ذلك، ولو قدر أحد على شيء من غير أن تستند قدرته إلى إقداره تعالى كان مقدوره من هذه الجهة خارجا عن سعة قدرته تعالى فلم يكن قديرا على كل شيء، وإذا كانت لقدرته هذه السعة كان كل خير مفروض مقدورا عليه له تعالى، وكان أيضا كل خير إفاضة غيره منسوبا إليه مفاضا عن يديه فهو له أيضا فجنس الخير الذي لا يشذ منه شاذ بيده، وهذا هو الحصر الذي يدل عليه قوله تعالى: ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾

١٦. ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾، الولوج هو الدخول، والظاهر كما ذكروه أن المراد من إيلاج الليل في النهار، وإيلاج النهار في الليل ما هو المشاهد من اختلاف الليل والنهار في عرض السنة بحسب اختلاف عروض البقاع والأمكنة على بسيط الأرض، واختلاف ميول الشمس فتأخذ الأيام في الطول والليالي في القصر وهو ولوج النهار في الليل بعد انتهاء الليالي في الطول من أول الشتاء إلى أول الصيف، ثم يأخذ الليالي في الطول والأيام في القصر وهو ولوج الليل في النهار بعد انتهاء النهار في الطول من أول الصيف إلى أول الشتاء، كل ذلك في البقاع الشمالية، والأمر في البقاع الجنوبية على عكس الشمالية منها، فالطول في جانب قصر في الجانب الآخر فهو تعالى يولج الليل في النهار والنهار في الليل دائما، أما الاستواء في خط الإستواء والقطبين فإنما هو بحسب الحس وأما في الحقيقة فحكم التغيير دائم وشامل.

١٧. ﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾:

أ. وذلك إخراج المؤمن من صلب الكافر، وإخراج الكافر من صلب المؤمن فإنه تعالى سمى الإيمان حياة ونورا والكفر موتا وظلمة كما قال تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾، ويمكن أن يراد الأعم من ذلك ومن خلق الأحياء كالنبات والحيوان من الأرض العديمة الشعور وإعادة الأحياء إلى الأرض بإماتتها فإن كلامه تعالى

كالصريح في أنه يبدل الميت إلى الحي والحي إلى الميت، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾، إلى غيرها من الآيات.

ب. ما ذهب إليه بعض علماء الطبيعة: أن الحياة التي تنتهي إلى جراثيمها تسلك فيها سلوكا من جرثومة حية إلى أخرى مثلها من غير أن تنتهي إلى المادة الفاقدة للشعور، وذلك لإنكاره الكون الحادث، فيبطله الموت المحسوس الذي تثبته التجربة في جراثيم الحياة فتبدل الحياة إلى الموت يكشف عن الربط بينهما.

١٨. ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾.، وصف لتصرفه تعالى في الملك الحقيقي التكويني كما أن الآية السابقة أعني قوله: ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ﴾ الآية تصف تصرفه في الملك الاعتباري الوضعي وتوابعه.

١٩. وضع الله تعالى في كل من الآيتين أربعة أنحاء من التصرف بنحو التقابل، فوضع في الأولى إيتاء الملك ونزعه وبحذائهما في الثانية إيلاج الليل في النهار وعكسه، ووضع الإعزاز والإذلال وبحذائهما إخراج الحي من الميت وعكسه، وفي ذلك من عجيب اللطف ولطيف المناسبة ما لا يخفى فإن إيتاء الملك نوع تسليط لبعض أفراد الناس على الباقين بإعفاء قدر من حريتهم وإطلاقهم الغريزي وإذهابها كتسليط الليل على النهار بإذهاب الليل بعض ما كان يظهره النهار، ونزع الملك بالعكس من ذلك، وكذا إعطاء العزة نوع إحياء لمن كان خامد الذكر خفي الأثر لولاها، نظير إخراج الحي من الميت، والإذلال بالعكس من ذلك، وفي العزة حياة وفي الذلة ممات.

٢٠. هنا وجه آخر: وهو أن الله عد النهار في كلامه آية مبصرة والليل آية محوة قال تعالى: ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾، ومظهر هذا الإثبات والإمحاء في المجتمع الإنساني ظهور الملك والسلطنة وزواله، وعد الحياة والموت مصدرين للآثار من العلم والقدرة كما قال تعالى: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾، وخص العزة لنفسه ولرسوله وللمؤمنين حيث قال: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾، وهم الذين يذكرهم بالحياة فصارت العزة والذلة مظهرين في المجتمع الإنساني للحياة والموت، ولهذا قابل ما ذكره في الآية الأولى من إيتاء الملك ونزعه والإعزاز والإذلال بما في الآية الثانية من إيلاج الليل في النهار وعكسه وإخراج الحي من الميت وعكسه، ثم وقعت المقابلة بين ما ذكره في الآية الثانية: ﴿وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، وما ذكره في الآية الأولى: ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾، كما سيجيء

بيانه.

٢١. ﴿وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، المقابلة المذكورة آنفا تعطي أن يكون قوله: ﴿وَتَرْزُقُ﴾ الآية بيانا لما سبقه من إيتاء الملك والعز والإيلاج وغيره، فالعطف عطف تفسير فيكون من قبيل بيان الخاص من الحكم بما هو أعم منه كما أن قوله: ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾، بالنسبة إلى ما سبقه من هذا القبيل، والمعنى: أنك متصرف في خلقك بهذه التصرفات لأنك ترزق من تشاء بغير حساب.

٢٢. وضع هنا مبحثا حول [معنى الرزق في القرآن: حقيقته، أنواعه، وعلاقته بالخير والخلق]، خلاصته:

أ. الرزق في الأصل كان مختصاً بالغذاء، ثم توسع ليشمل كل ما يصل إلى الإنسان وينتفع به، كالمال والجاه والعلم.

ب. الرزق بحسب الحقيقة لا ينتسب إلا إلى الله، وما ينسب لغيره فهو بالإذن والتمليك.

ج. النفع المحرم (كالمال الحرام) ليس رزقاً بحسب التشريع، لكنه رزق بحسب التكوين، ولا منافاة بين الجهتين.

د. كل ما يناله الإنسان من الخير فهو رزق من الله، والشر الذي يصيبه فهو من نفسه، لأن الخير كله من الله.

هـ. الرزق والخير والخلق متساوية في المصداق، لكنها تختلف في الاعتبار: الرزق يحتاج إلى مرزوق، والخير يحتاج إلى محتاج طالب، والخلق لا يحتاج إلى شيء.

و. الرزق عطية من الله بلا عوض، وهو حق جعله الله على نفسه، لا استحقاق للمرزوق.

ز. الرزق نوعان: عام (يمد كل موجود في بقائه)، وخاص (في مجرى الحلال)، وكلاهما مقدران.

ح. الرزق هو ما ينتفع به فعلاً، فمن أوتي مالاً كثيراً ولم يأكل إلا القليل، فإن رزقه هو ما أكله.

ط. قوله ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ (٤٠)﴾ يعني بلا عوض ولا استحقاق، لا أنه غير مقدر، لأن آيات القدر تدل على التقدير.

٢٣. ﴿وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ فنقول توصيف الرزق بكونه بغير حساب إنما هو لكون الرزق منه تعالى بالنظر إلى حال المرزوقين بلا عوض ولا استحقاق لكون ما عندهم من استدعاء أو طلب

أو غير ذلك مملوكا له تعالى محضا فلا يقابل عطيته منهم شيء فلا حساب لرزقه تعالى، وأما كون نفي الحساب راجعا إلى التقدير بمعنى كونه غير محدود ولا مقدر فيدفعه آيات القدر كقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾، وقوله: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾، فالرزق منه تعالى عطية بلا عوض لكنه مقدر على ما يريده تعالى.

٢٤. تحصل من الآيتين:

أ. أولا: أن الملك (بضم الميم) كله لله كما أن الملك (بكسر الميم) كله لله.

ب. وثانيا: أن الخير كله بيده ومنه تعالى.

ج. وثالثا: أن الرزق عطية منه تعالى بلا عوض واستحقاق.

د. ورابعا: أن الملك والعزة وكل خير اعتباري من خيرات الاجتماع كالمال والجاه والقوة وغير ذلك كل ذلك من الرزق المرزوق.

٢٥. وضع هنا مبحثا حول [استناد الأمور الاعتبارية إلى الله: بحث فلسفي في الملك والعز والأحكام]، خلاصته:

أ. الواجب تعالى هو منتهى سلسلة العلية، والعلية إنما هي في الوجود، والماهية بمعزل عن الافتقار إلى العلة.

ب. الأمور الاعتبارية (كالملك والعز والأمر والنهي) لا وجود حقيقي لها، وإنما وجودها اعتباري، لكن لها آثاراً حقيقية خارجية.

ج. استناد هذه الأمور الاعتبارية إلى الله يكون باستناد آثارها الخارجية إلى عللها الحقيقية، وهذه النسبة هي المصححة لنسبتها.

د. الملك أمر اعتباري وسيلة لتحقيق آثار كقهر المتغلبين ووضع كل ذي حق في مقامه، وهذه الآثار لها استناد حقيقي إلى الله.

هـ. العزة الاعتبارية والأمر والنهي والحكم كلها على هذا النحو: استنادها إلى الله باستناد آثارها الحقيقية إليه.

٢٦. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي عن عبد الأعلى مولى آل سام عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت له: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٢٦]، أليس قد آتى الله بني أمية الملك؟ قال: ليس حيث تذهب، إن الله عز وجل آتانا الملك، وأخذته بنو أمية بمنزلة الرجل يكون له الثوب فيأخذه الآخر، فليس هو للذي أخذه.

• أقول: وروى مثله العياشي عن داود بن فرقد عنه عليه السلام، وإيتاء الملك على ما تقدم بيانه يكون على وجهين:

● إيتاء تكويني، وهو انبساط السلطنة على الناس ونفوذ القدرة فيهم، سواء كان ذلك بالعدل أو بالظلم، كما قال تعالى في نمرود: ﴿أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، وأثره نفوذ الكلمة ومضي الأمر والإرادة، وسنبحث عن معنى كونه تكوينياً

● وإيتاء تشريعي، وهو القضاء بكونه ملكاً مفترض الطاعة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ [البقرة: ٢٤٧]، وأثره افتراض الطاعة وثبوت الولاية، ولا يكون إلا للعدل، وهو مقام محمود عند الله سبحانه.

• والذي كان لبني أمية من الملك هو المعنى الأول وأثره، وقد اشتبه الأمر على راوي الحديث، فأخذ ملكهم بالمعنى الأول، وأخذ معه أثر المعنى الثاني وهو المقام الشرعي والحمد الديني، فنبهه عليه السلام أن الملك بهذا المعنى ليس لبني أمية، بل هو لهم ولهم أثره، وبعبارة أخرى: الملك الذي لبني أمية إنما يكون محموداً إذا كان في أيديهم عليهم السلام، وأما في أيدي بني أمية فليس إلا مذموماً لأنه مغصوب، وعلى هذا فلا ينسب إلى إيتاء الله إلا بنحو المكر والاستدراج، كما في ملك نمرود وفرعون.

• وقد اشتبه الأمر على هؤلاء أنفسهم أعني بني أمية في هذه الآية، ففي الإرشاد في قصة إشخاص يزيد بن معاوية رؤوس شهداء الطف، قال المفيد: ولما وضعت الرؤوس وفيها رأس الحسين عليه السلام، قال يزيد:

نفلق هاماً من رجال أعزّة... علينا وهم كانوا أعقّ وأظلما

قال: ثم أقبل على أهل مجلسه فقال: إن هذا كان يفخر عليّ، ويقول: (أبي خير من أب يزيد، وأمي

خير من أمه، وجدي خير من جده، وأنا خير منه)، فهذا الذي قتله، فأما قوله بأن أبي خير من أب يزيد، فلقد حاج أبي أباه فقضى الله لأبي على أبيه، وأما قوله بأن أمي خير من أم يزيد، فلعمري لقد صدق، إن فاطمة بنت رسول الله خير من أمي، وأما قوله: جدي خير من جده، فليس لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يقول بأنه خير من محمد، وأما قوله بأنه خير مني، فلعله لم يقرأ هذه الآية: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ﴾ الآية.

• وردت زينب بنت علي عليه وعليها السلام عليه قوله بمثل ما ذكره الصادق عليه السلام في الرواية السابقة، على ما رواه السيد بن طاووس وغيره، فقالت فيما خاطبته: أظننت يا يزيد حيث أخذت علينا أقطار الأرض وآفاق السماء، فأصبحنا نساق كما تساق الأسارى، أن بنا على الله هواناً، وبك عليه كرامة، وأن ذلك لعظم خطرك عنده، فشمخت بأنفك، ونظرت في عطفك جذلان مسروراً، حين رأيت الدنيا لك مستوسقة، والأمور متسقة، وحين صفا لك ملكنا وسلطاننا، مهلاً مهلاً، أنسيت قول الله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨]، الخطبة.

ب. وفي المجمع في قوله تعالى: ﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ [آل عمران: ٢٧] الآية، قيل معناه: وتخرج المؤمن من الكافر، وتخرج الكافر من المؤمن، قال: وروي ذلك عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام.

• أقول: وروى قريباً منه الصدوق عن العسكري عليه السلام.

ج. وأخرج ابن مردويه من طريق أبي عثمان النهدي عن ابن مسعود أو عن سلمان عن النبي ﷺ: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ [الروم: ١٩]، قال: المؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن.

د. وفيه أيضاً بالطريق السابق عن سلمان الفارسي قال: قال رسول الله ﷺ: لما خلق الله آدم عليه السلام، أخرج ذريته، فقبض قبضة بيمينه فقال: هؤلاء أهل الجنة ولا أبالي، وقبض بالأخرى قبضة، فجاء فيها كل رديء، فقال: هؤلاء أهل النار ولا أبالي، فخلط بعضهم ببعض، فيخرج الكافر من المؤمن، ويخرج المؤمن من الكافر، فذلك قوله: ﴿تُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ [آل عمران: ٢٧]

• أقول: وروي هذا المعنى عن عدة من أصحاب التفسير عن سلمان أيضاً مقطوعاً، والرواية من

أخبار الذر والميثاق، وسيجيء بيانها في موضع يليق بها إن شاء الله.

هـ. وفي الكافي عن محمد بن يحيى عن أحمد بن محمد وعدة من أصحابنا عن سهل بن زياد عن ابن محبوب عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله في حجة الوداع: ألا إن الروح الأمين نفث في روعي: أنه لا تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، ولا يحملنكم استبطاء شيء من الرزق أن تطلبوه بشيء من معصية الله؛ فإن الله تعالى قسم الأرزاق بين خلقه حلالاً، ولم يقسمها حراماً، فمن اتقى الله وصبر، أتاه رزقه من حله، ومن هتك حجاب ستر الله عز وجل وأخذه من غير حله، قص به من رزقه الحلال، وحوسب عليه.

و. وفي النهج قال عليه السلام: الرزق رزقان: رزق تطلبه، ورزق يطلبك، فإن لم تأته أتاك، فلا تحمل هم سنتك يومك، كفاك كل يوم ما فيه، فإن تكن السنة من عمرك، فإن الله تعالى جده سيؤتيك في كل غد جديد ما قسم لك، وإن لم تكن السنة من عمرك، فما تصنع بالهم لما ليس لك؟ ولن يسبقك إلى رزقك طالب، ولن يغلبك عليه غالب، ولن يبطئ عنك ما قد قدر لك.

ز. وفي قرب الإسناد: ابن طريف عن ابن علوان عن جعفر عن أبيه عليهما السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إن الرزق لينزل من السماء إلى الأرض على عدد قطر المطر، إلى كل نفس بما قدر لها، ولكن لله فضول، فاسألوا الله من فضله.

• أقول: والروايات في هذه المعاني كثيرة، وسيجيء استيفاء البحث عن أخبار الرزق في سورة هود إن شاء الله تعالى.

١٥. النهي عن موالاة الكافرين إلا لضرورة التقية بشروطها:

المقطع [١٥] من سورة آل عمران، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٣/ ١٥٢»:

١. ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾:

أ. الأولياء جمع الولي من الولاية وهي في الأصل ملك تدبير أمر الشيء فولي الصغير أو المجنون أو المعتوه هو الذي يملك تدبير أمورهم وأمور أموالهم فالمال لهم وتدبير أمره لوليهم، ثم استعمل وكثر

استعماله في مورد الحب لكونه يستلزم غالبا تصرف كل من المتحابين في أمور الآخر لإفضائه إلى التقرب والتأثر عن إرادة المحبوب وسائر شؤونه الروحية فلا يخلو الحب عن تصرف المحبوب في أمور المحب في حيوته، فاتخاذ الكافرين أولياء هو الامتزاج الروحي بهم بحيث يؤدي إلى مطاوعتهم والتأثر منهم في الأخلاق وسائر شؤون الحياة وتصرفهم في ذلك، ويدل على ذلك تقييد هذا النهي بقوله: ﴿مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، فإن فيه دلالة على إيثار حبهم على حب المؤمنين، وإلقاء أزمة الحياة إليهم دون المؤمنين، وفيه الركون إليهم والاتصال بهم والانفصال عن المؤمنين.

ب. تكرر ورود النهي في الآيات الكريمة عن تولي الكافرين واليهود والنصارى واتخاذهم أولياء لكن موارد النهي مشتملة على ما يفسر معنى التولي المنهي عنه، ويعرف كيفية الولاية المنهي عنها كاشتمال هذه الآية على قوله: ﴿مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بعد قوله: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ﴾، واشتمال قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ﴾ الآية، على قوله: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾، وتعقب قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ الآية، بقوله: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾ إلى آخر الآيات، وعلى هذا فأخذ هذه الأوصاف في قوله: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ للدلالة على سبب الحكم وعلته، وهو أن صفتي الكفر والإيمان مع ما فيهما من البعد والبينونة ولا محالة يسري ذلك إلى من اتصف بهما فيفرق بينهما في المعارف والأخلاق وطريق السلوك إلى الله تعالى وسائر شؤون الحياة لا يلائم حالهما مع الولاية فإن الولاية يوجب الاتحاد والامتزاج، وهاتان الصفتان توجبان التفرق والبينونة، وإذا قويت الولاية كما إذا كان من دون المؤمنين أوجب ذلك فساد خواص الإيمان وآثاره ثم فساد أصله، ولذلك عقبه بقوله: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ﴾، ثم عقبه أيضا بقوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾، فاستثنى التقية فإن التقية إنما توجب صورة الولاية في الظاهر دون حقيقتها.

ج. دون في قوله: ﴿مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ كأنه ظرف يفيد معنى عند مع شوب من معنى السفالة والقصور، والمعنى: مبتدئا من مكان دون مكان المؤمنين فإنهم أعلى مكانا، والظاهر أن ذلك هو الأصل في معنى دون فكان في الأصل يفيد معنى الدنو مع خصوصية الانخفاض فقولهم دونك زيد أي هو في مكان يدنو من مكانك وأخفض منه كالدرجة دون الدرجة ثم استعمل بمعنى غير كقوله: ﴿إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ﴾،

وقوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾، أي ما سوى ذلك أو ما هو أدون من ذلك وأهون، كذا استعمل اسم فعل كقولهم: دونك زيدا أي الزمه، كل ذلك من جهة الانطباق على المورد دون الاشتراك اللفظي.

٢. ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ﴾، أي ومن يتخذهم أولياء من دون المؤمنين، وإنما بدل من لفظ عام للإشعار بنهاية نفرة المتكلم منه حتى أنه لا يتلفظ به إلا بلفظ عام كالتكنية عن القبائح، وهو شائع في اللسان، ولذلك أيضا لم يقل: ومن يفعل ذلك من المؤمنين كأن فيه صونا للمؤمنين من أن ينسب إليهم مثل هذا الفعل.

٣. من في قوله: ﴿مِنَ اللهِ﴾، للابتداء، ويفيد في أمثال هذا المقام معنى التحزب أي ليس من حزب الله في شيء كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾، وكما فيما حكاه عن إبراهيم عليه السلام من قوله: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾، أي من حزبي، وكيف كان فالمعنى والله أعلم: ليس من حزب الله مستقرا في شيء من الأحوال والآثار.

٤. ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾:

أ. الاتقاء في الأصل أخذ الوقاية للخوف ثم ربما استعمل بمعنى الخوف استعمالا للمسبب في مورد السبب ولعل التقية في المورد من هذا القبيل، والاستثناء منقطع فإن التقرب من الغير خوفا بإظهار آثار التولي ظاهرا من غير عقد القلب على الحب والولاية ليس من التولي في شيء لأن الخوف والحب أمران قلبيان متباينان ومتنافيان أثرا في القلب فكيف يمكن اتحادهما؟ فاستثناء الاتقاء استثناء منقطع.

ب. في الآية دلالة ظاهرة على الرخصة في التقية على ما روي عن أئمة أهل البيت عليه السلام كما تدل عليه الآية النازلة في قصة عمار وأبويه ياسر وسمية وهي قوله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

ج. بالجملة الكتاب والسنة متطابقان في جوازها في الجملة، والاعتبار العقلي يؤكده إذ لا بغية للدين، ولا هم لشارعه إلا ظهور الحق وحياته، وربما يترتب على التقية والمجاراة مع أعداء الدين ومخالفي الحق من حفظ مصلحة الدين وحياة الحق ما لا يترتب على تركها، وإنكار ذلك مكابرة وتعسف.

٥. ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ﴾:

أ. التحذير تفعيل من الحذر وهو الاحتراز من أمر مخيف وقد حذر الله عباده من عذابه كما قال

تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾، وحذر من المنافقين وفتنة الكفار فقال: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾، وقال: ﴿وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ﴾، وحذرهم من نفسه كما في هذه الآية وما يأتي بعد آيتين، وليس ذلك إلا للدلالة على أن الله سبحانه نفسه هو المخوف الواجب الاحتراز في هذه المعصية، أي ليس بين هذا المجرم وبينه تعالى شيء مخوف آخر حتى يتقى عنه بشيء أو يتحصن منه بحصن، وإنما هو الله الذي لا عاصم منه، ولا أن بينه وبين الله سبحانه أمر مرجو في دفع الشر عنه من ولي ولا شفيع، ففي الكلام أشد التهديد، ويزيد في اشتداده تكراره مرتين في مقام واحد ويؤكده تذييله أولا بقوله: ﴿وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ﴾، وثانيا بقوله: {وَاللهُ رَؤُوف بِالْعِبادِ}

ب. من جهة أخرى: يظهر من مطاوي هذه الآية وسائر الآيات الناهية عن اتخاذ غير المؤمنين أولياء أنه خروج عن زي العبودية، ورفض لولاية الله سبحانه، ودخول في حزب أعدائه لإفساد أمر الدين، وبالجملة هو طغيان وإفساد لنظام الدين الذي هو أشد وأضر بحال الدين من كفر الكافرين وشرك المشركين فإن العدو الظاهر عدواته المباين طريقته مدفوع عن الحومة سهل الاتقاء والحذر، وأما الصديق والحميم إذا استأنس مع الأعداء ودب فيه أخلاقهم وسننهم فلا يلبث فعاله إلا أن يذهب بالحومة وأهلها من حيث لا يشعرون، وهو الهلاك الذي لا رجاء للحياة والبقاء معه.

ج. بالجملة هو طغيان، وأمر الطاغي في طغيانه إلى الله سبحانه نفسه، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾، فالطغيان يسلك بالطاغي مسلكا يورده المرصاد الذي ليس به إلا الله جلت عظمته فيصب عليه سوط عذاب ولا مانع.

د. من هنا يظهر: أن التهديد بالتحذير من الله نفسه في قوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ﴾، لكون المورد من مصاديق الطغيان على الله بإبطال دينه وإفساده، ويدل على ما ذكرناه قوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾، وهذه آية ذكر رسول الله ﷺ أنها شيبته، على ما في الرواية، فإن الآيتين، كما هو ظاهر للمتدبر، ظاهرتان في أن الركون إلى الظالمين من الكافرين طغيان يستتبع مس النار استتباعا

لا ناصر معه، وهو الانتقام الإلهي لا عاصم منه ولا دافع له كما تقدم بيانه.

هـ. من هنا يظهر أيضا: أن في قوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ﴾، دلالة على أن التهديد إنما هو بعذاب مقضي قضاء حتما من حيث تعليق التحذير بالله نفسه الدال على عدم حائل يحول في البين، ولا عاصم من الله سبحانه وقد أوعد بالعذاب فينتج قطعية الوقوع كما يدل على مثله قوله في آيتي سورة هود: ﴿فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾

٦. في قوله: ﴿وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ﴾ دلالة على أن لا مفر لكم منه ولا صارف له، ففيه تأكيد التهديد السابق عليه.

٧. والآيات أعني قوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ﴾ الآية وما يتبعها من الآيات من ملاحم القرآن، وسيجيء بيانه إن شاء الله في سورة المائدة.

٨. تبين من الكلام في هذه الآيات الكريمة أمور:

أ. أحدها: الرخصة في التقية في الجملة.

ب. ثانيها: أن مؤاخذة تولي الكفار والتمرد عن النهي فيه لا يتخلف البتة، وهي من القضاء الحتم.

ج. ثالثها: أن تولي الكافرين كفر والمراد به الكفر في الفروع دون الأصول ككفر مانع الزكاة وتارك الصلاة ويمكن أن يكون كفر المتولي بعناية ما ينجر إليه أمر التولي على ما مر بيانه، وسيأتي في سورة المائدة.

٩. أحاديث وآثار:

أ. في الدر المنثور في قوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ﴾ [آل عمران: ٢٨] الآية، أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: كان الحجاج بن عمرو حليف كعب بن الأشرف، وابن أبي الحقيق، وقيس بن زيد، وقد بطنوا بنفر من الأنصار ليفتنوهم عن دينهم، فقال رفاعة بن المنذر وعبد الله بن جبير وسعد بن خثيمة لأولئك النفر: اجتنبوا هؤلاء النفر من يهود، واحذروا مباطنتهم لا يفتنوكم عن دينكم، فأبى أولئك النفر، فأنزل الله: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ﴾ إلى قوله: ﴿وَاللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٩]

• أقول: الرواية لا تلائم ظاهر الآية، لما تقدم أن الكافرين في القرآن غير معلوم الإطلاق على أهل الكتاب، فأولى بالقصة أن تكون سبباً لنزول الآيات الناهية عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء دون هذه

الآيات.

ب. وفي الصافي في قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ [آل عمران: ٢٨] الآية، عن كتاب الاحتجاج عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث: وأمرك أن تستعمل التقية في دينك، فإن الله يقول: ﴿إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾، وإياك ثم إياك أن تتعرض للهلاك، وأن تترك التقية التي أمرتك بها، فإنك شائط بدمك ودماء إخوانك، معرض لزوال نعمك ونعمهم، مذلهم في أيدي أعداء دين الله، وقد أمرك الله بإعزازهم.

ج. وفي تفسير العياشي عن الصادق عليه السلام قال: كان رسول الله ﷺ يقول: لا دين لمن لا تقية له، ويقول: قال الله: ﴿إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾

د. وفي الكافي عن الباقر عليه السلام: التقية في كل شيء يضطر إليه ابن آدم، وقد أحل الله له.

• أقول: والأخبار في مشروعية التقية من طرق أئمة أهل البيت كثيرة جداً، ربما بلغت حد التواتر، وقد عرفت دلالة الآية عليها دلالة غير قابلة للدفع.

١٦. علم الله بكل عمل وتسجيله والمحاسبة عليه:

المقطع [١٦] من سورة آل عمران، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٢٩-٣٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٣/ ١٥٦»:

١. ﴿قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾:

أ. الآية نظيرة قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾، غير أنه لما كان الأنسب بحال العلم أن يتعلق بالمخفي بخلاف الحساب فإن الأنسب له أن يتعلق بالبادي الظاهر، قدم ذكر الإخفاء في هذه الآية على ذكر الإبداء، وجرى بالعكس منه في آية البقرة كما قيل.

ب. أمر في الآية رسوله بإبلاغ هذه الحقيقة، وهو علمه بما تخفيه أنفسهم أو تبديه، من دون أن يباشره بنفسه كسابق الكلام، وليس ذلك إلا ترفعا عن مخاطبة من يستشعر من حاله أنه سيخالف ما وصاه كما مر ما يشبه ذلك في قوله: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾

٢. في قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ مضاهاة لما مر من آية البقرة وقد مر الكلام فيه.

٣. ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ﴾:

أ. الظاهر من اتصال السياق أنه من تتمة القول في الآية السابقة الذي أمر به النبي ﷺ، والظرف متعلق بمقدر أي واذكر يوم تجد، أو متعلق بقوله: ﴿يَعْلَمْهُ اللهُ وَيَعْلَمُ﴾، ولا ضير في تعليق علمه تعالى بما سنشاهده من أحوال يوم القيامة فإن هذا اليوم ظرف لعلمه تعالى بالنسبة إلى ظهور الأمر لنا لا بالنسبة إلى تحققه منه تعالى، وذلك كظهور ملكه وقدرته وقوته في اليوم، قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ للهِ الْوَاحِدِ﴾ ﴿الْقَهَّارِ﴾، وقال: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾، وقال: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ للهِ جَمِيعًا﴾، وقال: ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ للهِ﴾، إذ من المعلوم أن الله سبحانه له كل الملك والقدرة والقوة والأمر دائما، قبل القيامة وفيها وبعدها، وإنما اختص يوم القيامة بظهور هذه الأمور لنا معاشر الخلائق ظهورا لا ريب فيه.

ب. من ذلك يظهر أن تعلق الظرف بقوله: ﴿يَعْلَمْهُ اللهُ﴾، لا يفيد تأخر علمه تعالى بسرائر عباده من خير أو شر إلى يوم القيامة، على أن في قوله تعالى: ﴿مُحْضَرًا﴾، دون أن يقول: حاضرا دلالة على ذلك فإن الإحضار إنما يتم فيما هو موجود غائب فالأعمال موجودة محفوظة عن البطلان يحضرها الله تعالى لخلقه يوم القيامة، ولا حافظ لها إلا الله سبحانه، قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ وقال: ﴿وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾

ج. ﴿تَجِدُ﴾، من الوجدان خلاف الفقدان، ومن في قوله: ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ و﴿مِنْ سُوءٍ﴾ للبيان، والتنكير للتعميم، أي تجد كل ما عملت من الخير وإن قل وكذا من السوء وقوله: ﴿وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ﴾، معطوف على قوله ﴿مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ﴾ على ما هو ظاهر السياق والآية من الآيات الدالة على تجسم الأعمال، وقد مر البحث عنها في سورة البقرة.

٤. ﴿تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾:

أ. الظاهر أنه خبر لمبتدإ محذوف وهو الضمير الراجع إلى النفس، و﴿لَوْ﴾ للتمني، وقد كثر دخوله في القرآن على أن المفتوحة المشددة، فلا يعبأ بما قيل من عدم جوازه وتأويل ما ورد فيه ذلك من الموارد.

ب. الأمد يفيد معنى الفاصلة الزمانية، قال الراغب في مفردات القرآن: الأمد والأبد يتقاربان، لكن الأبد عبارة عن مدة الزمان التي ليس لها حد محدود، ولا يتقيد، لا يقال: أبد كذا، والأمد مدة لها حد مجهول إذا أطلق، وقد ينحصر نحو أن يقال: أمد كذا، كما يقال: زمان كذا، والفرق بين الزمان والأمد، أن الأمد يقال باعتبار الغاية، والزمان عام في المبدإ والغاية، ولذا قال بعضهم: الأمد والمدى يتقاربان.

٥. في قوله تعالى: ﴿تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾، دلالة على أن حضور سيئ العمل يسوء النفس كما يشعر بالمقابلة بأن حضور خير العمل يسرها، وإنما تود الفاصلة الزمانية بينها وبينه دون أن تود أنه لم يكن من أصله لما يشاهد من بقائه بحفظ الله فلا يسعها إلا أن تحب بعده وعدم حضوره في أشق الأحوال، وعند أعظم الأهوال كما يقول لقرين السوء نظير ذلك، قال تعالى: {نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَلَهُ قَرِينٌ} إلى أن قال: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾

٦. {وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَاللهُ رَؤُوف بِالْعِبادِ} ذكر التحذير ثانيا يعطي من أهمية المطلب والبلوغ في التهديد ما لا يخفى، ويمكن أن يكون هذا التحذير الثاني ناظرا إلى عواقب المعصية في الآخرة كما هو مورد نظر هذه الآية، والتحذير الأول ناظرا إلى وبالها في الدنيا أو في الأعم من الدنيا والآخرة.

٧. {وَاللهُ رَؤُوف بِالْعِبادِ} هو، على كونه حاكيا عن رأفته وحنانه تعالى المتعلق بعباده كما يحكي عن ذلك الإتيان بوصف العبودية والرقية، دليل آخر على تشديد التهديد إذ أمثال هذا التعبير في موارد التخويف والتحذير إنما يؤتى بها لتثبيت التخويف وإيجاد الإذعان بأن المتكلم ناصح لا يريد إلا الخير والصلاح، تقول: إياك أن تتعرض لي في أمر كذا فإني آليت أن لا أسامح مع من تعرض لي فيه، إنما أخبرك بهذا رأفة بك وشفقة، فيئول المعنى، والله أعلم، إلى مثل أن يقال: إن الله لرأفته بعباده ينهاهم قبلا أن يتعرضوا لمثل هذه المعصية التي وبال أمرها واقع لا محالة من غير أن يؤثر فيه شفاعة شافع ولا دفع دافع.

١٧. محبة الله مشروطة باتباع الرسول والطاعة له:

المقطع [١٧] من سورة آل عمران، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣١-٣٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٣/ ١٥٨»:

١. ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾:

أ. تقدم كلام في معنى الحب، وأنه يتعلق بحقيقة معناه بالله سبحانه كما يتعلق بغيره في تفسير قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا للهِ﴾ الآية، ونزيد عليه هاهنا: أنه لا ريب أن الله سبحانه، على ما ينادي به كلامه، إنما يدعو عبده إلى الإيمان به وعبادته بالإخلاص له والاجتناب عن الشرك كما قال تعالى: ﴿أَلَا للهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾، وقال تعالى: ﴿فَادْعُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾، إلى غير ذلك من الآيات.

ب. لا شك أن الإخلاص في الدين إنما يتم على الحقيقة إذا لم يتعلق قلب الإنسان، الذي لا يريد شيئا ولا يقصد أمرا إلا عن حب نفسي وتعلق قلبي، بغيره تعالى من معبود أو مطلوب كصنم أو ند أو غاية دنيوية بل ولا مطلوب أخروي كفوز بالجنة أو خلاص من النار وإنما يكون متعلق قلبه هو الله تعالى في معبوديته، فالإخلاص لله في دينه إنما يكون بحبه تعالى.

ج. ثم الحب الذي هو بحسب الحقيقة الوسيلة الوحيدة لارتباط كل طالب بمطلوبه وكل مريد بمراده إنما يجذب المحب إلى محبوبه ليجده ويتم بالمحبوب ما للمحب من النقص ولا بشرى للمحب أعظم من أن يبشر أن محبوبه يحبه، وعند ذلك يتلاقى حبان، ويتعاكس دلالان، فالإنسان إنما يحب الغذاء وينجذب ليجده ويتم به ما يجده في نفسه من النقص الذي آتيه الجوع، وكذا يحب النكاح ليجد ما تطلبه منه نفسه الذي علامته الشبق وكذا يريد لقاء الصديق ليجده ويملك لنفسه الأنس وله يضيق صدره، وكذا العبد يحب مولاه والخادم ربما يتوله لمخدومه ليكون مولى له حق المولوية، ومخدوما له حق المخدومية، ولو تأملت موارد التعلق والحب أو قرأت قصص العشاق والمتولهين على اختلافهم لم تشك في صدق ما ذكرناه.

د. فالعبد المخلص لله بالحب لا بغية له إلا أن يحبه الله سبحانه كما أنه يحب الله ويكون الله له كما يكون هو لله عز اسمه فهذا هو حقيقة الأمر غير أن الله سبحانه لا يعد في كلامه كل حب له حبا و(الحب في الحقيقة هو العلقة الرابطة التي تربط أحد الشيئين بالآخعلى ما يقضي به ناموس الحب الحاكم في الوجود فإن حب الشيء يقتضي حب جميع ما يتعلق به، ويوجب الخضوع والتسليم لكل ما هو في جانبه، والله سبحانه هو الله الواحد الأحد الذي يعتمد عليه كل شيء في جميع شؤون وجوده ويبتغي إليه الوسيلة ويصير إليه كل ما دق وجل، فمن الواجب أن يكون حبه والإخلاص له بالتدين له بدين التوحيد وطريق الإسلام على قدر ما يطيقه إدراك الإنسان وشعوره، وإن الدين عند الله الإسلام، وهذا هو الدين الذي

يندب إليه سفراؤه، ويدعو إليه أنبياؤه ورسله، وخاصة دين الإسلام الذي فيه من الإخلاص ما لا إخلاص فوقه، وهو الدين الفطري الذي يختم به الشرائع وطرق النبوة كما يختم بصادعه الأنبياء عليه السلام، وهذا الذي ذكرناه مما لا يرتاب فيه المتدبر في كلامه تعالى.

هـ. وقد عرف النبي ﷺ سبيله الذي سلكه بسبيل التوحيد، وطريقة الإخلاص على ما أمره الله سبحانه حيث قال: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، فذكر أن سبيله الدعوة إلى الله على بصيرة والإخلاص لله من غير شرك فسبيله دعوة وإخلاص، واتباعه واقتفاء أثره إنما هو في ذلك فهو صفة من اتبعه.

و. ثم ذكر الله سبحانه أن الشريعة التي شرعها له ﷺ هي الممثلة لهذا السبيل سبيل الدعوة والإخلاص فقال: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾، وذكر أيضا أنه إسلام لله حيث قال: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لله وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾، ثم نسبه إلى نفسه وبين أنه صراطه المستقيم فقال: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾، فتبين بذلك كله أن الإسلام وهو الشريعة المشرعة للنبي ﷺ الذي هو مجموع المعارف الأصلية والخلقية والعملية وسيرته في الحياة هو سبيل الإخلاص عند الله سبحانه الذي يعتمد ويبتني على الحب، فهو دين الإخلاص، وهو دين الحب.

ز. من جميع ما تقدم على طوله يظهر معنى الآية التي نحن بصدد تفسيرها، أعني قوله: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾ فالمراد، والله أعلم، إن كنتم تريدون أن تخلصوا لله في عبوديتكم بالبناء على الحب حقيقة فاتبعوا هذه الشريعة التي هي مبنية على الحب الذي ممثله الإخلاص والإسلام وهو صراط الله المستقيم الذي يسلك بسالكه إليه تعالى، فإن اتبعتموني في سبيلي وشأنه هذا الشأن أحبكم الله وهو أعظم البشارة للمحب، وعند ذلك تجدون ما تريدون، وهذا هو الذي يبتغيه محب بحبه، هذا هو الذي تقتضيه الآية الكريمة بإطلاقها.

ح. أما بالنظر إلى وقوعها بعد الآيات الناهية عن اتخاذ الكفار أولياء وارتباطها بما قبلها فهذه الولاية لكونها تستدعي في تحققها تحقق الحب بين الإنسان وبين من يتولى كما تقدم كانت الآية ناظرة إلى دعوتهم إلى اتباع النبي ﷺ إن كانوا صادقين في دعواهم ولاية الله وأنهم من حزبه فإن ولاية الله لا يتم باتباع الكافرين في أهوائهم (ولا ولاية إلا باتباع وابتغاء ما عندهم من مطامع الدنيا من عز ومال بل تحتاج إلى

اتباع نبيه في دينه كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾، انظر إلى الانتقال من معنى الاتباع إلى معنى الولاية في الآية الثانية، فمن الواجب على من يدعي ولاية الله بحبه أن يتبع الرسول حتى ينتهي ذلك إلى ولاية الله له بحبه.

ط. إنما ذكر حب الله دون ولايته لأنه الأساس الذي تبتني عليه الولاية، وإنما اقتصر على ذكر حب الله تعالى فحسب لأن ولاية النبي والمؤمنين تئول بالحقيقة إلى ولاية الله.

٢. ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾:

أ. الرحمة الواسعة الإلهية وما عنده من الفيوضات المعنوية والصورية غير المتناهية غير موقوفة على شخص أو صنف من أشخاص عباده وأصنافهم، ولا استثناء هناك يحكم على إطلاق إفاضته، ولا سبيل يلزمه على الإمساك إلا حرمان من جهة عدم استعداد المستفيض المحروم أو مانع أبداه بسوء اختياره، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾

ب. الذنوب هي المانعة من نيل ما عنده من كرامة القرب والزلفى وجميع الأمور التي هي من توابعها كالجنة وما فيها، وإزالة رينها عن قلب الإنسان ومغفرتها وسترها عليه هي المفتاح الوحيد لانفتاح باب السعادة والدخول في دار الكرامة، ولذلك عقب قوله: ﴿يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾ بقوله: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾، فإن الحب كما تقدم يجذب المحب إلى المحبوب، وكما كان حب العبد لربه يستدعي منه التقرب بالإخلاص له وقصر العبودية فيه كذلك حبه تعالى لعبده يستدعي قربه من العبد، وكشفه حجب البعد وسبحات الغيبة، ولا حجاب إلا الذنب فيستدعي ذلك مغفرة الذنوب، وأما ما بعده من الكرامة والإفاضة فالجود كاف فيه كما تقدم آنفا.

ج. التأمل في قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ مع قوله تعالى في هذه الآية: (﴿يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾) كاف في تأييد ما ذكرناه.

٣. ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ﴾:

أ. لما كانت الآية السابقة تدعو إلى اتباع الرسول، والاتباع وهو اقتفاء الأثر لا يتم إلا مع كون المتبع (اسم مفعول) سالك سبيل، والسبيل الذي يسلكه النبي ﷺ إنما هو الصراط المستقيم الذي هو لله سبحانه،

وهو الشريعة التي شرعها لنبيه وافترض طاعته فيه كرر ثانيا في هذه الآية معنى اتباع النبي ﷺ في قالب الإطاعة إشعارا بأن سبيل الإخلاص الذي هو سبيل النبي هو بعينه مجموع أوامر ونواه ودعوة وإرشاد فيكون اتباع الرسول في سلوك سبيله هو إطاعة الله ورسوله في الشريعة المشرعة، ولعل ذكره تعالى مع الرسول للإشعار بأن الأمر واحد، وذكر الرسول معه سبحانه لأن الكلام في اتباعه.

ب. من هنا يظهر عدم استقامة ما ذكره بعضهم في الآية: أن المعنى: أطيعوا الله في كتابه والرسول في سنته، وذلك أنه مناف لما يلوح من المقام من أن قوله: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ﴾ الآية كالمبين لقوله: (﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي﴾)، على أن الآية مشعرة بكون إطاعة الله وإطاعة الرسول واحدة، ولذا لم يكرر الأمر، ولو كان مورد الإطاعة مختلفا في الله ورسوله لكان الأنسب أن يقال: أطيعوا الله وأطيعوا الرسول كما في قوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾، كما لا يخفى، والكلام في هذه الآية من حيث إطلاقها ومن حيث انطباقها على المورد نظير الكلام في الآية السابقة.

٤. ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾، فيه دلالة على كفر المتولي عن هذا الأمر كما يدل على ذلك سائر آيات النهي عن تولي الكفار وفيه أيضا إشعار بكون هذه الآية كالمبينة لسابقتها حيث ختمت بنفي الحب عن الكافرين بأمر الإطاعة، وقد كانت الآية الأولى متضمنة لإثبات الحب للمؤمنين المنقادين لأمر الاتباع فافهم ذلك.

٥. تبين من الكلام في هذه الآية الكريمة أن الشريعة الإلهية ممثلة للإخلاص لله والإخلاص له ممثل لحب الله سبحانه، وبعبارة أخرى الدين الذي هو مجموع المعارف الإلهية والأمور الخلقية والأحكام العملية على ما فيها من العرض العريض لا ينتهي بحسب التحليل إلا إلى الإخلاص فقط، وهو وضع الإنسان ذاته وصفات ذاته (وهي الأخلاق) وأعمال ذاته وأفعاله على أساس أنها لله الواحد القهار، والإخلاص المذكور لا يحلل إلا إلى الحب، هذا من جهة التحليل، ومن جهة التركيب ينتهي الحب إلى الإخلاص، والإخلاص إلى مجموع الشريعة، كما أن الدين بنظر آخر ينحل إلى التسليم والتسليم إلى التوحيد.

٦. أحاديث وآثار:

أ. في معاني الأخبار عن سعيد بن يسار قال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام: هل الدين إلا الحب؟

إن الله عز وجل يقول: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]

• أقول: ورواه في الكافي عن الباقر عليه السلام، وكذا القمي والعياشي في تفسيريهما عن الحذاء عنه عليه السلام، وكذا العياشي في تفسيره عن بريد عنه عليه السلام، وعن ربعي عن الصادق عليه السلام، والرواية تؤيد ما أوضحناه في البيان المتقدم.

ب. وفي المعاني عن الصادق عليه السلام قال: ما أحب الله من عصاه، ثم تمثل بقوله:

تعصي الإله وأنت تظهر حبه... هذا لعمري في الفعال بديع

لو كان حبك صادقاً لأطعته... إن المحب لمن يحب مطيع

ج. وفي الكافي عن الصادق عليه السلام في حديث قال: ومن سره أن يعلم أن الله يحبه، فليعمل بطاعة الله وليتبعنا؛ ألم يسمع قول الله عز وجل لنبيه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]؟ الحديث.

• أقول: وسيأتي بيان كون اتباعهم اتباع النبي ﷺ في الكلام على قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] الآية.

د. وأخرج عبد بن حميد عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: من رغب عن سنتي فليس مني، ثم تلا هذه الآية: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ﴾ إلى آخر الآية.

هـ. وفيه أيضاً أخرج ابن أبي حاتم وأبو نعيم في الحلية والحاكم عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: الشرك أخفى من دبيب الذر على الصفا في الليلة الظلماء، وأدناه أن يحب على شيء من الجور، ويبغض على شيء من العدل، وهل الدين إلا الحب والبغض في الله؟ قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ﴾

و. وفيه أيضاً أخرج أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجة وابن حبان والحاكم عن أبي رافع عن النبي ﷺ قال: لا ألفين أحدكم متكئاً على أريكته، يأتيه الأمر من أمري مما أمرت به أو نهيت عنه، فيقول: لا ندري، ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه.

١٨. اصطفاء الله لآدم ونوح وآل إبراهيم وآل عمران:

المقطع [١٨] من سورة آل عمران، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ

إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣٣-٣٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٣/ ١٦٥»:

١. ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾:

أ. الاصطفاء كما مر بيانه في قوله تعالى: {لَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا}، أخذ صفوة الشيء وتخليصه مما يكدره فهو قريب من معنى الاختيار، وينطبق من مقامات الولاية على مقام الإسلام، وهو جري العبد في مجرى التسليم المحض لأمر ربه فيما يرتضيه له، لكن ذلك غير الاصطفاء على العالمين، ولو كان المراد بالاصطفاء هنا ذاك الاصطفاء لكان الأنسب أن يقال: من العالمين، وأفاد اختصاص الإسلام بهم واختل معنى الكلام، فالاصطفاء على العالمين، نوع اختيار وتقديم لهم عليهم في أمر أو أمور لا يشاركهم فيه أو فيها غيرهم.

ب. من الدليل على ما ذكرناه من اختلاف الاصطفاء قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾، حيث فرق بين الاصطفاءين فالاصطفاء غير الاصطفاء.

٢. ذكر سبحانه في هؤلاء المصطفين آدم ونوحا:

أ. فأما آدم فقد اصطفى على العالمين بأنه أول خليفة من هذا النوع الإنساني جعله الله في الأرض، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، وأول من فتح به باب التوبة، قال تعالى: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾، وأول من شرع له الدين، قال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ الآيات، فهذه أمور لا يشاركه فيها غيره، ويا لها من منقبة له عليه السلام.

ب. وأما نوح فهو أول الخمسة أولي العزم صاحب الكتاب والشريعة كما مر بيانه في تفسير قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ﴾، وهو الأب الثاني لهذا النوع، وقد سلم الله تعالى عليه في العالمين، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾

٣. ثم ذكر سبحانه آل إبراهيم وآل عمران من هؤلاء المصطفين:

أ. الآل: خاصة الشيء، قال الراغب في المفردات: الآل قيل مقلوب عن الأهل، ويصغر على أهيل إلا أنه خص بالإضافة إلى أعلام الناطقين دون النكرات ودون الأزمنة والأمكنة، يقال آل فلان ولا يقال: آل رجل وآل زمان كذا، أو موضع كذا، ولا يقال آل الخياط بل يضاف إلى الأشرف الأفضل، يقال آل الله وآل السلطان، والأهل يضاف إلى الكل، يقال: أهل الله وأهل الخياط كما يقال أهل زمن كذا وبلد كذا، وقيل هو في الأصل اسم الشخص ويصغر أويلا، ويستعمل فيمن يختص بالإنسان اختصاصا ذاتيا إما بقرابة قريبة أو بموالاة انتهى موضع الحاجة، فالمراد بآل إبراهيم وآل عمران خاصتهما من أهلهما والملحقين بهما على ما عرفت.

ب. أما آل إبراهيم فظاهر لفظه أنهم الطيبون من ذريته كإسحاق وإسرائيل والأنبياء من بني إسرائيل وإسماعيل والطاهرون من ذريته، وسيدهم محمد ﷺ، والملحقون بهم في مقامات الولاية إلا أن ذكر آل عمران مع آل إبراهيم يدل على أنه لم يستعمل على تلك السعة فإن عمران هذا إما هو أبو مريم أو أبو موسى عليه السلام، وعلى أي تقدير هو من ذرية إبراهيم وكذا آله وقد أخرجوا من آل إبراهيم فالمراد بآل إبراهيم بعض ذريته الطاهرين لا جميعهم، وقد قال الله تعالى فيما قال: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُلْكًا عَظِيمًا﴾

٤. والآية في مقام الإنكار على بني إسرائيل وذمهم كما يتضح بالرجوع إلى سياقها وما يحتف بها من الآيات، ومن ذلك يظهر أن المراد من آل إبراهيم فيها غير بني إسرائيل أعني غير إسحاق ويعقوب وذرية يعقوب وهم (أي ذرية يعقوب) بنو إسرائيل فلم يبق لآل إبراهيم إلا الطاهرون من ذريته من طريق إسماعيل، وفيهم النبي وآله، على أنا سنبين إن شاء الله أن المراد بالناس في الآية هو رسول الله ﷺ، وأنه داخل في آل إبراهيم بدلالة الآية، على أنه يشعر به قوله تعالى في ذيل هذه الآيات: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ إلى أن قال ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ الآيات، فالمراد بآل إبراهيم الطاهرون من ذريته من طريق إسماعيل.

٥. الآية ليست في مقام الحصر فلا تنافي بين عدم تعرضها لاصطفاء نفس إبراهيم واصطفاء موسى

وسائر الأنبياء الطاهرين من ذريته من طريق إسحاق وبين ما تثبتها آيات كثيرة من مناقبهم وسمو شأنهم وعلو مقامهم، وهي آيات متكثرة جدا لا حاجة إلى إيرادها، فإن إثبات الشيء لا يستلزم نفي ما عداه، وكذا لا ينافي مثل ما ورد في بني إسرائيل من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾، كل ذلك ظاهر، ولا أن تفضيلهم على العالمين ينافي تفضيل غيرهم على العالمين، ولا تفضيل غيرهم عليهم فإن تفضيل قوم واحد أو أقوام مختلفين على غيرهم إنما يستلزم تقدمهم في فضيلة دنيوية أو أخروية على من دونهم من الناس، ولو نافى تفضيلهم على الناس تفضيل غيرهم أو نافى تفضيل هؤلاء المذكورين في الآية أعني آدم ونوح وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين تفضيل غيرهم على العالمين لاستلزم ذلك التنافي بين هؤلاء المذكورين في الآية أنفسهم، وهو ظاهر، ولا أن تفضيل هؤلاء على غيرهم ينافي وقوع التفاضل فيما بينهم أنفسهم فقد فضل الله النبيين على سائر العالمين وفضل بعضهم على بعض، قال تعالى: ﴿وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾، وقال أيضا: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾

٦. أما آل عمران فالظاهر أن المراد بعمران أبو مريم كما يشعر به تعقيب هاتين الآيتين بالآيات التي تذكر قصة امرأة عمران ومريم ابنة عمران، وقد تكرر ذكر عمران أبي مريم باسمه في القرآن الكريم، ولم يرد ذكر عمران أبي موسى حتى في موضع واحد يتعين فيه كونه هو المراد بعينه، وهذا يؤيد كون المراد بعمران في الآية أبا مريم عليه السلام وعلى هذا فالمراد بآل عمران هو مريم وعيسى عليه السلام أو هما وزوجة عمران، وأما ما يذكر أن النصارى غير معترفين بكون اسم أبي مريم عمران فالقرآن غير تابع لهواهم.

٧. ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾، الذرية، في الأصل صغار الأولاد على ما ذكروا ثم استعملت في مطلق الأولاد وهو المعنى المراد في الآية، وهي منصوبة عطف بيان، وفي قوله: ﴿بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾ دلالة على أن كل بعض فرض منها يبتدئ وينتهي من البعض الآخر وإليه، ولازمه كون المجموع متشابه الأجزاء لا يفترق البعض من البعض في أوصافه وحالاته، وإذا كان الكلام في اصطفائهم أفاد ذلك أنهم ذرية لا يفترقون في صفات الفضيلة التي اصطفاهم الله لأجلها على العالمين إذ لا جزاف ولا لعب في الأفعال الإلهية، ومنها الاصطفاء الذي هو منشأ خيرات هامة في العالم.

٨. ﴿وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، أي سميع بأقوالهم الدالة على باطن ضمائرهم، عليم بباطن ضمائرهم وما في قلوبهم فالجملة بمنزلة التعليل لاصطفائهم، كما أن قوله: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾، بمنزلة التعليل لشمول موهبة الاصطفاء لهؤلاء الجماعة، فالمحصل من الكلام: أن الله اصطفى هؤلاء على العالمين، وإنما سرى الاصطفاء إلى جميعهم لأنهم ذرية متشابهة الأفراد، بعضهم يرجع إلى البعض في تسليم القلوب وثبات القول بالحق، وإنما أنعم عليهم بالاصطفاء على العالمين لأنه سميع عليم يسمع أقوالهم ويعلم ما في قلوبهم.

٩. أحاديث وآثار:

أ. في العيون في حديث الرضا مع المأمون: فقال المأمون: هل فضل الله العترة على سائر الناس؟ فقال أبو الحسن عليه السلام: إن الله أبان فضل العترة على سائر الناس في محكم كتابه، فقال المأمون: أين ذلك في كتاب الله؟ فقال له الرضا عليه السلام في قوله: ﴿إِنَّ اللهَّ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣]، ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ٣٤]، الحديث.

ب. وفي تفسير العياشي عن أحمد بن محمد عن الرضا عن أبي جعفر عليهما السلام: من زعم أنه فرغ من الأمر فقد كذب؛ لأن المشيئة لله في خلقه، يريد ما يشاء ويفعل ما يريد، قال الله: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللهَّ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣٤]، آخرها من أولها، وأولها من آخرها، فإذا أخبرتم بشيء منها بعينه أنه كائن، وكان في غيره منه، فقد وقع الخبر على ما أخبرتم عنه.

• أقول: وفيه دلالة على ما تقدم في البيان السابق من معنى قوله: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ﴾ الآية.

ج. وفيه أيضاً عن الباقر عليه السلام: أنه تلا هذه الآية فقال: نحن منهم، ونحن بقية تلك العترة.

• أقول: قوله عليه السلام: (ونحن بقية تلك العترة)، العترة بحسب الأصل في معناها الأصل الذي يعتمد عليه الشيء، ومنه العترة للأولاد والأقارب الأدنين ممن مضى، وبعبارة أخرى: العمود المحفوظ في العشيرة، ومنه يظهر أنه عليه السلام استفاد من قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ﴾، أنها عترة محفوظة آخذة من آدم إلى نوح إلى آل إبراهيم وآل عمران، ومن هنا يظهر النكتة في ذكر آدم ونوح مع آل إبراهيم وعمران، فهي إشارة إلى اتصال السلسلة في الاصطفاء.

١٩. نذر امرأة عمران وتقبل الله لمريم:

المقطع [١٩] من سورة آل عمران، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٥ـ٣٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٣/ ١٧٠»:

١. ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾:

أ. النذر إيجاب الإنسان على نفسه ما ليس بواجب، والتحرير هو الإطلاق عن وثاق، ومنه تحرير العبد عن الرقية، وتحرير الكتاب كأنه إطلاق للمعاني عن محفظة الذهن والفكر، والتقبل هو القبول عن رغبة ورضى كتقبل الهدية وتقبل الدعاء ونحو ذلك.

ب. في قوله تعالى: ﴿قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي﴾، دلالة على أنها إنما قالت هذا القول حينما كانت حاملا، وأن حملها كان من عمران، ولا يخلو الكلام من إشعار بأن زوجها عمران لم يكن حيا عندئذ وإلا لم يكن لها أن تستقل بتحرير ما في بطنها هذا الاستقلال كما يدل عليه أيضا ما سيأتي من قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ الآية، على ما سيجيء من البيان.

ج. من المعلوم أن تحرير الأب أو الأم للولد ليس تحريرا عن الرقية وإنما هو تحرير عن قيد الولاية التي للوالدين على الولد من حيث تربيته واستعماله في مقاصدهما وافتراض طاعتهما فبالتحرير يخرج من تسلط أبويه عليه في استخدامه، وإذا كان التحرير منذورا لله سبحانه يدخل في ولاية الله يعبده ويخدمه، أي يخدم في البيع والكنائس والأماكن المختصة بعبادته تعالى في زمان كان فيه تحت ولاية الأبوين لولا التحرير، وقد قيل: إنهم كانوا يحررون الولد لله فكان الأبوان لا يستعملانه في منافعهما: ولا يصرفانه في حوائجهما بل كان يجعل في الكنيسة يكنسها ويخدمها لا يبرح حتى يبلغ الحلم ثم يخير بين الإقامة والرواح فإن أحب أن يقيم أقام، وإن أحب الرواح ذهب لشأنه.

د. في الكلام دلالة على أنها كانت تعتقد أن ما في بطنها ذكر لا إناث حيث إنها تناجي ربها عن جزم وقطع من غير اشتراط وتعليق حيث تقول: ﴿نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ من غير أن تقول مثلا إن كان

ذكرا ونحو ذلك.

هـ. ليس تذكير قوله: ﴿مُحَرَّرًا﴾، من جهة كونه حالا عن ما الموصولة التي يستوي فيه المذكر والمؤنث إذ لو كانت نذرت تحرير ما في بطنها سواء كان ذكرا أو أنثى لم يكن وجه لما قالتها تحزنا وتحسرا لما وضعتها ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى﴾، ولا وجه ظاهر لقوله تعالى: ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾، على ما سيجيء بيانه.

و. في حكايته تعالى لما قالتها عن جزم دلالة على أن اعتقادها ذلك لم يكن عن جزاف أو اعتماداً على بعض القرائن الحدسية التي تسبق إلى أذهان النسوان بتجارب ونحوه فكل ذلك ظن، والظن لا يغني من الحق شيئا، وكلامه تعالى لا يشتمل على باطل إلا مع إبطاله، وقد قال تعالى: ﴿اللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾، وقال تعالى: ﴿عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾، فجعل العلم بما في الأرحام من الغيب المختص به تعالى، وقال تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى﴾، فجعل علم غيره بالغيب منتهيا إلى الوحي فحكايته عنها الجزم في القول فيما يختص علمه بالله سبحانه يدل على أن علمها بذكورة ما في بطنها كان ينتهي بوجه إلى الوحي، ولذلك لما تبينت أن الولد أنثى لم تيأس عن ولد ذكر فقالت ثانيا عن جزم وقطع: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ الآية فأثبتت لها ذرية ولا سبيل إلى العلم به ظاهرا.

ز. مفعول قولها: ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّي﴾، وإن كان محذوفا محتملا لأن يكون هو نذرها من حيث إنه عمل صالح أو يكون هو ولدها المحرر لكن قوله تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾، لا يخلو عن إشعار أو دلالة على كون مرادها هو قبول الولد المحرر.

٢. ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى﴾، في وضع الضمير المؤنث موضع ما في بطنها إيجاز لطيف، والمعنى فلما وضعت ما في بطنها وتبينت أنه أنثى قالت: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى﴾، وهو خبر أريد به التحسر والتحزن دون الإخبار وهو ظاهر.

٣. ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾:

أ. جملتان معترضتان وهما جميعا مقولتان له تعالى لا لامرأة عمران، ولا أن الثانية مقولة لها والأولى مقولة لله، أما الأولى فهي ظاهرة لكن لما كانت قولها ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى﴾، مسوقا لإظهار التحسر

كان ظاهر قوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾، أنه مسوق لبيان أنا نعلم أنها أنثى لكنا أردنا بذلك إنجاز ما كانت تتمناه بأحسن وجه وأرضى طريق، ولو كانت تعلم ما أردناه من جعل ما في بطنها أنثى لم تتحسر ولم تحزن ذاك التحسر والتحزن والحال أن الذكر الذي كانت ترجوه لم يكن ممكنا أن يصير مثل هذا الأنثى التي وهبناها لها، ويترتب عليه ما يترتب على خلق هذه الأنثى فإن غاية أمره أن يصير مثل عيسى نبيا مبرئا للأكمه والأبرص ومحييا للموتى لكن هذه الأنثى ستتم به كلمة الله وتلد ولدا بغير أب، وتجعل هي وابنها آية للعالمين، ويكلم الناس في المهد، ويكون روحا وكلمة من الله، مثله عند الله كمثل آدم إلى غير ذلك من الآيات الباهرات في خلق هذه الأنثى الطاهرة المباركة وخلق ابنها عيسى عليه السلام.

ب. من هنا يظهر: أن قوله: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾، مقول له تعالى لا لامرأة عمران، ولو كان مقولا لها لكان حق الكلام أن يقال: وليس الأنثى كالذكر لا بالعكس وهو ظاهر فإن من كان يرجو شيئا شريفا أو مقاما عاليا ثم رزق ما هو أخس منه وأردأ إنما يقول عند التحسر: ليس هذا الذي وجدته هو الذي كنت أطلبه وأبتغيه، أو ليس ما رزقته كالذي كنت أرجوه، ولا يقول: ليس ما كنت أرجوه كهذا الذي رزقته البتة، وظهر من ذلك أن اللام في الذكر والأنثى معا أو في الأنثى فقط للعهد.

ج. أخذ أكثر المفسرين قوله: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾، تتمة قول امرأة عمران، وتكلفوا في توجيه تقديم الذكر على الأنثى بما لا يرجع إلى محصل، من أراده فليرجع إلى كتبهم.

٤. ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾:

أ. معنى مريم في لغتهم العابدة والخادمة على ما قيل، ومنه يعلم وجه مبادرتها إلى تسمية المولودة عند الوضع، ووجه ذكره تعالى لتسميتها بذلك فإنها لما أيست من كون الولد ذكرا محررا للعبادة وخدمة الكنيسة بادرت إلى هذه التسمية وأعدتها بالتسمية للعبادة والخدمة، فقولها: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ بمنزلة أن تقول: إني جعلت ما وضعتها محررة لك، والدليل على كون هذا القول منها في معنى النذر قوله تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ الآية.

ب. ثم أعاذتها وذريتها بالله من الشيطان الرجيم ليستقيم لها العبادة والخدمة ويطابق اسمها المسمى.

ج. الكلام في قولها: ﴿وَذُرِّيَّتَهَا﴾، من حيث إنه قول مطلق من شرط وقيد لا يصح أن نتفوه به في

حضرة التخاطب ممن لا علم له به مع أن مستقبل حال الإنسان من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله سبحانه، نظير الكلام في قولها: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾، على ما تقدم بيانه فليس إلا أنها كانت تعلم أن سترزق من عمران ولدا ذكرا صالحا ثم لما حملت وتوفي عمران لم تشك أن ما في بطنها هو ذلك الولد الموعود، ثم لما وضعتها وبان لها خطأ حدسها أيقنت أنها سترزق ذلك الولد من نسل هذه البنت المولودة فحولت نذرها من الابن إلى البنت، وسمتها مريم (العابدة، الخادمة) وأعاذتها وذريتها بالله من الشيطان الرجيم هذا ما يعطيه التدبر في كلامه تعالى.

٥. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ﴾ [آل عمران: ٣٥] الآية، عن الصادق عليه السلام قال: إن الله أوحى إلى عمران: إني واهب لك ذكراً سوياً مباركاً يبرئ الأكمه والأبرص، ويحيي الموتى بإذن الله، وجاعله رسولاً إلى بني إسرائيل، فحدث عمران امرأته حنة بذلك، وهي أم مريم، فلما حملت كان حملها بها عند نفسها غلاماً، فلما وضعتها قالت: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٦]، وليس الذكر كالأنثى، لا تكون البنت رسولاً، يقول الله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ [آل عمران: ٣٦]، فلما وهب الله لمريم عيسى، كان هو الذي بشر به عمران ووعده إياه، فإذا قلنا في الرجل منا شيئاً، وكان في ولده أو ولد ولده، فلا تنكروا ذلك.

• أقول: وروى قريباً منه في الكافي عنه عليه السلام، وفي تفسير العياشي عن الباقر عليه السلام.

ب. وفي تفسير العياشي في الآية عن الصادق عليه السلام: أن المحرر يكون في الكنيسة لا يخرج منها، فلما وضعتها قالت: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ﴾، وليس الذكر كالأنثى؛ إن الأنثى تحيض فتخرج من المسجد، والمحرر لا يخرج من المسجد.

ج. وفيه عن أحدهما عليهما السلام: نذرت ما في بطنها للكنيسة أن يخدم العباد، وليس الذكر كالأنثى في الخدمة، قال: فشبت وكانت تخدمهم وتناولهم، حتى بلغت، فأمر زكريا أن تتخذ لها حجاباً دون العباد.

• أقول: والروايات كما ترى تنطبق على ما قدمناه في البيان السابق، إلا أن ظاهرها: أن قوله: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ﴾ كلام لامرأة عمران لا له تعالى، ويبقى عليه وجه تقديم الذكر على الأنثى في

الجملة، مع أن مقتضى القواعد العربية خلافه، وكذا يبقى عليه وجه تسميتها بمريم، وقد مر أنه في معنى التحرير، إلا أن يفرق بين التحرير وجعلها خادمة، فليتأمل.

• وفي الرواية الأولى دلالة على كون عمران نبياً يوحى إليه، ويدل عليه ما في البحار عن أبي بصير قال: سألت أبا جعفر عليهما السلام عن عمران أكان نبياً؟ فقال: نعم، كان نبياً مرسلاً إلى قومه، الحديث.

• وتدل الرواية أيضاً على كون اسم امرأة عمران: حنة، وهو المشهور، وفي بعض الروايات: مرثار، ولا يهمنا البحث عن ذلك.

٢٠. كفالة زكريا لمريم ورزقها من عند الله:

المقطع [٢٠] من سورة آل عمران، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٣/ ١٧٤»:

١. ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾:

أ. القبول إذا قيد بالحسن كان بحسب المعنى هو التقبل الذي معناه القبول عن الرضا، فالكلام في معنى قولنا: فتقبلها ربها تقبلا فإنما حلل التقبل إلى القبول الحسن ليدل على أن حسن القبول مقصود في الكلام، ولما في التصريح بحسن القبول من التشريف البارز، وحيث قوبل بهاتين الجملتين أعني قوله: ﴿فَتَقَبَّلَهَا﴾ إلى قوله: ﴿حَسَنًا﴾، الجملتان في قولها: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا﴾ إلى قولها: ﴿الرَّجِيمِ﴾ كان مقتضى الانطباق أن يكون قوله: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾، قبولا لقولها وإني سميتها مريم، وقوله: ﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ قبولا وإجابة لقولها: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾، فالمراد بتقبلها بقبول حسن ليس هو القبول بمعنى قبول تقرب امرأة عمران بالنذر، وإعطاء الثواب الأخروي لعملها فإن القبول إنما نسب إلى مريم لا إلى النذر وهو ظاهر بل قبول البنت بما أنها مسماة بمريم ومحررة فيعود معناه إلى اصطفائها (وقد مر أن معنى الاصطفاء هو التسليم التام لله سبحانه) فافهم ذلك.

ب. المراد بإنباتها نباتا حسنا إعطاء الرشد والزكاة لها ولذريتها، وإفاضة الحياة لها ولمن ينمو منها من الذرية حياة لا يمسها نفث الشيطان ورجس تسويله ووسوسته، وهو الطهارة.

ج. هذان أعني القبول الحسن الراجع إلى الاصطفاء، والنبات الحسن الراجع إلى التطهير هما اللذان يشير إليهما قوله تعالى في ذيل هذه الآية: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ﴾ الآية وسنوضحه بيانا إن شاء الله العزيز.

د. فقد تبين أن اصطفاء مريم وتطهيرها إنما هما استجابة لدعوة أمها كما أن اصطفاءها على نساء العالمين في ولادة عيسى، وكونها وابنها آية للعالمين تصديق لقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾

٢. ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾، وإنما كفلها بإصابة القرعة حيث اختصموا في تكفلها ثم تراضوا بينهم بالقرعة فأصابت القرعة زكريا كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾، الآية.

٣. ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾:

أ. المحراب المكان المخصوص بالعبادة من المسجد والبيت، قال الراغب: ومحراب المسجد، قيل: سمي بذلك لأنه موضع محاربة الشيطان والهوى، وقيل: سمي بذلك لكون حق الإنسان فيه أن يكون حريباً (أي سليباً) من أشغال الدنيا ومن توزع الخاطر، وقيل الأصل فيه أن محراب البيت صدر المجلس ثم اتخذت المساجد فسمي صدره به وقيل: بل المحراب أصله في المسجد وهو اسم خص به صدر المجلس فسمي صدر البيت محرابا تشبيها بمحراب المسجد، وكان هذا أصح، قال عز وجل: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ﴾،وذكر بعضهم أن المحراب هنا هو ما يعبر عنه أهل الكتاب بالمذبح، وهو مقصورة في مقدم المعبد، لها باب يصعد إليه بسلم ذي درجات قليلة، ويكون من فيه محجوبا عمن في المعبد،وإليه ينتهي اتخاذ المقصورة في الإسلام.

ب. في تنكير قوله: ﴿رِزْقًا﴾، إشعار بكونه رزقا غير معهود كما قيل: إنه كان يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء، ويؤيده أنه لو كان من الرزق المعهود، وكان تنكيره يفيد أنه ما كان يجد محرابها خاليا من الرزق بل كان عندها رزق ما دائما لم يقنع زكريا بقولها: {هُوَمِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ} في جواب قوله: ﴿يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا﴾، لإمكان أن يكون يأتيها بعض الناس ممن كان يختلف إلى المسجد لغرض حسن أو سيىء، على أن قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾ الآية، يدل على أن زكريا تلقى وجود هذا الرزق عندها كرامة إلهية خارقة فأوجب ذلك أن يسأل الله أن يهب له من لدنه ذرية طيبة، فقد

كان الرزق رزقا يدل بوجوده على كونه كرامة من الله سبحانه لمريم الطاهرة، ومما يشعر بذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا مَرْيَمُ﴾ الآية على ما سيجيء من البيان.

٤. ﴿قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ﴾ الآية فصل الكلام من غير أن يعطف على قوله: ﴿وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾، يدل على أنه عليه السلام إنما قال لها ذلك مرة واحدة فأجابت بما قنع به واستيقن أن ذلك كرامة لها وهنالك دعا وسأل ربه ذرية طيبة.

٥. أحاديث وآثار: في تفسير القمي في ذيل الرواية السابقة: فلما بلغت مريم صارت في المحراب، وأرخت على نفسها ستراً، وكان لا يراها أحد، وكان يدخل عليها زكريا المحراب فيجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف، فكان يقول: ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ [آل عمران: ٣٧]، فتقول: ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧]

٢١. دعاء زكريا واستجابة الله له بيحيى:

المقطع [٢١] من سورة آل عمران، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٨-٣٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٣/ ١٧٦»:

١. ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ الآية، طيب الشيء ملاءمته لصاحبه فيما يريده لأجله فالبلد الطيب ما يلائم حياة أهله من حيث الماء والهواء والرزق ونحو ذلك، قال تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾، والعيشة الطيبة والحياة الطيبة ما يلائم بعض أجزائها بعضا ويسكن إليها قلب صاحبها ومنه الطيب للعطر الزكي فالذرية الطيبة هو الولد الصالح لأبيه مثلا الذي يلائم من حيث صفاته وأفعاله ما عند أبيه من الرجاء والأمنية فقول زكريا عليه السلام: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾، لما كان الباعث له عليه ما شاهد من أمر مريم وخصوص كرامتها على الله وامتلاء قلبه من شأنها لم يملك من نفسه دون أن يسأل الله أن يهب له مثلها خطرا وكرامة، فكون ذريته طيبة أن يكون لها ما لمريم من الكرامة عند الله والشخصية في نفسها، ولذلك استجيب في عين ما سأله من الله، ووهب له يحيى وهو أشبه الأنبياء بعيسى عليه السلام، وأجمع الناس لما عند عيسى وأمه مريم الصديقة من صفات

الكمال والكرامة، ومن هنا ما سماه تعالى بيحيى وجعله مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين، وهذه أقرب ما يمكن أن يشابه بها إنسان مريم وابنها عيسى عليه السلام على ما سنبينه إن شاء الله تعالى.

٢. ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى﴾:

أ. ضمائر الغيبة والخطاب لزكريا، والبشرى والإبشار والتبشير الإخبار بما يفرح الإنسان بوجوده، وقوله: ﴿أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى﴾، دليل على أن تسميته بيحيى إنما هو من جانب الله سبحانه كما تدل عليه نظائر هذه الآيات في سورة مريم، قال تعالى: ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾

ب. تسميته بيحيى وكون التسمية من عند الله سبحانه في بدء ما بشر به زكريا قبل تولد يحيى وخلقه يؤيد ما ذكرناه آنفا: أن الذي طلبه زكريا من ربه أن يرزقه ولدا يكون شأنه شأن مريم، وقد كانت مريم هي وابنها عيسى عليه السلام آية واحدة كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾، فروعي في يحيى ما روعي فيهما من عند الله سبحانه، وقد روعي في عيسى كمال ما روعي في مريم، فالمرعي في يحيى هو الشبه التام والمحاذاة الكاملة مع عيسى عليه السلام فيما يمكن ذلك، ولعيسى في ذلك كله التقدم التام لأن وجوده كان مقدرا قبل استجابة دعوة زكريا في حق يحيى، ولذلك سبقه عيسى في كونه من أولي العزم صاحب شريعة وكتاب وغير ذلك لكنهما تشابها وتشابه أمرهما فيما يمكن.

ج. إن شئت تصديق ما ذكرناه فتدبر فيما ذكر الله تعالى من قصتهما في سورة مريم فقال في يحيى: ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ إلى أن قال ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾، وقال في عيسى عليه السلام: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ إلى أن قال: ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾، إلى أن قال ـ: ﴿قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا﴾، إلى أن قال ـ: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾، ويقرب منها من حيث الدلالة

على تقارب أمرهما آيات هذه السورة التي نحن فيها عند التطبيق.

د. بالجملة فقد سماه الله سبحانه يحيى وسمى ابن مريم عيسى وهو بمعنى (يعيش) على ما قيل وجعله مصدقا بكلمة منه وهو عيسى كما قال تعالى: ﴿بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى﴾ وآتاه الحكم وعلمه الكتاب صبيا كما فعل بعيسى، وعده حنانا من لدنه وزكاة وبرا بوالديه غير جبار كما كان عيسى كذلك، وسلم عليه في المواطن الثلاث كعيسى وعده سيدا كما جعل عيسى وجيها عنده، وجعله حصورا ونبيا ومن الصالحين مثل عيسى، كل ذلك استجابة لمسألة زكريا ودعوته حيث سأل ذرية طيبة ووليا رضيا عندما امتلأ قلبه بما شاهد من أمر مريم وعجيب شأنها وكرامتها على الله كما مر بيانه.

٣. في قوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ﴾ دلالة على كونه من دعاة عيسى فالكلمة هو عيسى المسيح كما ذكره تعالى في ذيل هذه الآيات في بشارة الروح لمريم، والسيد هو الذي يتولى أمر سواد الناس وجماعتهم في أمر حيوتهم ومعاشهم أو فضيلة من الفضائل المحمودة عندهم ثم غلب استعماله في شريف القوم لما أن التولي المذكور يستلزم شرفا بالحكم أو المال أو فضيلة أخرى، والحصور هو الذي لا يأتي النساء والمراد بذلك في الآية بقرينة السياق الممتنع عن ذلك للإعراض عن مشتهيات النفس زهدا.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير العياشي عن الصادق عليه السلام قال: إن زكريا لما دعا ربه أن يهب له ولداً، فنادته الملائكة بما نادته به، أحب أن يعلم أن ذلك الصوت من الله، فأوحى إليه أن آية ذلك أن يمسك لسانه عن الكلام ثلاثة أيام، فلما أمسك لسانه ولم يتكلم، علم أنه لا يقدر على ذلك إلا الله، وذلك قول الله: ﴿رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً﴾ [آل عمران: ٤١]

• أقول: وروى قريباً منه القمي في تفسيره، وقد عرفت فيما تقدم أن سياق الآيات لا يأبى عن ذلك.

• وبعض المفسرين شدد النكير على ما تضمنته هذه الروايات، كالوحي إلى عمران ووجود الفاكهة في محراب مريم في غير وقتها، وكون سؤال زكريا للآية للتمييز، فقال: إن هذه أمور لا طريق إلى إثباتها، فلا هو سبحانه ذكرها، ولا رسوله قالها، ولا هي مما يعرف بالرأي، ولم يثبتها تاريخ يعتد به، وليس هناك إلا روايات إسرائيلية وغير إسرائيلية، ولا موجب للتكلف في تحصيل معنى القرآن وحمله على أمثال هذه

الوجوه البعيدة عن الأفهام.

• وهو منه كلام من غير حجة، والروايات وإن كانت آحاداً غير خالية عن ضعف الطريق، لا يجب على الباحث الأخذ بها والاحتجاج بما فيها، لكن التدبر في الآيات يقرب الذهن منها، والذي نقل منها عن أئمة أهل البيت عليهم السلام لا يشتمل على أمر غير جائز عند العقل.

• نعم، في بعض ما نقل عن قدماء المفسرين أمور غير معقولة، كما نقل عن قتادة وعكرمة: أن الشيطان جاء إلى زكريا وشككه في كون البشارة من الله تعالى، وقال: لو كانت من الله لأخفى لك في ندائه كما أخفيت له في ندائك، إلى غير ذلك، فهي معان لا مجوز لتسليمها، كما ورد في إنجيل لوقا: أن جبرئيل قال لزكريا: (وها أنت تكون صامتاً ولا تقدر أن تتكلم إلى اليوم الذي يكون فيه هذا، لأنك لم تصدق كلامي الذي سيتم في وقته)، إنجيل [لوقا: ١]

ب. وفي الكافي عن الصادق عليه السلام: ما من قلب إلا وله أذنان: على إحداهما ملك مرشد، وعلى الأخرى شيطان مفتن؛ هذا يأمره، وهذا يزجره؛ الشيطان يأمره بالمعاصي، والملك يزجره عنها، وذلك قول الله عز وجل: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]، عن اليمين وعن الشمال قعيد.

• أقول: والروايات في هذا المعنى كثيرة، سيأتي شطر منها، وتطبيقه عليه السلام الآية على الملك والشيطان في هذه الرواية لا ينافي تطبيقه إياها على الملكين الكاتبين للحسنات والسيئات في رواية أخرى؛ فإن الآية لا تدل على أزيد من وجود رقيب عتيد عند الإنسان يرقبه في جميع ما يتكلم به، وأنه متعدد عن يمين الإنسان وشماله، وأما أنه من الملائكة محضاً، أو ملك وشيطان، فالآية غير صريحة في ذلك، قابلة للانطباق على كل من المحتملين.

ج. وفيه أيضاً عن زرارة قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الرسول وعن النبي وعن المحدث، قال: الرسول الذي يعاين الملك، يأتيه بالرسالة من ربه، يقول: يأمرك كذا وكذا، والرسول يكون نبياً مع الرسالة، والنبي لا يعاين الملك، ينزل عليه الشيء النبأ على قلبه، فيكون كالمغمى عليه، فيرى في منامه، قلت: فما علمه أن الذي في منامه حق؟ قال: يبينه الله حتى يعلم أن ذلك حق، ولا يعاين الملك، الحديث.

• أقول: قوله: (والرسول يكون نبياً) إشارة إلى إمكان اجتماع الوصفين، وقد تقدم الكلام في معنى الرسالة والنبوة في تفسير قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ﴾ [البقرة: ٢١٣] الآية.

• وقوله: (فيكون كالمغمى عليه) تفسير معنى رؤيته في المنام، وأن معناه الغيبة عن الحس دون المنام المعروف، وقوله: (يبينه الله) إشارة إلى التمييز بين الإلقاء الملكي والشيطاني بما بينه الله من الحق.

د. وفي البصائر عن بريد عن الباقر والصادق عليهما السلام في حديث قال بريد: فما الرسول والنبي والمحدث؟ قال: الرسول الذي يظهر الملك فيكلمه، والنبي يرى في المنام، وربما اجتمعت النبوة والرسالة لواحد، والمحدث الذي يسمع الصوت ولا يرى الصورة، قال: قلت: أصلحك الله، كيف يعلم أن الذي رأى في المنام هو الحق وأنه من الملك؟ قال: يوفق لذلك حتى يعرفه، لقد ختم الله بكتابكم الكتب، وبنبيكم الأنبياء، الحديث.

• أقول: وهو في مساق الحديث السابق، وبيانه عليه السلام واف بتمييز المحدث ما يسمعه من صوت الهاتف، وفي قوله: (لقد ختم الله) إشارة إلى ذلك، وسيجيء الكلام في المحدث في ذيل الآيات التالية.

٢٢. استعجال زكريا وطلب الآية على البشارة:

المقطع [٢٢] من سورة آل عمران، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ [آل عمران: ٤٠-٤١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٣/ ١٧٨»:

١. ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾:

أ. استفهام تعجيب واستعلام لحقيقة الحال لا استبعاد واستعظام مع تصريح البشارة بذلك وأن الله سبحانه سيرزقه ما سأله من الولد مع أنه ذكر هذين الوصفين اللذين جعلهما منشأ للتعجب والاستعلام في ضمن مسألته على ما في سورة مريم حيث قال ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾

ب. لكن المقام يمثل معنى آخر فكأنه عليه السلام لما انقلب حالا من مشاهدة أمر مريم وتذكر انقطاع عقبه لم يشعر إلا وقد سأل ربه ما سأل وقد ذكر في دعائه ما له سهم وافر في تأثره وتحزنه وهو بلوغ الكبر، وكون امرأته عاقرا، فلما استجيبت دعوته وبشر بالولد كأنه صحا وأفاق مما كان عليه من الحال، وأخذ يتعجب من ذلك وهو بالغ الكبر وامرأته عاقر، فصار ما كان يثير على وجهه غبار اليأس وسيماء الحزن يغيره إلى نظرة التعجب المشوب بالسرور.

ج. على أن ذكر نواقص الأمر بعد البشارة بقضاء أصل الحاجة واستعلام كيفية رفع واحد منها إنما هو طلب تفهم خصوصيات الإفاضة والإنعام التذاذا بالنعمة الفائضة بعد النعمة نظير ما وقع في بشرى إبراهيم بالذرية قال تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾، فذكر في جواب نهي الملائكة إياه عن القنوط أن استفهامه لم يكن عن قنوط كيف وهو غير ضال والقنوط ضلالة، بل السيد إذا أقبل على عبده إقبالا يؤذن بالقرب والأنس والكرامة أوجب ذلك انبساطا من العبد وابتهاجا يستدعي تلذذه من كل حديث وتمتعه في كل باب.

٢. في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ﴾ من مراعاة الأدب ما لا يخفى فإنه كناية عن أنه لا يجد من نفسه شهوة النكاح لبلوغ الشيخوخة والهرم، وقد اجتمعت في امرأته الكبر والعقر معا فإن ذلك ظاهر قوله: ﴿وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا﴾، ولم يقل: وامرأتي عاقر.

٣. ﴿قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾، فاعل قال وإن كان هو الله سبحانه سواء كان من غير وساطة الملائكة وحيا أو بواسطة الملائكة الذين كانوا ينادونه فالقول على أي حال قوله تعالى لكن الظاهر أنه منسوب إليه تعالى بواسطة الملك فالقائل هو الملك وقد نسب إليه تعالى لأنه بأمره، والدليل على ذلك قوله تعالى في سورة مريم في القصة: ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾، ومنه يظهر:

أ. أولا: أنه سمع الصوت من حيث كان يسمعه أولا.

ب. وثانيا: أن قوله: ﴿كَذَلِكَ﴾، خبر لمبتدإ محذوف، والتقدير: الأمر كذلك أي الذي بشرت به

من الموهبة هو كذلك كائن لا محالة، وفيه إشارة إلى كونه من القضاء المحتوم الذي لا ريب في وقوعه نظير ما ذكره الروح في جواب مريم على ما حكاه الله تعالى: ﴿قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ إلى أن قال ـ: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا﴾، وثالثا: أن قوله: ﴿اللهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ كلام مفصول في مقام التعليل لمضمون قوله: كذلك اه.

٤. ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ إلى آخر الآية:

أ. قال في المجمع، الرمز الإيماء بالشفتين، وقد يستعمل في الإيماء بالحاجب والعين واليد، والأول أغلب، انتهى، والعشي الطرف المؤخر من النهار، وكأنه مأخوذ من العشوة وهي الظلمة الطارئة في العين المانعة عن الإبصار فأخذوا ذلك وصفا للوقت لرواحه إلى الظلمة، والإبكار صدر النهار والطرف المقدم منه، والأصل في معناه الاستعجال.

ب. وقوع هذه الآية في ولادة يحيى من وجوه المضاهاة بينه وبين عيسى فإنها تضاهي قول عيسى لمريم بعد تولده: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾، وسؤاله عليه السلام من ربه أن يجعل له آية والآية هي العلامة الدالة على الشيء، هل هو ليستدل به على أن البشارة إنما هي من قبل ربه، وبعبارة أخرى هو خطاب رحماني ملكي لا شيطاني؟ أو لأنه أراد أن يستدل بها على حمل امرأته، ويعلم وقت الحمل، خلاف بين المفسرين، والوجه الثاني لا يخلو عن بعد من سياق الآيات وجريان القصة لكن الذي أوجب تحاشي القوم عن الذهاب إلى أول الوجهين أعني كون سؤال الآية لتمييز أن الخطاب رحماني هو ما ذكروه: أن الأنبياء لعصمتهم لا بد أن يعرفوا الفرق بين كلام الملك ووسوسة الشيطان، ولا يجوز أن يتلاعب الشيطان بهم حتى يختلط عليهم طريق الإفهام، وهو كلام حق لكن يجب أن يعلم أن تعرفهم إنما هو بتعريف الله تعالى لهم لا من قبل أنفسهم واستقلال ذواتهم، وإذا كان كذلك فلم لا يجوز أن يتعرف زكريا من ربه أن يجعل له آية يعرف به ذلك؟ وأي محذور في ذلك؟ نعم لو لم يستجب دعاءه ولم يجعل الله له آية كان الإشكال في محله.

ج. على أن خصوصية نفس الآية، وهي عدم التكليم ثلاثة أيام، تؤيد بل تدل على ذلك فإن الشيطان وإن أمكن أن يمس الأنبياء في أجسامهم أو بتخريب أو إفساد في ما يرجونه من نتائج أعمالهم في رواج الدين واستقبال الناس أو تضعيف أعداء الدين كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ

نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ﴾، لكن هذه وأمثالها من مس الشيطان وتعرضه لا تنتج إلا إيذاء النبي وأما مسه الأنبياء في نفوسهم فالأنبياء معصومون من ذلك وقد مر في ما تقدم من المباحث إثبات عصمتهم عليه السلام.

د. الذي جعله الله تعالى آية لزكريا على ما يدل عليه قوله ﴿آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ هو أنه كان لا يقدر ثلاثة أيام على تكليم أحد ويعتقل لسانه إلا بذكر الله وتسبيحه، وهذه آية واقعة على نفس النبي ولسانه وتصرف خاص فيه لا يقدر عليه الشيطان لمكان العصمة فليس إلا رحمانيا وهذه الآية كما ترى متناسبة مع الوجه الأول دون الوجه الثاني.

٥. سؤال وإشكال: لو كان الأمر كذلك فما معنى قوله ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ الآية فإن ظاهره أنه خاطب ربه وسأله ما سأل ثم أجيب بما أجيب فما معنى هذه المخاطبة لو كان شاكا في أمر النداء؟ ولو لم يكن شاكا عندئذ فما معنى سؤال التمييز؟، والجواب: مراتب الركون والاعتقاد مختلفة فمن الممكن أن يكون قد اطمأنت نفسه على كون النداء رحمانيا من جانب الله ثم يسأل ربه من كيفية الولادة التي كانت تتعجب منه نفسه الشريفة كما مر فيجاب بنداء آخر ملكي تطمئن إليه نفسه ثم يسأل ربه آية توجب اليقين بأنه كان رحمانيا فيزيد بذلك وثوقا وطمأنينة، ومما يؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ﴾، فإن النداء إنما يكون من بعيد ولذلك كثر إطلاق النداء في مورد الجهر بالقول لكونه عندنا من لوازم البعد، وليس بلازم بحسب أصل معنى الكلمة كما يشهد به قوله تعالى في ما حكى فيه دعاء زكريا ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ فقد أطلق عليه النداء بعناية تذلل زكريا: وتواضعه قبال تعزز الله سبحانه وترفعه وتعاليه، ثم وصف النداء بالخفاء فالكلام لا يخلو عن إشعار بكون زكريا لم ير الملك نفسه، وإنما سمع صوتا يهتف به هاتف.

٦. ذكر بعض المفسرين: أن المراد من جعله تعالى عدم التكليم آية نهيه عن تكليم الناس ثلاثة أيام، والانقطاع فيها إلى ذكر الله وتسبيحه دون اعتقال لسانه، قال: (الصواب أن زكريا أحب بمقتضى الطبيعة البشرية أن يتعين لديه الزمن الذي ينال به تلك المنحة الإلهية ليطمئن قلبه ويبشر أهله فسأل عن الكيفية،

ولما أجيب بما أجيب به سأل ربه أن يخصه بعبادة يتعجل بها شكره، ويكون إتمامه إياها آية وعلامة على حصول المقصود، فأمره بأن لا يكلم الناس ثلاثة أيام بل ينقطع إلى الذكر والتسبيح مساء صباحا مدة ثلاثة أيام فإذا احتاج إلى خطاب الناس أومأ إليهم إيماء، على هذا تكون بشارته لأهله بعد مضي الثلاث الليال)، وأنت خبير بأنه ليس لما ذكره (من مسألته عبادة تكون شكرا للمنحة، وانتهائها إلى حصول المقصود، وكون انتهائها هو الآية، وكون قوله: ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ﴾ مسوقا للنهي التشريعي وكذا إرادته بشارة أهله) في الآية عين ولا أثر.

٧. وضع هنا مبحثا حول [الخواطر الملكية والشيطانية والتكليم الإلهي: أنواعها وتمييزها]، خلاصته:

أ. القول والكلام ليسا مقصورين على الصوت، بل يشملان الإيماء والرمز، والمعاني الملقاة في القلب.

ب. القرآن يسمي وسوسة الشيطان وخواطره ﴿قَوْلًا﴾ و(كلاماً) و﴿وَحْيًا﴾ و﴿وَعْدًا﴾، كقوله حكاية عن الشيطان: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ﴾

ج. الخاطر الملكي (الحكمة والنور والسكينة) هو الكلام الملكي في مقابل الوسوسة الشيطانية، ويصاحبه انشراح الصدر والدعوة إلى المغفرة والفضل.

د. الخاطر الشيطاني يصاحبه تضيق الصدر، والدعوة إلى الفحشاء، والوعد بالفقر، ويخالف الكتاب والسنة والفطرة.

هـ. التكليم الإلهي ثلاثة أقسام: وحي (بلا حجاب)، وتكليم من وراء حجاب، وإرسال رسول.

و. الأنبياء قد يشاهدون الملك والشيطان، فيغني ذلك عن استعمال المميز، أما غيرهم فيحتاج إلى التمييز بالكتاب والسنة.

ز. تمييز الخواطر يكون بإرجاعها إلى ما يوافق الكتاب والسنة وما يخالفه.

٢٣. اصطفاء مريم وطهارتها وأمرها بالقنوت:

المقطع [٢٣] من سورة آل عمران، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾

[آل عمران: ٤٢-٤٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٣/ ١٨٩»:

١. {إِذْ قالَتِ الْملائِكَةُ يا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفاكِ وَطَهَّرَكِ}:

أ. الجملة معطوفة على قوله: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ﴾، فتكون شرحا مثله لاصطفاء آل عمران المشتمل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى﴾، الآية.

ب. في الآية دليل على كون مريم محدثة تكلمها الملائكة وهي تسمع كلامهم كما يدل عليه أيضا قوله في سورة مريم: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ إلى آخر الآيات، وسيأتي الكلام في المحدث.

ج. تقدم في قوله تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ الآية أن ذلك بيان لاستجابة دعوة أم مريم: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾، الآية وأن قول الملائكة لمريم: ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ﴾ إخبار لها بما لها عند الله سبحانه من الكرامة والمنزلة،فاصطفاؤها تقبلها لعبادة الله، وتطهيرها اعتصامها بعصمة الله فهي مصطفاة معصومة، وربما قيل: إن المراد من تطهيرها جعلها بتولا لا تحيض فيتهيأ لها بذلك أن لا تضطر إلى الخروج من الكنيسة، ولا بأس به غير أن الذي ذكرناه هو الأوفق بسياق الآيات.

٢. ﴿وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾:

أ. قد تقدم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى﴾ إلى قوله: ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أن الاصطفاء المتعدي بعلى يفيد معنى التقدم، وأنه غير الاصطفاء المطلق الذي يفيد معنى التسليم، وعلى هذا فاصطفاؤها على نساء العالمين تقديم لها عليهن.

ب. سؤال وإشكال: هل هذا التقديم تقديم من جميع الجهات أو من بعضها؟ والجواب: ظاهر قوله تعالى فيما بعد الآية: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾، حيث لم تشتمل مما تختص بها من بين النساء إلا على شأنها العجيب في ولادة المسيح عليه السلام أن هذا هو وجه اصطفائها وتقديمها على النساء من العالمين، وأما ما اشتملت عليه الآيات في قصتها من التطهير والتصديق بكلمات

الله وكتبه، والقنوت وكونها محدثة فهي أمور لا تختص بها بل يوجد في غيرها، وأما ما قيل: إنها مصطفاة على نساء عالمي عصرها فإطلاق الآية يدفعه.

٣. ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾:

أ. القنوت هو لزوم الطاعة عن خضوع على ما قيل، والسجدة معروفة، والركوع هو الانحناء أو مطلق التذلل.

ب. لما كان النداء يوجب تلفيت نظر المنادي (اسم مفعول) وتوجيه فهمه نحو المنادي (اسم فاعل) كان تكرار النداء في المقام بمنزلة أن يقال لها: إن لك عندنا نبأ بعد نبإ فاستمعي لهما وأصغي إليهما:

• أحدهما ما أكرمك الله به من منزلة وهو ما لك عند الله.

• الثاني ما يلزمك من وظيفة العبودية بالمحاذاة، وهو ما لله سبحانه عندك، فيكون هذا إيفاء للعبودية وشكرا للمنزلة فيئول معنى الكلام إلى كون قوله: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي﴾ الآية بمنزلة التفريع لقوله: ﴿يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ﴾ الآية أي إذا كان كذلك فاقنتي واسجدي واركعي مع الراكعين، ولا يبعد أن يكون كل واحدة من الخصال الثلاث المذكورة في هذه الآية فرعا لواحدة من الخصال الثلاث المذكورة في الآية السابقة، وإن لم يخل عن خفاء فليتأمل.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢]، قال عليه السلام: اصطفاها مرتين: أما الأولى فاصطفاها أي اختارها، وأما الثانية فإنها حملت من غير فحل، فاصطفاها بذلك على نساء العالمين.

ب. وفي المجمع قال أبو جعفر عليه السلام: معنى الآية: اصطفاك لذرية الأنبياء، وطهرك من السفاح، واصطفيك لولادة عيسى من غير فحل.

• أقول: معنى قوله: (اصطفاك لذرية الأنبياء) اختارك لتكوني ذرية صالحة جديرة للانتساب إلى الأنبياء، ومعنى قوله: (وطهرك من السفاح) أعطاك العصمة منه، وهو العمدة في موردها لكونها ولدت عيسى من غير فحل، فالكلام مسوق لبيان بعض لوازم اصطفائها وتطهيرها، فالروايتان غير متعارضتين كما هو ظاهر، وقد مر دلالة الآية على ذلك.

ج. وأخرج أحمد والترمذي وصححه وابن المنذر وابن حبان والحاكم عن أنس: أن رسول الله ﷺ قال: حسبك من نساء العالمين: مريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد ﷺ، وآسية امرأة فرعون، قال السيوطي: وأخرجه ابن أبي شيبة عن الحسن مرسلاً.

د. وفيه أخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: أفضل نساء العالمين: خديجة، وفاطمة، ومريم، وآسية امرأة فرعون.

هـ. وفيه أخرج ابن مردويه عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: إن الله اصطفى على نساء العالمين أربعة: آسية بنت مزاحم، ومريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد ﷺ.

و. وفيه أخرج ابن أبي شيبة وابن جرير عن فاطمة رضي الله عنها قالت: قال لي رسول الله ﷺ: أنت سيدة نساء أهل الجنة، لا مريم البتول.

ز. وفيه أخرج ابن عساكر عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: سيدة نساء أهل الجنة مريم بنت عمران، ثم فاطمة، ثم خديجة، ثم آسية امرأة فرعون.

ح. وفيه أخرج ابن عساكر من طريق مقاتل عن الضحاك عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: أربع نسوة سادات عالمهن: مريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد ﷺ، وأفضلهن عالماً فاطمة.

ط. وفيه أخرج ابن أبي شيبة عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: قال رسول الله ﷺ: فاطمة سيدة نساء العالمين بعد مريم ابنة عمران، وآسية امرأة فرعون، وخديجة ابنة خويلد.

ي. وفي الخصال بإسناده عن عكرمة عن ابن عباس قال: خط رسول الله ﷺ أربع خطوط، ثم قال: خير نساء الجنة: مريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون.

ك. وفيه أيضاً بإسناده عن أبي الحسن الأول عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: إن الله عز وجل اختار من النساء أربعاً: مريم، وآسية، وخديجة، وفاطمة، الخبر.

• أقول: والروايات فيما يقرب من هذا المضمون من طرق الفريقين كثيرة، وكون هؤلاء سيدات النساء لا ينافي وجود التفاضل بينهن أنفسهن، كما يظهر من الخبر السادس المنقول من الدر المنثور وأخبار

أخرى، وقد مر نظير هذا البحث في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا﴾ [آل عمران: ٣٣] الآية.

• ومما ينبغي أن يتنبه له أن الواقع في الآية هو الاصطفاء، وقد مر أنه الاختيار، والذي وقع في الأخبار هو السيادة، وبينهما فرق بحسب المعنى، فالثاني من مراتب كمال الأول.

٥. أحاديث وآثار في معنى المحدث:

أ. في البصائر عن زرارة قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الرسول وعن النبي وعن المحدث، قال: الرسول الذي يعاين الملك، يأتيه بالرسالة من ربه، يقول: يأمرك كذا وكذا، والرسول يكون نبياً مع الرسالة، والنبي لا يعاين الملك، ينزل عليه الشيء النبأ على قلبه، فيكون كالمغمى عليه، فيرى في منامه، قلت: فما علمه أن الذي رأى في منامه حق؟ قال: يبينه الله حتى يعلم أن ذلك حق، ولا يعاين الملك، والمحدث الذي يسمع الصوت ولا يرى شاهداً.

• أقول: ورواه في الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام، قوله: (شاهداً) أي صائتاً حاضراً، ويمكن أن يكون حالاً من فاعل (لا يرى)

ب. وفيه أيضاً عن بريد عن الباقر والصادق عليهما السلام في حديث، قال بريد: فما الرسول والنبي والمحدث؟ قال: الرسول الذي يظهر الملك فيكلمه، والنبي يرى في المنام، وربما اجتمعت النبوة والرسالة لواحد، والمحدث الذي يسمع الصوت ولا يرى الصورة، قال: قلت: أصلحك الله، كيف يعلم أن الذي رأى في المنام هو الحق وأنه من الملك؟ قال: يوفق لذلك حتى يعرفه، لقد ختم الله بكتابكم الكتب، وبنبيكم الأنبياء، الحديث.

ج. وفيه عن محمد بن مسلم قال: ذكرت المحدث عند أبي عبد الله عليه السلام، فقال: إنه يسمع الصوت ولا يرى الصورة، فقلت: أصلحك الله، كيف يعلم أنه كلام الملك؟ قال: إنه يعطى السكينة والوقار حتى يعلم أنه ملك.

د. وفيه أيضاً عن أبي بصير عنه عليه السلام قال: كان علي محدثاً، وكان سلمان محدثاً، قال: قلت: فما آية المحدث؟ قال: يأتيه الملك فينكت في قلبه كيت وكيت.

هـ. وفيه عن حمران بن أعين قال: أخبرني أبو جعفر عليهما السلام أن علياً كان محدثاً، فقال

أصحابنا: ما صنعت شيئاً إلا سألته من يحدثه؟ فقضي أني لقيت أبا جعفر، فقلت: ألست أخبرتني أن علياً كان محدثاً؟ قال: بلى، قلت: من كان يحدثه؟ قال: ملك، قلت: فإنه نبي أو رسول؟ قال: لا، بل قل مثله مثل صاحب سليمان وصاحب موسى، ومثله مثل ذي القرنين، أما سمعت أن علياً سئل عن ذي القرنين: أنبياً كان؟ قال: لا، ولكن كان عبداً أحب الله فأحبه، وناصح الله فنصحه، فهذا مثله.

• أقول: والروايات في معنى المحدث عن أئمة أهل البيت كثيرة جداً، رواها في البصائر والكافي والكنز والاختصاص وغيرها، ويوجد في روايات أهل السنة أيضاً.

• وأما الفرق الوارد في الأخبار المذكورة بين النبي والرسول والمحدث، فقد مر الكلام في الفرق بين الرسول والنبي، وأن الوحي بمعنى تكليم الله سبحانه لعبده، فهو يوجب العلم اليقيني بنفس ذاته من غير حاجة إلى حجة، فمثله في الإلقاءات الإلهية مثل العلوم البديهية التي لا تحتاج في حصولها للإنسان إلى سبب تصديقي كالقياس ونحوه.

• وأما المنام، فالروايات كما ترى تفسره بمعنى غير المعنى المعهود منه، أعني الرؤيا يراها الإنسان في النوم العادي العارض له في يومه وليلته، بل هو حال يشبه الإغماء تسكن فيه حواس الإنسان النبي، فيشاهد عند ذلك نظير ما نشاهده في اليقظة، ثم يسدده الله سبحانه بإفاضته على نفسه اليقين بأنه من جانب الله سبحانه لا من تصرف الشيطان.

• وأما التحديث، فهو سماع صوت الملك، غير أنه بسمع القلب دون سمع الحس؛ وليس من قبيل الخطور الذهني الذي لا يسمى سمع صوت إلا بنحو من المجاز البعيد، ولذلك ترى أن الروايات تجمع فيه بين سماع الصوت والنكت في القلب، وتسميه مع ذلك تحديثاً وتكليماً، فالمحدث يسمع صوت الملك في تحديثه ويعيه بسمعه، نظير ما نسمعه ونسمعه من الكلام المعتاد والأصوات المسموعة في عالم المادة، غير أنه لا يشاركه في ما يسمعه من كلام الملك غيره، ولذا كان أمراً قلبياً.

• وأما علمه بأن ما حدث به من كلام الملك لا من نزغة الشيطان، فذلك بتأييد من الله سبحانه وتسديد، كما يشير إليه ما في رواية محمد بن مسلم المتقدمة: (إنه يعطى السكينة والوقار حتى يعلم أنه ملك)، وذلك أن النزغة الشيطانية إما باطل في صورته الباطلة عند الإنسان المؤمن، فظاهر أنه ليس من حديث الملائكة المكرمين الذين لا يعصون الله، وأما باطل في صورة حق وسيستتبع باطلاً، فالنور الإلهي

الذي يلازم العبد المؤمن يبين حاله، قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، والنزغة والوسوسة مع ذلك كله لا تخلو عن اضطراب في النفس وتزلزل في القلب، كما أن ذكر الله وحديثه لا ينفك عن الوقار وطمأنينة الباطن، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، وقال: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]، فالسكينة والطمأنينة عندما يلقى إلى الإنسان من حديث أو خاطر دليل كونه إلقاءً رحمانياً، كما أن الاضطراب والقلق دليل على كونه إلقاءً شيطانياً؛ ويلحق بذلك العجلة والجزع والخفة ونحوها.

• وأما ما في الروايات من أن المحدث يسمع الصوت ولا يعاين الملك، فمحمول على الجهة دون التمانع بين المعنيين، بمعنى أن الملاك في كون الإنسان محدثاً أن يسمع الصوت من غير لزوم الرؤية، فإن اتفق أن شاهد الملك حين ما يسمع الصوت، فليس ذلك لأنه محدث، وذلك لأن الآيات صريحة في رؤية بعض المحدثين للملائكة حين التحديث، كقوله تعالى في مريم: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ [مريم: ١٧ـ١٩]، وقوله تعالى في زوجة إبراهيم في قصة البشارة: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ﴾ [هود: ٦٩] إلى أن قال: ﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود: ٧٢ـ٧٣]

• وههنا وجه آخر: وهو أن يكون المراد بالمعاينة المنفية معاينة حقيقة الملك في نفسه دون مثاله الذي يتمثل به، فإن الآيات لا تثبت أزيد من معاينة المثال كما هو ظاهر.

• وههنا وجه آخر ثالث احتمله بعضهم: وهو أن المنفي من المعاينة الوحي التشريعي، بأن يظهر للمحدث فيلقي إليه حكماً شرعياً، وذلك صون من الله لمقام المشرعين من أنبيائه ورسله، ولا يخلو عن بعد.

٢٤. غيب كفالة مريم وما كان النبي شاهداً عليه:

المقطع [٢٤] من سورة آل عمران، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ

إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٣/ ١٩١»:

١. ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾:

أ. عده من أنباء الغيب نظير ما عدت قصة يوسف عليه السلام من أنباء الغيب التي توحى إلى رسول الله، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾، وأما ما يوجد من ذلك عند أهل الكتاب فلا عبرة به لعدم سلامته من تحريف المحرفين كما أن كثيرا من الخصوصيات المقتصة في قصص زكريا غير موجودة في كتب العهدين على ما وصفه الله في القرآن.

ب. ويؤيد هذا الوجه قوله تعالى في ذيل الآية: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ﴾ الآية، على أن النبي ﷺ وقومه كانوا أميين غير عالمين بهذه القصص ولا أنهم قرؤوها في الكتب كما ذكره تعالى بعد سرد قصة نوح: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾، والوجه الأول أوفق بسياق الآية.

٢. ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾:

أ. القلم بفتحتين القدح الذي يضرب به القرعة، ويسمى سهما أيضا، وجمعه أقلام، فقوله: ﴿يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ﴾ أي يضربون بسهامهم ليعينوا بالقرعة أيهم يكفل مريم.

ب. في هذه الجملة دلالة على أن الاختصام الذي يدل عليه قوله: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ إنما هو اختصامهم وتشاحهم في كفالة مريم، وأنهم لم يتناهوا حتى تراضوا بالاقتراع بينهم فضربوا بالقرعة فخرج السهم لزكريا فكفلها بدليل قوله: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾، الآية، وربما احتمل بعضهم أن هذا الاختصام والاقتراع بعد كبرها وعجز زكريا عن كفالتها، وكان منشؤه ذكر هذا الاقتراع والاختصام بعد تمام قصة ولادتها واصطفائها وذكر كفالة زكريا في أثنائها، فيكونان واقعتين اثنتين.

ج. فيه أنه لا ضير في إعادة بعض خصوصيات القصة أو ما هو بمنزلة الإعادة لتثبيت الدعوى كما وقع نظيره في قصة يوسف حيث قال تعالى بعد تمام القصة ـ: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ يشير بذلك إلى معنى قوله تعالى في أوائل القصة، ﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾، إلى أن قال: ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ

بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾

٣. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير العياشي في قوله تعالى: ﴿إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: ٤٤]، عن الباقر عليه السلام: يقرعون بها حين ايتمت من أبيها.

ب. وفي تفسير القمي: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢]، قال: اصطفاها مرتين: أما الأولى فاصطفاها أي اختارها، وأما الثانية فإنها حملت من غير فحل، فاصطفاها بذلك على نساء العالمين، إلى أن قال القمي: ثم قال لنبيه: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ [آل عمران: ٤٤] يا محمد، ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤]، قال: لما ولدت اختصموا آل عمران فيها، وكلهم قالوا: نحن نكفلها، فخرجوا وضربوا بالسهام بينهم، فخرج سهم زكريا، الخبر.

• أقول: وقد مر من البيان ما يؤيد هذا الخبر وما قبلها.

• واعلم أن هناك روايات كثيرة في بشارة مريم وولادة عيسى عليه السلام ودعوته ومعجزاته، لكن ما وقع في الآيات الشريفة من جمل قصصه كافٍ فيما هو المهم من البحث التفسيري، ولذلك تركنا ذكرها إلا ما يهم ذكره منها.

٢٥. بشارة الملائكة لمريم بالمسيح عيسى ابن مريم:

المقطع [٢٥] من سورة آل عمران، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٥-٤٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٣/ ١٩٢»:

١. ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ﴾:

أ. الظاهر أن هذه البشارة هي التي يشتمل عليها قوله تعالى في موضع آخر: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ الآيات، فتكون البشارة المنسوبة إلى الملائكة هاهنا هي المنسوبة إلى الروح فقط هناك، وقد قيل في

وجهه إن المراد بالملائكة هو جبرئيل، عبر بالجمع عن الواحد تعظيما لأمره كما يقال: سافر فلان فركب الدواب وركب السفن، وإنما ركب دابة واحدة وسفينة واحدة، ويقال: قال له الناس كذا، وإنما قاله واحد وهكذا، ونظير الآية قوله في قصة زكريا السابقة: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ ثم قوله: ﴿قَالَ كَذَلِكَ اللهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ الآية، وربما قيل: إن جبرئيل كان معه غيره فاشتركوا في ندائها.

ب. الذي يعطيه التدبر في الآيات التي تذكر شأن الملائكة أن بين الملائكة تقدما وتأخرا من حيث مقام القرب، وأن للمتأخر التبعية المحضة لأوامر المتقدم بحيث يكون فعل المتأخر رتبة، عين فعل المتقدم، وقوله عين قوله نظير ما نشاهده ونذعن به من كون أفعال قوانا وأعضائنا عين أفعالنا من غير تعدد فيه تقول: رأته عيناي وسمعته أذناي، ورأيته وسمعته، ويقال فعلته جوارحي وكتبته يدي ورسمته أناملي وفعلته أنا وكتبته أنا، وكذلك فعل المتبوع من الملائكة فعل التابعين له المؤتمرين لأمره بعينه، وقوله قولهم من غير اختلاف، وبالعكس كما أن فعل الجميع فعل الله سبحانه وقولهم قوله، كما قال تعالى: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾، فنسب التوفي إلى نفسه، وقال: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾، فنسبه إلى ملك الموت وقال: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾، فنسبه إلى جمع من الملائكة، ونظيره قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾، وقوله: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ﴾، وقوله: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ﴾، وقوله: ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾، فظهر أن بشارة جبرئيل هي عين بشارة من هو تحت أمره من جماعة الملائكة وهو من سادات الملائكة ومقربيهم على ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾، وسيأتي زيادة توضيح لهذا الكلام في سورة فاطر إن شاء الله تعالى.

ج. يؤيد ما ذكرناه قوله تعالى في الآية التالية: ﴿قَالَ كَذَلِكِ اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾، فإن ظاهره أن القائل هو الله سبحانه مع أنه نسب هذا القول في سورة مريم في القصة إلى الروح، قال تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ الآيات.، وفي تكلم الملائكة والروح مع مريم دلالة على كونها محدثة بل قوله تعالى في سورة مريم في القصة بعينها: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾، يدل على معاينتها الملك زيادة على سماعها صوته.

٢. ﴿بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾، قد مر البحث في معنى كلامه تعالى في تفسير قوله: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾، والكلمة والكلم كالتمرة والتمر جنس وفرد وتطلق الكلمة على اللفظ الواحد الدال على المعنى، وعلى الجملة سواء صح السكوت عليها مثل زيد قائم أو لم يصح مثل إن كان زيد قائما، هذا بحسب اللغة، وأما بحسب ما يصطلح عليه القرآن أعني الكلمة المنسوبة إلى الله تعالى فهي الذي يظهر به ما أراده الله تعالى من أمر نحو كلمة الإيجاد وهو قوله تعالى لشيء أراده: كن، أو كلمة الوحي والإلهام ونحو ذلك.

٣. أما المراد بالكلمة:

أ. فقد قيل: إن المراد به المسيح عليه السلام من جهة أن من أسبقه من الأنبياء أو خصوص أنبياء بني إسرائيل بشروا به بعنوان أنه منجي بني إسرائيل، يقال في نظير المورد هذه كلمتي التي كنت أقولها، ونظيره قوله تعالى في ظهور موسى عليه السلام: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾، وفيه أن ذلك وإن كان ربما ساعده كتب العهدين لكن القرآن الكريم خال عن ذلك بل القرآن يعد عيسى بن مريم مبشرا لا مبشرا به، على أن سياق قوله: ﴿اسْمُهُ الْمَسِيحُ﴾ لا يناسبه فإن الكلمة على هذا ظهور عيسى المخبر به قبلا لا نفس عيسى، وظاهر قوله: ﴿اسْمُهُ الْمَسِيحُ﴾، أن المسيح اسم الكلمة لا اسم من تقدمت في حقه الكلمة.

ب. وربما قيل: إن المراد به عيسى عليه السلام لإيضاحه مراده تعالى بالتوراة، وبيانه تحريفات اليهود وما اختلفوا فيه من أمور الدين كما حكى الله تعالى عنه ذلك فيما يخاطب به بني إسرائيل: ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾، وفيه أنه نكتة تصحح هذا التعبير لكنها خالية عما يساعدها من القرائن.

ج. وربما قيل: إن المراد بكلمة منه البشارة نفسها، وهي الإخبار بحملها بعيسى وولادته فمعنى قوله: ﴿يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ﴾: يبشرك ببشارة هي أنك ستلدين عيسى من غير مس بشر، وفيه أن سياق الذيل أعني قوله: ﴿اسْمُهُ الْمَسِيحُ﴾ لا يلائمه وهو ظاهر.

د. وربما قيل: إن المراد به عيسى عليه السلام من جهة كونه كلمة الإيجاد أعني قوله: كن، وإنما اختص عيسى عليه السلام بذلك مع كون كل إنسان بل كل شيء موجودا بكلمة كن التكوينية لأن سائر الأفراد من الإنسان يجري ولادتهم على مجرى الأسباب العادية المألوفة في العلوق من ورود ماء الرجل على

نطفة الإناث، وعمل العوامل المقارنة في ذلك، ولذلك يسند العلوق إليه كما يسند سائر المسببات إلى أسبابها، ولما لم يجر علوق عيسى هذا المجرى وفقد بعض الأسباب العادية التدريجية كان وجوده بمجرد كلمة التكوين من غير تخلل الأسباب العادية فكان نفس الكلمة كما يؤيده قوله تعالى: ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾، وقوله تعالى في آخر هذه الآيات: (﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ الآية)، وهذا أحسن الوجوه.

٤. المسيح:

أ. هو الممسوح سمي به عيسى عليه السلام لأنه كان مسيحا باليمن والبركة أو لأنه مسح بالتطهير من الذنوب، أو مسح بدهن زيت بورك فيه وكانت الأنبياء يمسحون به أو لأن جبرائيل مسحه بجناحه حين ولادته ليكون عوذة من الشيطان، أو لأنه كان يمسح رؤوس اليتامى، أو لأنه كان يمسح عين الأعمى بيده فيبصر، أو لأنه كان لا يمسح ذا عاهة بيده إلا برأ، فهذه وجوه ذكروها في تسميته بالمسيح، لكن الذي يمكن أن يعول عليه أن هذا اللفظ كان واقعا في ضمن البشارة التي بشر بها جبرائيل مريم عليه السلام على ما يحكيه تعالى بقوله: ﴿إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾)، وهذا اللفظ بعينه معرب (مشيحا) الواقع في كتب العهدين، والذي يستفاد منها أن بني إسرائيل كان من دأبهم أن الملك منهم إذا قام بأمر الملك مسحته الكهنة بالدهن المقدس ليبارك له في ملكه فكان يسمى مشيحا فمعناه: إما الملك وإما المبارك، وقد يظهر من كتبهم أنه عليه السلام إنما سمي مشيحا من جهة كون بشارته متضمنا لملكه، وأنه سيظهر في بني إسرائيل ملكا عليهم منجيا لهم كما يلوح ذلك من إنجيل لوقا في بشارة مريم، قال: فلما دخل إليها الملك قال السلام لك، يا ممتلية نعمة الرب معك مباركة أنت في النساء، فلما رأته اضطربت من كلامه وفكرت ما هذا السلام، فقال لها الملك لا تخافي يا مريم، فقد ظفرت بنعمة من عند الله، وأنت تحبلين وتلدين ابنا وتدعين اسمه يسوع، هذا يكون عظيما وابن العلي يدعى ويعطيه الرب له كرسي داوود أبيه ويملك على بيت يعقوب إلى الأبد، ولا يكون لملكه انقضاء (لوقا ١، ٣٤)

ب. ولذلك تتعلل اليهود عن قبول نبوته بأن البشارة لاشتمالها على ملكه لا تنطبق على عيسى عليه السلام لأنه لم ينل الملك أيام دعوته وفي حياته، ولذلك أيضا ربما وجهته النصارى وتبعه بعض المفسرين من المسلمين بأن المراد بملكه الملك المعنوي دون الصوري.

ج. ليس من البعيد أن يقال: إن تسميته بالمسيح في البشارة بمعنى كونه مباركا فإن التدهين عندهم إنما كان للتبريك، ويؤيده قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾

د. عيسى أصله يشوع، فسروه بالمخلص وهو المنجي، وفي بعض الأخبار تفسيره بيعيش وهو أنسب من جهة تسمية ابن زكريا بيحيى على ما مر من المشابهة التامة بين هذين النبيين، وتقييد عيسى بابن مريم مع كون الخطاب في الآية لمريم للتنبيه على أنه مخلوق من غير أب، ويكون معروفا بهذا النعت، وأن مريم شريكته في هذه الآية كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾

٥. ﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾:

أ. الوجاهة هي المقبولية، وكونه عليه السلام مقبولا في الدنيا مما لا خفاء فيه، وكذا في الآخرة بنص القرآن، ومعنى المقربين ظاهر فهو مقرب عند الله داخل في صف الأولياء والمقربين من الملائكة من حيث التقريب كما ذكره تعالى بقوله: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا للهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾، وقد عرف تعالى معنى التقريب بقوله: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾، إلى أن قال، ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾، إلى أن قال ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾، والآية كما ترى تدل على أن هذا التقرب وهو تقرب إلى الله سبحانه حقيقته سبق الإنسان سائر أفراد نوعه في سلوك طريق العود إلى الله الذي سلوكه مكتوب على كل إنسان بل كل شيء، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾، وقال تعالى: ﴿أَلَا إِلَى اللهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾

ب. إذا تأملت كون المقربين صفة الأفراد من الإنسان وصفة الأفراد من الملائكة علمت أنه لا يلزم أن يكون مقاما اكتسابيا فإن الملائكة لا يحرزون ما أحرزوه من المقام عند الله سبحانه بالكسب فلعله مقام تناله المقربون من الملائكة بهبة إلهية والمقربون من الإنسان بالعمل.

٦. ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾:

أ. المهد ما يهيأ للصبي من الفراش، والكهل من الكهولة وهو ما بين الشباب والشيخوخة، وهو ما يكون الإنسان فيه رجلا تاما قويا، ولذا قيل: الكهل من وخطه الشيب أي خالطه، وربما قيل: إن الكهل من بلغ أربعا وثلاثين، وكيف كان ففيه دلالة على أنه سيعيش حتى يبلغ سن الكهولة ففيه بشارة أخرى

لمريم، وفي التصريح بذلك مع دلالة الأناجيل على أنه لم يعش في الأرض أكثر من ثلاث وثلاثين سنة نظر ينبغي أن يمعن فيه ولذا ربما قيل: إن تكليمه للناس كهلا إنما هو بعد نزوله من السماء فإنه لم يمكث في الأرض ما يبلغ به سن الكهولة، وربما قيل: إن الذي يعطيه التاريخ بعد التثبت أن عيسى عليه السلام عاش نحوا من أربع وستين سنة خلافا لما يظهر من الأناجيل.

ب. الذي يظهر من سياق قوله: ﴿فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾، أنه لا يبلغ سن الشيخوخة، وإنما ينتهي إلى سن الكهولة، وعلى هذا فقد أخذ في البيان كلامه في طرفي عمره: الصبا والكهولة.

ج. المعهود من وضع الصبي في المهد أن يوضع فيه أوائل عمره ما دام في القماط قبل أن يدرج ويمشي وهو في السنة الثانية فما دونها غالبا، وهو سن الكلام فكلام الصبي في المهد وإن لم يكن في نفسه من خوارق العادة لكن ظاهر الآية أنه يكلم الناس في المهد كلاما تاما يعتني به العقلاء من الناس كما يعتنون بكلام الكهل، وبعبارة أخرى يكلمهم في المهد كما يكلمهم كهلا، والكلام من الصبي بهذه الصفة آية خارقة، على أن القصة في سورة مريم تبين أن تكليمه الناس إنما كان لأول ساعة أتت به مريم إلى الناس بعد وضعه وكلام الصبي لأول يوم ولادته آية خارقة لا محالة، قال تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ الآيات:

٧. ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾، خطابها لربها مع كون المكلم إياها الروح المتمثل بناء على ما تقدم أن خطاب الملائكة وخطاب الروح وكلامهم كلام الله سبحانه فقد كانت تعلم أن الذي يكلمها هو الله سبحانه وإن كان الخطاب متوجها إليها من جهة الروح المتمثل أو الملائكة ولذلك خاطبت ربها ويمكن أن يكون الكلام من قبيل قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾، فهو من الاستغاثة المعترضة في الكلام.

٨. ﴿قَالَ كَذَلِكِ اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ قد مرت الإشارة إلى أن تطبيق هذا الجواب بما في سورة مريم من قوله: ﴿قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا﴾، يفيد أن يكون قوله هاهنا: كذلك كلاما تاما تقديره: الأمر كذلك ومعناه

أن الذي بشرت به أمر مقضي لا مرد له، وأما التعجب من هذا الأمر فإنما يصح لو كان هذا الأمر مما لا يقدر عليه الله سبحانه أو يشق أما القدرة فإن قدرته غير محدودة يفعل ما يشاء وأما صعوبته ومشقته فإن العسر والصعوبة إنما يتصور إذا كان الأمر مما يتوسل إليه بالأسباب فكلما كثرت المقدمات والأسباب وعزت وبعد منالها اشتد الأمر صعوبة، والله سبحانه لا يخلق ما يخلق بالأسباب بل إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون، فقد ظهر أن قوله كذلك كلام تام أريد به رفع اضطراب مريم وتردد نفسها، وقوله: ﴿اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾، رفع العجز الذي يوهمه التعجب، وقوله: ﴿إِذَا قَضَى﴾، رفع لتوهم العسر والصعوبة.

٢٦. تعليم عيسى الكتاب والحكمة وإبراؤه المرضى وإحياؤه الموتى:

المقطع [٢٦] من سورة آل عمران، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٤٨-٤٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٣/ ١٩٨»:

١. ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾:

أ. اللام في الكتاب والحكمة للجنس، وقد مر أن الكتاب هو الوحي الرافع لاختلافات الناس، والحكمة هي المعرفة النافعة المتعلقة بالاعتقاد أو العمل، وعلى هذا فعطف التوراة والإنجيل على الكتاب والحكمة مع كونهما كتابين مشتملين على الحكمة من قبيل ذكر الفرد بعد الجنس لأهمية في اختصاصه بالذكر، وليست لام الكتاب للاستغراق لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ﴾، وقد مر بيانه.

ب. أما التوراة فالذي يريده القرآن منها هو الذي نزله الله على موسى عليه السلام في الميقات في ألواح على ما يقصه الله سبحانه في سورة الأعراف، وأما الذي عند اليهود من الأسفار فهم معترفون بانقطاع اتصال السند ما بين بخت نصر من ملوك بابل وكورش من ملوك الفرس، غير أن القرآن يصدق أن التوراة الموجود بأيديهم في زمن النبي ﷺ غير مخالفة للتوراة الأصل بالكلية وإن لعبت بها يد التحريف، ودلالة آيات القرآن على ذلك واضحة.

ج. أما الإنجيل ومعناه البشارة فالقرآن يدل على أنه كان كتابا واحدا نازلا على عيسى فهو الوحي المختص به، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ﴾، وأما هذه الأناجيل المنسوبة إلى متى ومرقس ولوقا ويوحنا فهي كتب مؤلفة بعده عليه السلام.

د. يدل أيضا على أن الأحكام إنما هي في التوراة، وأن الإنجيل لا تشتمل إلا على بعض النواسخ كقوله في هذه الآيات: {مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْراةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ} الآية، وقوله: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فِيهِ﴾، ولا يبعد أن يستفاد من الآية أن فيه بعض الأحكام الإثباتية، ويدل أيضا على أن الإنجيل مشتمل على البشارة بالنبي ﷺ كالتوراة قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾

٢. ﴿وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾:

أ. ظاهره أنه عليه السلام كان مبعوثا إلى بني إسرائيل خاصة كما هو اللائح من الآيات في حق موسى عليه السلام، وقد مر في الكلام على النبوة في ذيل قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ﴾ الآية، أن عيسى عليه السلام كموسى من أولي العزم وهم مبعوثون إلى أهل الدنيا كافة، لكن العقدة تنحل بما ذكرناه هناك في الفرق بين الرسول والنبي أن النبوة هي منصب البعث والتبليغ، والرسالة هي السفارة الخاصة التي تستتبع الحكم والقضاء بالحق بين الناس، إما بالبقاء والنعمة، أو بالهلاك كما يفيده قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾، وبعبارة أخرى النبي هو الإنسان المبعوث لبيان الدين للناس، والرسول هو المبعوث لأداء بيان خاص يستتبع رده الهلاك وقبوله البقاء والسعادة كما يؤيده بل يدل عليه ما حكاه الله سبحانه من مخاطبات الرسل لأممهم كنوح وهود وصالح وشعيب وغيرهم عليه السلام.

ب. إذا كان كذلك لم يستلزم الرسالة إلى قوم خاص البعثة إليهم، وكان من الممكن أن يكون الرسول إلى قوم خاص نبيا مبعوثا إليهم وإلى غيرهم كموسى وعيسى عليه السلام، وعلى ذلك شواهد من القرآن الكريم كرسالة موسى إلى فرعون، قال تعالى: ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾، وإيمان السحرة لموسى وظهور قبول إيمانهم ولم يكونوا من بني إسرائيل، قال تعالى: ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾،

ودعوة قوم فرعون، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾، ونظير ذلك ما كان من أمر إيمان الناس بعيسى فلقد آمن به عليه السلام قبل بعثة النبي ﷺ الروم وأمم عظيمة من الغربيين كالإفرنج والنمسا والبروس وإنجلترا وأمم من الشرقيين كنجران وهم جميعهم ليسوا من بني إسرائيل، والقرآن لم يخص، فيما يذكر فيه النصارى، نصارى بني إسرائيل خاصة بالذكر بل يعمم مدحه أو ذمه الجميع.

٣. ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ﴾:

أ. الخلق جمع أجزاء الشيء، وفيه نسبة الخلق إلى غيره تعالى كما يشعر به أيضا قوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾

ب. الأكمه هو الذي يولد مطموس العين، وقد يقال لمن تذهب عينه: كمهت عيناه حتى ابيضتا، قاله الراغب، والأبرص من كان به برص وهو مرض جلدي معروف.

٤. في قوله تعالى: ﴿وَأُحْيِي الْمَوْتَى﴾ حيث علق الإحياء بالموتى وهو جمع دلالة ولا أقل من الإشعار بالكثرة والتعدد.

٥. ﴿بِإِذْنِ اللهِ﴾، سيق للدلالة على أن صدور هذه الآيات المعجزة منه عليه السلام مستند إلى الله تعالى من غير أن يستقل عيسى عليه السلام بشيء من ذلك، وإنما كرر تكرارا يشعر بالإصرار لما كان من المترقب أن يضل فيه الناس فيعتقدوا بألوهيته استدلالا بالآيات المعجزة الصادرة عنه عليه السلام، ولذا كان يقيد كل آية يخبر بها عن نفسه مما يمكن أن يضلوا به كالخلق وإحياء الموتى بإذن الله ثم ختم الكلام بقوله: ﴿إِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾

٦. ظاهر قوله: ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ﴾ الآية أن هذه الآيات كانت تصدر عنه صدورا خارجيا لا أن الكلام مسوق لمجرد الاحتجاج والتحدي، ولو كان مجرد قول لقطع العذر وإتمام الحجة لكان من حق الكلام أن يقيد بقيد يفيد ذلك كقولنا: إن سألتم أو أردتم أو نحو ذلك، على أن ما يحكيه الله سبحانه من مشافهته لعيسى يوم القيامة يدل على وقوع هذه الآيات أتم الدلالة، قال: ﴿إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ﴾ إلى أن قال: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى﴾ الآية، ومن هنا يظهر فساد ما ذكره بعضهم:

أن قصارى ما تدل عليه الآية أن الله سبحانه جعل في عيسى بن مريم هذا السر، وأنه احتج على الناس بذلك، وأتم الحجة عليهم بحيث لو سألوه شيئا من ذلك لأتى به، أما أن كلها أو بعضها وقع فلا دلالة فيها على ذلك.

٧. ﴿وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾:

أ. وهذا إخبار بالغيب المختص بالله تعالى، ومن خصه من رسله بالوحي، وهو آية أخرى وإخبار بغيب صريح التحقق لا يتطرق إليه الشك والريب فإن الإنسان لا يشك عادة فيما أكله ولا فيما ادخره في بيته.

ب. لم يقيد هذه الآية بإذن الله مع أن الآية لا تتحقق إلا بإذن منه تعالى كما قال: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾، لأن هذه الآية عبر عنها بالإنباء وهو كلام قائم بعيسى عليه السلام يعد فعلا له فلا يليق أن يسند إلى ساحة القدس بخلاف الآيتين السابقتين أعني الخلق والإحياء فإنها فعل الله بالحقيقة ولا ينسبان إلى غيره إلا بإذنه، على أن الآيتين المذكورتين ليستا كالإنباء فإن الضلال إلى الناس فيهما أسرع منه في الإنباء فإن القلوب الساذجة تقبل ألوهية خالق الطير ومحيي الموتى بأدنى وسوسة ومغلطة بخلاف ألوهية من يخبر بالمغيبات فإنها لا تذعن باختصاص الغيب بالله سبحانه بل تعتقده أمرا مبتذلا جائز النيل لكل مرتاض أو كاهن مشعبذ فكان من الواجب عند مخاطبتهم أن يقيد الآيتين المذكورتين بالإذن دون الأخيرة، وكذا الإبراء فيكفي فيها مجرد ذكر أنها آية من الله، وخاصة إذا ألقي الخطاب إلى قوم يدعون أنهم مؤمنون، ولذلك ذيل الكلام بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي إن كنتم صادقين في دعواكم الإيمان.

٨. أحاديث وآثار: في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ﴾ [آل عمران: ٤٩] الآية، عن الباقر عليه السلام: أن عيسى كان يقول لبني إسرائيل: إني رسول الله إليكم، وإني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير، فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله، وأبرئ الأكمه والأبرص، والأكمه هو الأعمى، قالوا: ما نرى الذي تصنع إلا سحراً، فأرنا آية نعلم أنك صادق، قال: أرأيتم إن أخبرتكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم ـ يقول: ما أكلتم في بيوتكم قبل أن تخرجوا، وما ادخرتم بالليل ـ تعلمون أني صادق؟ قالوا: نعم، فكان يقول: أنت أكلت كذا وكذا، وشربت كذا وكذا، ورفعت كذا وكذا، فمنهم من يقبل منه فيؤمن،

ومنهم من يكفر، وكان لهم في ذلك آية إن كانوا مؤمنين.

• أقول: وتغيير سياق الآية في حكاية ما ذكره عليه السلام من الآيات أولاً وآخراً يؤيد هذه الرواية، وقد مرت الإشارة إليه.

٢٧. تصديق عيسى للتوراة وتحليل بعض المحرمات ودعوته للتقوى:

المقطع [٢٧] من سورة آل عمران، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ إِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [آل عمران: ٥٠ـ٥١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٣/ ٢٠٢»:

١. ﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾:

أ. عطف على قوله: ﴿وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، وكون المعطوف مبنيا على التكلم مع كون المعطوف عليه مبنيا على الغيبة أعني كون عيسى عليه السلام في قوله: ﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ﴾، متكلما وفي قوله: ﴿وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، غائبا ليس مما يضر بالعطف بعد تفسير قوله: ﴿وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، بقول عيسى: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ﴾، فإن وجه الكلام يتبدل بذلك من الغيبة إلى الحضور فيستقيم به العطف.

ب. تصديقه للتوراة التي بين يديه إنما هو تصديق لما علمه الله من التوراة على ما تفيده الآية السابقة، وهو التوراة الأصل النازلة على موسى عليه السلام فلا دلالة لكونه مصدقا للتوراة التي في زمانه على كونها غير محرفة كما لا دلالة لتصديق نبينا محمد ﷺ للتوراة التي بين يديه على كونها غير محرفة.

٢. ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾:

أ. فإن الله تعالى كان حرم عليهم بعض الطيبات، قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ الآية، والكلام لا يخلو عن دلالة على إمضائه عليه السلام لأحكام التوراة إلا ما نسخه الله تعالى بيده من الأحكام الشاقة المكتوبة على اليهود، ولذا قيل: إن الإنجيل غير مشتمل على الشريعة.

ب. قوله: ﴿وَلِأُحِلَّ﴾، معطوف على قوله: ﴿بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾، واللام للغاية، والمعنى: قد جئتكم لأنسخ بعض الأحكام المحرمة المكتوبة عليكم.

٣. ﴿جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾، الظاهر أنه لبيان أن قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ﴾، متفرع على إتيان

الآية لا على إحلال المحرمات فهو لدفع الوهم، ويمكن أن يكون هو مراد من قال: إن إعادة الجملة للتفرقة بين ما قبلها وما بعدها، فإن مجرد التفرقة ليست من المزايا في الكلام.

٤. ﴿إِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾، فيه قطع لعذر من اعتقد ألوهيته لتفرسه عليه السلام ذلك منهم أو لعلمه بذلك بالوحي كما ذكرنا نظير ذلك في تقييد قوله: ﴿فَيَكُونُ طَيْرًا﴾، وقوله: ﴿وَأُحْيِي الْمَوْتَى﴾، بقوله: ﴿بِإِذْنِ اللهِ﴾ لكن الظاهر من قوله تعالى فيما يحكي قول عيسى عليه السلام: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾، إن ذلك كان بأمر من ربه ووحي منه.

٥. أحاديث وآثار: في تفسير العياشي في قوله تعالى: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠]، عن الصادق عليه السلام قال: كان بين داود وعيسى أربعمائة سنة، وكانت شريعة عيسى أنه بعث بالتوحيد والإخلاص وبما أوصى به نوح وإبراهيم وموسى، وأنزل عليه الإنجيل، وأخذ عليه الميثاق الذي أخذ على النبيين، وشرع له في الكتاب: إقام الصلاة مع الدين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتحريم الحرام وتحليل الحلال، وأنزل عليه في الإنجيل مواعظ وأمثال وحدود، ليس فيها قصاص، ولا أحكام حدود، ولا فرض مواريث، وأنزل عليه تخفيف ما كان على موسى في التوراة، وهو قول الله في الذي قال عيسى لبني إسرائيل: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾، وأمر عيسى من معه ممن اتبعه من المؤمنين أن يؤمنوا بشريعة التوراة والإنجيل.

• أقول: ورويت الرواية في قصص الأنبياء مفصلة عن الصادق عليه السلام، وفيها: كان بين داود وعيسى أربعمائة سنة وثمانون سنة، ولا يوافق شيء منهما تاريخ أهل الكتاب.

٢٨. استجابة الحواريين لطلب النصرة:

المقطع [٢٨] من سورة آل عمران، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللهِ آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٢-٥٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٣/ ٢٠٢»:

١. ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللهِ﴾:

أ. لما كانت البشارة التي بشر بها مريم مشتملة على جمل قصص عيسى عليه السلام من حين حمله

إلى حين رسالته ودعوته اقتصر عليها اقتصاصا إيجازا في الكلام وفرع عليها تتمة الجملة من قصته وهو انتخابه حوارييه ومكر قومه به ومكر الله بهم في تطهيره منهم وتوفيه ورفعه إليه، وهو تمام القصة.

ب. اعتبر في القصة المقدار الذي يهم إلقاؤه إلى النصارى حين نزول الآيات، وهم نصارى نجران: الوفد الذين أتوا المدينة للبحث والاحتجاج، ولذلك أسقط منها بعض الخصوصيات التي تشتمل عليه قصصه المذكورة في سائر السور القرآنية كسورة النساء والمائدة والأنبياء والزخرف والصف.

ج. في استعمال لفظ الإحساس في مورد الكفر مع كونه أمرا قلبيا إشعار بظهوره منهم حتى تعلق به الإحساس أو أنهم هموا بإيذائه وقتله بسبب كفرهم فأحس به فقوله: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى﴾ أي استشعر واستظهر ﴿مِنْهُمْ﴾ أي من بني إسرائيل المذكور اسمهم في البشارة ﴿الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ﴾؟ وإنما أراد بهذا الاستفهام أن يتميز عدة من رجال قومه فيتمحضوا للحق فتستقر فيهم عدة الدين، وتتمركز فيهم قوته ثم تنتشر من عندهم دعوته، وهذا شأن كل قوة من القوى الطبيعية والاجتماعية وغيرها، أنها إذا شرعت في الفعل ونشر التأثير وبث العمل كان من اللازم أن تتخذ لنفسها كانونا تجتمع فيه وتعتمد عليه وتستمد منه ولولا ذلك لم تستقر على عمل، وذهبت سدى لا تجدي نفعا، ونظير ذلك في دعوة الإسلام بيعة العقبة وبيعة الشجرة أراد بها رسول الله ﷺ ركوز القدرة وتجمع القوة ليستقيم به أمر الدعوة.

د. فلما أيقن عيسى عليه السلام أن دعوته غير ناجحة في بني إسرائيل كلهم أو جلهم، وأنهم كافرون به لا محالة، وأنهم لو أخمدوا أنفاسه بطلت الدعوة واشتدت المحنة مهد لبقاء دعوته هذا التمهيد فاستنصر منهم للسلوك إلى الله سبحانه فأجابه الحواريون على ذلك فتميزوا من سائر القوم بالإيمان فكان ذلك أساسا لتميز الإيمان من الكفر وظهوره عليه بنشر الدعوة وإقامة الحجة كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾

هـ. قيد الأنصار في قوله: ﴿مَنْ أَنْصَارِي﴾ بقوله: ﴿إِلَى اللهِ﴾ ليتم به معنى التشويق والتحريص الذي سيق لأجله هذا الاستفهام نظير قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾، والظرف متعلق بقوله: ﴿أَنْصَارِي﴾، بتضمين النصرة معنى السلوك والذهاب أو ما يشابههما كما حكى عن إبراهيم عليه السلام من قوله: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾، وأما ما احتمله بعض المفسرين من كون إلى بمعنى مع

فلا دليل عليه ولا يساعد أدب القرآن أن يجعله تعالى في عداد غيره فيعد غير الله ناصرا كما يعده ناصرا، ولا يساعد عليه أدب عيسى عليه السلام اللائح مما يحكيه القرآن من قوله، على أن قوله تعالى: ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ﴾، أيضا لا يساعد عليه إذ كان من اللازم على ذلك أن يقولوا: نحن أنصارك مع الله فليتأمل.

٢. ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾:

أ. حواري الإنسان من اختص به من الناس، وقيل أصله من الحور وهو شدة البياض، ولم يستعمل القرآن هذا اللفظ إلا في خواص عيسى عليه السلام من أصحابه.

ب. قولهم: ﴿آمَنَّا بِاللهِ﴾، بمنزل التفسير لقولهم: ﴿نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ﴾ وهذا مما يؤيد كون قوله: ﴿أَنْصَارِي إِلَى اللهِ﴾ جاريا مجرى التضمين كما مر فإنه يفيد معنى السلوك في الطريق إلى الله، والإيمان طريق.

ج. سؤال وإشكال: هل هذا أول إيمانهم بعيسى عليه السلام؟ والجواب: ربما استفيد من قوله تعالى: ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ﴾، أنه إيمان، بعد إيمان ولا ضير فيه كما يظهر بالرجوع إلى ما أوضحناه من كون الإيمان والإسلام ذوي مراتب مختلفة بعضها فوق بعض، بل ربما دل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾، أن إجابتهم إنما كانت بوحي من الله تعالى إليهم، وأنهم كانوا أنبياء فيكون الإيمان الذي أجابوه به هو الإيمان بعد الإيمان، على أن قولهم: ﴿وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ﴾، وهذا الإسلام هو التسليم المطلق لجميع ما يريده الله تعالى منهم وفيهم، يدل أيضا على ذلك فإن هذا الإسلام لا يتأتى إلا من خلص المؤمنين لا من كل من شهد بالتوحيد والنبوة مجرد شهادة، بيان ذلك أنه قد مر في البحث عن مراتب الإيمان والإسلام: أن كل مرتبة من الإيمان تسبقها مرتبة من مراتب الإسلام كما يدل عليه قولهم: ﴿آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾، حيث أتوا في الإيمان بالفعل وفي الإسلام بالصفة:

- فأول مراتب الإسلام هو التسليم والشهادة على أصل الدين إجمالا.
- ويتلوه الإذعان القلبي بهذه الشهادة الصورية في الجملة.
- ويتلوه (وهو المرتبة الثانية من الإسلام) التسليم القلبي لمعنى الإيمان وينقطع عنده السخط

والاعتراض الباطني بالنسبة إلى جميع ما يأمر به الله ورسوله وهو الاتباع العملي في الدين.

- ويتلوه (وهو المرتبة الثانية من الإيمان) خلوص العمل واستقرار وصف العبودية في جميع الأعمال والأفعال.

- ويتلوه (وهو المرتبة الثالثة من الإسلام) التسليم لمحبة الله وإرادته تعالى فلا يحب ولا يريد شيئا إلا بالله، ولا يقع هناك إلا ما أحبه الله وأراده ولا خبر عن محبة العبد وإرادته في نفسه.

- ويتلوه (وهو المرتبة الثالثة من الإيمان) شيوع هذا التسليم العبودي في جميع الأعمال.

د. إذا تذكرت هذا الذي ذكرناه، وتأملت في قوله عليه السلام فيما نقل من دعوته: ﴿فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ إِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ الآية، وجدت أنه عليه السلام أمر أولا بتقوى الله وإطاعة نفسه، ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ أي إن الله ربكم معشر الأمة ورب رسوله الذي أرسله إليكم، فيجب عليكم أن تتقوه بالإيمان، وأن تطيعوني بالاتباع، وبالجملة يجب عليكم أن تعبدوه بالتقوى وطاعة الرسول أي الإيمان والاتباع، فهذا هو المستفاد من هذا الكلام، ولذا بدل التقوى والإطاعة في التعليل من قوله: ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ وإنما فعل ذلك ليتضح ارتباط الأمر بالله لظهور الارتباط به في العبودية، ثم ذكر أن هذه العبادة صراط مستقيم فجعله سبيلا ينتهي بسالكه إلى الله سبحانه، ثم لما أحس منهم الكفر ولاحت أسباب اليأس من إيمان عامتهم قال: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ فطلب أنصارا لسلوك هذا الصراط المستقيم الذي كان يندب إليه، وهو العبودية أعني التقوى والإطاعة فأجابه الحواريون بعين ما طلبه فقالوا: ﴿نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ﴾، ثم ذكروا ما هو كالتفسير له فقالوا: ﴿آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾، ومرادهم بالإسلام إطاعته وتبعيته، ولذا لما خاطبوا ربهم خطاب تذلل والتجاء، وذكروا له ما وعدوا به عيسى عليه السلام قالوا: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ﴾، فبدلوا الإسلام من الاتباع، ووسعوا في الإيمان بتقييده بجميع ما أنزل الله، فأفاد ذلك أنهم آمنوا بجميع ما أنزل الله مما علمه عيسى بن مريم من الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل، واتبعوا الرسول في ذلك، وهذا كما ترى ليس أول درجة من الإيمان بل من أعلى درجاته وأسماها.

هـ. إنما استشهدوا عيسى عليه السلام في إسلامهم واتباعهم ولم يقولوا: آمنا بالله وإنا مسلمون أو ما يفيد معناه ليكونوا على حجة في عرضهم حالهم على ربهم إذ قالوا: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا

الرَّسُولَ﴾، فكأنهم قالوا: ربنا حالنا هذا الحال، ويشهد بذلك رسولك الشاهدين، وفرعوا ذلك على إيمانهم وإسلامهم جميعا لأن تبليغ الرسول رسالته إنما يتحقق ببيانه ما أنزله الله عليه قولا وفعلا، أي بتعليمه معالم الدين وعمله بها، فالشهادة على التبليغ إنما يكون بتعلمها من الرسول واتباعه عملا حتى يشاهد أنه عامل بما يدعو إليه لا يتخطاه ولا يتعداه.

و. الظاهر أن هذه الشهادة هي التي يومئ إليها قوله تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾، وهي الشهادة على التبليغ، وأما قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾، فهو شهادة على حقية رسالة الرسول دون التبليغ وربما أمكن أن يستفاد من قولهم: ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ بعد استشهادهم الرسول على إسلامهم أن المسئول: أن يكتبهم الله من شهداء الأعمال كما يلوح ذلك مما حكاه الله تعالى في دعاء إبراهيم وإسماعيل عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾، وليرجع إلى ما ذكرناه في ذيل الآية.

٣. ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾، الماكرون هم بنو إسرائيل، بقرينة قوله: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾، وقد مر الكلام في معنى المكر المنسوب إليه تعالى في ذيل قوله: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾

٤. أحاديث وآثار:

أ. في العيون عن الرضا عليه السلام: أنه سئل لم سمي الحواريون الحواريين؟ قال: أما عند الناس، فإنهم سموا حواريين لأنهم كانوا قصارين يخلصون الثياب من الوسخ بالغسل، وهو اسم مشتق من الخبز الحوار، وأما عندنا، فسمي الحواريون الحواريين لأنهم كانوا مخلصين في أنفسهم، ومخلصين من أوساخ الذنوب بالوعظ والتذكير.

ب. وفي التوحيد عنه عليه السلام: إنهم كانوا اثنا عشر رجلاً، وكان أفضلهم وأعلمهم لوقا.

ج. وفي الإكمال عن الصادق عليه السلام في حديث: بعث الله عيسى بن مريم، واستودعه النور والعلم والحكم وجميع علوم الأنبياء قبله، وزاده الإنجيل، وبعثه إلى بيت المقدس إلى بني إسرائيل يدعوهم إلى كتابه وحكمته، وإلى الإيمان بالله ورسوله، فأبى أكثرهم إلا طغياناً وكفراً، فلما لم يؤمنوا، دعا ربه وعزم

عليه، فمسخ منهم شياطين ليريهم آية فيعتبروا، فلم يزدهم ذلك إلا طغياناً وكفراً، فأتى بيت المقدس، فمكث يدعوهم ويرغبهم فيما عند الله ثلاثة وثلاثين سنة، حتى طلبته اليهود، وادعت أنها عذبته ودفنته في الأرض حياً، وادعى بعضهم أنهم قتلوه وصلبوه، وما كان الله ليجعل لهم سلطاناً عليه، وإنما شبه لهم، وما قدروا على عذابه وقتله ولا على قتله وصلبه، لأنهم لو قدروا على ذلك لكان تكذيباً لقوله: ﴿وَلَٰكِن رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٨]، ولكن رفعه الله بعد أن توفاه.

• أقول: قوله عليه السلام: (فمسخ منهم شياطين) أي مسخ جمعاً من شرارهم.

• وقوله عليه السلام: (فمكث يدعوهم) لعله إشارة إلى مدة عمره على ما هو المشهور؛ فإنه عليه السلام كان يكلمهم من المهد إلى الكهولة، وكان نبياً من صباه، على ما يدل عليه قوله على ما حكاه الله عنه: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم: ٢٩ـ٣٠]

• وقوله عليه السلام: (لكان تكذيباً لقوله: ولكن رفعه الله بعد أن توفاه)، نقل بالمعنى لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٨]، وقوله تعالى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥]، وقد استفاد من تقديم التوفي على الرفع في اللفظ الترتيب بينهما في الوجود.

٢٩. رفع عيسى وتطهيره من الكافرين وحكم الله بينهم:

المقطع [٢٩] من سورة آل عمران، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ٥٥ـ٥٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٣/ ٢٠٧»:

١. ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾:

أ. التوفي أخذ الشيء أخذا تاما، ولذا يستعمل في الموت لأن الله يأخذ عند الموت نفس الإنسان من بدنه قال تعالى: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾، أي أماتته، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾، إلى أن قال ـ: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ

مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى﴾، والتأمل في الآيتين الأخيرتين يعطي أن التوفي لم يستعمل في القرآن بمعنى الموت بل بعناية الأخذ والحفظ، وبعبارة أخرى إنما استعمل التوفي بها في حين الموت من الأخذ للدلالة على أن نفس الإنسان لا يبطل ولا يفنى بالموت الذي يظن الجاهل أنه فناء وبطلان بل الله تعالى يحفظها حتى يبعثها للرجوع إليه، وإلا فهو سبحانه يعبر في الموارد التي لا تجري فيه هذه العناية بلفظ الموت دون التوفي كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾: الفاطر، ٣٦، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة جدا حتى ما ورد في عيسى عليه السلام بنفسه كقوله: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾، وقوله: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾، فمن هذه الجهة لا صراحة للتوفي في الموت.

ب. على أن قوله تعالى في رد دعوى اليهود: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾، يؤيد ذلك فإن اليهود كانت تدعي أنهم قتلوا المسيح عيسى بن مريم عليه السلام وكذلك كانت تظن النصارى أن اليهود قتلت عيسى بن مريم عليه السلام بالصلب غير أنهم كانوا يزعمون أن الله سبحانه رفعه بعد قتله من قبره إلى السماء على ما في الأناجيل، والآيات كما ترى تكذب قصة القتل والصلب صريحا.

ج. الذي يعطيه ظاهر قوله: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ الآية أنه حي عند الله ولن يموت حتى يؤمن به أهل الكتاب، على هذا فيكون توفيه عليه السلام أخذه من بين اليهود لكن الآية مع ذلك غير صريحة فيه وإنما هو الظهور، وسيجيء تمام الكلام في ذلك في آخر سورة النساء.

٢. ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾:

أ. الرفع خلاف الوضع، والطهارة خلاف القذارة، وقد مر الكلام في معنى الطهارة، وحيث قيد الرفع بقوله: ﴿إِلَيَّ﴾، أفاد ذلك أن المراد بالرفع الرفع المعنوي دون الرفع الصوري إذ لا مكان له تعالى من سنخ الأمكنة الجسمانية التي تتعاورها الأجسام والجسمانيات بالحلول فيها، والقرب والبعد منها، فهو من

قبيل قوله تعالى في ذيل الآية: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾، وخاصة لو كان المراد بالتوفي هو القبض لظهور أن المراد حينئذ هو رفع الدرجة والقرب من الله سبحانه، نظير ما ذكره تعالى في حق المقتولين في سبيله: ﴿أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، وما ذكره في حق إدريس عليه السلام: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾

ب. ربما يقال: إن المراد برفعه إليه رفعه بروحه وجسده حيا إلى السماء على ما يشعر به ظاهر القرآن الشريف أن السماء أي الجسمانية هي مقام القرب من الله سبحانه، ومحل نزول البركات، ومسكن الملائكة المكرمين، ولعلنا نوفق للبحث عن معنى السماء فيما سيأتي إن شاء الله تعالى.

ج. التطهير من الكافرين حيث أتبع به الرفع إلى الله سبحانه أفاد معنى التطهير المعنوي دون الظاهري الصوري فهو إبعاده من الكفار وصونه عن مخالطتهم والوقوع في مجتمعهم المتقذر بقذارة الكفر والجحود.

٣. ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾:

أ. وعد منه تعالى له عليه السلام أنه سيفوق متبعي عيسى عليه السلام على مخالفيه الكافرين بنبوته، وأن تفوقهم هذا سيدوم إلى يوم القيامة وإنما ذكر تعالى في تعريف هؤلاء الفائقين على غيرهم أن الفائقين هم الذين اتبعوه وأن غيرهم هم الذين كفروا من غير أن يقول هم بنو إسرائيل أو اليهود المتنحلون بشريعة موسى عليه السلام أو غير ذلك، غير أنه تعالى لما أخذ الكفر في تعريف مخالفيه ظهر منه أن المراد باتباعه هو الاتباع على الحق أعني الاتباع المرضي لله سبحانه فيكون الذين اتبعوه هم أتباعه المستقيمون من النصارى قبل ظهور الإسلام ونسخه دين عيسى، والمسلمون بعد ظهور الإسلام فإنهم هم أتباعه على الحق، وعلى هذا فالمراد بالتفوق هو التفوق بحسب الحجة دون السلطنة والسيطرة، فمحصل معنى الجملة: أن متبعيك من النصارى والمسلمين ستفوق حجتهم على حجة الكافرين بك من اليهود إلى يوم القيامة.

ب. هذا ما ذكره وارتضاه المفسرون في معنى الآية، والذي أراه أن الآية لا تساعد عليه لا بلفظها ولا بمعناها فإن ظاهر قوله: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ﴾، أنه إخبار عن المستقبل وأنه سيتحقق فيما يستقبل حال التكلم توف ورفع وتطهير وجعل على أن قوله: ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ﴾، وعد حسن وبشرى، وما هذا شأنه لا يكون إلا في ما سيأتي، ومن المعلوم أن ليست حجة متبعي عيسى عليه السلام إلا حجة عيسى نفسه، وهي التي ذكرها الله تعالى في

ضمن آيات البشارة أعني بشارة مريم، وهذه الحجج حجج فائقة حين حضور عيسى قبل الرفع، وبعد رفع عيسى بل كانت قبل رفعه عليه السلام أقطع لعذر الكفار ومنبت خصومتهم، وأوضح في رفع شبههم، فما معنى وعده عليه السلام أنه ستفوق حجة متبعيه على حجة مخالفيه ثم ما معنى تقييد هذه الغلبة والتفوق بقوله: ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، مع أن الحجة في غلبتها لا تقبل التقييد بوقت ولا يوم على أن تفوق الحجة على الحجة باق على حاله يوم القيامة على ما يخبر به القرآن في ضمن أخبار القيامة.

ج. سؤال وإشكال: لعل المراد من تفوق الحجة تفوقها من جهة المقبولية بأن يكون الناس أسمع لحجة المتبعين وأطوع لها فيكونوا بذلك أكثر جمعا وأوثق ركنا وأشد قوة، والجواب: مرجع ذلك إما إلى تفوق متبعيه الحقيقيين من حيث السلطنة والقوة والواقع خلافه، واحتمال أن يكون إخبارا عن ظهور للمتبعين وتفوق منهم سيتحقق في آخر الزمان لا يساعد عليه لفظ الآية، وإما إلى كثرة العدد بأن يراد أن متبعيه عليه السلام سيفوقون الكافرين أي يكون أهل الحق بعد عيسى أكثر جمعا من أهل الباطل، ففيه مضافا إلى أن الواقع لا يساعد عليه فلم يزل أهل الباطل يربو ويزيد جمعهم على أهل الحق من زمن عيسى إلى يومنا هذا وقد بلغ الفصل عشرين قرنا أن لفظ الآية لا يساعد عليه فإن الفوقية في الآية وخاصة من جهة كون المقام مقام الإنباء عن نزول السخط الإلهي على اليهود وشمول الغضب عليهم إنما يناسب القهر والاستعلاء إما من حيث الحجة البالغة أو من حيث السلطة والقوة وأما من حيث كثرة العدد فلا يناسب المقام كما هو ظاهر.

د. الذي ينبغي أن يقال أن الذي أخذ في الآية معرفا للفرقتين هو قوله: ﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ﴾، وقوله ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، والفعل إنما يدل على التحقق والحدوث دون التلبس الذي يدل عليه الوصف كالمتبعين والكافرين، ومجرد صدور فعل من بعض أفراد أمة مع رضاء الباقين به وسلوك اللاحقين مسلك السابقين وجريهم على طريقتهم كاف في نسبة ذلك الفعل إليهم، كما أن القرآن يؤنب اليهود ويوبخهم على كثير من أفعال سلفهم كقتل الأنبياء وإيذائهم والاستكبار عن امتثال أوامر الله سبحانه ورسله وتحريف آيات الكتاب، وغير ذلك، وعلى هذا صح أن يراد بالذين كفروا اليهود، وبالذين اتبعوا النصارى لما صدر من صدرهم وسلفهم من الإيمان بعيسى عليه السلام واتباعه، وقد كان إيمانا مرضيا واتباعا حقا، وإن كان الله سبحانه لم يرتض اتباعهم له عليه السلام بعد ظهور الإسلام، ولا اتباع أهل التثليث منهم قبل ظهور

الدعوة الإسلامية، فالمراد جعل النصارى، وهم الذين اتبع أسلافهم عيسى عليه السلام، فوق اليهود وهم الذين كفروا بعيسى عليه السلام ومكروا به، والغرض في المقام بيان نزول السخط الإلهي على اليهود، وحلول المكر بهم، وتشديد العذاب على أمتهم، ولا ينافي ما ذكرناه كون المراد بالاتباع هو الاتباع على الحق كما استظهرناه في أول الكلام كما لا يخفى.

هـ. ويؤيد هذا المعنى تغيير الأسلوب في الآية الآتية أعني قوله: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، إذ لو كان المراد بالذين اتبعوا هم أهل الحق والنجاة من النصارى والمسلمين فقط كان الأنسب أن يقال: وأما الذين اتبعوك فيوفيهم أجورهم من غير تغيير للسياق كما لا يخفى.

و. وهاهنا وجه آخر وهو أن يكون المراد بالذين اتبعوا هم النصارى والمسلمون قاطبة وتكون الآية مخبرة عن كون اليهود تحت إذلال من يذعن لزوم اتباع عيسى إلى يوم القيامة، والتقريب عين التقريب، وهذا أحسن الوجوه في توجيه الآية عند التدبر.

٤. ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾، وقد جمع سبحانه في هذا الخطاب بين عيسى وبين الذين اتبعوه والذين كفروا به وهذا مآل أمرهم يوم القيامة، وبذلك يختتم أمر عيسى وخبره من حين البشارة به إلى آخر أمره ونبإه.

٥. ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾، ظاهره أنه متفرع على قوله: ﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾، تفرع التفصيل على الإجمال فيكون بيانا للحكم الإلهي في يوم القيامة بالعذاب لليهود الذين كفروا وتوفيه الأجر للمؤمنين، لكن اشتمال التفريع على قوله: ﴿فِي الدُّنْيَا﴾، يدل على كونه متفرعا على مجموع قوله: ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ الآية فيدل على أن نتيجة هذا الجعل والرجوع تشديد العذاب عليهم في الدنيا بيد الذين فوقهم الله تعالى عليهم، وفي الآخرة بالنار، وما لهم في ذلك من ناصرين، وهذا أحد الشواهد على أن المراد بالتفويق في الآية السابقة هو التسليط بالسيطرة والقوة دون التأييد بالحجة، وفي قوله: ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ دلالة على نفي الشفاعة المانعة عن حلول العذاب بساحتهم، وهو حتم القضاء كما تقدم.

٦. ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾:

أ. وهذا وعد حسن بالجزاء الخير للذين اتبعوا إلا أن مجرد صدق الاتباع لما لم يستلزم استحقاق

جزيل الثواب لأن الاتباع كما عرفت وصف صادق على الأمة بمجرد تحققه وصدوره عن عدة من أفرادها وحينئذ إنما يؤثر الأثر الجميل والثواب الجزيل بالنسبة إلى من تلبس به شخصا دون من انتسب إليه اسما فلذلك بدل الذين اتبعوك من مثل قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، ليستقيم المعنى فإن السعادة والعاقبة الحسنى تدور مدار الحقيقة دون الاسم كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، فهذا أجر الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الذين اتبعوا عيسى عليه السلام أن الله يوفيهم أجورهم، وأما غيرهم فليس لهم من ذلك شيء، وقد أشير إلى ذلك في الآية بقوله: ﴿وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾

ب. ومن هنا يظهر السر في ختم الآية، وهي آية الرحمة والجنة، بمثل قوله: ﴿وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ مع أن المعهود في آيات الرحمة والنعمة أن تختتم بأسماء الرحمة والمغفرة أو بمدح حال من نزلت في حقه الآية نظير قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِنْ تُقْرِضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾، إلى غير ذلك من الآيات، فقوله: ﴿وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ مسوق لبيان حال الطائفة الأخرى ممن انتسب إلى عيسى عليه السلام بالاتباع وهم غير الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

٧. ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ إشارة إلى اختتام القصة، والمراد بالذكر الحكيم القرآن الذي هو ذكر لله محكم من حيث آياته وبياناته، لا يدخله باطل، ولا يلج فيه هزل.

٨. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي عن الباقر عليه السلام قال: إن عيسى وعد أصحابه ليلة رفعه الله إليه، فاجتمعوا إليه عند المساء وهم اثنا عشر رجلاً، فأدخلهم بيتاً، ثم خرج إليهم من عين في زاوية البيت وهو ينفض رأسه عن الماء، فقال: إن الله أوحى إلي أنه رافعي إليه الساعة، ومطهري من اليهود، فأيكم يلقى عليه شبحي فيقتل ويصلب، ويكون معي في درجتي؟ فقال شاب منهم: أنا يا روح الله، قال: فأنت هو ذا،

فقال لهم عيسى: أما إن منكم من يكفر بي قبل أن يصبح اثنتي عشرة كفرة، فقال رجل منهم: أنا هو يا نبي الله! فقال له عيسى: أتحس بذلك في نفسك؟ فلتكن هو، ثم قال لهم عيسى: أما إنكم ستفترقون بعدي ثلاث فرق: فرقتين مفتريتين على الله في النار؛ وفرقة تتبع شمعون صادقة على الله في الجنة، ثم رفع الله عيسى إليه من زاوية البيت وهم ينظرون إليه، ثم قال: إن اليهود جاءت في طلب عيسى من ليلتهم، فأخذوا الرجل الذي قال له عيسى: إن منكم لمن يكفر بي قبل أن يصبح اثنتي عشرة كفرة، وأخذوا الشاب الذي ألقي عليه شبح عيسى فقتل وصلب، وكفر الذي قال له عيسى: يكفر قبل أن يصبح اثنتي عشرة كفرة.

• أقول: وروي قريب منه عن ابن عباس وقتادة وغيرهما، وقال بعضهم: إن الذي ألقي عليه شبح عيسى هو الذي دلهم ليقبضوا عليه ويقتلوه، وقيل غير ذلك، والقرآن ساكت عن ذلك، وسيجيء استيفاء البحث في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧] الآية.

ب. وفي العيون عن الرضا عليه السلام قال: إنه ما شبه أمر أحد من أنبياء الله وحججه على الناس إلا أمر عيسى وحده؛ لأنه رفع من الأرض حياً، وقبض روحه بين السماء والأرض، ثم رفع إلى السماء، ورد عليه روحه، وذلك قوله عز وجل: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ﴾ [آل عمران: ٥٥]، وقال الله حكاية لقول عيسى يوم القيامة: ﴿وَكُنتُ شَهِيدًا عَلَيْهِم مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ١١٧]

ج. وفي تفسير العياشي عن الصادق عليه السلام قال: رفع عيسى بن مريم بمدرعة صوف من غزل مريم، ومن نسج مريم، ومن خياطة مريم، فلما انتهى إلى السماء نودي: يا عيسى، ألق عنك زينة الدنيا.

• أقول: وسيجيء توضيح معنى الروايتين في أواخر سورة النساء إن شاء الله تعالى.

٣٠. مثل عيسى عند الله كمثل آدم والنهي عن المراء:

المقطع [٣٠] من سورة آل عمران، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٩-٦٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٣/ ٢١٣»:

١. ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾:

أ. تلخيص لموضع الحاجة مما ذكره من قصة عيسى في تولده تفصيلا، والإيجاز بعد الإطناب،

وخاصة في مورد الاحتجاج والاستدلال، من مزايا الكلام، والآيات نازلة في الاحتجاج ومتعرضة لشأن وفد النصارى نصارى نجران فكان من الأنسب أن يوجز البيان في خلقته بعد الإطناب في قصته ليدل على أن كيفية ولادته لا تدل على أزيد من كونه بشرا مخلوقا نظير آدم عليه السلام فليس من الجائز أن يقال فيه أزيد وأعظم مما قيل في آدم، وهو أنه بشر خلقه الله من غير أب.

ب. معنى الآية: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ﴾ أي وصفه الحاصل عنده تعالى أي ما يعلمه الله تعالى من كيفية خلق عيسى الجاري بيده أن كيفية خلقه يضاهي كيفية خلق آدم، وكيفية خلقه أنه جمع أجزاءه من تراب ثم قال له كن فتكون تكونا بشريا من غير أب، فالبيان بحسب الحقيقة منحل إلى حجتين تفي كل واحدة منهما على وحدتها بنفي الألوهية عن المسيح عليه السلام:

• إحداهما: أن عيسى مخلوق لله، على ما يعلمه الله ولا يضل في علمه، خلقة بشر وإن فقد الأب ومن كان كذلك كان عبدا لا ربا.

• ثانيهما: أن خلقته لا تزيد على خلقة آدم فلو اقتضى سنخ خلقه أن يقال بألوهيته بوجه لاقتضى خلق آدم ذلك مع أنهم لا يقولون بها فيه فوجب أن لا يقولوا بها في عيسى عليه السلام أيضا لمكان المماثلة.

ج. يظهر من الآية أن خلقة عيسى كخلقة آدم خلقة طبيعية كونية، وإن كانت خارقة للسنة الجارية في النسل وهي حاجة الولد في تكونه إلى والد.

د. الظاهر أن قوله: ﴿فَيَكُونُ﴾، أريد به حكاية الحال الماضية، ولا ينافي ذلك دلالة قوله: ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ﴾ على انتفاء التدريج، فإن النسبة مختلفة فهذه الموجودات بأجمعها أعم من التدريجي الوجود وغيره مخلوقة لله سبحانه موجودة بأمره الذي هو كلمة كن كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾، وكثير منها تدريجية الوجود إذا قيست حالها إلى أسبابها التدريجية، وأما إذا لوحظ بالقياس إليه تعالى فلا تدريج هناك ولا مهلة كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾، وسيجيء زيادة توضيح لهذا المعنى إن شاء الله تعالى في محله المناسب له.

هـ. عمدة ما سيق لبيانه قوله: ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ﴾ إنه تعالى لا يحتاج في خلق شيء إلى الأسباب حتى يختلف حال ما يريد خلقه من الأشياء بالنسبة إليه تعالى بالإمكان والاستحالة، والهوان والعسر، والقرب والبعد، باختلاف أحوال الأسباب الدخيلة في وجوده فما أراده وقال له كن، كان من غير حاجة إلى

الأسباب الدخيلة عادة.

٢. ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾:

أ. تأكيد لمضمون الآية السابقة بعد تأكيده بأن ونحوه نظير تأكيد تفصيل القصة بقوله: ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ الآية، وفيه تطييب لنفس رسول الله ﷺ بأنه على الحق، وتشجيع له في المحاجة.

ب. ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ من أبدع البيانات القرآنية حيث قيد الحق بمن الدالة على الابتداء دون غيره بأن يقال: الحق مع ربك لما فيه من شائبة الشرك ونسبة العجز إليه تعالى بحسب الحقيقة، وذلك أن هذه الأقاويل الحقة والقضايا النفس الأمرية الثابتة كائنة ما كانت وإن كانت ضرورية غير ممكنة التغير عما هي عليه كقولنا: الأربعة زوج، والواحد نصف الاثنين، ونحو ذلك إلا أن الإنسان إنما يقتنصها من الخارج الواقع في الوجود والوجود كله منه تعالى، فالحق كله منه تعالى كما أن الخير كله منه، ولذلك كان تعالى لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، فإن فعل غيره إنما يصاحب الحق إذا كان حقا، وأما فعله تعالى فهو الوجود الذي ليس الحق إلا صورته العلمية.

٣. أحاديث وآثار: في الدر المنثور في قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٥٩] الآية، أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة قال: ذكر لنا أن سيدي أهل نجران وأسقفيهم السيد والعاقب لقيا نبي الله ﷺ، فسألاه عن عيسى، فقال: كل آدمي له أب، فما شأن عيسى لا أب له؟ فأنزل الله فيه هذه الآية: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ﴾ الآية.

• أقول: وروي ما يقرب منه عن السدي وعكرمة وغيرهما، وروى القمي في تفسيره أيضاً نزول الآية في المورد.

٣١. المباهلة مع من يجادل في عيسى بعد العلم:

المقطع [٣١] من سورة آل عمران، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ [آل عمران: ٦١-٦٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٣/ ٢٢٣»:

١. ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾:

أ. الفاء للتفريع، وهو تفريع المباهلة على التعليم الإلهي بالبيان البالغ في أمر عيسى بن مريم عليه السلام مع ما أكده في ختمه بقوله: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾، والضمير في قوله: ﴿فِيهِ﴾ راجع إلى عيسى أو إلى الحق المذكور في الآية السابقة.

ب. كان البيان السابق منه تعالى مع كونه بيانا إلهيا لا يرتاب فيه مشتملا على البرهان الساطع الذي يدل عليه قوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ الله كَمَثَلِ آدَمَ﴾ الآية، فالعلم الحاصل فيه علم من جهة البرهان أيضا، ولذلك كان يشمل أثره رسول الله ﷺ وغيره من كل سامع فلو فرض تردد من نفس السامع المحاج من جهة كون البيان وحيا إلهيا لم يجز الارتياب فيه من جهة كونه برهانا يناله العقل السليم، ولعله لذلك قيل: من بعد ما جاءك من العلم ولم يقل: من بعد ما بيناه لهم، وهاهنا نكتة أخرى وهي أن في تذكيره ﷺ بالعلم تطييبا لنفسه الشريفة أنه غالب بإذن الله، وأن ربه ناصره وغير خاذله البتة.

٢. ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ﴾:

أ. المتكلم مع الغير في قوله: ﴿نَدْعُ﴾، غيره في قوله: ﴿أَبْنَاءَنَا﴾ و{نساءَنا} و﴿أَنْفُسَنَا﴾ فإنه في الأول مجموع المتخاصمين من جانب الإسلام والنصرانية، وفي الثاني وما يلحق به من جانب الإسلام، ولذا كان الكلام في معنى قولنا: ندع الأبناء والنساء والأنفس فندعو نحن أبناءنا ونساءنا وأنفسنا وتدعون أنتم أبناءكم ونساءكم وأنفسكم، ففي الكلام إيجاز لطيف.

ب. المباهلة والملاعنة وإن كانت بحسب الظاهر كالمحاجة بين رسول الله وبين رجال النصارى لكن عممت الدعوة للأبناء والنساء ليكون أدل على اطمئنان الداعي بصدق دعواه وكونه على الحق لما أودعه الله سبحانه في قلب الإنسان من محبتهم والشفقة عليهم فتراه يقيهم بنفسه، ويركب الأهوال والمخاطرات دونهم، وفي سبيل حمايتهم والغيرة عليهم والذب عنهم، ولذلك بعينه قدم الأبناء على النساء لأن محبة الإنسان بالنسبة إليهم أشد وأدوم، ومن هنا يظهر فساد ما ذكره بعض المفسرين أن المراد بقوله: ﴿نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ﴾ الآية ندع نحن أبناءكم ونساءكم وأنفسكم، وتدعوا أنتم أبناءنا ونساءنا وأنفسنا، وذلك لإبطاله ما ذكرناه من وجه تشريك الأبناء والنساء في المباهلة.

ج. في تفصيل التعداد دلالة أخرى على اعتماد الداعي وركونه إلى الحق، كأنه يقول: ليباهل الجمع

الجمع فيجعل الجمعان لعنة الله على الكاذبين حتى يشمل اللعن والعذاب الأبناء والنساء والأنفس فينقطع بذلك دابر المعاندين، وينبت أصل المبطلين، وبذلك يظهر أن الكلام لا يتوقف في صدقه على كثرة الأبناء ولا على كثرة النساء ولا على كثرة الأنفس فإن المقصود الأخير أن يهلك أحد الطرفين بمن عنده من صغير وكبير، وذكور وإناث، وقد أطبق المفسرون واتفقت الرواية وأيده التاريخ: أن رسول الله ﷺ حضر للمباهلة ولم يحضر معه إلا علي وفاطمة والحسنان عليه السلام فلم يحضر لها إلا نفسان وابنان وامرأة واحدة وقد امتثل أمر الله سبحانه فيها.

د. على أن المراد من لفظ الآية أمر، والمصداق الذي ينطبق عليه الحكم بحسب الخارج أمر آخر، وقد كثر في القرآن الحكم أو الوعد والوعيد للجماعة، ومصداقه بحسب شأن النزول واحد كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾، وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التي وردت بلفظ الجمع ومصداقها بحسب شأن النزول مفرد.

٣. ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾:

أ. الابتهال، من البهلة بالفتح والضم وهي اللعنة، هذا أصله ثم كثر استعماله في الدعاء والمسألة إذا كان مع إصرار وإلحاح.

ب. ﴿فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللهِ﴾، كالبيان للابتهال، وقد قيل: فنجعل، ولم يقل، فنسأل إشارة إلى كونها دعوة غير مردودة حيث يمتاز بها الحق من الباطل على طريق التوقف والابتناء.

ج. ﴿الْكَاذِبِينَ﴾ مسوق سوق العهد دون الاستغراق أو الجنس إذ ليس المراد جعل اللعنة على كل كاذب أو على جنس الكاذب بل على الكاذبين الواقعين في أحد طرفي المحاجة الواقعة بينه ﷺ وبين النصارى حيث قال ﷺ: إن الله لا إله غيره وإن عيسى عبده ورسوله، وقالوا: إن عيسى هو الله أو إنه ابن الله أو إن الله ثالث ثلاثة.، وعلى هذا فمن الواضح أن لو كانت الدعوى والمباهلة عليها بين النبي ﷺ وبين النصارى أعني كون أحد الطرفين مفردا والطرف الآخر جمعا كان من الواجب التعبير عنه بلفظ يقبل الانطباق على المفرد والجمع معا كقولنا: فنجعل لعنة الله على من كان كاذبا فالكلام يدل على تحقق كاذبين بوصف الجمع

في أحد طرفي المحاجة والمباهلة على أي حال: إما في جانب النبي ﷺ وإما في جانب النصارى، وهذا يعطي أن يكون الحاضرون للمباهلة شركاء في الدعوى فإن الكذب لا يكون إلا في دعوى فلمن حضر مع رسول الله ﷺ، وهم علي وفاطمة والحسنان عليه السلام شركة في الدعوى والدعوة مع رسول الله ﷺ وهذا من أفضل المناقب التي خص الله به أهل بيت نبيه عليه السلام كما خصهم باسم الأنفس والنساء والأبناء لرسوله ﷺ من بين رجال الأمة ونسائهم وأبنائهم.

٤. سؤال وإشكال: قد مر أن القرآن يكثر إطلاق لفظ الجمع في مورد المفرد وأن إطلاق النساء في الآية مع كون من حضرت منهن للمباهلة منحصرة في فاطمة عليه السلام فما المانع من تصحيح استعمال لفظ الكاذبين بهذا النحو؟ والجواب: إن بين المقامين فارقا وهو أن إطلاق الآيات لفظ الجمع في مورد المفرد إنما هو لكون الحقيقة التي تبينها أمرا جائز التحقق من كثيرين يقضي ذلك بلحوقهم بمورد الآية في الحكم، وأما فيما لا يجوز ذلك لكون مورد الآية مما لا يتعداه الحكم، ولا يشمل غيره الوصف فلا ريب في عدم جوازه نظير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ﴾، وقوله تعالى: ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ إلى أن قال: ﴿وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وأمر المباهلة في الآية مما لا يتعدى مورده وهو مباهلة النبي مع النصارى فلو لم يتحقق في المورد مدعون بوصف الجمع في كلا الطرفين لم يستقم قوله: ﴿الْكَاذِبِينَ﴾ بصيغة الجمع البتة.

٥. سؤال وإشكال: كما أن النصارى الوافدين على رسول الله ﷺ أصحاب دعوى وهي أن المسيح هو الله أو ابن الله أو هو ثالث ثلاثة من غير فرق بينهم أصلا ولا بين نسائهم وبين رجالهم في ذلك كذلك الدعوى التي كانت في جانب رسول الله ﷺ وهي أن الله لا إله إلا هو وأن عيسى بن مريم عبده ورسوله كان القائمون بها جميع المؤمنين من غير اختصاص فيه بأحد من بينهم حتى بالنبي ﷺ فلا يكون لمن أحضره فضل على غيره غير أن النبي ﷺ أحضر من أحضر منهم على سبيل الأنموذج لما اشتملت عليه الآية من الأبناء والنساء والأنفس، على أن الدعوى غير الدعوة وقد ذكرت أنهم شركاء في الدعوة، والجواب: لو كان إتيانه بمن أتى به على سبيل الأنموذج لكان من اللازم أن يحضر على الأقل رجلين ونسوة وأبناء ثلاثة

فليس الإتيان بمن أتى به إلا للانحصار وهو المصحح لصدق الامتثال بمعنى أنه لم يجد من يمتثل في الإتيان به أمره تعالى إلا من أتى وهو رجل وامرأة وابنان.، ولو تأملت القصة وجدت أن وفد نجران من النصارى إنما وفدوا على المدينة ليعارضوا رسول الله ﷺ ويحاجوه في أمر عيسى بن مريم فإن دعوى أنه عبد الله ورسوله إنما كانت قائمة به مستندة إلى الوحي الذي كان يدعيه لنفسه، وأما الذين اتبعوه من المؤمنين فما كان للنصارى بهم شغل ولا لهم في لقائهم هوى كما يدل على ذلك قوله تعالى في صدر الآية: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ﴾، وكذا قوله تعالى، قبل عدة آيات، ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لله وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾، ومن هنا يظهر: أن إتيان رسول الله ﷺ بمن أتى به للمباهلة لم يكن إتيانا بنحو الأنموذج إذ لا نصيب للمؤمنين من حيث مجرد إيمانهم في هذه المحاجة والمباهلة حتى يعرضوا للعن والعذاب المتردد بينهم وبين خصمهم، وإنما أتى ﷺ بمن أتى به من جهة أنه ﷺ كان طرف المحاجة والمداعاة فكان من حقه أن يعرض نفسه للبلاء المترقب على تقدير الكذب فلولا أن الدعوى كانت قائمة بمن أتى به منهم كقيامها بنفسه الشريفة لم يكن لإتيانه بهم وجه فإتيانه بهم من جهة انحصار من هو قائم بدعواه من الأبناء والنساء والأنفس بهم لا من جهة الإتيان بالأنموذج فقد صح أن الدعوى كانت قائمة بهم كما كانت قائمة به، ثم إن النصارى إنما قصدوه ﷺ لا لمجرد أنه كان يرى أن عيسى بن مريم عليه السلام عبد الله ورسوله ويعتقد ذلك بل لأنه كان يدعيه ويدعوهم إليه فالدعوة هي السبب العمدة التي بعثهم على الوفود والمحاجة فحضوره وحضور من حضر معه للمباهلة لمكان الدعوى والدعوة معا فقد كانوا شركاءه في الدعوة الدينية كما شاركوه في الدعوى كما ذكرناه.

٦. سؤال وإشكال: هب أن إتيانه بهم لكونهم منه، وانحصار هذا الوصف بهم لكن الظاهر، كما تعطيه العادة الجارية، أن إحضار الإنسان أحباءه وأفلاذ كبده من النساء والصبيان في المخاطر والمهاول دليل على وثوقه بالسلامة والعافية والوقاية فلا يدل إتيانه ﷺ بهم على أزيد من ذلك وأما كونهم شركاء في الدعوة فهو بمعزل عن أن يدل عليه فعله، والجواب: نعم صدر الآية لا يدل على أزيد مما ذكر لكنك قد عرفت أن ذيلها أعني قوله ﴿عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾، يدل على تحقق كاذبين في أحد طرفي المحاجة والمباهلة البتة، ولا يتم ذلك إلا بأن يكون في كل واحد من الطرفين جماعة صاحبة دعوى إما صادقة أو كاذبة فالذين أتى بهم النبي ﷺ مشاركون معه في الدعوى وفي الدعوة كما تقدم فقد ثبت أن الحاضرين كانوا بأجمعهم صاحبي

دعوى ودعوة معه ﷺ، وشركاء في ذلك.

٧. سؤال وإشكال: لازم ما ذكرته كونهم شركاء في النبوة، والجواب: كلا فقد تبين فيما أسلفناه من مباحث النبوة أن الدعوة والتبليغ ليسا بعين النبوة والبعثة وإن كانا من شؤونها ولوازمها، ومن المناصب والمقامات الإلهية التي يتقلدها، وكذا تبين مما تقدم من مبحث الإمامة أيضا أنهما ليسا بعين الإمامة وإن كانا من لوازمها بوجه.

٨. {إِنَّ هذا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَما مِنْ إِلهٍ إِلَّا اللهُ}، هذا إشارة إلى ما تقدم من قصص عيسى عليه السلام، والكلام مشتمل على قصر القلب أي ما قصصناه هو الحق دون ما تدعيه النصارى من أمر عيسى، وفي الإتيان بأنّ واللام وضمير الفصل تأكيد بالغ لتطييب نفس رسول الله ﷺ وتشجيعه في أمر المباهلة بإيقاظ صفة يقينه وبصيرته ووثوقه بالوحي الذي أنزله الله سبحانه إليه، ويتعقبه التأكيد الثاني بإيراد الحقيقة بلازمها وهو قوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللهُ﴾ فإن هذه الجملة لازمة كون القصص المذكور حقا.

٩. {وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} معطوف على أول الآية، وهو بما فيه من التأكيد البالغ تطييب آخر وتشجيع لنفس النبي ﷺ إن الله لا يعجز عن نصرة الحق وتأييده، ولا أنه يغفل أو يلهو عن ذلك بإهمال أو جهل فإنه هو العزيز (فلا يعجز عما أراده) الحكيم (فلا يجهل ولا يهمل) لا ما عملته أوهام خصماء الحق من إله غير الله سبحانه، ومن هنا يظهر وجه الآيتان بالاسمين: ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، وأن الكلام مسوق لقصر القلب أو الإفراد.

١٠. ﴿فَإِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾، لما كان الغرض من المحاجة وكذا المباهلة بحسب الحقيقة هو إظهار الحق لم يكن يعقل التولي عن الطريق لمريد الغرض والمقصد فلو كانوا أرادوا بذلك إظهار الحق وهم يعلمون أن الله سبحانه ولي الحق لا يرضى بزهوقه ودحوضه لم يتولوا عنها فإن تولوا فإنما هو لكونهم لا يريدون بالمحاجة ظهور الحق بل الغلبة الظاهرية والاحتفاظ على ما في أيديهم من حاضر الوضع، والسنة التي استحكمت عليه عادتهم، فهم إنما يريدون ما تزينه لهم أهواؤهم وهوساتهم من شكل الحياة، لا الحياة الصالحة التي تنطبق على الحق والسعادة فهم لا يريدون إصلاحا بل إفساد الدنيا بإفساد الحياة السعيدة فإن تولوا فإنما هو لأنهم مفسدون، ومن هنا يظهر أن الجزاء وضع فيه السبب مكان المسبب أعني الإفساد مكان عدم إرادة ظهور الحق، وقد ضمن الجزاء وصف العلم حيث قيل فإن الله عليم ثم أكد بأنّ ليدل على أن

هذه الصفة متحققة في نفوسهم ناشبة في قلوبهم فيشعر بأنهم سيتولون عن المباهلة لا محالة، وقد فعلوا وصدقوا قول الله بفعلهم.

١١. وضع هنا مبحثا حول [تفسير آية المباهلة ودلالتها على فضل أهل البيت عليهم السلام]، خلاصته:

أ. بيان قصة وفد نجران ونزول آية المباهلة، وأن النبي ﷺ دعا إلى المباهلة فامتنع النصارى بعد أن رأوا من معه أهل بيته عليهم السلام.

ب. إثبات أن المراد بـ (أبنائنا) في الآية هو الحسن والحسين، و(نسائنا) فاطمة، و﴿أَنْفُسَنَا﴾ علي بن أبي طالب عليه السلام، وذلك بالأخبار المتواترة من طرق الفريقين.

ج. الرد على من زعم أن مصادر هذه الروايات هي الشيعة فقط، ببيان أن الروايات وردت في صحاح أهل السنة كمسلم والترمذي، وروي عن جماعة من الصحابة.

د. تفنيد الاعتراضات اللغوية الواردة على تخصيص الآية بأهل البيت، وبيان أن استعمال الجمع في موضع المفرد والمثنى جائز في البلاغة العربية بحسب المقام.

هـ. بيان فساد القول بأن الآية تدعو إلى اجتماع عام للمؤمنين جميعهم بنسائهم وأطفالهم، وأن ذلك مستحيل التحقق.

و. الرد على من زعم أن الآية تدل على مشاركة النساء في الحقوق العامة، وبيان أن المقصود هو إحضار أعز الأهل وأقربهم.

ز. إبطال الرواية الشاذة التي تزعم أن النبي ﷺ أحضر أبا بكر وعمر وعثمان مع أولادهم، وأنها تخالف جميع الروايات الصحيحة المتواترة.

٣٢. الدعوة إلى كلمة سواء بين أهل الكتاب والمؤمنين:

المقطع [٣٢] من سورة آل عمران، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَّ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهَّ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٣/ ٢٤٦»:

١. ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾:

أ. الخطاب لعامة أهل الكتاب، والدعوة في قوله: ﴿تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ﴾ الآية بالحقيقة إنما هي إلى الاجتماع على معنى الكلمة بالعمل به، وإنما تنسب إلى الكلمة لتدل على كونها دائرة بألسنتهم كقولنا اتفقت كلمة القوم على كذا فيفيد معنى الإذعان والاعتراف والنشر والإشاعة، فالمعنى: تعالوا نأخذ بهذه الكلمة متعاونين متعاضدين في نشرها والعمل بما توجبه.

ب. السواء في الأصل مصدر، ويستعمل وصفا بمعنى مساوي الطرفين، وسواء بيننا وبينكم أي مساو من حيث الأخذ والعمل بما توجبه، وعلى هذا فتوصيف الكلمة بالسواء توصيف بحال المتعلق وهو الأخذ والعمل، وقد عرفت أن العمل إنما يتعلق بمعنى الكلمة لا نفسها كما أن تعليق الاجتماع أيضا على المعنى لا يخلو من عناية مجازية ففي الكلام وجوه من لطائف العنايات: نسبة الاجتماع إلى المعنى ثم وضع الكلمة مكان المعنى ثم توصيف الكلمة بالسواء!

ج. ربما قيل: إن معنى كون الكلمة سواء أن القرآن والتوراة والإنجيل متفقة في الدعوة إليها، وهي كلمة التوحيد، ولو كان المراد به ذلك كان قوله تعالى: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ﴾ الآية من قبيل وضع التفسير الحق موضع الكلمة المتفق عليها، والإعراض عما لعبت به أيديهم من تفسيره غير المرضي الذي تنطبق الكلمة بذلك على أهوائهم من الحلول واتخاذ الابن والتثليث وعبادة الأحبار والقسيسين والأساقفة ويكون محصل المعنى: ﴿تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ وهي التوحيد، ولازم التوحيد رفض الشركاء وعدم اتخاذ الأرباب من دون الله سبحانه.

د. الذي تختتم به الآية من قوله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ يؤيد المعنى الأول فإن محصل المعنى بالنظر إليه أنه يدعو إلى هذه الكلمة وهي أن لا نعبد إلا الله،لأنها مقتضى الإسلام لله الذي هو الدين عند الله، وإن كان الإسلام أيضا لازما من لوازم التوحيد لكن الدعوة في الآية إنما هي إلى التوحيد العملي وهو ترك عبادة غير الله سبحانه دون اعتقاد الوحدة، فافهم ذلك.

٢. ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ﴾:

أ. تفسير للكلمة السواء، وهي التي يوجبها الإسلام لله، والمراد بقوله: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ﴾، نفي عبادة غير الله لا إثبات عبادة الله تعالى على ما مرت الإشارة إليه في معنى كلمة الإخلاص (لا إله إلا الله): أن لازم كون إلا الله، بدلا لا استثناء كون الكلام مسوقا لبيان نفي الشريك دون إثبات الإله، فإن القرآن

يأخذ إثبات وجود الإله وحقيته مفروغا عنه.

ب. لما كان الكلام مسوقا لنفي الشريك في العبادة ولا ينحسم به مادة الشرك اللازم من اعتقاد البنوة والتثليث ونحو ذلك أردفه بقوله: ﴿وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ﴾ الآية فإن تسمية العبادة بعبادة الله لا تصير العبادة عبادة لله سبحانه ما لم يخلص الاعتقاد ولم يتجرد الضمير من الاعتقادات والآراء المولودة من أصل الشرك لأن العبادة حينئذ إنما تكون عبادة إله له شريك والعبادة التي يعبد بها أحد الشريكين وإن خص باسمه ووجه نحوه ليست إلا نابتة منبت التشريك لأنها لا تعدو أن تكون سهما يسهم له وحظا يقسم له من بين الشريكين أو الشركاء ففيها بعينها نحو عبادة للغير، وهذا الذي يدعو إليه النبي بأمر الله سبحانه، وهو الذي يدل عليه قوله: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ﴾، هو الذي يجمع غرض النبوة في السيرة التي كانت الأنبياء تدعو إليها وتبسطها على المجتمع الإنساني.

ج. تقدم عند الكلام على قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أن النبوة انبعاث إلهي ونهضة حقيقية يراد بها بسط كلمة الدين وأن حقيقة الدين تعديل المجتمع الإنساني في سيره الحيوي، ويتبعه تعديل حياة الإنسان الفرد فينزل بذلك الكل منزلته التي نزله عليها الفطرة والخلقة فيعطي به المجتمع موهبة الحرية وسعادة التكامل الفطري على وجه العدل والقسط، وكذلك الفرد فهو فيه حر مطلق في الانتفاع من جهات الحياة فيما يهديه إليه فكره وإرادته إلا ما يضر بحياة المجتمع وقد قيد جميع ذلك بالعبودية والإسلام لله سبحانه، والخضوع لسيطرة الغيب وسلطنته.

د. خلاصة ذلك أن الذي كانت تندب إليه جماعة الأنبياء عليه السلام أن يسير النوع الإنساني فرادى ومجتمعين على ما تنطق به فطرتهم من كلمة التوحيد التي تقضي بوجوب تطبيق الأعمال الفردية والاجتماعية على الإسلام لله، وبسط القسط والعدل، أعني بسط التساوي في حقوق الحياة، والحرية في الإرادة الصالحة والعمل الصالح، ولا يتأتى ذلك إلا بقطع منابت الاختلاف والبغي بغير الحق واستخدام القوي واستعباده للضعيف وتحكمه عليه، وتعبد الضعيف للقوي فلا إله إلا الله، ولا رب إلا الله، ولا حكم إلا لله سبحانه، وهذا هو الذي تدل عليه الآية: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ﴾ الآية، وقال تعالى فيما يحكيه عن يوسف عليه السلام: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ

أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا للهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾، وقال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، إلى غير ذلك من الآيات.

هـ. فيما حكاه القرآن عن الأنبياء السالفين كنوح وهود وصالح وإبراهيم وشعيب وموسى وعيسى عليه السلام مما كلموا به أممهم شيء كثير من هذا القبيل كقول نوح: ﴿رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾، وقول هود لقومه: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾، وقول صالح لقومه: ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾، وقول إبراهيم لأبيه وقومه: ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾، وقوله تعالى لموسى وأخيه: ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾، إلى أن قال ـ: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾، وقول عيسى لقومه: ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ﴾، فالدين الفطري هو الذي ينفي البغي والفساد، وهذه المظالم والسلطات بغير الحق الهادمة لأساس السعادة والمخربة لبنيان الحق والحقيقة، وإلى ذلك يشير قول النبي ﷺ في حجة الوداع: (وقد ذكره المسعودي في حوادث سنة عشر من الهجرة في مروج الذهب)، (ألا وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض) وكأنه ﷺ يريد به رجوع الناس إلى حكم الفطرة باستقرار سيرة الإسلام بينهم.

و. الكلام أعني قوله تعالى: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ﴾ الآية، على كونه آخذا بمجامع غرض النبوة مفصح عن سبب الحكم وملاكه، أما قوله: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾، فلأن الألوهية هي التي يأله إليه ويتوله فيه كل شيء من كل وجه، وهو أن يكون منشأ لكل كمال في الأشياء على كثرتها وارتباطها واتحادها في الحاجة، وفيه كل كمال يفتاق إليه الأشياء، وهذا المعنى لا يستقيم إلا إذا كان واحدا غير كثير، ومالكا إليه تدبير كل شيء، فمن الواجب أن يعبد الله لأنه إله واحد لا شريك له، ومن الواجب أن لا يتخذ له شريك في عبادته، وبعبارة أخرى، هذا العالم وجميع ما يحتوي عليه لا يصح ولا يجوز أن يخضع ويتصغر إلا لمقام واحد إذ هؤلاء المربوبون لوحدة نظامهم وارتباط وجودهم لا رب لهم إلا واحد إذ لا خالق لهم إلا

واحد.

ز. أما قوله تعالى: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ﴾ فمن حيث أفاد أن المجتمع الإنساني على كثرة أفراده وتفرق أشخاصه أبعاض من حقيقة واحدة هي حقيقة الإنسان ونوعه فما أودعته فيه يد الصنع والإيجاد من الاستحقاق والاستعداد الموزع بينهم على حد سواء يقضي بتساويهم في حقوق الحياة واستوائهم على مستوى واحد، وما تفاوت فيه أحوال الأفراد واستعدادهم في اقتناء مزايا الحياة من مواهب الإنسانية العامة التي ظهرت في مظاهر خاصة من هاهنا وهناك وهنالك يجب أن تعطاه الإنسانية لكن من حيث تسأله، كما أن الازدواج والولادة والمعالجة مثلا من مسائل الإنسانية العامة لكن الذي يعطى الازدواج هو الإنسان البالغ الذكر أو الأنثى، والولادة يعطاها الإنسان الأنثى والعلاج يعطاه الإنسان المريض.

ح. بالجملة أفراد الإنسان المجتمع أبعاض متشابهة من حقيقة واحدة متشابهة فلا ينبغي أن يحمل البعض إرادته وهواه على البعض إلا أن يتحمل ما يعادله، وهو التعاون على اقتناء مزايا الحياة، وأما خضوع المجتمع أو الفرد لفرد أعني الكل أو البعض لبعض بما يخرجه عن البعضية، ويرفعه عن التساوي بالاستعلاء والتسيطر والتحكم بأن يؤخذ ربا متبع المشية، يحكم مطلق العنان، ويطاع فيما يأمر وينهى ففيه إبطال الفطرة وهدم بنيان الإنسانية، وأيضا من حيث إن الربوبية مما يختص بالله لا رب سواه فتمكين الإنسان مثله من نفسه يتصرف فيه بما يريد من غير انعكاس، اتخاذ رب من دون الله لا يقدم عليه من يسلم لله الأمر.

٣. تبين أن قوله: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ﴾ يفصح عن حجتين فيما يفيده من المعنى: إحداهما كون الأفراد أبعاضا، والآخر كون الربوبية من خصائص الألوهية.

٤. ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ استشهاد، بأنهم (وهم النبي ﷺ ومن اتبعه) على الدين المرضي عند الله تعالى وهو الإسلام، قال: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ﴾، فينقطع بذلك خصامهم وحجاجهم إذ لا حجة على الحق وأهله.، وفيه إشارة إلى أن التوحيد في العبادة من لوازم الإسلام.

٥. أحاديث وآثار:

أ. في الدر المنثور في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ﴾ [آل عمران: ٦٤]

الآية، أخرج - يعني ابن جرير - عن السدي قال: ثم دعاهم رسول الله ﷺ - يعني الوفد من نصارى نجران - فقال: يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء الآية.

• أقول: وروى فيه هذا المعنى أيضاً عن ابن جرير عن محمد بن جعفر بن الزبير، وظاهر الرواية أن الآية نزلت فيهم، وقد قدمنا الرواية في أول السورة الدالة على أن صدر السورة إلى نيف وثمانين آية نزلت في نصارى نجران، وهذه الآية منها لوقوعها قبل تمام العدد.

ب. وورد في بعض الروايات أن رسول الله ﷺ دعا يهود المدينة إلى الكلمة السواء حتى قبلوا الجزية، وذلك لا ينافي نزول الآية في وفد نجران.

ج. وفي صحيح البخاري بإسناده عن ابن عباس عن أبي سفيان في حديث طويل يذكر فيه كتاب رسول الله ﷺ إلى هرقل عظيم الروم، قال أبو سفيان: ثم دعا يعني هرقل بكتاب رسول الله ﷺ فقرأه، فإذا فيه: (بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين، ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله) إلى قوله: ﴿اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤] الحديث.

• أقول: ورواه أيضاً مسلم في صحيحه، ورواه السيوطي في الدر المنثور عن النسائي وعبد الرزاق وابن أبي حاتم عن ابن عباس.

• وقد قيل إن كتاب رسول الله ﷺ إلى مقوقس عظيم القبط أيضاً كان مشتملاً على قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ﴾، وهناك نسخة منسوبة إليه ﷺ مخطوطة بالخط الكوفي تضاهي كتابه ﷺ إلى هرقل، وقد استنسخ منها أخيراً بالتصوير الشمسي ما يوجد عند كثيرين.

• وكيف كان، فقد ذكر المؤرخون أن رسول الله ﷺ إنما كتب الكتب وأرسل الرسل إلى الملوك من قيصر وكسرى والنجاشي سنة ست من الهجرة، ولازمه نزول الآية في سنة ست أو قبلها، وقد ذكر المؤرخون كالطبري وابن الأثير والمقريزي أن نصارى نجران إنما وفدوا على رسول الله ﷺ سنة عشر من الهجرة، وذكر آخرون كأبي الفداء في البداية والنهاية ونظيره في السيرة الحلبية أن ذلك كان في سنة تسع من الهجرة، ولازم ذلك نزول هذه الآية في سنة تسع أو عشر.

• وربما قيل: إن الآية مما نزلت أول الهجرة، على ما تشعر به الروايات الآتية، وربما قيل: إن الآية نزلت مرتين، نقله الحافظ ابن حجر.

• والذي يؤيده اتصال آيات السورة سياقاً كما مرت الإشارة إليه في أول السورة: أن الآية نزلت قبل سنة تسع، وأن قصة الوفد إنما وقعت في سنة ست من الهجرة أو قبلها، ومن البعيد أن يكاتب ﷺ عظماء الروم والقبط وفارس ويغمض عن نجران مع قرب الدار.

• وفي الرواية نكتة أخرى، وهي تصدير الكتاب بـ (بسم الله الرحمن الرحيم)، ومنه يظهر ما في بعض ما نقلناه من الروايات في قصة وفد نجران، كما عن البيهقي في الدلائل: أن رسول الله ﷺ كتب إلى أهل نجران قبل أن ينزل عليه (طس سليمان): (بسم الله إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، من محمد رسول الله إلى أسقف نجران، إن أسلمتم فإني أحمد إليكم الله إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، أما بعد فإني أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد، وإلى ولاية الله من ولاية العباد، فإن أبيتم فالجزية، وإن أبيتم فقد آذنتكم بالحرب والسلام) الحديث.

• وذلك أن سورة النمل من السور المكية، ومضامين آياتها كالنص في أنها نزلت قبل هجرة النبي ﷺ، وكيف يجتمع ذلك مع قصة نجران؟ على أن الكتاب يشتمل على أمور أخر لا يمكن توجيهها، كحديث الجزية والإيذان بالحرب وغير ذلك، والله أعلم.

د. وأخرج الطبراني عن ابن عباس: أن كتاب رسول الله إلى الكفار: ﴿تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ﴾ الآية.

٣٣. محاجة أهل الكتاب في إبراهيم وملته الحنيفية:

المقطع [٣٣] من سورة آل عمران، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٥-٦٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٣/ ٢٥٢»:

١. ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾:

أ. الظاهر أنه مقول القول الواقع في الآية السابقة، وكذا ما يأتي بعد أربع آيات فيكون مقولا لرسول الله ﷺ وإن كان ظاهر سياق قوله: بعد آيتين: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية، أن يكون الخطاب من الله لا من رسوله بإذنه.

ب. محاجتهم في إبراهيم عليه السلام بضم كل طائفة إياه إلى نفسها يشبه أن تكون أولا بالمحاجة لإظهار المحقية كأن تقول اليهود: إن إبراهيم عليه السلام الذي أثنى الله عليه في كتابه منا فتقول النصارى: إن إبراهيم كان على الحق، وقد ظهر الحق بظهور عيسى معه، ثم تتبدل إلى اللجاج والعصبية فتدعي اليهود أنه كان يهوديا، وتدعي النصارى أنه كان نصرانيا، ومن المعلوم أن اليهودية والنصرانية إنما نشأتا جميعا بعد نزول التوراة والإنجيل وقد نزلا جميعا بعد إبراهيم عليه السلام فكيف يمكن أن يكون عليه السلام يهوديا بمعنى المنتحل بالدين الذي يختص بموسى عليه السلام، ولا نصرانيا بمعنى المتعبد بشريعة عيسى عليه السلام، فلو قيل في إبراهيم شيء لوجب أن يقال إنه كان على الحق حنيفا من الباطل إلى الحق مسلما لله سبحانه وهذه الآيات في مساق قوله تعالى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللهِ﴾

٢. ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾:

أ. الآية تثبت لهم علما في المحاجة التي وقعت بينهم وتنفي علما وتثبته لله تعالى، ولذلك ذكر المفسرون أن المعنى: أنكم حاججتم:

• في إبراهيم عليه السلام ولكم به علم ما، كالعلم بوجوده ونبوته، فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم وهو كونه يهوديا أو نصرانيا والله يعلم وأنتم لا تعلمون.

• أو أن المراد بالعلم علم ما بعيسى وخبره، والمعنى أنكم تحاجون في عيسى ولكم بخبره علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم وهو كون إبراهيم يهوديا أو نصرانيا، هذا ما ذكروه.

ب. وأنت تعلم أن شيئا من الوجهين لا ينطبق على ظاهر سياق الآية:

• أما الأول فلأنه لم تقع لهم محاجة في وجود إبراهيم ونبوته.

• وأما الثاني فلأن المحاجة التي وقعت منهم في عيسى لم يكونوا فيها على الصواب بل كانوا مخطئين في خبره كاذبين في دعواهم فيه فكيف يمكن أن يسمى محاجة فيما لهم به علم.

ج. كلامه تعالى على أي حال يثبت منهم محاجة فيما لهم به علم كما يثبت لهم محاجة فيما ليس لهم به علم، فما هذه المحاجة التي هي فيما لهم به علم؟ على أن ظاهر الآية أن هاتين إنما جرتا جميعا فيما بين أهل الكتاب أنفسهم لا بينهم وبين المسلمين وإلا كان المسلمون على الباطل في الحجاج الذي أهل الكتاب فيه على علم، وهو ظاهر.

د. الذي ينبغي أن يقال، والله العالم، أن من المعلوم أن المحاجة كانت جارية بين اليهود والنصارى في جميع موارد الاختلاف التي كانت بينهم، وعمدة ذلك نبوة عيسى عليه السلام وما كانت تقوله النصارى في حقه (أنه الله، أو ابنه أو التثليث) فكانت النصارى تحاج اليهود في بعثته ونبوته وهم على علم منه، وكانت اليهود تحاج النصارى، وتبطل ألوهيته ونبوته والتثليث وهم على علم منه فهذه محاجتهم فيما لهم به علم، وأما محاجتهم فيما ليس لهم به علم فمحاجتهم في أمر إبراهيم أنه كان يهوديا أو نصرانيا.

هـ. ليس المراد بجهلهم به جهلهم بنزول التوراة والإنجيل بعده وهو ظاهر، ولا ذهولهم عن أن السابق لا يكون تابعا للاحق فإنه خلاف ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فإنه يدل على أن الأمر يكفي فيه أدنى تنبيه، فهم عالمون بأنه كان سابقا على التوراة والإنجيل لكنهم ذاهلون على مقتضى علمهم وهو أنه لا يكون حينئذ يهوديا ولا نصرانيا بل على دين الله الذي هو الإسلام لله، لكن اليهود مع ذلك قالوا: إن الدين الحق لا يكون إلا واحدا وهو اليهودية فلا محالة كان إبراهيم يهوديا، وقالت النصارى مثل ذلك فنصرت إبراهيم، وقد جهلوا في ذلك أمرا وليس بذهول، وهو أن دين الله واحد، وهو الإسلام لله، وهو واحد مستكمل بحسب مرور الزمان واستعداد الناس من حيث تدرجهم بالكمال، واليهودية والنصرانية شعبتان من شعب كمال الإسلام الذي هو أصل الدين، والأنبياء عليه السلام بمنزلة بناة هذا البنيان، لكل منهم موقعه فيما وضعه من الأساس ومما بنى عليه من هذا البنيان الرفيع.

و. بالجملة فاليهود والنصارى جهلوا أنه لا يلزم من كون إبراهيم مؤسسا للإسلام وهو الدين الأصيل الحق ثم ظهور دين حق باسم اليهودية أو النصرانية، وهو اسم شعبة من شعب كماله ومراتب تمامه أن يكون إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا بل يكون مسلما حنيفا متلبسا باسم الإسلام الذي أسسه وهو أصل اليهودية والنصرانية دون نفسهما، والأصل لا ينسب إلى فرعه بل ينبغي أن يعطف الفرع عليه.

ز. تسمية إبراهيم مسلما لا يهوديا ولا نصرانيا غير عده تابعا لدين النبي وشريعة القرآن ليرد

الإشكال بأنه كما كان متقدما على نزول التوراة والإنجيل فلا ينبغي أن يعد يهوديا أو نصرانيا كذلك كان متقدما على نزول القرآن وظهور الإسلام فلا ينبغي أن يعد مسلما (حذو النعل بالنعل)، وذلك أن الإسلام بمعنى شريعة القرآن من الاصطلاحات الحادثة بعد نزول القرآن وانتشار صيت الدين المحمدي، والإسلام الذي وصف به إبراهيم هو أصل التسليم لله سبحانه والخضوع لمقام ربوبيته فالإشكال غير متوجه من أصله.

ح. لعل هذا الذي ذكرناه من وجه جهلهم بمعنى الدين الأصيل، وكونه حقيقة ذات مراتب مختلفة ومتدرجة في الاستكمال هو المراد بقوله تعالى: ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا﴾ الآية ويؤيده قوله: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ الآية، وقوله تعالى في ذيل الآيات: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ الآية، على ما سيجيء من البيان.

٣. ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾ إلى آخر الآية:

أ. قد مر تفسيره فيما مر، وقد قيل: إن اليهود والنصارى كما كانوا يدعون أن إبراهيم عليه السلام منهم وعلى دينهم كذلك عرب الجاهلية من الوثنية كانت تدعي أنهم على الدين الحنيف دين إبراهيم عليه السلام حتى كان أهل الكتاب يسمونهم الحنفاء، ويدعون بالحنيفية الوثنية.

ب. لما وصف الله سبحانه إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا﴾، وجب بيانه حتى لا يتوهم منه الوثنية فلذلك أردفه بقوله: ﴿مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، أي كان على الدين المرضي عند الله تعالى وهو الإسلام وما كان من المشركين كعرب الجاهلية.

٤. ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾:

أ. الآية في موضع التعليل للكلام السابق وبيان للحق في المقام والمعنى، والله العالم، أن هذا النبي المعظم إبراهيم لو أخذت النسبة بينه وبين من بعده من المنتحلين وغيرهم لكان الحق أن لا يعد تابعا لمن بعده بل يعتبر الأولوية به والأقربية منه، والأقرب من النبي الذي له شرع وكتاب هم الذين يشاركونه في اتباع الحق، والتلبس بالدين الذي جاء به، والأولى بهذا المعنى بإبراهيم عليه السلام هذا النبي والذين آمنوا

لأنهم على الإسلام الذي اصطفى الله به إبراهيم وكذا كل من اتبعه دون من يكفر بآيات الله ويلبس الحق بالباطل.

ب. في قوله تعالى: ﴿لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ تعريض لأهل الكتاب من اليهود والنصارى بنحو الكناية أي لستم أولى بإبراهيم لعدم اتباعكم إياه في إسلامه لله.

ج. وفي قوله: ﴿وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ إفراد للنبي ﷺ ومن اتبعه من المؤمنين من الذين اتبعوا إبراهيم إجلالا للنبي وصونا لمقامه أن يطلق عليه الاتباع كما يستشعر ذلك، مثل قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ حيث لم يقل: فبهم اقتده.

د. وقد تمم التعليل والبيان بقوله: ﴿وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾، فإن ولاية إبراهيم (ولي الله) من ولاية الله، والله ولي المؤمنين دون غيرهم الكافرين بآياته اللابسين الحق بالباطل.

٥. أحاديث وآثار:

أ. أخرج ابن إسحاق وابن جرير والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال: اجتمعت نصارى نجران وأحبار يهود عند رسول الله ﷺ، فتنازعوا عنده، فقالت الأحبار: ما كان إبراهيم إلا يهودياً، وقالت النصارى: ما كان إبراهيم إلا نصرانياً، فأنزل الله فيهم: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ﴾ [آل عمران: ٦٥] إلى قوله: ﴿وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨]، فقال أبو رافع القرظي: أتريد منا يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى بن مريم؟ فقال رجل من أهل نجران: أذلك تريد يا محمد؟ فقال رسول الله ﷺ: معاذ الله أن أعبد غير الله، أو آمر بعبادة غيره، ما بذلك بعثني ولا أمرني، فأنزل الله في ذلك من قولهما: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللهِ﴾ [آل عمران: ٧٩] إلى قوله: ﴿بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٨٠]، ثم ذكر ما أخذ عليهم وعلى آبائهم من الميثاق بتصديقه إذا هو جاءهم، وإقرارهم به على أنفسهم، فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾ [آل عمران: ٨١] إلى قوله: ﴿مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١]

• أقول: الآيات أعني قوله: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ إلى آخر الآيات، أوفق سياقاً وأسهل انطباقاً على عيسى بن مريم عليه السلام منه على رسول الله ﷺ، على ما سيجيء في الكلام على الآيات، فلعل ما في الرواية من نزول الآيات في حق رسول الله ﷺ استنباط وتطبيق من ابن

عباس، على أن المعهود من دأب القرآن التعرض لهذا النوع من القول في صورة السؤال والجواب أو الحكاية والرد.

ب. وفي تفسير الخازن روى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، ورواه محمد بن إسحاق عن ابن شهاب بإسناده حديث هجرة الحبشة، قال: لما هاجر جعفر بن أبي طالب وأناس من أصحاب النبي ﷺ إلى أرض الحبشة واستقرت بهم الدار، وهاجر النبي ﷺ إلى المدينة، وكان من أمر بدر ما كان، اجتمعت قريش في دار الندوة، وقالوا: إن لنا في الذين عند النجاشي من أصحاب محمد ثأراً ممن قتل منكم ببدر، فأجمعوا مالاً وأهدوه إلى النجاشي لعله يدفع إليكم من عنده من قومكم، ولينتدب إليه رجلان من ذوي رأيكم، فبعثوا عمرو بن العاص وعمارة بن أبي معيط، معهم الهدايا: الإدم وغيره، فركبا البحر حتى أتيا الحبشة، فلما دخلا على النجاشي سجدا له وسلما عليه، وقالا له: إن قومنا لك ناصحون شاكرون، ولأصحابك محبون، وأنهم بعثونا إليك لنحذر هؤلاء الذين قدموا عليك، لأنهم قوم رجل كذاب، خرج يزعم أنه رسول الله، ولم يتابعه أحد منا إلا السفهاء، وإنا كنا قد ضيقنا عليهم الأمر، وألجأناهم إلى شعب بأرضنا لا يدخل عليهم أحد، فقتلهم الجوع والعطش، فلما اشتد عليه الأمر، بعث إليك ابن عمه ليفسد عليك دينك وملكك ورعيتك، فاحذرهم وادفعهم إلينا لنكفيكهم، قال: وآية ذلك أنهم إذا دخلوا عليك لا يسجدون لك، ولا يحيونك بالتحية التي يحييك بها الناس، رغبة عن دينك وسنتك، قال: فدعاهم النجاشي، فلما حضروا صاح جعفر بالباب: يستأذن عليك حزب الله تعالى، فقال النجاشي: مروا هذا الصائح فليعد كلامه، ففعل جعفر، فقال النجاشي: نعم، فليدخلوا بأمان الله وذمته، فنظر عمرو إلى صاحبه فقال: ألا تسمع كيف يرطنون بحزب الله، وما أجابهم به الملك؟ فأساءهما ذلك، ثم دخلوا عليه فلم يسجدوا له، فقال عمرو بن العاص: ألا ترى أنهم يستكبرون أن يسجدوا لك؟ فقال لهم النجاشي: ما منعكم أن تسجدوا لي وتحيوني بالتحية التي يحييني بها من أتاني من الآفاق؟ قالوا: نسجد لله الذي خلقك وملكك، وإنما كانت تلك التحية لنا ونحن نعبد الأوثان، فبعث الله فينا نبياً صادقاً، فأمرنا بالتحية التي رضيها الله، وهي السلام، تحية أهل الجنة، فعرف النجاشي أن ذلك حق، وأنه في التوراة والإنجيل، قال: أيكم الهاتف: يستأذن عليك حزب الله؟ قال جعفر: أنا، قال: أنك ملك من ملوك الأرض من أهل الكتاب، ولا يصلح عندك كثرة الكلام ولا الظلم، وإنما أحب أن أجيب عن أصحابي، فمر هذين الرجلين

فليتكلم أحدهما ولينصت الآخر، فتسمع محاورتنا، فقال عمرو لجعفر: تكلم، فقال جعفر للنجاشي: سل هذين الرجلين، أعبيد نحن أم أحرار؟ فإن كنا عبيداً قد أبقنا من أربابنا، فردنا عليهم، فقال النجاشي: أعبيد هم أم أحرار؟ فقال: بل أحرار كرام، فقال النجاشي: نجوا من العبودية، فقال جعفر: سلهما: هل أرقنا دماً بغير حق فيقتص منا؟ فقال عمرو: لا ولا قطرة، قال جعفر: سلهما: هل أخذنا أموال الناس بغير حق فعلينا قضائها؟ قال النجاشي: إن كان قنطاراً فعلي قضائه، فقال عمرو: لا ولا قيراط، فقال النجاشي: فما تطلبون منهم؟ قال: كنا وإياهم على دين واحد، على دين آبائنا، فتركوا ذلك واتبعوا غيره، فبعثنا قومنا لتدفعهم إلينا، فقال النجاشي: ما هذا الذي كنتم عليه، والدين الذي اتبعوه؟ فقال جعفر: أما الدين الذي كنا عليه فهو دين الشيطان، كنا نكفر بالله ونعبد الحجارة، وأما الذي تحولنا إليه فهو دين الله الإسلام، جاءنا به من عند الله رسول بكتاب مثل كتاب ابن مريم، موافقاً له، فقال النجاشي: يا جعفر، تكلمت بأمر عظيم، ثم أمر النجاشي بضرب الناقوس فضرب، واجتمع إليه كل قسيس وراهب، فلما اجتمعوا عنده، قال النجاشي: أنشدكم بالله الذي أنزل الإنجيل على عيسى، هل تجدون بين عيسى وبين يوم القيامة نبياً مرسلاً؟ قالوا: اللهم نعم، قد بشرنا، فقال: من آمن به فقد آمن بي، ومن كفر به فقد كفر بي، فقال النجاشي لجعفر: ماذا يقول لكم هذا الرجل؟ وما يأمركم به؟ وما ينهاكم عنه؟ فقال: يقرأ علينا كتاب الله، ويأمرنا بالمعروف وينهانا عن المنكر، ويأمرنا بحسن الجوار وصلة الرحم وبر اليتيم، يأمرنا أن نعبد الله وحده لا شريك له، فقال له: اقرأ علي مما يقرأ عليكم، فقرأ عليه سورة العنكبوت والروم، ففاضت عينا النجاشي وأصحابه من الدمع، وقالوا: زدنا من هذا الحديث الطيب، فقرأ عليهم سورة الكهف، فأراد عمرو أن يغضب النجاشي، فقال: إنهم يشتمون عيسى وأمه، فقال النجاشي: فما تقولون في عيسى وأمه؟ فقرأ عليهم سورة مريم، فلما أتى على ذكر مريم وعيسى، رفع النجاشي من سواكه قدر ما يقذي العين، وقال: والله ما زاد المسيح على ما تقولون هذا، ثم أقبل على جعفر وأصحابه فقال: اذهبوا فأنتم سيوم بأرضي، يقول: آمنون، من سبكم وأذاكم غرم، ثم قال: ابشروا ولا تخافوا، فلا دهورة اليوم على حزب إبراهيم، فقال عمرو: يا نجاشي، ومن حزب إبراهيم؟ قال: هؤلاء الرهط وصاحبهم الذي جاءوا من عنده، ومن اتبعهم، فأنكر ذلك المشركون، وادعوا دين إبراهيم، ثم رد النجاشي على عمرو وصاحبه المال الذي حملوه، وقال: إنما هديتكم إلى رشوة، فاقبضوها، فإن الله ملكني ولم يأخذ مني رشوة، قال جعفر: فانصرفنا فكنا في خير

جوار، وأنزل الله عز وجل في ذلك على رسول الله ﷺ في خصومتهم في إبراهيم وهو في المدينة: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَـٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨]

• أقول: وهذه القصة مروية من طرق أخرى، ومن طرق أهل البيت عليهم السلام، وإنما نقلناها على طولها لاشتمالها على فوائد هامة في بلاء المسلمين من المهاجرين الأولين، وليست من سبب النزول في شيء.

ج. وفي تفسير العياشي عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾ [آل عمران: ٦٧]، قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: لا يهودياً يصلي إلى المغرب، ولا نصرانياً يصلي إلى المشرق، لكن كان حنيفاً مسلماً على دين محمد ﷺ.

• أقول: قد تقدم في البيان السابق معنى كونه على دين محمد صلى الله عليهما وآلهما،وقد اعتبر في الرواية استقبال الكعبة، وقد حولت القبلة إليها في المدينة، والكعبة في نقطة جنوبها تقريباً، وتأبى اليهود والنصارى عن قبولها، أوجب لهم الانحراف عنها إلى جهتي المغرب التي بها بيت المقدس، والمشرق التي يستقبلها النصارى، فعد ذلك من الطائفتين انحرافاً عن حاق الوسط، وقد أيد هذه العناية لفظ الآية: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣] الآية، وبالجملة، فإنما هي عناية لطيفة لا تزيد على ذلك.

د. وفي الكافي عن الصادق عليه السلام: (خالصاً مخلصاً) ليس فيه شيء عن عبادة الأوثان.

هـ. وفي المجمع في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ﴾ [آل عمران: ٦٨] الآية، قال أمير المؤمنين عليه السلام: إن أولى الناس بالأنبياء أعملهم بما جاءوا به، ثم تلا هذه الآية، وقال: إن ولي محمد من أطاع الله، وإن بعدت لحمته، وإن عدو محمد من عصى الله، وإن قربت لحمته.

و. وفي الكافي وتفسير العياشي عن الصادق عليه السلام: هم الأئمة ومن اتبعهم.

ز. وفي تفسيري القمي والعياشي عن عمر بن أذينة عنه عليه السلام قال: أنتم والله من آل محمد، فقلت: من أنفسهم جعلت فداك؟ قال: نعم والله من أنفسهم، ثلاثاً، ثم نظر إلي ونظرت إليه، فقال: يا عمر، إن الله يقول في كتابه: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ﴾ الآية.

٣٤. أهل الكتاب وإضلالهم لأنفسهم وكتمانهم الحق:

المقطع [٣٤] من سورة آل عمران، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ

لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٩-٧١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٣/ ٢٥٥»:

١. ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾:

أ. الطائفة الجماعة من الناس، وكان الأصل فيه أن الناس وخاصة العرب كانوا أولا يعيشون شعوبا وقبائل بدويين يطوفون صيفا وشتاء بماشيتهم في طلب الماء والكلإ، وكانوا يطوفون وهم جماعة تحذرا من الغيلة والغارة فكان يقال لهم جماعة طائفة، ثم اقتصر على ذكر الوصف (الطائفة) للدلالة على الجماعة.

ب. أما كون أهل الكتاب لا يضلون إلا أنفسهم فإن أول الفضائل الإنسانية الميل إلى الحق واتباعه فحب صرف الناس عن الحق إلى الباطل من جهة أنه من أحوال النفس وأخلاقها رذيلة نفسانية، وبئست الرذيلة، وإثم من آثامها ومعاصيها وبغيها بغير حق، وما ذا بعد الحق إلا الضلال فحبهم لإضلال المؤمنين وهم على الحق إضلال بعينه لأنفسهم من حيث لا يشعرون، وكذا لو تمكنوا من بعضهم بإلقاء الشبهات فأضلوه بذلك فإنما يضلون أولا أنفسهم لأن الإنسان لا يفعل شيئا من خير أو شر إلا لنفسه كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾

ج. أما ضلال من ضل بإضلالهم فليس بتأثير منهم بل هو بسوء فعال الضال الغاوي وشامة إرادته بإذن من الله، قال تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾، وقال تعالى: {وَما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ}، وقد مر شطر من الكلام في خواص الأعمال في الكلام على قوله تعالى: ﴿حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ﴾

د. هذا الذي ذكرناه من المعارف القرآنية التي يفيدها التوحيد الأفعالي الذي يتفرع على شمول حكم الربوبية والملك، وبه يوجه ما يفيده قوله تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾، من الحصر، أما ما ذكره المفسرون من التوجيه لمعنى الآية فلا يغني في الحصر المذكور طائلا ولذلك أغمضنا عن نقله.

٢. ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾:

أ. قد مر أن الكفر بآيات الله غير الكفر بالله تعالى، وأن الكفر بالله هو الالتزام بنفي التوحيد صريحا كالوثنية والدهرية، والكفر بآيات الله إنكار شيء من المعارف الإلهية بعد ورود البيان ووضوح الحق، وأهل الكتاب لا ينكرون أن للعالم إلها واحدا، وإنما ينكرون أمورا من الحقائق بينتها لهم الكتب السماوية المنزلة عليهم وعلى غيرهم كنبوة النبي ﷺ وكون عيسى عبدا لله ورسولا منه، وأن إبراهيم ليس بيهودي ولا نصراني، وأن يد الله مبسوطة، وأن الله غني، إلى غير ذلك، فأهل الكتاب في لسان القرآن كافرون بآيات الله غير كافرين بالله، ولا ينافيه قوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾، حيث نفى الإيمان عنهم صريحا، وليس إلا الكفر وذلك أن ذكر عدم تحريمهم للحرام وعدم تدينهم بدين الحق في الآية يشهد بأن المراد من توصيفهم بعدم الإيمان هو التوصيف بلازم الحال فلازم حالهم من الكفر بآيات الله عدم الإيمان بالله واليوم الآخر وإن لم يشعروا به، وليس بالكفر الصريح.

ب. في قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾، والشهادة هو الحضور والعلم عن حس، دلالة على أن المراد بكفرهم بآيات الله إنكارهم كون النبي ﷺ هو النبي الموعود الذي بشر به التوراة والإنجيل مع مشاهدتهم انطباق الآيات والعلائم المذكورة فيهما عليه، ومن هنا يظهر فساد ما ذكره بعضهم: أن لفظ الآيات عام شامل لجميع الآيات ولا وجه لتخصيصه بآيات النبوة بل المراد كفرهم بجميع الآيات الحقة والوجه في فساده ظاهر.

٣. ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ إلى آخر الآية:

أ. اللبس بفتح اللام إلقاء الشبهة والتمويه أي تظهرون الحق في صورة الباطل.

ب. في قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ دلالة أو تلويح على أن المراد باللبس والكتمان ما هو في المعارف الدينية غير ما يشاهد من الآيات كالآيات التي حرفوها أو كتموها أو فسروها بغير ما يراد منها.

٤. هاتان الآيتان أعني قوله ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ﴾، إلى قوله: ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، تتمة لقوله تعالى: ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ﴾ الآية، وعلى هذا فعتاب الجميع بفعال البعض بنسبته إليهم من جهة اتحادهم في العنصر والنسل والصفة، ورضاء البعض بفعال البعض وهو كثير الورود في القرآن.

٣٥. مكر أهل الكتاب بالإيمان ثم الكفر وادعاء اختصاص الفضل:

المقطع [٣٥] من سورة آل عمران، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [آل عمران: ٧٢ـ٧٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٣/ ٢٥٧»:

١. ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ﴾ إلى آخر الآية:

أ. المراد بوجه النهار بقرينة مقابلته بآخره هو أوله فإن وجه الشيء ما يبدو ويظهر به لغيره وهو في النهار أوله، وسياق قولهم يكشف عن نزول وحي على النبي ﷺ في وجه النهار يوافق ما عليه أهل الكتاب وآخر في آخره يخالف ما هم عليه فإنما هو الذي دعاهم إلى أن يقولوا هذا القول، وعلى هذا فقوله: ﴿بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أريد به شيء خاص من وحي القرآن يوافق ما عند أهل الكتاب، وقوله: ﴿وَجْهَ النَّهَارِ﴾ منصوب على الظرفية ومتعلق بقوله: ﴿أُنْزِلَ﴾، لا بقوله: ﴿آمِنُوا﴾ (صيغة الأمر) لأنه أقرب، وقوله: ﴿وَاكْفُرُوا آخِرَهُ﴾ في معنى واكفروا بما أنزل في آخره فيكون من وضع الظرف موضع المظروف بالمجاز العقلي نظير قوله تعالى: ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾

ب. وبذلك يتأيد ما ورد في سبب النزول عن أئمة أهل البيت: أن هذه كلمة قالتها اليهود حين تغيير القبلة حيث صلى رسول الله صلاة الصبح إلى بيت المقدس وهو قبلة اليهود، ثم حولت القبلة في صلاة الظهر نحو الكعبة فقالت طائفة من اليهود: ﴿آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ﴾ يريدون استقبال بيت المقدس، ﴿وَاكْفُرُوا آخِرَهُ﴾ يريدون استقبال الكعبة، ويؤيده قولهم بعده على ما حكاه الله: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ﴾، أي لا تثقوا بمن لا يتبع دينكم بالإيمان به فتفشوا عنده شيئا من أسراركم والبشارات التي عندكم وكان من علائم النبي ﷺ أنه يحول القبلة إلى الكعبة.

ج. ذكر بعضهم أن قوله: ﴿وَجْهَ النَّهَارِ﴾ متعلق بقوله: ﴿آمِنُوا﴾ (بصيغة الأمر) والمراد به أول النهار، وقوله: ﴿آخِرَهُ﴾ ظرف بتقدير في، ومتعلق بقوله ﴿وَاكْفُرُوا﴾، والمراد بقولهم: ﴿آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ﴾ الآية أن يظهر عدة منهم الإيمان بالقرآن ويلحقوا بجماعة المؤمنين ثم يرتدوا في آخر النهار بإظهار

أنهم إنما آمنوا أول النهار لما كاد يلوح لهم من أمارات الصدق والحق من ظاهر الدعوة الإسلامية، وإنما ارتدوا آخر النهار لما تبين لهم من شواهد البطلان وعدم انطباق ما عندهم من بشارات النبوة وعلائم الحقانية على النبي ﷺ فيكون ذلك مكيدة تكاد بها المؤمنون فيرتابون في دينهم، ويهنون في عزيمتهم فينكسر بذلك سورتهم وتبطل أحدوثتهم، وهذا المعنى في نفسه غير بعيد وخاصة من اليهود الذين لم يألوا جهدا في الكرة على الإسلام لإطفاء نوره من أي طريق ممكن غير أن لفظ الآية لا ينطبق عليه.

د. قال بعضهم: إن المراد آمنوا بصلاتهم إلى الكعبة أول النهار واكفروا به آخره لعلهم يرجعون وقال آخرون: المعنى أظهروا الإيمان في صدر النهار بما أقررتم به من صفة النبي ﷺ واكفروا آخره بإبداء أن ما وصف به النبي الموعود لا ينطبق عليه لعلهم يرتابون بذلك فيرجعوا عن دينهم، وهذان الوجهان لا شاهد عليهما، وكيف كان المراد، لا إجمال في الآية.

٢. ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ الآية:

أ. الذي يعطيه السياق هو أن تكون هذه الجملة من قول أهل الكتاب تتمة لقولهم: ﴿آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾، وكذا قوله تعالى: ﴿أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾، ويكون قوله: ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللهِ﴾ جملة معترضة هو جواب الله سبحانه عن مجموع ما تقدم من كلامهم أعني قولهم: ﴿آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ﴾ إلى قوله ﴿دِينَكُمْ﴾، على ما يفيده تغيير السياق، وكذا قوله تعالى ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ﴾ جوابه تعالى عن قولهم: ﴿أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ﴾ إلى آخره، هذا هو الذي يقتضيه ارتباط أجزاء الكلام واتساق المعاني في الآيتين أولا، وما تناظر الآيتين من الآيات الحاكية لأقوال اليهود في الجدال والكيد ثانيا.

ب. المعنى، والله أعلم، أن طائفة من أهل الكتاب، وهم اليهود، قالت أي قال بعضهم لبعض: صدقوا النبي والمؤمنين في صلاتهم وجه النهار إلى بيت المقدس ولا تصدقوهم في صلاتهم إلى الكعبة آخر النهار، ولا تثقوا في الحديث بغيركم فيخبروا المؤمنين أن من شواهد نبوة النبي الموعود تحويل القبلة إلى الكعبة فإن في تصديقكم أمر الكعبة وإفشائكم ما تعلمونه من كونها من أمارات صدق الدعوة محذور أن يؤتى المؤمنون مثل ما أوتيتم من القبلة فيذهب به سوددكم ويبطل تقدمكم في أمر القبلة، ومحذور أن يقيموا عليكم الحجة عند ربكم أنكم كنتم عالمين بأمر القبلة الجديدة شاهدين على حقيته ثم لم تؤمنوا:

• فأجاب الله تعالى عن قولهم في الإيمان بها في وجه النهار والكفر في آخره وأمرهم بكتمان أمر القبلة لئلا يهتدي المؤمنون إلى الحق بأن الهدى الذي يحتاج إليه المؤمنون الذي هو حق الهدى إنما هو هدى الله دون هداكم، فالمؤمنون في غنى عن ذلك فإن شئتم فاتبعوا وإن شئتم فاكفروا وإن شئتم فأفشوا وإن شئتم فاكتموا.

• وأجاب تعالى عما ذكروه من مخافة أن يؤتى أحد مثل ما أوتوا أو يحاجوهم عند عند ربهم بأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء لا بيدكم حتى تحبسوه لأنفسكم وتمنعوا منه غيركم.

• وأما حديث الكتمان مخافة المحاجة فقد أعرض عن جوابه لظهور بطلانه كما فعل كذلك في قوله تعالى في هذا المعنى بعينه: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾، فقوله: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ﴾، إيذان بأن هذا القول بعد ما علموا أن الله لا يتفاوت فيه السر والعلانية كلام منهم لا يستوي على تعقل صحيح، وليس جوابا لمكان الواو في قوله: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ﴾

ج. على ما مر من المعنى فقوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا﴾ معناه، لا تثقوا ولا تصدقوا لهم الوثاقة وحفظ السر على حد قوله تعالى: ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، والمراد بقوله ﴿لِمَنْ تَبِعَ﴾، اليهود، والمراد بالجملة النهي عن إفشاء ما كان عندهم من حقية تحويل القبلة إلى الكعبة كما مر في قوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾، إلى أن قال: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾، إلى أن قال: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾

٣. في معنى الآية أقوال شتى دائرة بين المفسرين:

أ. كقول بعضهم: إن قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا﴾ إلى آخر الآية كلام لله تعالى لا لليهود، وخطاب الجمع في قوله: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا﴾ وقوله: ﴿مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ جميعا للمؤمنين، وخطاب الإفراد في قوله: ﴿قُلْ﴾، في الموضعين للنبي ﷺ.

ب. وقول آخرين بمثله إلا أن خطاب الجمع في قوله: ﴿أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾، لليهود في الكلام عتاب وتقريع.

ج. وقول آخرين إن قوله: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ من كلام اليهود، وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ

الْهُدَى هُدَى اللهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ﴾ الآية كلام لله تعالى جوابا عما قالته اليهود.

د. وكذا الخلاف في معنى الفضل أن المراد به الدين أو النعمة الدنيوية أو الغلبة أو غير ذلك.

هـ. وهذه الأقوال على كثرتها بعيدة عما يعطيه السياق كما قدمنا الإشارة إليه، ولذا لم نشتغل بها فضل اشتغال.

٤. ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ الفضل هو الزائد عن الاقتصاد، ويستعمل في المحمود كما أن الفضول يستعمل في المذموم، قال الراغب: (وكل عطية لا تلزم من يعطي يقال لها فضل نحو قوله: {وَسْئَلُوا اللهَ مِنْ فَضْلِهِ}، ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ﴾، ﴿ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾، وعلى هذا قوله: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللهِ﴾، ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ﴾)، وعلى هذا فقوله: ﴿إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ﴾، من قبيل الإيجاز بالقناعة بكبرى البيان القياسي، والتقدير: قل إن هذا الإنزال والإيتاء الإلهي الذي تحتالون في تخصيصه بأنفسكم بالتظاهر على الإيمان والكفر، والإيصاء بالكتمان أمر لا نستوجبه معاشر الناس على الله تعالى بل هو من الفضل، والفضل بيد الله الذي له الملك وله الحكم فله أن يؤتيه من يشاء والله واسع عليم، ففي الكلام نفي ما يدل عليه قولهم وفعلهم من تخصيص النعمة الإلهية بأنفسهم بجميع جهاته المحتملة فإن تنعم بعض الناس بفضل الله تعالى دون البعض كتنعم اليهود بنعمة الدين والقبلة، وحرمان غيرهم:

أ. إما أن يكون لأن الفضل منه تعالى يمكن أن يقع تحت تأثير الغير فيزاحم المشية الإلهية، ويحبس فضله عن جانب، ويصرفه إلى آخر، وليس كذلك فإن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء.

ب. وإما أن يكون لأن الفضل قليل غير واف والمفضل عليهم كثيرون فيكون إيتاؤه على البعض دون البعض يحتاج إلى انضمام مرجح فيحتال إلى إقامة مرجح لتخصيص البعض الذي ينعم عليه، وليس كذلك فإن الله سبحانه واسع الفضل والمقدرة.

ج. وإما أن يكون لأن الفضل وإن كان واسعا وبيد الله لكن يمكن أن يحتجب المفضل عليه عنه تعالى بجهل منه فلا ينال الفضل فيحتال في حجبه وستر حاله عنه تعالى حتى يحرم من فضله، وليس كذلك فإن الله سبحانه عليم لا يطرأ عليه جهل.

٥. ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾، فلما كان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء وكان واسعا عليما أمكن أن يختص بعض عباده ببعض نعمه فإن له أن يتصرف في ملكه كيف يشاء، وليس

إذا لم يكن ممنوع التصرف في فضله وإيتائه عباده أن يجب عليه أن يؤتي كل فضله كل أحد فإن هذا أيضا نوع ممنوعية في التصرف بل له أن يختص بفضله من يشاء.

٦. وقد ختم الكلام بقوله: ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ وهو بمنزلة التعليل لجميع المعاني السابقة فإن لازم عظمة الفضل على الإطلاق أن يكون بيده يؤتيه من يشاء، وأن يكون واسعا في فضله، وأن يكون عليما بحال عباده وما هو اللائق بحالهم من الفضل، وأن يكون له أن يختص بفضله من يشاء.

٧. في تبديل الفضل بالرحمة في قوله: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾، دلالة على أن الفضل وهو العطية غير الواجبة من شعب الرحمة، قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾، وقال: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾، وقال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ﴾

٨. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا﴾ [آل عمران: ٧٢] الآية، عن الباقر عليه السلام: أن رسول الله ﷺ لما قدم المدينة وهو يصلي نحو بيت المقدس، أعجب ذلك القوم، فلما صرفه الله عن بيت المقدس إلى بيت الله الحرام، وجدت اليهود من ذلك، وكان صرف القبلة صلاة الظهر، فقالوا: صلى محمد الغداة واستقبل قبلتنا، فآمنوا بالذي أنزل على محمد وجه النهار، وأكفروا آخره، يعنون القبلة حين استقبل رسول الله ﷺ المسجد الحرام.

• أقول: والرواية كما ترى تجعل قوله: (وجه النهار) ظرفاً لقوله: (أنزل)، دون قوله: (آمنوا)، وقد تقدم الكلام فيه في البيان السابق.

ب. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿وَقَالَت طَّائِفَةٌ﴾ الآية، قال: إن طائفة من اليهود قالت: إذا لقيتم أصحاب محمد أول النهار فآمنوا، وإذا كان آخره فصلوا صلاتكم، لعلهم يقولون: هؤلاء أهل الكتاب وهم أعلم منا، لعلهم ينقلبون عن دينهم.

• أقول: ورواه فيه أيضاً عن السدي ومجاهد.

٣٦. تفاوت أهل الكتاب في الأمانة وادعاؤهم عدم المؤاخذة في حق الأميين:

المقطع [٣٦] من سورة آل عمران، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ

بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٥ـ٧٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٣/ ٢٦٢»:

١. ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾:

أ. إشارة إلى اختلافهم في حفظ الأمانات والعهود اختلافا فاحشا آخذا بطرفي التضاد وأن هذا وإن كان في نفسه رذيلة قومية ضارة إلا أنه ناش بينهم فاش في جماعتهم من رذيلة أخرى اعتقادية وهي ما يشتمل عليه قولهم: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾، فإنهم كانوا يسمون أنفسهم بأهل الكتاب، وغيرهم بالأميين فقولهم: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ معناه نفي أن يكون لغير إسرائيلي على إسرائيلي سبيل، وقد أسندوا الكلمة إلى الدين، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ بَلَى﴾ الآية.

ب. فقد كانوا يزعمون، كما أنهم اليوم على زعمهم، أنهم هم المخصوصون بالكرامة الإلهية لا تعدوهم إلى غيرهم بما أن الله سبحانه جعل فيهم نبوة وكتابا وملكا فلهم السيادة والتقدم على غيرهم، واستنتجوا من ذلك أن الحقوق المشرعة عندهم اللازمة المراعاة عليهم كحرمة أخذ الربا وأكل مال الغير: وهضم حقوق الناس إنما هي بينهم معاشر أهل الكتاب فالمحرم هو أكل مال الإسرائيلي على مثله، والمحظور هضم حقوق يهودي على أهل ملته، وبالجملة إنما السبيل على أهل الكتاب لأهل الكتاب، وأما غير أهل الكتاب فلا سبيل له على أهل الكتاب فلهم أن يحكموا في غيرهم ما شاءوا ويفعلوا في من دونهم ما أرادوا، وهذا يؤدي إلى معاملتهم مع غيرهم معاملة الحيوان العجم كائنا من كان.

ج. وهذا وإن لم يوجد فيما عندهم من الكتب المنسوبة إلى الوحي كالتوراة وغيرها لكنه أمر أخذوه من أفواه أحبارهم فقلدوهم فيه ثم لما كان الدين الموسوي لا يعدو بني إسرائيل إلى غيرهم جعلوه جنسية بينهم، وتولد من ذلك أن هذه الكرامة والسؤدد أمر جنسي خص بذلك بنو إسرائيل خاصة فالانتساب الإسرائيلي هو مادة الشرف وعنصر السؤدد والمنتسب إلى إسرائيل له التقدم المطلق على غيره، وهذه الروح الباغية إذا دبت في قالب قوم بعثتهم إلى إفساد الأرض وأماته روح الإنسانية وآثارها الحاكمة في الجامعة البشرية.

د. نعم أصل هذه الكلمة، وهو سلب الحقوق العامة عن بعض الأفراد والجوامع، مما لا مناص عنه في الجامعة الإنسانية لكن الذي يعتبره المجتمع الإنساني الصالح هو سلب الحقوق عمن يريد إبطال الحقوق وهدم المجتمع، والذي يعتبره الإسلام في ثبوت الحق هو دين التوحيد من الإسلام أو الذمة فمن لا إسلام له ولا ذمة، فلا حق له من الحياة وهو الذي ينطبق على الناموس الفطري الذي سمعت أنه المعتبر إجمالا عند المجتمع الإنساني.

هـ. ولنرجع إلى ما كنا فيه من الكلام في الآية فقوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾، كان الظاهر أن يقال: ومنهم، فهو من وضع الظاهر موضع الضمير والوجه فيه دفع أن يتوهم أن هؤلاء بعض من الطائفة المذكورة في الآيتين السابقتين التي قالت: ﴿آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ﴾ الآية ولذلك لما اندفع التوهم المذكور قيل في الآية الآتية: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ﴾ الآية.

و. وهناك وجه آخر وهو أن ذكر الوصف، وهو كونهم ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ مشعر بنوع من التعليل، وذلك أن صدور هذا القول والفعل منهم، أعني قولهم: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾، وأكلهم مال الناس بذلك لم يكن بذاك البعيد المستغرب لو كانوا أميين لأخبر عندهم من النبوة والوحي لكنهم أهل الكتاب وعندهم الكتاب فيه حكم الله، وهم يعلمون أن الكتاب لا يحكم لهم بذلك، ولا يبيح لهم مال غيرهم لأنه غيرهم فهذا الذي قالوه ثم فعلوه، وهم أهل الكتاب منهم أغرب وأبعد، والتوبيخ والتقبيح عليهم أوجه وألزم.

ز. القنطار والدينار معروفان والمقابلة بينهما، على ما فيها من المحسنات البديعية، والمقام مقام يذكر فيه الأمانة تفيد أنه كنى بهما عن الكثير والقليل، والمراد أن منهم من لا يخون الأمانة وإن كثرت وثقلت قيمتها، ومنهم من يخونها وإن قلت وخفت، وكذا الخطاب الموضوع في الكلام بقوله: ﴿إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾، غير متوجه إلى مخاطب معين بل هو للتكنية عن أي مخاطب يمكن أن يخاطب بهذا الكلام للإشعار بأن الحكم عام غير مقصور على واحد دون واحد، والكلام في معنى قولنا: إن يأمنه مؤتمن أي مؤتمن كان بقنطار يؤده إليه.

ح. (ما) في قوله: ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾، مصدرية على ما قيل، والتقدير إلا أن تدوم قائما عليه، وذكر القيام عليه للدلالة على الإلحاح والاستعجال فإن قيام المطالب على ساقه عند المطالبة من غير قعود

دليل على ذلك وربما قيل: إن ﴿مَا﴾ ظرفية، وليس بشيء.

٢. ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾، ظاهر السياق أن ذلك إشارة إلى مجموع المضمون المأخوذ من سابق القول أي كون بعضهم يؤدي الأمانة وإن كانت خطيرة مهمة، وبعضهم لا يؤديها وإن كانت حقيرة لا يعبأ بها إنما هو لقولهم: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ فأوجب ذلك اختلافا بينهم في الصفات الروحية كحفظ الأمانات والاتقاء عن تضييع حقوق الناس، والاغترار بالكرامة مع أنهم يعلمون أن الله لم يسن لهم ذلك في الكتاب ولا رضي بمثل هذه الأفعال منهم، ويمكن أن يكون ذلك إشارة إلى حال الطائفة الثانية المذكورة بقوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾، ويكون ذكر الطائفة الأولى الأمينة لاستيفاء تمام الأقسام، والتحفظ على النصفة، ويجوز حينئذ أن تكون ضمائر الجمع في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ وفي قوله: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ راجعة إلى أهل الكتاب أو راجعة إلى قوله: ﴿مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ﴾، بحسب المعنى وكذا يجوز على التقدير الثاني أن يكون المراد بضمير التكلم في قوله: ﴿عَلَيْنَا﴾، جميع أهل الكتاب أو خصوص البعض، ويختلف المعنى باختلاف المحتملات إلا أن الجميع صحيحة مستقيمة، وعليك بالتدبر فيها.

٣. ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ إبطال لدعواهم أنه ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾، ودليل على أنهم كانوا ينسبون ذلك إلى الوحي السماوي والتشريع الديني كما مر.

٤. ﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾، رد لكلامهم وإثبات لما نفوه بقولهم: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾، وإيفاء العهد تتميمه بالتحفظ من العذر والنقص، والتوفية البذل والإعطاء وافيا، والاستيفاء الأخذ والتناول وافيا، والمراد بالعهد ما أخذ الله الميثاق عليه من عباده أن يؤمنوا به ويعبدوه على ما يشعر به قوله في الآية التالية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾، أو مطلق العهد الذي منه عهد الله تعالى.

٥. ﴿فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ من قبيل وضع الكبرى موضع الصغرى إيثارا للإيجاز، والتقدير فإن الله يحبه لأنه متق والله يحب المتقين، والمراد أن كرامة الله لعباده المتقين حبه لهم لا ما زعمتموه من نفي السبيل، فمفاد الكلام أن الكرامة الإلهية ليست بذاك المبتذل السهل التناول حتى ينالها كل من انتسب إليه انتسابا أو يحسبها كل محتال أو مختال كرامة جنسية أو قومية بل يشترط في نيلها الوفاء بعهد الله وميثاقه

والتقوى في الدين فإذا تمت الشرائط حصلت الكرامة وهي المحبة والولاية الإلهية التي لا تعدو عبادة المتقين، وأثرها النصرة الإلهية، والحياة السعيدة التي تعمر الدنيا وتصلح بال أهلها، وترفع درجات الآخرة، فهذه هي الكرامة الإلهية لا أن يحمل قوما على أكتاف عباده من صالح وطالح ويطلقهم ويخلي بينهم وبين ما يشاءون وما يعملون فيقولوا يوما: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾، ويوما نحن أولياء الله من دون الناس، ويوما: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ فيهديهم ذلك إلى إفساد الأرض، وإهلاك الحرث والنسل.

٣٧. عقوبة الذين يشترون بعهد الله ثمناً قليلاً:

المقطع [٣٧] من سورة آل عمران، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٧٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٣/ ٢٦٥»:

١. ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾:

أ. تعليل للحكم المذكور في الآية السابقة، والمعنى أن الكرامة الإلهية خاصة بمن أوفى بعهده واتقى لأن غيرهم، وهم ﴿الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾، لا كرامة لهم.

ب. لما كان نقض عهد الله وترك التقوى إنما هو للتمتع بزخارف الدنيا وإيثار شهوات الأولى على الأخرى كان فيه وضع متاع الدنيا موضع إيفاء العهد والتقوى، وتبديل العهد به، ولذلك شبه عملهم ذلك بالمعاملة فجعل عهد الله مبيعا يشترى بالمتاع، وسمي متاع الدنيا وهو قليل بالثمن القليل والاشتراء هو البيع فقيل: ﴿يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾، أي يبدلون العهد والأيمان من متاع الدنيا.

٢. ﴿أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ﴾ إلى آخر الآية، الخلاق النصيب، والتزكية هي الإنماء نموا صالحا، ولما كان الوصف المأخوذ في بيان هذه الطائفة من الناس مقابلا للوصف المأخوذ في الطائفة الأخرى المذكورة في قوله: ﴿مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى﴾، ثم كانت التبعات المذكورة لوصفهم أمورا سلبية أفاد ذلك:

أ. أولا: أن الإتيان في الإشارة بلفظ أولئك الدال على البعد لإفادة بعد هؤلاء من ساحة القرب كما أن الموفون بعهدهم المتقون مقربون لمكان حب الله تعالى لهم.

ب. وثانيا: أن آثار محبة الله سبحانه هي الخلاق في الآخرة، والتكليم والنظر يوم القيامة، والتزكية والمغفرة، وهي رفع أليم العذاب.

٣. الخصال التي ذكرها الله تعالى لهؤلاء الناقضين لعهد الله وأيمانهم أمور ثلاثة:

أ. أحدها: أنهم لا نصيب لهم في الآخرة، والمراد بالآخرة هي الدار الآخرة (من قيام الوصف مقام الموصوف) ويعني بها الحياة التي بعد الموت كما أن المراد بالدنيا هي الدار الدنيا وهي الحياة الدنيا قبل الموت، ونفي النصيب عنهم في الآخرة لاختيارهم نصيب الدنيا عليه، ومن هنا يظهر أن المراد بالثمن القليل هو الدنيا، وإنما فسرناه فيما تقدم بمتاع الدنيا لمكان توصيفه تعالى إياه بالقليل، وقد وصف به متاع الدنيا في قوله، عز من قائل ـ: ﴿قُلْ مَتاعُ الدُّنْيا قَلِيلٌ﴾، على أن متاع الدنيا هو الدنيا.

ب. ثانيها: أن الله لا يكلمهم ولا ينظر إليهم يوم القيامة، وقد حوذي به المحبة، الإلهية للمتقين من حيث إن الحب يوجب تزود المحب من المحبوب بالاسترسال بالنظر والتكليم عند الحضور والوصال، وإذ لا يحبهم الله فلا يكلمهم ولا ينظر إليهم يوم القيامة وهو يوم الإحضار والحضور، والتدرج من التكليم إلى النظر لوجود القوة والضعف بينهما، فإن الاسترسال في التكليم أكثر منه في النظر فكأنه قيل: لا نشرفهم لا كثيرا ولا قليلا.

ج. ثالثها: أن الله لا يزكيهم ولهم عذاب أليم، وإطلاق الكلام يفيد أن المراد بهما ما يعم التزكية والعذاب في الدنيا والآخرة.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٧٧] الآية، عن الباقر عليه السلام قال: أنزل في العهد: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٧٧]، والخلاق النصيب، فمن لم يكن له نصيب في الآخرة، فبأي شيء يدخل الجنة؟

ب. وفي أمالي الشيخ بإسناده عن عدي بن عدي عن أبيه قال: اختصم امرؤ القيس ورجل من حضرموت إلى رسول الله ﷺ في أرض، فقال: ألك بينة؟ قال: لا، قال: فبيمينه، قال: إذن والله يذهب بأرضي، قال: إن ذهب بأرضك بيمينه، كان ممن لا ينظر الله إليه يوم القيامة ولا يزكيه، وله عذاب أليم،

قال: ففزع الرجل وردها إليه.

• أقول: والرواية كما ترى لا تدل على نزول الآية في مورد القصة، وقد روي من طرق أهل السنة في عدة روايات أن الآية نزلت في هذا الشأن، وهي متعارضة من حيث مورد القصة: ففي بعضها أن النزاع كان بين امرء القيس ورجل من حضرموت، كما مر في الرواية السابقة، وفي بعضها أنه كان بين الأشعث بن قيس وبين رجل من اليهود في أرض له، وفي بعضها أنها نزلت في رجل من الكفار، وقد كان أقام سلعة له في السوق، فحلف بالله لقد أعطي بها ما لم يعطه، ليوقع بها رجلاً من المسلمين، فنزلت الآية.

• وقد عرفت في البيان السابق أن ظاهر الآية أنها واقعة موقع التعليل لمضمون الآية السابقة عليها، فالوجه حمل الروايات إن أمكن على بيان انطباق الآية على مورد القصة دون النزول بالمعنى المعهود منه.

٣٨. تحريف أهل الكتاب للكتاب ونسبتهم الكذب إلى الله:

المقطع [٣٨] من سورة آل عمران، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٣/ ٢٦٦»:

١. ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ﴾:

أ. اللي هو فتل الحبل، ولي الرأس واللسان إمالتهما، قال تعالى: ﴿لَوَّوْا رُؤُسَهُمْ﴾، وقال تعالى: ﴿لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾، والظاهر أن المراد بذلك أنهم يقرؤون ما افتروه من الحديث على الله سبحانه بألحان يقرؤون بها الكتاب تلبيسا على الناس ليحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب.

ب. تكرار لفظ الكتاب ثلاث مرات في الكلام لدفع اللبس فإن المراد بالكتاب الأول هو الذي كتبوه بأيديهم ونسبوه إلى الله سبحانه، وبالثاني الكتاب الذي أنزله الله تعالى بالوحي، وبالثالث هو الثاني كرر لفظه لدفع اللبس وللإشارة إلى أن الكتاب بما أنه كتاب الله أرفع منزلة من أن يشتمل على مثل تلك المفتريات، وذلك لما في لفظ الكتاب من معنى الوصف المشعر بالعلية، ونظيره تكرار لفظ الجلالة في قوله: {وَيَقُولُونَ هُوَمِنْ عِنْدِ اللهِ وَما هُوَمِنْ عِنْدِ اللهِ}، فالمعنى وما هو من عند الله الذي هو إله حقا لا يقول إلا الحق قال تعالى: ﴿وَالْحَقَّ أَقُولُ﴾

٢. ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾:

أ. تكذيب بعد تكذيب لنسبتهم ما اختلقوه من الوحي إلى الله سبحانه فإنهم كانوا يلبسون الأمر على الناس بلحن القول فأبطله الله بقوله: ﴿وَما هُوَ مِنَ الْكِتابِ﴾ ثم كانوا يقولون بألسنتهم هو من عند الله فكذبهم الله:

- أولا بقوله: ﴿وَما هُوَ مِنْ عِنْدِ الله﴾
- وثانيا بقوله: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى الله الْكَذِبَ﴾

ب. وزاد في الفائدة أولا أن الكذب من دأبهم وديدنهم، وثانيا أن ذلك ليس كذبا صادرا عنهم بالتباس من الأمر عليهم بل هم عالمون به متعمدون فيه.

٣٩. دعوة الربانيين إلى تعليم الكتاب لا إلى عبادة البشر:

المقطع [٣٩] من سورة آل عمران، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩ـ٨٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٣/ ٢٧٤»:

١. ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ البشر مرادف للإنسان، ويطلق على الواحد والكثير فالإنسان الواحد بشر كما أن الجماعة منه بشر، واللام للملك أي لا يملك ذلك أي ليس له بحق كقوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا﴾، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾

٢. ﴿أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾:

أ. اسم كان إلا أنه توطئة لما يتبعه من قوله: ﴿ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ﴾، وذكر هذه التوطئة مع صحة المعنى بدونها ظاهرا يفيد وجها آخر لمعنى قوله: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾، فإنه لو قيل ما كان لبشر أن يقول للناس، كان معناه أنه لم يشرع له هذا الحق وإن أمكن أن يقول ذلك فسقا وعتوا، ولكنه إذا قيل: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ﴾ كان معناه أن إيتاء الله له العلم والفقه مما عنده وتربيته له بتربية ربانية لا يدعه أن يعدو طور العبودية، ولا يوسع له أن يتصرف فيما لا يملكه ولا يحق له كما يحكيه تعالى عن عيسى عليه السلام في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾، ومن هنا تظهر النكتة في قوله: ﴿أَنْ يُؤْتِيَهُ

الله﴾ الآية دون أن يقال: ما كان لبشر آتاه الله الكتاب والحكم والنبوة أن يقول،فإن العبارة الثانية تفيد معنى أصل التشريع كما تقدم بخلاف قوله: ﴿أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ﴾ الآية فإنه يفيد أن ذلك غير ممكن البتة أي إن التربية الربانية والهداية الإلهية لا تتخلف عن مقصدها كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ﴾ (يعني قوم رسول الله ﷺ ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾)

ب. فمحصل المعنى أنه لا يسع لبشر أن يجمع بين هذه النعم الإلهية وبين دعوة الناس إلى عبادة نفسه بأن يؤتى الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لي من دون الله، فالآية بحسب السياق بوجه كقوله تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لله وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾، إلى أن قال ـ: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾، فإن المستفاد من الآية: أن المسيح وكذا الملائكة المقربون أجل شأنا وأرفع قدرا أن يستنكفوا عن عبادة الله فإن الاستنكاف عن عبادته يستوجب أليم العذاب، وحاشا أن يعذب الله كرام أنبيائه ومقربي ملائكته.

ج. سؤال وإشكال: الإتيان بثم الدالة على التراخي في قوله: ﴿ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ﴾، ينافي الجمع الذي ذكرته، والجواب: ما ذكرناه من معنى الجمع محصل المعنى، وكما يصح اعتبار الاجتماع والمعية بين المتحدين زمانا كذلك يصح اعتباره بين المترتبين والمتتاليين فهو نوع من الجمع.

٣. ﴿كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللهِ﴾، فالعباد كالعبيد جمع عبد، والفرق بينهما أن العباد يغلب استعماله فيما إذا نسب إلى الله سبحانه، يقال: عباد الله، ولا يقال: غالبا عباد الناس، بل عبيد الناس وتقييد قوله: ﴿عِبَادًا لِي﴾ بقوله: ﴿مِنْ دُونِ اللهِ﴾ تقييد قهري فإن الله سبحانه لا يقبل من العبادة إلا ما هو خالص لوجهه الكريم كما قال تعالى: {أَلَا لله الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى الله زُلْفى إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي ما هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوكاذِبٌ كَفَّارٌ}، فرد عبادة من يعبد مع عبادته غيره حتى بعنوان التقرب والتوسل والاستشفاع، على أن حقيقة العبادة لا تتحقق إلا مع إعطاء استقلال ما للمعبود حتى في صورة الإشراك فإن الشريك من حيث إنه شريك مساهم ذو استقلال ما، والله سبحانه له الربوبية المطلقة فلا يتم ربوبيته ولا تستقيم عبادته إلا مع نفي الاستقلال عن كل شيء من كل جهة فعبادة غير الله عبادة له من دون الله وإن عبد الله معه.

٤. ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾:

أ. الرباني منسوب إلى الرب، زيد عليه الألف والنون للدلالة على التفخيم كما يقال لحياني لكثير اللحية ونحو ذلك، فمعنى الرباني شديد الاختصاص بالرب وكثير الاشتغال بعبوديته وعبادته.

ب. الباء في قوله: ﴿بِمَا كُنْتُمْ﴾، للسببية وما مصدرية، والكلام بتقدير القول والمعنى، ولكن يقول: كونوا ربانيين بسبب تعليمكم الكتاب للناس ودراستكم إياه فيما بينكم.

ج. الدراسة أخص من التعليم فإنه يستعمل غالبا فيما يتعلم عن الكتاب بقراءته قال الراغب: (درس الدار بقي أثرها، وبقاء الأثر يقتضي انمحاءه في نفسه، فلذلك فسر الدروس بالانمحاء، وكذا درس الكتاب، ودرست العلم تناولت أثره بالحفظ، لما كان تناول ذلك بمداومة القراءة عبر عن إدامة القراءة بالحفظ، قال تعالى: ﴿وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾، وقال: {بِما كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتابَ وَبِما كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ وَما آتَيْناهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَها})، ومحصل الكلام أن البشر الذي هذا شأنه إنما يدعوكم إلى التلبس بالإيمان واليقين بما في الكتاب الذي تعلمونه وتدرسونه من أصول المعارف الإلهية، والاتصاف والتحقق بالملكات والأخلاق الفاضلة التي يشتمل عليها، والعمل بالصالحات التي تدعون الناس إليها حتى تنقطعوا بذلك إلى ربكم، وتكونوا به علماء ربانيين.

د. ﴿بِمَا كُنْتُمْ﴾، حيث اشتمل على الماضي الدال على التحقق لا يخلو عن دلالة ما على أن الكلام في الآية مسوق للتعريض بالنصارى من أهل الكتاب في قولهم: إن عيسى أخبرهم بأنه ابنه وكلمته على الخلاف في تفسير البنوة، وذلك أن بني إسرائيل هم الذين كان في أيديهم كتاب سماوي يعلمونه ويدرسونه وقد اختلفوا فيه اختلافا يصاحب التغيير والتحريف، وما بعث عيسى عليه السلام إلا ليبين لهم بعض ما اختلفوا فيه، وليحل بعض الذي حرم عليهم، وبالجملة ليدعوهم إلى القيام بالواجب من وظائف التعليم والتدريس وهو أن يكونوا ربانيين في تعليمهم ودراستهم كتاب الله سبحانه.

هـ. الآية وإن لم تأب الانطباق على رسول الله ﷺ بوجه فقد كانت لدعوته أيضا مساس بأهل الكتاب الذين كانوا يعلمون ويدرسون كتاب الله لكن عيسى عليه السلام أسبق انطباقا عليه، وكانت رسالته خاصة ببني إسرائيل بخلاف رسول الله ﷺ، وأما سائر الأنبياء العظام من أولي العزم والكتاب: كنوح وإبراهيم وموسى فمضمون الآية لا ينطبق عليهم وهو ظاهر.

٥. ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾ عطف على قوله ﴿يَقُولُ﴾ على القراءة

المشهورة التي هي نصب يأمركم، وهذا كما كان طائفة من أهل الكتاب كالصابئين يعبدون الملائكة ويسندون ذلك إلى الدعوة الدينية، وكعرب الجاهلية حيث كانوا يقولون إن الملائكة بنات الله، وهم يدعون أنهم على دين إبراهيم عليه السلام هذا في اتخاذ الملائكة أربابا، وأما اتخاذ النبيين أربابا فكقول اليهود: عزير بن الله على ما حكاه القرآن ولم يجوز لهم موسى عليه السلام ذلك، ولا وقع في التوراة إلا توحيد الرب ولو جوز لهم ذلك لكان آمرا به حاشاه من ذلك.

٦. اختلفت الآيتان: أعني قوله: ﴿ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللهِ﴾ وقوله: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾ من جهتين في سياقهما: الأولى: أن المأمور في الأولى ﴿ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ﴾ الناس، وفي الثانية هم المخاطبون بالآية.،والثانية: أن المأمور به في الأولى العبودية له وفي الثانية الاتخاذ أربابا:

أ. أما الأولى فحيث كان الكلام مسوقا للتعريض بالنصارى في عبادتهم لعيسى عليه السلام وقولهم بألوهيته صريحا مسندين ذلك إلى دعوته كان ذلك نسبة منهم إليه أنه قال: ﴿كُونُوا عِبَادًا لِي﴾ بخلاف اتخاذ الملائكة والنبيين أربابا بالمعنى الذي قيل في غير عيسى فإنه يضاد الألوهية بلازمه لا بصريحه فلذلك قيل: أربابا، ولم يقل: آلهة.

ب. وأما الثانية فالوجه فيه أن التعبيرين كليهما (﴿كُونُوا عِبَادًا لِي﴾، {لا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا} أمر لو تعلق بأحد تعلق بهؤلاء الذين يخاطبون بهذه الآيات من أهل الكتاب والعرب لكن التعبير لما وقع في الآية الأولى بالقول، والقول يقضي بالمشافهة ولم يكن الحاضرون في زمن نزول الآية حاضرين إذ ذاك لا جرم قيل: ﴿ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ﴾، ولم يقل: ثم يقول لكم، وهذا بخلاف لفظ الأمر المستعمل في الآية الثانية فإنه لا يستلزم شفاها بل يتم مع الغيبة فإن الأمر المتعلق بالأسلاف متعلق بالأخلاف مع حفظ الوحدة القومية، وأما القول فهو لإفادته بحسب الانصراف إسماع الصوت يقضي بالمشافهة والحضور إلا أن يعني به مجرد معنى التفهيم، وعلى هذا فالأصل في سياق هذه الآيات الحضور وخطاب الجمع، كما جرى عليه قوله تعالى ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ﴾ إلى آخر الآية.

٧. ﴿أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾:

أ. ظاهر الخطاب أنه متعلق بجميع المنتحلين بالنبوة من أهل الكتاب أو المدعين للانتساب إلى

الأنبياء كما كانت عرب الجاهلية تزعم أنهم حنفاء والكلام موضوع على الفرض والتقدير فالمعنى أنكم على تقدير إجابتكم هذا البشر الذي أوتي الكتاب والحكم والنبوة تكونون مسلمين لله متحلين بحلية الإسلام مصبوغين بصبغته فكيف يمكنه أن يأمركم بالكفر ويضلكم عن السبيل الذي هداكم إليه بإذن الله سبحانه.

ب. ومن هنا يظهر أن المراد بالإسلام هو دين التوحيد الذي هو دين الله عند جميع الأنبياء على ما يدل عليه أيضا احتفاف الآيات بهذا المعنى من الإسلام أعني قوله تعالى من قبل: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ﴾، وقوله تعالى من بعد: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ﴾، إلى أن قال ـ: {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَفِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخاسِرِينَ}

ج. ذكر بعض المفسرين أن المراد بقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ﴾ إلى آخر الآيتين رسول الله ﷺ بناء على ما روي في سبب النزول وحاصله أن أبا رافع القرظي ورجلا من نصارى نجران قالا لرسول الله ص: أتريد أن نعبدك يا محمد؟ فأنزل الله: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ﴾ إلى آخر الآيتين الحديث ثم أيده بقوله في آخرهما ﴿بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ فإن الإسلام هو الدين الذي جاء به محمد ﷺ، وفيه أنه خلط بين الإسلام في عرف القرآن وهو دين التوحيد الذي بعث به جميع الأنبياء وبين الإسلام بالاصطلاح الحادث بين المسلمين بعد عصر النزول، وقد تقدم الكلام فيه.

٨. وضع هنا مبحثا حول [قصة عيسى وامه في القرآن: المنزلة، العقائد، والرد على النصرانية]، خلاصته:

أ. قصة مريم وعيسى في القرآن: مريم نذرتها أمها محررة، وكفلها زكريا، وأيدها الله بالرزق والملائكة، وحملت بعيسى من غير أب، ووضعته تحت النخلة، وتكلم في المهد مدافعاً عن أمه.

ب. عيسى عليه السلام عبد الله، ونبي، ورسول إلى بني إسرائيل، ومن أولي العزم، وصاحب كتاب ﴿الْإِنْجِيلَ﴾، وكلمة من الله، وروح منه، ومبارك، وزكي، وبر بوالدته، ومسلم عليه.

ج. القرآن ينفي عنه ما نسبته النصارى من البنوة والألوهية، ويقرر أنه بشر مخلوق يأكل الطعام ويمشي في الأسواق.

د. القرآن يحتج على النصارى بطريقتين: الأولى (عامة) ببيان استحالة البنوة على الله، والثانية

﴿خَاصَّةً﴾ ببيان أن عيسى بشر مخلوق، والأدلة على بشريته: أكله وشربه، وعبادته لله، ودعوته الناس إلى عبادة الله.

هـ. القرآن يثبت الشفاعة لعيسى يوم القيامة، وينفي الفداء (الذي تعتقده النصارى) لأنه يبطل سلطنة الله المطلقة، والشفاعة غير الفداء.

و. عقائد النصارى (كالتثليث والبنوة والفداء) لم يأت بها المسيح، بل نشأت من اتباع رؤسائهم، وموافقة للوثنيين السابقين.

ز. القرآن يذكر التوراة والإنجيل ككتب منزلة، ويشير إلى أن بعض الحق منها موجود في كتبهم الحاضرة.

٩. وضع هنا مبحثا حول [التوراة والإنجيل: التاريخ، التحريف، ونشأة العقائد النصرانية]، خلاصته:

أ. التوراة الحاضرة فقدت في زمن بختنصر، ثم جمعها عزرا بعد خمسين سنة، وسندها مقطوع غير متصل بموسى عليه السلام.

ب. اليهود لم يذكروا المسيح في كتبهم، وادعوا قتله، والقرآن ينفي ذلك ويقول إنه رفع إلى الله.

ج. الأناجيل الأربعة الحاضرة كتبت بعد المسيح بفترة طويلة، وأصولها العبرانية مفقودة، ومترجموها مجهولون، ولا حجية لها.

د. عقيدة التثليث والصلب والفداء كانت موجودة في وثنية الهند ومصر والفرس وغيرهم، وانتقلت إلى النصرانية عبر التأثر بالوثنية.

هـ. النصرانية تطورت عبر المجامع الكنسية (نيقية وغيرها)، وانشعبت إلى كاثوليك وأرثوذكس وبروتستانت.

و. الكنيسة في القرون الوسطى وصلت إلى أوج سلطانها، لكنها وقعت في تحريفات وخرافات عن الإسلام والمسلمين.

ز. التيار المادي والشيوعي أدى إلى انهيار الأخلاق الدينية، وظهرت المدنية البوليسية التي تهدد الإنسانية بالفناء.

١٠. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللّٰهُ الْكِتَابَ﴾ [آل عمران: ٧٩] الآية: إن عيسى لم يقل للناس: (إني خلقتكم فكونوا عباداً لي من دون الله)، ولكن قال لهم: كونوا ربانيين، أي علماء.

• أقول: وقد مر في البيان السابق ما يؤيده من القرائن، وقوله: (لم يقل للناس: إني خلقتكم) بمنزلة الاحتجاج على عدم قوله ذلك، أي لو كان قال لهم ذلك لوجب أن يخبرهم بأنه خلقهم، ولم يخبر ولم يفعل.

ب. وفيه أيضاً في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾ [آل عمران: ٨٠]، قال: كان قوم يعبدون الملائكة، وقوم من النصارى زعموا أن عيسى رب، واليهود قالوا: عزير ابن الله، فقال الله: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾

• أقول: وقد تقدم بيانه.

ج. وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال: قال أبو رافع القرظي حين اجتمعت الأحبار من اليهود والنصارى من أهل نجران عند رسول الله ﷺ، ودعاهم إلى الإسلام: أتريد يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى بن مريم؟ فقال رجل من أهل نجران نصراني يقال له الرئيس: أو ذاك تريد منا يا محمد؟ فقال رسول الله ﷺ: معاذ الله أن نعبد غير الله، أو نأمر بعبادة غيره، ما بذلك بعثني ولا بذلك أمرني، فأنزل الله من قولهما: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللّٰهُ الْكِتَابَ﴾ إلى قوله: ﴿بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٨٠]

د. وفيه أيضاً وأخرج عبد بن حميد عن الحسن قال: بلغني أن رجلاً قال: يا رسول الله، نسلم عليك كما يسلم بعضنا على بعض، أفلا نسجد لك؟ قال: لا، ولكن أكرموا نبيكم، واعرفوا الحق لأهله، فإنه لا ينبغي أن يسجد لأحد من دون الله، فأنزل الله: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللّٰهُ الْكِتَابَ﴾ إلى قوله: ﴿بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾

• أقول: وقد روي في سبب النزول غير هذين السببين، والظاهر أن ذلك من الاستنباط النظري؛ وقد تقدم تفصيل الكلام في ذلك، ومن الممكن أن تجتمع عدة أسباب في نزول آية، والله أعلم.

٤٠. ميثاق الله على الأنبياء بالإيمان والتصديق بجميع الرسل:أأأ

المقطع [٤٠] من سورة آل عمران، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللّٰهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا

آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ٨١ـ٨٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٣/ ٣٣٢»:

١. ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾:

أ. الآية تنبئ عن ميثاق مأخوذ، وقد أخذ الله هذا الميثاق للنبيين كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ﴾ الآية كما أنه تعالى أخذه من النبيين على ما يدل عليه قوله: ﴿أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي﴾ الآية، وقوله بعد: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللهِ﴾ إلى آخر الآية فالميثاق ميثاق مأخوذ للنبيين ومأخوذ منهم وإن كان مأخوذا من غيرهم أيضا بواسطتهم.

ب. على هذا فمن الجائز أن يراد بقوله تعالى: ﴿مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾ الميثاق المأخوذ منهم أو المأخوذ لهم والميثاق واحد، وبعبارة أخرى يجوز أن يراد بالنبيين، المأخوذ لهم الميثاق والمأخوذ منهم الميثاق إلا أن سياق قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ﴾ إلى آخر الآيتين في اتصاله بهذه الآية يؤيد كون المراد بالنبيين هم الذين أخذ منهم الميثاق فإن وحدة السياق تعطي أن المراد: أن النبيين بعدما آتاهم الله الكتاب والحكم والنبوة لا يتأتى لهم أن يدعو إلى الشريك وكيف يتأتى لهم ذلك؟ وقد أخذ منهم الميثاق على الإيمان والنصرة لغيرهم من النبيين الذين يدعون إلى توحيد الله سبحانه، فالأنسب أن يبدأ بذكر الميثاق من حيث أخذه من النبيين.

٢. ﴿لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾ القراءة المشهورة، وهي قراءة غير حمزة بفتح اللام والتخفيف في ﴿لَمَا﴾ وعليها فما موصولة وآتيتكم،، وقرأ آتيناكم، صلته، والضمير محذوف، يدل عليه قوله: ﴿مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾، والموصول مبتدأ خبره قوله: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ﴾ الآية واللام في لما ابتدائية، وفي لتؤمنن به لام القسم، والمجموع بيان للميثاق المأخوذ، والمعنى: للذي آتيتكموه من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم آمنتم به ونصرتموه البتة، ويمكن أن يكون ما شرطية وجزاؤها قوله ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ﴾، والمعنى مهما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه، وهذا أحسن لأن دخول اللام المحذوف قسمها في الجزاء أشهر، والمعنى عليه أسلس وأوضح، والشرط في موارد

المواثيق أعرف، وأما قراءة كسر اللام في (لما) فاللام فيها للتعليل وما موصولة، والترجيح لقراءة الفتح.

٣. الخطاب في قوله: ﴿آتَيْتُكُمْ﴾، وقوله: ﴿جَاءَكُمْ﴾، وإن كان بحسب النظر البدوي للنبيين لكن قوله بعد: ﴿أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي﴾، قرينة على أن الخطاب للنبيين وأممهم جميعا أي أن الخطاب مختص بهم وحكمه شامل لهم ولأممهم جميعا فعلى الأمم أن يؤمنوا وينصروا كما على النبيين أن يؤمنوا وينصروا.

٤. ظاهر قوله: ﴿ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ﴾، التراخي الزماني أي إن على النبي السابق أن يؤمن وينصر النبي اللاحق، وأما ما يظهر من قوله: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللهِ﴾ الآية أن الميثاق مأخوذ من كل من السابق واللاحق للآخر، وأن على اللاحق أن يؤمن وينصر السابق كالعكس فإنما هو أمر يشعر به فحوى الخطاب دون لفظ الآية كما سيجيء إن شاء الله العزيز.

٥. ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾، الضمير الأول وإن كان من الجائز أن يرجع إلى الرسول كالضمير الثاني إذ لا ضير في إيمان نبي لنبي آخر، قال تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ الآية، لكن الظاهر من قوله: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ الآية، رجوعه إلى ما أوتوا من كتاب وحكمة، ورجوع الضمير الثاني إلى الرسول، والمعنى لتؤمنن بما آتيتكم من كتاب وحكمة ولتنصرن الرسول الذي جاءكم مصدقا لما معكم.

٦. ﴿قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا﴾، الاستفهام للتقرير، والإقرار معروف، والإصر، هو العهد، وهو مفعول أخذتم، وأخذ العهد يستلزم مأخوذا منه غير الأخذ وليس إلا أمم الأنبياء، فالمعنى أأقررتم أنتم بالميثاق، وأخذتم على ذلكم عهدي من أممكم قالوا: أقررنا، وقيل: المراد بأخذ العهد قبول الأنبياء ذلك لأنفسهم فيكون قوله: ﴿وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي﴾ عطف بيان لقوله ﴿أَقْرَرْتُمْ﴾، ويؤيده قوله: ﴿قَالُوا أَقْرَرْنَا﴾ من غير أن يذكر الأخذ في الجواب، وعلى هذا يكون الميثاق لا يتعدى الأنبياء إلى غيرهم من الأمم ويبعده قوله: ﴿قَالَ فَاشْهَدُوا﴾، لظهور الشهادة في أنها على الغير، وكذا قوله بعد: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللهِ﴾ الآية من غير أن يقول: قل آمنت فإن ظاهره أنه إيمان من رسول الله ﷺ من قبل نفسه وأمته إلا أن يقال: إن اشتراك الأمم مع الأنبياء إنما يستفاد من هاتين الجملتين: أعني قوله: ﴿فَاشْهَدُوا﴾، وقوله: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللهِ﴾، من غير أن يفيد قوله: ﴿وَأَخَذْتُمْ﴾، في ذلك شيئا.

٧. ﴿قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾، ظاهر الشهادة كما مر أن يكون على الغير فهي شهادة من الأنبياء وأممهم جميعا، ويشهد لذلك كما مر قوله: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللهِ﴾، ويشهد لذلك السياق أيضا، فإن الآيات مسوقة للاحتجاج على أهل الكتاب في تركهم إجابة دعوة رسول الله ﷺ كما أنها تحتج عليهم في ما نسبوه إلى عيسى وموسى عليه السلام وغيرهما كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ﴾، وغيره، وربما يقال: إن المراد بقوله: ﴿فَاشْهَدُوا﴾، شهادة بعض الأنبياء على بعض كما ربما يقال: إن المخاطبين بقوله: ﴿فَاشْهَدُوا﴾، هم الملائكة دون الأنبياء، والمعنيان وإن كانا جائزين في نفسهما غير أن اللفظ غير ظاهر في شيء منهما بغير قرينة، وقد عرفت أن القرينة على الخلاف.

٨. من اللطائف الواقعة في الآية أن الميثاق مأخوذ من النبيين للرسل على ما يعطيه قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾، إلى قوله:، ﴿ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ﴾، وقد مر في ذيل قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ الآية، الفرق بين النبوة والرسالة وأن الرسول أخص مصداقا من النبي، فعلى ظاهر ما يفيده اللفظ يكون الميثاق مأخوذا من مقام النبوة لمقام الرسالة من غير دلالة على العكس، وبذلك يمكن المناقشة فيما ذكر بعضهم أن المحصل من معنى الآية أن الميثاق مأخوذ من عامة النبيين أن يصدق بعضهم بعضا، ويأمر بعضهم بالإيمان ببعض، أي إن الدين واحد يدعو إليه جميع الأنبياء، وهو ظاهر، فمحصل معنى الآية على ما مر: أن الله أخذ الميثاق من الأنبياء وأممهم أن لو آتاهم الله الكتاب والحكمة وجاءهم رسول مصدق لما معهم ليؤمنن بما آتاهم وينصرن الرسول وذلك من الأنبياء تصديق من المتأخر للمتقدم والمعاصر، وبشارة من المتقدم بالمتأخر وتوصية الأمة، ومن الأمة الإيمان والتصديق والنصرة، ولازم ذلك وحدة الدين الإلهي.

٩. ما ذكره بعض المفسرين أن المراد بالآية أن الله أخذ الميثاق من النبيين أن يصدقوا محمدا ﷺ، ويبشروا أممهم بمبعثه، فهو وإن كان صحيحا إلا أنه أمر يدل عليه سياق الآيات كما مرت الإشارة إليه دون الآية في نفسها لعموم اللفظ، بل من حيث وقوع الآية ضمن الاحتجاج على أهل الكتاب ولومهم وعتابهم على انكبابهم على تحريف كتبهم وكتمان آيات النبوة والعناد والعتو مع صريح الحق.

١٠. ﴿فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ﴾ الآية تأكيد للميثاق المأخوذ المذكور، والمعنى واضح.

١١. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع عن أمير المؤمنين عليه السلام: إن الله أخذ الميثاق على الأنبياء قبل نبينا أن يخبروا أممهم بمبعثه ونعته، ويبشروهم به ويأمروهم بتصديقه.

ب. وأخرج ابن جرير عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: لم يبعث الله نبياً آدم فمن بعده إلا أخذ عليه العهد في محمد، لئن بعث وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه، ويأمره فيأخذ العهد على قومه، ثم تلا: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾ [آل عمران: ٨١] الآية.

• أقول: والروايتان تفسران الآية بمجموع ما يدل عليه اللفظ والسياق كما مر.

ج. في المجمع والجوامع عن الصادق عليه السلام في الآية معناه: وإذ أخذ الله ميثاق أمم النبيين، كل أمة بتصديق نبيها والعمل بما جاءهم به، فما وفوا به، وتركوا كثيراً من شرائعهم، وحرفوا كثيراً.

• أقول: وما ذكر في الرواية من قبيل ذكر المصداق المنطبقة عليه الآية، فلا ينافي شمول المراد بالآية الأنبياء وأممهم جميعاً.

د. وفي المجمع أيضاً عن أمير المؤمنين عليه السلام في قوله تعالى: ﴿أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ﴾ [آل عمران: ٨١]، قال: أأقررتم وأخذتم العهد بذلك على أممكم؟ قالوا الأنبياء وأممهم: أقررنا بما أمرتنا بالإقرار به، قال الله: ﴿فَاشْهَدُوا﴾ بذلك على أممكم، وأنا معكم من الشاهدين عليكم وعلى أممكم.

هـ. وأخرج ابن جرير عن علي بن أبي طالب في قوله: ﴿قَالَ فَاشْهَدُوا﴾ يقول: فاشهدوا على أممكم بذلك، وأنا معكم من الشاهدين عليكم وعليهم، فمن تولى عنك يا محمد بعد هذا العهد من جميع الأمم، فأولئك هم الفاسقون، هم العاصون في الكفر.

• أقول: وقد مر توجيه معنى الرواية.

و. وفي تفسير القمي عن الصادق عليه السلام: قال لهم في الذر: أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري، أي عهدي، قالوا: أقررنا، قال الله للملائكة: فاشهدوا.

• أقول: لفظ الآية لا يأباه، وإن كان لا يستفاد من ظاهره كما تقدم.

٤١. الإسلام دين الله الواحد وإيمان المؤمنين بجميع الكتب والرسل:

المقطع [٤١] من سورة آل عمران، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ قُلْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ

وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٣-٨٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٣/ ٣٣٦»:

١. ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ﴾، تفريع على الآية السابقة المتضمنة لأخذ ميثاق النبيين، والمعنى فإذا كان دين الله واحدا وهو الذي أخذ عليه الميثاق من عامة النبيين وأممهم وكان على المتقدم من الأنبياء والأمم أن يبشروا بالرسول المتأخر ويؤمنوا بما عنده ويصدقوه فماذا يقصده هؤلاء معاشر أهل الكتاب وقد كفروا بك وظاهر حالهم أنهم يبغون الدين فهل يبغون غير الإسلام الذي هو دين الله الوحيد؟ ولذلك لا يصدقونك ولا يتمسكون بدين الإسلام مع أنه كان يجب عليهم الاعتصام بالإسلام لأنه الدين الذي يبتني على الفطرة، وكذلك يجب أن يكون الدين، والدليل عليه أن من في السماوات والأرض من أولي العقل والشعور مسلمون لله في مقام التكوين فيجب أن يسلموا عليه في مقام التشريع.

٢. ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾:

أ. هذا الإسلام الذي يعم من في السماوات والأرض ومنهم أهل الكتاب الذين يذكر أنهم غير مسلمين، ولفظ أسلم صيغة ماض ظاهره المضي والتحقق لا محالة وهو التسليم التكويني لأمر الله دون الإسلام بمعنى الخضوع العبودي، ويؤيده أو يدل عليه قوله ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾، وعلى هذا فقوله: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ﴾، من قبيل الاكتفاء بذكر الدليل والسبب عن ذكر المدلول والمسبب، وتقدير الكلام: أفغير الإسلام يبغون؟ وهو دين الله لأن من في السماوات والأرض مسلمون له منقادون لأمره، فإن رضوا به كان انقيادهم طوعا من أنفسهم، وإن كرهوا ما شاءه وأرادوا غيره كان الأمر أمره وجرى عليهم كرها من غير طوع.

ب. من هنا يظهر أن الواو في قوله: ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾، للتقسيم، وأن المراد بالطوع والكره رضاهم بما أراد الله فيهم مما يحبونه، وكراهتهم لما أراده فيهم مما لا يحبونه كالموت والفقر والمرض ونحوها.

٣. ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ هذا سبب آخر لوجوب ابتغاء الإسلام دينا فإن مرجعهم إلى الله مولاهم الحق لا إلى ما يهديهم إليه كفرهم وشركهم.

٤. ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾، أمر النبي أن يجري على الميثاق الذي أخذ منه ومن غيره فيقول

عن نفسه وعن المؤمنين من أمته: ﴿آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾ الآية.، وهذا من الشواهد على أن الميثاق مأخوذ من الأنبياء وأممهم جميعا كما مرت الإشارة إليه آنفا.

٥. ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ إلى آخر الآية، هؤلاء المذكورون بأسمائهم هم الأنبياء من آل إبراهيم، ولا تخلو الآية من إشعار بأن المراد بالأسباط هم الأنبياء من ذرية يعقوب أو من أسباط بني إسرائيل كداود وسليمان ويونس وأيوب وغيرهم.

٦. ﴿وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾، تعميم للكلام ليشمل آدم ونوحا ومن دونهما، ثم جمع الجميع بقوله: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾

٧. ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ الآية نفي لغير مورد الإثبات من الميثاق المأخوذ، وفيه تأكيد لوجوب الجري على الميثاق.

٨. أحاديث وآثار:

أ. في الدر المنثور في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]، أخرج أحمد والطبراني في الأوسط عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: تجيء الأعمال يوم القيامة، فتجيء الصلاة فتقول: يا رب، أنا الصلاة، فيقول: إنك على خير، وتجيء الصدقة فتقول: يا رب، أنا الصدقة، فيقول: إنك على خير، ثم يجيء الصيام فيقول: أنا الصيام، فيقول: إنك على خير، ثم تجيء الأعمال، كل ذلك يقول الله: إنك على خير، بك اليوم آخذ وبك أعطي، قال الله في كتابه: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾

ب. وفي التوحيد وتفسير العياشي في الآية عن الصادق عليه السلام: هو توحيدهم لله عز وجل.

• أقول: التوحيد المذكور يلازم التسليم في جميع ما يريده الله تعالى من عباده، فيرجع إلى المعنى الذي قدمناه في البيان، ولو أريد به مجرد نفي الشريك، كان الطوع والكره هما الدلالة الاختيارية والاضطرارية.

• واعلم أن ههنا عدة روايات أخر رواها العياشي والقمي في تفسيريهما وغيرهما في معنى قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾ الآية، وفيها: (لتؤمنن برسول الله، ولتنصرن أمير المؤمنين) عليهما الصلاة والسلام، وظاهرها تفسير الآية بإرجاع ضمير (لتؤمنن به) إلى رسول الله ﷺ، وضمير (ولتنصرنه) إلى أمير

المؤمنين عليه السلام من غير دليل يدل عليه من اللفظ.

• لكن في ما رواه العياشي ما رواه عن سلام بن المستنير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لقد تسموا باسم ما سمى الله به أحداً إلا علي بن أبي طالب، وما جاء تأويله، قلت: جعلت فداك، متى يجيء تأويله؟ قال: إذا جاء جمع الله أمامه النبيين والمؤمنين حتى ينصروه، وهو قول الله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١]

• وبذلك يهون أمر الإشكال؛ فإنه إنما يرد لو كانت الروايات واردة مورد التفسير، وأما التأويل، فقد عرفت أنه ليس من قبيل المعنى، ولا مرتبطاً باللفظ في ما تقدم من تفسير قوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ [آل عمران: ٧] الآية.

٤٢. عاقبة الكفر بعد الإيمان والبينات ولعن الكافرين المصرين:

المقطع [٤٢] من سورة آل عمران، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٨٦-٨٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٣/ ٣٤٠»:

١. ﴿وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ﴾:

أ. إن كان المراد بهم أهل الكتاب فشهادتهم هو مشاهدتهم أن آيات النبوة التي عندهم منطبقة على رسول الله ﷺ كما يفيده قوله: ﴿وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾

ب. وإن كان المراد بهم أهل الردة من المسلمين فشهادتهم هي إقرارهم بالرسالة لا إقرارا صوريا مبنيا على الجهالة والحمية ونحوهما بل إقرارا مستندا إلى ظهور الأمر كما يفيده قوله: ﴿وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾

ج. وكيف كان الأمر فانضمام قوله: ﴿وَشَهِدُوا﴾ الآية إلى أول الكلام يفيد أن المراد بالكفر هو الكفر بعد ظهور الحق وتمام الحجة فيكون كفرا عن عناد مع الحق ولجاج مع أهله وهو البغي بغير الحق والظلم الذي لا يهتدي صاحبه إلى النجاة والفلاح.

د. قيل في قوله: ﴿وَشَهِدُوا﴾ الآية إنه معطوف على قوله: ﴿إِيمَانِهِمْ﴾ لما فيه من معنى الفعل،

والتقدير كفروا بعد أن آمنوا وشهدوا (إلخ) أو أن الواو للحال، والجملة حالية بتقدير (قد)

٢. ﴿أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾، قد مر الكلام في معنى عود جميع اللعنة عليهم في تفسير قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾

٣. ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾ الآية أي دخلوا في الصلاح، والمراد به كون توبتهم نصوحا تغسل عنهم درن الكفر وتطهر باطنهم بالإيمان، وأما الإتيان بالأعمال الصالحة فهو وإن كان مما يتفرع على ذلك ويلزمه غير أنه ليس بمقوم لهذه التوبة ولا ركنا منها، ولا في الآية دلالة عليه.

٤. في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وضع العلة موضع المعلول والتقدير فيغفر الله له ويرحمه فإن الله غفور رحيم.

٥. أحاديث وآثار:

أ. أخرج ابن إسحاق وابن المنذر عن ابن عباس: أن الحارث بن سويد قتل المجدر بن زياد وقيس بن زيد أحد بني ضبيعة يوم أحد، ثم لحق بقريش فكان بمكة، ثم بعث إلى أخيه الجلاس يطلب التوبة ليرجع إلى قومه، فأنزل الله فيه: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْمًا﴾ إلى آخر القصة.

• أقول: ورويت القصة بطرق أخرى، وفيها اختلافات، ومن جملتها ما رواه عن عكرمة: أنها نزلت في أبي عامر الراهب والحارث بن سويد بن الصامت ووحوح بن الأسلت في اثني عشر رجلاً رجعوا عن الإسلام ولحقوا بقريش، ثم كتبوا إلى أهليهم: هل لنا من توبة؟ فنزلت: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ [آل عمران: ٨٩] الآيات.

ب. في المجمع في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْمًا﴾ [آل عمران: ٨٦] الآية: قيل نزلت الآيات في رجل من الأنصار يقال له حارث بن سويد بن الصامت، وكان قتل المجدر بن زياد البلوي غدراً، وهرب وارتد عن الإسلام، ولحق بمكة، ثم ندم فأرسل إلى قومه أن يسألوا رسول الله ﷺ: هل لي من توبة؟ فسألوا فنزلت الآية إلى قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ [آل عمران: ٨٩]، فحملها إليه رجل من قومه، فقال: إني لأعلم أنك لصدوق، ورسول الله أصدق منك، وإن الله أصدق الثلاثة، ورجع إلى المدينة وتاب وحسن إسلامه، عن مجاهد والسدي، وهو المروي عن أبي عبد الله عليه السلام.

٤٣. عدم قبول توبة من ازداد كفراً وعدم قبول الفداء منهم:

المقطع [٤٣] من سورة آل عمران، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [آل عمران: ٩٠-٩١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٣/ ٣٤٢»:

١. ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا﴾ إلى آخر الآيتين:

أ. تعليل لما يشتمل عليه قوله أولا، ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا﴾ الآية، وهو من قبيل التعليل بتطبيق الكلي العام على الفرد الخاص، والمعنى أن الذي يكفر بعد ظهور الحق وتمام الحجة عليه، ولا يتوب بعده توبة مصلحة إنما هو أحد رجلين:

• إما كافر يكفر ثم يزيد كفرا فيطغى، ولا سبيل للصلاح إليه فهذا لا يهديه الله ولا يقبل توبته لأنه لا يرجع بالحقيقة بل هو منغمر في الضلال، ولا مطمع في اهتدائه.

• وإما كافر يموت على كفره وعناده من غير توبة يتوبها فلا يهديه الله في الآخرة بأن يدخله الجنة إذ لم يرجع إلى ربه ولا بدل لذلك حتى يفتدي به، ولا شفيع ولا ناصر حتى يشفع له أو ينصره.

ب. من هنا يظهر أن قوله: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾ باشتماله على اسمية الجملة، والإشارة البعيدة في أولئك، وضمير الفصل، والاسمية واللام في الخبر يدل على تأكد الضلال فيهم بحيث لا ترجى هدايتهم.

ج. وكذا يظهر أن المراد بقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ نفي انتفاعهم بالشفعاء الذين هم الناصرون يوم القيامة فإن الإتيان بصيغة الجمع يدل على تحقق ناصرين يوم القيامة كما مر نظيره في الاستدلال على الشفاعة بقوله تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ الآية في مبحث الشفاعة.

٢. اشتملت الآية الثانية على ذكر نفي الفداء والناصرين لكونهما كالبدل، والبدل إنما يكون من فائت يفوت الإنسان وقد فاتتهم التوبة في الدنيا ولا بدل لها يحل محلها في الآخرة، ومن هنا يظهر أن قوله: ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ في معنى: وفاتتهم التوبة فلا ينتقض هذا البيان الظاهر في الحصر بما ذكره الله تعالى في قوله: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا

الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ فإن المراد بحضور الموت ظهور آثار الآخرة وانقطاع الدنيا وتفوت عند ذلك التوبة.

٣. الملء في قوله: ﴿مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا﴾ مقدار ما يسعه الإناء من شيء فاعتبر الأرض إناء يملؤه الذهب فالجملة من قبيل الاستعارة التخييلية والاستعارة بالكناية.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا﴾ [آل عمران: ٩٠] الآية، أنها نزلت في أحد عشر من أصحاب الحارث بن سويد، لما رجع الحارث قالوا: نقيم بمكة على الكفر ما بدا لنا، فمتى ما أردنا الرجعة رجعنا، فينزل فينا ما نزل في الحارث، فلما افتتح رسول الله ﷺ مكة، دخل في الإسلام من دخل منهم، فقبلت توبته، فنزل فيمن مات منهم كافراً: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [آل عمران: ٩١] الآية، نسبها إلى بعضهم.

ب. وقيل إنها نزلت في أهل الكتاب، وقيل: إن قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا﴾ الآية نزلت في اليهود خاصة، حيث آمنوا ثم كفروا بعيسى، ثم ازدادوا كفراً بمحمد صلى الله عليه وآله وعليهما، وقيل غير ذلك.

• والتأمل في هذه الأقوال والروايات يعطي أن جميعها من الأنظار الاجتهادية من سلف المفسرين، كما تنبه له بعضهم.

• وأما الرواية عن الصادق عليه السلام فمرسلة ضعيفة على أن من الممكن أن يتعدد أسباب النزول في آية أو آيات، والله أعلم.

٤٤. البر الحقيقي والإنفاق من أحب المال إلى النفس:

المقطع [٤٤] من سورة آل عمران، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللهَّ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٩٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٣/ ٣٤٤»:

١. ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾:

أ. النيل هو الوصول، والبر هو التوسع في فعل الخير، قال الراغب: البر خلاف البحر، وتصور منه التوسع فاشتق منه البر أي التوسع في فعل الخير.

ب. مراده من فعل الخير أعم مما هو فعل القلب كالاعتقاد الحق والنية الطاهرة أو فعل الجوارح كالعبادة لله والإنفاق في سبيل الله تعالى، وقد اشتمل على القسمين جميعا قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ الآية، ومن انضمام الآية إلى قوله: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ﴾ الآية، يتبين أن المراد بها أن إنفاق المال على حبه، أحد أركان البر التي لا يتم إلا باجتماعها نعم جعل الإنفاق غاية لنيل البر لا يخلو عن العناية والاهتمام بأمر هذا الجزء بخصوصه لما في غريزة الإنسان من التعلق القلبي بما جمعه من المال، وعده كأنه جزء من نفسه إذا فقده فكأنه فقد جزء من حياة نفسه بخلاف سائر العبادات والأعمال التي لا يظهر معها فوت ولا زوال منه، ومن هنا يظهر ما في قول بعضهم إن البر هو الإنفاق مما تحبون، وكان هذا القائل جعلها من قبيل قول القائل: لا تنجو من ألم الجوع حتى تأكل، ونحو ذلك، لكنه محجوج بما مر من الآية.

ج. يتبين من آية البقرة المذكورة أيضا أن المراد بالبر هو ظاهر معناه اللغوي أعني التوسع في الخير فإنها بينته بمجامع الخيرات الاعتقادية والعملية، ومنه يظهر ما في قول بعضهم: إن المراد بالبر هو إحسان الله وإنعامه، وما في قول آخرين: إن المراد به الجنة.

٢. ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾، تطييب لنفوس المنفقين أن ما ينفقونه من المال المحبوب عندهم لا يذهب مهدورا من غير أجر فإن الله الذي يأمرهم به عليم بإنفاقهم وما ينفقونه.

٤٥. كشف افتراء بني إسرائيل بتحريم ما كان حلالاً:

المقطع [٤٥] من سورة آل عمران، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [آل عمران: ٩٣-٩٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٣/ ٣٤٦»:

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. الطعام كل ما يطعم ويتغذى به، وكان يطلق عند أهل الحجاز على البر خاصة وينصرف إليه

عندهم لدى الإطلاق.

ب. الحل مقابل الحرمة، وكأنه مأخوذ من الحل مقابل العقد والعقل فيفيد معنى الإطلاق.

ج. إسرائيل هو يعقوب النبي عليه السلام سمي به لأنه كان مجاهدا في الله مظفرا به، ويقول أهل الكتاب: إن معناه المظفر الغالب على الله سبحانه لأنه صارع الله في موضع يسمى فنيئيل فغلبه (على ما في التوراة) وهو مما يكذبه القرآن ويحيله العقل.

٢. ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ استثناء من الطعام المذكور آنفا، ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ﴾ متعلق بكان في الجملة الأولى، والمعنى لم يحرم الله قبل نزول التوراة شيئا من الطعام على بني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه.

٣. في قوله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، دلالة على أنهم كانوا ينكرون ذلك، أعني حلية كل الطعام عليهم قبل التوراة، ويدل عليه أنهم كانوا ينكرون النسخ في الشرائع ويحيلون ذلك كما مر ذكره في ذيل قوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا﴾ الآية، فهم كانوا ينكرون بالطبع قوله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾

٤. وكذا يدل قوله تعالى بعد: ﴿قُلْ صَدَقَ اللهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾، أنهم كانوا يجعلون ما ينكرونه (من حلية كل الطعام عليهم قبل التوراة، وكون التحريم إنما نزل عليهم لظلمهم بنسخ الحل بالحرمة) وسيلة إلى إلقاء الشبهة على المسلمين، والاعتراض على ما كان يخبر به رسول الله ﷺ عن ربه أن دينه هو ملة إبراهيم الحنيف، وهي ملة فطرية لا إفراط فيها ولا تفريط، كيف؟ وهم كانوا يقولون: إن إبراهيم كان يهوديا على شريعة التوراة، فكيف يمكن أن تشتمل ملته على حلية ما حرمتها التوراة، والنسخ غير جائز؟

٥. فقد تبين أن الآية إنما تتعرض لدفع شبهة أوردتها اليهود، ويظهر من عدم تعرض الآية لنقل الشبهة عنهم كما يجري عليه القرآن في غالب الموارد كقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ﴾، وقوله: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾، وقوله: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة، وكذا قوله تعالى بعد عدة آيات: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ﴾، إلى أن قال ـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ الآيات.

٦. بالجملة يظهر من ذلك أنها كانت شبهة تلقيها اليهود لا على رسول الله ﷺ بل على المؤمنين في ضمن ما كانوا يتلاقون ويتحاورون، وحاصلها: أنه كيف يكون النبي صادقا وهو يخبر بالنسخ، وأن الله إنما حرم الطيبات على بني إسرائيل لظلمهم، وهذا نسخ لحل سابق لا يجوز على الله سبحانه بل المحرمات محرمة دائما من غير إمكان تغيير لحكم الله، وحاصل الجواب من النبي ﷺ بتعليم من الله تعالى: أن التوراة ناطقة بكون كل الطعام حلا قبل نزولها فأتوا بالتوراة واتلوها إن كنتم صادقين في قولكم، وهو قوله تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ إلى قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، فإن أبيتم الإتيان بالتوراة وتلاوتها فاعترفوا بأنكم المفترون على الله الكذب وأنكم الظالمون، وذلك قوله تعالى: ﴿فَمَنِ افْتَرَى﴾، إلى قوله: ﴿الظَّالِمُونَ﴾، وقد تبين بذلك أني صادق في دعوتي فاتبعوا ملتي وهي ملة إبراهيم حنيفا، وذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ اللهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ إلى آخر الآية.

٧. للمفسرين في توضيح معنى الآية بيانات مختلفة لكنهم على أي حال ذكروا أن الآية متعرضة لبيان شبهة أوردتها اليهود مرتبطة بالنسخ كما مر، وأعجب ما قيل في المقام:

أ. ما ذكره بعضهم: أن الآية متعرضة لجواب شبهة أوردتها اليهود في النسخ، وتقريرها: أن اليهود كأنها قالت: إذا كنت يا محمد على ملة إبراهيم والنبيين بعده، كما تدعي، فكيف تستحل ما كان محرما عليه وعليهم كلحم الإبل؟ أما وقد استبحت ما كان محرما عليهم فلا ينبغي لك أن تدعي أنك مصدق لهم، وموافق في الدين، ولا أن تخص إبراهيم بالذكر فتقول: إني أولى به، ومحصل الجواب: أن كل الطعام كان حلا لعامة الناس، ومنهم بنو إسرائيل لكن بني إسرائيل حرموا أشياء على أنفسهم بما ارتكبوا من المعاصي، والسيئات كما قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ الآية، فالمراد بإسرائيل شعب إسرائيل كما هو مستعمل عندهم، لا يعقوب وحده، ومعنى تحريمهم ذلك على أنفسهم: أنهم ارتكبوا الظلم واجترحوا السيئات فكانت سببا للتحريم، وقوله: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ﴾ متعلق بقوله: ﴿حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ﴾، ولو كان المراد بقوله: إسرائيل هو يعقوب نفسه لكان قوله: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ﴾ لغوا زائدا من الكلام لبداهة أن يعقوب كان قبل التوراة زمانا فلا وجه لذكره، هذا محصل ما ذكره.

ب. وذكر بعض آخر نظير ما ذكره إلا أنه قال إن المراد من تحريم بني إسرائيل على أنفسهم تحريمهم ذلك تشريعا من عند أنفسهم من غير أن يستند إلى وحي من الله سبحانه إلى بعض أنبيائهم كما كانت عرب

الجاهلية تفعل ذلك على ما قصه الله تعالى في كتابه.

٨. وقد ارتكبا جميعا من التكلف ما لا يرتضيه ذو خبرة فأخرجا الكلام من مجراه:

أ. عمدة ما حملهما على ذلك حملهما قوله تعالى: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ﴾ على أنه متعلق بقوله: ﴿حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ﴾، مع كونه متعلقا بقوله: ﴿كَانَ حِلًّا﴾، في صدر الكلام وقوله: ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ﴾، استثناء معترض، ومن ذلك يظهر أن لا حاجة إلى أخذ إسرائيل بمعنى بني إسرائيل كما توهما مستندين إلى عدم استقامة المعنى دونه.

ب. على أن إطلاق إسرائيل وإرادة بني إسرائيل وإن كان جائزا على حد قولهم: بكر وتغلب ونزار وعدنان يريدون بني بكر وبني تغلب وبني نزار وبني عدنان لكنه في بني إسرائيل من حيث الوقوع استعمال غير معهود عند العرب في عهد النزول، ولا أن القرآن سلك هذا المسلك في هذه الكلمة (في غير هذا المورد الذي يدعيانه) مع أن بني إسرائيل مذكور فيه فيما يقرب من أربعين موضعا، ومن جملتها نفس هذه الآية: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ﴾، فما هو الفرق على قولهما بين الموضعين في الآية؟ حيث عبر عنهم أولا ببني إسرائيل، ثم أردف ذلك بقوله: ﴿إِسْرَائِيلَ﴾، مع أن المقام من أوضح مقامات الالتباس، وناهيك في ذلك أن الجم الغفير من المفسرين فهموا منه أن المراد به يعقوب لا بنوه.

ج. ومن أحسن الشواهد على أن المراد به يعقوب قوله تعالى: ﴿عَلَى نَفْسِهِ﴾ بإرجاع ضمير المفرد المذكر إلى إسرائيل ولو كان المراد به بني إسرائيل لكان من اللازم أن يقال: على نفسها أو على أنفسهم.

٩. ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي حتى يتبين أن أي الفريقين على الحق، أنا أم أنتم، وهذا إلقاء جواب منه تعالى على نبيه ﷺ.

١٠. ﴿فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾، ظاهره أنه كلام لله سبحانه يخاطب به نبيه ﷺ، وعلى هذا ففيه تطييب لنفس النبي ﷺ بأن أعداءه من اليهود هم الظالمون بعد هذا البيان لافترائهم الكذب على الله، وتعريض لليهود، والكلام يجري مجرى الكناية، وأما احتمال كون الكلام من تتمة كلام النبي ﷺ فلا يلائمه ظاهر إفراد خطاب الإشارة في قوله: ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾، وعلى هذا أيضا يجري الكلام مجرى الكناية والستر على الخصم المغلوب ليقع الكلام موقعه من القبول كما في

قوله تعالى: {إِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ}، والمشار إليه بذلك هو البيان والحجة.

١١. إنما قال: ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ مع أن المفتري ظالم على أي حال لأن الظلم لا يتحقق قبل التبين كما قيل، والقصر في قوله: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ قصر قلب على أي حال.

١٢. أحاديث وآثار: في الكافي، وتفسير العياشي، عن الصادق عليه السلام: أن إسرائيل كان إذا أكل لحم الإبل، هيج عليه وجع الخاصرة فحرم على نفسه لحم الإبل، وذلك قبل أن تنزل التوراة، فلما نزلت التوراة لم يحرمه ولم يأكله.

• أقول: وما يقرب منه مروي من طرق أهل السنة والجماعة، وقوله في الرواية: (لم يحرمه ولم يأكله) ضميرا الفاعل راجعان إلى موسى لدلالة المقام عليه، والمعنى لم يحرمه موسى ولم يأكله، ويحتمل أن يكون لم يأكله من التأكيل بمعنى التمكين من الأكل، ويظهر من التاج، أن التفعيل والمفاعلة فيه بمعنى واحد.

٤٦. اتباع ملة إبراهيم الحنيفية دين التوحيد الخالص:

المقطع [٤٦] من سورة آل عمران، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ اللهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٩٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٣/ ٣٤٩»:

١. ﴿قُلْ صَدَقَ اللهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ الآية أي فإذا كان الحق معي فيما أخبرتكم به ودعوتكم إليه فاتبعوا ديني واعترفوا بحلية لحم الإبل وغيره من الطيبات التي أحلها الله، وإنما كان حرمها عليكم عقوبة لاعتدائكم وظلمكم كما أخبر تعالى به.

٢. ﴿فَاتَّبِعُوا﴾ الآية كالكناية عن اتباع دينه، وإنما لم يذكره بعينه لأنهم كانوا معترفين بملة إبراهيم، ليكون إشارة إلى كون ما يدعو إليه من الدين حنيفا فطريا لأن الفطرة لا تمنع الإنسان من أكل الطيبات من اللحوم وسائر الرزق.

٤٧. البيت الحرام ومقام إبراهيم:

المقطع [٤٧] من سورة آل عمران، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٦-٩٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٣/ ٣٥٠»:

١. الآيتان جواب عن شبهة أخرى كانت اليهود توردها على المؤمنين من جهة النسخ، وهي ما

حدث في أمر القبلة بتحويلها من بيت المقدس إلى الكعبة، وقد مر في تفسير قوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ الآية أن تحويل القبلة كان من الأمور الهامة التي كانت له تأثيرات عميقة مادية ومعنوية في حياة أهل الكتابـ وخاصة اليهود، مضافا إلى كونه مخالفا لمذهبهم من النسخ، ولذلك طالت المشاجرات والمشاغبات بينهم وبين المسلمين بعد نزول حكم القبلة إلى أمد بعيد.

٢. سؤال وإشكال: المستفاد من الآية، ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ﴾ الآية، أنهم جمعوا في شبهتهم بين شبهة النسخ وبين انتساب الحكم إلى ملة إبراهيم فيكون محصل الشبهة: أن الكعبة كيف يمكن أن يكون قبلة في ملة إبراهيم مع أن الله جعل بيت المقدس قبلة، وهل هذا إلا القول بحكم نسخي في ملة إبراهيم الحقة مع كون النسخ محالا باطلا؟ والجواب: أن الكعبة موضوعة للعبادة قبل غيرها كبيت المقدس فلقد بناها إبراهيم من غير شك ووضعها للعبادة، وفيها آيات بينات تدل على ذلك كمقام إبراهيم، وأما بيت المقدس فبانيه سليمان وهو بعد إبراهيم بقرون.

٣. ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ إلى آخر الآية:

أ. البيت معروف، والمراد بوضع البيت للناس وضعه لعبادتهم وهو أن يجعلوه ذريعة يتوسل به إلى عبادة الله سبحانه، ويستعان به فيها بأن يعبد الله فيه، وبقصده والمسير إليه وغير ذلك، والدليل على ذلك ما يشتمل عليه الكلام من كونه مباركا وهدى للعالمين وغير ذلك، ويشعر به التعبير عن الكعبة بالذي ببكة فإن فيه تلويحا إلى ازدحام الناس عنده في الطواف والصلوة وغيرهما من العبادات والمناسك، وأما كونه أول بيت بني على الأرض ووضع لينتفع به الناس فلا دلالة على ذلك من جهة اللفظ.

ب. المراد ببكة أرض البيت سميت بكة لازدحام الناس فيها، وربما قيل إن بكة هي مكة، وأنه من تبديل الميم باء كما في قولهم لازم ولازب وراتم وراتب ونحو ذلك، وقيل: هو اسم للحرم، وقيل: المسجد، وقيل: المطاف.

ج. المباركة مفاعلة من البركة وهي الخير الكثير، فالمباركة إفاضة الخير الكثير عليه وجعله فيه، وهي وإن كانت تشمل البركات الدنيوية والأخروية، إلا أن ظاهر مقابلتها مع قوله: {هُدىً لِلْعالَمِينَ} أن المراد بها إفاضة البركات الدنيوية وعمدتها وفور الأرزاق وتوفر الهمم والدواعي إلى عمرانه بالحج إليه والحضور عنده والاحترام له وإكرامه فيئول المعنى إلى ما يتضمنه قوله تعالى في دعوة إبراهيم: ﴿رَبَّنَا إِنِّي

أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾

د. كونه هدى هو إراءته للناس سعادة آخرتهم، وإيصاله إياهم إلى الكرامة والقرب والزلفى بما وضعه الله للعبادة، وبما شرع عنده من أقسام الطاعات والنسك ولم يزل منذ بناه إبراهيم مقصدا للقاصدين ومعبدا للعابدين.

هـ. دل القرآن على أن الحج شرع أول ما شرع في زمن إبراهيم عليه السلام بعد الفراغ من بنائه، قال تعالى: ﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾، وقال: خطابا لإبراهيم: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾، والآية كما ترى تدل على أن هذا الأذان والدعوة سيقابل بتلبية عامة من الناس الأقربين والأبعدين من العشائر والقبائل، ودل أيضا على أن هذا الشعار الإلهي كان على استقراره ومعروفيته في زمن شعيب عند الناس كما حكاه الله عنه في قوله لموسى عليه السلام: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ﴾ ﴿أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ﴾، فقد أراد بالحج سنة وليس إلا لكون السنين تعد بالحج لتكررها بتكرره، وكذا في دعوة إبراهيم عليه السلام شيء كثير يدل على كون البيت لم يزل معمورا بالعبادة آية في الهداية (راجع سورة إبراهيم)

و. كان عرب الجاهلية يعظمونه ويأتون بالحج بعنوان أنه من شرع إبراهيم، وقد ذكر التاريخ أن سائر الناس أيضا كانوا يعظمونه، وهذا في نفسه نوع من الهداية لما فيه من التوجه إلى الله سبحانه وذكره، وأما بعد ظهور الإسلام فالأمر أوضح، وقد ملأ ذكره مشارق الأرض ومغاربها، وهو يعرض نفسه لأفهام الناس وقلوبهم بنفسه وبذكره، وفي عبادات المسلمين وطاعاتهم وقيامهم وقعودهم ومذابحهم وسائر شؤونهم، فهو هدى بجميع مراتب الهداية آخذة من الخطور الذهني إلى الانقطاع التام الذي لا يمسه إلا المطهرون من عباد الله المخلصين، على أنه يهدي عالم المسلمين إلى سعادتهم الدنيوية التي هي وحدة الكلمة وائتلاف الأمة وشهادة منافعهم، ويهدي عالم غيرهم بإيقاظهم وتنبيههم إلى ثمرات هذه الوحدة وائتلاف القوى المختلفة المتشتتة.

ز. ومن هنا يظهر:

• أولا: أنه هدى إلى سعادة الدنيا والآخرة كما أنه هدى بجميع مراتب الهداية، فالهداية مطلقة.

• ثانيا: أنه هدى للعالمين لا لعالم خاص وجماعة مخصوصة كآل إبراهيم أو العرب أو المسلمين وذلك لما فيه من سعة الهداية.

٤. ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾:

أ. الآيات وإن وصفت بالبينات، وأفاد ذلك تخصصا ما في الموصوف إلا أنها مع ذلك لا تخرج عن الإبهام، والمقام مقام بيان مزايا البيت ومفاخره التي بها يتقدم على غيره في الشرف ولا يناسب ذلك إلا الإتيان ببيان واضح، والوصف بما لا غبار عليه بالإبهام والإجمال، وهذا من الشواهد على كون قوله: ﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ﴾ إلى آخر الآية بيانا لقوله: ﴿آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾

ب. فالآيات هي: ﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾، وتقرير الأمن فيه، وإيجاب حجة على الناس المستطيعين، لكن لا كما يتراءى من بعض التفاسير من كون الجمل الثلاث بدلا أو عطف بيان من قوله: ﴿آيَاتٍ﴾ لوضوح أن ذلك يحتاج إلى رجوع الكلام بحسب التقدير إلى مثل قولنا: هي مقام إبراهيم، والأمن لمن دخله، وحجة لمن استطاع إليه سبيلا، وفي ذلك إرجاع قوله: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ﴾، سواء كان إنشاء أو إخبارا إلى المفرد بتقدير أن وإرجاع قوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ﴾، وهي جملة إنشائية إلى الخبرية ثم عطفه على الجملة السابقة وتأويلها إلى المفرد بذلك أو بتقدير أن فيها أيضا، وكل ذلك مما لا يساعد عليه الكلام البتة.

ج. وإنما سيقت هذه الجمل الثلاث أعني قوله: ﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ الآية، كل لغرض خاص من إخبار أو إنشاء حكم ثم تتبين بها الآيات فتعطي فائدة البيان كما يقال: فلان رجل شريف هو ابن فلان ويقري الضيف ويجب علينا أن نتبعه.

٥. ﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾:

أ. مبتدأ لخبر محذوف والتقدير فيه مقام إبراهيم، وهو الحجر الذي عليه أثر قدمي إبراهيم الخليل عليه السلام، وقد استفاض النقل بأن الحجر مدفون في المكان الذي يدعى اليوم بمقام إبراهيم على حافة المطاف حيال الملتزم، وقد أشار إليه أبو طالب عم النبي في قصيدته اللامية:

وموطئ إبراهيم في الصخر رطبة...على قدميه حافيا غير ناعل

ب. ربما يفهم من قوله: ﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ أن البيت أو في البيت موضع قيام إبراهيم بعبادة الله

سبحانه، ويمكن أن يكون تقدير الكلام: هي مقام إبراهيم والأمن والحج ثم وضع قوله: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ﴾، وقوله: ﴿وَللهِ عَلَى النَّاسِ﴾، وهما جملتان مشتملتان على حكم إنشائي موضع الخبرين، وهذا من أعاجيب أسلوب القرآن حيث يستخدم الكلام المسوق لغرض في سبيل غرض آخر فيضعه موضعه لينتقل منه إليه فيفيد فائدتين، ويحفظ الجهتين كحكاية الكلام في موضع الإخبار كقوله: ﴿كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾، وكما مر في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾ الآية، وقوله: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ﴾ الآية، وقد بينا النكتة في ذلك في تفسير الثانية، وكما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾، وكما في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ﴾ الآية، حيث وضع صاحب البر، مكان البر، وكما في قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ﴾ الآية ومثله غالب الأمثال الواردة في القرآن الكريم، وعلى هذا فوزان قوله: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾، إلى قوله: ﴿عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ في التردد بين الإنشاء والإخبار، وزان قوله: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾

ج. هذا الذي ذكرناه غير ما ذكره بعضهم من حديث البدلية، وإن كان بدلا ولا بد فالأولى جعل قوله: ﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ بدلا وجعل الجملتين التاليتين مستأنفتين دالتين على بدلين محذوفين، والتقدير فيه آيات بينات مقام إبراهيم وأمن الداخل وحج المستطيع للبيت، ولا ريب في كون كل واحد من هذه الأمور آية بينة دالة بوقوعها على الله سبحانه مذكرة لمقامه إذ ليست الآية إلا العلامة الدالة على الشيء بوجه، وأي علامة دالة عليه تعالى مذكرة لمقامه أعظم وأجلى في نظر أهل الدنيا من موقف إبراهيم ومن حرم آمن يأمن من دخله ومن مناسك وعبادات يأتي بها الألوف بعد الألوف من الناس تتكرر بتكرر السنين، ولا تنسخ بانتساخ الليالي والأيام.

د. أما كون كل آية أمرا خارقا للعادة ناقضا لسنة الطبيعة فليس من الواجب، ولا لفظ الآية بمفهومه يدل عليه، ولا استعماله في القرآن ينحصر فيه، قال تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا﴾ الآية، وهي تشمل الأحكام المنسوخة في الشرع قطعا، وقال تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾، إلى غير ذلك

من الآيات.

هـ. من هنا يظهر ما في إصرار بعض المفسرين على توجيه كون المقام آية خارقة، وكون الأمن والحج مذكورين لغير غرض بيان الآية، وكذا إصرار آخرين على أن المراد بالآيات البينات أمور أخر من خواص الكعبة (وقد أغمضنا عن ذكرها، ومن أرادها فليراجع بعض مطولات التفاسير) فإن ذلك مبني على كون المراد من الآيات الآيات المعجزة وخوارق العادة، ولا دليل على ذلك كما مر.

٦. الحق أن قوله: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾:

أ. مسوق لبيان حكم تشريعي لا خاصة تكوينية غير أن الظاهر أن يكون الجملة إخبارية يخبر بها عن تشريع سابق للأمن كما ربما استفيد ذلك من دعوة إبراهيم المذكورة في سورتي إبراهيم والبقرة وقد كان هذا الحق محفوظا للبيت قبل البعثة بين عرب الجاهلية ويتصل بزمن إبراهيم عليه السلام.

ب. أما كون المراد من حديث الأمن هو الإخبار بأن الفتن والحوادث العظام لا تقع ولا ينسحب ذيلها إلى الحرم فيدفعه وقوع ما وقع من الحروب والمقاتلات واختلال الأمن فيه، وخاصة ما وقع منها قبل نزول هذه الآية، وقوله تعالى ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾، لا يدل على أزيد من استقرار الأمن واستمراره في الحرم، وليس ذلك إلا لما يراه الناس من حرمة هذا البيت ووجوب تعظيمه الثابت في شريعة إبراهيم عليه السلام وينتهي بالأخرة إلى جعله سبحانه وتشريعه، وكذا ما وقع في دعاء إبراهيم المحكي في قوله تعالى: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾، وقوله: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾، حيث سأل الأمن لبلد مكة فأجابه الله بتشريع الأمن وسوق الناس سوقا قلبيا إلى تسليم ذلك وقبوله زمانا بعد زمان.

٧. وضع هنا مبحثا حول [الكعبة المشرفة: تاريخ البناء، الترميم، المنزلة، والولاية]، خلاصته:

أ. الكعبة بناها إبراهيم الخليل عليه السلام، وكان القاطنون حولها إسماعيل وجرهم، وشكلها مربع تقريباً.

ب. جدد بناءها العمالقة، ثم جرهم، ثم قصي بن كلاب في القرن الثاني قبل الهجرة، وسقفها بخشب الدوم وجذوع النخل.

ج. قبل البعثة بخمس سنين، هدم السيل الكعبة، وأعيد بناؤها، ووضع الحجر الأسود بيد النبي

ﷺ.

د. في عهد عبد الله بن الزبير، هدمت الكعبة وأعيد بناؤها، ثم أمر عبد الملك بن مروان بإرجاعها إلى شكل قريش.

هـ. شكل الكعبة: مربع تقريباً، ارتفاعها ١٦ متراً، وزواياها أربعة (عراقي، شامي، يماني، أسود)، والحجر الأسود في الركن الشرقي.

و. كسوة الكعبة: أول من كساها تبع أبو بكر أسعد، واستمرت الكسوة حتى اليوم، وأول من كساها من داخل أم العباس.

ز. الكعبة كانت معظمة عند الهنود، والصابئة، والفرس، واليهود، والنصارى، والعرب، وكانت العرب تعظمها وتعدها بيتاً لله.

ح. ولاية الكعبة: من إسماعيل إلى جرهم، ثم العماليق، ثم خزاعة، ثم قريش (على يد قصي بن كلاب)، ثم استقرت في قريش حتى الفتح.

ط. من خواص الكعبة أنها لم يختلف في شأنها أحد من طوائف الإسلام.

٨. أحاديث وآثار:

أ. أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق الشعبي عن علي بن أبي طالب في قوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ قال: كانت البيوت قبله، ولكنه كان أول بيت وضع لعبادة الله.

- أقول: ورواه أيضاً عن ابن جرير عن مطر مثله، والروايات في هذه المعاني كثيرة.

ب. وفي العلل عن الصادق عليه السلام: موضع البيت بكة، والقرية مكة.

ج. وفيه أيضاً عنه عليه السلام: إنما سميت بكة بكة، لأن الناس يبكون فيها.

- أقول: يعني يزدحمون.

د. وفيه عن الباقر عليه السلام: إنما سميت مكة بكة، لأنه يبك بها الرجال والنساء؛ المرأة تصلي بين يديك، وعن يمينك، وعن شمالك ومعك، ولا بأس بذلك، إنما يكره ذلك في سائر البلدان.

هـ. وفيه عن الباقر عليه السلام قال: لما أراد الله أن يخلق الأرض، أمر الرياح فضربن متن الماء حتى صار موجاً، ثم أزبد فصار زبداً واحداً، فجمعه في موضع البيت، ثم جعله جبلاً من زبد، ثم دحى الأرض

من تحته، وهو قول الله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ [آل عمران: ٩٦]، فأول بقعة خلقت من الأرض الكعبة، ثم مدت الأرض منها.

• أقول: والأخبار في دحو الأرض من تحت الكعبة كثيرة، وليست مخالفة الكتاب، ولا أن هناك برهاناً يدفع ذلك غير ما كانت تزعمه القدماء من علماء الطبيعة أن الأرض عنصر بسيط قديم، وقد بان بطلان هذا القول بما لا يحتاج إلى بيان، وهذا تفسير ما ورد من الروايات في أن الكعبة أول بيت (أي بقعة) في الأرض، وإن كان الظاهر من الآية ما تشتمل عليه الروايتان الأوليان.

و. وفي الكافي وتفسير العياشي عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ [آل عمران: ٩٧]، أنه سئل: ما هذه الآيات البينات؟ قال: مقام إبراهيم حيث قام على الحجر فأثرت فيه قدماه، والحجر الأسود، ومنزل إسماعيل.

• أقول: وفي هذا المعنى روايات أخر، ولعل ذكر هذه الأمور من باب العد، وإن لم تشتمل على بعضها الآية.

ز. وفي تفسير العياشي عن عبد الصمد قال: طلب أبو جعفر أن يشتري من أهل مكة بيوتهم ليزيد في المسجد، فأبوا، فأرغبهم فامتنعوا، فضاق بذلك، فأتى أبا عبد الله عليه السلام فقال له: إني سألت هؤلاء شيئاً من منازلهم وأفنيتهم لنزيد في المسجد، وقد منعوا في ذلك، فقد غمني غماً شديداً، فقال أبو عبد الله عليه السلام: لم يغمك ذلك، وحجتك عليهم فيه ظاهرة، فقال: وبما أحتج عليهم؟ فقال: بكتاب الله، فقال: في أي موضع؟ فقال: قول الله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ [آل عمران: ٩٦]، وقد أخبرك الله أن أول بيت وضع للناس هو الذي ببكة، فإن كانوا هم تولوا قبل البيت فلهم أفنيتهم، وإن كان البيت قديماً فيهم فله فناؤه، فدعاهم أبو جعفر فاحتج عليهم بهذا، فقالوا له: اصنع ما أحببت.

ح. وفيه عن الحسن بن علي بن النعمان قال: لما بنى المهدي في المسجد الحرام، بقيت دار في تربيع المسجد، فطلبها من أربابها فامتنعوا، فسأل عن ذلك الفقهاء، فكل قال له: إنه لا ينبغي أن تدخل شيئاً في المسجد الحرام غصباً، فقال له علي بن يقطين: يا أمير المؤمنين، إني أكتب إلى موسى بن جعفر عليهما السلام لأخبرك بوجه الأمر في ذلك، فكتب إلى والي المدينة أن يسأل موسى بن جعفر عليهما السلام عن دار أردنا أن ندخلها في المسجد الحرام، فامتنع علينا صاحبها، فكيف المخرج من ذلك؟ فقال ذلك لأبي الحسن عليه

السلام، فقال أبو الحسن عليه السلام: فلا بد من الجواب في هذا؟ فقال له: الأمر لا بد منه، فقال له: اكتب: (بسم الله الرحمن الرحيم، إن كانت الكعبة هي النازلة بالناس، فالناس أولى بفنائها؛ وإن كان الناس هم النازلون بفناء الكعبة، فالكعبة أولى بفنائها)، فلما أتي الكتاب إلى المهدي، أخذ الكتاب فقبله، ثم أمر بهدم الدار، فأتى أهل الدار أبا الحسن عليه السلام فسألوه أن يكتب إلى المهدي كتاباً في ثمن دارهم، فكتب إليه أن أوضح لهم شيئاً فأرضاهم.

• أقول: والروايتان مشتملتان على استدلال لطيف، وكأن أبا جعفر المنصور كان هو البادئ بتوسعة المسجد الحرام، ثم تم الأمر للمهدي.

ط. عن ابن شهرآشوب عن أمير المؤمنين عليه السلام في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٩٦] الآية، فقال له رجل: أهو أول بيت؟ قال: لا، قد كان قبله بيوت، ولكنه أول بيت وضع للناس مباركاً، فيه الهدى والرحمة والبركة، وأول من بناه إبراهيم، ثم بناه قوم من العرب من جرهم، ثم هدم فبنته العمالقة، ثم هدم فبناه قريش.

٤٨. وجوب الحج على المستطيع:

المقطع [٤٨] من سورة آل عمران، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٣/ ٣٥٣»:

١. ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾:

أ. الحج بالكسر (وقرئ بالفتح) هو القصد ثم اختص استعماله بقصد البيت على نهج مخصوص بينه الشرع، وقوله: ﴿سَبِيلًا﴾ تمييز من قوله: ﴿اسْتَطَاعَ﴾

ب. الآية تتضمن تشريع الحج إمضاء لما شرع لإبراهيم عليه السلام كما يدل عليه قوله تعالى حكاية لما خوطب به إبراهيم: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾، ومن هنا يظهر أن وزان قوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ﴾ الآية وزان قوله تعالى: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ في كونه إخبارا عن تشريع سابق وإن كان من الممكن أن يكون إنشاء على نحو الإمضاء لكن الأظهر من السياق هو الأول كما لا يخفى.

٢. ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾، الكفر هاهنا من الكفر بالفروع نظير الكفر بترك الصلاة

والزكاة فالمراد بالكفر الترك، والكلام من قبيل وضع المسبب أو الأثر مقام السبب أو المنشإ كما أن قوله: ﴿فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ﴾ الآية من قبيل وضع العلة موضع المعلول، والتقدير: ومن ترك الحج فلا يضر الله شيئا فإن الله غني عن العالمين.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ [آل عمران: ٩٧]، يعني به الحج والعمرة جميعاً، لأنهما مفروضان.

• أقول: ورواه العياشي في تفسيره، وقد فسر الحج فيه بمعناه اللغوي وهو القصد.

ب. وفي تفسير العياشي عن الصادق عليه السلام: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ [آل عمران: ٩٧] قال: ترك.

• أقول: ورواه الشيخ في التهذيب، وقد عرفت أن الكفر ذو مراتب كالإيمان، وأن المراد منه الكفر بالفروع.

ج. وفي الكافي عن علي بن جعفر عن أخيه موسى عليه السلام في حديث قال: قلت: فمن لم يحج منا فقد كفر؟ قال: لا، ولكن من قال: ليس هذا هكذا، فقد كفر.

• أقول: والروايات في هذه المعاني كثيرة، والكفر في الرواية بمعنى الرد، والآية تحتمله، فالكفر فيها بمعناه اللغوي وهو الستر على الحق، وعلى حسب الموارد تتعين له مصاديق.